العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

الإمام السرهندي
الإمام الدهلوي

تقديم

الدكتور مصطفى السباعي — الدكتور مصطفى الخن

الجزء الثالث - الجزء الرابع

دار ابن كثير

العلامة السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

رجال الفكر والدعوة في الإسلام

الإمام السرهندي

الإمام الدهلوي

تقديم

الدكتور مصطفى السباعي | الدكتور مصطفى الخن

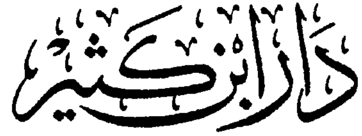
الجزء الثالث - الجزء الرابع

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم



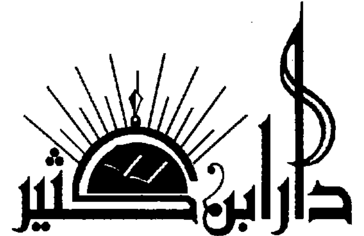
طبعة دار ابن كثير الثالثة
1428 هـ ـ 2007 م



للطباعة و النشر و التوزيع
دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي
الموضوع : تراجم
العنوان : رجال الفكر و الدعوة 4/1
التأليف : العلامة الشيخ ابو الحسن الندوي
نوع الورق : شاموا
ألوان الطباعة : لونان
عدد الصفحات : 1616
القياس : 17×24
نوع التجليد : كرتونيه
الوزن : 2.6 كغ

تصميم الغلاف : سامو برس - بيروت
التنفيذ الطباعي : مطبعة ipex - بيروت
التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجابي
ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 2243502
بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

الإمام السَّرْهنْدِي

(٩٧١-١٠٣٤ هـ)

الجزء الثالث

تعريب
الأستاذ سلمان الحُسيني النَّدْوي
أستاذ الحديث بكلية الشريعة وأصول الدين
في دار العلوم-ندوة العلماء (لكهنؤ)

هذا الكتاب

رأى المؤلِّف أنَّه إذا تمَّ هذا العملُ (الكتاب) بإخلاص وصفاء نية وجهود موفقة فإنَّه لا يكون عملاً نافعاً مستمراً فحسب ، بل سيكون ـ إذا قدَّر الله تعالى ـ هديةً قيمةً أو رسالةً حيةً للقرن الخامس عشر الهجري ، ووثيقةً تاريخيةً لمنجزات عبدٍ صالحٍ من عباد الله المخلصين ، قام بها في دأبٍ وصمتٍ ، وتواضع وخشوعٍ ، ولم يقتصر تأثيرُها على قرنٍ واحدٍ ، بل امتدَّ حتى شمل الألفَ الثاني كلَّه .

وهي تحملُ لهذا القرن الذي نفتتحه ـ والذي تغيَّرت فيه الأوضاعُ تغيُّراً كبيراً ـ درساً بالغَ العظة والاستفادة[١] .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

---

(١) من مقدِّمة الجزء الثالث لهذا الكتاب .

بين يدي الكتاب

الحمدُ لله رب العالمين ، والصلاةُ والسلام على سيد المرسلين وخاتَم النبيين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعدُ فإنَّ الحكاية يرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٤ ـ ١٣٥٥ هـ (٣٥ أو ١٩٣٦ م) حين أوصاني أخي ومُربِّيَّ الدكتور السيد عبد العلي الحسني ـ رحمه الله ـ أمينُ ندوة العلماء ـ سابقاً ـ بقراءة «رسائل الإمام الرَّباني مجدِّد الألف الثاني الشيخ أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي» وقد كنتُ ـ إذ ذاك ـ في الثانية والعشرين ، أو الثالثة والعشرين من عُمري ، وكنتُ انخرطتُ ـ حديثاً ـ في سِلك المدرِّسين بدار العلوم ندوة العلماء ، ولم يكن لي آنذاك اتجاهٌ كبيرٌ إلى الأبحاث العميقة في الحقائق الدينية ، وحقيقةِ الإحسان.

كما لم أكن على اطِّلاع على مُصطلحات القوم وتعبيراتهم ، بل كان يغلبُ عليَّ الذوقُ الأدبيُّ ، وغَرام بالكتابات الأدبية العربية ، والدراسات التاريخية ، وكنُت وَلوعاً بالكتب التي كانت تَصدُر من دُوْر النَّشر والمطابع الرئيسية في القاهرةِ وبيروتَ بطباعة أنيقة ، وفي مَظهر جميل جذّاب.

وقد كان أخي الأكبر ـ الذي كنتُ تَربَّيتُ في حِجره ، ونشأت في عَطفه وكَنَفه ، نشأة علمية وعقلية ـ يعرف هذه النَّزعة الموجودة عندي معرفةً جيدةً ، ولكن لعلَّه بإشارته عليَّ بقراءة تلك المجموعَة مِن الرسائل للإمام السَّرهندي

كان يُريد أن يذكِّرني بما امتازت به أُسرتي ، التي أنتمي إليها ، من أصالةٍ في الفكر ، وعُمق في البحث ، وتقديرٍ للقِيَم الروحية ، والمُثل الخُلقية .

وكانتْ أُسرتي منذ ثلاثةِ قرون ـ على أقلِّ تقدير ـ ذاتَ اتصالٍ وثيق ـ فكرياً ورُوحياً ـ مع أُسرةِ الإمام السَّرهندي ـ والإمام أحمد بن عبد الرحيم المشهور بوليِّ الله الدّهلوي .

وكانتْ عِندَنا في مكتبة والدي نُسخَةٌ عتيقةٌ من مجموعة «رسائل الإمام السَّرْهنديّ» صدَرتْ من إحدى المطابع الهندية ، وكانتْ هذه النُّسخة تشتمل على ثلاث مجلدات ، فبدأتُ بمطالعتها نزولاً على رغبة أخي الأكبر ، وبِدافع الطاعة له .

إلاَّ أنني لم أستطع المُضِيَّ في الطريق ، ولم أَصْبِر معها طويلاً ، حتى تركتُ الكتاب ، وقد كانت أكبَرُ مُعاناتي ، من الرسائل التي كتبها الإمامُ إلى شيخه ، ومُرَبّيه الروحي الشيخ الكبير عبد الباقي البَدْخَشِي الدِّهْلوي النقشبندي ، والتي شرح فيها تجاربه وخواطره الشخصية في مجال التربية والسلوك إلى الله ، ولكنَّ إلحاح أخي الأكبر وتوجيهه ـ باستمرار ـ إلى قراءة هـذه الرسائل ، وقراءة «إزالة الخفاء» للإمام ولي الله الدِّهلوي ، و«الصراط المستقيم» للسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، و«منصب الإمامة» للعلامة محمد إسماعيل الشهيد ، دَفعني إلى اجتياز هذه العَقبة ، مهما كلَّف ذلك من مَشقةٍ وعَنَتٍ ، وهاجَتِ الغِيَر في نفسي ، وتحمَّسْتُ وقلـت: لا يتسنّى لـي إهمال وَصيَّـة أخي الأكبـر ، وهو مَنْ هو في عَطفه وحنانه ، ثم يُسبِّب هذا الإهمالُ الحرمان من قـراءة كتاب مبارك ، عُـرِفَ كبارُ العلماء والمشـايخ الأجلاء بإجلاله وتقديره والعناية به .

وحالَفني التوفيقُ فمضيتُ ، وكلما ازددْتُ قراءة لهذه الرسائل ازددْتُ رغبة فيها وتَذوُّقاً لها ، وبدأت أُسيغ الموضوع في حدود علمي وقُدرتي على الفهم ، حتى أَخذ الكتاب بمجامع قلبي وأصبحتُ له أسيراً ، أَشعُر فيه بلذَّة غريبة ، وطعم لذيذ ، لا أكاد أَجده في الكتب الأدبية الممتعة .

وكانتْ هذه الفترة الزمنية من أَدقّ فترات حياتي ، فقد كان الزمن زمَن المراهقة الفكرية وشَرْخ الشباب ، والصّراع النفسي والعقلي ، لأسباب يطول ذكرها ، اعتوَرتني فيها بعض الابتلاءات القاسية ، فكان الكتاب في كلٍّ ذلك خيرَ مُرشِد وموجِّه ، فقد كنت أشعر أثناء قراءة الكتاب ، بِسَكينةٍ تَغشاني ، وتملأُ جوانحي ، وتَغْمرُ قلبي ، لعلَّها كانت جديدة عليَّ تماماً ، لم يَسْبِقْ لها في حياتي مثيلٌ.

وقد انتهى هذا السَّير الذي كنت أسير في الكتاب لمجرَّد طاعةِ أخي الأكبر ، والذي كان يَغلب عليه دافع الغيرة واتِّباع الأمر ، إلى سرور ونَشوة ، ومُتعة روحية.

ثم بعد مُدة يسيرةٍ من الزمن بدأتُ بقراءة هذا الكتاب مرةً ثانية ، أقصدُ فيها جمعَ ما تكرر وانتثر في مواضع مختلفة من الكتاب في موضوع واحد ، وفي مقصدٍ من المقاصد التي يتناولها الإمامُ ، ووضعَ العناوين لها ، وكانت الخطوة الأولى لهذا العمل إعداد فهرس جامع لموادّ الكتاب ومحتوياته ، كالتوحيد الخالص ، وإبطال الشِّرك ، وغير ذلك ، فتتبَّعتُ ما جاء في كلٍّ موضوع من هذه المواضيع ، وأشرتُ إليه بذكر الأرقام المتسلسلة للرسائل وأرقام الصفحات ، فبحثتُ ـ مثلاً ـ عن المواضع التي طرق فيها الإمامُ موضوعَ النبوة والرسائلَ التي جاء فيها الحديثُ عن السنة والبدعة ، أين تعرَّض لإبطال البدعة الحسنة ، وأنها ليس لها وجود ، وفي أيِّ الرسائل تناول البحث في «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» ، وفي أيِّها وردت الأبحاث العميقة في موضوع «العقل المجرد» و«الكشف المجرد».

وبالجملة ، فبعد أن اشتغلت بالفحص والتَّتابع عدةَ أسابيع تَهيَّأ لديَّ كشفٌ جامع لجميع المواضيع التي تعرَّض لها الإمامُ ، ووضعتُ هذا الكشف في داخل هذه النُّسخة من الكتاب على عزم ترتيب هذه المواد المنثورة في الكتاب تحت عناوين مختلفة ، ثم حدث أنَّ هذا الكتاب استُعير من المكتبة ولم يُعد إليها كما يَقعُ كثيراً ، وكان أَسفي على ذهاب الفهرس الذي أَجهدْتُ في وضعه

نفسي ، أكثرَ بكثير ـ بطبيعة الحال ـ من ذهاب تلك النسخة من الكتاب التي تُستبدل بها غيرها ، وكان أمر الله قدَراً مقدوراً.

ثم خطرت فكرةٌ في بالي ، وذلك حوالي ٦٤ ـ ١٣٦٥ هـ (٤٥ ـ ١٩٤٦ م) وهي أن أُرتِّب هذه الرسائل ترتيباً جديداً ، مُراعياً فيه المواضيع والأبحاث المختلفة ، وأقدِّمها بشرح وتعريف يتلاءم مع العقلية الجديدة للنَّشْء الجديد ، بحيث تكون أنفعَ وأشوق للقارىء الجديد ، وتُلقى فيه الأضواء على المآثر التجديدية للإمام السَّرهنديِّ ، وما كان يَتبوَّؤه في تاريخ الإسلام من مكانةِ الإمامة والاجتهاد.

فشرعتُ في هذا العمل ، وأحبَبْتُ أن أُقدِّم لكل فصلٍ بكلمة تمهيدية تُلَخِّص الفكرة الأساسية ، ولُباب التحقيقات العلمية ، والأبحاثَ الدقيقة المبثوثة في مختلف رسائله ، في موضع واحد ،ثم أُقدِّم مقتبسات الرسائل في تنسيق علمي ، وترتيبٍ موضوعي مفيد ، فأكتب على جانب من الصفحة متنَ الرسائل بالفارسية وعلى الجانب الآخر ترجَمتها الأُردية ، وأَذكر في الحاشية شرح الألفاظ الغريبة ، والمصطلحات العلمية ، وأُخرِّج الأحاديث ، ثم أسوق بعض ما كتب المتقدِّمون من كبار العلماء المحقِّقين ، مما يؤيِّد ماذهب إليه الإمام السرهندي ، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلاميذه ، وأئمة الإسلام ، عَبر القرون والأقطار.

وقد كان هذا العملُ واسعَ النطاق يتطلَّب مراعاة دقيقة للجوانب الكثيرة وتوفراً كاملاً على دراسة العلوم المتنوعة ، ولم يكن إنجاز هذه المهمة الضخمة بميسور على شابٍّ مثلي في مقتبل العمر ، تتنازع فيه الأعمال التدريسية مع الأشغال التأليفية ، مع الدَّعوة الشعبية ، والجولات المتصلة.

ولأَجل ذلك لم أستطع أن أُنجزَ من هذا العمل إلاَّ أبواب التوحيد والنبوة والرسالة ، ثم شغلتني الشواغلُ ، وصرفتني عن هذا العمل الصوارف ، إلاَّ أنَّ ما وفّقتُ إليه من العمل في هذه المدة كان ذا قيمة كبيرة وفوائد كثيرة ، ونشره

الصديق الفاضل الشيخ محمد منظور النُّعماني[1] في مجلّته الإسلامية الشهيرة «الفرقان» في أربع حلقات ما بين ٦٦ ـ ١٣٦٧ هـ.

وبعد أن انقطعتُ عن هذا العمل بأعوام ، حين بدأت بتأليف سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» شعرتُ بضرورة الكتابة في ترجمة حياة الإمام السَّرْهندي بصورةٍ مستقلة ، بدلَ أن أقوم بترتيبٍ جديد لرسائله ، وعَمَل مُرهق في تنسيق محتوياتها ، وموضوعاتها ، ثم لما نشر المجلد الثاني من «رجال الفكر والدعوة» وكان يتضمن حياة شيخ الإسلام ابن تيمية ، تَحتم عليَّ أن أبدأ بترجمة حياة الإمام السَّرهندي ، وأصبح لزاماً أن يُحلَّى بهذه الترجمة العظيمة المجلد الثالث من «رجال الفكر والدعوة» ، إذ أن هذا العصر المضطرب بالفِتن والثورات ، أحوجُ إلى ذلك بالنظر إلى بعض الجوانب الخاصة ، وأن تَنوير منهج الإمام السَّرهندي وحِكمته العملية لأبناء هذا العصر وقادة الحركات ، والتنظيمات الإسلامية ، الذين يُسرعون في تحدّي الحكومات والقوى السياسية ، ويُعلنون الحرب عليها من غير هوادة ومن غير استعداد وتَريُّث ، ويَجرُّونها إلى جبهة معارضة في بداية المرحلة وأول الطريق ، وتَحدُث في طريق الدعوة ، والعمل البنّاء ، عقباتٌ من دون ضرورة شديدةٍ ومبرّرٍ قويٍّ .

إنَّ عصرنا هذا يحتاج إلى هذه التجربة وإلى هذا المثال العلمي أكثر من كل عصر مضَى ، فكيف كان ـ يا ترى ـ ذاك المنهج الذي استطاع به إنسان أعزل لا يملك حَوْلاً ولا طَوْلاً ، وهو في زاوية من زواياه ، أن يُغيِّر مجرى التاريخ ويُحول وجهة الإمبراطورية المغولية ؟ .

لقد استرعى انتباهي ـ أوَّلَ مرة ـ إلى هذه الحقيقة العظيمة أحاديثُ أخي الأكبر ومجالسُه العلمية ، ثم عندما قرأتُ ذلك المقال العلمي المثير الذي دبّجه

---

(١) [أحد أكابر العلماء والدعاة في الهند ، صاحب مؤلفات قيمة بالأردوية ، توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٩٩٦ م].

يراع العلامة السيد مَناظِر أحسن الكيلاني[١] في مجلة «الفرقان» الشهرية الغراء ، العدد الخاص بالإمام المجدِّد السَّرهندي ، قَوي إيماني بهذه الحقيقة. وأنا بنفسي في كثير من مقالاتي وخُطبي ومحاضراتي[٢]، أوضحتُ هذه الحقيقة ، وأَشرتُ إلى هذه الناحية التجديدية ، ولا يزال هذا المنهج الرَّباني المؤثِّر ، هو المَنهج المُيسَّرَ الذي حقق من النجاح والتوفيق مالم يُحققه غيره ، وازددتُ ثقة به ، واعتماداً عليه ، على مرّ الأيام وطول الدراسة ، والعناء والبحث.

ولكنِّي كلما فكرتُ في إفرادِ كتابٍ لترجمة هذا الإمام اعترضتْني عقبتان:

أولاهما: أن أيَّ كتاب يتناول سيرة الإمام السرهندي لا يمكن أن يخلو من إثارة قضية «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» وشرحهما وإفهامهما للنَّشء الجديد ، والمقارنة بينهما ، وترجيح نظرية «وحدة الشهود» مع الأدلة العلمية ، والمناقشة الناقدة الدقيقة ، فحين كانت تتمثل لي هذه المهمة الضخمة تَكِلُّ عنها قواي ، ويَنصرف عنها قلمي لأمور:

---

(١) [أحد كبار العلماء في الهند ، وأوسعهم ثقافةً وأغزرهم علماً ، كان يمتاز بالذكاء الباهر ، ودقة الاستنتاج ، وتوليد المعاني ، وسيلان القلم ، والاطلاع الواسع على العلوم الدينية ، والتاريخ ، توفي ـ رحمه الله ـ عام ١٣٧٧ هـ (١٩٥٦ م) ، وله مؤلفاتٌ قيمةٌ بالأردوية].

(٢) كالمحاضرة التي ألقاها المؤلف في حفلة تكريم وترحيب، عقدتها جمعية شبان المسلمين في ٤ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠هـ بالقاهرة، حضرها عدد من علماء مصر، وأساتذة الأزهر، وأعضاء هيئة كبار العلماء وقادة الجماعات، بعنوان «الدعوة الإسلامية في الهند وتطوراتها» [انظر هذه المحاضرة بكاملها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدَّعوة» (جمع وإعداد المعتني بهذا الكتاب) (١/ ٣٧٥) ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ]، أو المحاضرة التي ألقاها في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة بعنوان «منهج أفضل في الإصلاح للدعاة والعلماء» [انظر هذه المحاضرة في كتاب «في رحاب الدعوة إلى الله» (إعداد المعتني بهذا الكتاب) ، طبع دار الفارابي بدمشق] في شعبان سنة ١٣٨٩هـ.

منها: أن هذا الموضوع قد تكوَّنت فيه مكتبة واسعة لا يَتيسَّر الاختيار منها، وتلخيصُها واختصارها.

ثم إن هذه القضية تحتاج إلى المباحث الفلسفية الدقيقة، وتفسير المصطلحات الفنية التي كثر فيها النزاعُ، وثار حولها الجدال، ولا يُمكن دون ذلك الخوض في الموضوع.

أَضِفْ إلى ذلك أن هذه القضية عملية ذوقية تجريبية، أكثَرَ منها نظرية وعلمية، تعتمدُ على أحاسيس ومشاعرَ خاصة، وتَجَارِب شخصية وليس المؤلِّف منها في عِير ولا نَفير، كما أن كثيراً من قراء هذا الكتاب لا يَجهلون هذه العلوم فحسب، بل يَنفُرون منها، ويَستوحِشون من ذِكرها، فما كنتُ أعرف تجاه هذه المشاكل طريق التغلب عليها، ومَن لي بالظَّفر في هذه المفازة الطويلة؟!.

وإذا تجرَّد الكتاب عن هذه الفصول المهمَّة - التي يَعتبرها بعض العلماء مجالاً حقيقياً لتجديده، ويتركز عندهم فيها سرُّ عظمته ومأثرته التجديدية - كيف يُعتبر الكتاب ترجمة جامعة لحياته، وتعريفاً كاملاً بأعماله؟

كان يعترضني، ويُمسك بعَنان قلمي عن الجريان، في هذا المجال وجُود مكتبة ضخمة في هذا الموضوع، وصُدور كُتب وبحوث حدثت بين آونة وأخرى، لا يتيسَّر للمؤلف زيادةٌ ذاتُ قيمة فيها، وقد غلبَ على ظنِّه أن كتابه لا يملأ فراغاً واقعاً في المكتبة الإسلامية.

وبعد طول تفكير وتردُّد ونظر، انحلَّتِ المُشكلة الأولى، فقلت: ينبغي أن آخذ بمبدأ «ما لا يُدرك كلُّه لا يُترك جلُّه» وأُقدم على جُلِّ هذه المصطلحات وشرحها مُستعيناً في ذلك بما جاء في كُتب الشُّرَّاح المحقِّقين من علماء المدرسة الفكرية للشيخ مُحيي الدين بن عربي، وما جاء في هذه الرسائل نفسِها من إشارات وتفسيرات، حتى يتيسَّر للقارىء الوُقوف على هذا العلم - بصورة إجمالية - ومَن أَحب أن يستزيد وساعده التوفيق يَرجعُ إلى المصادر الأساسية، أو يُراجع العلماء المتخصِّصين في هذا الفن، والغوَّاصين في

هذا البحر الزاخر ممن رسخوا في هذا العلم ، وتذوَّقوه وفقهوه ، «وقليلٌ ما هم» .

أمَّا العقبة الثانية ، فهي النَّظر إلى المكتبة العظيمة الواسعة التي تكوَّنت في سيرة الإمام السَّرهَندي ، والتعريفُ برسائله العظيمة ، ومآثره الخالدة ومناقبه الجمَّة ، وقد كنتُ أقف حائراً متهيِّباً أمامها ، أستصغر نفسي وأستبعد الزيادة فيها أو الإضافة إليها بشيء جديد ، وقد هَداني لتذليل هذه العقبة المثلُ العربي العلمي «كم ترك الأولُ للآخر» .

لقد تناول تجديد الإمام السرهندي وأعماله العظيمة ، الكثيرُ من الكُتّاب والمؤلِّفين ، وكَتبوا في هذا الموضوعِ الشيءَ الكثير ، ولكن لاَ يزال هناك جوانبُ بحث وتحقيق تحتاج إلى رفع اللِّثام ، ومِسك الختام ، ومغامرةٍ جديدة واقتحام .

ثم إنَّ تغيُّر الأساليب ، وطرائق البيان ، وتَغَيُّر الأوضاع والظروف ، والمُثُل والقِيَم ، والمناهج في الإفهام والتعبير ، يَجعل الكتبَ التي أُلِّفت قبل مدة من الزمن ـ في بعض الأحيان ـ في حاجة إلى نقل وتعبير جديد ، كأنَّها كانت مكتوبة بلُغة أخرى ، كما أن كل مؤلِّف له طريقته ومنهجُه في الاستنتاج من الوقائع والاستنباطِ من الأحداث ، ورَبط النتائج العلمية بالأسباب المؤثرة .

ورَأى المؤلِّف أنه إذا تم هذا العمل بإخلاص وصفاء نية وجهود مُوفَّقة ، فإنه لا يكون عملاً نافعاً مستمراً فحسب ، بل سيكون ـ إذا قدَّر الله تعالى ـ هَديَّة قيمة ، ورسالة حَيَّة للقرن الخامس عشر الهجري ، ووَثيقة تاريخية لمنجزات عبدٍ صالح من عباد الله المُخلصِين ، قامَ بها في دأب وصمت ، وتواضُع وخُشوع ، ولم يقتصر تأثيرُها على قرن واحد ، بل امتَّد حتى شَمِل الألف الثاني كُلّه ، وهي تحمل لهذا القَرن الذي نَفْتَتِحُه ، والذي تغيرت فيه الأوضاع تَغيُّراً كبيراً ، درساً للعظة ، والعِبرة ، والاستفادة .

وإنَّ قلبَ المؤلِّف وقلَمه يلهجان بشكر الله تعالى وبحمده ، والثناء عليه

إذ وفَّقه بعد فترة طويلة دامت ربع قرن [١] ، لاستئناف سِلسلة «رجال الفكر والدعوة» ، وتأليفِ الجزء الثالث منها ، وقد طَالتْ هذه الفترة حتى خاف المؤلِّف أن ينتهي الأجلُ دونَ استكمال هذه السِّلسلة الطيبة التي باركها الله تعالى ، ونفع بها خلقاً كثيراً.

وكان هذا الجزء الثالث يبحث عن الشَّخصية الفريدة التي حازت من القبول والعظَمة والصِّيت البعيد في جهوده الموفّقة لتجديد الدين ،ما لمْ يَحظَ به أي مصلح وداعٍ في تاريخ الإصلاح والتجديد في القرون الأخيرة ، حتى إن اشتهاره بـ «مجدِّد الألف الثاني» طَغى على اسمه ، وحلَّ محلَّه ، ولا يعرفه كثير من المثقَّفين إلاَّ بهذا اللقب.

هذا في جانب ، وفي الجانب الآخر كُتب لجهوده التجديدية العظيمة من النجاح والتوفيق، ومن النتَائج الباهرة المستمرة، ما ينْدُر نظيرُه في تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام، كان ذلك يَحُثُّني على وضع هذا الكتاب.

كما أنَّ إلحاح القُرَّاء لسلسلة «رجال الفكر والدعوة» والمقدِّرين لفضلها بلغ من الجد والصرامة حتى دفعني إلى التفكير في إكمال هذا الجزء بأسرع وقت ممكن ، بل إنَّ كثيراً من أصدقاء المؤلِّف المخلصين ممن يمتازون بدراسة هذا الموضوع والتعمُّق فيه ، كانوا يُشِيرون عليَّ بأن أتفرّغ لهذا الموضوع تفرغاً كاملاً وأقدّمه على سائر الأعمال التأليفية الأخرى.

ولكنَّ مُعالجة هذا الموضوع لم تَكُنْ بالأمر الميسورِ كما كان يبدو لكثير من الناس ، فما كان يُغني ـ نظراً إلى مُقتضيات العصر الحاضر ، والمقاييس الجديدة للبَحثِ والدراسة والتحقيق ـ أن يَقتصر على عرضٍ وتلخيص واختيار ، مما جاء في كُتب التاريخ والتراجم القديمة.

---

(١) كان صدور المجلد الثاني من «رجال الفكر والدعوة» وهو خاص بسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية، ودوره في الإصلاح والتجديد، سنة ١٣٧٧هـ (١٩٥٧) وقد تأخر صدور ترجمته بالعربية إلى سنة ١٣٩٥هـ (١٩٧٥م) فكان بين تأليف الجزء الثاني والثالث فترة ثلاث وعشرين سنة.

بل كان الموضوع يحتاج إلى دراسة العصر الذي عاش فيه الإمام السَّرْهَندي وخلفياته ، والبيئة التي تربَّى فيها ، والأجواءُ التي قام فيها بدوره التجديدي ، عِلمياً وتاريخياً ، وسياسياً وخُلقياً ، واجتماعياً وعقائدياً ، دِراسة ناقدة دقيقة.

فما هي الحركاتُ التي كانت تعمل آنذاك ؟ .

وكيف كان الاضطراب الفكري ، والقَلَق الديني سائداً في الهند ، وما يُجاورِها من البلدان ؟ وكيف بَدتْ طلائعُ الثورة على الشريعة والسُّنة في الأوساط العِلمية والعقلية؟ .

وما هي تلك المُؤامرات والدَّسائس التي كانت تُحاك حول الإسلام، وما هي تلك الأماني اللذيذة، والأحلام المعسولة التي رَاودتْ كثيراً من المغامرين الطموحين ، لقُرب انتهاء الألف الأول من التقويم الإسلامي وغَرستْ شكاً وارتياباً في القلوب المريضة ، والنفوس القَلِقَة ، فكانتْ فتنةُ الفلسفة والعلومِ العقلية في جانب ، وفتنة الإشراق والباطنية التي حاولت النَّيل من عظمة النبوة والرسالة المحمدية ، وادَّعت أن العمل والفلسفَة ، والرِّياضيات الشاقة ، والمُجاهدات الرهبانية ، وقَمْعَ الشهوات النفسانية ، كفيلٌ بمعرفة الله معرفة صحيحة ، والوصول إليه ، ونَيل الحُظْوة عنده ، والنجاة من عذابه ، وما جَرَّتْهُ عقيدة «وحدة الوجود» المتطرفة من حُرِّية مطلقة ، وإلحاد وزندقة ؟ .

زِدْ إلى ذلك أنَّه لم تَعُد في هذا العصر للسنة النبوية ، والشريعة الإلٰهية أهميةٌ ومكانة إلاَّ عند القليل من العلماء الراسخين ، والمشتغلين بعلوم السنة والحديث ، وسيطرت البِدَعُ ـ بصورة عَلنيَّة ـ تارة ، ومُستترة بستار «البدعة الحسنة» أخرى ـ على المجتمع المسلم ، وسرت أدواؤُها في حياة المسلمين العملية ، ولم يكن هناك من يَتشجَّع على مُقاومة فكرة «البدعة الحسنة» .

وأَدهى من كلِّ ذلك وأَمَرُّ أن الإمبراطورية المغُولية العظيمة ـ التي كانت تلي

الإمبراطورية العثمانية في السَّعة والقوة [١] والمجتمع الكبير الذي كان يعيش تحت ظل هذه الإمبراطورية ـ بدأت وجهتُها تتحول ـ بتأثير بعض الأغراض الشخصية ، والميول والاتجاهات الفردية ، والتأثيرات الخارجية والمصالح السياسية المزعومة ، من الارتباط بالدين الإسلامي ، والتمسُّك بأَهداب النبوة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ وتمثيل الحضارة الإسلامية ، إلى الفَلسفة البَرْهَمِيَّة ، والحضارة الهندية ، ونظرية «وحدة الديانات» [٢] .

وكان في مُقدَّمة المخطِّطين لهذه السياسة والمدبّرين لهذه المؤامرة ، من يُعتبر من نوابغ هذا العصر ذكاءً وعلماً ، وعَبقرية أدبية وعقلية ، فكانوا يهتفون بأعلى صوتهم «قد أظلَّ العالَمَ الإنساني ـ بما فيه العالم الإسلامي ـ بدخول الألف الثاني ، عصرٌ جديدٌ ، يحتاج إلى دستور جديد للحياة ، وقِيادة جديدة فَتية للمجتمع البشري والإسلامي» .

فكيف تغلَّب الإمامُ على هذا الوضع الشَّاذ ، وكيف غيَّر هذا التيار الجارف؟ وكيف كانت عملية «صناعة الرجال» وصُنع العبقريات ، في زاوية بعيدة عن صَخَب الحياة ، وما هي تلك التربية الخلقية ، والتزكية الربانية التي تخرَّج في مدرستها رجالٌ يتجمَّل بهم التاريخ ، والذين أَلْقوا رحالَهم في مختلف أقطار الهند ، واتخذوها مركزاً وقاعدة لنشاطهم الدَّعَوي وعملهم التربوي ، وانتشر كثير منهم في أفغانستان وتركستان ، وامتدُّوا إلى العراق والشام ، ورحلوا إلى الحجاز وتركيا ، فقاموا بجهود جبَّارة ، وحركة قوية مُنتجة لإعلاء كلمة الله ،

(١) كانت الإمبراطورية المغولية تلي الإمبراطورية العثمانية في الرقعة، والقوة العسكرية، والوسائل والذخيرة، وكانت حدودها تمتد في بنغال الشرقية إلى حدود أفغانستان الغربية.

(٢) يعني أن الأديان كلها سواء، وكلها طرق موصلة إلى الله، تتحد في الغاية والصحة،وتختلف في بعض المظاهر والشعارات، وتسمي الله بأسماء مختلفة تتفق في الحقيقة والجوهر، ولاتزال لها دعوة قائمة يدين بها ويدعو إليها بعض كبار المفكِّرين والزعماء السياسيين القوميين في الهند، ولعلَّ الزعيم غاندي كان من أصحاب هذه الفكرة.

وإحياء السُّنن المماتة ، والذَّبِّ عن الشريعة الغرَّاء ، ومُقاومة البدع والمنكرات ، وإزالة الآثار التي خَلَّفها دعاة «وحدة الوجود» المتطرِّفون ، والصوفية المتحرِّرون المنحرفون ؟ .

وخلاصةُ جُهودهم أَنَّهم نفخوا روحاً جديدة في المجتمع المسلم لعبادة الله وحدَه ، وابتغاء مرضاته ، وتعظيم شريعته ، وحرماته ، ولم يزالوا على هذا الدَّرب ثلاثةَ قرون متوالية ، مُواصِلين جهادهم وجهودهم بقوةِ إرادة ، وعُلُوِّ همة ، وانصراف تامٍّ ، حتى شمل تأثيرهم العالَم الإسلامي كُلَّه ، فلا تجد بُقعة من بقاع العالم الإسلامي إلاَّ وتشهد فيها آثارُهم وثمرات جهودهم ، وحُقَّ لهم أن تُنسب هذه القرون الثلاثة إلى إمامتهم وقيادتهم وتربيتهم ، وعندما يشهد المؤرِّخ المُنْصِف هذا التأثير العالمي العظيم ، يَمتلىء قلبه إعجاباً بهذه الشخصية الفريدة ، التي غيَّرت مجرَى التاريخ .

وقد كان ممَّا ينبغي ملاحظته بهذا الصدد والعناية به لمؤرِّخ حاذق ، أمران آخران :

أوَّلهما : أنه لا ينبغي الاقتصار في إلقاء الضوء على عصر الإمام السَّرْهنْدِي ، وتصوير الفترة التي تربع فيها الملك جلال الدين أكبر التَّيْمُوْرِي عرشَ المملكة الهندية العظيمة في كتاب «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البَدَايُوْنِي (١) ، وعلى تلك المراجع التاريخية التي وُصِفت في الأيام الأخيرة

(١) كان العلامة عبد القادر بن ملوك شاه البدايوني (م ١٠٠٤) مؤرخاً أميناً، دقيق الملاحظة والنظر، مؤلفاً شجاعاً، لايحابي أحداً، (اقرأ ترجمته في الجزء الخامس من «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله) وقد انتقد الإمبراطور «أكبر» انتقاداً لاذعاً، وصوره تصويراً لا يرضي متملقيه ومطريه، من أنصار التسامح الديني المزعوم الذي اشتهر به «أكبر» والدعوة إلى الدين الإلٰهي (وبالأصح الأكبري) التي قادها، وتزعمها، من المؤرخين «العلمانيين» الأحرار في هذا العصر، وقد قاموا بحملة هوجاء ضد البدايوني وكتاباته، وقللوا من قيمة الكتب التي تعتمد على شهاداته ومعلوماته.

وقد رأى المؤلف من المصلحة أن لايعتمد هذا الكتاب الجديد على ماجاء في كتاب =

بأنّها أُلِّفتْ تحت ضغط عواطف دينية حادة ، أو من وجهة نظر خاصة وتواضعت على تصوير عهد الملك أكبرَ تصويراً قاتماً مظلماً ، بل ينبغي الاستفادة من كُتب أولئك المؤرِّخين المحايدين أو من تقريرات أولئك المحرِّرين وأصحاب الأقلام في البلاط الملكي ، الذين لم يكونوا ممن يخالفون الملك أكبر فحسب ، بل كانوا يدَافعون عنه ، ويَدعون إلى أفكاره وأهدافه ، وكانوا مُعْجَبين بدستور الدولة الذي وضعه ، كما أنهم يتغنون بفضله وعبقريته ، ومواهبه الفذَّة.

وينبغي أن نَدرس تلك التطورات والتغييرات ، التي بَدَأتْ من عَهد الملك جهانكير ، وتكامَلَتْ في عهد السلطان أَوْرَنْكَ زَيْب عَالَمْكِيْر ، دراسةً تاريخية ناقدة ، ويُستفاد في ذلك من كُتب مُؤرِّخي الهند المحايدين ، ونُبرهِن على هذه الدعوى في ضوء كتاباتهم ، لا في ضوء كتابات المؤلفين عن الأُسرة المجدِّدية والمؤرِّخين المتحمسين لهذه القضية ، حتى تكون الدراسة محايدة منصفة للفريقين.

وكان من اللَّازم أيضاً أن تُستعرض تلك الكُتب والمقالات التي ظهرت في الخمسينيات الأخيرة من هذا القرن عن الإمام السَّرهندي باللغتين الأُردية والإنجليزية في الهند وخارج الهند ، وفي بعض هذه الكتابات تحدَّى المؤلِّفون كثيراً من الحقائق المعروفة ، وأثاروا أسئلة جديدة ، وعَرضوا صورةً ـ لاستنتاجهم من الوقائع والأحداث على مَنهجهم الخاص ـ تختلفُ كل الاختلاف عن تلك الصورة الوضَّاءة النَّيِّرة التي دَأب أكثـرُ المؤرِّخين على إبرازها وعرضها ، ولا يستلزمُ ذلك أن يُسمَّى كلّ واحد من هؤلاء المؤلِّفين والكتاب ، ويُردَّ على دعاويهم واحداً واحداً ، بل إنَّ هذه السيرةَ المعروضة للإمام السَّرْهندي عرضاً جديداً ، وهذه الدراسةَ لأعماله التجديدية ، وعصرِه

= «منتخب التواريخ» للبدايوني فحسب، لئلا يتخذ ذلك المغرضون وسيلة للحط من قيمة كتابه العلمية والتاريخية، فاستشهد في وصف «أكبر» وعرض عقائده واتجاهاته وتقنياته على بيان أصدقائه، ورجال بلاطه الأوفياء المتشيعين له.

وبِيئته ، سوف تكونُ رداً حاسماً على شُبهاتهم وتفنيداً لدعاويهم .

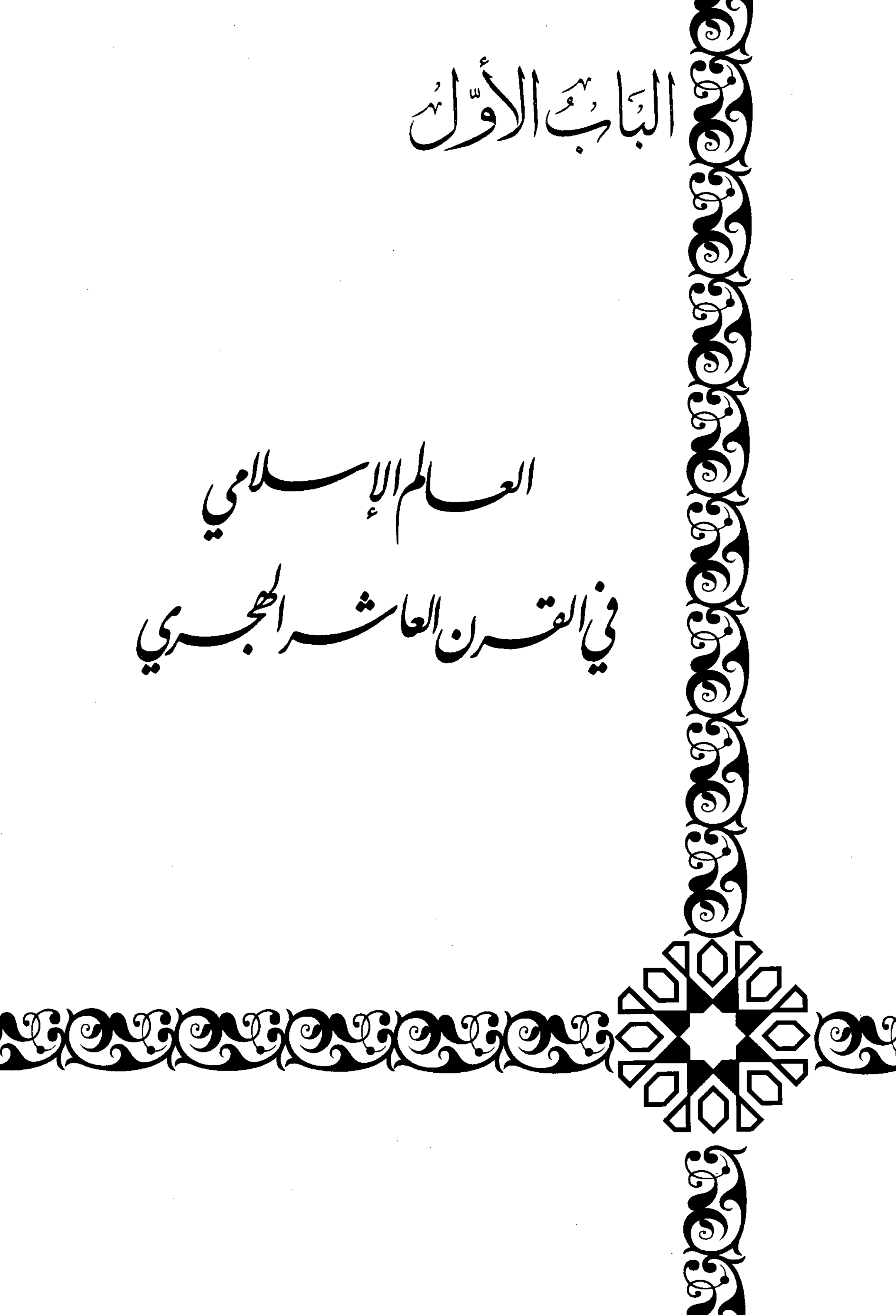
وإنّني ـ مع زَحمة الأشغال، وكثرة الأسفار داخل البلاد وخارجها، وقلة المُساعِدين في هذا العمل ـ حاولتُ جهدي أن يَظهر هذا الجزء من سلسلة «رجال الفكر والدعوة» الذي يشتمل على حياة الإمام السرهندي ومُنجزاته وأعماله، يحمل مواد جديدة، لم تُعرض بعد، ونتائج جديدة، تدعو إلى التفكير والتأمل، وتبعث على الأمل والتفاؤُل، لعلَّنا بذلك نقوم ببعض واجبنا نحو هذا العصر، ونُحقِّق بعض متطلباته، ونَستقبل به القرن الخامس عشر الهجري.

وإلى القُرَّاء هذا الكتاب ـ الذي أُلف في لغة أردو ـ مَنقولاً إلى اللغة العربية، وقد قام بعملية الترجمة والتعريب ـ العسيرة الدقيقة لاختلاف نفسيَّتي اللغتين ومحيطهما، ودِقة الموضوع ـ العزيزُ السيد سلمان الحُسيني الندوي ـ بارك الله في حياته ونفعه ونفع به ـ خيرَ قيام، وقد أنجزَ العملَ وأَتمَّه في مدة قريبة، فله دُعاء المؤلِّف وشكر القُرَّاء، والأجرُ من الله الكريم. وما تَوفيقي إلا بالله عليه توكَّلتُ وإليه أنيب.

٢٦/ جمادى الأولى ١٤٠٠هـ
١٣/ أبريل ١٩٨٠م

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دارة الشيخ علم الله الحسني ، رائي بريلي



الباب الأول

العالم الإسلامي في القرن العاشر الهجري

العَالمُ الإسلاميُّ في القَرن العاشر
أَهميَّةُ الدراسةِ التَّاريخية
للقَرن العاشرِ الهِجْري

وُلد الإمام السَّرْهِندي في شوال عام ٩٧١ هـ ، وتُوفي في صفر عام ١٠٣٤ هـ ، وهكذا يحتوي عصره على التّسع والعشرين سنةً الأخيرة من القرن العاشر ، وما يُقارب الثلاث والثلاثين سنةً الأولى من القرن الحادي عشر ، فالذي يُؤرِّخ عصره وحياته ، ينبغي أن يُعنى بهذه الثلاث والستين سنة إذ هي مُدة حياته ، وهي التي تمتدُّ من الثُّلث الأخير للقرن العاشر ، إلى الثُّلث الأوَّل من القرنِ الحادي عشر .

ولكنْ ليست وِلادةُ إنسان ـ مهما امتاز به من قوة الشخصية ، وتأثيرٍ في عهده وبيئته ـ بدايةً حتميةً لعهد جديد ، يَبرز من كَتم العَدم إلى حَيّز الوجود ، كما أنه ليس من المعقول ألاَّ تُؤثِّر فيه تلك الوقائع والأحداث ، والعواملُ التاريخية ، والخلفيَّات العلمية والعقلية ، والقوى المسيطرة ، والحكُومات الموجودة التي كانت تعمل عملها قبل أن يُولد ، وكانتْ تَترك على البيئة والمجتمع آثاراً كبيرة .

ولذلك فإنه يُحتَّم علينا عند الحديث عن حياة الإمام السَّرهندي ، ودراسة أعماله الإصلاحية والتجديدية ، وإدراك طبيعة عصره ، وتقييم ما كان يُواجِهه

في عمله التجديدي من صُعوبات وتسهيلات ، والمقارنة بينه وبين غيره ، أن نَدرس العالَم الإسلاميَّ ـ كما كان في عصره ـ سياسياً ودينياً ، وعلمياً وخلقياً ، ذلك العالم الإسلامي الذي واجهه الإمامُ مُنذ عَقَلَ وبدأ يَعي ويشعر ، والذي كان عليه أن يقوم فيه بدوره التَّجديدي الإصلاحي الذي حوَّل تيار الحوادث ، وأَرْغَم التاريخ على أن يَنحو نحواً جديداً ، واستحقَّ به ـ عن جدارة كاملة ـ أن يُلقَّبَ بمُجدِّد الألفِ الثاني.

وينبغي ـ ونحنُ في هذه الدراسة ـ ألا نُغفِل حقيقةً ذات شأن ؛ وهي أنَّ العصر الذي يولد فيه الإنسانُ ، والعالَم الذي يُعاصِره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنَّهر الجاري ، تَتَّصل كلُّ موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتّسق معها ، فلا يمكن ـ لأجل ذلك ـ أن يَبقى بلدٌ ـ مهما كان بعيداً نائياً ، يعيش في عزلة عن سائر العالم ـ غير متأثر بالأحداث الخطيرة والثَّورات العظيمة ، والقُوى المتحاربة ، والحركات المؤثِّرة القوية ، التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، لا سيَّما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطوُّرات ، بلداً يُشارِكه في العقيدة والمذهب والمَشرب ، ويُجاوِره في المكان ، ولذلك لا يَجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند فحسب ، بل يَلزمه أن يلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كله في القرن العاشر ، لا سيَّما البلدان المسلمة المجاورة ، التي كانت بينها وبين الهند أواصرُ علمية ، ودينية وحضارية ، وكانت تصل إليها لفحاتها الشديدة اللاذعة ، ونفحاتها الرَّخِيَّـة الناعمة ، على بُـعْد الدار وطول المسافة.

* * *

أ ـ الوَضْعُ السِّياسي

١ ـ الدولة العثمانية:

لقد نال الشرق الأوسط ـ وهو المنطقة المركزية للعالم الإسلامي ـ في أوائل القرن العاشر ـ بعدَ زمن طويل ـ (ولعلَّه بعد السلطان صلاح الدين الأيُّوبي المتوفى ٥٨٩ هـ) استقراره السياسي ، واجتمعتِ البُلدان العربية الواقعة في آسيا الغربية تحتَ الراية التي كان رافعوها يعتزون بلقب «حامي الإسلام ، وخادم الحرمين الشريفين ، وحارس المسلمين» وكانوا قد نفخوا في الخلافة الإسلامية ـ التي عادت في مصر كالبابوية النَّصرانية بعد استشهاد آخر الخلفاء العبَّاسيين «المستعصم بالله» عام ٦٥٦ هـ ـ حياة جديدة ، ولوكان ذلك تحت مصالِحِهم السياسية ، فقد فتح ياوَزُ السلطان سليم الأولُ مؤسِّس الخلافة العثمانية ـ ٩١٨ ـ ٩٢٦ هـ بلادَ الشام عام ٩٢٢ هـ ، ومصرَ عام ٩٢٣ هـ ، التي كانت تحت حكم المماليك منذ قرنين ونصف قرن من الزمان ، وكان حاكمُ مصر ـ حين زحف إليها السلطانُ سليمَ ـ قانصوه الغَوْري ، وأعلَن السلطانُ سليم في نفس سنة ٩٢٣ هـ إعادَة الخلافة ، وأنه خادم الحرَمين الشريفين ، ووُصِّيَ أميناً عليهما من قبل المسلمين.

ودَخلت بعد ذلك جزيرة العرب ، ثم البلدان العربية الإسلامية ، الواقعة في إفريقية الشمالية ـ عدا المغرب ـ تدريجياً تحت حكم السلطان سليم ، ثم تحتَ حكم خليفته السلطان سليمان القانُوني ، (٩٢٦ ـ ٩٧٤ هـ) الذي يَذكره المؤرِّخون الغربيون باسم (Sulaiman The Magnificent) يعني سُليمان الكبير العظيم.

وقد كان عَهد سليمان ـ الذي وُلد الإمام السَّرْهَندي قبل وفاته بثلاث

سنوات ـ عهدُ ازدهار الإمبراطورية العثمانية ورُقيِّها ، إذ كانت تُرفرِف رايتُها على النِّمسا والمجر في أوربة ، وتزحَف جيوشها المنتصرة ـ في جانب آخر ـ إلى إيران ، وكانت العراق كذلك ، مثل الشام ومصر ، انضمت إلى مملكته الواسعة ، فكان حاكماً لأكبر إمبراطورية على الأرض في عصره ، أما في عهد السلطان مُراد الثالث ٩٨٢ ـ ١٠٠٤ هـ فقد اشتملت مملكته على جزيرة قُبرص وتونس ، وعددٍ من ولايات إيران ذات الخَصب والرَّيع الكثير ، واليمن.

وتمَّ في عصره عام ٩٨٤ هـ بناءُ الحرم المكي الشريف ، وكان الإمام السَّرْهندي ـ إذ ذاك ـ قد بلغ سِنَّ الشعور ، وليس ببعيد أن يكون على علم بهذه الأحداث ، وطبيعيٌّ أن يكون المسلمون في ذلك العصر ـ ولو كانوا مسلمي الهند ـ يشعرون بفرح واعتزاز إزاء فتوح الدولة العثمانية ، واتِّساع رقعتها ، وقد كان الأتراك العثمانيون معروفين بصلابتهم في العقيدة السُّنِّية وتمسُّكهم بالمذهب الحنفي ، الذي كانت تدين به أكثرية مسلمي الهند.

٢ ـ الدولة الصفوية:

وظَهرتْ في بداية هذا القرن عام ٩٠٥ هـ الأسرةُ الصفويةُ في إيران ، وكان مؤسس الدولة الصفوية الشاه إسماعيل الصَّفَوي ٩٠٥ ـ ٩٣٠ هـ ، وقد أحكمت هذه الأسرة ـ تدريجياً ـ استيلاءَها على هذه المنطقة كلها ، واستقلتْ استقلالاً تاماً ، وكانتْ حكومة قوية إزاء الدولة العثمانية ، وقررتِ المذهب الإماميَّ الجعفري ـ خلافاً للدولة العثمانية ـ مذهب الدولة الرسمي ، واستخدَم إسماعيل الصَّفوي كل الوسائل ، واستغلَّ السلطة لنشر هذا المذهب ، والدعوةِ إليه ، وحاز في سبيل ذلك نجاحاً عظيماً منقطع النظير في تاريخ الحكومات التي تُعنى بتحويل الاتجاه الديني للمصالح السياسية ، فأصبحتْ هذه الحكومة ـ بعد أن أقامت على حدودها سوراً بشرياً يقوم على الخلاف المذهبي ـ بِمَعزل عن أن تَذوب في دولة العثمانيين التي انتشر فيها من يُشارِكهم في المذهب السُّنِّي الحنفي ، من القسطنطينية إلى لاهُور ودِلْهي ، وكانتِ الأسرة الصفوية تحكم من بَغداد إلى هَرات.

وكان شاه عباس ٩٩٥ ـ ١٠٣٧ هـ الذي هو أعظم سلاطين هذه الأسرة ، ويُعرف في التاريخ بشاه عباس الكبير ، والذي يَستحق لأعماله البنائية أنْ يُدْعى شاهجهان [١] أسرتهِ ، مُعاصراً للإمام السرهندي ، وقد بلغت الدولة الصفوية في عصره أوجها ، وذُرْوة مجدها ، فحاربَ الأتراك ، واحتل نجفَ وكربلاء ، وكان هو معاصراً للملك جلال الدِّين أكبر ، والملك نور الدين جِهَانْكِير ، وأُصيبت هذه الأسرة بعد شاه عباس بالضعف والزوال .

٣ ـ تركستان:

وكانت البُقعة الثانية من بقَاع العالم الإسلامي الهامة بلادَ تركستان التي دامت لقرون طويلة مركزاً للحضارة الإسلامية ، والثقافة العربية الدينية ، وتُعرف في الكتب القديمة بـ «ما وراء النهر» وكانت لها مُساهمةٌ كبيرةٌ ـ بعد العراق ـ في تدوين الفقه الحنفي ، وخلَّفت عدداً من الكتب القيِّمة الخالدة [٢] ، التي لا تزال مُقرَّرة في منهاج الجامعات الإسلامية في الهند .

ونشأتْ فيها الطريقةُ النقشبنديةُ ـ التي يَنتسب إليها الإمام السَّرهنديّ وشيوخه ـ ونَمتْ وترعرعتْ وانتشرت منها في أجزاء العالم الإسلامي .

لقد دخلتْ هذه البلاد المخصبة الغنية بالثروات والعبقريات في حكم الأسرة الشَّيبانية فرع الأُزبكية في بداية القرن العاشر عام ٩٠٥ هـ ، وبقيتْ تحت سُلطانهم من تلك السَّنة إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي ـ إلى ثورة روسيا البلشفية ـ إلا فترةً قصيرة حمل فيها الملك ظهير الدين بابَر التَّيمُوري بمساعدة الصَّفويين ، على ما وراء النهر ، وسيطرَ على سمرقند عاصمتِها ـ آنذاك ـ.

---

(١) هو الإمبراطور شهاب الدين شاهجهان بن جهانكير التيموري (م ١٠٧٥) باني التاج محل في أكره ، المسجد الجامع الكبير في دلهي.

(٢) كـ «هداية الفقه» للمرغيناني، و«شرح الوقاية»، وغيرهما لصدر الشريعة، وظلاّ مقررين في المنهج الدراسي طوال قرون.

ثم أصبحت «بُخارى» في القرن العاشر عاصمةَ الدولة الشيبانية في عهد الملك عبيد الله بن محمد ٩١٨ ـ ٩٤٦ هـ، والملك عبيد الله بن إسكندر ٩٦٤ ـ ١٠٠٦ هـ، وعادتْ بسببها بخارى ـ مرة ثانية ـ مركزاً للحياة السياسية والفكرية.

٤ ـ أفغانستان:

وأقربُ البلدان المجاورة للهند الذي يقع غربيّها، هو أفغانستان، تداول الحكمَ عليها في بداية القرن العاشر أزابِكةُ تركستان، وصَفَوِيُّو إيران وغيرهما من الغُزاة الطامحين المحليين، في فترات متخللة بين حكم الأسرتَين المتقدم ذكرهما، وكان يحكم «كَابُل» و«قَنْدَهَار» المغول تارة، والإيرانيون أخرى.

وأمّا هرات فلوُقوعها على حدود إيران كانت أكثر الأحيان تحت سلطة الأسرة الصفوية.

وفي عام ٩٢٨ هـ فتح الملك بابر «قَنْدَهَار»، ثم لما أسَّس الدولة التيمورية في الهند، جعل مقرَّه كذلك في الهند، وكان يحكم من هناك ولايات «كابر» و«بَدَخْشَان» و«قندهار».

وافتتحت أفغانستان ـ في ذلك الوقت تحتَ تأثير دولتين عظيمتين قائمتين في الهند، وإيران ـ عهداً جديداً، أقرب إلى الأمن والتنظيم، وكانت أن انقسمت بين هاتين الدولتين، فدخلت ولايتا هرات وسِيْسَتَان في إيران، وإن كانَ الأزابكة يحملون عليهما حيناً لآخر، وأصبحت «كابل» جزءاً من الدولة المغولية، وكانت قندهار يتداول السلطة عليها المغول والإيرانيون، وأنشأ الحاكم سليمان مِرْزا ابن أخي الملك بَابر ـ الذي ولاّه بابر ولاية بدخشان ـ في شمال كَوْهَسْتَان حكومة شبه مستقلة.

أمّا ما عدا هذه الولايات من سائر المناطق، فكانتْ تحت حكم الشَّيبانيِّين، وفي عام ٩٦٥ هـ احتل طَهْمَاسَب ملك إيران، ولاية «قندهار» واستمرتْ تحت احتلال الإيرانيين إلى عام ١٠٠٣ هـ، ثم سلَّمها وليُّ العهد

مظفر حسين عام ١٠٠٣ هـ إلى الملك أكبر ، ومن ثَمَّ كانت أفغانستان ولايةً من ولايات الدولة المغولية في الهند ، ودامَ الحال على ذلك إلى القرن الثاني عشر حتى زالت دولة آلَ بابَر التي استمرت مئتين وأربعين ٢٤٠ عاماً على أيدي نَادِر شَاه أَفْشَار عام ١١٥١ هـ.

٥ ـ الهند:

ولمَّا بدأ القرن العاشر كانت الأسرة اللُّودِهيَّة تحكم الهند ، وقد قُتل آخر ملوكها إبراهيم اللُّودهي عام ٩٣٢ هـ ، على يد مؤسِّس الدولة المغولية الملك ظهير الدين محمد بَابَر الكُوركاني (٨٨٨ ـ ٩٣٩ هـ) ، وتأسَّست على أنقاض الدولة اللودهية : المملكُة المغولية ، التي كانت من أكثر دُول الهند استحكاماً وتنظيماً ، وأوسعها رقعة ، وأطولها عمراً.

كانت الأسرة اللودهية ـ لتمسُّكها بالتقاليد الأفغانية ، والنَّسَب الأفغاني ـ متمسكة بالإسلام ، متقيِّدة بالمذهب السُّنِّي الحنفي ، لم تَعرف التجدد و«العلمانية» والسياسةَ اللادينية ، وكان من أكثر هذه الأسرة تديُّناً ، وتقديراً للعلماء ، وتشجيعاً للعلوم الإسلامية الملك إسكَنْدَر اللُّودهي (م ٩٢٣ هـ).

وسَعدتِ الهندُ خمسَ سنوات من هذا القرن بحكم الملك شَيْرشَاه السُّوْرِي (٩٤٦ ـ ٩٥٢ هـ) ، الذي لم ينَهض في تاريخ الهند الإسلامي مَلِكٌ متدين عالم ، أحسنَ منه تنظيماً وتقنيناً ، وأكثر منه توفيقاً للأعمال الخيرية ، وتحقيقاً للمشاريع الهائلة في المصلحة العامة.

ولم يَحصل للهند بعد وفاة الملك شيرشاه السُّوري ، إلى تولي الملك أكبر للدولة ، الاستقرارُ السياسي ، والتنظيم السليم ، ولم يَقِرَّ للحكومة قرار ، ولم يَذُق سكانُ البلاد طعمَ الأمن والرخاء ، فقد كان الملك سليم شاه خليفةَ أبيه العبقري السلطان شيرشاه السُّوري لا يَمُتُّ إلى أبيه في تنظيمه ، وتدبيرِ مملكته بسبب ، ولم يستطع كذلك الملك نصير الدين هِمَايُون خليفة الملك بابر (٩٣٧ ـ ٩٦٣ هـ) أن يَحكُم الهند في أمن واستقرار ، فقد شرَّدته حملاتُ الملك

شيرشاه السوري الظاهرة ، وخذلان إخوته كلَّ مُشرَّد ، وكان شأنه هذا ، حتى اتصل بطَهْمَاسب الصَّفوي ملِك إيران ، وطلب منه المساعدة ، فتهيأ له الاستقرار ، واعتلى الملك (أكبر) عام ٩٦٣ هـ عرش الدولة المغولية ، ودام في الحكم نصف قرن ، بأُبَّهته وعظمتِهِ وسلطانه غير مُنازَع .

وتولّى نور الدين جَهَانْكِيْر المُلك في عصر الإمام السرهندي نفسِه ، حينما كان ابنَ ثلاث وأربعين سنة ، وتُوفي الإمام السرهندي في عهده ، وكانت هناك ـ عدا هذه الدولة المركزية التي جُعلت عاصمتها دلهي ـ حكوماتٌ إقليمية في ولاية كُجْرَات ، وبِيْجَافُور ، وكَوْلَكُنْدَه ، وأحمد نَـكَر ، كانت تحكم هذه المناطق بصورةٍ مستقلة ، وكانت الحكومات الثلاث المؤخرةُ الذِّكر من الحكومات التي كانت تعتنق المذهب الشِّيعي .



ب ـ الوَضْعُ الدِّينيُّ والرُّوحي
وازدهار الطُّرق والسَّلاسل الصُّوفية

لقد كان التَّدَيُّن سِمةً سائدة ـ على العالم الإسلامي كُلّه ، فكان عامة الناس ـ رُغم انحطاطهم الخُلقيِّ والعلميِّ ـ راسخي الإيمان ، مُحبِّين للإسلام ، مُوالِين له ، وكانوا يمتازون بالحَميَّة الدينية ، والحماسَة الإسلامية ، على تصوُّرهم الخاص ، وبالرغم من أنهم كانوا يقترفون كثيراً من البِدَع ، ويرتكبون ما يخالف الإسلام ـ أحياناً ـ ولكن كانوا شديدي الكراهية للكفر والإلحاد ، يشمئزُّون منهما ويتبرؤون.

ولأجل هذا الذَّوق الديني العام ، والطبيعة الإيمانية السائدة ، كان الملوك المسلمون ـ الذين لا يعبؤون بأيِّ قوة مناوئة كبيرة ـ وكانت أوربة ترتعدُ من قوتهم العسكرية ـ مُضطرين لاحترام شعائر الإسلام ، وإعلان صيانة الدين ، وحماية بيضة الإسلام والمسلمين ، ولم تكن قُلوب العامَّة من الناس ، تَستشعرُ عظمتهم ، وتُحبُّهم ، حتى يَتظاهروا بهذه الناحية الدينية.

ولذلك لم تتوطَّد حكومةُ السلطان سليم الأول ، ولم تُثبِت جذروها ، حتى لَقَّب نفسه بخليفة المسلمين ، وخادم الحرَمَين الشريفين ، وأبدى أثناء إقامته بدمشق الحبَّ والتقديس للديار المقدسة ، والإجلالَ لها ، وأنفذ في شهر ذي الحجة عام ٩٢٣ هـ قافلة للحُجَّاج من دمشق ، وبعثَ معهم ـ لأول مرة في الدولة العثمانية ـ بهَدِيَّة كسوة الكعبة.

ومِن ذلك اليوم تَسمَّى السلاطين الأتراك بـ «خادمي الحرمين الشريفَين» ومُهِّد لهم طريقُ المجد ، وعَظُمتْ أقدارُهم في أعين الناس ، ونَجدُ أمثلة عديدة في حياة السلطان سليمان الكبير للتواضع ، والعواطف الدينية العميقة ،

فقد انتسَخ بيده ثمانية مصاحف للقرآن الكريم ، لا تزال محفوظة في المكتبة السليمانية ، ويظهر من ديوان شعره أنه مُسلم راسخ العقيدة في الإسلام ، وأنه جدَّد عمارة الكعبة المشرفة بعد أن أخذ فتوى العلامة أبي السّعود (م ٩٥٢ هـ) صاحب «تفسير أبي السّعود» ، وبنى جداول مخصَّصة مُجصَّصة في مكة المكرمة .

وأكمل السلطان مراد (م ٩٨٤ هـ) بناء الكعبة المشرفة ـ وهو البناء الذي لا يزال إلى الآن ـ هذه بعض مآثر السلاطين العثمانيين في القرن العاشر الهجري .

وكانَ الناسُ في الدولة الشِّيعيَّة بإيران كذلك متديِّنين ، عقليَّتُهم عقليةٌ دينيَّة ، ويغلب عليهم الطابع الديني ، وكان السلاطين الصَّفويُّون يغذُّون هذه الناحية الدينية ، ويُنَمُّون هذه العواطف ويتظاهرون بحب آل البيت وإجلالهم ، ويستغلون ذلك لقوَّتهم السياسية وإحكام الدولة ، ووقوعهم موضعَ القبول في الناس ، فقد تجشَّم شاه عباس الأول ـ أعظمُ سلطان في الدولة الصفوية ـ مشقةَ السفر من أصفهان إلى «المَشْهَد» (مدفن عليٍّ الرضا) حوالي ثمانمئة ميل ، مشياً على الأقدام ، وحضرَ النجف ، وقام بخِدمة الكِناسة لضريح سيدنا علي ـ كرّم الله وجهه ـ .

وبلغ حُبُّ الناس لشاه عباس واعتقادهم فيه ، وغلُوهم في إجلاله إلى حدِّ الخرافات والسُّخف العقلي ، وشاعت في الناس عنه قصص غريبة ، وروايات طريفة .

أمَّا سُكَّان تركستان وأفغانستان ، فإنَّ رسوخهم في العقيدة وصلابتهم في التدين، وتمسُّكهم بالسُّنية والمذهب الحنفي ، شيءٌ يُضرب به المثلُ، فكان الحكام والأمراء والوزراء ، وأصحاب البلاط ـ كل حسب مستواه في المعيشة وحاله من الترف ـ يتَّفقون معهم ويُسايِرونهم في كل ذلك .

وكانَ تأسيسُ الدولة الإسلامية في الهند على أيدي الحُكَّام من الأُسر الأفغانية أو التُّركية ، فكان ـ لأجل ذلك ـ تأثيرُ الدين عميقاً في قلوب أهل هذه

البـلاد ، وإن كـان هـذا التـأثيـر سـاذَجـاً بسيطـاً ، شـأنَ العقليـة الأفغـانيـة والتركية ، وذوقها الخاص ، وما زال الناس متمسِّكين بالسُّنية والمذهب الحنفي ـ باستثناء بعض المُدن الساحلية ، ومنطقة مالابار في جنوب الهند ـ وكان المذهب الحنفي هو الذي يُطبَّق في الدولة ، ويتحكَّم في المحاكم ، وألفت هنا بعض الكتب المهمة في الفقه الحنفي كـ «الفتاوى التَّتَارْخَانِيَّة» و«فتاوى قاضي خان» (١) .

ويمتاز عددٌ مِن السلاطين في تاريخ الهند الإسلامي بحمايتهم الشريعة الإسلامية ، والسنة المطهرة ، وكراهةِ الكفر والإلحاد ، ومُحاربة البدع والمنكرات ، والحميّة الدينية والغيرة الإسلامية ، ويكفينا أن نذكر «محمد تَغْلَق» و«فيروز تغلق» في القرن الثامن ، والسلطان إسكندر اللودهي في القرن العاشر ، فقد كان التديُّن ـ حسب ما يروي لنا مؤلِّفو «طبقات أكبري» و«تاريخ فَرِشْتَهْ» و«تاريخ داودي» ـ سائداً في عهد السلطان إسكندر ، وكان يبدو من تمسُّك الناس بالدين ، وشدة أخذهم به أنه نفخت في الحياة روحٌ جديدة ، وكان الدين أعزَّ وأحبَّ إلى السلطان من نفسه .

وكان السلطان من أول حياته ـ كما يصفه هؤلاء المؤلفون ـ متحمِّساً للدين ، يُحبُّ المذاكرة العلمية ، و بدأ الهَنادك في عهده بدراسة اللغة الفارسية ، وقَبِلتَ طائفة «كائِسْتَهْ» الهندية توجيهَ السلطان إلى دراسة اللغة الفارسية لغة الديوان ، فدرسوها وتولَّوا وظائف الكتابة والديوان في المملكة ، ونهى السلطان عن بدعة حمل الأعلام باسم السيد سالار مسعود غازي (٢) ، التي كانت تُحمل وفاء بالنَّذر ، واعتقاداً في البركة والنصر ، وكانتْ عادة سنوية

---

(١) وهذا قبل تدوين «الفتاوى العالمكيرية» بزمن طويل، وقد نال هذا الكتاب شهرة واسعة في العالم الإسلامي، ويعرف بـ«الفتاوى الهندية» في مصر والشام والعراق.

(٢) هو السيد سالار مسعود الغازي دفين مدينة بهرائج في الولاية الشمالية الغربية، وهو من أشهر الأعلام في الهند، مات شهيداً سنة ٥٨٨هـ، بنى على قبره ملوك الهند عمارة سامقة البناء، والناس يفدون إليه من بلاد شاسعة ويزعمون أنه كان عزباً شاباً لم يتزوج، فيحتفلون لعرسه، وينذرون له أعلاماً ينصبونها على قبره.

مُقدَّسة ، كما أصدر أوامر مشدَّدة في منع النساء من زيارة الضريح والمشاهد ، ويقول بعض المؤرِّخين أنه نهى حمل «الضرائح» المصنوعة من القرطاس والقَصب المنسوبة إلى سيدنا الحسين بن علي الشهيد وعبادة «سيتلا» ـ آلهة الجدري ـ نهياً قاطعاً (١).

ويقول مشتاقيُّ: «إنه هَدم كثيراً من المشاهد المزوَّرة ، وسوّاها بالأرض ، وأجرى مكانها الأنهار» (٢) .

وكان السلطان سليم شاه السُّوري يَؤُمُّ الناس في الصلوات في المسجد، وكان يَجتنب المسكرات أشدَّ الاجتناب.

رُقي التصوُّف وازدهاره:

لقد كان هذا العصر عصرَ رُقي التصوُّف ، وازدهار السلاسل والطُّرق، حتى لم تبقَ بقعة من بقاع العالم الإسلامي خالية من طريقة من طرق الصوفية ، وكانت الطرق حديث المجالس والنوادي ، وكانت «بخارى» و«سمرقند» ـ المركزان العلميان ، والروحيان ، والمدينتان المعروفتان ـ في تركستان ، و«بَدَخْشَان» وهرات في أفغانستان ، و«طَنْطَا» و«الإسكندرية» في مصر ، و«تَعَزْ» و«صنعاء» في اليمن ، و«شحر» و«تريم» و«سيون» في حضرموت ، مراكزَ كبيرة للعلماء والصوفية ، ومشائخ الطرق.

وكانت أسرة باعلوي العيدروسية في حضرموت ذاتَ شهرة وقبول في الناس ومعروفة بالفضل والعلم ، وفي هذا العصر كان الشيخ أبو بكر بن عبد الله ابن أبي بكر شيخاً ذا مكانة مرموقة يُعرف بقطب العالَم ، وكانت مدينة «تريم» مركز أشراف آل باعلوي.

ومِن مشاهير أولياء هذا العصر الشيخ سعد بن علي السويني بامَدحج

(١) «تاريخ هندوستان» لذكاء الله الدهلوي ج٢ ص ٣٧٤.
(٢) انظر «واقعات مشتاقي».

السعيد ، الذي ذكره الشيخ محيي الدين عبد القادر العيدروسي (٩٧٨ ـ ١٠٣٧ هـ) في كتابه الشهير «النور السافر في رجال القرن العاشر» ، وختم بترجمته ـ التي تمتد من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٠ ـ الكتاب [١].

وقد كان للطريقة القادِريّة ، وللطريقة الجِشْتِيَّة ـ بفرعيها النظامية والصابرية ـ رواجٌ وانتشار ، نبغَ فيها شخصيات عديدة معروفة بالعلم والفضل والصلاح والزهادة.

الطريقة الشطارية:

ولكنْ من الحقِّ أن يُقال هذا القرن قَرنُ الطريقة الشَّطَارِيّة العِشقية ، التي تسلمت زمام القيادة الروحية لهذه البلاد من الطريقة الجِشْتِيَّة ، وسخَّرت الهند كلها.

أسَّس الطريقة الشطارية الشيخُ عبد الله شطار الخراساني الذي نزل الهند ، في أوائل القرن التاسع بالتقريب ، واستوطن «مَانْدُو» عاصمة الولاية الخليجية في الهند الوسطى ، وتوفي سنة ٨٣٢ هـ ، ودُفن داخل القلعة في ماندو.

كانت حياته حياة الأمراء ، يمتاز بالجذب والتأثير ، انتفع به خَلق كثير ، وانتشرت طريقته في الهند بسرعة فائقة ، ولهذه الطريقة فرعان.

ينتمي فرع منهما إلى الشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي ، وبينَه وبين الشيخ الشَّطاري ثلاثُ وسائط ، وينتمي الفرع الثاني إلى الشيخ علي بن قوام الجُونْبُورِي ، ـ المعروف بشيخ علي عاشقان السرائي ميري [٢] ـ بينه وبين الشيخ عبد الله الشطاري واسطتان ، وقد مَزجت هذه الطريقة ، لأول مرة ، تعاليم «يُوكا» [٣] بالتعاليم الصوفية ، واختارت من الأُولى بعض الرياضات

---

(١) ألف هذا الكتاب في أحمد آباد عام ١٠١٢هـ.

(٢) اقرأ ترجمته الحافلة في «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ، الجزء الرابع.

(٣) نظام الرياضات الروحية والبدنية في الهند القديمة.

والأوراد ، وحَبْس النفس ، ولقنت هذه التعاليم المُريدينَ والسَّالِكين ، كما ضمَّت إلى الطريقة «علم السيمياء» ، وقد جاءت تفاصيلُ هذه الأوراد ، وشروح الرياضات الخاصة في الرسالة الشطارية التي ألَّفها الشيخ بهاء الدين بن إبراهيم الأنصاريُّ القادري [١] ، وتُوجد قصيدة للشيخ محمد الشطاري في كتابه «كَلِيْدُ مخازن» ـ مفتاح الخزائن ـ تُفيد عقيدة وحدة الوجود ، وعدم التفريق بين المسجد والبيعَة ، والمُسلم والبَرْهمي ، وعقيدة ظهور الإلٰه وتجلِّيه في هذه المخلوقات كلها ، لأن كل ذلك ناشئٌ من هذه الوحدة ، وهي ألوانها ومظاهرها المتنوعة ، وجاء في آداب هذه الطريقة وشِعرها ما قد يقلل من قيمة العلم الذي هو «الحجاب الأكبر» ، ومن قِيمة العبادات ، ومن أهمية الإيمان وضرورته ، ويرفع شأن الحب الإلهي ، والسكر والتفاني فيه ، والتجرد عن كل ما يتصل بالمادة والجسم ، والحياة الدنيا.

وكان أشهرَ رجال هذه الطريقة الشطَّارية وأكثرها تأثيراً ، الشيخُ محمد غوث الكَوَالِيَاري (م ٩٧٠ هـ) الذي حَصل له القبول العام ، وأصبح المرجع للناس ، وكانت تُضاهي أُبَّهتُه وفَخفَختُهُ أُبَّهة الملوك والأمراء وفخفختهم ، وتوازي دولتُه الروحية دولة البلاط ، وكان دخل عقاراته تسعمئة ألف عملة فضية [٢] ، وكان له أربعون فيلاً ، وجنودٌ مجندة من الحاشية والخدم.

وكان عندما يخرج من سوق مدينة «آكرَهْ» تحتشد الحشود ، ويقف جموع

---

(١) وكان في هذا القرن من الطرق المنتشرة في الهند الطريقة المدارية، التي أسسها الشيخ بديع الدين المكن بوري (٨٤٤هـ) وكان أساس هذه الطريقة على فكرة «وحدة الوجود» والكشف عن معانيها ومحتوياتها، والتجرد الظاهري ـ حتى يقتصر على ستر العورة الغليظةـ والتوكل الصرف، وكلما تطاول الزمن مالت هذه الطريقة إلى التحلل والانحطاط، حتى أطلق لفظ «مداري» على التكسب بالألعاب البهلوانية، وقد فقدت هذه الطريقة في القرن العاشر تأثيرها وقبولها في الخاصة، ولم نعثر بعد البحث والتنقيب في «نزهة الخواطر» ـ الجزء الرابع ـ الذي أحصى فيه مشايخ كل طريقة إحصاءً كاملاً تقريباً، إلا على رجلين كانا منخرطين في سلك الطريقة المدارية.

(٢) وفي بعض الروايات عشرة ملايين.

الناس فكان يُسلم على كل واحد منهم بانحناء ، حتى إنه لا يستقر جلوسه على السُّرج ، ولا تعود فقار ظهره إلى مكانها ، وكان قد استمال الملك (أكبر) كما جاء في تصريح العلامة عبد القادر البَدَايُوْنِي ـ وأدخله في حلقة مريديه ، ولكن الملك لم يلبث أن خلع من رقبته طوق إرادته وبيعته ، وكان لزهده ـ رغم هذه الأبهة الملوكية والثروة الأميرية ـ صِيت ذائع ، يتناقل الناس أخباره ، ويتحدَّثون به ، وكان عند تسليمه على الناس يَنحني كانحناءة الركوع ، ولو كان من يُسلِّمُ عليه مسلماً أو كافراً ، وكان العلماء ينتقدون ذلك ويعترضون عليه ، ومن مؤلفاته «جواهر خمسة»، و«معراجية» [١]، و«كنز الوحدة»، و«بحر الحياة» [٢]، وكان له تأثيرٌ كبيرٌ على الهند ، وراجت الطريقة الشطارية [٣] وانتشرت ، وكانت ولادة الإمام السرهندي بعد وفاته بعام .

وكان من كبار أصحاب هذه الطريقة ومشايخها الأجلَّة الشيخ علي بن قوام الجُونْبُوري المعروف بعلي عاشقان السرائي ميري (م٩٥٥ هـ) ، والشيخ شكر محمد البُرهَانْبُوري (م ٩٩٣ هـ) ، والشيخ الله بَخش الكده مكتيسري (م ١٠٠٢ هـ) كانوا مَرْجِع خلقٍ كثير من عِباد الله .

وقد ذكر بعض المؤرِّخين عن الشيخ علي عاشقان السَّرائي ميري أنه لم تظهر الكرامات العجيبة على يد أحد بعد الشيخ عبد القادر الجيلاني ، مثل ما ظهرت على يديه [٤] ، وكان خليفة الشيخ محمد غَوث الكوالياري ، الشيخ ضياء الله

---

(١) كان ادعى لنفسه أنه عرج به إلى السماء مثل معراج الرسول ﷺ، وأحدث ذلك فوضى وشغباً في علماء كجرات.

(٢) هذا الكتاب ترجمة لكتاب «امرت كند»، يقول الأستاذ محمد إكرام عنه في كتابه «رود كوثر»: نقل فيه تفاصيل العادات والأعمال والأوراد التي يشتغل بها العباد الهنادكة. وأصحاب «اليوك» إلى اللغة الفارسية، وكان تعرض لهذه الأعمال في كتابه الذي ألفه من قبل «جواهر خمسة» تعرضاً قليلاً، وتدل هذه المعلومات على علاقة الطريقة الشطارية بـ «اليوك الهندي» (ص ٣٤ ـ ٣٦).

(٣) راجع للتفصيل في تاريخ المشايخ الشطارية، «نزهة الخواطر» ج ٤ .

(٤) راجع للتفصيل «العاشقية» تأليف عارف علي، و«نزهة الخواطر» ج٥ .

الأكبر آبادي (م ١٠٠٥ هـ) تلميذ العلاَّمة الشيخ وجيه الدين، سكن في «أكبر آباد» ـ وكانت عاصمة الملك أكبر ـ ٣٥ عاماً، وحَصل له القبول في الناس، ودُعيَ إلىٰ بـلاط الملك (أكبر) عدة مرات.

يقـول العلاَّمـة عبد القادر البَدَايُوني: «سَلَّمتُ عليه مرة فَثقُل عليه وساءه، وشعر بأني أهنته»، واستهزأ بهذا الشعار الإسلامي والسنة الطيبة، وقد صوَّر البدايوني تصويراً سيِّئاً، وذكر أخباراً وروايات تدل على استخفافه بالشريعة الإسلامية [١].

عدا هؤلاء المشائخ المذكورين ـ أعلاه ـ كان الشيخ عبد الله السَّنْدَيْلَوِي (٩٢٤ ـ ١٠١٠ هـ) والشيخ عيسىٰ بن قاسم السِّندي خليفة الشيخ شكر محمد عارف بالله ـ وكان معاصراً للإمام السرهندي، ويُقارِبه في السن ـ من مشاهير مشايخ الطريقة الشطارية العشقية [٢].

وكان هناك مشائخ كبار ـ غير هؤلاء المشائخ المشهورين من السلسلة الشطارية العشقية ـ ينتمون إلى سلاسل وطُرق أخرىٰ، كان منهم الشيخ جائين لـده السَّهنـوي [٣] (م ٩٩٨ هـ) كـان يُـدرِّس كتـاب «الفصـوص» و«نقـد الفصوص»، وكان الملك أكبر يعتقد فيه ويجلُّه، وشاهده يوماً يصلِّي «الصَّلاة المعكوسة» فانصرف عنه.

وشيخ آخر يسمَّىٰ الشيخ عبد الرازق الجَهَنْجَهَانَوِي (٨٨٦ ـ ٩٤٩ هـ) كان من أصحاب الطريقة القادرية الجشتية، وكان ـ رغم كونه عالماً كبيراً يزاول التدريس والتصنيف ـ يدعو إلى «وحدة الوجود»، ويتحمَّس لمذهب الشيخ محيي الدين بن عربي وقد ألَّف في هذا الموضوع عدة رسائل.

وكان الشيخ عبد العزيز شَكَرْ بار (٨٥٨ ـ ٩٧٥) كذلك يقول «بوحدة

(١) راجع للتفصيل «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر، و«نزهة الخواطر» ج٥.

(٢) انظر «نزهة الخواطر» ج٥.

(٣) سهنة: قرية في مديرية كركانوه، في بنجاب الشرقية، يوجد فيها عين حارة مشهورة.

الوجود» ، وكان صوفياً يمتاز بالأحوال والمقامات ، وكان يُلقي دروساً في «فصوص الحكم» وشروحه ، وهو من أجداد الإمام وليِّ الله الدهلوي لأمِّه.

ونَبغ في هذا القرن الشيخ عبد القدوس الكَنْكُوْهِي (م ٩٤٤ هـ) وعَلا صيته ، وطنَّت حصَاتهُ ، ونالت الطريقة الجشتية الصابرية منه حياة جديدة ، وعادت غضة طرية ، مؤثِّرة قوية ، وكان يبوح بأسرار «وحدة الوجود» على ملأ من الناس ، يدعو إليها وينادي بها.

وكان الشيخ قطب الدين بينادل (٧٧٦ ـ ٩٢٥ هـ) مرشد الطريقة القلندرية ، والشيخ كمال الدين (م ٩٧١ هـ) في قرية (كيتهل) ـ بمديرية إنبالة ـ من رؤساء الطريقة القادرية ، ومرشديها الكبار ، وقد استعادت بهما هاتان الطريقتان رَونَقهما ورُواءهما ، وذكر الإمام السرهندي عن الشيخ كمال المذكور ـ أعلاه ـ نقلاً عن الشيخ عبد الواحد ، أنه قال: «عندما ينظُر بنظر «الكشف» ، يتبين لنا أنه لم يوجد في السلسلة القادرية العالية بعد شيخ المشائخ الشيخ عبد القادر الجيلاني أفضلُ ولا أكمل حالاً من الشيخ كمال» [(١)].

وكان الشيخ نظام الدين الأَمِيْتَهَوِي (٩٠٠ ـ ٩٧٩ هـ) في ولاية «أَوَده» من كبار رجال السلسلة الجشتية مع الدفاع عن الشريعة الإسلامية والاتِّباع للسنة النبوية ، وصلاح السيرة ، كان يعتمد على «إحياء العلوم» و«العوارف» و«الرسالة المكية» ، وقَع بصره على كتاب «الفصوص» في بعض الناس ، فنزعه من يده ، وأعطاه كتاباً آخر للمطالعة والقراءة ، وكان «السماع» [(٢)] عادة متَّبعة في طريقته ، إلا أنه كان يجتنب ذلك ، ويتحاشاه [(٣)].

هذه هي الأوضاع الرُّوحية والدينية السائدة في العالم الإسلامي ـ آنذاك ـ وهؤلاء هم مشايخ الطرق وأصحاب السَّلاسل في الهند على اختلاف مسالكهم

(١) انظر «زبدة المقامات» ، ص١٠٨.
(٢) الغناء تارة بالمزامير ، وتارة بغيرها.
(٣) راجع للتفصيل «نزهة الخواطر» ج٤.

ومشاربهم ، وتَفاوُتِ مراتبهم ودرجاتهم ، الذين كانوا أسَّسوا في القرن العاشر الهجري ـ في الأماكن المختلِفة مراكز تربوية روحية ، وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتَّصِلون بهم وينتمون إليهم ، ويتمسَّكون بطريقتهم ، وقد شرحتُ هذه الأوضاعَ ، وتناولتُ هذا التاريخ بشيء من الإفاضة وإطالة النفَس ، ليتيسَّر للقارىء تقديرُ الجو الذي تنفس فيه الإمام السرهندي ، والعهدُ الذي عاصره ، وذوقه وميوله ، وما كانت من الإمكانيات والصعوبات للعمل الإصلاحي التجديدي العظيم الذي قام به الإمام خيرَ قيام.



ج ـ الـوَضـعُ العـلـمـي

لم يَكن القرنُ العاشر الهجري قَرنَ الابتكار والاختراع في العلوم والفنون والأصالة العلمية ، والنَّظر الدقيق الذي يتَّسم «بالاجتهاد» والتدوين الجديد للعلوم ، والزياداتِ ذات القيمة العلمية الكبيرة ، فإنَّ هذه الميِّزات إنما تتجلَّى بوضوح إلى منتصف القرن الثامن الهجري ، حيث ظهر نوابغ الرجال والعبقريون في فنون كثيرة كشيخ الإسلام ابن تيميَّة الحرَّاني الدمشقي (م ٧٢٨ هـ) ، وشيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العِيد (م ٧٠٢ هـ) ، والعلامة علاء الدين الباجي (م ٧١٤ هـ) ، والعلامة الحافظ جمال الدين أبي الحجاج المِزِّي (م ٧٤٢ هـ) ، والعلامة الحافظ شمس الدين الذَّهَبي (م ٧٤٨ هـ) ، والعلامة أبي حيَّان النحوي (م ٧٤٥ هـ) الذين خلَّفوا لنا في علوم الحديث ، والأصول ، والكلام ، وأسماء الرجال والعربية آثاراً عظيمة ، ومؤلفات ضخمة ثمينة .

وكان عصر الحافظ ابن حجر العسقلاني (م ٨٥٢ هـ) إمام العصر في الحديث ، وصاحب «فتح الباري» الذي وصفه بعض الناس بقولهم : «لا هجرة بعد الفتح» كذلك ولّى من غير رَجعة .

فكان القرن العاشر الهجري قرن الجَمع والترتيب ، والتسهيل والتلخيص لكتُب المتقدِّمين ، وإن كان يتجمَّل رأس هذا القرن بوجود أمثال العلامة شمس الدين السَّخاوي (م ٩٠٢ هـ) ، والعلامة الحافظ جلال الدين السُّيوطي (م ٩١١ هـ) من بُحور العلم الزاخرة ، وكبار المؤلِّفين في تاريخ الإسلام ، يقول بعض العلماء عن الحافظ السَّخاوي : إنه لم يُنجب التاريخ مثله في علم الحديث وفنِّ الرجال والتاريخ بعد الإمام الحافظ الذهبي ، وآذن علمُ الحديث

بعده بالانحطاط والتدهور ، ويُعدّ كتابه «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» في أصول الحديث ومصطلحه ، و«الضوء اللامع لأهل القرن التاسع» في التاريخ والرجال ، من الكتب التي لا يوجد لها نظير.

والعلامة السُّيوطي غني عن التعريف ، فإنه من نُبغاء الرجال المؤلفين، ومشاهيرهم في تاريخ الإسلام ، وتقوم بعض مؤلفاته مقام الموسوعات العلمية في مواضيعها ، ولا يزال اسمُه حياً خالداً في الأوساط العلمية بتأليفه النصف الأول من تفسير الجلالين ، وبقي مُقرَّراً ـ إلى يومنا هذا ـ في المناهج الدراسية في شبه القارة الهندية وبعض البلاد الإسلامية.

يمتاز هذا القرن بازدهار علوم الحديث والرجال في مصر والشام والعراق ، وبازدهار العلوم العقلية ـ المنطق والفلسفة ـ في إيران ، وازدهار الفقه الحنفي في الهند ، وتركستان ، وكانت هذه العلوم المختلفة في البلدان المشار إليها ـ آنفاً ـ مقياس الفضل والنبوغ والكمال.

فكانت مصر تزدان بالعلامة أحمد بن محمد القَسْطلاَّني مؤلف «إرشاد الساري» شرح صحيح البخاري (م ٩٢٣ هـ) ، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري (م ٩٢٥ هـ) ، وكان في الحجاز العلامة ابنُ حجر المكي الهيثمي (م ٩٧٤ هـ) مؤلف «الصواعق المحرقة» وكُتب أخرى كثيرة ، والعلامة علاء الدين علي المُتَّقي البُرْهَانْفُوْرِي المكي مؤلف «كنز العمَّال» (م ٩٧٥ هـ).

وكان رُوَّاد العلم يَردون مناهل علمهم فيروُونهم ، وطَبَّقت علومهم الآفاق وعمَّتْ إفادتهم الخلائقَ ، وكان العلامة نور الدين علي بن سلطان محمد الهَرَوي المعروف بمُلاَّ علي القاري ـ العالم الحنفي المحقِّق الذي اتسمت كتبه بالإنصاف العلمي ـ رغم أنه ولد في «هرات» من أفغانستان إلاَّ أَنه بتدبُّره بمكة المكرمة نشَر علمه في منتجعي العلم والمعرفة من أطراف العالم الإسلامي ، وهو ـ وإن كانت وفاته في أوائل القرن الحادي عشر عام ١٠١٤ هـ ـ إلاَّ أن عَهد خدماته العلمية والتأليفية هو القرن العاشر.

وتُوفي في أواخر هذا القرن العلامة الأديب والمؤرِّخ الكبير الشيخ قطب

الدين النَّهْرَوَالي [١] ، صاحب «الإعلام في أخبار بيت الله الحرام» سنة ٩٩٠ هـ ، الذي يرجع في أصله إلى أرض الهند ، وخضع لِعلمه وفضله سلاطينُ تركيا ، وأمراء الحجاز ، وأكرموه وبجّلوه.

وكانت إيران تزهو وتفتخر بالعلامة جلال الدين الدَّوَّاني (م ٩١٨ هـ) والعلاَّمة عماد بن محمود الطَّارمي (م ٩٤١ هـ) والعلامة غياث الدين منصور (م ٩٤٨ هـ) الذين أفاضوا العلومَ ، وكانت تتفجَّر منهم يَنابيع العلوم الحكمية وقد وصلت أمواج عُلومهم الزاخرة إلى الهند ، وأوغلت فيها.

وكان من بين كبار علماء هذا العصر الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن الصدِّيقي الشافعي الأشعري المصري ، الذي يُذكر في كُتب الرجال «بالأستاذ الأعظم» و«قطب العارفين» كان فريد عصره في بَيان دقائق المعاني ، ولطائف الأسرار ونَسيج وحده في بيان نظم القرآن والتفسير ، والحديث والفقه ، كان يُدرِّس في الجامع الأزهر ، ويتهافت عليه طلاب العلم تَهافُت الفراش على النور ، وكان يجمع إلى هذا العلم الغزير صلاح الباطن ، وتقوى السر ، وشياخة الطريق ، وذَوق الشعر والأدب [٢] ، توفي عام ٩٩٣ هـ.

وكذلك المحدِّث الهندي الشهير الشيخ رَحمةُ الله بن عبد الله السِّندي الحنفي (م ٩٩٤ هـ) الذي بَقي في ربوع الحجاز يُوزِّع تراث الحديث النبوي الشريف ، وأثبت براعته في فن الحديث وعبقريته فيه.

وكان مَلِكُ العلماء العلامة وجيه الدين بن نصر الله الكُجْراتي ـ الذي استمر يُدرِّس طوال نصف قرن من الزمن في العلوم النقلية والعقلية ، وبقي تلامذته يملؤون الدنيا علماً وبحثاً ، ويُدرِّسون ويُفيدون أكثر من قرن ـ بركةَ النصف

---

(١) «نهر واله» في الأصل معرب «انهلواره» وهو اسم مدينة في ولاية كجرات قديماً ، فتحها السلطان محمود الغزنوي عام ٤١٦ هـ ، وتسمى الآن بـ«بتن» وإليها ينسب العلامة محمد طاهر الفتني مؤلف «مجمع بحار الأنوار في غرائب التنزيل ولطائف الأخبار» (م ٩٨٦هـ).

(٢) راجع للتفصيل «النور السافر» ص ٤١٤ ـ ٤٣٩.

الأخير من هذا القرن ، وتُوفي في أواخر هذا القرن عام ٩٩٨ هـ.

وكانت بلاد اليمن الميمونة ـ إذ ذاك ـ مركزاً لرواية الحديث ، والاعتناءِ بالأسانيد ، وكان مُحَدِّث اليمن الشيخ طه بن حسين بن عبد الرحمن الأَهْدَل يُـزَيِّن كرسي التدريس للحديث ، وتوفِّي هو أيضاً في العام نفسه ٩٩٨ هـ [١].

بدأتْ في هذا العصر رحلاتُ العلماء الأفاضل الذين تتلمذوا على العلامة جلال الدين الدوَّاني ، والعلامة عماد الدين محمود الطارمي ، والشيخ مير غياث الدين منصور من إيران إلى الهند.

وجاء في عهد الملك هِمَايُون بن بابر التَّيْمُوري ، الشيخُ زين الدين محمود كمان كربهدائي ـ تلميذُ مولانا عبد الرحمن الجامي ، ومولانا عبد الغفور اللَّاري ـ إلى الهند ، واستقبله الملك بحفاوة بالغة ، وأكرم مثواه وعظَّمه.

وتَوجَّه في عهد الملك أكبر الحكيم أبو الفتح الكيلاني ، والطبيب همايون (المعروف بحكيم هُمَام) ، ونور الدين قراري ، الإخوة الثلاثة إلى الهند ، وحازوا ثقة الملك والحظوة لديه.

ثم جاء بعدَ فترة العلامة محمد اليَزدي من إيران ، ونزل الأمير فتح الله الشيرازي ـ وقد مرَّ في طريقه بِبْيَجابُور ، ومكث فيها مدة يسيرة ـ ببلاط الملك أكبر ، وكان تلميذَ الشيخ غياث الدين منصور ، وتولَّى منصب الرئاسة للعلماء سنة ٩٩٣ هـ ، وهو الذي جَلب مؤلَّفات علماء إيران ، وترك آثاراً بعيدة المدى على المناهج الدراسية ، وأسلوبَ التدريس في الهند ، حتى كانت نتيجةُ هذا التأثير أخيراً المنهج الدراسي النِّظامي [٢] ، الذي لا يزال هو المنهج المقرر ،

---

(١) راجع للوقوف على فضائله وسجاياه الطيبة «البدر الطالع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني.

(٢) هذا هو المنهج المقبول المقرر للدراسة ، والمقياس للتحصيل والكمال في شبه القارة الهندية ، وأفغانستان وتركستان أخيراً ، وينسب إلى العلامة نظام الدين بن قطب الدين اللكنوي (م ١١٦١هـ) الذي تناوله بالتهذيب والكمال ، ولا يزال مطبقاً تطبيقاً حرفياً في مدارس الهند القديمة على غرار الأزهر القديم.

والسائد على الأوساط العلمية والتدريسية ، ويسيطر عليها (١) .

ونقف في هذا العصر على أسماء لعددٍ وجيه من العلماء والأدباء المنسوبين إلى «نيسابور» و«اسْتَرْ آباد» و«جُرْجَان» و«مَازِنْدران» و«كيلان» كانوا في الهند ، ولاسيَّما في جنوب الهند ، وكان لهم تأثيرٌ على الأمراء ، ومكانةٌ محترمة في البلاط (٢) .

ولم تكن أفغانستان رُغم رُوح الجندية والعسكرية ، وحملِ السيف والسنان ، أقلَّ شأناً في العلم ، والتدريس ، والتقعير في المسائل العلمية ، فكان القاضي محمد أَسلم الهَروي ، (الذي توفي في الهند سنة ١٠٦١ هـ) ولد في هَرات ، وأخذ العلم عن الشيخ محمد فاضل البَدَخْشَانِيّ ، في أفغانستان وكان الشيخ محمد صادق الحُلوائي كذلك من جلَّة علماء عصره .

وكانت «هُرَات» لوقوعها على تخوم إيران مركزاً للعلوم العقلية ، وقد اشتهر من أبنائها القاضي محمد أسلم الهَروي ، ونجلُه النابغة المعروف بالشيخ محمد زاهد ـ الذي يعرف في أوساط المدارس الدينية في الهند بـ«مِيْرزَاهِد» ـ في العلوم العقلية ، وطبَّق صيتُهما الآفاق ، وكان لشروح الشيخ محمد زاهد ، التي تعرف بالزَّواهد الثلاثة صَولَةٌ وقبُولٌ عند العلماء وأساتذة الفن، ويعتنون بها اعتناء كبيراً، ويَقيسون بمعرفتها العلم والنبوغ .

ولم يَقتصر تَتلمذُ أبناء الهند ، واستفادتهم من علماء مصر والحجاز ، واليمن ، ومحدِّثيها النابغين ، فكان الشيخ راجح بن داود الكُجْراتي (٩٠٤ هـ) من تلامذة العلامة السَّخاوي ، أخذَ عنه الحديث ، وأرشده العلاَّمة السَّخاوي إلى رأي الشيخ العلاء البخاري الحنفي في ابن عربي ، وموقفه منه ، ليحمل

(١) راجع للتفصيل «الثقافة الإسلامية في الهند» (طبع المجمع العلمي بدمشق) للعلامة عبد الحي الحسني ، ومقالاً له بعنوان «المنهج الدراسي في الهند» .
(٢) راجع للتفصيل «نزهة الخواطر» ج٤ .

هذا الرأي إلى علماء الهند ومشايخها ، ويُعلمهم بذلك ، حتى يُصحِّحوا موقفهم منه ، ويزول اعتقادهم فيه [١].

وقد ذكر العلاَّمة السَّخاوي ترجمة تلميذه الهندي في كتابه «الضوء اللامع» واعترف بفضله ونبوغه العلمي ، وكان الشيخ عليُّ بن حسام الدين المُتَّقي ـ إمام فنِّ الحديث في عصره ـ ومؤلِّف «كنز العمَّال» ـ الذي قيل عنه: «إنَّ للسُّيوطي مِنَّة على الدنيا ، وإن لعليٍّ المُتقي مِنَّة على السيوطي» ـ كان من التلامذة النجباء لأبي الحسن الشافعي البكري ، مدرس الحرم المكي ، والعلامة شهاب الدين أحمد بن حجر المكي ، مُفتي مكة المكرمة ، ومُحدِّثها في عصره.

ظهر لنا مِمَّا تقدَّم أنَّ الهند ـ رغم إحاطة البحر والجبال الشاهقة بها حيث لم تَـبْـقَ طريـقٌ للعلاقة بينها وبين العالم الخارجي ، إلا ممرُّ (بَوْلاَن) في (بُلُوْجِسْتَان) وممرُّ (خَيْبَر) في الحدود الغربية الشمالية ـ لم تكن بمعزل في الحياة العلمية والثقافية عن البلاد الأخرى ، بل كانت تأخذ وتُعطي ، وتستفيد وتُـفيد وإن كانت استفادتها أكثر من إفادتها ، ودائرةُ استيرادها أوسع من دائرة تصديرها ، وكان ذلك أمراً طبيعياً ، لأنَّ الدين والعلم لا يصلان إلى الهند إلا عن طريق إيران وتركستان.



(١) راجع «نزهة الخواطر» ج٤.

د ـ الاضطراب في الأفكار ، والفَوضى في العقائد

إنَّ الدراسة العلمية ، والدينية ، والسياسية للقرن العاشر تبقى غير مُستكملة إذا لم نتعرض لذلك الاضطراب الفكري، والفوضى في العقائد، التي نَلمسُ آثارها في الهند ، وفيما يُجاوِرها من البلدان في العصر الذي نُؤرِّخه حتى تَتَّضح ملامحُ هذا القرن ، والأوضاعُ السائدة فيه ، وحتى لا يَقع القارىء في الخطأ ، ويظن أن بَحر الحياة الزاخر ـ الذي كان يَمتدُّ ويفيض على آلاف الأميال ـ كان في هُدوء تام ، وكان من السهل تجديفُ سفينة التعليم ، والتربية ، والتزكية ، والإصلاح والتجديد فيه ، وأنه لم يكن هناك داع للإشفاق من طغيان هذا البحر ، أو تورُّط السفينة في لُجَّته ، إذا كان هذا التصور صحيحاً لكان هذا العصر أحق بأن يُختار له عنوان «التعليم والتربية» و«النشر والتوزيع» بدلاً من أن يكون له عنوان «الإصلاح والتجديد».

ولقد تضافرتْ عوامل كثيرة ، من أهمِّها :

١ ـ بُعْدُ الهند عن مركز الإسلام الديني والثقافي ـ بلاد الحجاز ومصر والشام والعراق ـ.

٢ ـ ووصولُ الإسلام إلى الهند بعد تعريجه على تركستان وإيران.

٣ ـ وقِلَّة شيوع اللغة العربية فيها.

٤ ـ وعدمُ الاعتناء بنشر علم الحديث ـ الذي لا يزال يَبث روح الدين الصحيح، ويُميِّز السنة عن البدعة ، ويُقوي الشعور بضرورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويُوجد ملكة الاحتساب الديني الصحيح ـ.

٥ ـ ومنها صعوبة السفر للحج ، والرحلة في طَلب العلم إلى البلدان الأخرى.

٦ ـ وبقاءُ أقلية المسلمين مغمورة في أكثرية غير المسلمين ـ الذين كانوا متشبِّثين بعقائدهم، متمسكين بتقاليدهم وعاداتهم غير الإسلامية، وغارقين في الخرافات والأوهام.

وتضافرت هذه العوامل كلُّها على تحويل المسلمين مرتعاً خَصْباً، للدعوات المضطربة، والفِرَق الضالة، والمحترفين بالدين الذين خرجوا يُمثِّلون دورهم، ويجرِّبون حظهم في إضلال المسلمين.

وكان في مقدِّمة هذه الدعوات الهدامة ذلك التشيُّع المتطرف المهاجم الذي نشأ وترعرع بتأثير الإيرانيين في بعض مناطق الهند الجنوبية، وفي كشمير، فقد اعتنق برهانُ نظام شاه ـ أمير ولاية أحمد نَـكَر ـ في أواسط القرن العاشر، المذهبَ الشيعي بتأثير الشيخ طاهر بن رضا الإسماعيلي القزويني ـ الذي فرَّ من إيران خوفاً من الشاه إسماعيل الصَّفوي إلى (أحمد نكر)، وسكن هنا ـ.

وغلا برهان نظام شاه في مذهبه الجديد، وتطرَّف، حتى أمر الناس بِسبِّ الخلفاء الراشدين الثلاثة ـ علناً وجهراً ـ في المساجد والرِّباطات وعلى الشوارع، وفي الأسواق، وعيَّن رواتب ضخمة مغرية لمن يقومون بهذه «الخدمة»، وقتلَ كثيراً من أهل السنة والجماعة، وأسَر كثيراً منهم، وجاء بأمور شنيعة(١).

وانتشر المذهبُ الشيعي في (كشمير) بجهود مير شمس الدين العراقي، الذي بذل مساعي كبيرة في نشر هذا المذهب، وتحمَّس للدعوة إليه، ويقال إنه أدخل ٣٤ ألفاً من الهنادك في المذهب الشيعي.

كما يُذكر أيضاً أنه اخترع ديناً جديداً سمَّاه «نور بَخْشِي»، وألَّف كتاباً في الفقه، يُخالِف فقهَ أهل السنة وفقه الإمامية كذلك، ويقولون: إن فرقةً جديدة

---

(١) راجع للتفصيل «تاريخ فرشته» تأليف محمد قاسم البيجابوري (وكان محمد قاسم هذا من الفرقة الإمامية).

نشأت في كشمير كانت تعتقد أن السيد محمد نور بخش «مهديٌّ موعود» (١).

ولما توجَّه الملك همَايُون عام ٩٥٠ هـ إلى إيران لطلب المساعدة العسكرية ، وكسب تأييد المملكة الإيرانية ، كان شاه طهماسب يتولى الحكم فيها ، فعرضَ على الملك همايون مذهبَ الشيعة ، وراوده إلى أن يعتنق هذا المذهب ، فقال همايون: أرى أن تكتبوا لي جميع عقائد الشيعة ، فلما كتبوا له ، قرأها همايون بنيةِ الإسماع (٢).

ولا توجَدُ لدينا وثيقة صحيحة تثبت اعتناق همايون للتشيُّع ، ولكن لا يستبعد ـ بعد إقامته في إيران ، وضيافة شاه إيران له بسخاء وأريحية ، وإكرام وفادته ، وإيواء هذا الغريب ، والمساعدة العسكرية السخية ، وما أنتج كل ذلك من عواطف تقدير وشكر ـ أن يكونَ قلبه قد مال إلى المذهب الإمامي ، الذي لم يكن مذهبَ سلفه التيموريِّين ، وكانوا مُتمسِّكين بالعقيدة السنية والمذهب الحنفي ، وكان بعضهم له ارتباط وثيقٌ بالمشايخ النقشبندية ، فما كان لأفراد أسرته ورجال بلاطه ، أن يَقبلوه ، أو يفسحوا له صدورهم.

وصحب الملكَ همايُون إلى الهند: أمراءُ قُزلباش لمساعدته، وكان الملك همايون في نفسه طيب القلب ، سليم الصدر ، متخلقاً بأخلاق كريمة، وثقافة واسعة، يحـافظ على الوضوء ، وكان لا يسمِّي الرسول ﷺ إلا على طهارة تأدُّباً معه ، وتعظيماً لحرمته ، وكان نازلاً من درج مكتبته في يوم من الأيام إذ سمع الأذان ، فجلس تأدباً ، فزلَّت قدمه وسقط ، ثم توفي في ١٥ ربيع الأول عام ٩٦٣ هـ.

وكان من خاصَّة أصحابه وأمراء البلاط ، وأركان دولته بَيْرَم خَانْخَانَان الذي كان مُتفنِّناً في الفضائل العلمية والعملية ، وكان من خِيار القادة العسكريين والأمراء النابغين ، يَمتاز برقَّة القلب ، والمحافظة على الجمعة والجماعة ،

(١) راجع «تاريخ فرشته» لمحمد قاسم البيجابوري.
(٢) انظر «منتخب التواريخ» ج١، ص ٤٤٥.

يُكرِم العلماء والمشايخ ويحترمهم ، ولكنه يَعتقد تفضيل علي ـ رضي الله عنه ـ على غيره من الخلفاء الراشدين ـ رضي الله عنهم ـ ، وله بيتٌ معروف ، يقول فيه :

«إنَّ الملك الكبير الذي يبلغ علمه عنان السَّماء ، إذا لم يكن من خدم علي فقد تربت يمينُه ، وَرَغم أنـفُـهُ» .

وكان لمير شريف الآمُلي اليدُ الطولى في العلومِ العقلية ، نزل الهند في عهد الملك الأكبر ، فاستقبلَه أكبر بحفاوة بالغة ، وعظَّم شأنه ، وولاَّه رئاسة كابل عام ٩٩٣هـ ، ثم رئاسة (بَـنْـكَالَـهْ) عام ٩٩٩هـ ، وأقطعه الأراضي في «أَجْمِيْر» و«مُوْهَان» ، يقول خافي خان مؤلف «مآثر الأمراء» :

«إنَّه كان مُلْحِداً زنديقاً ، خَلط التصوف بالفلسفة ، وكان يقول بـ : العينية» .

وكانت ـ إذ ذاك ـ في الهند حركتان هدامتان تُشكِّلان الخطرَ على الإسلام ، وتُثيران الفوضى والاضطراب في العقائد والأفكار .

إحداهما : «حركة ذكرى» التي كانت مُؤسَّسة على عقيدة انتهاء نبوة محمد ﷺ عند انتهاء الألف الأول من الهجرة ، وبدايةِ نبوة جديدة ، ودعوة جديدة لبداية الألف الثاني ، نشأتْ هذه الحركة في بُلُوْجِسْتَان ، ونَمَتْ وقَوِيَتْ .

وقد ظهر مُلاَّ محمد الذي تزعم هذه الفرقة في قرية «أتك» عام ٩٧٧ هـ ، يقول مؤلف كتاب «من هم ذكرى؟» ، الذي هو الكتاب المعتمد عند هذه الفرقة والحركة ـ عن مؤسِّسها ملاَّ محمد :

«ظهر (مُلاَّ محمد) ليلة الإثنين عند السحر ، نازلاً من بلد «قطب» إلى الأرض بالصورة الإنسانية ، وفي كسوة أهل الفقر والزهد ، في منطقة (أتكا) الجبلية ، بوضع قَدَمَيْه المباركَتين على جبل عالٍ عام ٩٩٧ هـ [1] .

(١) انظر كتاب «من هم ذكرى؟» ص١٣ .

وَيَعتبر أتباعُ حركة «ذكرى» أَنَّ مؤسِّسها محمد أفضَلُ الرسل، وخاتم النبيين ، ونُـور الأولين والآخرين. جـاء في «موسى نَامَهْ» النسخة الخطية :

«قـال الله تعالى: يا موسى لم أخلق نبياً بعد المهدي ، وهـذا هو نُور الأولين والآخرين، الذي سأخلقه بعد» [١] .

وقد وردتْ في كُتب هذه الفرقةُ مثل «معراج نامه» و«ثناء مهدي» و«سفرنامه» «مهدي» و«ذكر إلهي» وغيرها من الكتب عباراتٌ صريحة تدلُّ على العقائد المتطرفة ، في تَنزيه ملا محمد مؤسِّس هذه الفرقة وتقديسه ، وترجيحه على جميع الأنبياء والمرسلين ، وتفضيله على خاتم النبيين محمد ﷺ .

وتتجلَّى فيها نماذج غريبة للكذب والافتراء والتدجيل، والتَّلبيس الباطل ، والجرأة الوقحة على الله ورسوله ، وكانوا ابتدعوا كلمة جديدة إزاء كلمة التوحيد ، وهي «لا إله إلا الله نور باك محمد مهدي رسول الله» ، وكانوا يضحكون على المصلِّين ، ويستهزئون بهم ويُكفِّرونهم[٢] ، ويُكفِّرون القائمين بالصوم والزكاة والحج من المسلمين، ويَرون حج جبل «مراد» واجباً بدل حج بيت الله [٣] .

يقول مؤلِّف «تاريخ خوَانين بُلُوج»: «إن هذه الديانة «الذكرية» المعارضة للإسلام كانت سائدة في بعض مناطق بُلُوجِسْتَان ، وكان أتباع هذه الديانة يرون قتل المسلمين بجناية إقامتهم للصلوات المكتوبة ومحافظتهم عليها ، فقام الأمير مير نصير خان حاكم بلوجستان بتنفيذ الشريعة الإسلامية وقتال «الذكريين» ومكافحة بِدَعهم وشِركهم وعداوتهم للإسلام ، حتى وَقعتْ معارك

(١) انظر كتاب «من هم ذكرى ؟» ص ١١٨ .

(٢) انظر «اعتقاد نامه» (النسخة الخطية) .

(٣) راجع مؤلفات أصحاب الفرقة الذكرية «ذكر توحيد» (مطبوع) و«أناذكرى» و«تفسير ذكر الله» (مطبوع)، الكتب المذكورة أعلاه ، وراجع(baluchistan district Gazettier) التي جاءت فيه تصريحات أن عقائد الفرقة الذكرية تختلف عن عقائد أهل السنة اختلافاً جذرياً (ص ١١٦ من المطبوعة).

دامية حاسمة استُؤصلت على أثرها شوكة هؤلاء المارقين وقُضي على بدعهم وخرافاتهم» [١].

والفِرقة الثانية: المشبوهة في الهند كانت «الفرقة الرَّوْشَنَائيَّـة» ، وأن ما قامت به هذه الفرقة من مساندة قوة العنصر الأفغاني السياسي والعسكري الذي آل إلى الانقراض ، ومُقاومة السيطرة المغولية التي كانت تمتد شرقاً وغرباً ، وما قامت به في هذا الصدد من دور كبير [٢] ، يجعل كتابات المؤلِّفين في هذا العصر وتصريحاتهم ، في حاجة إلى التأمل الكثير ، والتحقيق الدقيق ، ليُعلم إلى أي حد عملت فيه المصالح السياسية ، وما هي حقيقتُها التاريخية الصحيحة؟ فإنه يُوجد هناك تعارض واسع المدى في تصريحات أتباع هذه الفرقة وحُماتها، وتصريحات مخالفيها وأعدائها، فيسمي أتباعُها مؤسس الفرقة بـ«بير رَوْشَن» (أي الشيخ المنوّر) ، ويسمِّيه المعارضون بـ«بيرتاريك» (أي الشيخ المظلم)، وكان مؤسِّس هذه الفرقة «بايزيد الأنصاري»، وكان يقال له «بير رَوْشَان» (أو رَوْشَن).

وُلد بايَزِيْد بن عبد الله عام ٩٣١ هـ في «جَالِنْدَهَر» قبل تولي الملك بابر بسنة واحدة، ولقد قضى طفولته ويَفاعته في صراع قائم في أسرته ، وفي عدم اهتمام بشأنه وقلة مبالاة به ، فشبَّ ولم يُكمل دراسته، واتفق أنه في بعض أسفاره التقى ـ كما تقول بعض الروايات ـ بسليمان الإسماعيلي ، ويذكر أيضاً أنه

---

(١) انظر «تاريخ بلوج»، استفدت من موضوع الفرقة الذكرية من مقال نشر في مجلة «الحق» الصادرة من «أكوره ختك» مجلد ١٩٧٩ م، كتبه الشيخ عبد الحق رئيس المعلمين بدار العلوم تربي بلوجستان، وراجع أيضاً مقالاً بعنوان «دراسة تفصيلية للديانة الذكرية» «مجلة الحق» عدد شهر يناير ١٩٨٠ .

(٢) من الممكن ـ بالنظر إلى ما كان للتصوف من تأثير وقبول عام في ذلك العصر ـ أن يكون بعض الطامحين البعيدي النظر يريدون من وراء هذه الحركة جمع شمل الأفغان، وتوحيد كلمتهم تحت راية حركة دينية ، لمحاربة الدولة المغولية الفتية ، واستعادة سلطة الأفغان الذاهبة، وإقامة دولتهم من جديد.

صحب «اليُوْكِيِّن» [١]، ويقول المترجمون له: إنه بدأ من ذلك الحين يرى رؤى، ويسمع أصواتاً تناديه من وراء الغيب، فاشتغل بالذكر الخفي، ثم استغرق في ورد «الاسم الأعظم».

فلمَّا بلغ الحادية والأربعين من عمره، هَتف به هاتف من السماء أنه لم يعد في حاجة إلى الطهارة الشرعية، وينبغي له أن يصلِّي صلاة الأنبياء [٢]، بدل صلاة المسلمين، ثم جعل يعتقد أن الناس كلهم منافقون ومشركون، وانصرف إلى (الرياضة الأربعينية)، ثم أمر بأن يصدع بدعوته، ويبلغ دينه واهتم بدعوى المهدية، والإلهامات الربانية [٣] وظلَّ مُرِيدوه يزدادون كل يوم، وعَين بعضاً منهم خلفاء ليقوموا بالدعوة والتبليغ، ويوسعوا نطاق حركته.

ولكنَّ تعاليمه التي وردت في كتابه «صراط التوحيد» يظهر عليها أثر التعاليم الصوفية الغالية، والاعتداد بالنفس المتطرف الذي ينشأ عند أصحاب الرياضات والمجاهدات الذين لا يرجعون فيها إلى مُرْشِدٍ روحيٍّ خبير، ولايحملون العلم الصحيح من كتاب الله تعالى وسنة رسوله، كما ذكر فيها شيئاً من عقائده وأصوله، ولعلَّها عنده أصول الحرب وقواعدها حسب مستوى تلك الفترة التي كان يحارب فيها المغول، والقبائل الأفغانية المعارضة.

وبايَعتهُ عدةُ قبائل أفغانية بمنطقة (بِشَاوَر)، ودخلت في دائرة مريديه وأتباعه وبدأت قبيلة «مهمندزئي» بنشر هذه الدعوة، وتأثر بذلك السِّنْدِيُّون والبَلُوْجِيُّون، وكُتب له النجاح الكبير رغم معارضة العلماء ومشايخ الطرق.

وبَعث الشيخ بايزيد دعاتـهِ إلى حكـام البـلدان المجـاورة، وأمرائهـا

---

(١) أصحاب الرياضات من البراهمة، والنسَّاك منهم.

(٢) وقد صرح الشيخ بايزيد نفسه في كتابه «مقصود المؤمنين»: «إن الشريعة مثل لحاء الشجر وإنه لا حياة للشجر بدون لحاء» (ص٤٤٤) النسخة الخطية، مكتبة جامعة بنجاب.

(٣) وقد رد الشيخ بايزيد نفسه على هذا الاتهام بأنه «مهدي» كما جاء في المناقشة التي جرت بينه وبين قاضي خان الكابلي (انظر النسخة الخطية بجامعة بنجاب).

وعلمائها ، فجاء حاكمٌ من هؤلاء الحكام إلى بلاط الملك (أكبر).

وقَضى عامين وشطر عام من أيام حياته الأخيرة في حرب المغول، وأدركه الأجل عام ٩٨٠ هـ بمنطقة «كَالآبَانِي» ، ودُفن في «هِشْتَ نَـكَر» ، وبقيت من مؤلفاته ثلاثة كتب ، وهي «خير البيان» و«مقصود المؤمنين» و«صراط التوحيد»، التي تناولَ فيها أصول فرقته وعقائدها بالإيضاح والتفصيل.

ويعتبر «خير البيان» و«مقصود المؤمنين» كتابين شِبه مُقدَّسين عند أتباع هذه الفرقة.

وكان أكبرُ معارضيه أخوند درويزه، الذي كان مريداً للسيد علي الترمذي المعروف ب «بيربابا» (م ٩٩١ هـ)، ألَّف في الرد عليه كتاب «مخزن الإسلام».

وألَّف الشيخ بايزيد ترجمة حياته باسم «حال نامه بير دَسْتكِيْر» (بالفارسية) ورتبه علي محمد مخلص مع زيادات وإضافات ترتيباً جديداً.

وتفرَّق أتباعُ هذه الفرقة بسبب الحروب الداخلية والخارجية الطاحنة ومعارضة العلماء الشديدة في مختلف أنحاء الهند ، وما زال ينقص عدد المعتنقين لها حتى انقرضوا، وانقرضت هذه الفرقة [١].

يتحدَّث مِرْزا نَصر الله خان فدائي مؤلف «داستان تركتازان هند» (قصة غزاة الهند) عن هذه الفِرقة ، فيقول:

«إنَّ الفرقة الرَّوشنائية هي تلك الفِرقة التي أسسها «بايزيد» أحدُ أبناء الهند ، أنه دخل في الأفغان وادعى النبوة، وتسمى بـ«النبي الروشنائي» وكسِب أتباعاً وأنصاراً ، فرفضوا الصُّحف السماوية ونبذوا عبادة الله، وتُفيد أقواله أنه كان يقول بوحدة الوجود [٢]، ويعتقد أنه ليس هناك إلاَّ «واجب الوجود»، وكان

---

(١) استفدت هذه المعلوماتُ من مقال للمرحوم البروفيسور محمد شفيع تضمنته دائرة المعارف الإسلامية (باللغة الأردية) ج٤.

(٢) ولم يكن ذلك بدعاً في العصر ، فقد كان أكثر الصوفية والمشايخ (لاسيما في الهند) يبالغون في هذه العقيدة (المؤلف).

يُمجِّد الرسول العربي ﷺ وكان يُبشِّر الناس بقُرب اليوم الذي تخضع فيه الدنيا كلها لحكمه ، ويتصرفُ فيها كما يشاء».

«ويُستفاد من كتاب بايزيد في ترجمة حياته أنه كان مخاطَباً بالإلهامات، وأن جبريل كان ينزل عليه ، وأنَّ الله شرَّفه بالنبوة ، وكان يستدل على مسلكه هذا بقوله تعالى ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١١٥] ولم يكن يرى الغُسل بالماء واجباً ، وكان يعتقد جواز قتل معارضيه»(١).

وذكر مِرزا نصر الله شيئاً من أقواله التي يغلب عليها طابع التصوف ، والمعاني الروحية ، إلاَّ أنه يتجاوز إلى آراء غير إسلامية ، وأفكارٍ غير سليمة ، يقول:

«كان أهمَّ ما يعتني به ويحث عليه: معرفةُ الله ومعرفة الذات ، فإذا وجد هِنْدُوكياً يعرف نفسه ، يُرجِّحه على المسلم الذي لا يعرف نفسه ، ويأخذ الجِزية من المسلمين ، وكان يَضع الخُمس في بيت المال عنده ، ويوزع منه على الفقراء والمساكين ، وكان جميع أبنائه يجتنبون الفسق والفجور والظلم والعدوان ، له مؤلفات عديدة في العربية والفارسية ، والهندية والبشتوية ، وله كتاب «خير البيان»، الذي ألَّفه في أربع لغات، وهو ـ كما يعتقدون ـ كلامُ الله المباشر إليه ، والصَّحيفة السماوية المنزلة عليه»(٢).

وتدلُّ كُتب التاريخ التي أُلِّفت في عصره، أن الشيخ بايزيد كان قد جمع حوله عدداً كبيراً من الأفغان ، وكوَّن منهم قوة مهابة ، واستولى على ممَرِّ (خَيْبَر) بعد أن جعل مقرَّه في «كوة سليمان» وكان يقوم بالغارات على القرى المجاورة ، فأنفذ الملك أكبر لمقاومته، وكسر شوكته ، ولكن لم يستطع هذا الجيش التغلُّبَ عليه واستئصال شأفة هذه الحركة.

---

(١) انظر «داستان تركتازان هند» ص٣٠٤ ـ٣٠٥.

(٢) نقلاً عن «حال نامه بايزيد» المندرج في «ديستان مذاهب» للملاَّ حسن خان ، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩.

واستمر أبناءُ بايزيد وخلفاؤه بعد وفاته، على معارضة الحكومة المغولية ، وخطراً دائماً لهذه الدولة ، ولم يستطع كبار قواد الدولة المغولية ، كـ رَاجَهْ مَانْ سِنْكه، وبَيْرَبَل ، وزَيْن خان أن ينتصروا عليهم ، بل إن «بيربل» لقي حتفه في معركة من المعارك معهم ، وباء مان سنكه كذلك بالفشل والخُذلان عام ٩٩٥ هـ ، في كرَّة على الروشنائيين ، ولم يُقض على هذه الفتنة إلاَّ في عهد الملك شاه جهان عام ١٠٥٨ هـ [١].

المَهْدَوِيَّة:

وكان من أنشط الحركات المتطرِّفة وأقواها في ذلك العصر ، حركة المهدوية ، التي هَزَّتِ المجتمع الإسلامي في شبه القارة الهندية ، وما جاورها من البلاد هزاً لم يَعرفه تاريخ الحركات والدعوات منذ زمن بعيد ، مُنشِئها السيد محمد بن يوسف الجُونْبُورِي الذي وُلد عام ٨٧٤ هـ ، وتوفي في أوائل القرن العاشر عام ٩١٠ هـ ، إلا أنَّ حركته القوية خلَّفت آثاراً تمتدُّ إلى أواخر القرن العاشر ، ونستنتج مما كتبه المؤرِّخون المعاصرون لهذه الحركة من معارضين وموافقين ما يلي:

١ ـ كان السيد محمد الجُونْبُوْري من نوابغ الرجال خُلقاً وديناً ، وتأثيراً روحياً قوياً ، لا تُنتج أمثالهم الدنيا ، إلا بعد قرونٍ وعهود طويلة ، كان شجاعاً جريئاً مُنذ ريعان شبابه قَلِقاً على أوضاع عصره ، وظروفه ، صادعاً بالحق ، جاهراً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، زاجراً عن المناهي ، مشدِّداً في الإنكار ، ولُقِّب لأجل هذه الخصال في عصره بأسَد العلماء، أخذ عِلم السلوك والإحسان من الشيخ دانيال، والتزم المجاهدات الشاقة، والرياضات الشديدة.

وقضى أعواماً في الأودية والجبال، مُعتزلاً عن الناس، وذلك ما يؤدِّي في الغالب ـ لا سيَّما إذا لم تكن هذه التدريبات الروحية تحت إشراف مرشد

(١) ملخص من كتاب «داستان بركتازان هند».

خبير ، وإرشاداته وتعاليمه ـ إلى وقوع الإرشادات الغيبية، والواردات القلبية التي يُخاف منها زلة الأقدام، والخطأ في الفهم والتفسير ، ويحمل مثل هذا الإنسان ـ الذي لم ترسخ قدمه في العلم ، ولم يَبلغ درجة البحث والتحقيق ـ الكلمات على غير محاملها ، ويفهم الإشارات الغيبية في غير معانيها ، فكان منه أن ادَّعى في رحلة من رحلاته أنه «المهدي» وأعلن بعد ذلك ـ عدَّة مرَّات في أمكنة مختلفة ـ أنه المهدي الموعود ، ودعا الناس إلى الإيمان به .

٢ ـ وكان ـ لكثرة مجاهداته ورياضاته ، وقوته الروحية ، واهتمامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ يَملك تأثيراً قوياً ، فكان يَسحر الناسَ بشخصيته ومعاشرته ، ويأخذ بألباب الناس بحديثه وخطابه ، حتى كان من يحضره من العامة والمُلوك والأمراء ويجلسون عنده ، كأن على رؤوسهم الطير ويستمعون إليه في دهشة وتأثُّر وانبهار ، ويَهون عليهم رفض المناصب الكبيرة ، والإعراض عن الجاه والسلطان ، والزهد في الدنيا وهجر الأوطان ، ومرافقته في السفر والحضر ، والتسليمُ له والانقياد لأمره ، حدَث ذلك مع السلطان غياث الدين شاه الخلجي ، في عاصمة حكومته «مَانْدُو» ، وكان ذلك شأن السلطان محمود شاه الكُجْراتي في جانبانير بكُجرات ، وشوهد له هذا التأثير السحري العجيب في «أحمد نَـكَر» و«أحمد آباد» و«بِيْدَرْ» و«كُلْبَرْكَهْ» حيث تهافتَ عليه الناس ، وبايَعه خلق كثير ، وانضم إلى رَكبه آلافٌ من الناس ، وشهدت منطقة السِّند اجتماعاً حاشداً ، وجموعاً متدفقة كالسيل ، وكان لخطابه في «قَنْدَهَار» دوي عظيم حرَّك ساكن البلد وهز الأرض ، ومال إليه حاكم قندهار مِرْزَاشاه بَيْك وأكبرهُ.

٣ ـ وكانتْ حياتُه حياةَ زُهد وتجرد ، واستغناء ، وانقطاع كامل إلى الله ـ تعالى ـ وكان الناس يشاهدون منه ـ سفراً كان أو حَضَراً ـ مظاهرَ الزُّهد والإيثار ، والذكر والعبادة ، يُوزِّع الطعام على الناس بالسَّوية من غير تمييز بينَ غَنيٍّ وفقير ، أهلُه وأفراد أُسرته لا يمتازون عن الناس في شيء ، فكان هذا

الجو الإيماني يؤثِّر على جميع الوافدين ، فلا يَرجعون من عنده إلاَّ معجبين به ، مأخوذين بتأثيره.

٤ ـ أنجبتْ هذه الحركةُ رجالاً أقوياء مُخلصين يستميتون في الدعوة ، ويُجاهِدون في سبيلها ، ولا يخافون سُلطة وسطوة ، ويقومون بواجب «كلمة حقٍّ عند سلطان جائر» بشجاعةٍ نادرة وجرأة خارقة ، يتحمَّلون مشاق التعذيب والإيذاء الشديد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد وَهبوا نفوسهم ومُهجهم في هذا الطريق راضين مسرورين ، لا يَقفُ الإنسان على هذه البطولات والمواقف الجريئة إلا بإعجاب وإكبار وانفعال ، ويَضطر إلى أن يعترف بتأثير تربية السيد محمد الجُونْبُوري وصحبته.

واقرأ ـ على سبيل المثال ـ ترجمةَ الشيخ علاء بن حسن البَيَانَوِي (الشيخ العلائي ـ م ٩٥٧ هـ) الذي قام بمسؤولية الدعوة ، والوعظ والتذكير في بلاط السلطان سليم بن شيرشاه السُّوري ، واقتصر على تحية الإسلام عند السلطان ، ولم يفعل كما كان يفعله أصحاب البلاط ، والوافدون على السلطان من التزام الكلمات المعينة والانحناءِ والخضوع.

وضُرب بالسياط ـ ذات مرة ـ في حالِ إصابته بمرض الطاعون ، وإعيائه بعد السفر ، فلم يتحمل هذا الضَّرب ومات ، ورُبِط جسمُه برجل الفيل وطِيفَ به في المعسكر [١].

٥ ـ كانت دعوتُهُ مؤسَّسة على خمسة أصول:

(١) الانصراف عن الدنيا.

(٢) العزلة عن الخلق.

(٣) الهجرة عن الوطن.

---

(١) راجع للتفصيل ترجمة الشيخ علاء بن حسن البيانوي ، «نزهة الخواطر» ج٤ ، و«منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البدايوني.

(٤) مصاحبة الصدِّيقين.

(٥) دوام الذكر (على طريقة حفظ الأنفاس)، وكان يرى مشاهدة الرب عز وجل ـ سواء كان بالعين أو بالقلب، في اليَقظة أو في المنام ـ شرطاً لازماً لتحقق الإيمان.

وقد صدرت عنه في حال السُّكر أو بسبب خطئه في فهم المعنى والمراد كلماتٌ وأقوال صريحة ودعاوى واضحة ـ مرَّات عديدة ـ ادعى فيها لنفسه ما لا نجدُ له تأويلاً أو مَحْملاً سائغاً إلاَّ بتكلف شديد، والتي أدَّت بأتباعه ـ مهما كانت نيَّتهم في بداية الأمر، ومَهْما كانت عواطفهُم الدِّينية الطيبة ـ إلى استحالتهم فرقةً جديدة، تُخالِف ما عليه الجمهور، وتُعارض أهل السنة والجماعة، وتستند إلى هذه الأقوال الشاذة، وتُؤسِّس عليها عقائدَها وأصول ديانتها.

ثم أضاف فيها الغُلاة من أتباعهم ـ كما هو المعروف في تاريخ الفِرَق ـ وبالغوا في تعظيمه وتقديسه، حتى ساووه بالأنبياء والمرسلين، بل فضَّلوه عليهم أحياناً.

وبلغ به بعض المتطرفين الغلاة إلى مَرتبة النبي الخاتم ﷺ، وإن كان السيد محمد في زعمهم واعتقادهم تابعاً لسيدنا محمد بن عبد الله ﷺ ومتقيِّداً بالشريعة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ.

وبلَغ ببعضهم الغلو المُفرط، والتطرُّف الجانح إلى أن الكتاب والسنة إذا خالفا قولاً من أقواله، أو فعلاً من أفعاله، فكتابُ الله وسنَّةُ رسوله تبعٌ لأقواله وأفعاله.

وغلوا غُلواً عجيباً في عقيدة مشاهدة الله تعالى فمن لم يشاهد «الأنوار الإلٰهية» بعين الرَّأس أو عن طريق القلب أو في حال اليقظة أو المنام، فليس بمؤمن، وبدأ الخليج بين عامة المسلمين وبين هذه الفرقة ـ بعد ظهور هذه العقائد ـ يتَّسع ويعمقُ على مر الزمان حتى شذَّت هذه الفرقة المدعوة

بـ«المهدية» عن أهل السنة والجماعة، وانقطعت صِلتُها بهم بصورة كاملة، وضاعتْ تلك الأهداف التي أُنشئت لها هذه الحركة ، وكان يستهدفها مُؤسِّسها ويرمي إليها .

واستمرَّت آثار هذه الحركة على أفغانستان والهند إلى أواسط القرن العاشر ، وقامت لحماتها وأنصارها عدة دُول في ولاية (دَكَن) ، ويُقدَّر عدد أتباع هذه الفرقة وقوَّتها السياسية التي ظهرت في أواخر القرن العاشر بأنَّ جمال خان المهدوي ـ الذي كان من كبار أصحاب المناصب في البلاط ـ لما تولَّى زمام الشؤون الملكية بولاية «أحمد نَكَر»، في عهد السلطان إسماعيل نظام شاه ـ وكان صغير السن إذ ذاك ـ إلى نِحلته ، ثم لم يمض على ذلك كثيرُ زمن حتى اجتمعتْ لديه طوائف من المهدوية من مختلف أنحاء البلاد ، والتفَّ حول جمال خان من المهدويين حوالي عشرة آلاف شخص ، وخضعت له ولايةُ أحمد نكر ، واستولى عليها استيلاءً كاملاً .

ثم لما عاد بُرهان شاه ـ وكان قد خرج في رحلة من الرحلات ـ إلى أحمد نكر ، ٩٩٨هـ ، قضى على النِّحلة المهدوية التي كانت انتشرت انتشاراً واسعاً ، ونَشر المذهبَ الإماميَّ الذي كان عليه من قبله ، وأحياه من جديد [١].

وظهر في أواخر القرن العاشر إعياءٌ وضعفٌ شديدٌ في الحركة المهدوية ، وقد كانت هذه الدعوة ، وادعاءاتُ السيد محمد الجُونْبُوري ، وتشدُّد أتباعه الغلاة المتطرفين ، تُحدثُ رَجَّة في معتقدات المجتمع المسلم ، واضطراباً في الأفكار ، وقلقاً في الأوضاع ، وهال ذلك وأفزع العلماء الراسخين ـ في ذلك العصر ـ الذين كانوا على بصيرة من الكتاب والسنة ، ومعرفةٍ تامة بالعلوم الدينية ، وكانوا يتوجَّسون خيفة من هذه الفتنة العمياء ويَرونها تمهيداً لضلال مستطير ، وانحراف كبير .

---

(١) ملخَّص من «تاريخ هندوستان» ج٤، تأليف الأستاذ ذكاء الله الدهلوي.

فنهض العلامة محمد طاهر الفَتْني مؤلِّف «مجمع بحار الأنوار» (٩١٣ ـ ٩٨٦ هـ)، وهو أكبر عالم ومحدِّث في عصره ، بتفنيد هذه الدعاوي والرد عليها ، وسَدّ هذه الثلمة في الدين ، وعاهد الله تعالى على محاربة هذه البدعة ـ التي سادت في ولاية كجرات ، وقام لها دعاةٌ وأنصار ـ والقضاء عليها ، وأنه لا يَلُوث العمامة حتى يُزهق هذا الباطل وينتصر للحق.

ثم لما فتح الملك أكبر ولاية (كُجْرَات) عام ٩٨٠ هـ ، وقابله العلامة محمد طاهر الفَتْنِي، لاثَ العمامة على رأسه بنفسه ، وقال له : «إنَّ ما عاهدتَ الله عليه من نصر الدين وحمايته ، واستئصال هذه الفرقة الناشئة ، عليَّ تنجيزهُ والقيام به» ، وولَّى بعد ذلك مرزا عزيز الدين أخاه من الرضاعة حاكم «كجرات» الذي شدَّ أزر العلامة الفَتْني ، وساعده في عمله ، حتى كسر شوكتهم ، ولكن لما أقيل مرزا عزيز الدين من هذه الولاية ، وولي مكانه عبدُ الرحيم خانخانان ،قامت قائمة المهدويين من جديد ، وعادوا إلى نشاطهم ودعوتهم ، وبارزوا في الميدان ، فحسَر العلامة الفَتْني رأسه من العمامة ، وقصد العاصمة ، وتبعته طائفة من المهدويين ، ولم يصل مدينة أجِّين حتى قتلوه غيلة [١].

أسباب القلق والفوضى في الأفكار:

إنَّ دراسة التاريخ والتعمق في فلسفته يدل على أن الأسباب الأصيلة والدوافع القَويَّة لمثل هذا القلق والاضطراب ، والحركاتِ الهدامة الناشئة من ردود الفعل ، والفوضى في المعتقدات والأفكار تتحدد ـ بصفة عامة ـ فيما يأتي :

١ ـ تعارض القول والفعل ، والعقيدة والحياة ، والتناقض الموجود في المجتمع ، كان يحمل القلوب الحساسة ، والمشاعر المرهفة على القلق

(١) راجع «نزهة الخواطر» ، ج٤.

والتوجُّع ، وهذا القلق ـ عندما يَبلغ مرحلةً خاصة من مراحل تطوره ـ يجدُ متنفَّساً في الدعوات الثورية ، والحركات الهدامة ، وأصحاب النفوس المضطربة القلقة إذا لم يساعدهم الحظُّ في إنشاء حركة أو دعوة إيجابية بناءة ، فإنهم يُصابون دائماً بالشك والارتياب ، وتزعزع العقائد والأفكار ، وتتحوَّل مثل هذه الحركات ـ بصفة عامة ـ إلى دعوات سلبية متطرفة ، ومعتقدات شاذة وتصبحُ أكثر فساداً وأعمق ضلالاً ، وأوسع خطراً واضطراباً للبلاد ، وإثارة للفتن من ذلك المجتمع الفاسد الذي تقوم هذه الدعوات لإصلاحه ومعالجة فساده .

ويُخيَّل إلينا أن التَّرف وكثرة الأموال ، والطمعَ في المناصب والوظائف والتنافسَ في الحصول عليها ، جرَّ الناس إلى هذا التناقض والنفاق العملي ، ووُجدتْ طبقة كبيرة من عُبَّاد المادة وأبناء الدنيا ، الذين تخطَّوا حدود التعاليم الدينية والخلقية ، وتهافتوا على نيل الجاه والمنصب ، وتساقطوا على المتع واللذائذ في حِلٍّ وغير حل ، غير مُبالين بالقيم والآداب والحدود الإسلامية .

وتنشأ مثل هذه الطبقة ـ دائماً ـ في ظل حكوماتٍ واسعة قوية ، وفي عهود الأمن والاستقرار والرخاء .

ويبدو أن المجتمع الهندي في آخر عهد حكومة الأسرة السُّورية ، وبعد قيام الدولة المغُولية أصيب بهذا الداء العضال، واتَّجه هذا الاتجاه المتهور ، ونُفِّذت قوانين معارضة للإسلام ، وطبقت عاداتٌ وأعمال تُناوىء الدين ولا تمت إليه بأيِّ صلة (١) .

وقد مُنيت الدولة الأموية ، والدولة العباسية أيضاً ، بظهور هذه الطبقة

(١) يستفاد من كتب التاريخ أنه في عهد السلطان سليم شاه (أو إسلام شاه) كان يجتمع في عاصمة كل ولاية كبار أصحاب المناصب من الأمراء والوزراء يوم الجمعة، ويوضع حذاء السلطان سليم شاه على كرسي في خيمة كبيرة ، فيحنون له رؤوسهم، ويقرأ عليهم مجموعة القوانين الملكية (انظر تاريخ الهند للسيد هاشمي الفريد آبادي، ج ٣، ص ٤٠).

المترفة ، وهي الطبقة التي يُسمِّيهم سيدنا حسن البصري ـ رضي الله عنه ـ (م ١١٠ هـ) بـ «المنافقين».

٢ـ استبدادُ الحكام والسلاطين، وسلطتهم المطلقة ، وظُلمهم وعدوانهم وإعراضهم عن أحكام الشريعة الإسلامية ، وعِبادتهم للنفس والأهواء مما يحمل الرجال الأقوياء الطامحين على ثورات وحركات قوية تهزّ الدولة ، وتُلحق الأضرار بالمسلمين.

٣ ـ غَلبة الطقوس والتقاليد ، والاهتمام البالغ بالمظاهر الجوفاء ، وانحطاطُ المجتمع الخلقي والعقلي ، وجمود الأوساط العلمية ، وسيطرةُ التقليد الأعمى عليها (١)، وفُقدان المناهج التعليمية المليئة بالحيوية والنشاط وبُعدها عن الواقعية، وفَقْرها في إقناع العقول المتطلعة ، والأذهان المتشكِّكة، كل ذلك يدفع الناس إلى اعتناق دعواتٍ وحركات تَروي ظَمأَهم ويَجِدون فيها سلواهم ، وتَنهجُ لهم مسالك جديدة ـ خاطئة أو صحيحة ـ وتخرجُ بهم عن الدائرة الضَّيِّقة المحدودة.

٤ ـ كما أنَّ من البواعث الأساسية ، والدوافع القوية ، لهذا الاضطراب الفكري، غَفلةُ المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنَّة ، وقِلَّة العلم بالحديث الذي يُساعد على تكوين تصوُّر سَليمٍ وفهم صحيح للدين ، ويُعرف من خلال دراسته

---

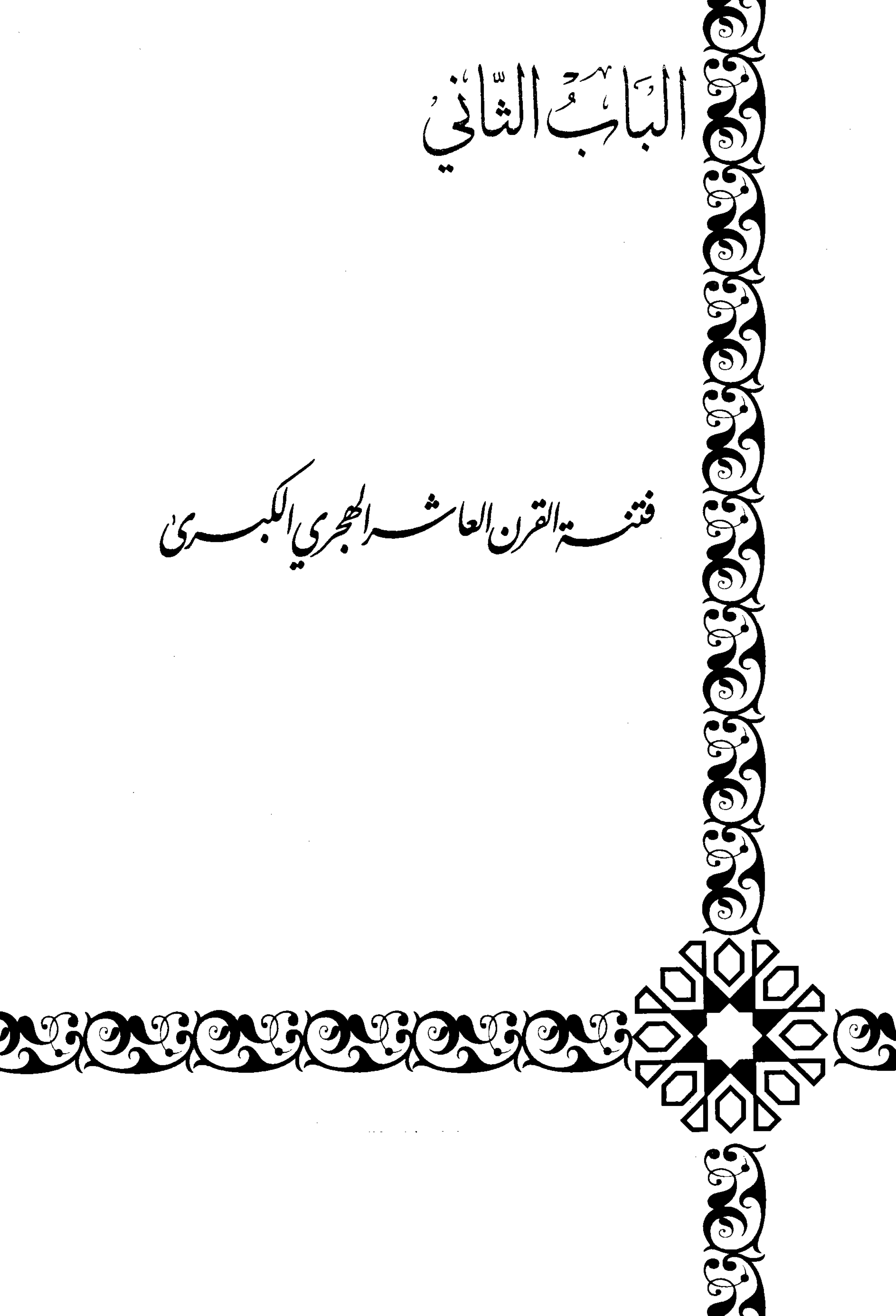
(١) يصوِّر البروفسور خليق أحمد نظام رئيس قسم التاريخ في جامعة عليكره الإسلامية ، هذا العهد ، ويشخص هذا الداء تشخيصاً صحيحاً ، فيقول:
«كانت أوضاع المسلمين الاجتماعية الخلقية تسير ـ بسرعة ـ نحو التدني والانحطاط ، وإن ما جاء من القصص والروايات الغريبة في «افسانة شاهان» و«تاريخ داودي» تنم عن التسفل الخلقي المشين والاضطراب العقائدي العظيم ، إن حياة «الدراوشة» المترفة الناعمة ، وانحراف طلبة العلم ، والعقائد الخرافية ، في التمائم والحجب وأساطير السعالي والجن ، وروايات «مصباح سليمان» ليست علائم على مجتمع سليم ، ونظام خلقي قويم ، وقد كانت الحركة المهدوية ـ في حقيقة الأمر ـ محاولة للقضاء على هذا الانحطاط العقلي ، والتزمت الفكري ، والجمود المذهبي (انظر «سلاطين دهلي كي مذهبي رجحانات ـ الميول الدينية لدى سلاطين دهلي ـ ص٤٥١».

مدى بعد المسلمين وانحرافهم عن الإدراك الصحيح لأصول الدين ، والعمل المستقيم ، وأُسوة الرسول ﷺ ،ومنهاج الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين .

٥ ـ عَدمُ وجود شخصية دينية قوية تَسْمُو على المستوى العام في مقدرته العقلية والروحية ، تملك التأثير القوي ، وتجذب النفوس ، وتأخذُ بمجامع القلوب ، وتُزيل الرِّيبَ والشكوك ، وتُعالج الروح القلقة ، والنفس المضطربة ، وتَنفُخ في جسم المجتمع الخامد روحاً جديداً ، وتُعيد الثقة والاعتماد على خلود الإسلام ، وصِدق الرسالة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، وأن أسباب الرقي والكمال موصولة بها ، راجعةٌ إليها .

وتدلُّنا دراسة تاريخ القرن العاشر ـ في ضوء كُتب السير والتراجم ، وسِجلاّت الوقائع والحوادث ـ على أن هذه الدوافع والأسباب الطبيعية للفوضى والاضطراب تضاعفت في الهند ـ على أقل تقدير ـ بالنسبة للقرون الماضية ، وكان من نتيجة ذلك ، ظهور هذا القلق الفكري ، والحركات الثورية الهدامة ، على هذا النطاق الواسع في القرن العاشر .





الباب الثاني

فتنة القرن العاشر الهجري الكبرى

فِتنة القرن العاشر الكُبرى

١ ـ الاعتقادُ ببداية نظام جديد للعالم على بداية الألفِ الثاني من الهجرة:

مُغالطةٌ في قَضية الألفِ الثاني:

تَحمِلُ أواخر القرن العاشر الهجري أَهميَّةً كبيرة ، من حيثُ إن التقويم الإسلامي كاد يَطوي فيها مرحلة من مراحل عُمره ـ وهي مدَّة ألف سنة ـ ويستأنفُ مرحلة ثانية ، وهو الألف الثاني الذي يبتدىء من ١٠٠١ هجرية .

وليس هذا التحوُّل ـ في الأوضاع العادية ـ أمراً خطيراً ، أو شيئاً يسترعي الانتباه ، فالدنيا ـ في عُمرها الطويل ـ والحياة الإنسانية ـ في تقويمها المديد ـ تَقْلبُ ورقة من عُمرها عند إيذانِ كُلِّ قرن بالرحيل ، وولادةِ قرن جديد ، كذلك كان القرن العاشرُ على انصرام وارتحال ، والقرن الحادي عشر على وصول واستهلال ، لا أقلَّ ولا أكثر ، ولم يكن ذلك بِدعاً من الأمر ، ولا حادثاً لم يَسْبقْ له نظير .

ولكن لا يَعزبُ عن البال أنَّ الزمن كان زمنَ اضطراب شديد في الأذهان والعقول ، وتزلزل في العقائد والأصول ، وغفلة عن التعاليم الصحيحة للكتاب والسنَّة ، وجهل مُطبق ، ونُفورٍ من علوم الدين ، واستنكاف عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، واعتبارِ علوم اليونان غاية مدارك العقول الإنسانية ،

تُسمَّى بـ«الحكمة» و«مقياس النبوغ والذكاء» والأفق البعيد في آفاق العلوم الإنسانية ، والمدارك البشرية الواسعة ، وكان شَقُّ الشَّعرة ، وصنع القُبَّة من الحبَّة في البحوث المنطقية والفلسفية والكلامية ، هي السِّدرة المنتهى والغاية الكبرى من المناهج الدراسية ، وفي الأوساط العلمية ، وعمَّت فيها الاستهانة بقيمة العلوم النبوية ، والوحي والتنزيل ، والنصوص القرآنية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، ويُعتبر الإيمان بها والإذعان لها جَهلاً وتقليداً أَعمى ، ومعاداة للعقل والتفكير.

هذا ، وكانت الثورة ضدَّ حكومات ذلك العصر ، ونُظمه السياسية التي كانت تَستَنِدُ ـ مُخلصةً أو غير مخلصة ـ إلى الدين، وتعتَمدُ للحفاظ على سلطتها عليه، «موضة» العصر وشِعار الأحرار.

كلُّ ذلك سبَّب وجودَ بعض المغامرين الطامحين الأذكياء المتسلِّحين بعلوم عصرهم ، فأصبَحوا يحلمون بالسلطة، ونَيل الجاه ، والرِّيادة والقيادة للعصر الجديد ، وتُدغدِغُ [1] قلوبَهم الأماني المعسولةُ باستغلال تقلُّب الليل والنهار ، وأن يَستمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخَلاقهم، ويَستفيدوا من تداول الأيام بين الناس، كما استفاد مؤسِّسو الديانات ـ في زعمهم ـ في العصور التي كانوا فيها، وأن يبدأ بدعوتهم وحركتهم تقويمٌ جديد في تاريخ الشعوب والبلاد ، كما بدأ التقويم الإسلامي الهجري بدعوة نبينا محمد ﷺ ، وظهوره في جزيرة العرب، والذي كان بداية عهد جديد احتضنَ العالم كله.

واعتبروا انتهاء الألف الأول في تقويم العالم وتاريخ هذا الدين ، واستئناف الألف الثاني حَدَثاً كبيراً ، وفُرصة سانحة لا تأتي بسهولة ، وفي فترات قريبة ، فلو أضاعوا هذه الفرصة الذهبية ، كان لا بدَّ من انتظار ألفٍ آخر ، ولا سبيل إليه ، فليس من الفِطنة والكياسة ـ كما ظنوا ـ تفويتُ هذه الفرصة ، وإلا فسوف يَندمون وَلاتَ ساعةَ مَنْدم.

---

(١) الدغدغة: تجميش في مواضع من البدن كأخمص القدم والإبط يهيج له الضحك.

إنَّنا لَنَشْهد ظِلال هذه الفكرة ، وآثار هذه الأماني الحالمة في مُختلف مناطق العالم الإسلامي في النِّصف الأخير من القرن العاشر ، ولا سيَّما في منطقة إيران ـ وهي جديرة بأن تسمَّى في ذلك العهد بيُونان الشرق ـ التي كانتْ أكثر مناطق العالم الإسلامي قلقاً واضطراباً ، وذكاء ، وشِدَّة حساسية ، وتوغُّلاً في العلوم العقلية اليونانية ، وافتتاناً بها ، وكان الألف الأول من التقويم الهجري على وشك الانتهاء ، وكان ذلك للمرة الأولى بعدَ ظهور الإسلام ، وكان الألف الثاني يَستعد ليبدأ دوره في التاريخ .

وقد ثَبَتَ في الأحاديثِ الصحيحة ظهورُ مجدِّدٍ على رأس كل مئة سنة [1] ، ويَشهدُ عليه التاريخ ، فكان بعض الأذكياء يَحلمون ـ عند بداية الألف الثاني ـ بنُهوض مؤسِّس للدِّين الجديد ، مكانَ مُجدِّد للدين القديم ، لما بين مئة سنة وألف سنة من الفرق الواسع ، والتفاوت العظيم ، وبدأ كثير من هؤلاء المغامرين الحالمين يُحاولون أن يُرشِّحوا نفُوسهم لهذا المنصب الجليل .

ولم يُكتب ـ مع الأسف ـ تاريخ مُرتَّب يُعنى بعَرض عقلية هذا العصر ، واستعراضِه فكرياً ونفسياً ، تتجلَّى فيه ظلال العواطف والخواطر المعتلجة في القلوب ، والأحلام والأماني السارية في النفوس ، والتصوراتِ والأخيلة المتحركة في الأذهان ، فإنَّ كُتبَ التاريخ القديمة والحديثة ، تدور كلُّها حول البلاط والملوك ، وتروي لنا قصصَ تداول الحكومات وانقلاب الدول ، والفتوح والهزائم ، وعطايا الملوك ، وعَزل الأمراء والولاة ونَصْبهم ، وأحوال الترف والبذخ ، وروايات الحرب والضرب ، فلو كان بين أيدينا تاريخٌ مُدوَّن لعقلية العالم الإسلامي وفكره في القرن العاشر لرأينا بوضُوح أنَّه عند قُرب طلوع الألف الثاني راود الأمل كثيراً من النفوس ، وداعبت الأماني والأحلام كثيراً من القلوب ، وأنهم بدؤوا يجمعون العدة والعتاد للتربع على عرش

---

(١) ممَّا رواه أصحاب السنن: «إنَّ الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدِّد لهذه الأمة أمرَ دينها» [أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المائة ، برقم (٤٢٩١) وغيره من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

القيادة ، ويمدون أطناب سيادة جديدة لعصر جديد .

لقد طُوِي بساطُ دعاء الخلق إلى الله وتزكية النفوس (التي سُمِّيت في العهد الأخير بالتصوُّف) بعد قيام الدولة الصفوية التي جَعلتِ المذهب الشِّيعي مذهباً سائداً في إيران ، وبالرغم من أن الجدَّ الأول لمؤسسي هذه الدوله الشيخُ صفي الدين كان صُوفيَّ المشرب والمسلك ، ولكن لما أن التشيُّع يُعادي التصوُّف ، عادت إيران في عَهد هذه الدولة الصفوية ـ التي أنجبتْ أمثالَ الإمام الغزالي الطُّوسي، والشيخ فَريد الدين عَطَّار النيسابوري ، ومولانا جلال الدين الرُّومي [١] ، ومولانا عبد الرَّحمن الجامي من العارفين المحقِّقين ، والتي أتحفت بغداد ، و«دهلي» و«أَجْمِيْر» بسيدنا عبد القادر الجيلاني ، وشيخ الشيوخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدِي ، والشيخ مُعين الدين الجِشْتِي ، والشيخ قطب الدين بُخْتِيَار الكَعْكِي الأوشي ـ لا تَعرف إلا العلوم العقلية اليونانية ، أو «الحرفية» المذهبية الطائفية .

وعاد علمُ الحديث ـ الذي كانت إيران مركزاً كبيراً من مراكزه ، والتي أَسعدتِ التاريخ الإسلامي بأمثال الإمام مسلم بن الحجَّاج القُشيري النيسابوري ، وأبي عيسى الترمذي ، وأبي داود السّجستاني ، وابن ماجه القَزويني ، وأبي عبد الرحمن النَّسائي من أئمة الحديث وأصحاب الكتب الخمسة ـ لا يَعرفُ له أنيساً ولا جليساً.

واختفتْ معالم الكتاب والسنة ، واحتلت العلوم اليونانية من المنطق والفلسفة مكانَ الصدارة ، وأصبحت مقياس الفضل والكمال ، وإنَّ هذه الثورة على العلوم الإسلامية الأصيلة التي كانت قَطعتْ صلة هذه البلاد الخصبة ، الغنية بالعبقريات ، على صحابة الرسول ﷺ وسُنَّته وأحاديثه ، أضعفت صلة الطَّبقةِ المثقفة الذكية ـ في هذه البلاد ـ بالنبوة المحمدية ، وعقيدة ختم الرسالة وخلود الإسلام ، وصلُوحه للبقاء ، إن لم تقطعها بصورة كاملة ، وأنَّه لو لم

(١) كان من سكَّان بلخ الواقع في خراسان ـ وهو يقع الآن في أفغانستان.

يكن الانتماء إلى أهل بيت النبي ﷺ على أساس التشيُّع ـ والاعتقاد فيهم ، لكان يخيم على هذه البلاد خطر العودة إلى المجوسية، وحضارة ما قبل الإسلام، وعَهْد رستم ، واسفنديار أبطال «الشَّاهْنَامَهْ» (الملحمة الإيرانية للفِردوسي) وتحولها جاهليةً بعدما دخلت في الإسلام.

٢ ـ الحركة النقطوية:

ولا يُستبعَد ـ في مثل هذه الأوضاع المتردية بإيران ـ نشوءُ حركات هدامة ، ومؤامراتٍ عقلية وفكرية للقضاء على الإسلام وهَدم كيانه ، وقد بلغت هذه الفكرة أَوجَها في «الحركة النقطوية» التي ظهرت في أواخر القرن التاسع ، وأوائل القرن العاشر ، والتي تَدُلُّ على الروح القَلقة في إيران التي ظهرت في صورة «مَزدك» تارة ، وفي مسلاخ «ماني» تارة ، وفي لباس حسن بن الصباح أخرى ، وكانت حركة إلحاد وزندقة ، يقول إسكندر منشى:

«تَعتقدُ هذه الفرقة بِقدم العالم كاعتقاد الفلاسفة ، ولا تؤمن ببعث الأجسام الإنسانية ، وبالحشر إطلاقاً ، وتعتبر الراحة والذِّلة في الدنيا مكان الجَنة والنار ، عِقاباً أو ثواباً على الأعمال الحسنة أو السيئة» (١).

ويقول شاه نَواز خان عنهم:

«عِلم نقطة» عبارةٌ عن الإلحاد والزندقة والإباحية ، واستحلال كل شيء ، إنهم يعتقدون كالفلاسفة المتقدِّمين بقِدم العالم ، ويُنكرون الحشر والنشور ، ويَرون ضِيْق الدنيا ورخاءها ثواباً أو عقاباً على حُسن الأعمال أو قبحها بدلَ الجنة والنار» (٢).

إنَّهم يقولون بنظرية النُّشوء والارتقاء ، ويزعمون أن النباتات والجمادات تطوَّرت إلى أن أصبحت إنساناً (٣) ، وليس لقُدرة الله تعالى أيُّ

---

(١) انظر «تاريخ عالم أرائي عباس» ج٢ ص٣٢٥.
(٢) مآثر الأمراء: ج٢، ص٦١٩.
(٣) دبستان مذاهب: ص آ ٣٠٠.

دخل في زعمهم في الإنبات، بل هو نتيجةُ تأثير العناصر والكواكب [١].

ويَعتقدون أن القرآن الحكيم من تأليف محمد بن عبد الله ﷺ، وأن الأحكام الشرعية هي آراء الرِّجال، ويستهزئون بالصلاة، والحج، والأُضحية [٢]، ويسمون شهر رمضان «بشهر الجوع والظمأ»، ويَسخرون من أحكام الطهارة والغسل [٣]، ولا يؤمنون بحرمة النساء المُحرَّمات، ويُنكرون الأمور المأثورة، ويدعون إلى الأمور العقلية [٤].

ويُقال: إنَّ مؤسِّس هذه الفرقة رجل يدعى «محمود البَسِيْخوانيّ» [٥]، وقد أثَّرتْ هذه الفرقة ـ في القرن العاشر الهجري ـ على آلافٍ من أبناء الهند وإيران، وبلغ عدد أتباعها في إيران وحدها إلى الألوف المؤلفة.

وكان النُّقطويُّون يعتقدون أن المُدَّة بين النشأة الأولى على الأرض إلى عهد

---

(١) انظر «مبلغ الرجال» ص: ٢٥ ـ النسخة الخطية الموجودة في جناح مولانا آزاد، بمكتبة جامعة عليكره الإسلامية.

(٢) مبلغ الرجال ص: ٢٥.

(٣) المصدر السابق: ص: ٢٥.

(٤) المصدر السابق، استفدت في هذا الموضوع من كتاب «الدين الإلٰهي، وخليفته» للبروفيسور محمد أسلم، وكتاب «الدراسات التاريخية والأدبية» للدكتور نذير أحمد ـ جامعة عليكره الإسلامية، (وكلاهما في الأردوية)، وراجع أيضاً إن شئت التفصيل والمعلومات الصحيحة «النقطويون أو البيساخانيون» للدكتور صادق كيا، (بالفارسية).

(٥) أعلن محمد البسيخواني الكيلاني ظهور هذه الديانة الجديدة عام ٨٠٠ هـ في أستر آباد، وتوفي عام ٨٣٢ هـ، وتأسست هذه الفرقة في إيران في أول القرن التاسع، وظلت تنمو وتقوى حتى كان أتباعه ـ في القرن العاشر والحادي عشر ـ بلغوا الآلاف المؤلفة في الهند وإيران، ويذكر المؤرخون الإيرانيون، والمؤلِّفون المسلمون هذه الفرقة باسم «الملاحدة التناسخية» وأهل الزندقة والإلحاد، ولما أن محمود بسيخاني يعتقد خلق كل شيء من الطين، ويسمي الطين «نقطة»، أو استعان في بيان مفاهيم القرآن ـ في زعمه بعدد الحروف والنقط ـ سميت هذه الفرقة بـ«النقطوية أو أهل النقطة». من مقال«نظرة عابرة على الفرقة النقطوية» المذكور في «الدراسات التاريخية الأدبية» للدكتور نذير أحمد باختصار وتلخيص.

محمد البسيخواني تبلغ ثمانية آلاف سنة ، وكان هذا العهدُ الطويل عهدَ ازدهار العرب وسيادتهم؛ إذ أنَّ الأنبياء والمرسلين على مدى هذه الأزمانِ المتطاولة كانوا يُبعثون في العرب فحسب ، وأن ظهور محمود بسيخواني قضى على السيادة العربية [١] ، فلا يُبعث نبي أو رسول إلى ثمانية آلاف سنة أخرى ، إلا في الشعوب العجمية [٢].

إنَّ للعقيدة الأساسية التي نادى بها محمود البسيخواني ـ وهي «أن الدين الإسلامي أصبحَ منسوخاً ، فلا مناصَ من قَبول الدين الجديد الذي جاء به محمود» و«إنَّ الإسلام قد استنفدَ دوره ، وقَضى عمره ، فمسَّتِ الحاجة إلى دين جديد ـ صلةً خاصة بالعمل التَّجديدي الذي قام به الإمام السرهندي ، ويَدلُّ إعلانُ هذا الدين الجديد وظهورُه في القرن العاشر على وجود هذه «العقيدة الألفية» لديهم ، وأنهم ـ منذ طلوع الألف الثاني ـ يبدؤون بحركتهم ودعوتهم بجدٍّ واجتهاد.

عامَلَ شاه عباس الصَّفويّ في إيران أتباعَ هذهِ الديانة النّقطوية ، معاملةً شديدة ، فقتل الألوف منهم ، وكان شاه عباس أشدَّ من سابقيه في عقاب هؤلاء المارقين ، ولم تكن هناك فِرقة ـ في نظر الشاه ـ أعظمَ خطراً ، وأكبر ضرراً من هذه الفِرقة ، فقام سنة ١٠٠٢ هـ بعملية واسعةٍ للتنكيل والتقتيل والتشريد ، ففرَّ كثير منهم بسبب هذا التنكيل والتَّشريد إلى الهند ، وكان منهم الشيخ حياتي الكاشي ، الذي بقي في السِّجن عامين ، ثم أُفرج عنه ، فقصد (شِيْراز) ، ثم مكث في وطنه أياماً عام ٩٨٦ هـ ، توجَّه على إثرها إلى الهند ، وكان هو في (أحمد نَـكَر) عام ٩٩٣هـ وكان شريف الآملي ـ الذي يُعد من العلماء النابغين ـ ذا صلةٍ وثيقة بكبار أصحاب هذه الفرقة ، سافر إلى الهند بعد ما ضاقت عليه أرض إيران ، وضاق ذرعاً بأهلها ، وكان الملك أكبر يُعامله معاملةَ المُريد

---

(١) ولمحمود أو لبعض مريديه بيت يقول فيه: «لقد جاءت نوبة أتباع محمود ، وذهب ما كان يتعاظم به العرب على العجم».

(٢) داستان مذاهب: ص٣٠١.

لشيخه ، ويَرى بعض المحقِّقين أن شريف الآملي كان يستدلُّ بكتابات محمود البسيخواني على ظهُور الدين الجديد ويُرغِّب الملك فيه ، ويستميلُهُ إليه ، وأخبره بنبوءة محمود أنه سوف يظهر في عام ٩٩٠ هـ رجلٌ يمحو الباطل ويُقيم الدين الحق.

ويُجمع البَدَايُوْنيّ وخواجه كَلان[١] ، على أنَّ شريف الآمِلي فرَّ من إيران إلى (بَلخ) ، والتجأ إلى زاوية الشيخ محمد زاهد بن الشيخ حسين الخوارزمي ، وظل يعيش هناك في مَظهر المتصوفة ، ولما لم تكن طبيعتُه تُساير التَّنسُّك وتنسجم معه ، اتخذ شعارَهُ الدعاوي الفارغة ، والشطحاتِ الجوفاء ، والكذب والافتراء ، ولما اطَّلع الشيخ زاهد على عقائده ، طردَهُ من زاويته ، ففرَّ إلى دَكَن (جنوبي الهند).

وكانت بلاد الدَّكن آنذاك ـ يُسيطِر عليها التشيُّع ، ويصول فيها ويجول ، فلما وصل إليها شريف الآملي ، استقبله أهلُها كعالم شيعي كبير ، وبالغوا في الحفاوة به ، ثُمَّ لما عرف الناس ما في عقائده من زيغ وضلال ، قصدوا لإيذائه وتعذيبه.

وكما يقول البَدَايُوني: «أَراد حُكام الدُّكن أن يقتلوه ، ثم قرروا بعدُ أن يُركبوه الحمار ، ويَطوفوا به ويُشهِّروه»[٢].

وأسنَد إليه الملك أكبر قيادة الجيش المكوَّن من ألف جندي ، وجعله من المقرَّبين لديه[٣] ، ونصَّبه داعياً في بنكاله إلى «الدِّين الإلهي» ، وكان مِن أخصِّ أصحابِ الملك أكبر وأصدقائه الأربعة ، وكانَ ينوب عن الملك في مخاطبة أتباع الدين الإلٰهي ومُريديه ، والمعتقدين فيه[٤].

---

(١) هو الشيخ خواجه عبيد الله (ابن الشيخ الكبير عبد الباقي النقشبندي) مؤلف «مبلغ الرجال».

(٢) منتخب التواريخ: ج٢ ص ٢٤٦.

(٣) انظر «مبلغ الرجال » ص ٣٢.

(٤) منتخب التواريخ: ج٢ ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨.

وجاء في «مآثر الأمراء»: «اشتغل بالتَّصوف وبين الحقائق، وخَلطَه بالزَّندقة والإلحاد، وادَّعى نظرية «الوحدة»، وقال عن كل شيء إنَّه الله»(١)، ويُفيد بعض كتب التاريخ المعاصرة أن أبا الفضل العلاَّمي (٢) كان متأثراً بالحركة النَّقطوية، ولما قُتل شاه عباس الصَّفوي أكبر دعاة الحركة النقطوية وأعظمَ المسؤولين عنها الشيخ مير سيِّد أحمد الكاشي، ووقَف على وثائقه والأوراق التي تركها، فكانتْ فيها من بين مجموعة الرسائل رسالةٌ لأبي الفضل العلاَّمي وجهها إليه، يقول مُعاصره المؤرِّخ إسكَنْدَرمنشي في كتابه «تاريخ عالم آرائي عباس»:

«أخبرنا بعضُ الوافدين من الهند أن أبا الفضل ابن الشيخ مبارك الذي هو من علماء الهند، وله مكانة وحظوة عند السلطان، يَعتنق هذه الديانة وأثَّر على الملك أكبَر، ودعاه إلى التحرُّر من القيود وانحرف به عن جادة الشريعة، وأن رسالته التي كتبها إلى مير أحمد الكاشي، والتي عُثر عليها في وثائقه، تَدُلُّ على أن أبا الفضل كان من أتباع الحركة النقطوية» (٣).

ويقول خواجه كَلان في كتابه «مبلغ الرجال» عند ذكره لمحمود البسيخواني:

«نَشر الشيخ أبو الفضل النَّاكُوْري بساط ذلك القانون الخاسر الكاسد في بلاد الهند»(٤).

ويُمكن أن يقدِّر من خلال هذه الشواهد التاريخية ما قام به دُعاة الحركة النقطوية، وأنصارها في الهند، من بَسط النفوذ وتجهيز عرش الدوله لدين

---

(١) مآثر الأمراء: ج٣، ص ٢٨٥.

(٢) هو من أخصِّ أصحاب السلطان جلال الدين أكبر، والعقل المفكر الموجه في دينه الجديد وسياسته العلمانية الهندكية، يشغل الحديث عنه حيزاً كبيراً في هذا الكتاب.

(٣) مستفاد من مقال «نظرة عابرة على الفرقة النقطوية» المنشورة في كتاب «الدراسات التاريخية والأدبية» للدكتور نذير أحمد، ص ٢٦١.

(٤) مبلغ الرجال: ص ٢١، وانظر ص: ٣٢ ـ ٣٣ أيضاً.

جديد وعهد جديد على طُلوع الألف الثاني ، وقانون جديد ، وكانوا في حاجة بعد هذه الخُطوة التمهيدية إلى شَخصية قوية تملك السلطة وتتولى زمام البلاد ، ولم يكن هناك شخص أجدر وأحق بهذه المسؤولية ـ في نظرهم ـ من الملك الأكبر.

* * *

البَابُ الثَّالِث

عهد الملك أكبر

والفترتان المتعارضتان في حياته

عَهدُ الملكِ أَكبر
والفَتْرتَان المُتعارِضَتان في حَياته

١ ـ الفترة الأولى
ولاؤه للإسلام وتدوينه السَّاذج

حَياةُ الملكِ أكبر الدِّينية، وتَديُّنه:

يُجمِع المؤرِّخون لِلهند ولعهد الملك أكبر ـ بصفة خاصة ـ على أن «أكبر» بدأ حُكمه ومباشرته للإدارة ، مُلِمّاً راسخ العقيدة ، متنسِّكاً مع التقشف في الحياة والمُغالاة في العقائد ، ونَقتطف للدلالة على ذلك من الكتاب الشهير «منتخب التواريخ» للعلامة عبد القادر البَدَايُوني (م ١٠٠٤ هـ) ـ الذي يُعَدُّ من مشاهير العلماء ، وكبار مؤلِّفي البلاد في العهد الأكبري ، ومُؤرِّخي عهده ـ وقائعَ متناثرة من تلك الفترة الأولى لعهد الملك أكبر ، ونُبْذةً من أحواله وسيرته ، حين كان مُسلماً ساذجاً على طريقة سَلفه الملوك من آل تَيْمُور .

وكان ـ لعدم تلقِّي الدراسة ، وتأثير البيئة المحيطة ، وتقاليد عصره ـ الذي عمَّت فيه البدع والمغالاة في تعظيم المشايخ ، واعتقادِ مكانهم من الله ، وشفاعتِهم للناس ، وَزيارةِ الضرائح والمشاهد ـ يَشُدُّ الرحال لزيارة قبور الصالحين من المشايخ المعروفين ، وكان يعاقب الناس على مخالفة عقائد الجمهور ، وقِلَّة التديُّن ، وضَعف الاعتقاد ، وكان يُقدِّم النذور إلى ضرائح

الأولياء والصالحين، ويَشتغل بالأذكار والأوراد في شَغفٍ واستغراق؛ ويُصاحِب العلماء والصالحين، ويَحضُر مجالسَ «السماع».

ولا بأس بنقلِ تصريحات العلامة عبد القادر البَدَايُوني عن تديُّن الملك (أَكبر)، ومُغالاته في العقيدة والدِّين، إذ أنَّ ذلك مما اتَّفق عليه المؤرِّخون، وهو جانبٌ مشرق من حياة «أكبر» فلا يُتَّهم الشيخ عبد القادر بالنَّيل منه، والحط من شأنه، وأنه كَتب ذلك تحت ضغط عاطفة الكُره والمُعاداة، أو التعنُّت والعناد.

أمَّا الفَترة الثانية من حياة الملك (أكبر) ـ وهي الفترة التي قام فيها بنشر نظرية «الدين الإلٰهي» والدعوة إلى عقيدة وحدة الأديان، والنفور من الإسلام والتسامح البالغ مع غيره من الديانات، والموقفِ المعادي المعاند من الدين الإسلامي ـ فإنَّا نأخذ بالحيطة في ذكر تفاصيلها والاقتباس مكانَ تصريحات الشيخ عبد القادر التي أثار بعض الأوساط ـ أخيراً ـ الغبار حولَ صحَّتها وثبوتها وحيادها التاريخي.

فقد ظَهرت حركةٌ تأليفية منظَّمة ـ تشبه خطة مدبرة ـ في الهند في الستِّينيات يَقودُها بعض الأساتذة في الجامعات، والمؤلِّفون العلمانيون لتفنيد كتابات العلامة عبد القادر البَدَايُوني وتصريحاته فيما يتَّصل بالفترة الثانية من عهد الملك (أكبر)، فيحمِلونها على التعصُّب الديني، والمعارَضة الشخصية والتَّعنُّت ضد الملك أكبر، ويُثِيرون الشكوك والشبهات حول كتابه «منتخب التواريخ» ويُقلِّلون من قيمته العلمية والتاريخية وذلك يقوم على أساس إيجابي علميٍّ وشواهد تاريخية أمينة.

إنَّ أساسَ هذه التُّهمة ينبني على العاطفية، واعتقادِ عظمة الملك (أكبر)، والنزوع إلى براءة ساحته من كل تهمة، لأنه هو وحده ـ من بين مُلوك المسلمين ـ يَتَّفق مع الاتجاه العلماني الحديث، والتحرُّر من ربقة الدين ويجدر لأن يُتخذ زعيماً، أومثلاً كاملاً للسياسة اللادينية، أو القوميَّة الهندية، المجرَّدة من كلِّ دين أو عقيدة، وذلك نتيجةَ الأغراض

السياسية ، بعيدة النظر والمرامي ، أو الأهداف الشخصية ، من نَيل الجاه والشُّهرة والزلفى.

وكُلٌّ من يراجع كتاب «منتخب التواريخ» بحياد وإنصاف ، لا بدَّ أن يعترف بصدق المؤلِّف وإخلاصه وتوجُّعه للأوضاع ، وجراءته ، وصراحته بكلمة الحق ، وإنَّ مَن له إلمام واسعٌ بكُتب التاريخ، ودراسةٌ طويلة لها تنشأ فيه مَلَكة التمييز بين الروايات التاريخية والأساطير الخرافية، ويَقدر على تقييم المؤلِّف ، وتحديد مكانته ومنزلة كتابه ، وَينقد الزيف والصحيح كالصَّيرَفيِّ الماهر ، يقول المؤرِّخ الإنجليزي الشهير « Elliot» مُعلِّقاً على كتاب «منتخب التواريخ»: «ليسَ هناك إلاَّ القليل من المؤرِّخين الذين يُريدون أن يُبدوا عواطفهم كما يريد البَدَايُوني ، لا سيما ما تكون ثقيلة على مسامع الملوك ، أو الذين يُصرحون بأخطائهم وزلاتهم من غير مبالاة وفي غاية الوضوح» [١].

وأمَّا عند إبراز الجانب المعادي للإسلام في حياة أكبر ، فلا نقتصر على شهادات الشيخ عبد القادر ، بل قد نَسُوقها أحياناً تأييداً لتصريحات بطانةِ الملك (أكبر) ، وأركانِ دولته المخلصين الأوفياء ، وبيانات المؤرِّخين المحايدين لعَصره وبلاطه.

واقرأْ ـ فيما يلي ـ التصريحات التي جاءت في «منتخب التواريخ» عن حياة المَلِك (أكبر) الدينية في الفترة الأولى :

«تَجشَّم الملكُ عناءَ السفر مَشياً على الأقدام إلى «أَجْمِيْر» [٢] شُكراً لله تعالى

(١) منتخب التواريخ: ج ٥ ، ص ٤٨٠.

(٢) مدينة مشهورة في الهند ، فيها ضريح الشيخ الكبير معين الدين الجشتي (م ٦٢٠هـ) الذي كان له فضل كبير في انتشار الإسلام في شبه القارة الهندية ومن أكبر شيوخ الطريقة والأولياء شهرة في الهند.

على وِلادة ابنه سليم، وعرَّج على (دهْلي) في الرجوع منه، وزار قبورَ الأولياء والصالحين»[١].

توجَّه إلى «أَجْوْدهَن» وزار شيخ المشايخ فريد الدين كَنْج شكر، وعاقب مِرزا مقيم الأصفهاني مع مير يعقوب الكشميري على تُهمة الرّفض و«التَّشيع»[٢].

«سافر إلى «أَجْمِيْر» في أوائل شعبان، ومشى سبعةَ فراسخ على الأقدام، حتى زار الضريح، ونذَر الطبول، وقضى وقتاً طيباً في مصاحبة العلماء والصالحين، وحضور مجالس الغناء»[٣].

«وكان يَشتغِلُ ـ باستغراق ـ في ذكر «ياهو» و«ياهادي» في مُصلاَّه، وجاء في حوادث عام ٩٨٠هـ حديثٌ ضاف لبناء ثلاث عمارات خاصة بعبادته»[٤].

«كان يَطلُب ـ كلَّ ليلة الجمعة ـ في مُصلاّه، الأشراف والمشايخ والعلماء ويَحضُر الملك حلقة من العلماء، ويُباحِثهم في المسائل والأحكام، وصدَر الأمر في هذه الفترة إلى القاضي جلال وغيره من العلماء بتفسير القرآن الكريم»[٥].

ويَذكر في وقائع عام ٩٨٦هـ مُصاحبة العلماء والمشايخ، ومجالستَهم، وإحياء ليلة الجمعة، في مصلاه بـ«فَتَحْ بُور سَيْكَرِي».

ولمَّا خرجَ خان زمان على الملك (أكبر)، وأعلنَ الثورةَ، قام الملك إلى قبور الأولياء والصالحين للدُّعاء عندها قبل أن يتَوجَّه لمقاومة خان زمان ومحاربته[٦].

---

(١) منتخب التواريخ: ج ٢، ص ١٢٣.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ١٢٤.
(٣) المصدر السابق: ج٢، ص ١٨٥.
(٤) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١.
(٥) المصدر السابق: ج٢، ص ٢١١.
(٦) المصدر السابق: ج ٢، ص ٢٥٢.

«وأطلق رجلٌ كان يُدعى فولاذاً سهماً على الملك بإشارة شرف الدين حسين عند مُروره بمدرسة «خير المنازل» التي أسَّسها وعمّرها «ماهم آنكه» وأصيب الملك بجُرح خفيف ، بَرِىء منه ـ بعد معالجته لأيام قليلة ـ فكان يَعدُّ النجاة من هذه الحملة المباغتة ـ كما يقول البدايوني ـ كرامة أولياء دهلي ، وتنبيهاً غيبيّاً له» [١] .

وحَضَرَ ـ مرة ـ في طريقه إلى (أَجْمِيْر) ، في خدمة الشيخ نظام النَّارنُولي ، الذي كان من المشايخ الصالحين المعروفين ، وذاعَ صيت زُهده وورعه في الآفاق [٢] .

«وزار سنة ٩٨٠هـ ضريح السيّد حسين خنك سوار في (أَجْمِير) ، ثم زار ـ بعد سنوات ـ قبر الشيخ قطب جمال في اعتقاد وحُبٍّ وإكبار ، وقرأ الفاتحة» [٣] .

«وكان يُعظِّم الشيخَ سليم الجِشْتّي ويعتقدُ فيه ، وبَنى على قبره قُبَّةً فخمة باهتمام بالغ ، ولأجل هذا الإجلال والتعظيم للشيخ سليم الجشتي سمَّى وليَّ عهده (جَهَانْكِير) الذي وُلد ـ كما يقال ـ بدعائه «سليم» ، وكان الملك بَعث بعقيلتِه الملكة «جُوْدَها بَائِيّ» إلى بيتِ الشيخ قبل الولادة ، حتى تكونَ موضع عناية الشيخ واهتمامه ، وتَسعد بدعائه» [٤] .

ووُلد ابنُه مراد كذلك في بيت الشيخ سليم [٥] ، ولمَّا أصبح وليُّ عهده سليم (جَهَانْكِير) في سِن يبدأ فيها القراءة وأول ما يقرأ الطفل يكون «بسم الله الرحمن الرحيم» وهي عادةٌ تسمى «باحتفال التَّسمية» في الهند ـ طلبَ من

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢ ص ٢٦٢ .
(٢) المصدر السابق: ج٢ ، ص ٢٥٢ .
(٣) المصدر السابق: ج٢ ، ص ٢٣٢ .
(٤) المصدر السابق: ج٢ ، ص ١٠٨ .
(٥) المصدر السابق: ج٢ ، ص ١٢٣ .

المحدِّث الشهير الشيخ مِيْركَلان الهَرَوِي أن يُشرف بهذه المناسبة فحضر وأقرأ «سليم» «التسمية» بحضُور الملك مع جمع من أعضاء الدولة وأركان المملكة [١].

وحينما بَدأ وليُّ العهد يَشْدو في القراءة والكتابة، أمَره أن يذهب إلى بيت الشيخ عبد النبي ويدرس عليه الحديث، فقرأ عليه الأربعين حديثاً من جمع الشيخ مولانا جامي [٢]، وكان الملك أكبر يُبالغ في تعظيم الشيخ عبد النبي ـ حفيد الشيخ عبد القدوس الكَنْكُوْهِي والمتبوّئ على منصب «صَدْرِجَهَان» في عهد الملك (أكبر) ـ حتى كان يقصد بيته، ويحضر درسه، وقام ـ مرتين ـ بوضع نعليه عند احتذاء الشيخ لهما» [٣].

«وأقطع الشيخ محمد غوث الكَـوَالِيَـاري ـ الذي كان شيخ الطريقة الشطَّارية المعروف ـ أرضاً كان دَخلُها السَّنوي عشرةُ ملايين «دام» لينفقَه على نفسه، وكان يتلقى ابنَه الشيخ ضياء الله ـ بعد وفاة والده ـ بالإكرام والإجلال» [٤].

وقد كان الملك (أكبر) وَرِثَ هذا الإجلالَ للمشايخ والحفاوة بهم من آبائه وأجداده، فكان سَلَفه التيموريون يَعتقدون في الشيخ ناصر الدين عُبيد الله أحرارَ، ويُعظِّمونه، وكان جد الملك بابر، السلطان أبو سعيد، يذهب إليه ماشياً لا يركب، تأدُّباً معه واحتراماً له، ولم يكن يُقدم على عمل أو ينجز قراراً إلَّا بعد أخذ رأيه، وكان والد الملك بَابَرْ عمر شيخ مِرزا كذلك، يُجلُّ الشيخ عبيد الله ويحترمه، ويذكره الملك بابر نفسه في كتابه «تزك بابر» بتقدير وإعظام، ولما قدم الشيخ يحيى ـ وهو من أعقاب الشيخ عبيد الله أحرار ـ إلى الهند، استقبله الملك أكبر بحفاوة بالغة، ورَفع قدره، ووهبَه

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ١٧٠.
(٢) المصدر السابق: ج٢ ص ٢٠٤.
(٣) المصدر السابق: ج٢ ص ٢٠٤.
(٤) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٣٧.

أرضاً لنفقته، وبعثه أميراً على قافلة الحُجَّاج إلى مكة المكرمة، ولما عاد من سفر الحج، جهَّز له الإقامة الدائمة في مدينة «آكْرَهْ» (١).

وكان المُلك (أكبرُ) عيَّن سبعة أئمة للأيام السَّبعة من الأسبوع يتناوبون الإمامة في الأيام المعيَّنة لَهم، وكانت الإمامة ـ يوم الأربعاء ـ مَوكولة إلى الشيخ عبد القادر البَدَايُوني (٢).

كان يَبعثُ ـ كلَّ عام ـ عدداً كبيراً من الحُجَّاج إلى الحرمين الشريفين على نفقة الدولة، ويَبعث مع أمير الحجاج الهدايا والتحف إلى والي مكة المكرمة ويَبعث النقود والغلال لأهل الحرمين الشريفين (٣)، وكان يُشيِّع الحجاج عند توديع قوافلهم مُحرماً كإحرام الحج، مُقصّراً للشعر، ملبياً، حاسر الرأس، حافي القدمين، وكان هذا المشهدُ المؤثِّر يُحدِث هزة في النفوس، تُلين القلوب، وتُدمع العيون (٤).

ولمَّا قدم شاه أبو تُراب إلى الهند بحَجَر عليه أثرُ قدمِ الرسول ﷺ ـ كما يقولون ـ ووصل قرب مدينة «آكْرَهْ»، خرج الملك مع حشد عظيم من العلماء والمشائخ، والأمراء والوزراء، ومَشى معهم أربعة فراسخ على الأقدام لاستقبال الشيخ أبي تُراب، وإجلال مقام الرسول ﷺ.

ونَختم الشواهد على تَديُّنه وتعبُّده بهذا التصريح، الذي جاء في «مآثر العلماء» لمؤرِّخ الدولة المغولية الشهير مِير عبد الرزاق خافي خان المعروف بصَمصام الدولة شاه نَوازْخان (١١١١ ـ ١١٧١ هـ)، يقول فيه:

«كان المَلِك أكبَر يبذُل جُهوداً كبيرة في تنفيذ الأحكام الشرعية، والتأكيد

(١) منتخب التواريخ: ج ٢، ص ١٠٠.
(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٥١.
(٣) المصدر السابق: ج٢، ص ٢٥١.
(٤) المصدر السابق: ج٢ ص ٢٣٩.

على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كان يُؤذِّن بنفسه، ويَؤُمُّ الناس في الصلاة، حتى إنه كان يَكْنس المسجد، احتساباً وطلباً لمرضاة الله»[١].

* * *

(١) مآثر العلماء: ج٢، ص ٥٦١.

٢ ـ الفترة الثانية
عداؤه للإسلام ونظرية الدِّين الإلهي الأكبريّ

تَحوُّلٌ في نَفسيّة الملك أكبر وطبيعتِه [١]!

يَستطيع القارئُ ـ في ضوء ما سَبَق من التصريحات والشواهد على تَديُّن الملك (أكبر)، وتَنسُّكه ـ أن يُقدِّر أنَّ هذا التديُّن الساذج العامي الخرافي لم يكن مُؤَسَّساً على الفهم والعلم الصحيح للكتاب والسنَّة، والدراسة المباشرة لهما، بل كان أساسه بدلاً من أن يكون مديناً لتعلُّم العلماء الراسخين ومجالستهم والتربية الدينية الصحيحة على ذوق عصره، وطبيعته العسكرية، والتقليد الأعمى للحكام والأمراء الجهلة بالدين، الذين حكموا في أواسط آسيا، ومحاكاتهم، وشِدَّة الإيمان بالمظاهر، وسرعة الاعتقاد في الظواهر، فكان الركنُ الأساسي في هذا التديُّن زيارة القبور والضرائح، وتجشُّم مشاق السفر إليها من مسافاتٍ بعيدة مشياً على الأقدام، وإبداء عواطف الحب والإجلال للمتربِّعين على دست المشيخة ـ الذين كانوا من الجهلة العاطلين عن صفات آبائهم ومشائخهم، والفاقدين للربانية الصحيحة، والروح الإسلامية ـ

(١) يقال: إن ما سجله جهانكير في «توزك» الصغير من أحوال الملك أكبر عند وفاته، يدل على أنه كان شعر عند دنو الأجل بأنه على خطأ وضلال، فجدد إيمانه بتلفظه بكلمة التوحيد، وأسلم روحه لبارئها في هالة من القراء الذين كانوا يقرؤون سورة يسٓ، ويدعون له، وليس لنا أن نحكم على ما كان بينه وبين الله وهل أدركه اللطف الإلهي أم لا؟ وأنه على أي حال ودّع هذه الدنيا، إنما نحن بصدد إجراءاته وأعماله التي اتخذها لتنفيذ القانون الجديد والدين الجديد، والنتائج والآثار التي ترتبت من ذلك على الإسلام والمسلمين.

والشعور بالسعادة في خدمة الكناسة للتّكايا والزَّوايا، وحضور مجالس الذِّكر والغناء، وتَبجيلِ عُلماء البلاط ومشايخه وتوقيرهم.

ويُستفاد من دراسة حياة «أكبر» أنه كان أُميّاً خالصاً [(١)]، وتمتاز الأسرة التَّيمورية في طبيعتها وعقليّتها بالغُلو والتطرُّف، والمبالغة في الاعتقاد، ويُذكر عن «هِمَايُون» في كُتب التاريخ أنه كان إذا صمَّم على تحمُّل شدائد الحروب ومقاومةِ الأوضاع القاسية، والظروف القاهرة، فإذا به يتحوَّل إنساناً ليس من لحم ودم، بل من حديد صُلب، وكأنه ليس من الإنس، بل من الجِنِّ الشداد، وإذا استنام إلى الدَّعة والراحة، نَسي كلَّ شيء وظنَّ به أنه لم يكن في يوم من الأيام فارسَ الميدان وجُندياً مُستميتاً في ساح القتال، ويُشاهد هذا التعارض، وقِلَّة الاتزان في حياة جَهَانْكِيْر أيضاً.

ثمَّ لا ينبغي أن ننسى ما قاساه الملكُ (أكبر) من المِحَن والأوضاع القاسية غير العادية في طفولته، ورَيعان شبابه، وما شاهده في أعمامه من تنكُّرٍ وخذلان، وقِلّة وفاء، وما تجرَّع من المرارة، والغَصص أيام هزيمة والده، ورحلَتِهِ إلى إيران وما لاقى مع بيرم خان من العناء والمشاق، كلُّ ذلك أنتج في نفسيته سوءَ الظن بالفطرة الإنسانية، وأثارَ في نفسه الرّيبَ والشكوك، في وفاء الناس، وإخلاصهم وتجردهم، فنشأت من جرَّاء ذلك طبيعةٌ متقلبة تتلوَّن، ولا تستقر على حال.

---

(١) لمَّا بلغ «أكبر» أربعة أعوام وأربعة شهور، وأربعة أيام من عمره احتفل ـ حسب العادة الجارية ـ بمناسبة إدخاله الكتّاب، وعين ملا زاده عصام الدين مؤدباً له، ولكن شعر ملا زاده بأن أكبر لا يرغب في التعليم، فحمل هذا على إهمال ملا زاده وإخفاقه في التعليم، وعين مكانه الشيخ بايزيد، ولكن بدون جدوى، وأخيراً اختار الملك لتعليمه الشيخ عبد القادر البدايوني، ولكن لم يستطع هو أيضاً أن يستميل ولي العهد العظيم إلى التعليم، وساعدت على ذلك الأوضاع السياسية، والانتقال من مكان إلى مكان، وعدم الاستقرار، فشب أكبر أمّياً لم يتعلم شيئاً. (ملخَّص من كتب التاريخ المعاصرة لعهد الملك أكبر).

المُقارنة بين الدّيانات والبحثُ فيها ومَجالسُ المُناظرة وتأثيرُها:

كان أنسبَ طريق للملك (أكبر) لعلاج هذا الوضع الشَّاذِّ ، وإصلاح الحال ، والتغلُّب على مواطن الضَّعف في نفسه ، وتأكيدِ الصِّلة بالإسلام ، والارتباط بالدِّين ، وصرف الهمة إلى حماية الإسلام والذَّبِّ عنه ، والقيام بنصرته ككثير من السَّلاطين المسلمين ـ وقد كان عددٌ منهم أبناء هذه الأسرة التيمورية ـ أن يُركِّز المَلِكُ كُلَّ عنايته ـ مع الاعتراف بأُميَّتِه وجهلِهِ بالدين ـ على مهامِّ الدولة ، وتوسيع المملكة.

وكان اللائقُ به ألا يتدخل في القضايا الدينية ، بل يَكِلُها ـ كمُسلم مُخلص ساذج وجندي وفيٍّ ـ إلى علماء الدين وأعضاء الدولة الباحثين ـ كما فعل الملك بَابَر والملك هِمَايُون ، رغم ثقافتهما الواسعة ، والذَّوق الأدبي والعلمي الرفيع ـ وألا يتقدَّم إلى البحث والتحقيق في المسائل الكلامية الدقيقة ، والقضايا العقيدية العلمية ، والحقائق الغيبية ، وعلم ما وراء الطبيعة ، والمقارنة بين الديانات والفرق ، وهو المجال الذي تُؤدِّي فيه زَلة بسيطة ، أو إهمالٌ طفيف إلى تخطي حدود الإيمان ، والدُّخول في حظيرة الكفر والإلحاد ، وضياع نعمة الدين وكان لا يعرفُ مبادىء هذه العلوم ومقدماتها.

ثم إنَّ الخوض في هذه القضايا لا يُفيد في الأغراض السياسية ، ولم يكن في مصلحة السلطان ، الذي تسلَّم زمام البلاد من الحكومات المسلمة التي دامت في السلطة أربعة قرون ، أن يفقد ثقة شعبه المسلم المتحمِّس للإسلام ، ويُثير حوله مشاكل كان في غنى عنها ، إنَّ خطأ التدخل في هذه المباحث الكلامية الدقيقة ، واستخدام النفوذ والسلطان ، لفرض عقيدة أو وجهة نظرٍ أو مهمٍّ خاص أساء مِنْ قَبلُ إلى مِثل الخليفة العباسي مأمون الرشيد (١٧٠ ـ ٢١٨ هـ) في عِلمه وذكائه ، ولم يَستفد منه غير سُوء الأُحدوثة [١].

---

(١) راجع للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» للمؤلف، مبحث «فتنة خلق القرآن» ج١.

ولكنَّ الملك (أكبر) رُزق الطبيعة القلقة والعَقليّة الباحثة ، وأوحتْ إليه فُتوحُه وانتصاراته المستمرة ، وسَعادةُ جَده ، وحُسنُ طالعه في الدولة ، بِخداع النفس والإعجاب بها ، وبدأ يظن بنفسِه أنه يقدر ـ وهو الفارس المقدام الذي يَفض مشاكل الدولة ، ويَحُلُّ عقد السياسة ـ على الحمَلات الظافرة في أودية الدين ، والعقيدة الشائكة .

زِدْ إلى ذلك أن بعض أركان الدَّولة ، ورجال البلاط الأذكياء الحاذقين أقاموا لإبراز تفوُّقهم العقلي ، والترويج عن السلطان ، وَتزيين مجلسه ، معارك كلامية حامية بين العلماء من مختلف الفرق والديانات ، بدلاً مما جرتْ به العادة في مجالس المُلوك المترفين ، من تَربية الدِّيَكة والحمام ، ليتفرَّج السُّلطان على تهارُشها ، ومن إقامة مصارعات بين الفيلة والسوائب من البقر ـ وكان ذلك نزهة السلاطين والأمراء الشرقيِّين ومُتعهم ـ .

ومن الحقائق البديهية ـ التي جرَّبها الناس في تاريخ العقائد والديانات مئات المرات ـ أنَّ من يشهد هذه المباحثات والمناظرات بين العلماء ، والأخذ والردّ بين المحامِين عن مختلف الفِرَق والديانات ممن لم تتَّسع ثقافته ، ويَرْسَخ عِلمه ، ويَدقّ فهمُه ، وتتنوَّر بصيرتُه ، ولم يساعده الحظ ويأخذ بيده توفيق الله ـ تعالى ـ فإنه لا محالة يقع في الريبة والشكِّ ، ويَتيهُ في أودية السوفسطائية واللاَّأدرية ، ويَهوي في هُوّة سحيقةٍ من الإلحاد والزندقة .

يقول جَهَانْكِير ـ وليست شهادةُ علي أكبر أقوى من شهادته ـ في كتابه «تُوْزَك» :

«كان والدي يُقابِل ـ في كثير من الأحيان ـ علماء كل مِلَّة ودين ، لا سيما فُضلاء الهند وعلماء الديانة الهندوكية ، ولم يكن يَشعُر جلساؤه ـ رغم أُميَّته ـ بأنه لم يقرأ ولم يكتب ، لِكثرة مجالسة العلماء ومُصاحبة الفضلاء ، والمُباحثةِ معهم ، وكان يَفهمُ دقائق الشِّعر والنثر ولطائفهما ، بما لا مزيد عليه» [١] .

---

(١) تزك جهانكيري : ص ١٥ .

ولـم يَقتصِرْ في هذه المناظرات على عُلماء الإسلام والهندوكية ، وديانات الهند الأخرى ، وفِرقها المختلفة وممثِّليها ، بل أشرك فيها عُلماءُ الإنكليز ، ويَنصُّ أبو الفضل على بذل الاهتمام البالغ بترجمة التوراة والإنجيل ، والزبور ، وشرحها وتفسيرها للملك ، وعيَّن لهذه الخدمة السيد مظفر ، أحد أعيان البلاط وفضلائه ، وكتب إلى بعض المسيحيِّين :

«إنّنا نجتمع ـ في فراغ من الوقت ـ بعُلماء جميع الديانات ، ونَستفيد من أفكارهم السامية وكلماتهم الطيبة ، وتَقفُ أجنبيَّةُ اللغة عائقاً في الطريق ، فنودُّ أن تُدخلوا علينا السرور بإيفاد رجل فاضلٍ يُوضِّح لنا هذه المعاني بعبارة جيدة حسنة ، وقد بلغ مسامع السلطان أن الكُتب السماوية من التوراة والإنجيل والزبور ، تُرجمت إلى العربية والفارسية ، فلو كانت هذه الكُتب المترجمةُ في بلادنا ، لوزَّعناها للنفع العام ، وقد بعثنا إليكم ـ تجديداً لمعاني الحُب والوُد ، وترسيخاً لأساس الوحدة والاتفاق ـ بمعالي السيد مظفر ـ الذي أسعدناه برعايتنا واهتمامنا ـ للحصول على عدة نُسخ من هذه الكتب المترجمة وسيتحدث إليكم شِفاهاً فثقوا به ، وواصلوا المراسلة» (١) .

وكان ذلك فعلاً ، يقول البَدَايُوْنِي :

«كان في البلاط جماعةٌ من فضلاء الإفرنج من زُهَّادهم ونُسَّاكهم ، ويُقال لهؤلاء «القُسُس والأساقفة» ويُسمَّى مجتهدهم الأكبر بالبابا ، إنهم قدموا نسخة من الإنجيل ، وأظهروا دلائلهم وبراهينهم على التثليث ، وأثبتوا أن النصرانية دين حق» (٢) .

وبلغ شغف (أكبر) بهذه المجالس للمناظرة أن كَتب رسالة إلى رئيس مجلس الأساقفة في ولاية «كُوا» (Goa) وهي تشتمل على ما يأتي :

«أرجو أنّكم فور وُصول رسالتي إلى سعادتكم سوف تبعثون إلى البلاط

(١) إنشائي أبو الفضل : ص ٣٩ .
(٢) منتخب التواريخ : ج٢ ، ص ٢٦٠ .

في طُمأنينة بالٍ وجمعية خاطر ـ بعضَ الأساقفة، حتى يُناظروا علماءنا، فأقدِّر من خلال المناظرة مبلغَ علمهم وخلقهم، وأرى تبريزَهم وتفوُّقهم على علمائنا الذين ندعوهم «بالقُضاة» فيعلِّموهم الحقَّ بهذا الطريق ويُفيدوهم»[1].

ومن التجارب القديمة في مجالس المناظرة، أنَّ قوة البراهين، والإقناع الجدليِّ، لا يكفي لإثبات صدق ديانة من الديانات، ولا يكون حاسماً في تفضيل واحدة منها على أخرى، فإنَّ أكبر الاعتماد في ذلك يكون على ذلاقة اللسان، وقوَّة البيان، وطلاقة العبارة، مما يتظاهر به ممثلو هذه الديانات والمحامون عنها، فقد يكونُ مُمثِّلو دينٍ هزيلٍ ضعيفٍ ووُكلاؤه أقدر على الحجة، وصناعة الكلام، وأجود بياناً، وأعرف بالنفسية الإنسانية، والطبيعةِ البشرية، وأكثر تَحيُّـناً للفرص، فيُؤثِّرون في السامعين، ويَسحرون الألباب، ويستميلون الناس.

ويكون مُمثِّلو دينٍ قَويم غيرَ مُتحلِّين ـ لسبب من الأسباب ـ بهذه الخصائص والصفات ومجرَّدين من هذه الأسلحة الكلامية، فيَخْسرون الرهان، ويَسقطون في الميادين.

وممَّا يُشكُّ فيه أن العلماء ـ الذين كانوا يُمثِّلون الإسلام ويشرحونه في بلاط الملك أكبر، ويُناظرون علماء الإفرنج وفضلاءهم ـ كانوا على إلمام واسع بالتوراة والإنجيل، والمذاهب المسيحية، ومعرفةٍ كافية بمواضع الضَّعف فيها وكانوا أكفاء لعرض الإسلام، ـ علمياً وعقلياً ـ حتى يُقارعوا فضلاء المسيحيِّين ويُمثِّلوا الإسلام تمثيلاً صادقاً صحيحاً.

وقد كانتِ الديانة المسيحية جديدةً للهند، وكان أتباعُها قِلَّة قليلة، ومعظمُهم كانوا من الأجانب، فلم يهتمَّ بهم العلماء المسلمون، ولم يُبالوا بالديانة المسيحية أيَّ مبالاة، على حين أنَّ البُرْتُغَالِيِّين فتحوا مدرسة تبشيرية

---

(١) انظر «The Mughal Empire» ـ الدولة المغولية ـ للدكتور أشيوري برشاد Dr.Ishwari Parshad ص ٣٧٧٥، طبعة المآباد ١٩٧٤م.

مسيحية (Jesuit Mission) في ولاية «كُوا» حتى يقوموا بنشر هذه الديانة في الهند ، وترسيخِ جُذورها [١] ، ولا يُستبعد في مثل هذا الوضع أن يكون العلماء المسيحيون الأجانب كسبوا المعركة ، وأثبتوا تفوُّقهم وامتيازهم ـ علمياً وعقلياً ـ على علماء المسلمين الذين لم يكونوا ـ إذ ذاك ـ فرسان هذا الميدان فخسروا الصفقة وسقطوا في عينه ، فكان من الطبيعي أن تظهر النتائج التالية ، يقول الشيخ عبد القادر :

«ظهر أهلُ البِدَع والأهواء بآرائهم الخاطئة ، وشُبهاتهم الباطلة من مكامنهم ، وبدؤوا يعرضون الباطل في صورة الحق ، والخَطأ في شكل الصواب ، وأورثوا الشك والارتياب في نفس السلطان الذي كان يملك الذكاء والفطنة ، ويبتغي الحق ، إلا أنه كان أمِّياً محضاً ، يأنس إلى الكفار ، وزادوا في حيرته واضطرابه ، وضاع المقصد الصحيح ، وانحلَّ رباط الشريعة ، ولم يَبْقَ بعدَ خمسة أعوام عينٌ ولا أثر للإسلام ، وانقلبت الدنيا رأساً على عقب» [٢] .

ويقول في موضع آخر :

«بدؤوا يثيرون الشكوكَ والشبهات ، ويضحكون ويستهزئون بكل فريضة من فرائض الإسلام وكل عقيدة من عقائد الدين ، سواء كانت تتعلَّق بالأصول أو الفروع ، كعقيدة النبوَّة والرسالة ، ومسألة كلام الله ورؤيته ، وتكليف الإنسان ، وتكوين العالم ، والحشر والنشر ، وغير ذلك من المسائل العقيدية» [٣] .

وكان ضِغْثاً على إبَّالة ، أنَّهم بدؤوا يقرؤون كتب التفسير والتاريخ ـ وهي المواد العلمية غير المنقحة والمحررة ، التي يَقدر أنصاف العلماء ، ممن

---

(١) انظر «أكبر نامه» ج٣ ، ص ١٠٢٧ ، Mongolicea Legationos Commentqrius ج/١ ، ص ٣٤ ، By Fater A Muoserrate .
(٢) منتخب التواريخ : ج٢ ، ص ٢٥٥ .
(٣) المصدر السابق : ج٢ ، ص ٣٠٧ .

لا يخشون الله، على إثارة الاضطراب والفوضى الفكرية عن طريقها ـ في بلاط الملك الأمِّي الجاهل، وفي جَوٍّ من الانطلاق والتحرر، وقلّةِ الحشمة.

يقولُ الشيخ عبد القادر البَدَايُوْنِيّ:

«وفي تِلك الأيام صدَر الأمر إلى القاضي جلال وغيره من العلماء أن يقرؤوا تفسير القرآن، وكان هناك صراع بين العلماء في الموضوع، وكان الماجن «ديب جندارجه منجهولة» يقول:

«لو لم تكن البقرة مقدَّسة عند الله ـ تعالى ـ لما جاء ذكرها في أوَّل سُورة من القرآن، وسُمِّيت بها هذه السورة، ولما بدؤوا قراءةَ التاريخ، وبدأ الناس يزدادون ـ كل يوم ـ في إساءة الظن بالصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وتعدَّى الأمر إلى أن جعلوا يسمُّون الصلاة، والصوم، وجميع التعاليم النبوية بالأمور التقليدية، أي أنها غيرُ معقولة، وجعلوا يقولون: إن أساس الدين على العقل، وليس على النقل، وبدأت وفود الإنكليز تغدُو وتروحُ، حتى قبل الملك بعض مُعتقداتهم كذلك».

مسؤولية عُلماء البلاط وأعضاء الدولة في تحوّل طبيعة «أكبر» وانحرافه:

لقد كان علماء البلاط، وأعضاء الدولة يستطيعون أن يقوموا بدور أساسي فعَّال في مُلازمة الملك (أكبر) طريق الإسلام المستقيم، وصيانتَه من الزيغ والانحراف، وحمايته من التطرُّف وفقدان الاتزان، ولكن هذا الدور الإيجابي كان في حاجة إلى عُلماء يمتازون بالتفقُّه والبصيرة في الدين، ويتحلَّوْن بالحكمة والفهم الصحيح، نَظرُهم في كليات الدين أعمقُ من نظرهم في جزئياته، ويؤكِّدون على أهمية الغايات والمقاصد، أكثر من الذرائع والوسائل، ويرون ضرورة «الوصل» والتوفيق أكثر من ضرورة «الفصل» والتفريق، مُتَّصفين بسُمُوِّ الأخلاق، وموسومين بالإخلاص والإيثار، بعيدين عن حُبِّ الجاه، والطمع في الدنيا قدر المستطاع، تلقوا التربية الصحيحة،

واشتغلوا بتزكية النفس، يعرفون أهمية هذه الدولة الإسلامية الناهضة، ودقة موقفها - التي تحيط بها الأكثرية غير المسلمة - التي كانت تَشعر بِحرمانها من القوة والسلطة، ولا تقوم دولةٌ إلا بتأييدها ومساعدتها - معرفةً حقيقية - وأنَّ هذه المملكة التيمورية التي واتاهُم الحَظُّ لخدمتها، ونالوا الفرصة التاريخية الذهبية لقيادتها وإرشادها، كانت أكبرَ دولة إسلامية في ذلك العصر في سعة الرقعة، وكثرة الذخائر والوسائل، والقِوى البشرية، وقُوة العاطفة الدينية، وتَغلغُلها في الشعب وفي جمع النواحي، بعد الدولة العثمانية، في تركية، فكان - لأجل ذلك - الحفاظُ على هذه الدولة، ورَبْطُها بالإسلام، وأن يَجمع عاهلها - في هذه الظروف الحرجة الدقيقة - بين الزُّجاج والحديد، والقُطن والنار، أكبر عبادة في ذلك العصر، وأعظم خدمة للدين والبلاد.

وكانت الحاجةُ ماسّةً - في الجانب الآخر - إلى وجود خبراء مستشارين وأعضاء للدولة يحملون عقيدة راسخةً مُحكمة في ذلك الدين - الذي أسَّس عليه (بَابَر) مملكته القوية - بعد توبته النَّصوح من المنكرات في ساحة القتال عند مواجهة «رَانَا سانْكَا» عام ٩٣٣ هـ، وأخذ العهد والميثاق على نفسه بالعبودية الكاملة لله عزَّ وجلَّ، ويُحبِّبُونها للملك أيضاً، ويكونُون في مأمن عن كل نوع من الاضطراب الفكري، وفي مَعْزِل عن الحركات الإلحادية الهدَّامة التي نشأتْ في إيران والهند في القرن العاشر، وكانت تُثير الفوضى الخُلقية والعقائدية، وتُضعف العلاقة بين الدولة والمجتمع، وأن يجمعوا بين تنظيم الدولة، وإدارة البلاد وقُدرة التقنين، وبين سُمو الأخلاق والاستقامة الدينية والتقيُّد بالشريعة.

فَلَئِن كان الملك (أكبر) رُزق هذين العنصرين، وحَظيت دولته بهاتين الميزتين، لم يكن هناك مجالٌ للشك في أن تكون هذه الدولة تؤدي نفس الدور في خدمة الدين وحماية الإسلام والمسلمين في ناحية الشرق، والذي قامت به دولة آل عثمان في الغرب.

ولكنْ كان من سُوء الطالع أن رُزق الملك أكبر - رغم سعادة جده

وصلاحيته - ذلك العنصر من هذين الفريقين الذي لم يكن على المستوى اللائق فحسب، بل من المؤسِف المحزن أنهم خانوا الدولة بدل أن يخدموها، ونفَّروا «أكبر» من الدين بدل أن يشرحوا صَدْرَه له ويُحبِّبوه إليه، وساقُوه إلى اعتناق الدعوات والحركات المعارضة للإسلام وقيادتها، وأنْ يَظلَّ «أكبر» رَمزَها وعَلامتها، بدل أن يُنفِّروه عنها ويُحرِّضوه على استئصالها، والقضاءِ عليها.

عُلماء البَلاط:

ونتناولُ - هنا - العنصر الأول، وهم علماء البلاط الذين اعتقد فيهم الملك (أكبر) الخيرَ، وأحسنَ الظنَّ بهم، وخدَمهم، ووضع ثقته فيهم، وقرَّبهم لديه، وأدناهم إليه، وأنَّهم - كما يقول الإمام عبد الله بن المُبارك - رضي الله عنه - عنصر من العناصر الثلاثة للشر والفساد:

وهل أفسد الدينَ إلاَّ المُلوكُ وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها؟

ونقتطف - في هذه المناسبة أيضاً - من تصريحات العلامة عبد القادر البَدَايُوني الذي كان من أركان البلاط، ولا يبدو فيما صرَّح به عن أصدقائه وزملائه وطبقتِه، من مصلحةٍ شخصية له، أو تعنُّت ومكابرة، فقد صوَّر علماء البلاط بريشته البارعة هذا التصوير المُثِير:

«كان يدعو العلماء والمشايخ، والأشراف والأمراء كلّ ليلة جُمعة إلى مُصلاه، فكان العلماء والمشايخ يتَسابقون إلى المقاعد، ويتنافسون في الحصول على مكان أقرب إلى السلطان، فعالج السلطان هذه المشكلة، فأمر الأمراء بالجلوس في الجانب الشَّرقي، والأشراف في الجانب الغربي، والعلماء في الجانب الجُنوبي، والمشايخ في الجانب الشِّمالي، وكان السلطان يخرج عليهم في حَلْقةٍ من خاصته، فيبحثُ معهم المسائل ويُحقِّق فيها» [1].

ويقول البَدَايُوني: «إن العلماء - ذات ليلة - بدؤوا يرفعون أصواتهم في

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٠٢.

الجدال والمباحثة ، فتكدَّر خاطر الملك ، واعتبر منهم ذلك سوء أدب ، وتنافساً في الدنيا» (١).

ويقول:

«كادوا يتقاتلون بأسنَّة اللِّسان ، وبَلَغ التفرُّق والاختلاف بينهم حتى جعل بعضهم يُكفِّر بعضاً ، ويُضلِّل بعضُهم بعضاً ، وانتفخت أَوْدَاجهم وارتفعت أصواتهم ، وكدَّر ذلك صَفوَ خاطر السلطان».

وخاطبَ الملك العلامة عبد القادر في غَضب وتألم وتكدُّر بال ، وقال: «أيُّ عالِم يخالف آداب المجلس ، أخرجوه من هناك».

وكان الشيخ عبد الله السُّلْطَانفُوري (٢) يحتلُّ مكانة كبيرة في كبار أصحاب المناصب الدينية ، وكان لقبه ومنصبه «مخدوم الملك» فأصدرَ فتوى عدم فرضيَّة الحج على مسلمي الهند لحيلولة البحر ، وعدم تحقق شرط «من استطاع إليه سبيلاً» حتى لا يتجشَّم هو مشاق السفر في الحجِّ ، وكان يستخدم الحيل «الشرعية» في إسقاط فريضة الزكاة (٣) ، ويتخلَّص من أدائها كلَّ عام ، وقد اقتنى في عهد الملك (أكبر) وفي أوج وَجاهته وشُهرته أموالاً طائلة ، حتى عُثر على عدد من الصناديق المملوءة ذهباً في المقبرة الخاصة بآبائه ، وكان قد دفنها بحيلته وشطارته مع دفن الموتى (٤).

وكان يلي مخدوم الملك في المنزلة والوجاهة عند السلطان ، ونفوذ الكلمة في البلاد «صَدر الصدور» الشيخُ عبد النَّبي (٥) ، الذي كان يُعد أكبر عَالم في

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢ ، ص ٢٠٣.

(٢) راجع ترجمته المفصلة «نزهة الخواطر» ج٥.

(٣) وهي أنه كان يعطي المال الذي يفرض فيه الزكاة زوجته أو بعض أقربائه قبل حولان الحول عليه، ثم يسترده فيما بعد، ويتخلص بذلك من فريضة الزكاة وهكذا يعيد كل عام هذه الحيلة إذ أن حولان الحول على المال شرط لوجوب الزكاة.

(٤) ويذكر أنه اكتشف في هذه القبور لبناتٌ من ذهب كانت قيمتها ثلاثين مليون روبية.

(٥) كان الشيخ عبد النبي بن الشيخ أحمد الكنكوهي ، وحفيد الشيخ الكبير عبد القدوس =

الهند ، ومن أهل الاختصاص في فن الحديث ، ولكن تُفيد بعض التصريحات الواردة في «منتخب التواريخ» أنه لم يكن عاليَ الكعب ، راسخ القدم في العلم ، وكان يجهل بعض الألفاظ العربية ولا يعرف صحَّتها من خطئها ، ولم يقف على التحقيق فيها [١] ، سَلَّم إليه الملك (أكبر) منصب «صدر الصدور» ، ونال من الإجلال والاحترام ، وعظمة المكان والجاه والسلطان ، بحيث لم يكن لأيِّ رُكن من أركانِ الدولة أن يتقدَّم عليه ، ويتَفوَّه لديه ، وقد قدَّم إليه الملك نعليه أدباً وتواضُعاً عدة مرات ، وكان كبار العلماء والأعيان ينتظرون ساعات طويلة على بابه ليؤذَن لهم بالدخول عليه ، وكان بيده إجراء رواتب العلماء والمشايخ وشيوخ الطُّرق ، وإعطاؤهم الأملاك ، وإقطاعهم الأراضي ، وضَربَ في ذلك أمثلة رائعة للأريحيَّة والسخاء ، والعطاء الكثير ، مما لا يوجد له في الحكومات السابقة نظير.

ولكنَّ العلامة عبد القادر ـ الذي كان صديقه ومعاصره وزميله في علماء البلاط ـ يُصَرِّح بأنه كان عاطلاً عن الأخلاق الرفيعة ، وتقاليد أُسرته وخصائصها الطيبة، بل عن الثقافة العامة، وتقدير الظروف والمناسبات ، ويمكن أن يكون هذا التَّغيُّر في سجاياه نتيجة هذا المنصب السامي ، فكان تأثير هذه الأخلاق المتجلية فيه على الملك وأركان البلاط تأثيراً سيئاً ، ويتَّهمه العلامة عبد القادر باستغلال سلطته ونفوذه ، واستخدام منصبه في الأغراض الشخصية ، يقول:

«إنَّه اضطرَّ الإقطاعيين الدينيين في طول الهند وعرضها أن يتردَّدوا إليه ،

= الكنكوهي من كبار مشايخ الطريقة الجشتية الصابرية ، ولكنه ـ لأخذه علم الحديث عن علماء الحجاز وتتلمذه عليهم ـ خالف مذهب سلفه وأسرته في وحدة الوجود ، وسماع الغناء. وقد أسخط ذلك والده فتوترت العلاقة بينهما.

(١) يستبعد من الشيخ عبد النبي ـ بعد أن تلقى العلم على علماء الحجاز ، «راجع للتفصيل «نزهة الخواطر»ج٥ ، لا سيما أمثال العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي الكثير من أساتذة الفن ، وألف وصنف ـ أن يخطىء في بعض الألفاظ البسيطة ، فكان يقرأ «حجراً» بتقديم الحاء بدل جحر بتقديم الجيم ، والله أعلم.

وينتظروا فتح الباب لهم حتى لم يجد الوافدون عليه من هؤلاء الإقطاعِيِّين بُدّاً من أن يُعطوا الرشوة لنواب الشيخ، وكنّاسيه وحُجَّابه، وسُوَّاق أفياله ومُنظفي حماماته، فما كانت تُنْجز الأعمال إلاّ عن طريق هذه الرشوة» [١].

كان لا يُراعي الحال ولا يأخذ بالحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحسبة الدينية، حتى كان يُواجِه الملك أحياناً ـ بما لا يليق بشأنه ويُعتبر من الخُرْق وإساءة الأدب ـ كما جاء في «مآثر الأمراء»:

«إنَّ العلماء والمشايخ والأمراء كانوا يهنئون المَلِك بمناسبة الاحتفال بعيد ميلاده، وكان الملك لابساً ـ آنذاك ـ لِباساً مُعصْفراً مصبوغاً بلون الزَّعفران فاعترض عليه الشيخ، وأكَّد عليه بتغيير هذا اللباس، وشدّد في ذلك وتحمَّس حتى ارتفعتْ عصاه، ووقع طرفُها على ثوب الملك، وتحمَّل الملك منه ذلك، ولكنه شعر بإهانته، ودخل قصره، وشكا إلى والدته ما لقي من الشيخ، وكانت والدته سليلة أسرة طيبة معروفة بالفضل والصلاح، فأهدأتْ ثائرة الملك وقالت: إن احتماله هذه الشّدة من الشيخ سوف يُكتب في سِجل مناقبه في التاريخ. ويروى أن عالماً من العلماء من رعية السلطان ضربه بالعصا، فصبر على ذلك وتحمَّله إجلالاً للشريعة وتعظيماً لها» [٢].

وكانت رزيئةٌ أخرى ـ علاوة على ما تقدَّم ـ أنَّ «مخدوم الملك» والشيخ عبد النَّبي، أصبحا عدوين متنازعين، فكان «مخدوم الملك» يرميه بالجهل، فينقسم نتيجة ذلك أتباعهما وحُلفاؤهما في معسكرين متحاربين متنابذين، ويقفون وجهاً لوجه.

وبالجملة فإنَّا نَرى نقلاً في ضوء ما نُقل إلينا من سيرة «مخدوم الملك» والشيخ عبد النَّبي، إذا كان نقلاً صحيحاً في التاريخ ـ أنهما لم يكونا جديرين بتمثيل الدين الإسلامي تمثيلاً صحيحاً، وخلافة الأنبياء، وأداء رسالتهم في

---

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٠٥.

(٢) مآثر العلماء: ج٢، ص ٥٦١.

ذلك العصر الدقيق الحَرِج ـ عهد الملك (أكبر) ـ وفي تلك البيئة المعقَّدة الخطيرة ـ بلاطِ الملك (أكبر) ـ لا في العلم والثقافة، ولا في الفهم الصحيح للدين، ولا في عُزوف النفس وسُمُوّ الأخلاق، وأنه إن لم يتيسَّر لهذا البلاط أمثال رجاء بن حيوة (١) مستشار الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ووزيره الأمين، والإمام أبي يوسف (٢)، قاضي القضاة في الدولة العباسية والمستشار الديني للخليفة العباسي هارون الرشيد في عِلمهما ووَرعهما، وذكائِهما وتدبيرهما، فلا أقلَّ من أن يتوَّفر له أمثال عبد العزيز آصف خان، والقاضي شيخ الإسلام (٣)، من المستشارين للدولة النَّوابغ الأذكياء والزُّهاد الأتقياء.

وكان لابُدَّ لمهاجمة العلماء الأفذاذ المبرِّزين في العلوم العقلية، والنابغين في الفنون الأدبية، الذين تجمَّعوا في بلاط الملك (أكبر) من أبناء إيران والهند ـ كما سيأتي ذكرُهم قريباً ـ من وجود مُمثِّلين للدين والشريعة الإسلامية، ومستشارين دينيِّين للدولة، ومُحافِظين على السلطة، أدقَّ منهما علماً، وأعمق إدراكاً، وأعلى كفاءة واستعداداً، وأكثر تفطُّناً لحاجات العصر وضرورات الحياة.

ولمَّا اطَّلع (أكبر) ـ الذي كان يعتقد (كما يقول المؤرِّخ عبد القادر) رُجحان هؤلاء العلماء على الإمام الغزالي والمفسِّر الرَّازي وتفوُّقهم عليهما ـ على هذه التصرفات الساقطة السخيفة، جعل يقيس العلماء السالفين عليهم، وأساء الظن بهم جميعاً.

أركانُ الدَّولة ومستشارو البلاط:

ولم يكُن شقاءُ الملك (أكبر) في أركان الدولة أقلَّ من شقائه في علماء

---

(١) هو الذي أشار على سليمان باستخلاف عمر بن عبد العزيز.

(٢) وهو الذي نظم القضاء في الدولة العباسية الكبيرة وصنف «كتاب الخراج».

(٣) راجع لتراجمهما «نزهة الخواطر» ج٤، لوالدنا العلامة مؤرِّخ الهند عبد الحي الحسيني رحمة الله عليه.

البلاط إذ كان يسحر عقله ، ويسلب لُبه ـ لجهله وسذاجته ـ كلُّ لَسِن ذكي ، فَطِن ألمعيّ ، لا سيَّما إذا كان وافداً من «إيران» التي كان يعدُّها أبناء الهند وأفغانستان ، بمنزلة اليونان.

وقصد لبلاط «أكبر» ـ في تلك الفترة الشَّقية التي أُصيب فيها أكبر بالتضعضع في الدين والعقيدة ، الحكيمُ أبو الفتح الكيلاني ، والحكيم هِمَايُون (الحكيم همام) ونور الدين قراري ، الإخوة الثلاثة ، ونالوا الحظوةَ والمكانة العالية في البلاط ، وجاء بعد فترة يسيرة مُلاّ يَزْدِي ، الذي أطال لسانه على صحابة الرسول ﷺ ، وخطا حكيم أبو الفتح خُطوة أخرى قُدماً وأنكر ـ علناً وجهاراً ـ الحقائق الدينية كالوحي والنبوة والمعجزة [١] ، ونزل شريف الآملي في هذه الفترة نفسها ـ كما سبق ـ قاصداً من إيران ، وكان على مذهب «محمود بسيخواني» ويحملُ الأفكار الملحدة.

وعدا هؤلاء العلماء النوابغ القاصدين من إيران ، اندسَّ في البلاط في هذه الفترة المصابة بالاضطراب الفكري والتضعضع العقائدي ـ رجلٌ هندوكيٌّ ـ يدعى «بَرْهَمْ دَاسْ» كان حاضر البديهة ، مُبرِّزاً في المناظرة ، فَكِهاً ظريفاً ، لطيفَ المحاضرة ، فتقـرَّب إلى الملك ، وتحكَّم في ذوقه وعقليَّته ، وتصدَّر في البلاط ، وما لبث أن لقَّبه الملك بـ«المصاحب» (النديم) الخاص ، فعظم قدرُه ، وعلا مكانه ، وذاع صيته باسم «رَاجَهْ بَيْربَر». إنه اتَّخذ موقف السخرية والاستهزاء ، والجراءة الوقحة إزاء العقائد الإسلامية ، والمسائل الدقيقة ، والشُّؤون الدينية ، بعد أن عرف اتجاه الدولة ، ورَغبة الملك ، فساير البيئة حيث كانت هذه السُّخرية «العُملة السائدة» في ذلك العهد ، فصفق له الناس من كل جانب ، وقام بدور خطير في توجيه الملك توجيهاً هازلاً غير جاد في أمور الدِّين [٢].

---

(١) انظر «منتخب التواريخ» ج٢ ، ص ٢١١.

(٢) راجع للتفصيل «منتخب التواريخ» ج٢ ، ص ١٦١.

مُلاَّ مبارك وَولداه: فيضي وأبو الفَضل:

وزاد الطينَ بلةً ترَدُّدُ مُلاَّ مُبَارك النَّاكُوْرِي على البلاط، وكثرةُ اختلافه إليه (١)، وحصل لابنيه فيضي وأبي الفضل من الحظوة والتقدير، عند السلطان، والتبجيل والإكرام في البلاط، ما لم يَحصُل لأحد من قبل.

وتُطالِعنا الدراسة المُنصفَة المحايدة لحياة مُلاَّ مبارك، وفَيضي، وأبي الفضل وسيرتهم على أنهم كانوا من نَوابغ الأذكياء، وذَوي الباع الطويل في العلم والثقافة الغزيرة الواسعة، والمتبحِّرين في العلوم العقلية والأدبية وأصحاب القريحة في الشعر والنَّثْر الفارسيَّين.

وخُلاصة القول أنهم كانوا أفضلَ وأعقلَ وأرقى نِتاج للمناهج الدّراسية المطبَّقة في ذلك العصر، وأسلوبِ البحث والتحقيق، والتدريس، والعلوم والثقافات المفضَّلة السائدة في عصرهم، ولو كانوا قد جمعوا إلى هذا الإدراك الدقيق، والعقلية النابغة، والقريحة الفياضة، والقلم السيَّال، واللِّسان الذَّرِبِ الطليق، استقامةً في الدين، ورسوخاً في الإيمان واليقين، وخشية ربِّ العالمين، والرغبةَ في الآخرة، والإخلاص في العمل، والرَّبانية المشرقة، لكان لهم دورٌ أيُّ دور، وقاموا بمآثر جليلة، ووقاية كاملة لعصرهم من الفِتَن والويلات، كان من العسير أن يوجد لهما نظير، ولكنَّ دراسة سيرتهم وأحوالهم ومؤلفات أبي الفضل وفيضي أنفسهما تكشف لنا عن الجوانب التالية:

١ ـ لقد كان مُلاَّ مبارك ـ وهو الركن الأول من هذا الثالوث ـ مضطرب النَّفسية، قلق التفكير، مُوزَّع الهمِّ، درس المذاهب الفقهية الأربعة، واطَّلع على الخِلافات فيها، فاتّجه إلى الكراهية لها والنفور منها، وإنكار فضلها بدل أن ينحو نَحو الجمع والتطبيق، والتوجيه الصحيح، وأنكر هذا التراث الفقهي

---

(١) ذكر أبو الفضل في «أكبرنامه» وصول ملا مبارك إلى البلاط لأول مرة في حوادث العام الثاني عشر من تولي الملك.

العظيم ، وجُهود السلف الصالحين ، وسيطرتْ عليه الفلسفة لانضمامه ـ فيما بعد ـ إلى حلقة أبي الفضل الكَازَرُوْنِيّ من كبار فضلاء العلوم العقلية المعروفين من أبناء (شِيْرَاز) ، وبدأ يُطالع كتب التصوف و«الإشراق» مباشرة من غير مُراجعة أئمة هذا العلم ومشائخ الطرق ، ومن غير أن يستفيد منهم في علم التزكية والسُّلوك ، والاطلاع على مصايد الشيطان ، وأمراض النفس ، ومُعالجتها عن طريق المناهج المعروفة ، فوقع في الأخطاء ، ونشأتْ فيه طبيعةٌ متقلّبة متلوِّنة مضطربة بعد أن مرَّ بهذه الأودية والشعاب ، ووُجدت فيه ـ من جراء ذلك ـ ملكة التلوُّن بكل لون ، والتكيُّف مع كل حال ، والسَّير في مسار هذا المثل النفعي ، «دُرْ مع الدَّهر حيثُ دَار» .

يقول عنه الشيخ خواجه كَلان بن الشيخ الكبير خواجه عبد الباقي النقشبندي ، الذي تربَّى في بيت ابنة الشيخ مبارك المذكور [١] :

«كان يعتنق في كُلِّ دور من أدوار حياته المذهب أو الديانة التي يَرغبُ فيها الأمراء والملوك» [٢] .

ويقول المؤرِّخ (Sir Welzle Haig) : «لقد اعتنق مُلاَّ مبارك ـ في مختلف أدوار حياته ـ: السُّنية والشيعية والصوفية والمهدوية ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلاَّ الله» [٣] .

٢ ـ إنَّهم كانوا أصحاب طُموح وطلب للجاه والنفوذ ، فلم تكن طبيعتُهم القلقة الفياضة لِتَقْنَع بالعلم والتدريس ، وتنحصر في دائرتها الضيقة المحدودة فتاقت نفوسهم إلى إظهار نُبوغهم وذكائهم في البلاط والتأثير فيه ، فاستظلَّ

---

(١) تربى خواجه كلان في بيت الشيخ حسام الدين ، وكانت زوجة الشيخ حسام الدين بنت الملا مبارك ، (انظر «تاريخ هندوستان» ج٥ ، ص ٩٤٧).

(٢) مبلغ الرجال: ورقة ٣٣ ، ألف.

(٣) Cambridge History of India Vol.4.p.18.

بظل الملك أكبر ـ الذي كان يعتبر ظِلَّ «هُما» [١] ـ وحصل لابنيه النفوذ والسلطة وإن لم يحصل له.

٣ ـ يبدو أنَّ علماء ذلك العصر ـ ولا سيما مخدوم الملك، والشيخ عبد النَّبي اللذان كانت لهما السيطرة والنفوذ في البلاط ـ لم يُعطوه مكانه اللائق به الذي كان يستحقه لفضله وذكائه، وأنه عُورِض من قبل الأوساط الدينية لبعض معتقداته وآرائه المنحرفة، وتلوُّن طبيعته، وقُوبل بالإهمال وقلة الاهتمام بشأنه، وذلك ما جرح قلبه، وترك فيه آثاراً عميقة، وفي تعبير الأديب الكبير الشيخ محمد حسين آزاد: «كم من سِهام الظُّلم والحَيف أصابت فؤاد الشيخ مبارك، وأحدثت فيه ثقوباً لا تنحصر، وإن الجراح التي نالها الشَّيخ أبو الفضل ووالده الشيخ مبارك، من «مخدوم الملك» و«صدر الصدور» لم يكن لها من بُرء على مرِّ الأعوام وكرِّ السنين» [٢]، ويقولُ في موضع آخر: «إنَّ ما أصاب الشيخ مبارك من الرزايا على يد «مخدوم الملك» ما نَسيها أبناؤُه، فبدؤوا ـ لتلافيه ـ يَسعون للوشاية عند الملك (أكبر)، ومن ثمَّ بدأ التحول في أفكاره وآرائه» [٣]، ويقول محمد حسين ـ رغم أنه من المتحرِّرين «المتنوِّرين» ـ: «كانت حالةُ فَيْضِي وأبي الفضل كحالة أبيهما غامضة مُبهمة».

وأورثَتْ مُعارضةُ العلماء وظُلم ذوي العصر عُقدة «مُركَّب النقص» في جميع أفراد هذه الأسرة، وعُقدة مركَّب النقص (Inferiority Complex) تَظهر في أشكال مختلفة، وفي صُورة «مُركَّب الاستعلاء» (Superiorty Complex) أحياناً، فعزموا على ألا تقوم قائمة لأيِّ عالمٍ أمام علمهم وذكائهم.

وذَهب ضحيةَ هذا الحقد على علماء البلاط والترة التي كان يحملها الثلاثةُ؛ الإسلامُ والنظام الديني بأسرِه، حتى إذا أفل نَجْمُهم وانطفأ سِراجهم أو كاد

---

(١) «هُما» طائر أسطوري في الأدب الفارسي، يعتقد فيه البركة، ويتفاءل به فيقال إنه إذا جلس على رأس إنسان أو وقع عليه في طيرانه آل إليه الملك.

(٢) دربار أكبري: ص ٤٩ ـ ٥٠.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٨٩.

ينطفىء إزاءَ نبوغ هذين الأخوين وذَكائهما النادر ، وعلا في الدولة صيتُهما وطار في الآفاق ذِكرهما ، كانتْ حديقة الإسلام الذابلة ـ بفعلهم بين سَمْعِهِم وبصرهم ـ تلتهمُها النيران ، ويَشبُّ فيها الحريق ، وكان أبو الفضل ـ حسب ما يقول المؤرِّخ عبد القادر ـ يُردد هَذين البيتين ، وهما لسان حاله وأصدق ترجمانه ، يقول ما معناه :

«لقد أشعلتُ النيران بيدي في مِرْبدي[١] ، وقتلتُ نفسي بنفسي ، فكيف أشكو عَدوِّي ، وليس هناك عَدُوٌ إلا أنا نفسي ، آه من نفسي ويدي وعَدوِّي» .

وكان لمُلاَّ مبارك هذان الولدان النابغان أبو الفيض فَيْضِي الذي وُلد عام ٩٥٤ هـ ، وأبو الفضل العلاَّمي المولود عام ٩٥٨ هـ .

وكان فَيْضِي نابغةً من نوابغ العلوم الأدبية ، لا يختلفُ اثنان في رَوعة شعره الفارسي وإمامته فيه ، وأصاب العلامةُ شِبلي النُّعماني حيث قال في «شعر العجم» : «لم يُنجِب الشعر الفارسي في الهند في عُمره الطويل الممتد على ستة قرون سوى شخصين ، أذعَنَ لهما ـ طوعاً أو كرهاً ـ أصحاب هذا اللسان ، هما خُسْرُو وفَيْضِي» .

«تَـتَلْمَذ فَيْضِي على خواجه حسين المروي ، وبَرزَ في كل عِلم وَفنٍّ ، ودخل بلاط الملك عام ٩٧٤ هـ ، ـ العام الثاني عشر مِن تربُّع السلطان ، على عرش الدولة ـ ونالَ الشرف والتقدير ، ولم يزَل يتقرَّب إلى السلطان إلا أنه لم ينسلك في وظيفة من الوظائف في البلاط ، كان طبيباً نِطاسياً ، وكان شاعراً مَجيداً ، وكان مؤلِّفاً قديراً ، يقضي وقته في هذه الأعمال العلمية .

وأُسند إليه تأديبُ أبناء الملك وتعليمُهم وتثقيفهم ، ففي العام الثاني عشر من تولِّي السلطان عهد إليه بتعليم ولي العهد دانيال ، وعلَّمه فيضي ـ في أيام قليلة ـ مبادىء العلوم ، وألقى أكبر ـ هذا العام ـ خُطبة في المسجد ادَّعى فيها الاجتهاد والإمامة ، وكان فيضي مؤلّف هذه الخطبة .

---

(١) [المِرْبَد : موقف الإبل ومَحْبِسُها ، وبه سمِّي مِربَد البصرة ، كان سوقاً للإبل] .

وقلل (أكبر) من نفوذ الشيخ عبد النَّبي وحدَّ من سلطانه ، وفرَّق الصدارة ـ الرئاسة ـ في عِدة شُعب ، فأسند عام ٩٩٠ هـ رئاسة (آكْرَه) و(لكالنجر) و(كالبي) إلى فَيْضِي للقيام بهذه المهمة معهم .

وفي عام ٩٩٦ هـ وهو العام الثالث والثلاثون من تولِّي أكبر للحكم ـ لُقِّب فَيضي بملك الشعراء ، وعُيِّن سفيراً في «خَانْدَيْس» عام ٩٩٩ هـ الموافق للعام السادس والثلاثين من حكمه ـ فقامَ بهذه الخدمة خيرَ قيام ، ونَجح فيها نجاحاً كبيراً ، وتُوفي في شهر صفر ١٠٠٤ هـ الموافق للعامِ الأربعين من ولاية السلطان» (١) .

وله تفسيرٌ من أشهر ما ألَّفه وأَسماه «سواطع الإلهام» (٢) ـ عدا ما خلَّفه من مؤلَّفات أدبية ، وكُتب مُترجمة من اللُّغة السَّنْسَكْرِيتية ، وقصائدَ متفرقة وديوان شعر ـ وتفسيرُه هذا تحاشى فيه الحروف المُعجمة كلها ، وأكملَ تأليفه في

---

(١) ملخَّص من «شعر العجم» للعلامة شبلي النعماني، ج ٣، ص ٢٨ ـ ٧٢.

(٢) ألف فيضي هذا التفسير ـ الذي التزم فيه بأن لا يستعمل أياً من الحروف المعجمة والذي طار صيته في عصره، وتحدث به القاصي والدَّاني ـ لإثبات فضله ونبوغه، والرد على اتهامه بالانصراف عن العلوم الدينية، ولكن هذا العمل ـ مهما أثبت له من قدرته على اللغة العربية، وامتلاك لناصية البيان فيها ـ لم يضف شيئاً علمياً مفيداً، وإنما مثله مثل بعض الكتبة البارعين في الخط، الذين كانوا يتظاهرون بدقة خطهم وجمال فنهم بكتابة سورة الإخلاص ـ كاملة ـ على حبة واحدة من الأرز، فجاءت ـ نتيجة ذلك ـ عبارة متكلفة لا لذة فيها ولا جمال ولا طراوة.

ولعل مأثرة عالم الشام الشيخ بدر الدين المعروف بابن الغَزي الدمشقي (م ٩٨٤هـ)، كانت أنفع وأحق بالتقدير والإجلال، إذ أنه فسر القرآن الكريم في مئة ألف وثمانين ألف بيت من الشعر، ثم لخصه في مجموعة أخرى من الشعر، وقدمها إلى السلطان سليمان القانوني، وعرضه السلطان على العلماء حتى يبينوا إذا كان فيه ما يخالف عقيدة الجمهور أو إن كان وقع فيه تحريف، واتفق العلماء على صحته واعترفوا بفضله، فأعطاه السلطان جائزة قيمة غالية. «الكواكب السائرة» لنجم الدين الغزي، وراجع أيضاً «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني اليماني صاحب «نيل الأوطار» (م ـ ١٣٥٠هـ) ج٣، ترجمة محمد بن محمد الغزي ـ ص ٣٥٣.

عامين ، انتهى منه سنة ١٠٠٢ هـ ، وجازاه أكبر على هذه الخدمة بعشرة آلاف روبية [(١)] وكان فيضي يعتزُّ بهذا التأليف ، ويُقدَّر من خلال كتابه مدى قُدرته البيانية ، وملكته اللغوية ، ويَعترف الشيخ البَدَايُوني ـ رغم الاختلاف في العقيدة والمذهب ـ بعبقَريته العلمية وتبحُّره في اللغة ، فيقول :

«كان نسيجَ وحدِه في الفنون كالشعر والألغاز والعروض ، والقوافي ، والتاريخ واللغة ، والطب والإنشاء» .

وكان شغوفاً بجمع الكتب ، أنشأ مكتبة قيِّمة ضخمة كانت تحتوي على أربعة آلاف كتاب ، أكثرها مما ألفه بنفسه ، أو أُلِّفَت في عصره .

ويجمع العلاَّمة عبد القادر البدايوني وجميع من في عصره ممن كانت تجيش في قلوبهم الحميَّة الإسلامية والغيرة على الدين ، ويَعصرهم الحزن والألم على ما يُشاهدون من الأوضاع والظروف السيئة في عهد الملك (أكبر) ، على أن فيضي كان كوالده فريسة الاضطراب والتبلبل في الأفكار ، والتَّزلزل في العقائد ، وأن له يداً فعالة في انحراف «أكبر» وإلحاده ، وأن صورة «فيضي» كما تتجلَّى في «منتخب التواريخ» للبَدَايُوني ، إذا أخذناها بالحيطة ، وبإبعاد عناصر المبالغة والإنشاء الأدبي الطليق ، لا تخلو من التحرُّر والانطلاق ، وعدم التقيُّد بالإسلام ، وذكر العلامة النُّعماني مقتبسات من مذكرته تدل على طابع السخرية والاستهزاء [(٢)] ، يقول العلامة النُّعماني :

«أقام فَيْضي وأبو الفضل مجالس علمية ظهر فيها لأصحاب البلاط بكل وُضوح أن هؤلاء المتعصِّبين (من العلماء المجتمعين في البلاط) لا يحملون سوى أدوات اللَّعن والتكفير» [(٣)] .

---

(١) مآثر العلماء : ج ٢ ، ص ٥٨٧ .

(٢) انظر «شعر العجم» ج ٢ ، ص ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) منتخب التواريخ : ج ٢ ، ص ٤٠٦ ـ ٤٠٥ ، وانظر الكلام على مذهب فيضي وآرائه في «دربار أكبري» بقلم الشيخ محمد حسين آزاد ، ص ٤٧١ .

ويبدو أنَّ أفكار فَيْضِي وآراءه الملحدة انتشرت في الآفاق، وذاع صيتها في الأطراف في حياة فيضي نفسها، فإن التواريخ التي استخرجت منظومة بمناسبة وفاته تدل على ذلك، وقِصة وفاته تحمل في نفسها العبرة والدرس.

أمَّا صِنْوُه أبو الفضل ـ فقد كان كما تقدَّم ـ من نوادر الرجال في الذكاء وسَيلان القريحة والتَّفنُّن في العلوم، وكانت له اليد الطُّولى والقَدح المعلَّى في الكتابة والإنشاء، كما كان أخوه الأكبر صاحب الكعب العالي في الشعر يقول في كتابه «أكبرنامه»:

«إنَّه جُنَّ جُنونه في صغره، ضد التقليد والظاهرية، والصَّلَف، والإعجاب بالرأي» [١].

وسُعد بالمثول في البلاط الملكي عام ٩٨١هـ بمدينة (آكْره)، وأهدى إلى الملك تفسير «آية الكُرسي» ثم أهدى إليه تفسير «سورة الفتح» عام ٩٨٢ هـ.

ومن ثم نال الزُّلفى عند الملك، ولم يزل يتقرب إليه حتى سُلّمت إليه مقاليد «الوزارة العالية» و«النيابة المطلقة»، وإن «آئِين أكبري» ـ دستور هذه الدولة وقوانينها ـ أعظم مآثره، وإنها مرآة صادقة لوقائع الدولة التيمورية وأحوالها الدينية والعلمية، والعائلية والمدنية والاجتماعية، والاقتصادية والزراعية، والصناعية والحربية، والدولية.

ويَلي هذا الكتاب كتابُه الثاني «أكبر نَامَهْ» [٢]، وهو يشتمل على سيرة السلاطين التيموريين في الهند، وأحوالِهم.

وهناك ـ عدا هذين الكتابين العظيمين ـ مجموعةُ رسائل بعنوان «إنشائي

---

(١) أكبر نامه: ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) يقول العالم الفرنسي الشهير «Carradevaux» عن كتاب «أكبر نامه»: «إنه وثيقة تاريخية يحق للشرق أن يعتز بها، وإن العبقريات الإنسانية التي عرفت بنفسها عن طريق هذا الكتاب الضخم، يخيل إلينا أنهم سبقوا عصرهم في تدبير شؤون الدولة والتنظيم للبلاد»
(Carra De Vaux Les Penseurs De L' Islam - Paris 1992)

أبو الفضل» ، ومؤلَّفات أخرى ، وقد قام (نَرسَنْك دَيْو) ـ بإشارة الملك جَهَانْكِير ـ باغتياله عام ١٠١١ هـ ، فحزن عليه «أكبر» حزناً عميقاً وبكى لموته ورثاه.

يقول الدكتور محمد بَاقر في مقاله بعنوان «أبوالفضل» الذي جاء في دائرة المعارف الإسلامية الأردية:

«كان لأبي الفضل التأثيرُ الكبير على عقائد الملك الأكبر ، ولما أنشأ (أكبر) عام ٩٨٢ هـ الموافق عام ١٥٧٥ م بناية خاصة للعبادة في فتح بورسيكري ، وجمع علماء الدين ليستمع إلى مناظرتهم ومباحثاتهم ، كان أبو الفضل ممَّن يحضر هذه المناظرات ، وكان يؤيِّد ـ دائماً ـ ما يذهب إليه أكبرُ في العقائد والآراء ، وينحاز إليه ، حتى أثبتَ لأكبر أن ما يذهبُ إليه من آراء ومعتقدات أرجحُ وأفضل جداً من آراء العلماء المعاصرين.

وأصدر عام ١٥٨٩ م قراراً من البلاط ينص على أن المرجع النهائي في الفصل بين خلافات العلماء الدِّينيين هو «جلالة الملك» أكبر ، وقد رَغِبتْ نفسُه أثناء هذه المناظرات التي كانت تُعقد في معبده في ابتداع دين جديد ، فوَضع أساس هذا الدين عام ١٥٨٢ م ، واختاره أبو الفضل أيضاً»[١].

تختلف الآراءُ في أبي الفضل ، أنه كان إنساناً متحرِّراً ، طليقاً من القيود الدينية ، وبعيداً عن العصبية فحسب ، أم كان مُضَلِّلاً منافقاً كائداً للإسلام ، يظنُّ الناس ـ عادة ـ أنه كان رَحب الصدر ، متسامحاً مع الناس ، يُراعي الصدق والدقة في بيان الأحداث والوقائع ، ولا يُطري الناس ، ولا يُثني على أحد أكثر من حقه ، وكان يَكره تزمُّت المتزمِّتين ، وعصبيتَهم ، ويحسن بنا أن نذكر هنا حادثة نستطيع بها إدراك عقلية أبي الفضل ، وسَبر أعماقها والاطلاع على نواياه:

«حميت المناظرةُ ـ ذات مرة ـ في قصر الملك (أكبر) الذي بناه للعبادة ،

(١) دائرة المعارف الإسلامية: ج١، ص ٨٨٩ ـ ٨٩٠.

حول فضائل القرآن ، والإنجيل ، إذ كان أتباع كلٍّ واحد من هذين الكتابين المقدَّسين يقولون إن كتابهم هو المنزل من السماء لا غير ، فأرسل «أكبر» إلى رجل من المجاذيب يدعى الشيخ قطب الدين ، فجاء الشيخ وتحدى المسيحيِّين ، وقال: تعالوا نُوقد النار ، وندخل فيها ، ونُثْبتُ عن طريقها صحةَ دعوانا ، يقول البَدَايُوْنِي: فأوقدت النِّيران ، وتقدم الشيخ قطب الدين وجذب بأطراف معاطف البطارقة المسيحيين ، وقال: تعالوا باسم الله ، ندخل فيها ، فلم يتجرأ أحدٌ منهم أن يقتحم النار»[١] .

أمَّا أبو الفضل فيحكي هذه القصة في أسلوب يدل على نَفسيَّته الحاقدة على الإسلام ، فيقول:

«أقام البطريق رادلف (Rudolf) ـ الذي كان نادرة عصره في العلم والذكاء ـ أدلة عقلية راجحة ، ولكن هؤلاء الكذابين المتزمِّتين جعلوا يردون عليها في طَيش وسطحية ، ولم تكن لدلائلهم أي قيمة ، فخجل المعارضون لرادلف (المسيحي) ، وبدؤوا يَسُبُّون الإنجيل بدلاً من الردِّ على الأدلة ، فتحدَّاهم رادلف ، ودعاهم إلى اقتحام النار ، ليُثبت كل فريق دعواه بمُروره على النار سليماً؛ ولكنْ خاف هؤلاء الجُبناء أصحاب القلوب السوداء ، وتظاهروا إزاء هذا التحدِّي بالتزمُّت والمِراء ، وكان هذا الجُبن منهم صدمة لقلب السلطان أكبر»[٢] .

وكان من الحاضرين في البلاط ـ آنذاك ـ مع البطريق الإيطالي رادلف أكويا (Rudolf Aqua Viva) ـ أحد المسيحيِّين الإسبان ، أنطوني مانسريت (Antony Monserrate) وأحد الإيرانيِّين الذي اعتنق المسيحية ، فرانسس هنري كيس (Francis Henri Wuez) وألَّف أنطوني مانسريت كتاباً باسم (Mongalicae Legations Commentarius) في اللغة اللاتينية ، وتحدث فيه

(١) منتخب التواريخ: ج٢، ص ٢٩٩.
(٢) أكبر نامه: ص ٢٥٥.

عن انطباعاته ومشاعره حول بلاط السلطان (أكبر)، ويُلاحظ في الكتاب دفاعه عن جُبن البطريق رادلف وتَهيُّبه للدخول في النار ، ويعترف بأن التحدِّي باقتحام النار كان من قبل عالم مُسلم ، وتخلَّص منه «رادلف» قائلاً : «إن هذا اختبار الله ، وذلك يُخالِف مبادىء الدين المسيحي» (١) .

يكفي تناول أبي الفضل هذه الحادثة بالتحريف والتزوير ، ودفاعُه عن «رادلف» وأسلوبه مع المعارضين له من العلماء المسلمين ، للدلالة على كراهية أبي الفضل للإسلام والنفور منه ، فلم يكن يتَعذر على مثله في الذكاء والدهاء أن يبذر في قلب السلطان بذور الشك والارتياب واللادينية التي تنحرف به عن الإسلام ، وتنفِّره منه .

وجاء في «مآثر الأمراء» أن الملك (جَهَانْكِيْر) كان يقول: لقد لقَّن الشيخ أبو الفضل والدي أنَّ خاتم النبيين محمداً ـ ﷺ ـ كان أفصح الناس وأن القرآن من تأليفه ، ولذلك أوعزتُ إلى (نَرْسِنْكه دَيْو) عند عودة أبيَ الفضل من الجنوب ، أن يَقتله ، وكان والدي ـ بعد ذلك ـ تاب من هذه العقيدة» (٢) .

ولكنَّ أوثق شاهدٍ وأصدَقه على ذلك ، تصريحٌ من أبي الفضل نفسه ، يدل على أن ما قام به من دور باستعانة علمه وذكائه من صَبغ أهواء الملك ورغباته بالصِّبغة العلمية ، وتقويتها بالأسلحة العلمية ، ورفع مكانته من والي الدولة المسلمة إلى «إمام العصر» و«مرشد الأمَّة» لم يكن ضميرُه مقتنعاً به مرتاحاً إليه ، وكان يَستيقظ فيه ـ أحياناً ـ هذا الضمير ، ويثور هذا الشعور ، فيقول في رسالة وجَّهها إلى الأمير عبد الرحيم «خَانخَانَان» فيها عن نفسه :

«إنَّ كاتب هذه السطور لتورُّطِه في جحيم الأشغال التي لا تعنيه ، سقط من

---

(١) Father Antony Monserrate. Mongolicae- Legationis Commentarius. Transl J.S.Holland Oxford University Press. 1922 P.P.39 - 42.

(٢) مآثر الأمراء: ص ٦١٧ .

مرتبة عبد من عباد الله إلى حضيض عبد النفس والهوى ، وكاد أن ينادى يا عبد الدِّينار والدِّرهم ، وأنه يبدي عن طريق هذه الكتابة ألمه وحزنه ويرى أنه بعد هذا السَّعي السفيه الحثيث ، طوالَ ثلاث وأربعين سنة ، ولا سيَّما هذا الصراع الذي دام اثنتي عشرة سنة مع أبناء هذا الزمان لم يبق فيه بقيةٌ من صبر ، ولا قوة على الاجتناب والبعد»[١] .

تأثيرُ زَوجات المَلِك الهِندُوكِيَّات:

كان عاملاً قوياً من عوامل انحراف «أكبر» وتَحوُّل نفسيته ، أنه بدأ يُقيم الصلات والقرابات ـ لتوطيد أركان الدولة ، وإحكام السلطة ـ مع الرَّاجْوَات ـ الأمراء ـ الرَّاجْبُوْت ، ويُعيّنهم على المناصب الخطيرة العالية ، وأقدم لكسب ثقتهم وإرضائهم ـ على أُمور وأعمال لم يسبق إليها أحد من سلفه من الملوك والسلاطين ، كالنَّهي عن ذبح البقرة ، والتجلّي للناس من نافذة القصر مستقبلاً الشمس ، وحلق اللحية. . . ووضع نقطة من الطين الملوَّن في وسط الجبين ـ وهو من شعار الهنادك ـ والزواج مع النساء الرَاجْبُوْت ، ومخالطة الأميرات الهِنْدُوْكِيَّات ، والمشاركة في العادات والمظاهر الهندوكية ، وقد كان لهؤلاء الزوجات الهندوكيات ، ولإخوتها وذوي قُرباها ـ عن طريقها ـ أثرٌ كبير على «أكبر» وكان ذلك طبيعياً ، وأن أول هَدَّة وقعت في بُنيان الدين ، وزلزلت قواعده ، ترجع إلى هذه الصلة والقرابة مع الهندوكيات .

وتفصيل هذا الإجمال أن الشيخ عبد الرحيم قاضي «مَتْهَرا» أعدَّ العُدة لبناء مسجد في المدينة ، فأغار أحد البراهمة في جنح الليل ، وحمل أدوات البناء وكل ما جُهِّز لأجله ، وبنى معبداً هندوكياً ، فلما أخذ المسلمون يناقشونه ويلومونه انفجر يسُبُّ الإسلام والرسول ـ ﷺ ـ فرفع القاضي عبد الرحم أمره إلى «صدر الصدور» الشيخ عبد النبي ، فأصدر الشيخ عبد النبي أمراً بطلبه

(١) إنشائي أبو الفضل: (مجموع رسائل لأبي الفضل) ج ٢، ص ٢١٠٢، طبعة لكهنئو ١٨٨٢ م.

إلى مجلسه ، وحقَّق معه في الأمر ، حتى تبين أن الحادثة كما ذكرت ، فحكم الشيخ بإعدامه ، ولكنَّ هذا البرهمي كان مُرشد الملكة (جَـوْدَهْ بَـائِي) ، والقائم بأعمال «بَرَوْهت» ـ وهو الذي يكون عالماً من علماء الديانة الهندوكية ، ويقوم بالشؤون الدينية ، وأداء تقاليد الأعراس والمآتم ، وكفن الموتى وإحراقهم في الأسر الهندوكية ـ وكانت الملِكة تضغط على أكبر ليتدخل في الأمر ، ويصدر العفو عن المجرم ، ولكن لم يكن الملك يريد التدخل في الشؤون القضائية وإغضاب صدر الصدور ، وبالفعل نفذ صدر الصدور حكم الإعدام ، فثارت الفتنة وتطورت القضية بدل أن يُقضى عليها وتدفن ، كما يقول البَدَايُوْنِيّ :

«أوغرَتْ أخواتُ رَاجْوَات الهند العظام صدرَ السلطان ، وحرَّكنَ فيه النخوة حيث إنه أطلق الحرية لعلماء الدين حتى ركبوا رُؤوسهم، لا يبالون برضا السلطان وأمره ، وأُثيرت في البلاط مسألة أن المذهب الحنفي لا ينص على القتل عقاباً لشاتم الرسول ﷺ ، ولذلك فإن هذا الإجراء مخالف للمذهب الذي يسود قانونه في هذه البلاد» .

وانتهز الشيخ مُبارك هذه الحادثة لتَنفير السلطان (أكبر) من علماء الدين وتخليصه من تأثيرهم ، لأنه لما استفسر الشيخ مبارك عن رأيه في هذا الأمر ، قال له :

«إنَّ جلالة السلطان إمام هذا الزمان ، ومجتهد هذا العصر ، فلا حاجة له في إصدار رسائله وأحكامه ـ سواءٌ كانت تتعلق بأمور الدين أو شؤون الدنيا ـ إلى الاستعانة بأي عالم من العلماء أو شيخ من المشايخ»[١] .

مُذكِّرة الاجتهادِ والإمامة:

كانت هذه الفرصة السَّانحة التي أخذَ فيها الشيخ مبارك بيد الملك ، وأعدَّ تلك المذكرة التاريخية الخطيرة التي تُعتَبر حجَر الأساس في توجيه «أكبر»

(١) منتخب التواريخ: ج ٣، ص ٨٣.

وحكومته نحو الانحراف والضلال، ويُمكن أن تسمَّى الباب الرئيسي لذلك القصر الفخم الذي قام على الردة العقلية والحضارية والعقائدية [١]، لقد جاء في هذه المذكرة بصراحة ووضوح:

«إنَّ منزلة السلطان العادلة أكرمُ عند الله من منزلة المجتهد، وإن جلالة السلطان، كهف الأنام، أمير المؤمنين، ظِلّ الله على العالمين، أبي الفتح جلال الدين محمد (أكبر) الملك الغازي، أعدلُ الناس وأعقلهم وأعلمهم، فإن كان هو ـ بناءً على ما تقدم ـ يرى رجحان رأي على رأي ـ تيسيراً على بني آدم ـ في المسائل التي اختلف فيها المجتهدون، بذهنه الثاقب ورأيه المصيب، ويُقرُّه حُكماً فاصلاً فإنه يعتبر هذا الحكم من الملك حكماً قاطعاً مُجمعاً عليه، ويتَحتَّم على جميع الرعية الأخذ به والخضوع له».

أُعِدَّت هذه المذكرة في رجب عام ٩٨٧هـ، ونُفذت في المملكة، ووقَّع عليها جميعُ العلماء بإشارة من الملك، ومن ثم أصبح الملك إماماً مجتهداً، ومستوجب الطاعة والانقياد، وخليفة الله في الأرض، وكانت هذه نقطة البداية لرحلة الردة التي انتهت لا إلى الزيغ والانحراف عن الإسلام فحسب، بل إلى المعارضة، والعناد، والمكابرة.

ووقَّع الشيخ مبارك أيضاً على هذه المذكرة، وكتب بعد توقيعه:

«وكان هذا ما كُنت أبغيه، وأحِنُّ له من أعماق قلبي، وأترقَّبهُ من أعوام طوال» [٢].

---

(١) راجع النص الكامل لهذه المذكرة، في «منتخب التواريخ» ج ٢، ص ٢٧١ ـ ٢٧٢، و«طبقات أكبري» ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤، وراجع ترجمتها العربية المفصلة في «نزهة الخواطر» ج٥.

(٢) انظر «(Cambridge History of India. Vol 4M.P.123)» يصرح البدايوني بأن عقلية الشيخ مبارك كانت تعمل وراء هذه المذكرة وهو الذي كتب مسودتها، ويستفاد من تصريحه أيضاً أن الشيخ مبارك كان ممن وقَّع على هذه المذكرة، ولكن الغريب أن أبا الفضل لم يذكر اسم والده الشيخ مبارك فيمن وقع على المذكرة، رغم أنه تحدث عنهم وذكر أسماءهم.

نَظرةٌ على هذه المذكّرة:

لا يخلو تاريخُ الحكومات المسلمة الطويل من أمثلة التأييد المطلق للسّلاطين وأصحاب السلطة والقوة ، والدفاع عنهم ، والتماس العذر لأخطائهم وزلاتهم وتأويل غلطاتهم وتدعيم أوامرهم الجائرة ـ التي تُلحق ـ أحياناً ـ الضرر البالغ بالإسلام وتُسيء إلى سمعته ـ وإجراءاتهم الخاطئة ، ومشروعاتهم المضلِّلة بالشواهد الفقهية والكلامية .

وقد حدث في التاريخ أن العلماء أخطؤوا وزَلُّوا مِراراً ، وأساؤوا إلى مكانتهم ومنصبهم ، ونزلوا عن مستواهم ـ لمصلحة اختيارية أو اضطرارية ـ إلا أنه يصعُب العُثور على نظير في التاريخ لهذه المذكرة ـ التي أعدَّها الشيخ مبارك وحده ـ لمساندة السلطان وتدْعيمه ، وتدبير المؤامرة ضدَّ الشريعة والدين ـ فقد خُوّل فيها الملكُ الشاب الفجّ [١] ، مكانةً أعلى من مكانة المجتهدين ، وحقَّ الترجيح والاختيار في المسائل التي اختلف فيها الأئمة المجتهدون واعتبره أعقلَ الناس وأعدلهم ، وهو الأميُّ المحض ، الذي كان من قبل ، مُطلَق الجماح ، متحرراً منطلقاً من كل القيود ، والذي فقد ثقته في علماء الإسلام وشُرَّاح الدين ، وفقهاء الشريعة ، وتأثَّر بالبيئة الهندوكية المسيطرة على بيئته وبلاطه تأثراً عميقاً ، ووُجد فيه مَيلٌ شديد إلى اتخاذ العادات والتقاليد والأفكار الهندوكية ، وكان يَملك سلطةً مطلقة ، وحُكومة قوية جبارة .

ولم يكن يَستفيدُ من ذلك إلا أصحاب الأغراض والأهواء ، وأولئك العلماء في البلاط الذين كانوا يريدون باسم السلطان ، وتحت ستار أوامره ورسائله إطلاق الحرية ، وإيجاد جو من طرح القيود وتعدي الحدود ، وتحويل الشريعة الإسلامية إلى لُعبة بين الأطفال ، أو أنهم كانوا يحلمون بالثأر والانتقام من معارضيهم وأعدائهم .

---

(١) كان (أكبر) ـ إذ ذاك ـ في الثامنة والثلاثين من عمره .

وما كان الشيخ مبارك في مثل فِطنته وذكائه ممَّن تخفى عليه نتائج هذه الخطوة وعواقبها الخطيرة ، ويَصعب لأجل ذلك تأويل تلك المؤامرة التي كانت تراد من هذه المذكرة ، ويحق ـ لمؤرِّخ ناقدٍ بصيرٍ يعرف عواقب هذه الإجراءات ونتائجها الوخيمة ـ أن يُخاطب اليوم روح الشيخ مبارك ويقول :

فـإن كُنـتَ لا تـدري فتلـك مُصيبـةٌ وإن كنـتَ تـدري فـالمُصيبـة أعظـمُ

سُقـوط مَخـدوم الملك وصَـدر الصُّـدور:

وبدأ أُفول نجم مخدوم الملك مُلاَّ عبد الله السُلطانبوري ، وصَدر الصدور الشيخ عبد النَّبي من يَوم صدور هذه المذكرة ، ومساندة الشيخ مبارك العلمية ، ووجود ابنيه النابغتين فيضي وأبي الفضل في البلاط ، وجيء ذات يوم بمخدوم الملك والشيخ عبد النبي ـ اللذين نظرا إلى هذا التغيير الحادث في البلاط ، وكانا قد اعتزلا في البيت ، وتركا الخروج ، ـ إلى البلاط وأجلسا في صف النعال [١] ، ثم أُمر مخدوم الملك أن يغادر إلى الحجاز ، فرحل إلى الحجاز عام ٩٨٧ هـ ، واستقبله هناك العلماءُ الكبار بحفاوة بالغة ، وأكرمه أستاذ العلماء العلامة شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي ، وبَجَّله ، فمكث في مكة المكرمة ثلاث سنين ، ثم عاد إلى الهند، وما أن بلغ كجرات حتى سُقي السم ، ووافَتْهُ المنيَّة هناك عام ٩٩٠ هـ أو ٩٩١ هـ ، وتشهد كل القرائن على أن عَمليَّة السُّم كانت بإشارة من السلطان وقد صرح بذلك خافي خان في «مآثر الأمراء» [٢].

وتوجَّه الشيخ عبد النَّبي ـ أيضاً ـ إلى الحجاز ، وأقام هُناك مدةً يسيرة ولكنْ لعلَّه لم يَستطع أن يمحو من ذاكرته عهد عِزِّه وسُلطته ، وجاهِه وشوكته ، فرجع إلى الهند ، والتَمس من الملك العفوَ والمسامحة ، ويقول عبد القادر البَدَايُوْنِيّ

---

(١) منتخب التواريخ: ج ٣، ص ٧٩ ـ ٨٣.

(٢) نزهة الخواطر: ج ٤.

إن الملك أمر الراجه تودرمل أن يُحاسبه، فحبَسه الراجه وشدَّد عليه في الحساب والمناقشة، حتى نَفد صبره ولقي المنون، إلاَّ أن «مآثر الأمراء» يقول: «إن الملك وكَّل به أبا الفضل، فقتله خنقاً بيده» [١].

الإعداد للألف الثاني وتنفيذ الدِّين الإلهي:

وكانتِ الخطوةُ الثانية بعد إحلال الملك منزلة المجتهد المطلق، والمطاع الحق أنه قد مضى على طلوع الإسلام ألف سنة، ويَبدأ الألف الثاني، وإن الدنيا بطلوع هذا الألف الثاني تَستأنف عهداً جديداً، فلا بُدَّ لها من دين جديد، وقانون جديد، وشارع جديد، وحاكم جديد، وليس في العالم لهذا المنصب الجليل إلا (أكبر)، صاحبُ التاج والعرش، والإمامُ العادل العاقل، يقول المؤرخ عبد القادر:

«ولمَّا أنَّه قد رَسخ في ذهن الملك أنَّ مُدة ألفِ سنة، بعد البعثة النبوية ـ وهي العُمر الطبيعي لهذا الدين ـ قد انقرضت، فلم يبقَ هناك ما يحول دون إبداءِ تلك الرغبات الكامنة في الصَّدر» [٢].

وبعدَ هذا القرار الحاسم عَمِلتْ تلك التغيُّراتُ التي تكفَّلتْ بنشر هذه الفكرة وتَرسيخ جذورها في أنحاء المملكة، ومن ثم كُتب التاريخ الألفي [٣] على العملة ـ التي تتداولها الأيدي، وليست وسيلةٌ أكثر منها ذيوعاً وانتشاراً، لإقامة الحد الفاصل في تاريخ العالم وتقسيمه إلى الفترتين المتميِّزتين، وأسند إلى لجنةٍ مكوَّنة من العلماء تدوين تاريخ جديد باسم «التاريخ الألفي»، وذكروا فيه كلمة الوفاة «الرحلة»، بدل الهجرة لبيان السِّنين، وبُذلت محاولات لإفهام الناس:

(١) نزهة الخواطر: ج ٤.
(٢) منتخب التواريخ: ص ٣٠١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٠١.

«إنَّـه قد أظلَّ زمانُ مُرشد هذا العصر الذي يُزيل الخلافات بين اثنتين وسبعين فرقة من المسلمين والهنادك ، وأنَّه هو الملك صاحب الصِّفات القدسية» (١) .

وظهر من ذلـك اليوم «الدِّينُ الإلَهيُّ الأكبريُّ» الذي احتَوى على الشرك الصريح المتمثِّل في عبادة الشمس والكواكب ، بدل التوحيد ، وعلى عقيدة التناسخ مكان البعث والنشور ، وكان أكبر يأخذ البيعة من الناس على هذا الدين الجديد ، وكانت الكلمة التي يدخل بها الإنسان في هذا الدين : «لا إله إلاَّ الله ، (أكبر) خليفةُ الله» وكان مع هذه الكلمة عهد وميثاق ، يقول فيه معتنق هذا الدين :

«إنَّني ـ عن رغبة ورضا مني وحب من قلبي ـ أفارق دين الإسلام المجازي التقليدي الذي سمعتُ عنه من آبائي ، وشهدتهم عليه ، وأرفضـه ، وأدخُل في الديـن الإلٰهي الأكبـري ، وأقبـل مراتـب الإخلاص الأربعة في الدين ، من ترك المال والنفس ، وتَرك العرض والدين» (٢) .

وكان الربا والقمار ، والخمرُ والخنزير حلالاً طيباً في هذا الدين ، ونُهي فيه عن ذبح البقرة ، وأُجريت تعديلات في أحكام النكاح ، وكان النهي الباتُّ عن الحجاب والختان ، وقد نُظِّم فيه الزنى تنظيماً خاصاً ، وعُيِّن للمومسات مكانٌ خاص ، وأُصدر بصدده قانون ، فكان بغاءً رسمياً وعُدِّلت طريقةُ الدفن للمَوتىٰ .

وخُلاصة الأمر أنه دُوِّن دين هندي أكبري جديد ، أُوثر فيه أسلُوب الحياة الذي يوفر الغذاء للميول والرغبات الطبيعية ، وإشباع الشهوات النفسية ،

(١) منتخب التواريخ : ص ٢٧٩ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٧٣ .

وكانت تدعو إليه الأغراض السياسية والقومية، والمصالح الخارجية، وتُرجح كفته»[(١)].

أوْجُ الانحراف الطَّبيعي والضَّلال الديني في «أكبر»:

ونَودُّ أن نُقدم هنا مقتبسات من كتاب أبي الفضل العلاّمي ـ الذي كان العقل المدبِّر واليد الفعَّالة وراء أكبر ـ لنَرى مدى ذلك الضلال الديني، والانحراف الطبيعي، والزيغَ والجنون الذي بلغ بأكبر إلى ما بلغ، وإن هي إلا وقائع متناثرة جاءتْ في تصريحات أبي الفضل، تدلُّ على ذلك التحوُّل الشامل والانحراف المستطير، الذي ساد في ذلك العصر، ويمكن من خلالها تصور تلك السِّلسلة المُلتهبة التي طُوّقت بها عُنق الإسلام في هذه البلاد.

مظاهر الانحراف والضَّلال الأكبريّ:

١ ـ عِبادةُ النَّار:

يقول أبو الفضل: «إنَّ جلالة السلطان ـ لتنوُّر بصيرته ـ شغوفٌ بالنور، ويعتبر تقديسه وتعظيمه من عبادة الله والثناء عليه، وإنَّ الجهلة الذين أظلمت قُلوبهم يَعدُّون ذلك عبادة النار والإعراض عن الله»[(٢)].

ويقول: «يُشعل الخدَم بعد غروب الشمس اثني عشر شمعاً ممزوجاً

(١) ولم يكن الموقف مع الدين الإسلامي والديانة الهندوكية ـ في هذه المسامحة المطلقة، وحركة المصالحة التامة ـ متساوياً، بل رجحت ـ بطبيعة الحال ـ كفة ذلك الدين أو الفريق الذي كان له نفوذ وتأثير في البلاط، وميل إليه في نفس السلطان، وقد اعترف مؤلفو «مختصر تاريخ الهند» ديلبو، ايج، مورلند واي، سي جترجي: بأن أكبر نهى عن ذبح البقرة إرضاءً للهنادك، وعاقب من خالف هذا الأمر عقاباً صارماً شديداً، وكانت قوانين أكبر أقرب إلى الديانة الهندوكية وأَمسَّ رحماً بها منها بالدين الإسلامي، وقد نجحت هذه السياسة».

٥٢١ Short History666 of India.

(٢) آئين أكبري: ص ٢٨، طبعة لكهنؤ ١٨٨٢م.

بالكافور، ويَضعون كُلَّ شمع من هذه الشموع في قصاع من الذهب والفضة، ويأتون بها إلى حضرة السلطان، ويتغنَّى أحد من هؤلاء الخدم، حُلوُ اللسان جيد النغم بأناشيد الثناء على الله في ألحانٍ جميلة جذَّابة متنوعة، وهو يَحمِلُ الشمعة، ثم يدعو في الختام ليمدَّ الله في عمر جلالة السلطان وثروته» (١).

٢ ـ عِبادةُ الشَّمس:

كانتْ عبادة إلٰه النور في عمارة تسمَّى «دَوْآشِيَانَـهْ مَنْـزِل»، ومنها بدأ تعظيم الشمس، ويقول جلالـة السلطان: إن للشَّمس اهتماماً خاصاً بحال السلاطين، ولأجل ذلك يعتقد أن عبادتها عبادةُ الله، إلاَّ أن قصار النظر يقعون في سوء الظن، لماذا يحترم العامة من الناس الأغنياء أصحاب القلوب السوداء بغَرض المنفعة الذاتية؟ ويُقصِّرون ـ لجهلهم وعماهم ـ في تعظيم منبع النور، ويَرمون العابد بما يرمون، أصيبت عقولهم بآفة! وإلاَّ فلماذا أصبحت سورة الشمس نَسياً منسياً» (٢).

٣ ـ ماءُ نَهر «كَنكَا»:

يقول: «إنَّ السلطان يشرب ـ دائماً ـ من ماء نهر «كَنْكَا» (٣) (الكنج) سفراً وحَضَراً، وقد عُيِّن فريق من الموظَّفين الثقات على شاطىء النهر، يأتي إلى السلطان بمائه في أكواب مملوءة مختومة، وحينما ينزل جلالة السلطان في آكره، أو فتحبور، يُؤتى له بالماء من قرية «سَوْرُون» وفي هذا الوقت بالذات حيث نُصبت الخيمة الملكية في (لاهور) تَجدُ الخزَّان ريّان بالماء الجيد الصافي من «هَرِدْوَار» (٤)، ويُستعمل في المطبخ ماء نهر«جَمْنَا» أو نهر «جَنَاب» أو ماء

---

(١) آئين أكبري: ج ١، ص ٢٩.

(٢) المصدر السابق: ج ٣. ص ١٨٤.

(٣) النهر المقدس عند الهنادك، يعبدونه ويرمون فيه موتاهم، ويتقربون بالاغتسال فيه.

(٤) مدينة مقدسة على شاطئ نهر كنكا في الولاية الشمالية يحجون إليه.

المطر ، إلاَّ أن هذا الماء يكون ممزوجاً بشيء من ماء نهر «كنكا» (١) .

٤ ـ الرَّسْمُ والتَّصوير:

«تكلَّم ـ ذات يوم كعبةُ الدنيا جلالة السلطان في غُرفة خلوته حيث كان جَمْعٌ من المُرِيدين السعداء وليس غيرهم ، فقال: إنَّ فريقاً من الناس يُعادون فن التصوير ، ويُبيِّنون عَيبه وفساده ، ولكنَّ القلب لا يقبل أقوالهم وأدلَّتهم ، بل إنَّ ما يَدلُّ عليه العقل ، وتشهد عليه القرائن أن المصوِّر يكون أقرب إلى معرفة الله ـ تعالى ـ من غيره من الطبقات البشرية المختلفة ، لأنه عند تصويره لحيوان يأتي بشبيه لكلِّ عضو من أعضائه ، ثم حين يكمل الصورة وينظر إليها يرى أنه رغم هذه الريشة المصوَّرة الساحرة ، يَعجز تماماً عن أن ينفخ فيه الروح ، فتتجلَّى له عند ذاك قُدرة الخالق المطلقة ، ويَسجد أمام هذا الصانع العظيم» (٢) .

٥ ـ مَواقيتُ العِبادة:

«عند الفجر ، الذي به البداية لليوم السعيد ، والإشعاع والتنوير ، وعند الظُّهر حيث يُحيط ضوء الشمس الوهاجة بأطراف العالم ، وينشط نشاطاً مضاعفاً ، وعند العشي إذ تغيب الشمسُ منبع النور والضياء عن أبصار الناظرين» (٣) .

٦ ـ سَجدةُ التَّحية والتَّعظيم:

يقول: «يَسجُد له المريدون المعتقدون سَجدة التَّحية والتعظيم ، ويرونها سُجوداً لإله النور» .

---

(١) آئين أكبري: ج١، ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص/٧٨.

(٣) المصدر السابق: ج١، ص ١٠٧.

٧ ـ البَيعة والسُّلوك:

«يأتي طَالبُ المَعرفة واليقين ، حاملاً عِمامته بيده ، ويَضع رأسه على قدمه الشريفة ، ويقول بلسان حاله : أوجِّه قلبي بإرشاد سعادة جدي وحسن حظي إلى طاعة السلطان والخُضوع لأمره»[١] .

٨ ـ آدابُ المُقابلة:

وكان من آداب المقابلة : أن ينادي شخصٌ عند مقابلة شخص للسلطان بـ«الله أكبر» وينادي آخر «جلَّ جلالُه» .

٩ ـ كَراهِية التَّاريخ الهجري والنُّفور منه:

«كان جلالة السلطان من مُدَّة مديدة يفكر في إجراء تقويم جديد للشهور والسِّنين في الهند ليدفع المُشكلات ويوفر التسهيلات ، ولا يُحب جلالة السلطان التاريخ الهجري لنَقْصه وعيوبه ، ولكنَّ طبيعة جلالة السلطان التي تجبر القلوب لا تتحمَّل أن تكسر خاطر الكثيرين من قليلي الإدراك والفهم ، والقاصري النظر الذين يُعدُّون إجراء تقويم جديد قضية دينية ، وكان هذا هو السَّبب في أن جلالة السلطان لم يستطع أن يُنفذ هذا التقويم فعلاً»[٢] .

١٠ ـ الأعيادُ والمَهرجاناتُ غيرُ الإسلامية:

«يسمَّى المهرجان الأول مهرجان نُوْرُوْز ، فعندما تُكمل الشمس دورتَها السنوية وتدخل في برج الحمل ، وتُفيد أهل الدنيا ببركاتها ، يُعقدُ احتفالٌ لتسعةَ عشر يوماً كاملاً ، تُقضى في نشوة وسرور ، ولَذَّة وترف ، ويحتفل في نفس هذه الأيام بالعيد ليَومين ، وتُوزَّع على الناس أشياء لا حصر لها من النقود

---

(١) آئين أكبري : ج١ ، ص١١٠ .

(٢) المصدر السابق : ص ١٩٣ .

التي لا تُعد، وتوزَّع الصدقات والهدايا والتحف، وأن غرة «فروردين» وتسعة عشر «فروردين»، هما يوم الشرف والفخار، خاصّان بالعيد.

ويعتقد المجوس أن اليوم الذي يكون سمياً للشهر من أيامه مبارك جداً، ويحتفلون بذلك اليوم في الملاذِّ والمسرَّاتِ، ويُعطون المغنِّين والمغنِّيات، ويَعدُّون لقرى الناس، فاقتفى جلالة السلطان أثَرهم، وعيَّن كُلَّ شهر في التقويم الشمسي لمهرجان خاص، وفيما يلي كشف بهذه الأيام:

«١٩/ فروردين، و٣/ أردي بهشت، ٦/ خورداد، ١٣/ نير، ٧/ أمرداد، ٤/ شهربور، ١٦/ مهر، ١٠/ آبان، ٨، ١٥، ٢٣/ دي، ٢/ بهمن، ٥/ اسفنديار».

هذه هي الأيام التي تُعقد فيها المهرجانات، وتُقام أنواع من الزينات، وتُنصب أقواس النصر، وتَرفل البلاد في حُلَّة من الجمال والبهاء، ويهتِف المحتفلون في نَشوة وطرب وسرور، هُتافات الفرح والحبور.

وتَحضُر عند كل فترة من فترات النهار الطبول، فيُغني المغنون، ويُطرب المُطربون، ويُشيعون بالألحان والنغمات الحلوة السرور في الحضور».

١١ـ فَرمَانٌ يَمنعُ الزَّكاة:

بدأ هذا العام في «التقويم الإلٰهي» من ٥/ صفر ٩٨٩ هـ [١]، فصدرالأمر السُّلطاني برفع «تَمْغَه» [٢] وإلغاء الزكاة[٣]، وأُصدرت فرامين لتنفيذ هذا الأمر

(١) وهو العام السادس والعشرون من جلوس السلطان، وذكره البدايوني في حوادث عام ٢٥ من الجلوس.

(٢) لفظة «تمغه» تعني الختم، أو الوثيقة المختوم عليها، كما يقال للأرض والعقار الذي رفعت عنه الضريبة الرسمية، وتقطع لأي فرد من الأفراد على عمله الديني أو غيره مما ينفع البلاد، أو تستخدم في الأمور الخيرية.

(٣) يلاحظ في «أكبر نامة» أن أبا الفضل لا يتعرض لهذا الفرمان الذي يلغي الزكاة، إبقاءً على سمعة أكبر وتبرئة لساحته من مثل هذه الأحكام.

إلى جميع الجهات، «ليعلَم الموظَّفون في الحال والمستقبل، والعاملون في البلاد المحروسة أنَّه قد صدر فرمانٌ في هذا العهد السعيد الذي يبتدئ من سنِّ ولاية جلالة السلطان للدولة، وهو العام السابع من القرن الثاني ـ أي العام السابع والثلاثون [١]، لأن المراد بالقَرن هنا ثلاثون عاماً ـ وهو العهد الذي ظهر فيه صبح الجلال والجمال، وازدهرت الدولة ونعمت البلاد.

إنَّ سياسة البلاد تقتضي أن الحكومة والدولة التي هي عبارةٌ عن حماية مصالح المُواطِنين والمهاجرين والموظَّفين والتجار، والتي هي وسيلة لجباية الخراج، الذي يعتمدُ عليه نظام الجنود الحارسين للأنفس والأموال والعقائد، والذين يُراقِبون الأسواق، فإن اختل ميزان هؤلاء الأمناء الدينيين الذين ينقدون النقود والغلاَّت، لتحولت المصالح إلى المَضار، والحسنات إلى السيئات.

ونَحمد الله ـ تعالى ـ على أن جلالة السلطان لم يَزل مُراعياً للمصلحة العامة، ومُربِّياً للرعايا، الذين هم مثلُ أبنائه ـ معنى ـ والأمانة الإلٰهية في يده، وأن لله المنة علينا بأن جعل الهند والبلاد المحروسة الأخرى مَهد العدل والرخاء، ومُستقرَّ المسافرين والظاعنين».

«وقد صدر أخيراً فرمانٌ ـ لعطف جلالة السلطان وشفقته على الخلق ـ برفعِ الزكاة وجميع المكوس والضرائب الصغيرة والكبيرة على جميع أنواع الغلات والخضراوات والأغذية والأدوية، والملح، والمِسْك، وجميع العطور، والأقمشة والقطن، والصوف، والأشياء المصنوعة من الجلد، والنُّحاس، وأواني الخشب، والقصب والعشب، وأشياء وغلات أخرى ـ إذ أنها عماد المعيشة ـ سوى الفيل والخيل والإبل والشاة، والسلاح، والأشياء الضرورية ـ التي استُثنيت من قبل ـ في جميع البلاد المحروسة» [٢].

---

(١) وهذا خطأ، بل صدر هذا الفرمان عام: ٢٦ من جلوس السلطان أكبر، كما تقدم آنفاً.

(٢) طبقات أكبري: ص ٦٧ ـ ٦٨.

١٢ـ أكلُ اللُّحوم:

«يقول السلطان: لولا تفكيري في مصاعب الحياة على الناس لنهيتهم عن أكل اللُّحوم، ولا أُحبُّ ـ نظراً إلى هذه الناحية ـ أن أنفذ هذا الأمر في المرحلة الأولى، لأن كثيراً من الأعمال تبقى ـ عند هذا التنفيذ السريع ـ ناقصةً، ويبلغ الحزن الممضُّ بالناس إلى حد الجنون، ويقول: ينبغي إبعادُ بيوت الجزارين، والصيادين للأسماك، والمشتغلين بأمثال هذه المهن والأعمال، ممَّن تقتصر مهنتهم على القتل والإماتة، من بين عامة السكان، وتُؤخذ الغرامة من كل من يتصل بهم ويقابلهم»(١).

١٣ـ الخِنزير:

«يقول: إذا كان السببُ في تحريم الخنزير قلةَ الحياء فيه، لزم من ذلك أنْ يكون الأسد وأمثالُه من السِّباع حلالاً طيِّباً»(٢).

١٤ـ شُرب الخَمر:

«كان (جلالة السلطان) يتناول في مهرجان هذا الشهر، الرحيقَ المنبِّه للعقل والمنشِّط للفكر، وشَرب المفتي مِيْر صَدَرْ جَهَان، ومِيْر عَدَلْ، ومِيْر عبد الحي، كؤُوساً من الخمر كذلك، وجرى هذا البيت على لسان السلطان الذي يقول فيه:

«لقد أصبح القاضي والمفتي في عهد السلطان ذوي العفو والغفران يشربان الخمور ويحسوان من الكؤُوس»(٣).

---

(١) طبقات أكبري: ج ٣، ص ١٨٩.

(٢) المصدر السابق: ج ٣، ص ١٨٦ (بالأردية).

(٣) المصدر السابق: ج ١، ص ١٠١.

١٥ـ التَّقاليدُ والطُّقوس الهنْدوكية:

«ماتت أمُّ خان أعظم مرزا على أثر المرض الشديد ، فحزن عليها السلطان حزناً عميقاً حتى حلقَ رأسه وشاربه في المأتم ، ورغم كلِّ المحاولات أن لا يحلق الشعر غيرُ أبناء الفقيدة الكبار ، غير أنَّ العباد المخلصين ألحُّوا أن يحذوا حذو السلطان».

١٦ـ إنكارُ المُعجزات:

«يقول السلطان: السُّفهاء يؤمنون بالمعجزات ، ولكنَّ العقلاء لا يعتقدون في شيء إلاَّ بعد تحققه وثبوتهِ بالدلائل»[١] .

١٧ـ استنكار الخِتان وكَراهيته:

«من العجب أن تُصرُّوا على ختان الأطفال مع أنهم ليسوا بمكلفين بالفرائض والواجبات» [٢].

١٨ـ قوانين الزواج:

«يرى جلالة السلطان أن الزواج مع ذوات القربى القريبة أمرٌ مكروه ، ويقول: ألا يستنكر أتباع محمد ﷺ المتعصبون المتزمتون الزواج بنات الأخوال والأعمام ، ويَكره جلالة السلطان الزواجَ بأكثر من واحدة» [٣].

١٩ـ رُؤية السُّلطان هي العبادة:

«يقول جلالة السلطان: إن رُؤية وجوه السلاطين هي العبادة ، إنَّهم يُسمَّون

(١) طبقات أكبري: ج ١ ، ص ٣٠٣.
(٢) آئين أكبري: ج٣ ص ٢٣٨.
(٣) المصدر السابق: ج١ ، ص ٢٤.

«ظل الله»، ولكن رؤيتهم تُذكّر في الحقيقة بالخالق، ويتبادر عندها الذهن إلى ظِل القادر المطلق»[١].

٢٠ ـ إعلان التّقويم الإلٰهي وتنفيذُه:

«في عام ٩٩٢ هـ، أضاءَ نور العقل والبصيرة الشاهنشاهية شَمعةَ العلم والفضل والكمال التي نَوَّرتْ ـ بضيائها المبارك الميمون ـ جميعَ العالم، وهبَّ فريق السعداء وطلاب الحق ورواد الخير من سُبات الخيبة والخسران، وغطّى القائلون بالخنا، وضُعفاء العقل والبصيرة: وجوههم في زاوية الخمول، وتحققت إرادة جلالة السلطان الخيرة، وشمَّر بقيةُ الحكماء الشيخ العلامة مير فتح الله الشِّيرازي عن ساق الجِد لإنجاز هذه المهمة، فوضع العلامة الشِّيرازي أمامه الزِّيجة الكوركانية، وقرَّر بالنظر فيها، أن يكون العام الذي تربَّع فيه جلالة السلطان على عرش المملكة: بداية التقويم الإلٰهي»[٢].

ولا بأس ـ بعد الإلمام بهذه الحقائق الأساسية التي يتكون منها هيكلُ الفكر الديني عند أكبر ـ أن نُكمل صورة هذا الهيكل وشَكْله الحقيقي بذكر بعض التفاصيل والأمور الجزئية أوردها مُلاّ عبد القادر البدايوني في كتابه، حتى تتجلى الخطة الكاملة، والتصوُّر الصحيح لتلك الكراهية، والعناد والبُغض للإسلام ولصاحب الشريعة الغراء ـ عليه الصلاة والسلام ـ الذي كان نتيجة الانحراف عن دين الإسلام.

٢١ ـ الازدراءُ بالدّين الإسلامي وإهانَتُه:

«لقد وصم تُراث الملة الإسلامية كلّه بالحُدوث، واعتبَره مجموعة من السفاهات، وأنَّ واضعيه ومؤسسيه أعرابٌ فقراء من جزيرة العرب كانوا مفسدين في الأرض، وقطاع طُرق، واستدل على ذلك ببيتين من «شَاهْنَامَهْ

---

(١) آئين أكبري: ج ٣، ص ٢٤٣.

(٢) المصدر السابق: ج ١، ص ٥٦٤.

فِرْدَوْسي» اللذين قالهما على طريق النقل والرواية:

«مِنْ شُرْب ألبان الإبل، وأكل الضِّباب، بلغ العرب إلى أن بدؤوا يحلمون ببلاد العجم، سُحقاً لدوائر الزمان سُحقاً» (١).

٢٢ـ السُّخرية من الإسراء والمعراج:

«قال السُّلطان مرة: كيف يتُصور أن يقبل العقل أنَّ شخصاً يحمل جسماً ضخماً يبلغ ـ بغتةً ـ عنان السماء، ويتحدث مع الله تسعين ألف حديث، ذي شجون، ويبقى فراشه دافئاً، ثم يقبل الناس هذه الدعوى، كما أنهم يؤمنون بِشَق القمر وأمثالِه من الأمور المستبعَدة».

ثم وجَّه سؤالاً إلى الحاضرين ـ وقد رفع رِجله ـ قائلاً:

«لا يُمكن أن أقوم إلاَّ بأن تكون الرجل الثانية مُستندة على الأرض، فإيش هذه الخرافات؟» (٢).

٢٣ـ إهانةُ مَكانة النبوّة:

واعْتَرض على النبوة المحمَّدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ مرَّة وعاب عليها:

«بالإغارة على عيرٍ لقريش في أوائل أيام الهجرة، والزواج من أربع عشرة امرأة، وتحريم العسل ابتغاء مرضاة الزوجات» (٣).

٢٤ـ النُّفورُ من أسماء النبي ﷺ والكراهيةُ لها:

«كانت الأسماء مثل أحمد، ومحمد، ومصطفى وغيرها ثقيلة على سمع السلطان، مُراعاة للكفار خارج البيت، والنساء داخل البيت، وأخيراً ـ بعد

---

(١) منتخب التواريخ: ص ٣٠٧.

(٢) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق: ج ٢، ص ٣٠٨.

أيام قليلة ـ غيَّر أسماء خاصَّة أصحابه، فكان ينادي «يَارِمُحَمَّد» و«محمدخَان» باسم «رحمت»، ويكتب هذا الاسم نفسه عند الكتابة» (١).

٢٥ ـ المَنْعُ من الصَّلاة:

«لم يكن يستطيع أيٌّ واحد من الناس أن يُؤدِّي الصلاة جهاراً في القصر» (٢).

ويقول البَدَايُوْنِيُّ في مكان آخر: «إنه قد أسقط فرائض الصلاة والصوم والحج من قبل» (٣).

٢٦ ـ الاستهزاءُ بأركان الإسلام وفرائضه:

ويَقول العلامة البَدَايُوْنِيُّ:

«أَلَّفَ ابنٌ من أبناء مُلاَّ مبارك وكان تلميذ أبي الفضل عدة رسائل عن العبادات الإسلامية في أسلوب تَهكُّمي ساخر، وإيراد اعتراضات عليها، وقد نالت هذه الرسائل إعجاب جلالة السلطان وقبوله، وأصبحت واسطة له لدى السلطان في ولاية أمره، والحَدْب عليه» (٤).

مُفتَرَقٌ صَعْبٌ خطير في تاريخ الهند الإسلامي:

وبالجُملة فقد وقفت الهند ـ التي بُذلت فيها الجهود المتواصلة، وكُرست الطاقات البشرية الفاضلة، والكفاءات العقلية والمواهب الفكرية، وربَّانية الصالحين والصفوة الطيبين ـ على طريق ردَّة دينية عقلية، وحضارية شاملة،

---

(١) منتخب التواريخ: ص٣١٤، ولأجل ذلك حذف أبو الفضل في الجزء الأول من كتابه «آئين أكبري» لفظة «محمد» و«أحمد» من أسماء عدد من الأمراء فيسمي «محمد خان»، و«مرزا محمد عزيز» بـ «مرزا عزيز» و«شهاب الدين أحمد خان» بـ«شهاب خان» وهناك أمثلة عديدة لتغييره الأسماء، وحذف لفظة «محمد» أو «أحمد» منها.

(٢) المصدر السابق: ج٢، ص ٣١٥.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٦.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٧٠.

كانت تُساندها أكبر دولة على وجه الأرض في ذلك العصر ـ بعد الدولة العثمانية ـ والقوة العسكرية الهائلة، وكان عددٌ من أذكياء ذلك العصر ونوابغه يَمدُّون هذه الدولة بالأسلحة العلمية والعقلية، فلو كان سير الأحداث والظروف مستمراً على هذا المنوال، ولم تقِف في وجهها شخصيةٌ جبارة تُحول اتجاه السير، أو لم يحدث حادث يُغير الأوضاع، ويُحوِّل البلاد، لكان مصير هذه الدولة والبلد الإسلامي العظيم في القرن الحادي عشر الهجري، كمصير الأندلس الإسلامية ـ الذي لايعرفه العالم المعاصر إلا باسم «إسبانيا» ـ في القرن التاسع الهجري، أو كمصير «تركستان» في القرن الرابع عشر الهجري (بعد الثورة الشيوعية)، ولكنْ أدرك الله البلاد والعباد، وقيَّض للإسلام رجلاً يحفظه من الكفر والشرك والضلال.

ونختمُ هذا الباب بالكلمة البليغة التي سطَّرها قلمُ مؤرِّخ الإسلام ومؤلِّف موسوعة «السيرة النبوية» العلامة السيد سليمان الندوي [1]، وهو يتحدث عن قصة الإسلام وغُربته في ديار الهند» يقول:

«لقد مضى على هذا السُّبات العميق أربعةُ قرون، وكاد أن يمضي على بداية رحلة الإسلام الغريب في هذه الديار ألفُ سنة، كانَ ذلك عهدَ الملك أكبر، إذ نَهضَ ساحرٌ من العجم ونَفَثَ في أذن الملك، أنَّ عُمر هذا الدين الممتدِّ على ألف سنة قد انقرضَ، ومسَّتِ الحاجة إلى أن يَظهر دينٌ إلٰهي جديد على يد ملك أمِّيٍّ ينسَخُ دين أُمِّيٍّ، فأوقد المجوس النيران في معابدهم، ودقَّتِ النصارى نواقيسهم في كنائسهم، وزيَّنَتِ البراهمةُ أصنامهم، تَمالأ التَّصوفُ واليُوكَ وألحَّا على أن يُشعلا شمعة واحدة في المعبد الهِنْدُوكيّ والكعبة، وإذا أراد إنسان أن يتصوّر مدى ما تركت هذه الحركة

(١) [توفي ـ رحمه الله ـ بكراتشي عام (١٣٧٣ هـ، ١٩٥٢ م)، اقرأ للاطلاع على حياته كتاب «السيد سليمان الندوي: أمير علماء الهند في عصره، وشيخ الندويين» تأليف الدكتور محمد أكرم الندوي، طبع دار القلم بدمشق].

الخُماسية من آثار فليراجع «دَبِسْتَانِ مَذَاهِب» (١) ليرى كَمْ من أصحاب الزُّنَّار يُحرِّكون المسابح ، وكم من أصحاب السُّبح يعلِّقون في أعناقهم «الزنانير» ، كم من الأمراء يمرِّغون وجوههم على عتبة السلطان ، وكم من أصحاب العمائم يقفون في البلاط ، ويُسمع من منَابر المساجد نداء : «تعالى شأنه ـ الله أكبر» .

كانوا في كلِّ هذا ، وإذا بصوت يعلو من جهة «سَرْهِنْد» :

«أنْ خلُّوا الطريق ، فقد جاء صاحب الطريق ، ظهرَ مُجدِّد فاروقي (٢) ، في الأبَّهة الفاروقية ، كان ذلك أحمد السَّرْهنْدي» (٣) .



(١) كتاب في وصف الديانات المختلفة والفرق الإسلامية في الهند، في الفارسية.

(٢) نسبةً إلى عمر الفاروق رضي الله عنه، فإن الإمام أحمد السرهندي من أعقابه.

(٣) تقديم كتاب «سيرة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد» (للمؤلِّف [بالأردوية]) بقلم العلامة السيد سليمان الندوي، ص ٣٠ ـ ٣١.



البابُ الرّابع

قصة حياة مجدد الألف الثاني

الإمام السرهندي

قصة حياة مُجَدِّد الألف الثاني
الإمام السَّرهندي

الأُسرة:

يَنتمي الإمامُ السَّرْهِندي إلى سَيِّدنا عمر بن [١] الخطاب ـ رضي الله عنه ـ، فتنتهي سلسلة نَسبه [٢] بإحدى وعشرين واسطة إلى سيدنا أمير المؤمنين عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ ونَسَبُه كما يلي:

الشيخ أحمد (الإمام السرهندي) بنُ عبدِ الأحد بن زين العابدين بن عبد الحيِّ بن محمد بن حبيب الله بن الإمام رفيعِ الدين بن نصير الدين بن سليمان

(١) كان الإمام السرهندي يعتز بهذه الصلة النسبية بسيدنا عمر الفاروق، وكان يرى حميته الدينية من مقتضيات هذه النسبة وآثارها الطبيعية، ولم يتمالك عندما اطلع على رأي الشيخ عبد الكبير اليمني يخالف به العقائد الإسلامية، وجمهور أهل السنة والجماعة أن قال في حماس: «أيها الشيخ المكرم لا صبر لي على سماع مثل هذه الأقوال، فإنه ينبض فيّ العرق الفاروقي». (الرسالة رقم: ١٠٠، من مجموعة الرسائل الموجهة إلى ملا حسن كشميري)، ويقول في رسالة أخرى كتبها عند علمه بأن الخطيب في قرية «سامانة» لم يذكر الخلفاء الراشدين في خطبة الجمعة عمداً: «وقد أثار سماع هذا الخبر البغيض ثائرتي، وحرك العرق الفاروقي في، فكتبت لذلك هذه الكلمات» (الرسالة رقم: ١٥، الجزء السادس من المجموعة الثانية).

(٢) وقد اعتمدنا في بيان سلسلة نسبه على بحث علمي رصين كتبه أحد أبناء هذه الأسرة العظيمة المحقق الفاضل الشيخ أبو الحسن زيد الفاروقي.

ابن يوسف بن إسحاق بن عبد الله بن شعيبَ بن أحمد بن يوسفَ بنِ شهاب الدين علـيٍّ فرخ شاه بن نـورِ الدين بنِ نصرِ الدين بن محمُود بن سُليمان ابن مسعود بن عبد اللهِ الواعظ الأصغر بن عبدِ اللهِ الواعظِ الأكبر بن أبي الفتح بن إسحاق بن إبرَاهيم بن ناصر بن عبد اللهِ بنِ عمرَ بن حفص بن عاصم بنِ عبد الله بنِ عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه .

والشَّيخُ شهاب الدين علي فرخ شاه الكابُلي جدُّه الخامس عشر ، مؤسِّس هذه الأسرة الشهيرة .

وإن أكثر الفضلاء النوابغ ، والمُصلحين المعروفين وكبار المشايخ وأصحاب السَّلاسل والطرق الصوفية ؛ الذين يتصل نَسبهم بسيدنا عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ كالشيخ العارف فريد الدين كَنج شكر وغيره ، ينحدرون من هذه السلسلة .

وليسَت بين أيدينا تراجم مفصَّلة لعلماء أفغانستان ومشايخها ، لعدم وُجود كتب الطبقات التي تتناول تراجمهم ، وكل ما نعثُر عليه من سيرهم وأخبارهم نَرجعُ فيها إلى تلك المصادر التي ألفت في ترجمة الإمام السرهندي ، وأخبار أسرته (١) .

وكان الشيخ شهاب الدين علي فرخ شاه (ابن الشيخ نور الدين ، وحفيد الشيخ نصير الدين) والي كابل ، ولذلك تُنسب أسرته إلى «كابل» ، وكان متحلِّياً بالخصال الحميدة ، له شَغفٌ زائد بنشر الدعوة الإسلامية ، وتنكيس راية الكفر والشرك ، يمتازُ في ذلك على كثير من أقرانه .

تَولَّى المُلك بعد وفاة والده ، وبذَل جُهوداً مُوفَّقة مشكورة في رفع الخصومة ، والقضاء على الصراع بين الأفغان والمغول ، وكان له حظٌّ وافر من الربَّانية ، وصفاء الباطن وإشراقه ، مع الوجاهة والشرف ، وعظيمِ المنزلة ، انتفعَ به خَلْقٌ كثير وتربَّوا على يديه ، وسلَّم زمام الدولة ـ قبيل وفاته ـ إلى ابنه

(١) كـ «زبدة المقامات» و«حضرات القدس»، وغيرهما من الكتب.

العظيم الشيخ يوسف ، واختار لنفسه حياة العُزلة ، والانزواء في مَمَرٍّ يُسمَّى «مَمَرُّ فَرَخْ شاه» ـ نسبة إليه ـ تقع على ستين ميلاً من كابل في جانب الشمال ، ودُفن هناك .

ولما فرغ الشيخ يوسُف من تَحصيل العُلوم الدينية ، اشتغلَ بالتربية الباطنية والتَّزكية القلبية عند والده الشيخ سلطان فرخ شاه ، وخَلَفه في الحكومة بعد اعتزاله عنها ، كان مَعروفاً بالعدل والصلاح والاستقامة والديانة ، مُحبباً إلى الناس ، حَصل له القبول بين عامَّة الناس وخاصتهم ، وكانت تشتعل في قلبه تلك الجمرة من الحب الإلٰهي ، الذي كان يدفع سَلفه الميامين في عصور مُختلفة إلى أن يتمسَّكوا بقول الشاعر (وقد تمثَّل به الإمام السَّرهندي في رسائله مراراً) :

هنيئــاً لأربــابِ النَّعيــمِ نَعيمُهُــمْ وَلِلْعــاشِــقِ المسكِيــنِ مــا يتَجَــرَّعُ

واعتزلَ السُّلطة والحكومة في آخر عمره كأبيه ، ولجأ إلى زاويته ، وآثر الخلوة والعُزلة ، فأخذَ ابنُه الشيخ أحمدُ بزمام البلاد ، وتولَّى شؤون الدولة وكان ـ كوالده ـ عالماً تقياً ورعاً ، وعارفاً ربانياً في كسوة مُلك وسلطان ، وقد غَلَبته الجَذْبة الإلٰهية والشَّوقُ إلى الله ، حتى فارق السلطة ، ونَفَضَ يدَه منها ، وأوصى أبناءَه بالبُعد عنها ، وقطع الرجاء منها ، واحتفظ عنده بمال قليل يكفيه وعياله ، ووزع الباقي من الثروة الكبيرة على الفُقراء والمساكين ، وكان قد تلقَّى التربية الروحية ـ بعد والده ـ على شيخ الشيوخ شهاب الدين السَّهْرَوَرْدِي ـ قدَّس الله سره ـ ونال منه الإجازة والخلافة .

وكان غيرهما من أفراد الأسرة الكبار أيضاً من الصالحين الرَّبانيين الذين آثروا الفقر والخمول ، واشتغلوا بالتربية والإرشاد ، وكانوا يستفيدون من مشايخ عصرهم ، وصالحي زمنهم في التربية والسلوك ، ويأخذُون عنهم الطريق ، بغضّ النظر عن اختلافهم في السَّلاسل والطُّرق .

وكان الإمام رفيعُ الدين الذي يكون الجدَّ السادس للإمام السّرهندي

والعَقب التاسع للشيخ شهاب الدين فرخ شاه ـ كما يقول صاحب «زبدة المقامات» جامعاً بين علمي الظاهر والباطن ، أخذَ الطريقة عن الشيخ الكبير السيد جلال الدين البخاري [١](ت ٧٨٥ هـ) وتلقى لديه التربية الروحية والسلوك ، ويدل ذلك على أنه كان من مشايخ أواخر القرن الثامن ، أو أوائل القرن التاسع ، وهو أول شخص من أفراد هذه الأسرة غادر «كَابُل» إلى الهند ، وتدير في «سَرْهِنْد» التي كانت تسمَّى قديماً بـ«سهرند» ، وقد كان هذا المكانُ قفراً موحشاً ، ومأوى للسباع والوحوش ، ولم يكُن بينه وبين قرية «سامانه» التي كانت تُحمل إليها الخزائنُ الملكية ؛ أي مدينة أو قرية .

فعيَّن الملك الصالح فيروز شاه خواجه فتحُ الله ، الأخَ الأكبر للإمام رفيع الدين ، ومن المُقرَّبين لدى السلطان على الإسكان والعُمران في هذه الناحية ، وبنَى قلعة وأمر الشيخ مخدوم جهانيان الإمام رفيع الدين ـ الذي كان خليفته ، وإمامه في الصلاة ، وكان مُقيماً في قرية «سُنَّام» ـ أن يضع حجر الأساس لهذه القلعة ، ويسكن في هذه المدينة الجديدة ، ولم تزل هذه الأسرة ـ من ذلك العهد ـ ساكنة في هذه المدينة ، ويُقال : إن تأسيس القلعة وبداية العمران في (سرهند) كانا عام ٧٦٠هـ [٢] .

وهكذا كانت مدينةُ «سَرْهند» آهلةً عامرة منذ قرنين من الزمان قبل ولادة الإمام السَّرهندي ، وتُفيد كتب السير والتراجم أنه استوطَنتْ هناك أسر كريمة ،

---

(١) اقرأ ترجمته الحافلة في الجزء الثاني من «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني .

(٢) قد ذكرها الرحالة الصيني الشهير هيون سانك (Hiuin Song) الذي زار الهند في القرن السابع الميلادي ، وقال: «إنه يستخرج الذهب من نواحي هذه المدينة ، وكانت هذه المدينة في فترة من فترات التاريخ حداً فاصلاً بين الهنادك والغزنويين، وكانت أرض الهند وراء هذا الحد، فسميت لأجل ذلك بـ«سرهند» ـ أي: رأس الهند ـ، وقد فتح السلطان محمود الغزنوي مدينة سرهند عام ٥٨٧هـ الموافق ١٥١١م، ولم يهتم سلاطين دهلي ـ إلى زمن فيروز شاه تغلق ـ بسرهند أي اهتمام، ولما بدأ عهد السلطان فيروز شاه تغلق بدأت العناية بهذه المدينة.

عامرة بالعلماء والمشايخ ، وأنَّ هذه الأرض أنجبَتْ عدداً من نوابغ الرجال وكبار العلماء، ويَبدو أنها بَلغت ذُروة التقدم ، وتوطَّدت صِلتُها بالثقافة الإسلامية في بداية القرن العاشر ، ولا نجد في كتب التاريخ والتراجم في القرنين الثامن والتاسع إلا أسماء معدودة ، لأفرادٍ من أسرة الإمام السرهندي نَبغوا في العلم وتنبَّلوا ، ولكننا نرى من بداية القرن العاشر يقظةً دينية وعلمية ، وحركة قوية نشيطة للإفادة والتدريس والإفادة ، والتربية والإرشاد ، ومن ثَمَّ كان كبار الأمراء في الدولة يُولون مدينتي (سرهند) وفيروزبور العناية ، وزادتْ أهميَّتهما الاستراتيجية .

وزار الملك بَابَرْ مدينة سَرْهند مراراً وتكراراً ، ودخل الملك همايون كذلك في سرهند ، ومن هناك توجَّه إلى (دهلي) ، واستعاد العرش والتَّاج للمرة الثانية ، وقد بلغتْ هذه المدينة في الرخاء والبهاء أوْجها في العهد المَغولي حتى كان فيها ٣٦٠ مسجداً ورباطاً ، وبئراً ومقبرة [١] .

العارف الشيخ عبدُ الأحَد السَّرهنديُّ:

تناول الشيخُ محمد هاشم الكشمي في «زُبدة المقامات» ترجمةَ الشيخ عبد الأحد (المعروف بالمخدوم لجلالة شأنه) بشيء من الاستيعاب والتفصيل ، وأن الشيخ الكشمي مكث في صُحبة الإمام السرهندي ثلاث سنوات متواصلة ، ومرجعه في حكاية الأحداث والوقائع في غالب الأحيان ـ أقوالُ الإمام وأحاديثه ، التي سمعها منه حيناً بعد حين ، وإذا كانت فيه زيادةٌ فهي مُعتمدة على المعلومات التي أخذها من أبنائه العظام ، فتصريحاتُه ـ نظراً إلى ذلك ـ يُوثَقُ بها كل الثقة ، وأذكر فيما يلي خلاصة ما جاء في كتابه :

«استولى على الشيخ عبد الأحد ـ من ريعان شبابه وفي أثناء دراسته ـ الشوقُ الدافع إلى تحصيل «علم اليقين» والوصول إلى رب العالمين ، حتى لم يَصبر ليتمَّ دراسته ، وسافر إلى الشيخ الكبير عبد القدوس الكَنْكُوْهِي ـ الذي انتهتْ

---

(١) ملخَّص من «دائرة المعارف الإسلامية» مقال بعنوان «سرهند شريف».

إليه رئاسة الطريقة الجَشتية الصابرية ، وطبَّق صيتُه الآفاق ـ فأخذ عنه الأذكار والأوراد ، وتلقَّى علمَ التربية الروحية والسلوك .

ثم لمَّا أبدى للشيخ عزيمته على أن يُلقي رحله هنا إلى أن يلقى الله ـ عز وجل ـ نَهاه الشيخ الخبيرُ البصير عن هذا القصد ، وأرشده ـ بتأكيد بالغ ـ إلى إتمام دراسته للعلوم الدينية ، والشريعة الإسلامية ، وقال له : «إنَّ الطريقة التي لا يرافقها العلم ، ليس فيها نُور ورُواء» .

فقال الشيخ عبد الأحد نظراً إلى كبر سنّ الشيخ وضعفه : أخاف أنني إذا قصدت تحقيق هذا الغرض بعد إكمال دراستي للعلوم الدينية ألاَّ ألقاك .

فقال الشيخ : إن لم تجدني ، فستنال هذا التراث عند ابني ركن الدين .

فخضع المخدوم لأمره ، وانصرف إلى العلم والدراسة .

وكان من قدر الله أن حدث ما تخوف منه الشيخ عبد الأحد ، فلقي الشيخُ ربَّه ، قبل فراغ المخدوم من دراسته ، فأكملَ المخدومُ دراسة العلوم السائدة في عصره ، ثم بدأ يسيح ويجول في الأماكن المختلفة ، ويستفيدُ من شيوخها وصالحي أهلها حتى جاء إلى الشيخ ركن الدين ، وبدأ يرتقي درجات السلوك والإحسان ، إلى أن أجازه الشيخ في الطريقة القادريَّة الجِشْتِيَّة ، واستخلفه في التربية والتسليك والإرشاد [1] .

وقد كانتْ تُسيطِر على هذين الشيخين الجليلين الشيخِ عبد القدُّوس ، والشيخ ركن الدين فكرة وحدة الوجود ، والسُّكر والاضطراب ، والفناء والاستغراق ، وكانا من أصحابِ السَّماع والمواجيد ، وكان الشيخ عبد القدوس من الدُّعاة المتحمسين إليها ، ولكنه ـ رغم كل ذلك ـ كان راسخ القدم في اتِّباع السنة والعملِ بالعزيمة ، يغلبُ عليه هضم النفس وإنكار الذات ،

(١) شهادة الخلافة والإجازة التي أعطاها الشيخ للمخدوم مذكورة بنصها في «زبدة المقامات» وأغلبها في العربية، راجع ص ٢٩ ـ ٩٦ .

وكان رقيق القلب كثير التعبد ، يذكر الموت والبلى دائماً ، ويُفكر في الآخرة ، وحُسن الخاتمة في كل الأحوال (١) .

وكان للشَّيخ عبد الأحد ـ عدا أُستاذيه في التربية والسلوك الشيخ عبد القدوس والشيخ ركن الدين ـ علاقةٌ خاصة بالشيخ كمال الكَيْتَهَلِيّ ، أحد المشايخ المعروفين في السلسلة القادرية ، وكان الشيخُ كمال من نوابغ الرجال وأصحاب الأحوال والمقامات السنية (٢) .

وقد مَضى ـ فيما تقدَّم ـ قول الشيخ عبد الأحد : «تُفيد البصيرة الكشفية أن الشيخ كمال لا يُدانيه في السلسلة القادرية العلية بعد مؤسِّسها الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني ، أحدٌ من المشايخ «الربَّانيين» وكان حفيده الشيخ إسكندر كذلك من المشايخ الكبار ، وقد استفاد منه الشيخُ عبد الأحد أيضاً ، ولما فرغ الشيخ عبد الأحد من دراسة العلوم الدينية ، خرج يجوب البلادَ ، بحثاً عن رجال الله والرَّبانيِّين الصادقين ، وعزم على نفسه عند السفر أنَّه إذا رأى آثار البدعة عند شيخ من المشايخ، فسوف ينأى بنفسه عن مُصاحبته فضلاً عن مبايعته ، فدار في البلاد ، ودرس واستفاد .

وعاد من هذه الرحلة الطويلة ، إلى (سَرْهِنْد) ، فأقام فيها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى ولم يُغادرها إلى أيِّ مكان ، كان يدرس في الكتب العقلية والنقلية المُتداولة في تلك الأيام بتحقيق وتدقيق .

وكان الإمام السرهندي يقول : حَصَلَتْ له الملكة الراسخة في جميع العلوم السائدة إلا أنه لم يكن له مثيل في عِلمي الفقه وأصوله ، وحينما كان يلقي درسه في «أصول البزدوي» تتجلى للحاضرين جلالة شأن الإمام أبي حنيفة وإمامته وعبقريَّته ، وكان يدرس كتب التصوف أيضاً مع رُسوخ قدمه وعُلو كعبه في حل

(١) راجع للاطلاع على فضائله ومحاسنه وأذواقه «نزهة الخواطر» ج ٤ .
(٢) راجع لأخباره المفصلة «نزهة الخواطر»، ج ٤ .

مشكلات «التَّعرُّف» و«عوارف المعارف» و«فُصوص الحكم» (للشيخ محيي الدين بن عربي) ودقائقها الفنية.

وكان على مسلك الشيخ محيي الدين بن عربي عِلماً وذوقاً، إلا أنه لمواهبه في علو الشأن وضبط النفس، وتعظيم الشريعة لا تصدُر من لسانه الشَّطحات والشوارد، كان يغلب عليه التواضع وهضم النفس والتجريد، لا يطلبُ من أحدٍ خدمته ـ رغم كثرة تلامذَتِه ـ وكان يَشتري حاجيَّات البيت بنفسه ويحملها إلى البيت، يعتني أشدَّ الاعتناء باتباع السنة، فلا تفوته سُنة، ولا يترك شيئاً منها ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً، حتى كان له اهتمامٌ كبيرٌ بالسُّنن العادية النقشبندية، ويشتاق إليها، ويذكرها بالخير ويُثني عليها، فكان يقول: أدعو الله تعالى أن يشرف هذه البلاد بهذه الطريقة العالية، أو أن يُبلغنا إلى مركزها حتى نستفيد منها، وكان يُؤلف ويصنف، ومن مؤلفاته: «كنوز الحقائق» و«أسرار التَّشهُّد»، وكان محباً لأهل بيت رسول الله ﷺ، كما كان مُعظماً لأصحابه، عارِفاً لهم فضلهم وحَقهم، يقول: «إنَّ لهذا الحُبِّ تأثيراً في حُسن الخاتمة» (١).

ولمَّا بلغ في رحلته إلى «سكندره» (٢)، ومَكث هناك أياماً قليلة، تقدَّمت إليه أُسرة كريمة لما توسَّمتْ فيه من شرف وكَرم مَحْتدٍ، ورأتْ صلاحه وتورُّعه، وجمعه بين العلم والعمل، وخطبت إليه فتاة طيبة صالحة من بناتها، فحصل الزواج، وكان جميع أبناء الشيخ عبد الأحد من هذه الزوجة الكريمة الصالحة، وقد رُزق الشيخ عبد الأحد سبعةَ أبناء، وقد كان الإمام السَّرهندي واسطة العقد وبيت القصيد من بين إخوته، إلا أنَّ بقية إخوته كانوا ـ أيضاً ـ أصحاب علم وصلاح، واستعداد قوي، وأخذوا العلوم المتداولة، وتلقَّوا التربية الروحية على يد والدهم، أو غيره من المشايخ المعاصرين.

---

(١) زبدة المقامات: ص ١٢٣.
(٢) مدينة في الولاية الشمالية.

وكانت وفاة الشيخ عبد الأحد في «سرهند» في ١٧ رجب عام ١٠٠٧هـ ، ويُمكن أن يقال إن ميزة الشيخ عبد الأحد تتجلَّى في الدوران مع الحق والدليل الشرعي ، والخضوع له ، والإنصاف من نفسه وتَعظيم الشريعة الإسلامية ، والسنَّة النبوية وإجلالهما ، والسعي لاتباعهما ، والعناية بتطبيقهما ، والحميةِ الدينية ، وعُلوِّ الهمة والطموح في ارتقاء درجات الإحسان ، والتقدُّم في مراتب الإيمان ، وقد ورث منه هذه الخصِّيصة ، والميزَة الباهرة ابنُه العظيم ـ الذي قدر له أن يُعيد الدين في البلاد الغربية غضاً طرياً ، ويحفظ تُراث الأمة الإسلامية من عوادي الزمن ـ وزادتها العنايةُ الربانية نوراً وصفاءً ، ووهبته من المحاسن والفضائل والعبقرية الإسلامية ما حَوَّلته شمساً وهَّاجة تَشعُّ بالنور وتُبدِّد الظلمات.

ولادة الإمام السَّرهندي وتعلُّمه:

وُلد الإمام السَّرهندي ليلة الجمعة ١٤ شوال عام ٩٧١هـ ، الموافق ١٥٦٣م ، بمدينة سرهند ، وسُمِّي «شيخ أحمد» ، كانتْ تبدو عليه ـ من صغره ـ مَخايلُ السعادة والخير ، وسيما الرُّشد والصلاح ، وكانَ المَشايخ الربَّانيون والعلماء الصالحون لا سيما الشيخ كمال الكَيْتَهَلِويّ الذي كان والدُ الإمام وثيقَ الصلة به ـ يُحبُّونه ويحدبون عليه ، ويُعاملونه معاملةً خاصَّة ، ويؤْثرونه على أترابِه وزملائهِ.

بدأ تَعلُّمَه بحفظ القرآن الكريم ولم يمض كثير زمن حتى حفِظه كُلَّه عن ظهر الغيب ، ثم بدأ يتعلَّم مبادىء العلم عند والده ، وبعد مُدَّةٍ يسيرة برزت مواهِبهُ وصلاحيته ، وظهرت مَزِيَّته في سُرعة إدراك الموادِّ الدقيقة ، والتَّعبير عنها في عبارة واضحة مُفصحة عن الموضوع ، وأخذَ أكثر العلوم المتداولةِ عن والده ، وبَعضها عن غيره من علماء عصره الكبار .

ثم سافر إلى سِيَالْكُوت ـ التي كانت آنذاك ـ مركزاً علمياً ودراسياً كبيراً وقرأ

بعض الكُتب النهائية العالية المقررة في ذلك المنهج الدراسي (كالعضدي مثلاً) على الشيخ كمال الكشميري الذي كانت له اليد الطُّولى في المنطق والفلسفة ، والكلام وأصول الفقه ، وكان صيتُ ذكائه وقوةُ حفظه وكثرةُ قراءته ودراسته وسعة معلوماته ، وبراعته في التدريس ، مُنتشراً في الآفاق [١] ، وكان من تلامذته أمثالُ العلاَّمة عبد الحكيم السِّيالوكوتي من نوابغ العلماء ، وكِبارِ الفضلاء ، وحُذَّاقِ المُدرِّسين ، وقَرأ بعضَ كُتب الحديث على الشيخ يعقوب الصَّرفي الكشميري الذي كان تلميذاً لمحدِّث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكِّي ، وترك في مُؤلَّفاته شرحاً مُستفيضاً لصحيح البخاري [٢] .

وقد كان الشيخ يعقوب يحمل الإجازة من كبار المحدِّثين والمؤلِّفين في الحديث والتفسير ، وفي مؤلَّفاتهم ومجاميعهم ، وروى الحديث عن العالم الرباني الشهير القاضي بهلول البَدَخْشَانِيِّ ، الذي كان عالي الكعب في علم التفسير والحديث ، وتلميذ عالمِ عصره الشيخ عبد الرحمن بن فهد ، وقرأ عليه «صحيح البخاري» ، و«مشكاة المصابيح» ، و«شمائل الترمذي» ، وكُتباً أخرى في الحديث.

كما أسند عنه «ثُلاثيَّات البُخاري ، والأحاديثَ المُسلسلة» ، وروى كُتب

---

(١) كان الشيخ كمال الدين بن موسى الكشميري المذكور، انتقل من كشمير عام ١٧٩هـ إلى سيالكوت، واشتغل بالتدريس والإفادة نصف قرن من الزمن وتوفي عام ١٠١٧هـ بلاهور، ودفن هناك (انظر «نزهة الخواطر» ج ٥، ص ٣١٦).

(٢) ولد الشيخ يعقوب بن الحسن الصرفي الكشميري عام ٩٨٠هـ، وسافر إلى سمرقند لتحصيل العلم، وأخذ الطريقة الكبروية من الشيخ حسين الخوارزمي وصحبه مدة طويلة، ثم سافر إلى الحجاز ودرس على علمائها الحديث وحمل من هناك كتباً غالية في الفقه والحديث و التفسير، توفي في ١٢ ذي القعدة عام ١٠٠٣هـ، (انظر نزهة الخواطر» ج ٥، ص ٤٣٩) وهكذا استطاع الإمام السرهندي أن يتعرف عن طريق أستاذه الشيخ يعقوب على الكتب الستة وغيرها من أمهات كتب الحديث.

التفسير أيضاً على طريقة المُتقدِّمين بالأسانيد المتصلة ، وقرأ فاتحة الفراغ وهو في السابعة عشرة من سنه [١] .

ولما فَرغ من تَحصيل العُلوم العقلية والنقلية ، ومَعرفة الأصول والفروع ، تَوجَّه إلى التَّدريس والإفادة ، وألَّفَ عدة رسائل في اللُّغتين العربية والفارسية ، منها«الرِّسالةُ التَّهليليَّةُ» و«رسالة في الرّدِّ على مَذهب الإمامية» ، وزار «آكْرَهْ» (المعروفة بأكبر آباد ، عاصمة الإمبراطور «أكبر») عاصمة البلاد ـ آنذاك ـ وجالس بها أبا الفضل وفَيْضِي ، ولكن لم يَنسجم معهما لاختلاف الاتِّجاه والمَشْرَب ، وكان بينه وبينَهما ـ في بعض الأحيان ـ أخذٌ ورَدٌّ ، وشدٌّ وجَذب ، وأبدى استياءه من بعض الكلمات الجريئة الساخرة التي تفوَّه بها أبو الفضل ، وهَجَره لأجل ذلك ، فأرسل إليه أبو الفضل ، ودَعاه واعتذَر إليه مما صدَر منه ، وساعدَ الإمام ـ مرة ـ أبا الفيض فيضي الذي كان مُنصرفاً في تلك الفترة إلى تأليف التَّفسير غير المُعجم باسم «سواطع الإلهام» إذ وقَف قَلَمُهُ في موضعٍ من المواضع لصعُوبة التوصُّل إلى لفظةٍ غير معجمة ملائمةٍ للكلام الذي هو بصَدَده، واستعصى عليه التعبيرُ عن المعنى الذي يريده ، فأفضىٰ بهذه المشكلة إلى الإمام السَّرهندي ، فحلَّ العُقدة ودلَّه على الكلمة، واعترف فيضي لأجل ذلك بغزارة عِلمه، وسيلان طبعه، وحُضور بديهته.

أقام في «آكره» مُدّة طويلةً حتى اشتاق والدُه إلى لقائه ، فسافرَ ـ رُغم كبر السِّن وبُعدِ المسافة ـ إلى آكره ، وعاد الإمام السَّرْهندي مع الوالد إلى الوطن.

ولمَّا مرّا بين دهلي وسَرْهند بمدينة تهانيسر ، استقبلهما الشيخُ سلطان ـ الذي كان من رؤساء هذه المدينة وأعيانها ، ومن علماء عصره ومشايخه ، وكانت له الحظوة والزُّلفى لدى السلطان ، كما كان والياً على منطقة تهانيسر ـ بحفاوة بالغة ، وأكرمهما غاية الإكرام ، وأنزلهما عنده ضيفين مُبجَّلين ،

---

(١) ذكرت أسانيد الحديث المسلسل، والأسانيد الأخرى في «زبدة المقامات».

وأبدى رغبتَه ـ لسابق إشارة غيبية ـ في تزويج ابنته من الإمام السَّرْهندي فقَبِلَ والده هذه المصاهرة ، وخَطب خُطبة النِّكاح ، وتم الزواج ، وسارتِ الزوجة مع القافلة إلى سَرْهند.

استكمالُ التَّربية والسُّلوك، ومبايعة الشيخ الكبير عبد الباقي البَذَخشِيّ النَّقشبندي والاستفادةُ منه:

لَسْنا ـ بهذه المناسبة ـ في حاجة إلى بيان الأدلَّة الشَّرعية والعلمية على ضرورة السُّلوك والتربية الربانية الصافية ، إذ أنَّ قرَّاء سِلسلة «رجال الفكر والدعوة»[١] ـ التي نَحن في الجزء الثالث منها ـ قد ألمُّوا بهذا الموضوع من خلال مُطالعتِهم لحياة الإمام الحَسن البصري ، والشيخ عبد القادر الجيلاني ، ومولانا جلال الدين الرُّومي ، فإذا كانت هناك بقيةٌ من حاجة ، وتطلُّع إلى مزيد من الإقناع والبرهنة فليراجعوا كتاب المؤلف «ربانية لا رهبانية»[٢].

ولكن لا بُـدَّ ـ في هذا الصَّدد ـ من أن نُشير إلى أن ذلك الوسط والعهد الذي قام فيهما الإمام السَّرهندي بدوره التجديدي ، ومُهمته الإصلاحية العظيمة ، كان التصوفُ فيهما قد تَغلغل في أحشاء المجتمع الإسلامي ، وامتزَج بلحمه ودمه ، حتى أصبحَ التَّصوفُ لهُ طبيعة وذَوقاً ، وسمة وشعاراً ، ولم يكن الأمر مقتصراً على طبقةٍ خاصَّة من الناس ، بل كانت العامة لا تعبأ بعالمٍ أو مُربٍّ ، أو مُصلِح ، ولا تُقيم له وَزْناً ، ولا تَعتقدُ فيه الخير والصلاح ، ولا تَنتفعُ بمواعِظه وكتاباته ، ما لم يكن له إلمامٌ بالتصوُّف والسلوك ، ويكونُ قد صحب بعض المشايخ المعروفين ، وانخرط في سلْك بعض الطرق السائدة المقبولة في الناس.

ثم إنَّه لا تقومُ ثورة حقيقية على أساس الخَطابة الساحرة ، وغزارة العلم ، وسَعة الثقافة إذا لم تكن وراءها النفسُ الزكية الخاشعة ، والقلبُ العامر الفائض

(١) [في الجزء الأوَّل انظر المحاضرة الرابعة عشرة وما بعدها من المحاضرات].
(٢) وقد صدر من دار ابن كثير بدمشق.

بالإخلاص واليقين ، والتوجُّع لحال المسلمين ، والتألُّم مما أصاب الدين ، وهي صفات لا تنشأ غالباً إلاَّ مع كثرة الذكر والعبادة ، ومُجالسة الصالحين ، وترسُّم خطى المتقين.

وكان من يُمنِّي نفسه بقلب الأوضاع التي استحكمت ورسَخت ، وإصلاح المجتمع الذي استشرى فيه الفساد ، وتضافرتْ عليه عوامل الهدم والإفساد ، والتأثيرُ في بيئة زَخرت بكبار العلماء ، وحُذَّاق الأساتذة ، ونَوابغ الأدباء والشعراء ، ثم لا يزيد على أن يشاركهم في بِضاعتهم وقد يتَفوَّقون عليه في بعض العلوم والفضائل ، ولا يكونُ عنده ما يَحتاجون إليه ويُقرُّون بتخلُّفهم فيه ، من صلةٍ قوية بالله ، ومعرفة مصايد الشيطان ، ومَكايد النفس ، ووُصولٍ إلى درجة «الإحسان» وأعلى مراتب الإيمان ، واستقامة على اتباع الشريعة والسنة النبوية ، وعُزوف عن الشهوات ، وزُهد في الدنيا ، واستهانة بأربابها ، وإقبال على الآخرة ، كان من هذا شأنُه كَمثل من يَخوض في ساحة القتال من دُون تجنيدٍ وتدريب وتمرين ، ويُقاتل جيشاً مُدرباً مُدعّماً بالأسلحة والوسائل ، أعزَل لا يحمل سلاحاً ، أو يحمل ما يحملونه ، أو كمثل الأخرس الذي يُحاول البيان والتعليم والإفهام.

لقد كان من حكمة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وتدبيره أن أرشَد الإمام السَّرهندي إلى أن يأخذ عُدَّته قبل الخوض في المعركة ، وأنْ يأخذَ هذا العلم من أهله ، ويُجاهد في سبيله فحسب ، بل يَصل فيه إلى درجة الإمامة والاجتهاد ، لِصُحبة المَشايخ الكاملين ، وتَربية الأئمة الرَّبانيين ، وبسبب المواهب الإلٰهية وما أراد الله به وقيَّضه له من إصلاح جذري ، وانقلاب شامل ، حتى ينهض بهذه المُهمة العظيمة بكامل العدة والعتاد ، والثقة والاعتماد ، وأن تَظلَّ آثارُ دَعوته وحركتِه خالدةً مع القرون والأجيال ، وتمتدُّ إلى الآفاق في بُلدان العالم البعيدة النائية.

ولمَّا دخل «سرهند» ألقى فيها عصا الترحال ، وبَقي يَخدُم والده إلى أن أدرَكه الموتُ ، واستفاضَ مِنه كثيراً من الفيُوض الروحانية ، ودَرج في مسالك

الإحسان ، مُقتفياً آثار المنهج الجِشْتِيّ والقادري ، واستمرَّ مع ذلك يُدرس في العلوم الدينية ويُفيد.

وهاجَ الحنين في قلبه إلى حَجٍّ بيت الله الحرام ، وزيارة مسجد الرسول ﷺ ، فأرَّق جُفونَه ، واستولى عليه الشوق والاضطراب ، ولكن ـ نظراً إلى كبر سن الوالد ودُنو أجله في الظاهر ـ رأىٰ من غير اللائق أن يُفارقه على هذه الحال ، فلما وافاه الأجل سنة ١٠٠٧هـ لم يبقَ هُناك عائقٌ يَحُول دونَ السفر ، فأعدَّ عُدة السفر لزيارة الحرمين الشريفين وحَج بيت الله الحرام عام ١٠٠٨هـ ، وغادر سَرْهند إلى دهلي ، فجاء إليه علماؤُها وفضلاؤها ممن كانوا يَسْمعون بفضله ونبوغه ، ليُقابلوه ويُسلِّموا عليه ، وكان فيهم الشيخ حسن الكشميري الذي كانت للإمام معرفةٌ قديمة به ، فتطرَّق الحديث بينهما إلى ذكر الشيخ الكبير عبد الباقي ، وعُلوٍّ مكانته وجلالة شأنه ، وقُوة باطنه ، وكان الشيخ قد مرّ ـ قبل بضعة أيام ـ بدهلي.

وكان الإمام السَّرهندي سمع والده ـ أحياناً ـ يَذكر الطَّريقة النقشبندية ، ويُبدي شوقَه إليها ، فرغِبَتْ نفسُه في مقابلة الشيخ ، ورأى أنَّ هذه الصُّحبة تُوفِّر له زاد الطريق إلى الحرمين الشريفين ، وأنها نِعمةٌ ينبغي ألاَّ تفوت ، فرافق الشيخ حسن [1] الكشميري إلى الشيخ عبد الباقي ، وكأنَّ لسان حاله يقول: ﴿ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾.

وقَبل أن نَتناول هذا القران السعيد ، وما دار في هذا اللقاء العجيب ، وما تَلته من الأحداث والوقائع ، نَودُّ أن نعرِّف بالشيخ عبد الباقي [2] ، ويَحسُن بنا

(١) لقد كان الإمام السرهندي طوال عمره يذكر هذه المنة للشيخ حسن الكشميري، ويشكره على هذه اليد البيضاء، إذ أنه كان الواسطة للحصول على هذه الثروة الغالية، (انظر الرسالة رقم ٢٧٩، المجموعة الأولى).

(٢) وللاطلاع على تراجم كبار أصحاب الطريقة النقشبندية، ومشايخها الأجلة لاسيما مؤسسها الشيخ خواجه بهاء الدين نقشبند، وخصائص هذه الطريقة وميزاتها البارزة، ينبغي مراجعة مؤلفات رأس هذه الطريقة في عصره حكيم الإسلام ولي الله الدهلوي ، =

أن ننقلُ هنا ما كتبه مؤلف «نزهـة الخواطر» ـ المجلد الخامس ـ في ترجمته؛ فإنه يصدق عليه وصفُ «ما قلّ ودلّ» وقد جاء فيه لُباب كتب التراجم وعُصارة ما كُتب عنه:

الشيخ عبد الباقي النقشبندي الدهلوي المعروف بخواجه باقي بالله:

«الشيخ عبد الباقي النَّقشبندي الدِّهْلوي (المعروف بخواجه باقي بالله) هو الشيخ الهمام ، حُجة الله بين الأنام ، قدوة الأمة ، وإمام الأئمة ، رضي الدين أبو المؤيد عبدُ الباقي بن عبد السلام البَدْخَشيّ الكَابُلِيّ ثم الدِّهلوي ، بركةُ الدنيا وسر الوجود [(١)] ، ولسان الحضرة ، ولُب لباب العرفان ، كان من العِلم والمعرفة آيةً من آيات الله تعالى ، ومن الولاية غاية من الغايات.

وُلد في حدود سنة إحدى أو اثنتين وسبعين وتسعمئة بكَابُل ، واشتغل بالعلم على مولانا محمد صادق الحُلْوَائي ، وسار معه إلى ما وراء النهر ولا زمهُ مُدة ، ثم بدا له داعيةُ الدخول في طريق الصوفية ، فترك تحصيل العلوم الرسمية ، وطاف حول مجلس كثير من كبار مشايخ وقته في بلاد ما وراء النهر فأوَّلُ من تاب على يده الشيخ خواجه عبيد خليفة مولانا لطف الله ، خَليفة المخدوم الأعظم الدهبيدي ، ولمَّا لمْ تظهر عليه آثار الاستقامة تاب ثانياً على يد الشيخ افتخار حسين عند قُدومه بسمرقند ، وكان من مشايخ سلسلة الشيخ أحمد اليسوي، ثم طرأت على عزيمته هذه الفترة ، وظهر فيه ما يُنافي طريق الاستقامة ، فجدَّد التوبة ثالثاً من غير صُنع واختيار على يد الأمير عبد الله البَلْخِيّ ، فكان في مقام حِفظ الحدود أياماً ، ثم هَدم سَدَّ تلك التوبة أخيراً ، ثم تشرف في المنام بزيارة خواجه بهاء الدين نقشبند ، وظهرَ فيه ميل إلى طريقة أهل الله ، فصار يتوجه إلى كل طرف يسير حتى وصل إلى ملازمة الشيخ بابا

= لا سيما كتابه: «الانتباه في سلاسل أولياء الله» و«همعات».

(١) أي أنه كان الصورة الجلية، والتفسير العلمي للآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

ولي الكبروي في بلدة كشمير ، فلازَمه وأخذ عنه ، وهبَّت عليه في ملازمته النفحاتُ الربانية ، وظهرت فيه الغيبة المعهودة عند هذه الطائفة .

ولمَّا مات الشيخ المذكور صار يدور في البلاد ، ومَضى عليه زمن من السياحة والأخذ حتى حضَرت له روح الشيخ عبيد الله الأحرار ، فعلَّمه الطريقة النقشبندية ، وتمَّ أمرُه ، ثم ذهب إلى ما وراء النهر فأدرك بها الشيخ محمد الأمكنكي ، فأجازه الشيخ بعد ثلاثة أيام ، ورخَّصه ، فرجع إلى الهند وأقام سنةً ببلدة لاهور ، واغتنم صحبتَه فيها كثيرٌ من العلماء ثم ارتحل منها إلى دار سلطنة الهند دهلي ، واختـارَ للإقامـة القَلْعة الفيروزيـة التي كانت مشتملـة على نهـرٍ كبير ، ومسجدٍ عظيم ، فأقام هناك إلى وفاته .

وكانَ صاحبَ الأذواق والمواجيد ، كثير التواضع والانكسار ، وكان يجتهدُ في سَتر أحواله وسيرته عن نَظرِ الأغيار ، ويرى نفسَه أهلاً لمقام الإرشاد، فإذا جاءه شخص يَطلُب الطريقة كان يقول: ليس عندي شيءٌ من ذلك ، يَنبغي لك أن تَطلُبه من غيري ، فإذا لقيتَ أحداً من هذه الطائفة فنبِّهني عليه .

وكان بمَعْزل عن الدَّعوى يشتغلُ بخِدمة الزوار ، واستمالةِ قلوبهم ولا يتكلَّم إلاَّ عن ضرورة ، إلاَّ في مسألة مُشكلة من الحقائق ، فكان يُوضحها حق الإيضاح لئلا يميل صاحبُها عن النَّهج القويم ، وكان يَمنعُ أصحابه عن القيام تعظيماً له ، ويَعدُّ نفسه كأحدٍ منهم ، ويُحبُّ المساواةَ معهم في سائر حالاته ، وكان يَقعد فوق التراب من غير حائلٍ تواضعاً ومَسكَنةً .

وكان ذا كيفية عجيبة ، وتَصرُّفات غريبة ؛ بحيث إذا وقع نظرهُ على شخص كان يَتغيَّر حالهُ ، وكان يحصل الذوق والشوق ، والكيفيةُ المعهودة عند هذه الطائفة في أول صحبته ، ويُجري لطائف الطالبين بالذكر في أول التلقين ، وكان ذلك على سبيل التَّعميم ، وكانت شفقته على الخلق غاية ، حتى إنَّه قام ليلة في أيام البرد عَنْ فراشه ، فلما عاد رأى في لِحافه هِرَّة نائمة ، فلم يرض بإيقاظها وتحريكه إياها ، وقَعد إلى الصُّبح متحملاً لذلك البرد .

وصادفت إقامته في لاهور مجاعةٌ ، فلم يأكل في تلك المدة شيئاً ، فإذا أُحضر عنده طعام فرَّقه وقَسمه على الجائعين.

ولمَّا خرج من (لاهور) مُتوجهاً إلى دهلي رأى عاجزاً في الطريق ، فنزل عن دابته وأركَبَهُ إياها ، وصار يمشي مُتقنِّعاً لئلا يعرفه أحد، ولما قرُب إلى المنزل ، أنزله وركب بنفسه ، لئلا يطَّلع عليه أحد.

وكان غايةً في رُؤية قصور الأحوال واتهام النفس ، لا يُميِّز نفسه عن العامة ، فضلاً عن أصحابه ، قيل: كان في جواره شاب يرتكب كل شيء من الفسق ، فكان يتحمَّله مع اطلاعه عليه ، فسعى خواجه حسام الدين الدِّهلوي أحدُ أصحابه في دفعه وتأديبه إلى الحكام ، فأخذوه وحبسوه ، فلما اطَّلع عليه غضب على صاحبه وقال: لم فعلتَ كذا؟!

قال: ياسيِّدي إنَّه فاسق لا يبالي ، يرتكب كل شيء.

فقال: أواه لمّا كُنتم من أهل الصلاحِ والتقوى رأيتم فسقه ، وإلاَّ فنحن لا نعرف الفرق بيننا وبينه ، فكيف نَترك أنفُسنا ونسعى به إلى الحكام؟ ثم سعى في تخليصه وإخراجه من الحبس ، فأخرجوه ، فتابَ وصار من الصُّلحاء.

وكان رحمه الله ـ إذا صدرت زلةٌ من أصحابه ـ يقول: إن هذه من زَلاَّتنا ، ظهرت منهم بطريق الانعكاس.

وكان يَختار الأحوط في العبادات والمعاملات ، ولذلك كان يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصلاة في ابتداءِ حاله لكثرة الأحاديث الواردة في قراءتها وقُوة دليلها.

وهذه المذكوراتُ نبذةٌ من شمائله ، وقَطرة من بحر خصائصه ، ولذلك ترى أنَّ الناس انتفعوا به في مدة قليلة ، وما انتشرت هذه السلسلة المباركة في الهند إلاَّ منه ، ـ رضي الله عنه ـ وما كانَ أحدٌ يَعرِفها قَبلَه.

وكان الشيخ محمد بن فضل الله البرهانبوري يقول: إنه كان مَعدوم النظير في قُوة الإرشاد ، فإنه أرشد ثلاث سنين أو أربع ، وفي تلك المدة القليلة أنار

الآفاق بلوامع إفادته كما في «زُبدة المقامات» للكَشْمِي ، وذلك لأنه عاش أربعين سنة ، وبعد قدومه الهند لم يعش إلاَّ أربع سنوات ، وفي تلك المدة القليلة بلَغَ أصحابهُ إلى أعلى مدارج الكمال؛ حتى إنهم مَحوا آثار الطُّرق السالفة ، وغَلبَت الطريقة النقشبندية على الطرق الأخرى .

قال محمد بن فضل الله المُحبي في «خلاصة الأثر»: «إنَّه ـ قدَّس الله روحه ، ونَوَّر ضريحه ـ آيةٌ من آيات الله سبحانه ، ونُور من أنواره ، وسِر من أسراره ، صاحب علم ظاهر وباطن ، وتصرُّفات ، كثيرُ الصمت والتواضع والانكسار ، ذا خُلُق حسن لا يتميز عن الناس بشيء ، حتى إنه كان يمنع أصحابه من أن يقوموا لتعظيمه ، وألاَّ يعاملوه إلا كما يُعامل بعضُهم بعضاً .

ثم قال: وظهرتْ له التصرفاتُ العظيمةُ ، فصارَ كُلُّ من يقع نظره عليه ، أو يدخل في حَلْقته يَصل إلى الغيبة والفناء ، ولو لم يكن له مُناسبة ، وكان الناس مَطروحين على بابه كالسُّكارى ، وبعضهم كان ينكَشف له في أول الصحبة عن عالم المُلك والملكوت ، وكلُّ هذا كان من غلبة الجذبات الإلٰهية» انتهى .

وممَّن أخذَ عنه الشيخ الإمام أحمدُ بن عبد الأحد السَّرهندي إمامُ الطريقة المُجدِّدية ، والشيخ العارف تاج الدين بن سلطان العُثماني السَّنْبَهلِيّ ، والشيخ حسام الدين بن نظام الدين البَدْخَشِيّ ، والشيخُ الهداد الدهلوي وخلق آخرون .

ومِن مُصنفاته الرسائل البديعية ، والمكاتيب العَلية ، والأشعار الرائقة ، ومنها «سلسلة الأحرار» شرحَ فيه رُباعيَّاته في الحقائق والمعارف بالفارسي .

توفِّي يوم الأربعاء رابع عشر من جمادى الآخرة سنة أربع عشرة بعد الألف بمدينة (دهلي) ، وله أربعون سنة ، وأربعة أشهر ، وقبرهُ بها على غربيها عند أثرِ قدم الرسول ﷺ»[١] .

---

(١) نزهة الخواطر: ج ٥، ص ١٩٦ ـ ٢٠٠.

البَيعة والتَّكميلُ الباطنـي:

ودَخل الإمام السَّرهندي على الشيخ عبد الباقي ، فكأنَّه كان منه على ميعاد ، أَكرمه وبالغ في الحفاوة به ، والعطف عليه ، وكان الشيخ أَبيَّ النفس غيوراً ، لا يتَعجل في المعرفة والصداقة ، ولا يَستلفتُ نَظَرَ إنسان إليه ، إلا أنه مع الإمام السَّرهندي أصبح طالباً مكان مطلوب ، وقدَّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن يُكمل الإمام في صحبة هذا الشيخ مسيرةَ التكميل الباطني ، ويَستفيد تلك النِّسبة الخاصة التي كانت الطريقة النقشبندية تمتاز بها في ذلك العهد ، والتَّربية الروحية التي كانت الحاجةُ تشتد إليها في الوسط الروحي السائدِ في الهند ، وأن يستعد ـ عن طريق هذه التربية والسلوك ـ للقيام بالأعمال التجديدية الإصلاحية من نوع جديد ، فيُعيد الطريقة إلى نصابها تابعة طيِّعة للشريعة ، ويُربي الناس ويَسمُو بهم إلى المقامات الرفيعة ، ومراتب الإحسان العالية وينقلهم من الوسائل والأسباب إلى المقاصد والغايات نُقلة بعيدة عظيمة ، خاطبه الشيخ وقال له على غير ما عُهد من عادته وطَبعه : «امكُثْ عندنا ضيفاً ، شهراً أو أسبوعاً على الأقل».

ولمَّا كان الشيخ أراد السَّفر إلى الهند ، استخار الله تعالى ، ورأى بعد صلاة الاستخارة كأنَّ ببَّغاء جميلة تنطق بالحديث الحُلو اللذيذ نزلت وجلست على يده ، وهو يَسقيها ريقَهُ ، فتُطعمه بمنقارها السُّكرَ ، فذكر الشيخ هذه الرؤيا لمرشده وشيخه في الطريقة الشيخ خواجه الأمكنكي ، فعبَّرها قائلاً : إن الببغاء من طيور الهند ، فسوف يقوم بفَضل تربيتك وإرشادك في الهند شخصٌ يضيء العالم، ويكون لك أيضاً منه نصيب[١] .

ولم يكن للإمام ـ بَعدَ هذا الأمر ـ مَندوحةٌ في الإباء والاعتذار ، فقد كان هو نفسه يبحث عن الخرّيت والدليل ، وماء الحياة والسلسبيل ، فقَبل هذه الإشارة ، ومكثَ هناك ، وطالت الإقامة ـ بصورة تدريجية ـ إلى شهر

(١) زبدة المقامات: ص ١٤٠ ـ ١٤١ ، و«حضرات القدس» ص ٢٦ ـ ٢٧ .

وأسبوعين ، وغلبه الشوق إلى تحصيل الطريقة النقشبندية ، والتَّمتُّع بفوائدها وفيوضها ، وبلغت هذه الرغبة الأكيدة إلى أن طلب من الشيخ أن يُبايعه ، فلبى الشيخ هذه الطُّلبة من غير لأيٍ وانتظار ، وذهب به إلى خلوته حيث لقَّنه الذِّكر القلبي.

وجرى قلبُ الإمام - في نفس الساعة - بالذكر ، وشعرَ بلذة غريبة ، وبشاشة ظاهرة تزداد كل يوم ، وتُحلِّق به في أجواء الروح وتعلو ، فتفطَّن الشيخ عند رؤية هذه الأحوال ، وسرعة السير إلى الله ، أنه هُو الببَّغاء الصادحة المترنِّمة ، التي رآها في المنام ، وأنَّ نغمتها العلوية الرخيمة ، وفِطرتها الجميلة السليمة ، ستأتي بربيع زاهر جديد في حديقة الهند ، بل في حديقة الإسلام ، وما وصل إليه الإمام في مدة شهرين ونصف - تقريباً - من مدارج الرقي والكمال ، وما ظهرتْ فيه من آثار وكرامات وكيفيات قلبية باطنة ، لا يُمكن تجليتها بالعبارات والألفاظ ولا يُمكن فهمها وإفهامها ، بقوالب من التعبيرات (١).

ثم سافر الإمام السَّرهندي ، وكان شيخهُ - في هذه المرة الأولى - قد بَشَّره بالحصول على النِّسبة النقشبندية - بصورة كاملة وأن الأمل قويّ في التقدم السريع، والرُّقيِّ المتواصل، فلما وَرد دهلي مرة ثانية، ألبسه خِرقة الخلافة والإجازة ، لتعليم الطالبين وإرشاد السالكين ، وتَربية المريدين ، ووَكل إليه بَعض خواص أصحابه ومريديه لتعليمهم الطريقة وتسليكهم.

وجاء الإمام السَّرهندي - بعد ذلك - للمرة الثالثة والأخيرة إلى شيخه ، فخرج الشيخُ ومشى طويلاً لاستقباله ، وبشَّره بنعم كثيرة ، وجعله رأس الحلقة للتوجُّه والإرشاد وقال لأصحابه: ينبغي في حضرته ألاَّ تلتفتوا إلاَّ إليه ، وقال له

(١) وإذا أراد القارىء الاطلاع على بعض تفاصيلها فليرجع إلى رسالة رقم: ٢٩٦، الجزء الرابع من المجموعة الأولى، وهي موجهة إلى الشيخ خواجه عبيد الله والشيخ خواجه عبد الله ابني خواجه باقي بالله، والرسالة رقم: ٢٩٠، الجزء الخامس من المجموعة الأولى، وهي موجهة إلى الشيخ محمد هاشم الكشمي.

عند الوداع: أشعر بضعف شديد ، والأمل في الحياة قليل ، ثم طلب منه اللفتات الروحية إلى ابنيه الشيخ خواجه عبيد الله ، والشيخ خواجه عبد الله ـ وكانا طفلين رضيعين ـ وإلى أمهما أيضاً من وراء الحِجاب ، فتفضل بها حَسب أمر الشيخ ، وظهرت علائمُها وآثارها عليهم في نفس الوقت» (١).

شَهادةُ الشيخ المُرشد على جلالةِ شأن الإمام:

وكَتب الشيخُ عبد الباقي ـ بعد هذه الصِّلة الروحية مع الإمام السَّرهندي ـ إلى بعض المخلصين من أصحابه:

«إنَّ الشيخ أحمد الذي هو من سُكَّان (سرهند) ، والعَالِمَ الربَّاني الوافر العلم، القوي العمل ، صحب هذا الفقير مُدة يَسيرةً فشاهدَ الفقيرُ عجائب أحواله ، وعَظيمَ صِفاته ، وباهر مقاماته ، وأرجو أن يكون سِراجاً يُضيء العالم ، وإنني على ثقة ويقين من أحواله الكاملة».

وقد كان الإمام السَّرهندي نفسُه بعد حضور مجلس الشيخ لأول مرة ، ولفتات الشيخ إليه ، وتَلقينهِ إياه على يَقين من أنه سوف يرتقي في هذه الدرجات العالية ، ومع ذلك كان دأبُه التواضع وَهضمُ النفس ، ويُردد ـ كذلك ـ هذا البيت الذي يقول فيه:

«إنِّي على يقين ـ لهذا النُّور الذي تَسْكُبه على قلبي ـ بأنِّي لا بُدَّ واصلٌ إلى غايتي ورغبتي» (٢).

وكان الإمام السَّرهندي ـ رَغم هذه الفضائل العلمية والمحاسن العملية ، وبلوغ المدارج الروحية العالية ـ يتأدَّبُ مع شيخه غاية التأدُّب ويَحترمه أشد الاحترام، وكلما طلبه الشيخ، يَتغيَّرُ لونه، ويَقشَعِرُّ جلده (٣).

أمَّا الشيخ فكانت مُعامَلَتُـه معه تختلف عن معاملة المرشدين للمسترشدين

---

(١) زبدة المقامات: ص ١٥٥ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٤٥ .

(٣) المصدر السابق: ص ١٤٩ .

والمشايخ للطالبين والمريدين، وقال عنه يوماً: «إنَّ أحمدَ شَمسٌ، تأفل في ضوئها آلاف النجوم أمثالي»[١].

الإقامة بسَرْهِند:

وعَكف الإمامُ ـ بعد هذه الاستفادة، والتربية الروحية، والتكميل الباطني، في سَرْهند، وبقي مُدَّة غيرَ قصيرة لا يُمارِس التربية والإرشاد للطالبينَ والسالكين، يَشعر في نفسه بالنقص والتَّقصير شعوراً قوياً، وكان يَترقَّى، بسرعة مدهشة ـ مدارجَ الكمال، وتَطمَحُ رُوحه إلى بلوغ الذروة والغاية، فكان يَصعُب عليه في غلبة هذا الحال أن يُقبل إلى تربية السالكين وتعليم الطالبين، الذي يُشترط فيه النزول، إلى مستوى المريدين، ولم يكن هذا الشرط قد تحقَّق بعد، يقولُ في رسالةٍ له:

«لقد ظَهر لي ـ في هذه الحالة ـ تَقصيري ونَقصي، وجمعتُ الطالبين الوافدين، وذكرتُ لهم هذا النَّقص الذي أشعر به، ثم ودَّعتهم ولكن الطالبين والمريدين حملوا ذلك على التواضع وهَضْم النفس، ولم يُغيِّروا رأيهم فيَّ، حتى منَّ الله تعالى عليَّ ـ لما يُريده مني من خدمة هذا الدين، والعناية بشأن المسلمين ـ بالأحوالِ المرجوَّةِ»[٢].

وآنَ الأوانُ لعملهِ التربوي والإصلاحي، فبدأ يشتغل بإرشاد الطالبين، وتَسليك المريدين، وتكميل السالكين، وكان الإمام يكتبُ أحواله وأخباره وأحوالَ مسترشديه، وإخوته في الطريقة، وما اجتاز من العقبات، وما صعدوا من الدرجات إلى مُربِّيه الشيخ عبد الباقي، وظهرتْ له في هذه المدة مُبشِّرات، وَرؤىً وآثارٌ أَثْلَجتْ قَلبَه، ودلَّت على أنَّ الله ـ عز وجل ـ يُعدُّه لأمر عظيم، وأنه سَيقوم بخِدمةٍ جليلة لهذا الدين[٣]، ولم يَحظَ بعدَ

(١) زبدة المقامات: ص ٣٣٠.
(٢) مجموعة الرسائل الأولى: رقم: ٢٩٠.
(٣) انظر الرسالة رقم: ٧٤، من المجموعة الثانية.

الرحلة الثالثة ، بزيارة الشيخ ، وصُحبته ومجالسته ، فقد تُوفي قبل أن يَلقاه المرة الرابعة .

رِحلَتُهُ إلى لاَهُوْر:

وَتوجَّه إلى (لاهور) ـ بعد إقامةٍ يسيرة في (سرهند) ـ بإشارة من شيخه ، وكانت مدينة لاهور ـ إذ ذاك ـ تُعتبر المركز الديني والعلمي التي تَلي مدينة (دِهْلي) ، وكان فيها عددٌ كبير من العلماء والمشايخ ، فلما سمِعوا بمجيء الإمام ، خرجوا يستقبلونه واحْتَفوا به [١] ، وبايَعه الشيخ طاهر اللاَّهُوري ـ الذي أصبح فيما بعدُ من أجلَّة خُلفاء الإمام ـ والشيخ حاجي محمد ، والشيخ جَمال الدين التلوي ، وانخَرطوا في سِلك مريديه ، فكانت تُقام هناك حَلقات الذكر ، ومَجالسُ المُذاكرة ، والوعظ والإرشاد[٢] .

كَان الإمام في (لاهور) إذ سَمع بنبأ وفاة الشيخ ، فتأثَّر بذلك تأثُّراً شديداً ، ويمَّم شطر دهلي في حالة اضطرارية وفي توجُّع واضطراب ، وكانت «سرهند» تقع في الطريق ، ولكن لم يُعرِّج عليها ولم يَدخل البيت ، ووَصل إلى دهلي ، وزار ضريح الشيخ ، وذهب إلى أبناء الشيخ وزملائه في الطريقة فعزَّاهم ، ودعا لهم بالصبر الجميل ، وعزَم على الإقامة ـ لأيام ـ نزولاً على رغبتهم وتَسلية لخواطرهم ، فعادت الحياة والنشاط إلى تلك المجالس التربوية التي أقفَرت وأوحشت من بعد وفاة الشيخ ، وانشرحتِ الصُّدور الكئيبة ، وانتعشتِ القلوب الجريحة [٣] .

ورَجع إلى (سَرهند) بعد أن مكث في (دهلي) أياماً قليلة ، ثم لم يَتَّفق له السفر إلى دهلي إلاَّ مرة ، وإلى آكره مرتين ، ومرَّ في آخر عُمره بعدد من المدن والقرى حينما رافق العسكر الملكيَّ لثلاث سنين ـ كما سيأتي ذكره قريباً ـ فتلقَّاه

(١) زبدة المقامات: ص ١٥٧ .
(٢) المصدر السابق: ص١٥٨ .
(٣) المصدر السابق: ص ١٥٨ .

أهلُها بالحب والتكريم ، واستفاد من صُحبته الطالبون والسالكون (١) .

التَّنظيماتُ الواسعة للدَّعوة والتبليغ، والتربية والإرشاد وتَهافتُ الطالبين عليه من كل مكان:

بَعث الإمام السَّرهندي عام ١٠٢٦هـ عدداً كبيراً من خُلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد ، فبَعث سبعين شخصاً تحت قيادة الشيخ محمد قاسم وإمارته إلى تركستان ، وأربعينَ شخصاً في إمارة الشيخ فرخ حسين إلى بلاد الحجاز ، واليمن ، والروم ، والشام ، وعَشرة أشخاص من كبار المسؤولين وأرقى السالكين تحت قيادة الشيخ أحمد البركي إلى تُوران ، وبَدَخْشَان ، وخُراسان ، ولقي هؤلاء الخلفاء في المناطق التي وُكِّلت إليهم نجاحاً كبيراً ، واهتدى على أيديهم خَلقٌ كثير ، وعَمَّت الناسَ الإفادةُ والتذكير (٢) .

وضَرب كثيرٌ من العلماء والمشايخ المحترمين المبجَّلين في مناطقهم وأوطانهم؛ أكبادَ الإبل ، وتحمَّلوا وعورة الطريق ، وعوائقَ السفر في الوصول إلى سرهند ، حيث بايعوا الإمام واستفادوا من تربيته وصُحبته ، نخُصُّ بالذكر منهم الشيخ طاهر البدخشي ـ معتمد سلطان بدخشان ، وكاتبه الخاص ، وأمين سره ـ والعالمَ الفاضل الشيخ عبد الحق شَادْمَانِيٌ ، والشيخ صالح الكُوْلاَبِيّ ، والشيخ أحمد البرسي ، والشيخ يار محمد ، والشيخ يوسف من طالقان ، وقد شَرَّف الإمام معظم هؤلاء العلماء بالخلافة والإجازة ، وأمَرهم بالعودة إلى مناطقهم والاشتغالِ بالدعوة والإرشاد.

ونَصب في مُختلف أنحاءِ الهند كذلكَ تلامذتَه وخلفاءه ، فَبعث الشيخ مِيْر محمد نعمان بعد استخلافه وإجازته إلى (دَكَن) ، وكان يَحضُر في زاويته مئات من المشاة والركبان ، للذِّكر والمراقبة ، واستخلفَ الشيخ بديع الدين

(١) زبدة المقامات: ص ١٥٩ .

(٢) الروضة القيومية: ص ١٦٦ ـ ١٦٧ .

السَّهَارَنْبُوْرِيّ ، ووَجَّهه ـ أولاً ـ إلى (سَهَارَنْبُوْر) ، ثم أَمره بالإقامة في المعسكر الملكي بآكْرَهْ حيث تم له القبول ، وألهَم الناس حُبّه وإجلاله ، فدخل كثيرٌ من أعضاء الدولة في حلقة مسترشديه ومريديه؛ وتابَ على يديه آلاف من العسكريين ، وكان الزِّحام يبلغ كل يوم إلى حد يتعسَّر فيه على الأمراء والأعيان زيارة الشيخ .

وجدَّد بيعة الشيخ مير محمد نعمان الكشمي ـ الذي كان من خلفاء الشيخ عبد الباقي ـ وأجازَه ، وأَنفذه إلى برهان بور ، حيث أَصبحَ مرجع الطالبين المسترشدين ، وصَلُحت أحوال كثير من الناس ، وعمَّت التوبة والإقلاع عن المعاصي .

وبَعث الشيخ طاهر اللاهوري لإرشاد طلاب المعرفة ، وإرواء ظمأى اليقين في مدينة لاهور ـ التي كانت مركزاً سياسياً وعلمياً بعد دهلي ـ وعم النفع والإفادة في تلك البقعة .

وأجاز الشيخ نور محمد البتني وبعثه إلى مدينة «بَتْنَهْ» حيث بدأت بجهوده سلسلة التربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة والإرشاد ، والدعوة ، وبَعثه إلى بِنْغَالَه .

وبعث الشيخ طاهر البدخشي بعد استكماله للدورة التربوية؛ وأجازه في التدريس وتعليم الطريقة إلى (جَوْنبُوْر) ، ووجَّه الشيخ أحمد البَركي بعد إجازته في التعليم والتربية إلى «بَرك» حيث عكف على الدرس والإفادة والإرشاد والتربية ، وداوم على إعلام الشيخ ـ عن طريق المراسلة ـ بأحوالِ مُريديه وطالبيه .

وكان الشيخُ عبد الحي من سكان «حصار شادمان» (في منطقة أصفهان) ، وهو الذي قام بجَمع وترتيب المجموعة الثانية من الرسائل؛ أجازه الشيخ في التربية والتعليم ، ووجَّهه إلى مدينة «بَتْنَهْ» ، فكان الشيخ عبد الحي يروي الظمآن ويُصدره ريَّان في وسط المدينة .

وكان الشيخ نور محمد على شاطىء نهر كنكا يُفجِّر عيونَ الهداية والتربية والإفادة.

وكان الشيخ حسن البركي يتولَّى في وطنه بأمر الشيخ نَشرَ السنة وتعليم الطريقة المَرْضِيَّة.

واستخلف السيدَ مُحبَّ الله المانكْبُوْرِي ، وبعثه إلى (مَانكْبُوْر) ، ثم أذن له بالإقامة في آباد.

وتشرَّف الشيخ كريم بابا حسن الأبدالي بعطفٍ خاص ولفتَات نافعة ، ثم عاد إلى الوطن.

وما انتهى عام ١٠٢٧هـ حتى تجاوز صيتُ الإمام في جلالة الشأن ، وتأثير التربية ، وقوة التوجيه والإرشاد ، إلى خارج البلاد ، وسُمع صداه فيما وراء الهند من بلاد بعيدة نائية ، وقَصده الناس من أقاصي العالم فُرادى وجماعات ، وزاروه وصحبوه ، واستفادوا من علمه وتربيته ، وكان كثيرٌ من خلفائه فيما وراء النهر ، وبدخشان ، وكَابُل ، والبلدان العجميَّة الأخرى ، وبَلغَ صِيتُه إلى البلدان العربية كذلك ، أما في الهند فلم تَبْقَ بُقعة من بقاعها إلاَّ وفيها خُلفاؤه وتلامذته ومُسترشدوه يدعون إلى الله ، ويُرشدون الحيارىٰ ، ويُربُّون الطالبين.

مَوقِفُ السُّلطان جَهَانكِير مع الإمام:

مَات جلال الدين (أكبر) سنة ١٠١٤هـ ، وخَلَفه على عرش المملكة ابنُه (نور الدين جَهَانكِيْر) ، وقد كان ما أُصيب به الإسلام والمسلمون في عهد الملك (أكبر) من تَضييق الخناق ، وسَلبِ الحرية الإسلامية ، ومحاولةِ اجتثاث جُرثومة الإسلام ، وهَدم أساسه في قُوة وحماس تحتَ مؤامرة دقيقة مَحبوكة في هذه البلاد العظيمة ـ التي رُويت أرضها الطيبة وازدهرت بدماء الغزاة والفاتحين المسلمين ، وعَرق الدعاة والمصلحين ، ودموع الأولياء والصالحين ، ودعوات الضارعين المبتهلين ـ لقد كان كل ذلك كفيلاً بأن يجرح قلب الإمام المتوجِّع الحزين ، ويُثير غَيرته الإسلامية ، وحميَّته الدينية ، ويَقض مَضجعه ،

ولكنَّه لانصرافه أولاً إلى التربية والتهذيب ، والتكميل الباطني ، ثم إدراكهُ ثانياً أن الفِتنة في عنفوانها وسَوْرَتها ، وأنه لم يتوصل إلى نقطة البداية للتأثير على أصحاب السُّلطة ، وسياسة الدولة ، فيما يتعلق بالإسلام والمسلمين وتوجيه الميول والنزعات إلى الإسلام ، لم ينهض بعمله التجديدي الإصلاحي بقوة ونشاط ، أو أنه بدأ هذا العمل ، ولكن لم يَنقلْ إلينا التاريخ شيئاً من تفاصيله ، وكلُّ ما نعلم عنه في هذه الفترة أنه وجَّه رسائل موعظة وتذكير ، إلى كل من (خَانِ خَانَان) ، والسيد «صَدَرْ جَهَان» و«مرتضى خَان» ، وكان هؤلاء من المقرَّبين لدى السلطان والحائزين لثقته واهتمامه ، وكانتْ قلوبهم عامرة بحب الإمام وتقديره وإجلاله.

ولم يكن السلطان (جَهَانْكِيْر) موغَرَ الصدر يحمل تِرةً على الإسلام فحسب ، بل كان فيه نوعٌ من سلامة القلب ، وحُسن السيرة ورسوخ العقيدة ، ولم يكن يفكر إطلاقاً في تَنفيذ دين جديد ، وقانون جديد ، إنما كان منصرفاً مثل جَدِّه إلى الترف والبذخ ، وحَياة اللهو والأفراح ، واللَّيالي الملاح.

فلما رأى الإمام السَّرهندي سذاجَةَ السُّلطان في قضايا فِكرية وعقائدية صمَّمَ على أن يَنتهز هذه الفرصة ، ويَسعى لإزالة تِلك الآثار التي خلَّفَتْها في الهند حكومةُ «أكبر» السابقة ، وسوف نَتعرَّض لتفصيلها في باب مستقل.

ولكن صادفتْ قبل أن يَبدأ الإمام هذا العملَ الثوري العظيم ـ حادثةُ اعتقاله في «كَوَالِيَار» التي تُعتبر ـ لجوانبها العديدة ـ حادثة تاريخية مُهمةً لحياة الإمام وعهدِ الإصلاح والتجديد.

تَقول بَعضُ كُتب السِّير والتراجم أنه عُرضتْ على السلطان جهانكير محتويات تلك الرسائل التي كانت تتعلَّقُ بموضوعات التصوفِ الدقيقة ومصطلحاته الفنية ، التي لا تُفهم إلاَّ في ضوء غَرض الكاتب ومراميه ، والتي كانت من تلك المكاشفات والواردات القلبية التي تَعرِضُ للسالك في الطريق ،

وَيَجِبُ عليه إعلام الشيخ المربِّي بها ، وإطلاعُه عليها[١] ، حتى يُدلي فيها برأيه ، ويوضِّح له ما أُبهم ، ويُرشده إلى سواء الطريق ، وحتى يعرف مدى تَقدُّمه واستعداده الباطني.

وكان السلطان (جهانكير) لا يعدو أن يكون مُسلماً ساذجاً سنِّي العقيدة لا يعرف شيئاً من مصطلحات «الكشف» و«العبور» و«الواقعة» و«الاستقرار» ، وتعلو على فهمه هذه الموضوعات ، فأبدى دهشته واستغرابه ، وظن أنَّها تُخالِف عقائد جمهور الأمة وجميعَ المسلمين من أهل السنَّة ، وحَملها على الدعاوي الباطلة ، والإعجاب بالنفس ، يتجلَّى هذا الاستغراب والدهشة بوضوح حيث ذكر هذه الحادثة في كتابه «توزك» وقد تناولَ فيه الإمامَ بأسلوب غير لائق متهكم ساخر؛[٢] يدلُّ على أنه لا يعرف الإمام ومنزلته في الإسلام ، وأنه يَكتب بقلم السلطان ، المُغولي التَّوراني ـ الذي لا يعرف سوى عامة عقائد المسلمين ، ويَرى نفسه مسؤولاً عن حمايتها والحفاظ عليها ـ في غير تكلُّف وصناعة.

---

(١) انظر الرسالة رقم: ١١ من المجموعة الأولى إلى مرشده الشيخ عبد الباقي وقد وقع بعض العلماء الراسخين ـ أيضاً ـ عدا جهانكير، عند قراءة هذا المباحث في الاضطراب في أمرها، نخص منهم بالذكر محدث عصره وناشر علم الحديث في الهند، جامع الشريعة والطريقة، العلامة عبد الحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي، فقد بقي مدة طويلة متشككاً في أمر الإمام، وراسله أيضاً، ولكنه اقتنع ـ أخيراً ـ وانشرح صدره في ذلك، وأشار إليه في رسالة من رسائله، ويقول ابنه نور الحق: إنه قد ثبت لدينا ثبوتاً لايقبل الشك أن شخصاً يدعى حسن خان الذي كان من مريدي الإمام السرهندي، وجد عليه في شيء وذهب من عنده وتصرف في نسخة خطية لرسائل الإمام ـ كانت عنده ـ وحرف فيها تحريفات كثيرة ونشرها محرفة بين الناس في كل مكان، (مناقب العارفين) تأليف شاه محمد الفتحبوري الجشتي، ص ١٢٦ ويمكن أن تكون هذه الرسائل المحرفة سبب الخطأ في الفهم، والفتنة التي أثيرت حوله.

(٢) راجع «تورنك جهانكيري» ص٢٧٢ـ٢٧٣، حوادث عام ١٠٢٨هـ الموافق لسنة ١٤ من بداية الحكم، ويرجح بعض النقاد أن هذه السطور بقلم كاتبه الشيعي الذي يسجل بعض خواطره وانطباعاته واللفظ له.

وتكلَّم الناس في شأن الشيخ بديع الدين السَّهَارَنْبُوْرِيّ الذي حصل له النفوذ والقبول في عسكر السلطان ، وكثر تردُّده إلى أعيان الدولة ، فتحدَّث الناس في ذلك وبالغوا فيه ، وتوجَّسوا منه الخطر ، وذكروا للسلطان أن الإمام السَّرهندي يريد ـ عن طريق الشيخ بديع الدين ـ توثيق الصلات مع الجيش والمؤامرة معهم ، وإعداد خطة للثورة والخروج على السلطان ، ولم يأخذ الشيخُ بديع الدين في مواجهة هذه الإشاعاتِ بالحزم والحذر ، بل تحدَّث أمام الناس في سَورة حبه للإمام عن الكشوف ، والوقائع الغريبة ، التي لا تُسيغها عقول الخاصة الذين هم كالعامة؛ فكيف تدركها عقول العوامّ الذين هم كالأنعام ، والتي كانت ـ بطبيعتها ـ موضعَ بَحث وجدال وقيل وقال ، ولم يَعمل في مُخاطبتهم بهذه الوصية الذهبية «كلِّموا الناس على قدر عقولهم ، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله»[1] ، ووقع الإمام بهذا السبب في المشكلة ، إذ كان السلطان (جهانكير) ليس مِن هذا العلم في عِير ولا نفير ، وكان الوُشاة في البلاط كثيرين ، ثم إن الإمام كان يُقاوم تأثير التشيُّع في الأعمال والمعتقدات الذي كاد يستولي على المجتمع الإسلامي كلِّه بعد دخول العنصر الإيراني في الهند ، وسيطرتهِ على البلاط ، وكان يدعو ـ علناً وجهاراً ـ إلى عقائد أهل السُّنة والجماعة ، فلا يُستغرب أن يكون الإيرانيون أصحاب الجاه والنفوذ في البلاط أرادوا أن ينتَهزوا الفرصة للإيقاع بالإمام ، وزَادت خُطورة هذه القضية بعد أن صُبغت بالصِّبغة السياسية ، وعَزم السلطان (جهانكير) إلى اتخاذ إجراء في هذا الموضوع .

لقد كان الإمام ـ في هذا العهد ـ بتربيته وإرشاده كالشمس في رابعة النهار ، وقد طبَّقَ صيتهُ الآفاق ، وبلغ اشتغاله بحركة الإصلاح والتجديد أَوْجَهُ ، ووُضع له القبول في القلوب ، ولعل وراء هذا الابتلاء والمحنة في ذروة المجد وعز الشياخة والإرشاد ، كانت حِكمة الله ـ عز وجل ـ تُريد له السلوك في مقامات العُبودية الضارعة ، لِيصل إلى تلك المعارج الروحية ، ومَراتب

---

(١) الجملة مأثورة عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

الربانية ، التي لا يمكن إدراكُها من غَير هذه الابتلاءات والمحن ، ومجاهدة الهوى والنفس.

أسبابُ اعتِقاله في كَوَالِيَار:

هذا ما ذُكر في عامة كتب التاريخ والتراجم من سَبب اعتقال الإمام ، وَفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة «كواليار» ، وأنه يرجع إلى المحتويات الدقيقة ، ومضامين المكاشفات والمشاهدات ، والطريقة والسلوك العميقة التي تدلُّ على عظمته وجلالة شأنه ، وتَفوُّقه على كثير من ربَّانيي هذه الأمة ، ومَشايخها المصلحين ، واشتملت عليها رسالته الموجَّهة إلى شيخه خواجه عبد الباقي.

ولكنَّ المؤلِّف يَشكُّ في أن هذه المحنة وقعتْ بسبب سوء فَهمٍ لبعض المعاني ، وخطأ في توجيه بعض العبارات ، وأن السبب العامل وراءَها يرجع إلى حمية السلطان (جهانكير) الدينية ، وغيرتِه على الإسلام ، وذَبِّه عن عقائد أهل السنة ، وصيانتها من التحريف ، أو أنه اتخَّذ هذا الإجراء تحتَ ضغط بعض كبار العلماء والمشايخ - في عهده - ذوي الوجاهة والنفوذ في بلاطه ، ولِشدَّة إلحاحهم عليه.

ولكن (جهانكير) لم يكن في يوم من الأيام صاحبَ هذه النفسية الدينية ، ولم يكن له مِن ذكاء الحسِّ ، ودِقة الشعور في هذه المسألة التي تعلو على مداركه ، ولا تتعلق بأمور دولته وسُلطته وسياسته في البلاد ، ما يُثيره على شَخصية دينية مُحترمة ظلت مرجعَ الناس ومركَز حُبِّهم وإعجابِهم وإجلالهم ، ويتَّخذ لتأديبه هذا الإجراء الخطير.

فقد كان الشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي - في عَهد جدِّه ووالده - ادَّعى أنه عُرِج به إلى السماء كمعراج الرسول ﷺ وأحدثَ هذا الادعاءُ اضطراباً

واستنكـاراً في العلماء[1]، وصدرت الفتاوى ببدعتـه وتكفيره ، ولكن لم يحرك ذلك من الملك (هِمَايُـون) والملك (أكبر) ساكناً، ولـم يَتَّخذ أيّما إجراء .

وقد ادَّعى في نفس عهد السلطان (جهانكير) عددٌ من المشائخ وصولَهم إلى آخر حدود «وحدة الوجود» من «العينية» و«المساواة» ، وأعلنوا هذه الدعاوي على مشـاهد النـاس ، وألَّف الشيـخ مُحِبُّ الله الإله آبادي (م١٠٥٨هـ) في عهد هذا السلطان نفسه كتابه «التسوية» بالعربية ، وشرَحها بالفارسيـة ، ولكن لم يعرهـا السلطان أي اهتمام ، ولـم يَقِفْ منها موقف المتَّهم المعـاقب ، ثم لاينبغـي أن يَغيب عن البـال أن الرسالـة رقم : ١١ ، التي تدور حولها القصةُ ، وتتنازع فيها الآراء ، كتبها الإمام إلى شيخه عام ١٠١٢هـ وأن حادث الاعتقال وقع بعدَ ستة عشر عاماً من كتابة الرسالة سنة ١٠٢٨هـ.

ويرى المؤلِّف أن السَّبب الحقيقيَّ للاعتقال هو ما كان بين الإمام وبين أركان الدولة وأمراءِ البلاط من علاقات خاصة ، وصِلات وثيقة ، وما كان من حبهم وإجلالهم له ، الأمر الذي يُوغر الصدور ، ويَكفي لاستثارةِ مثل هذا السلطان المُرهفِ الحِسِّ الذي خَرج على والده ، وأقام ضِدَّه ثورة قوية ، ونازل أبناءه ، واعتقلَ بعضهم حتى تمكن من عرش الدولة ، وتولى زمام البلاد ، ويُمكن إضافةً إلى ما تقدم أن يكون السُّلطان قد اطَّلع على تلك الرسائل المثيرة المؤثرة التي كان يكتبها الإمامُ إلى أركان الدولة ، وأعضاء البلاط ، لإصلاح الحال ، وتوجيه الحكومة إلى حماية بَيضة الإسلام ، وإيقاظ الحَميَّة الدينية في قلوبهم.

ومنَ الأُمراء وأركانِ الدولة الذين وَجَّه إليهم الإمام رسائلَه : خان أعظم مِرْزا عزيز الدين ، وخَانِ جَهَان خـان الـلُّودِهي ، وخَانِ خَانَـان مِرْزا عبـد الرحيم قائـد قـواد الجيـش ، ومِرزا داراب ، وقليج خـان وغيرهم[2] .

---

(١) راجع للتفصيل المجلد الرابع من «نزهة الخواطر».

(٢) يؤيِّد ذلك ما يقوله جهانكير نفسه في كتابه «تُوزك» إن خلفاء الشيخ (الإمام السرهندي) =

وما زال السَّلاطين المُغُول يتوجَّسون خِيفة من مغالاة الناس في اعتقادهم وحُبِّهم وإجلالهم للمشايخ ، والتفافِهم حولَهم ، وتَهافُتهم عليهم تَهافُتَ الفراش على النور ، حدثَ ذلك مع الشيخ الكبير السيد آدم البَنُّوري من كبار خلفاء الإمام السَّرهندي ، لما سافر إلى (لاهور) عام ١٠٥٢هـ ، كان يُرافقه في هذا السفر عشرة آلاف رجل من الأشراف والمشايخ والمسترشدين المحبين من مختلف الفئات والطبقات ، وكان الملك (شَاهْجَهَان) ـ آنذاك ـ في لاهور ، فأحسَّ بالخطر منه ، وعمِل في الخفاء من الأسباب والحيل التي أدت به إلى مُغادرة الهند ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين.

ولعلَّ (جهانكير) ـ لأجل ذلك ـ بعد رفع الإقامة الجبرية في قلعة كواليار ، أمره بمرافقته في عسكره لثلاث سنين ، في الظعن والإقامة ، حتى يتعرَّف على طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين أمراء البلاط وأركان المملكة ، ويطمئن إلى أنه لا خطر منه على السلطة والدولة ، وأنه لا يَستغلُّه أي عنصر معارض للدولة ، أو مغامر طامع للاستيلاء ، فلما اطمأنَّ خاطرهُ بما رأى من سيرة الإمام وسلوكه ، وشاهد إخلاصه ، وربانيته وإيثاره ، وبعده عن الطمع ، وسُموه في مكانته ، رأى بأم عينيه أن الإمام لا يُقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجَاهِها وسُلطانها أيَّ وَزنٍ، ولاَ يلتفتُ إليها أيَّما التفاتة، أذن له بالإقامة في سرهند كما يشاء.

الإقامة الجَبرية في قَلعة (كَوَالِيَار):

وعلى كُل فقد طلب السلطانُ الإمامَ السَّرْهندي إلى مقرِّه وأكد على حاكم سَرهند أن يوجِّهه إليه كيفما استطاع ، فتوجَّه الإمام مع خمسة من أصحابه ومريديه ـ كانوا إذ ذاك عنده ـ ولما قرع سمع السلطانُ مجيءَ الإمام، بعَث الأمراء والأعيان ليتقبلوه في الطريق، ونَصب له خيمة بجوار قصره ، وطلبَه في البلاط

= يوجدون في كل مدينة وقرية (انظر ص ٢٧٢)، وكذلك كان من المصالح المتوخاة من اعتقال الشيخ «أن تهدأ ثائرة الناس» (انظر ص ٢٧٣).

للمقابلة ، ولما دخل عليه في البلاط لم يأتِ من الآداب والتقاليد التي كان يَلتزِمُ بها الوافدون على السلطان ، فلفتَ بعض أبناء الدنيا ممن لا يخافُ الله ، نظرَ السلطان إلى أنَّ الإمام لم يُراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للملوك [١] ، فسأله السلطان عن السبب، فقال: إنَّني لم أزل متقيِّداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله ورسوله ﷺ، ولا أعرف غيرَ هذه الآداب ، فغَضب السلطان ، وقال: اسْجد لي [٢] ، فقال الإمام: ما سَجدتُ لغير الله قط ، ولن أسجد لغيره أبداً ، فتغيَّظ السلطان وزاد غضبه ، وأمر بفرض الجبرية عليه في قلعة (كواليار)[٣] .

وكان (شَاهْجَهَان) ـ الذي كان يُكِنُّ للإمام الحبَّ والاحترام ـ بعث ـ قبل هذه الحادثة ـ العلامة أفضل خان ، والمفتي خواجه عبد الرحمن بالكتب الفقهية ، وبهذه الرسالة إلى الإمام ، أن الانحناء للسلاطين مُرخَّصٌ فيه في بعض الكتب الفقهية ، فلو فعلتَ ذلك أضمنُ لك بأنه لا يصيبك أي ضرر ، فقال الإمام: إنه مَحضُ رُخصة ، والعزيمة ألاَّ ينحني المسلم لغيرِ الله ، تَعظيماً وتقديساً [٤] .

وَقعت هذه الحادثةُ الأليمةُ في شهر ربيع الآخر عام ١٠٢٨هـ ، لأنَّ جهانكير ذكرها في حوادث هذا الشهر المذكور ، وقد صُودرت ـ بعد اعتقاله ـ كتبه وبستانه وبئره، ورباطه، وبيته الواسع الفسيح، ونقل أهله إلى مكان آخر .

---

(١) كانت هذه التحية تقليداً سائداً في البلاط منذ عهد الملك أكبر، وكانت تعد من التأدب بالآداب الملوكية، وكانت على ثلاثة أصناف، أولها الكورنش، وهو أن يضع يمينه على جبينه ويطأطىء رأسه إلى الصدر، وثانيها التسليم، وهو أن يضع ظاهر الكف من يمناه على الأرض ويقوم ويضع باطنه على الرأس، وثالثها السجدة، كما يسجد في الصلاة («الهند في العهد الاسلامي» للعلامة السيد عبد الحي الحسني، ص ٢٧٣).

(٢) حضرات القدس: ص ١١٧ .

(٣) المصدر السابق: ص ١١٦ .

(٤) توزك جهانكيري: ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣، ورسالة الإمام رقم: ٢ من المجموعة الثالثة.

إحيـاء سُنَّة سيدنـا يوسف ـ عليه السلام ـ في سجن (كَوَالِيَار):

لقد كانت هذه الإقامةُ الجبريةُ في سجن كواليار تنطوي على حكم ومصالح دينية كثيرة، تسبب له الحب والقبول في الناس، وتزيده زكاء نفس، وسُموَّ روح، وإشراق باطن، فشمَّر هذا السجين كسجين مصر عن ساق الجد والاجتهاد في الدعوة والإرشاد في أولئك المسجونين الذين كانوا معه، ونادى وراء جدران السجن بأعلى صوته: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]، مما اهتزت له أركان القلعة وارتجت الجدران، وسُمع صداه في الخارج.

يذكر بعضُ المؤرِّخين أن آلافاً من السُّجناء من غير المسلمين اهتدوا على يديه، ودخلوا بصحبته وتربيته وإرشاده، ودَعوته في الإسلام، وأن مئات من السجناء المسلمين تابوا على يديه، وبايعوه، وتمتَّعوا بصحبته حتى بلغوا درجات الإحسان، يقول الدكتور آرنولد في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» (Preaching of Islam):

«كان في عهد السلطان (جهانكير) ـ ١٦٠٥ ـ ١٦٢٨م ـ عالِمٌ سنيٌّ يدعى الشيخ أحمد المجدِّد، اشتُهر في عصره بالرِّد على العقائد الشيعية، وكان الشيعة ذوي نُفوذ في البلاط، فاحتالوا عليه حتى سبَّبوا له الاعتقال فبَقي في المعتقل عامَين، واستمال في هذه المدة مئاتٍ من رفقته السُّجناء من غير المسلمين إلى الإسلام، فاعتنقوه»[(١)].

وجـاء فـي دائـرة معـارف الأخـلاق والديانـات: (Encyclopedia of Religion and Ithics)

«يُحكى عن عالِم من علماء المسلمين يُسمَّى الشيخ أحمد المجدِّد ـ كان في القرن السابع عشر الميلادي في الهند، واعتُقل ظلماً ـ أنه أدخل مئاتٍ من غير

---

(١) ص ٤١٢. الطبعة الثالثة.

المسلمين السجناء الذين رافقوه في السجن ، في دين الإسلام»[١] .

لذائذ ومَواهب وَراء الأسلاك:

أمطر اللهُ شآبيبَ نِعمه ـ شأنه مع المخلصين الممتحَنين ـ على الإمام السجين ، وقد تحدَّثت نفسُه عما ناله من الرُّقي الباطني ، وانكسار النفس ، ولذَّة الحب والهيمان ، ومَشهد الخلوة في الجلوة ، في الرسائل التي كتبها إلى خواص أصحابه في لَذَّة ونشوة وسرور ، تحديثاً بالنعمة ، وذكراً لآلاء الله سبحانه.

يقول في رسالة طويلة وجَّهها من قلعة كواليار إلى الشيخ مِيْر محمد نعمان:

«أحمدُ الله الذي رزقني العافية في البلاء ، ورَفعني في الظُّلم والجفاء، ولَطف بي في المشقة والعناء ، ووفَّقني للشكر في السَّراء والضَّراء ، وأدخلني في زُمرة المقتدين بالرُّسل والأنبياء ، والمُقتفين لآثار الأولياء والمُحبِّين للعلماء الأتقياء ، فرحَمة الله وبركاته على رُسله وأنبيائه أولاً ، وعلى أصحابهم وأتباعهم ثانياً»[٢] .

ويبدو أنه لمَّا ذاع خَبرُ اعتقال الإمام بأمر السلطان ، وانتشر في الناس بدؤوا يُعلِّقون على الحادث ويخوضون فيه ، ويُبالغون ويتزيَّدون ويخرصون ، فتألم من هذا الوضع المُحبُّون المريدون ، فيقول الإمام في رسالة كتبها إلى أحد المخلصين المُحبِّين الشيخ بديع الدين من السجن ، مع الإشارة إلى انتقاد الناس وملامهم:

«لمَّا وَصل هذا الفقير إلى القلعة بدأ يشعر من أوائل الأيام بأنَّ أنوار ملام الناس ، ونقدهم وشماتتهم ، تساق إليَّ في صورة السحب النورانية من المُدن والقرى ، بِشكل مستمر وترفع شأني من الضَّعة والهوان إلى السُّمو والعزَّة. ولقد قطعت مسافات بالتربية المتسمة باللطف و«الجمال» أعواماً وسِنين ، ويُسار بي

(١) ص ٧٤٨، المجلد الثامن.
(٢) الرسالة رقم: ٥، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة.

الآن في طريق التربية المتَّسمة بالشدة و«الجلال»، فينبغي أن تتمسَّك بمقام الصبر بل بمقام الشكر والرضا ، وتعرف أن «الجلال والجمال» إلفان لا يختلفان» (١).

وكان يُحرِّض أبناءه البررة من داخل السجن أيضاً على الصبر والشكر والرضا ، والسلوان ، والاشتغال بالدعاء والابتهال ، والذكر والتلاوة ، ونفي ما سوى الله ، والاهتمام بالدراسة ، وتزكية النفس ، والحِرص على الوصول إلى الكمال (٢).

وتُفيد بعض الروايات أنَّ اعتقال الإمام بغير حق شرعي كان له رَدُّ فعل على أصحاب العقيدة السُّنية الصحيحة من أمراء البلاط وأركان الدولة ، وكان عبد الرحيم خَانِ خَانَان ، وخان أعظم ، والسيد صدر جهان ، وخان جهان اللُّودهي ، وغيرهم متألِّمين من هذا الإجراء الذي أقدم عليه (جهانكير) ، وليست بين أيدينا وثائقُ من الكتب التاريخية التي ألفت في ذلك العهد تدلُّ على هذه الفوضى والاضطرابات ، كما يصعب علينا الجزم بأنه إلى أي مدى كانت صلتها بحادث اعتقال الإمام.

وعلى كل فإن السلطان ـ لسبب من الأسباب (٣) ـ نَدم على ما فرط منه ، أو رأى هذه المدَّة للحبس تكفي لتأديبه ، وأبدى رغبته في اللقاء ، فوجَّه إليه الدعوة للحضور في البلاط ، وبقي الإمام السَّرهندي في قلعة كواليار عاماً كاملاً، فلعلَّ الإفراج عنه كان في جمادى الآخرة عام ١٠٢٩هـ الموافق لمايو عام ١٦٢٠م.

---

(١) الرسالة رقم: ٦، الجزء الثامن من المجموعة الثالثة.

(٢) الرسالة رقم: ٢، الجزء الثامن، المجموعة الثالثة، كتبها إلى الشيخ خواجه محمد سعيد، والشيخ خواجه محمد معصوم.

(٣) يقال إن الملك رأى النبيﷺ في المنام، يعض بأصبعه في أسف ويقول: «حبست هذا الإنسان العظيم يا جهانكير؟!».

الإمام فـي عَسكـر السُّلطـان ومَعيّتـه ، وتأثيـرُه الدينـي:

خَرج الإمامُ من القلعة في عزٍّ وإجلال واحترام ، وأقام بسَرْهِنْد لثلاثة أيام ، ثم توجَّه إلى عسكر السلطان ، حيث استقبله وليُّ عهده خُرَّم شَاهْ هَجَان بن جَهَانكِيْر الذي تولَّى المُلك بعده ، ورئيس الوزراء ، وأمره السلطان بأن يمكث في العسكر لعدة أيام ، فقبل هذه الدعوة ، وقد أفادت هذه المرافقة وأثَّرت في السلطان وأفراد العسكر ، يقول جهانكير في «توزك» :

«أعطيتُه الخلعة وألف روبية لنفقته ، وخيَّرته بين أن يذهب أو يبقى معنا ، فاختار مُرافقتنا والبقاء معنا» .

وقد كتب الإمامُ عن مرافقته للعسكر وفوائدها وثمراتها إلى أبنائه ، يقول: أرى البقاء في العسكر ـ مع عدم الخيرة وقلة الرغبة ـ فُرصة طيبة ، وأفضِّل ساعةً واحدةً معهم على كثير من الساعات في أماكن أُخرى» [(١)] .

ويقول في رسالة أخرى:

«الحمدُ لله وسلام على عباده الذين اصطفى ، إنّ الأوضاع والظروف التي أنا فيها تستوجب الحمد ، فنقضي ساعات طيبات في مجالس رائقة عجيبة ، ومذاكرة مفيدة ، ولا يجد الكسلُ والمداهنة ـ بفضل الله ورعايته ـ سبيلاً إلى هذه المحادثات والمذاكرات عن الأمور الدينية والأصول الإسلامية» .

فمن توفيق الله سبحانه أنني أتكلَّم في هذه المجالس بنفس الأحاديث التي أتكلَّم بها في الخلوات الخاصة ، والمجالس المحدودة ، ويَحتاج ذكر مجلس واحد إلى كتاب مستقل» [(٢)] .

ويقول في رسالة أخرى عن مجلس مَلَكيٍّ عُقد في تلك الفترة:

«وصلت الرسالةُ الكريمة من الأبناء الأعزاء ، أحمد الله تعالى على الصحة

---

(١) الرسالة رقم: ٤٣ المجموعة الثالثة .
(٢) المصدر السابق: ١٠٦ ، المجموعة الثالثة .

والعافية ، أتحدَّث إليكم عن شيء جديد حصل اليوم ، فأصغوا إليه السمع ، حَضرتُ اليوم ليلة السبت في المجلس السلطاني ، ورَجعت بعد ساعة ، وسمعت ثلاثة أجزاء من القرآن ، وبعد ساعتين غلبني النوم» [١].

ويقول في رسالة كتبها إلى الشيخ خواجه حُسام الدين :

كلٌّ من معي من الأصحاب والإخوان الأعزاء في سرور وطمأنينة ، لا تزال أحوالهم في رُقي وصُعود ، وكأن هذا المعسكر تحول بسببهم إلى رباط» [٢].

وبلغ الإمام السَّرهندي (لاَهُور) مع العسكر ، وارتحل من هُناك إلى (سرهند) ، وأقام في سرهند ضيافة كريمة على شرف السلطان ، وكان الإمام يرغب في الإقامة بسَرهند ، ولكن السلطان شَقَّ عليه مُفارقتُه ، فصحِبه إلى (دِهْلِي) ، ومنها إلى (بَنَارَس) ، ثم إلى أجمير حيث أقام بُرهة من الزمن .

التَّأثيرُ على جَهانكير:

ذكر بعضُ الكتب التي أُلفت ـ حديثاً ـ في حياة الإمام السرهندي أنَّ جهانكير كان يُحبُّ الإمام ويُجِلُّه إجلالاً كبيراً ، وأنه بايَعه ، ودَخل في حلقة مريديه وطالبيه ، إلاَّ أنه لا توجد شواهد تاريخية على ذلك ، ثم إن الأسلوب الذي استخدمه جهانكير في ذكر الإمام والتعرُّض له في مواضع عديدة لا يُفيد ذلك ، ولا يدل عليه ، فإنه مهما كان في نشوة السلطة والقوة ، ومهما كان أسلوبه سُلطانياً عالياً ، يُستبعد جداً أن يَذكر الإمام بهذا الأسلوب .

ولكن لا يُمكننا أن نَجحدَ ما تَركتْ هذه المُرافقة من الأثر العميق في نفس جهانكير ، والفوائد التي اقتبسها منها ، فقد كان لمُرافقته دخلٌ كبير في نشأة النزعة الدينية الجديدة فيه ، وعِنايتهِ بتعمير المساجد المُنهدمة من جديد ، وشغَفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة ، وما ظهر منه عام ١٠٣١ هـ بمناسبة فتح قلعة (كَانْكَرَه) من عواطف إسلامية ، وإظهار شعائر

---

(١) المصدر السابق: ٧٨ ، المجموعة الثالثة.

(٢) الرسالة رقم: ٧٢ المجموعة الثانية.

الإسلام فيها [١] يدلُّ على حدوث التحوّل ، والتقدُّم في التدين الذي يمكن معه القول بأنه كان غَيْضاً من فيضِ مُرافقةِ الإمام السرهندي وصحبته.

دُنُـوُّ الأجـل والاستعـدادُ لـه:

يقول الشيخ خواجه محمد الكشمي: «كان عام ١٠٣٢هـ ، والإمام السَّرهندي مقيمٌ في (أَجْمِيْر) إذ قال يوماً: لقد قرُبت أيام السفر إلى الآخرة ، وكتب إلى أبنائه الكرام الذين كانوا في سرهند: «أيام انقراض العُمر قريبة والأبناء بعيدون» ، وما أن وصلت الرسالة إلى الأبناء البررة حتى قاموا وحضروا إلى أجمير ، فقال الإمام ـ ذات يوم ـ مخاطباً لابنيه الشيخ محمد سعيد والشيخ محمد معصوم ، ولم يكن ثَمة أحد: ليست لي الآن أيُّ رغبة في الدنيا ، ولا التفات إليها ، ويَستولي على مشاعري التفكير في الدار الآخرة ، ويَبدو أنَّ السفر إليها قريبٌ» [٢].

ولما رَجع الإمام من العسكر إلى سرهند أقام فيها عشرة أشهر وثمانية أو تسعة أيام ، ثم لما عاد من أجمير إلى سرهنـد ، ترك العلائق كلَّها ، وانقطع عن جميع الناس ، واختار العُزلة والخلوة ، فلم يكن يُؤذن بالدخول عليه إلاَّ لأبنائـه ، واثنين من خواص خدمـه وأصحابـه ، وكان يخرج للصَّلوات الخمس والجُمعة فحسب ، ويَصرف جُلَّ أوقاته في الذكر والاستغفار ، والاشتغال بخاصـة النفس ، فكان تفسيراً عمليـاً لقولـه تعالى: ﴿ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل: ٨].

واشتدَّ مرض ضيق النَّفس من مُنتصف شهر ذي الحجة ، وكان يَغلِبه البكاء وعندما يبلغ الضعف شدته ، يَلْهَج لسانه بقوله: اللهم الرفيق الأعلى.

ومَضت ـ أثناء هذا المرض ـ أيام بلَّ فيها قليلاً من مرضه ، فوجدتِ القلوب الجريحة الحزينة قليلاً من الراحة والسلوى ، وكان الإمام يقول في هذا الحال:

---

(١) انظر «توزك جهانكيري»، ص ٣٤٠، وراجع للتفصيل الباب السابع منه.

(٢) زبدة المقامات: ص ٢٨٢.

«إنَّ اللَّذة والبشاشة التي كنتُ أشعرُ بها في شدة المرض لا أشعر بها في هذا البرءِ لأيام قليلة» ، وأكثر عند ذلك من التصدُّق والإنفاق ، ثم قال اليوم الثاني عشر من شهر محرم: «نُبئت بأنه يُرحل بك من هذه الدنيا إلى الدار الآخرة في ظرف خمسة وأربعين يوماً ، وأُريت مكان القبر» .

ورأى أبناؤه ـ ذات يوم ـ أن الإمام في حال رقَّة وبكاء ، فاستفسروه عن السبب ، فقال: «شوق اللقاء» فقال الأبناءُ البررة: ما سبب انصرافكم عنا ، وعدمُ حُبِّكم لنا (على غير العادة الكريمة) قال: «اللهُ أحبُّ إليَّ منكُم» .

ولمَّا كان ٢٢ من شهر صفر، قال للخدم والأقرباء: لقد تمَّ ـ هذه الليلة ـ أربعون يوماً فننتظر ماذا سيحدث في هذه الأيام السبعة أو الثمانية القادمة ، ثم جعل يتحدَّث عن نِعَم الله التي لا تُحصى ، وألطافه التي لا تُستقصى، وقسَّم جميع أثوابه وملابسه يوم ٢٣ صفر في الأصحاب والخدم ، ولم يكن على جسمه ثوب محشو بالقطن ، فأصيب بالبرد ، وعادت الحمى مرة ثانية [١] ، وكأنه أدَّى سُنة الرسول ﷺ في مَرضه الأخير أيضاً ، إذ أنه ﷺ مَرض مرة ثانية بعد بُرء قليل.

لقد كانت العلوم والمعارف الإلٰهية في هذا الضعف والوهن الشديد تنهمر عليه وتفيض ، قال له ابنه الشيخ محمد سعيد: تَشقُّ على حضرتكم في هذا الضعف البالغ الغاية هذه الأحاديث ، فلو أجَّلت بيان هذه الحقائق والمعارف السنيّة ، فقال: «يابني العزيز من يَضمن لي بالوقت حتى أُؤجّل بيان هذه المعاني؟»

والتزم الصلوات بالجماعات أثناء هذا الضعف المرهِق إلاَّ الأيام الأربعة أو الخمسة من أواخر أيام حياته ، صلَّى منفرداً بعد إلحاح شديد ، ولم يكن للكسل والتواني ـ رغم الوهن المضني ـ سبيلٌ إلى الاشتغال بالأدعية والأوراد

---

(١) لعلَّ ذلك كان شهر نوفمبر إذ أن الوفاة كانت في شهر ديسمبر، وهذا الشهر من فصل الشتاء في هذه المناطق.

المأثورة ، والذِّكر والمراقبة ، وكان يُراعي جميع آداب الشريعة والطريقة ، مراعاة تامة دقيقة ، قام ـ ذات ليلة ـ في الثلث الأخير وتوضأ ، ثم قام يتهجَّد ، وقال: «هذه آخر نافلة الليل» ، وهكذا كان.

وغلَبه الاستغراق والفناء قبل الوفاة بيسيرٍ ، وسأله الأبناء البررة: هل هذه الغيبة والاستغراق ناشيء من الضعف والوهن ، أو ناشيء من الاستغراق والانقطاع ؟ فقال: «ناشيء من الاستغراق ، وبين يدي حقائق وأمور» وكان يوصي في هذا الحال من الإرهاق والإعياء باتباع السنة ، واجتناب البدعة ، والمداومة على الذكر والمراقبة ، وكان يقول: يجب العضُّ على السُّنة بالنواجذ.

وقال أيضاً: إن صاحب الشريعة ـ عليه الصلاة والسلام ـ لم يدَّخر وُسعاً في النصيحة ، وإبلاغ الخير والدعوة إليه ، عملاً بقوله: «الدِّين النصيحة»(١) ، فيَجب اقتباس طريق المتابعة التامة ، والطاعة الكاملة للرسول ﷺ من الكتب الدينية المعتبرة، والعضُّ عليها بالنواجذ.

وقال لزوجته: اتبعوا السنَّة في تكفيني ودفني ، ولا تتركوا شيئاً من السنة، واشتري ثوب الكفن من مال صداقك ، وقال أيضاً: يجب أن تدفنوني في مكان مجهول ، فقال له أبناؤه: كُنتم أوصيتم ـ قبلُ ـ أن يكون قبر حضرتكم بجوار قبر أخينا الأكبر خواجه محمد صادق (٢) ، وتُوصون الآن بغير ذلك ، فقال أجل إنني أجد فيَّ الآن الرغبة الشديدة إلى ذلك ، ولما رأى سكوتَ أبنائه عند سماع هذا القول منه ، وأنهم مُتردِّدون لا يُعجبهم ذلك ، قال لهم: إن لم تستطيعوا ذلك فادفنوني خارج المدينة بجوار الوالد الكريم ، أو في أيِّ مكان من البُستان ، وليَكن قبري غير مجصَّص ، حتى لا يبقى بعد مضي أيام عينٌ

---

(١) [أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة ، برقم (٥٥)، والنَّسائي في كتاب البيعة ، باب النصيحة للإمام برقم (٤٢٠٢) ، وأبو داود في كتاب الأدب ، باب في النصيحة برقم (٤٩٤٤) من حديث تميم الداري رضي الله عنه].

(٢) وهو ابن الإمام السرهندي الأكبر، مات ٩ ربيع الأول عام ١٠٢٥هـ.

ولا أثر ، ثم نظر إلى الأبناء الذين غلبهم الهمُّ والتفكير ، وتبسَّم في وجوههم ، ثم قال: لكم الخيار ادفنوني حيث شئتم.

كان ليلة الثلاثاء ، اليوم التاسع والعشرون من صفر ، وكان اليوم المقبل يوم رحلته إلى دار القرار ، توجَّه إلى أصحابه وخَدَمه الذين سهروا على تمريضه وخدمته ، وقال: إنَّكُم تحمَّلتم مشاقَّ كثيرة ، وبقيت مَشقَّةُ ليلةٍ واحدة ، ثم الراحة والاستجمام ، ونَطق في آخر الليل:

«أصبح ليلاً»: فلما أسفر الفجر دعا بالطِّست للبول ، ولم يكن في الطست رملٌ ، فردَّه خوفاً من إصابة رشاشاته ، وقال بعض الحاضرين: ينبغي أن يفحص الطبيب البول ، قال: لا أريد أن أنقض الوضوء ، أضجعوني على الفراش وكأنه بدا له ـ عند ذاك ـ أنَّ الرحيل قريب ، ولا يتَّسع الوقت لوضوء جديد ، فلما أضجعوه على الفراش ، وضع يده اليُمنى تحت خده الأيمن على طريق السُّنة واشتغل بالذكر ، فلما شاهد أبناؤه السرعة في التنفس ، سألوه: كيف حالكم؟ قال: نحن بخير ، وأنَّ الركعتين اللتين صليتُهما تكفيان ، ثم لم يتكلَّم بشيء ، سوى ذكر «اسم الذات» ، ولم يلبث أن فاضت روحه ، كان هذا الحادث ضحىٰ يوم الثلاثاء ٢٨ من صفر عام ١٠٣٤هـ [١] ، وكان شهر صفر تسعة وعشرين يوماً ، وكان اليوم المقبل غُرة ربيع الأول إذ طارت النفس المطمئنة ، وأوت إلى ربها وخالقها ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] ومات وله ثلاث وستون سنة [٢].

ولمَّا أرادوا غسله لاحظوا أنه قابض يده اليسرى بيده اليمنى ، وممسك بالإبهام والخنصر على المعصم كهيئة القيام في الصلاة ، وفرَّج الأبناء يديه بعد الوفاة ، ولكنْ شهد الناس أنهما عادتا مكانهما كهيئة الصلاة ، ودامت هذه

---

(١) الموافق ١٠ ديسمبر عام ١٦٢٤م.

(٢) وتوصَّل الشيخ أبو الحسن زيد في تحقيقه إلى أن عمره بحساب التقويم الهلالي، اثنان وستون عاماً وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً، وبحساب التقويم الشمسي ستون عاماً وستة أشهر وخمسة أيام (انظر «الإمام المجدِّد وناقدوه» ص ٢٢).

الهيئة إلى ما بعد التَّكفين والدفن ، وكانت تبدو على شفتيه بسمة حانية وكان كما قال الشاعر:

وَلَـدَتْـكَ أمُّـكَ يَـابْـنَ آدم بَـاكيـاً   والنَّاسُ حـولَـك يَضحَكـون سُـرورا
فـاجْهَـد لِنفْسـك أنْ تكـون إذا بَكَـوْا   في يَـوْم مَوْتِـكَ ، ضَاحِكـاً مَسـرورا

وكُلَّما حاولوا أن يَفكُّوا يديه ، ويُفرجوا بينهما ، عادتا إلى مكانهما من الصلاة ، وكُفن على طريقة السنة ، وصلَّى عليه ابنهُ الكبير الشيخ محمد سعيد ، وحُمل النعش إلى مَرْقَده الدائم [١].

عاداتُـه وشَمـائِلُه:

سَجَّل الشيخ محمد الكشمي ـ الذي رافق الإمام وقام بخدمته في السَّفر والحَضر في الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته ـ تفاصيل عن عاداته وبرامجه [٢] ، أقدِّم خلاصتها فيما يلي مع بعض الزيادات من «حضرات القدس» للشيخ بدر الدين السَّرهندي:

«سمعتُ الشيخ غير مرة ـ يقول: ما قيمة عملنا وجهودنا؟ كلّ ذلك من فضل الله ـ سبحانه ـ وإذا كان هناك ما يعتمد عليه ، فهي طاعة سيِّد الأولين والآخرين ، ومتابعتُه ﷺ هي القُطب الذي تدور حوله الأعمال ، وكل ما أعطى الله ورزق عباده ، فمن طريق اتِّباعه والاهتداء بهديه ، وكل ما حرمناه ، جزءاً أو كلّاً ، فسببه التقصير وفتور الهمة في الاتباع بحكم البشرية.

وقال يوماً: دَخلت المرحاض يوماً فبدأت برجلي اليمنى سهواً ، فحُرمت كثيراً من الأحوال والمقامات ذلك اليوم.

وقال يوماً لصالح الختلاني: هات عدداً من القُرنفل من كيسي ، فذهب وجاء بِست حبّاتٍ من القرنفل ، فأبدى استياءه وغضبه ، وقال: لا يَعرف هذا

---

(١) من «زبدة المقامات» ص ٢٥٦ ـ ٣٠٠ بتلخيص.

(٢) انظر المصدر السابق: ص ١٩٢ ـ ٢١٥.

الصُّوفي أنه جاء في الحديث: «إنَّ الله تعالى وِتْـرٌ يحبُّ الوترَ»(١)(٢)، فتُستَحبُّ مراعاة الوتر، ماذا يعتقد الناس في «المستحبات» لو وهبت الدنيا والآخرة لإنسان كِفاء عمل يستحبُّه الله ويرضاه، لما كان لهما قيمة.

يقول بعض خَدَمه: سألتُ الشيخ محمَّد بن فضل الله، ماذا شاهدت في سرهند؟ حدثنا عنها قليلاً، فقال: ماذا يشاهد مثلي قاصر النظر، عديم البصيرة! إلاَّ أنني رأيت شدة تمسُّك بالسنة، وعظيمَ اهتمام بها، فكان لا يترك سُنَّة مأثورة من السُّنن في صغير وكبير، ودقيقٍ وجليل، ولا أظنُّه بالأمر الميسور لكل أحد.

ويقولُ بعض أصحابه جالسوه طويلاً: إنَّ أحوال هؤلاء وكيفياتهم القلبية تعلو على مداركنا، إلاَّ أنني أستطيع أن أقول: لقد توثَّق إيماني وتصديقي بمُشاهدة أحوالهم ومجاهداتهم بما حكي عن الأولياء المتقدِّمين والربَّانيين السابقين، وعلمت أنها خالية من المبالغة والمغالاة، بل شعرتُ بأن المؤلِّفين قصَّروا ولم يكتبُوا كل ما رأوا، وهكذا كنا نقضي طول النهار في مُشاهدة الأحوال العجيبة.

ويقول خادمه الخاص ـ الذي كان صاحب أدواته ـ: ما كنتُ أجِد فسحة من الوقت إلاَّ عند قيلولته، وفي الثلث الثاني من الليل، وكان كثيراً ما يأمر أصحابه بدوام الذكر، والاستحضار والمراقبة، ويقول: هذه الدنيا دار العمل، ومزرعة للآخرة، فينبغي الجمعُ بين استحضار القلب وذكره، وبين الأعمال الظاهرة والآداب الشرعية، وكانت تتورَّم قدما الرسول ﷺ في

---

(١) [أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى...، برقم (٢٦٧٧)، وأبو داود في كتاب الوتر، باب استحباب الوتر، برقم (١٤١٦)، والترمذي في أبواب الوتر، باب ما جاء أن الوتر ليس بحتم، برقم (٤٥٣)، وابن ماجه في إقامة الصلوات، باب ما جاء في الوتر، برقم (١١٦٩) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) [الوتر؛ بكسر الواو والفتح: الفرد. «يحبُّ الوترَ» أي يُثيب عليه، ويَقْبَله مِن عامله].

الصلاة ، مع كونه حبيب رب العالمين ، وأفضل الأنبياء والمرسلين .

ورغم أن الإمام كان مُستحضراً للمتون والمسائل الفقهية ، صاحب ملكة راسخة في أصول الفقه ، إلا أنه كان ـ لاحتياطه وورعه في الدين ـ يراجع الكتب المعتبرة في الفتاوى ، ويصطحبُها معه في السفر والحضر ، ويعمل بما أفتى به كبار الفقهاء ورجحوه ، وكان يؤمُّ بنفسه ـ غالب الأحيان ـ في الصلاة ، وقد أشار ـ ذات يوم ـ إلى الحكمة في تقدُّمه وإمامته :

«إنَّه لا تصحُّ الصلاة عند السادة الشافعية والمالكية بدون قراءة الفاتحة، فيقرؤونها خلف الإمام، وتدلُّ على ذلك أحاديث كثيرة صريحة، ولكن لا تجوز قراءة الفاتحة خلف الإمام عند إمامنا أبي حنيفة، والمذهب على ذلك عند جمهور الفقهاء الحنفية ، ولما كنت أُحاوِل التطبيق والجمع بين هذه المذاهب ، فأرى من المُستحسن أن أؤُمَّ الناس في الصلاة»[١] .

كان مِن عادة الإمام أن يقوم ـ سواء كان في السفر أو في الحضر ـ أو الشتاء أو الصيف ـ في النصف الأخير من الليل ، وأحياناً في الثلث الأخير منه ، فيذكر الله تعالى ، ويدعو بالدَّعوات المأثورة في هذا الوقت ، ثم يتوضَّأ بنفسه ويُسبغ الوضوء ، ولا يسمح لأحد أن يُهريق عليه الماء ، ويستقبل القبلة عند الوضوء ، إلا أنه حين يغسل الرجل يُوجهها شمالاً أو جنوباً ، وكان يُحافظ على السواك ، ثم يقرأ الأذكار والدعوات الواردة في الحديث ، ويُطيل القراءة والقيام في النوافل بحضور قلب وجمعية خاطر .

وحين ينصرف من التطوع ، يتوجَّه إلى المراقبة في خشوع واستغراق ، ويضطجع قليلاً قبل الفجر في البيت ، ويقرأ بين صلاتي السنة والفريضة سراً «سبحان الله وبحمده ، سُبحان الله العظيم» .

وكان يصلِّي الفجر في آخر وقت الغلس وأول وقت الإسفار حتى يجمع بين

(١) وقد ذكر الشيخ محمد الكشمي في موضع آخر من هذا الفصل: «إن الإمام كان يقرأ الفاتحة خلف الإمام، ويستحب ذلك» ص ٢٠٩ .

المذهبين في ترجيح الغلس أو الإسفار ، ويَؤمُّ بنفسه في هذه الصلاة ، ويقرأ الطِّوال (١) ، كما ثبت في الحديث (٢).

ثم يجلس من بعد صلاة الفجر إلى شروق الشمس في الحلقة ، ثم يتطوَّع عند الإشراق يُطيل فيها القراءة ، ويشتغل بالأوراد والأذكار حتى ينتهي منها فيأتي البيت ويتعهَّد الأهل والعيال ، ويُعطي تعليماته وإرشاداته في الأمور البيتية اليومية ، ثم يذهب إلى الخلوة ، وينهمك في تلاوة القرآن انهماكاً تاماً.

ويَطلب بعد الفراغ من التلاوة المُريدين والمسترشدين ، ويسألهم عن أحوالهم وشؤونهم ، ويُرشدهم فيها ، ويَطلبُ في نفس الوقت خواصَّ أصحابه وتلامذته ويُفيدهم بالعلوم والحقائق والمعارف العالية ، ويتَوجَّه بقلبه إليهم ، ويُخبرونه بأحوالهم وكيفياتهم فيؤكِّد عليهم بدوام الاستحضار ، وستر الحال ، واتِّباع السنة ، وعُلوِّ الهمة.

قال ـ مرة ـ في سياق الحديث عن عظمة كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وجلالها: «الكون كلُّه إزاء هذه الكلمة أقل شأناً من قطرة إزاء بحر محيط».

وكان يُحرض المريدين والأصحاب على مُطالعة كُتب الفقه ودراستها ، ويُرغبهم في الرجوع إلى العلماء ، وسؤالهم عن الأحكام الشرعية.

وكان يقول: «يتجلَّى في الكشف أنَّ العالم بأسره غريق في لُجَّة البِدَع والخُرافات المظلمة ، وأن نور السنَّة ـ في وسط هذه الظلمة ـ يتلألأ تلألؤ اليراعة في الليلة الظلماء».

وكان شديد الكراهية والمُجانبة للغيبة وعيبِ المسلمين ، ولم يكن الخدم والمسترشدون يتجرَّؤون لوقاره ومَهابته على أن يغتابوا أحداً في مجلسه.

وكان يَسترُ أحواله وكيفياته الباطنية غاية الستر ، ما رأيتُه في مدة عامين إلا ثلاث أو أربع مرات ، دمعت عيناه وفاضت العبرات ، وانحدَرت على الوجه

---

(١) وهي من سورة الحجرات إلى سورة البروج.
(٢) حضرات القدس: ص ٨٢.

المنوَّر ، كما رأيته ثلاث أو أربع مرات احمرَّت وَجنتاه وعيناه أثناء التذكر ، وبيانِ المعارف الجليلة .

وكان يَدخل البيت بعد صلاة الضحى ، والضَّحوة الكبرى ، ويتناول الغداء مع الأهل والعِيال ، وإذا أعد أحد من أبنائه أو أصدقائه ومعارفه شيئاً يأتي به إليه ، وإذا غاب بعض أبنائه أو خدمه في ذلك الوقت ، يَحفظ له نصيبه ، وكان اهتمامه بالإطعام أثناء الطعام أكثر من عنايته بأكله ، فيتعهَّد غيره ، ويُكرمه ، ويُقدم إليه ما يرغب فيه ، ويتناول أحياناً ما يسدُّ الرمق ، ويُقيم الصُّلب ، حتى ليُخيل إلى الناظرين أنه لا حاجة له إلى الطعام ولكنَّه يُريد اتِّباع السنَّة (١) .

وفي الأيام الأخيرة من حياته لما اعتزل الناس وعكف على العبادة ، وأكثر من الصيام ، كان يتناول الطعام في الخلوة ، ولم يكن يقرأ الفاتحة بعد الطعام ـ كما هو التقليد المتَّبع عند بعض المشايخ وكثير من العوام ـ لأنه لم ترِدْ به أحاديث صالحة للاحتجاج ، كما لم يكن يقرأ الفاتحة بعد الصلوات المكتوبات ـ كما هي العادة السائدة عند بعض المشايخ .

ويَقيل بعد تناول الغداء عملاً بالسنَّة ، ويُؤذن المؤذِّن في أول وقت الظهر ، فيقوم ويتوضأ ، ثم يتطوع ، ويسمع بعد صلاة الظهر جزءاً من القرآن الحكيم ، أو أقل أو أكثر من حافظ للقرآن ، وإذا كان يوم درس يدرس ، ويصلي العصر إذا كان ظلُّ كل شيء مثليه ، ثم يبقى من بعد العصر إلى المغرب مع أصحابه ومريديه في صمت ومراقبة ، ويتوجَّه إلى كيفيات المريدين وأحوالهم الباطنية ، ويُصلي بعد صلاة المغرب ركعتي السنة ، وصلاة الأوابين ، أربع ركعات حيناً ، وست ركعات حيناً آخر ، ويُصلي العشاء بعد زوال الشَّفق الأبيض مباشرة ، وكان يجمع في صلاة الوتر بين قُنوت الحنفية وقنوت الشافعية ، ويُصلِّي بعد الوتر ركعتين تارة جلوساً وأخرى قياماً ، ولم يُصلِّ هاتين الركعتين في أواخر أيامه إلاَّ قليلاً نادراً ، وما عهدت عنه سجدتان بعد الوتر ، كما هي عادةٌ معروفة بين الناس .

(١) حضرات القدس : ص ٨٧ .

وكان يَعْتَـكِفُ في العشر الأواخر من رمضان ، ولا يتأخَّر بعد العشاء والوتر في النوم ، فيأوي إلى الفراش ، ويدعو بالدعوات المأثورة ، وكان يُكثر من الصلاة على النبي ﷺ وبخاصة ليلة الجمعة ويوم الجمعة ، وليلة الإثنين ويوم الإثنين .

وكان يُخيل للناظر إليه ـ عند تلاوته للقرآن الكريم من قسمات وجهه ، وأسلوب ترتيله ـ أنَّ الأسرار القرآنية تنكشف عليه ، وبركات الآيات تنزَّل عليه ، وسكينتَها تغشاه ، وكان إذا مرَّ بآية عذاب في الصلاة أو خارج الصلاة ، يتغيَّر لونه ، وإذا مرَّ بآية فيها تعجيبٌ واستفهام يظهر عليه أثره في لحنه وصوته ، يُراعي جميع السُّنن والآداب والمستحبات في الصلاة .

ويَهتمُّ بالتطوع بعد الوضوء ، وعند دخول المسجد ، ولم يكن يؤدِّي نوافل الصلوات بالجماعة غير صلاة التراويح ، وكان ينهى الناس عن الاجتماع للصلاة النافلة الليلة العاشرة من محرم ، أو ليلة القدر .

كان يَخرُج لعيادة المرضى ، يدعو لهم بالدعوات المأثورة في مثل ذلك ، ويخرجُ لزيارة القبور ، وكان يُلقي دروساً في بعض الكتب الدينية العالية مثل «تفسير البيضاوي» ، و«صحيح البخاري» و«مشكاة المصابيح» ، ويدرِّس في علم الفقه وأصوله ، وعلم الكلام ، و«هداية الفقه» للمرغيناني ، و«أصول البزدوي» و«المواقف» ، ويدرس في التصوُّف : «عوارف المعارف» ، ولكن لم يكن في هذه الدروس نقاش وجدال ، وقيل وقال .

وقلَّ اشتغاله بالتدريس في الأيام الأخيرة ، وكان يُوجِّه الطلاب إلى تحصيل العلوم الدينية بتأكيد بالغ ، ويقدمها على تحصيل علم الطريقة والسلوك ، وكان يكثر من التحميد والاستغفار ، ويلهج بالشكر والثناء ويكثر منه ، على قليل من النعمة والفضل .

كانت له عنايةٌ شديدةٌ بشهر رمضان ، يختم فيه القرآن ـ على الأقل ـ ثلاث مرات ، وكان يحفظُ القرآن عن ظهر غَيبه ، فكان يتلوه من غير نظر في غير

رمضان أيضاً ، كما يحضُر لسماعه في الحلقات والمجالس [١] ، وكان يُعجل الفطور ويؤخر السحور ـ عملاً بما جاء في السنة ـ ويَهتم بذلك اهتماماً كبيراً» [٢] .

وكان شأنه في الزكاة أنه إذا جاءته هدية أو تحفة ، فلا يترقَّب حَولان الحول عليه ، بل يُؤدِّي الزكاة المفروضة في قيمة هذه الهدايا والنعم ، وكان يفضِّل عند توزيع الزكاة أهل الصلاح من الرجال ، والصالحات من الأيامىٰ وذوي قرباه.

وعَزم على الحج مراراً ، ولكن لم يتفق له تحقيق هذا العزم لموانع ، ودام له هذا الشوق والحنين ، ورحل من هذه الدار الفانية في هذا الشوق والحنين.

وكان غاية في التواضع ، ولين الجانب ، ودَماثة الخلق ، وحُسن العشرة والشفقة على الخلق ، مُتسنّماً ذروة الرضا ، والتوكل والتفويض ، أُوذي من أقربائه وأصدقائه وأحبابه ومن الحكام الجائرين ، إيذاءً شديداً ، ولكنَّه التزم جانب الرضا والتفويض ، وما تكلَّم لسانه بشيء ينم عن التبرُّم والشكوى ، وكان إذا زاره أحدٌ قام احتراماً وتكريماً له ، ويُجلسه في مكان بارز ، ويتحدَّث معه بما يناسب ذَوقه ونفسيَّته ، ولكنه لم يكن يَحترم غير المسلمين ويعظِّمهم وإن كانوا ولاة وأمراء ، وأصحاب السلطة والجاه ، وكان يبدأ بالسلام ، لا أذكر أحداً سبقه في البدء بالسلام ، وكان يراعي من له عليه حقٌّ غاية المراعاة ، وإذا نُعي إليه إنسان يتأثر ويحزن ويسترجع ، ويحضر جنازته ، ويدعو له ويُثيبه بالطاعات والقربات [٣] .

كان لِباسه ثوباً يكون على كتفيه جيبان ، وعَباءةٌ فوقه ، ولكن يقتصر على الثوب وحده أيام الصيف ، وعمامة ينوطها على رأسه موافقة للسنة ، تقع

(١) زبدة المقامات: ص ١٩٢ ـ ٢١٥، باختصار وتلخيص، وما جاء في هذا الفصل من غيره، أحيل إليه في الهامش وهو قليل.
(٢) حضرات القدس: ص ٩١.
(٣) المصدر السابق: ص ٩١ ـ ٩٢، تأليف الشيخ بدر الدين السرهندي.

ذؤابتها على الظَّهر بين الكتفين ، وكان سِرْواله دائماً ـ إلاَّ في حالة قضاء الحاجة ـ فوق الكعبين ، وكان يلبس يوم الجمعة والعيدين لباساً فاخراً ، وإذا لبس ثوباً جديداً ، أعطى القديم لخادم ، أو قريب ، أو ضيف ، وكان يُقيم عنده ـ بصفةٍ دائمة ـ خمسون وستون بل زهاء مئة شخص من العلماء والعارفين والمشايخ وحفظة القرآن والأشراف ، وكان طعامهم ـ جميعاً ـ من مطبخه الخاص (١).

حِلْيَته وَصفتُه:

وَصَفه الشَّيخ بدرُ الدين السَّرهندي ـ الذي صحِبه سبعة عشر عاماً ، وكان من خلفائه ، في «حضرات القدس» بالوصف التالي :

«كان أسمر اللون ، ضارباً إلى البياض ، يَلمع على جَبينه وخدَّيه نُور يَخلُب الأبصار ، أزجُّ الحاجبين ، وكان حاجِبه مثلَ القوس مع طول ، أسود ، دقيقاً ، أنجل العينين ، موضع سوادهما غاية في السواد ، وموضع بياضهما غاية في البياض ، دقيق الأنف ، رقيق الشفتين في حمرة ، معتدل الفم ، متراصَّ الأسنان تفترُّ عن مثل اللؤلؤ المنظوم ، كَثَّ اللحية مع وقار ورزانة ، لحيته طويلة مربعة ، ولم تتجاوز شعراتها على خدَّيه أكثر من الحد الطبيعي ، متوسِّط القامة ، ناعم الجسم» (٢).

أبناؤه الأماثل:

رُزق الإمام السَّرهندي سبعة أبناء ، تُوفي اثنان منهما في الصغر في حياة الإمام ، وهما الشيخ محمد فرخ ، والشيخ محمد عيسى ، وكان الشيخ محمد أشرف مات في أيام الرضاعة ، وتُوفي ابنه الأكبر الشيخ محمد صادق بعد الفراغ من تحصيل العلوم الدينية والسلوك عام ١٠٢٥هـ ، وهو في الخامسة

(١) حضرات القدس: ص ٩٢.
(٢) المصدر السابق: ص ١٥٥.

والعشرين من عمره ، وبقي الثلاثة من أبنائه الأماثل الشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم ، والشيخ محمد يحيى أحياء ، تتجمَّل بهم هذه الأسرة العظيمة ، ويَحقُّ أن يسمَّى هؤلاء الأربعة السلسلة الذهبية ، والشُّموس المضيئة .

وكان الشيخ عبدُ الباقي أثنى عليهم ، ووصَفهم بصفاتٍ عالية ، ولقَّبهم بـ«الجواهر العلوية» وبـ«الشجرة الطيبة» ، وقال أيضاً فيهم : هؤلاء فُقراء على عتبة الله ، يحملون بين ضلوعهم قلوباً عجيبة .

وكان ابنُه الأول الشيخ محمد صادق قد بلغ الكمالَ ، وذُروة الإحسان في حياة والده ، وقد وصفه والده بصفات عظيمة ، تَدلُّ على عُلو استعداده الباطني ، وكماله الروحي ، وقال في رسالة له : «ابني العزيز جماعُ حقائق هذا العبد الضعيف ومعارفه ، وصحيفةُ مقامات الجذب والسلوك» [١] .

ووُلد الابن الثاني الشيخ محمد سعيد عام ١٠٠٥هـ ، وتوفي ٢٧ جمادى الآخرة ١٠٧٠هـ ، وقد ساهم في نشر طريقة الإمام ، وتعليم الطالبين وإرشاد السالكين مُساهمة كبيرة [٢] .

وكان الابن الثالث الشيخ محمد معصوم حامل علوم الوالد العظيم وشارح معارفه وحقائقه ، وخليفته وأمين سره ، وانتشرت على يديه الطريقة المجدِّدية انتشاراً عظيماً ، وأصبح تأثيرُها بفضله تأثيراً عالمياً شاملاً ، وعَمَّ نفعُها وخيرها ، حتى قال قائلٌ ، وأصاب فيما قال:

«الشَّيخ معصوم سراج الأقطار والبلدان ، أضاءت بفضله وبَركته الأرض من الهند إلى الرُّوم» .

فقد كانت زاوية (دِهْلِي) الشهيرة في العالم ، والتي كانت مأوى العرب والعجم ـ وتصدَّر فيها للتربية والإرشاد جُلة المشايخ الأفذاذ كالشيخ خواجه

---

(١) الرسالة رقم: ٢٧٧، وانظر للاطلاع على مناقبه وفضائله «زبدة المقامات» ص ٣٠٣ ـ ٣٠٦.

(٢) راجع للاطلاع على حياته ومناقبه «زبدة المقامات» ص ٣٠٨ ـ ٣١٥.

سيف الدين ، والشيخ مِرْزَا مَظْهَر جَان جَانَان ، والشيخ غُلام علي ، والشيخ أحمد سعيد في عصورهم وأدوارهم ـ حلقةً من هذه السلسلة المجدِّدية ، ومن هناك حمل الشيخ خالد الرومي الكردي [١] هذه الطريقة بعد أن تلقَّنها وأخذها من الشيخ غلام علي إلى بلاد الشام وتركيا ، وانبثَّت منه عُروقها في العراق والشام ، وكردستان وتركيا ، وانتشرت في المُدن والقُرى ، والأسر والبيوت.

وإنَّ رسائل الشيخ محمد معصوم تَقوم بمثابة شرح وتفصيل لرسائل الإمام المجموعة في ثلاثة مجلَّدات ، وهي خزانة العلوم والمعارف ، والأسرار والدقائق ، وتحتاج سيرته ومناقبه إلى كتاب مستقل.

كانت ولادته ١١ شوال عام ١٠٠٧هـ ، وتوفي ٩ ربيع الأول عام ١٠٧٩هـ [٢].

وكان الابن الرابع الشيخ محمد يحيى ، كان ابن تسع سنوات عند وفاة الإمام السَّرهندي ، أخذ العلوم على إخوته وتربى على أيديهم ، وتلقَّن الطريقة منهم ، وكانت وفاته عام ١٠٩٦هـ [٣].

* * *

(١) سيأتي الحديث عنه مفصلاً في الباب السابع.

(٢) تأتي ترجمته في آخر هذا الكتاب مقتبسة من كتاب «نزهة الخواطر».

(٣) وكان الشيخ رؤوف أحمد، وحفيده الشيخ أبو أحمد وابنه الشيخ محمد يعقوب، مشايخ مدينة «بوفال» المعروفين، من أعقاب الإمام السرهندي.

الباب الخامس

تجديد الإيمان وإعادة الثقة بالنبوة المحمدية نقطة تجديد الإمام السرهندي وإصلاحاته الأساسية

تجديد الإيمان وإعادة الثِّقة بالنبوَّة المحمَّدية
نُقطة تجديد الإمام السَّرهندي
وإصلاحاته الأساسية

ما هو العمل التجديدي الذي قام به الإمام السرهندي؟

اتَّفق جميعُ العلماء المتبصِّرين والمؤرِّخين المنصفين ـ الذين لهم اطلاع واسع على التاريخ الإسلامي بصفة عامة والتاريخ الإسلامي في الهند بصفة خاصة [١] ـ على أنَّ الإمام السَّرهندي قام بالدور الرائع في الدفاع عن الدين الإسلامي، وتقويته، ونُصرته، الذي صنع تاريخاً جديداً، وبدأ عهداً جديداً، والذي يسمَّىٰ في مصطلح الحديث المعروف البسيط «التجديد» [٢]، الذي عرف به الإمام واشتهر اشتهاراً عظيماً حتىٰ غلب عليه لقب «المجدِّد»، وظلَّ ينوب عن اسمه، ولا نجد له مثالاً من قبل.

---

(١) وقد تناولناه بصورة إجمالية في البابين الأولين من هذا الكتاب.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المئة، برقم (٤٢٩١) عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يُجدد لها دينها». راجع للتفصيل شروح كتب السنن. واقرأ في حكمة هذا الحديث، والحاجة إلى التجديد في أزمنة وأمكنة مختلفة كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، المشتمل على فوائد كثيرة، في المجلَّد الثامن عشر من مجموع فتاواه، ص٢٩٧ـ ٣٠٥.

فما هو هذا العمل التجديدي؟ .

إنه تجلية الفكر الإسلامي ، وإنعاش الرُّوح الدينية ، ومقاومة الفِتَن الخطيرة المحدقة ، واستئصالها من جذورها ، وكسر طلاسم المحاولات الضالة ـ المؤسسة على الرياضات والمجاهدات ، والإشراق وصفاء الباطن ، والتجارب الروحية ـ لمعرفة الله تعالىٰ والوصول إليه ، التي كانت تعتمد على وسائلها وطُرقها الخاصة ، وتَستنكفُ عن اقتفاءِ سيدنا محمدﷺ واتِّباع سنته وهَدْيه ، ولا ترىٰ لزوماً لذلك.

وكَشف النقاب عن وجه العقائد والنظريات المتلبِّسة بالوَحدة والاتحاد ، وقد بلَغا أَوْجَ التطرُّف والمغالاة ، وانتشرا في كثير من الأوساط وتلقَّاهما كثيرٌ من الناس بالقَبول ، وأحدثا رَجَّةً في المُعتقدات الدينية ، وهزَّة في المجتمعات الإسلامية ، وفوضىٰ في الخُلُق والدين.

وعَرضُ نظرية «وَحْدة الشهود» بدلاً من «وحدة الوجود» وتدعيمُها علمياً وعقلياً ، والتدليلُ عليها وتقديمها بصورة مُنظَّمة دقيقة ، والتشديدُ في الإنكار علىٰ البدع والخرافات ـ التي أصبحت تشريعاً إزاء تشريع ـ وتفنيدُها ، وعدم الاعتراف بوجود «البدعة الحسنة» وتثبيتُ أقدام الإسلام المتزلزلة في الهند ، وإزالة آثار الكفر ومعالم الضلال ، التي خلَّفها عهد (أكبر) المظلم.

والمحاولة الجادة الحكيمة الناجحة لثورة دينية تجديدية ، وتغييرٍ جذري عظيم ، كان من نتاجهما السلطان (محيي الدين أَوْرَنْكَ زَيْب عَالَمْكِيْر) سلطان الهند ، وصاحب الأمر والنهي فيها ، سياسياً وإدارياً ، وحكيم الإسلام ولي الله الدِّهلوي وخلفاؤه وتلامذته[1] الذين هم من حلقات هذه السلسلة الذهبية ـ رُوحياً وفكرياً ، وكان كل ذلك امتداد هذه الصحوة والحركة ، وهم

---

(١) [انظر: سيرته وجهوده في التجديد ونبذة عن خلفائه وتلامذته في الجزء الرابع من هذه السلسلة].

الذين بذلوا جهوداً جبَّارة في نشر تعاليم الكتاب والسنَّة ، والدعوة إليهما بِعُلُوِّ هِمة ، وشرحهما وتبيينهما للناس.

وكانتْ جهودهم في الإفادة والتدريس ، وإنشاءِ المدارس الدينية ، والتزكية الروحية ، والتربية الباطنية ، وإصلاح العقائد ، والردِّ على البدع والتقاليد ، ثم جهادُهم ، واستماتتهم في سبيل الله وسَعيُهم لإعلاء كلمة الله ، وبفَضْلِ هذه الجهود بقيتْ شجرة الإسلام في الهند ، قائمة على ساقها ، ناضرة مخضرَّة ، بل حوَّلوا الهند مركز الثقل في العالم الإسلامي في العلوم الدينية (لا سيَّما علم الحديث الشريف) والفِكر الإسلامي ، والدعوة والإرشاد.

هذا كله صحيح ومقرَّر تاريخياً وعلمياً ولكن ما هي النقطة المركزية ، والمحور الأساسي الذي تدور حوله هذه الجهود التجديدية ، والأعمال الإصلاحية العظيمة؟ وما هي تلك المأثرة التجديدية المهيمنة ، التي تحتضن هذه الجوانب كلها، وتُغذِّيها للناس ـ حسب ميولهم وأذواقهم ـ؟

إجابات مختلفة عن هذا السؤال الخطير: وللنّاس فيما يعشقون مذاهب:

وَتفرَّق الناس في الإجابة فِرقاً وأحزاباً ، نَخُصُّ ثلاث فِرَقٍ منها بالذكر فيما يلي:

١ ـ يقُول فريقٌ من هذه الفِرق: إن الإمام السَّرهندي يستحق وصفه بمجدِّد الألف الثاني لأنه استعاد الهند إلى راية الإسلام ، وحفِظَها من الارتماء في حضن البَرهمية ، وفلسفة «وحدة الأديان» ، ووجَّهها إلى لواء محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وسلَّمها لوصاية الإسلام وحمايته ، ودفع عنها في القرن الحادي عشر الهجري ، القرن السادس عشر الميلادي ـ ذلك المصير الذي صارت إليه في القرن الثالث عشر الهجري ـ القرن التاسع عشر الميلادي ـ.

بل الواقعُ أنه حفظ الأمة الإسلامية الهندية من خَطرِ الرّدة العَقائدية والفكرية والحضارية الشاملة ، التي ظهرتْ ـ بذكاء تلك الشخصية القوية صاحبة الكلمة

النافذة والإرادة الحديدية كالملك (أكبر) ، ودَهاء مستشاريه النوابغ الأفذاذ كمُلاَّ مبارك ، وفيضي وأبي الفضل ـ واقعاً ملموساً يُحَسُّ بالبنان .

وقد كان هذا التحول الروحي والمعنوي والردة الفكرية والحضارية أخطر وأدق ، وأرسخ جذوراً من انقراض الدولة ، والانهيار السياسي ، الذي وقعت كارثته في أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر ، بقيام القِوىٰ غير الإسلامية الناهضة في الهند ، وسيطرة الإنكليز وتسلُّطهم في البلاد ، ولعلَّ الدكتور محمد إقبال أشار إلى هذه الحقيقة ، إذ قال في بيت من شعره ، يُشير إلى الإمام السَّرهندي :

«ذلك الحامي لِذمار الأمة الإسلامية في الهند ، الذي قيَّضه الله ـ في الحين المناسب ـ ونَصَّبه حارساً للدين القويم» .

٢ ـ ويقول الفريق الثاني : إن عمله التجديدي يتركَّز في معالجته تفضيل الشريعة على الطريقة ، وأن الطريقة تابعة خاضعة للشريعة ، في قوَّة وإيضاح ، وثقة وبصيرة في ضَوء تجارب شخصية ، لم يُسبق إلى هذا الأسلوب القوي المبين حتىٰ تجلّىٰ لكل ذي عينين أن الطريقة خادمة للشريعة .

وأوقف بذلك تلك الفتنة الخَطيرة الناجمة في أوساط «السلوك والطريقة» التي كانت تدعو إلى الاستغناء عن الشريعة ـ أحياناً ـ والانحراف عنها ـ أحياناً أخرىٰ ، والاعتماد الكامل على الرياضات والمجاهدات ، والحواس الباطنة ، والتي كانت تستهدفُ أول ما تستهدف الهند ـ كونها مركزاً لليُوك والتنسُّكِ المُتطرِّف والرهبنة ـ ولم يستطع أحد بعده أن يتجرأ على القول بـ«أن الشريعة في واد ، والطريقة في واد ، وليس من حق الشريعة فرض الرقابة على الطريقة» .

٣ ـ ويرىٰ الفَريق الثالث أن مأثرته التجديدية الأساسية ، هي ضَرْبَتُه القاصمة على عقيدة «وحدة الوجود» ، وهَدْمُ فلسفتها من أساسِها بطريق لم يُسبَقْ إليه ، فسدَّ ذلك السيلَ العرم الذي كان يَجرف بالعقائد الصحيحة ، وحول تياره العنيف الذي اكتسحَ جميعَ الأوساط العلمية والروحية في القرون الأخيرة ، والذي كانتْ مُعارضتُه من عالمٍ مُثقَّف دليلاً على جهله ،

وإنكاراً لضوء الشمس في رائعة النهار ، ولقد أصاب العلاَّمة مناظر أحسن الكيلاني حيث قال في مقاله العظيم المثير بعنوان «المأثرة التجديدية للألف الثاني» :

«إنَّ مآثر السَّرْهندي الإصلاحية ، وأعماله التجديدية اختلطت بتدقيقات «وحدة الوجود» و«وحدة الشهود» ، وبُحوثهما الفَلسَفيَّة الدقيقة والحروب الكلامية بين المشايخ والمتصوِّفة على الشريعة والطريقة ، وتحلَّلَت في هذه الضجَّة والغَوغاء بحيث لم يَعُدْ وصفُه بمجدِّد الألف الثاني إلاَّ تقليداً متَّبعاً للإجلال والتَّبجيل ، لا أن يكون مؤسساً على أمرٍ مهم خطير» [١] .

إعادةُ الثّقة والإيمان بحتميَّة النبوّة المحمَّدية وخلود الرسالة الأخيرة:

ولكنَّ الواقع أنَّ عمله التجديدي الأساسيّ الذي تَدُورُ حوله سائر أعماله الإصلاحية التجديدية ، ومَنبعه الأصيل الذي تتفجَّر من ينابيعه جميعُ مآثره الإصلاحية وجُهوده الثَّورية ،وتتحوَّل إلى نهرٍ يجري في العالم الإسلامي كُلّه ، هو ذلك العمل الإصلاحي العظيم الذي تجلّىٰ في إعادة الثِّقة والإيمان إلى قلوب أبناء الأمة الإسلامية ، بخلود الرسالة المحمدية وحاجةِ الناس إليها ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وترسيخُ جذور هذه العقيدة المهمة.

ولا أعلمُ أحداً من المجدِّدين في التاريخ الإسلامي ، قَامَ بهذا العمل على هذا النِّطاق الواسع ، وبهذه القوَّة والصراحة كما قام به الإمام السَّرهندي ، ولعلَّ السَّبب في ذلك عدمُ مَسيس الحاجة إليها في عهودهم ، وأنه لم تَبْرُز على

(١) انظر ترجمة «الإمام الرَّباني مجدِّد الألف الثاني» جمع وترتيب الشيخ محمد منظور النُّعماني، ص ٢٧.

المسرح في عصُورهـم فلسفَـة أو حركـةٌ منظَّمـة دقيقـةٌ كتـلك التي ظهـرت في عهده (١).

لقد كانتْ هذه الخُطوةُ التجديديةُ سداً منيعاً في وجه تلك الفِتَن التي كانت تَمُوج في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه ، وتَقِفُ فاغِرةً أفواهها لِتبْتَلِع شجرة الإسلام الطيبة ، ونظامه العقائدي والفكريِّ والروحي بأسره ، تندرجُ تحتها تلك الحركة النقطوية وأتباعها الذين رَفعوا علم الثورة والخُرُوج على النبوَّة المحمدية وخلودها وبقائها، بطريقة علنية سافرة، ونادوا بأن عهد النبوَّة المحمدية الممتدَّ على ألف عام قد انقضىٰ ، وسَيَبْدأ عهد القيادة الدينية الجديدة ، وصياغةُ الحياة الجديدة ، والتَّقنين الجديد ، الذي يعتمدُ على العقلِ والفلسفة وحدَهما ، ويقودُ حركتَهما محمود البَسِيْخَانِيّ وأتباعه وأنصارُه ، ويكون مركزُهما الهند وإيران (٢).

ومِن هذه الفِتَن المدلهمَّة «دينُ أكبر الجديد» و«قانونه الجديد» ، وكان كلٌّ منهما يدَّعي أنه يحل في الهند محلَّ النبوَّة المحمدية ، والشريعة الإسلامية ، ويُؤدِّي دورهما.

ومنها تلك البِدع والمحدَثات في الدِّين التي سيطرت على الحياة الدينية ، وجميعِ الأعمال والعبادات ، واندسَّت في الاجتماع والمدنية ، وكانتْ شريعة إزاء شريعة ، يُدوَّن لها «فِقْهٌ» مُستقِلٌّ ، وكان تَحَدِّياً صارخاً ـ في حقيقتها ـ لختم الرسالة المُحمَّدية ، وتدَّعي التَّنبُّؤ على منصب التشريع والتقنين.

وتُذكر في هذا الصدد فلسفة «وحدة الوجود» التي كانت تعتمد ـ حسب أقوال دُعاتها وكِبار رجالها ـ على الحقائقِ الكشفية ، والتي لا يَدَّعي غُلاة

---

(١) ونجد في هذا الصَّدد شيئاً من التفصيل والوضوح عند شيخ الإسلام ابن تيمية، لا سيما في كتبه الجليلة القيِّمة، «النبوات» و«نقض المنطق» و«الردُّ على المنطقيين» ولكنه كذلك لا يعدو إشارات وبحثاً مجملاً، ولكل مقام مقال.

(٢) انظر الباب الأول من هذا الكتاب موضوع «الفتنة الكبرىٰ في القرن العاشر».

أصحابها أيضاً أن النبي ﷺ دعا إليها ـ جِهاراً ـ صحابته الكرام ، ودعا صَحابتُه مَن بعدهم من التابعين وهكذا . . . إلخ ، وكانت هذه الفلسفة والدَّعوة ـ تَقِفُ ـ على مرور الأيام ـ عَن شعور أو غير شعور ـ مُعَارِضةً للدعوة التي جاءتْ بها النبوَّة المحمدية، وتعاليمُها الواضحة ، ومقاصدُها وأهدافُها، وكُلَّما أحرزت هذه الدعوة شيئاً من النجاح والانتصار ، وترسَّخت جُذُورها في العقول والقلوب، والمجتمع الإسلامي، نتجَ عنها ضَعْفٌ في تطبيق الشريعة والاهتمام بها ، وفي الاعتقاد بأن الإسلام وحده هو الدين الحق ، ووسيلةُ النجاة في الآخرة ، وتَنْفَتِحُ أبواب الإلحاد والزندقة ، والحُرِّيةِ المطلقة ، والإباحية والتعطُّل والبِطالة على مصراعيها ، وإن كان القائلون بها من المشايخ والصوفية والأتقياء المتورعين ، متقيدين بالشريعة ، معظِّمين لشعائرها ، مُعارِضين للفساد بشدة وإخلاص.

ومنها الفِرقة الإمامية التي تُعتبر من عقائدها الأساسية عقيدةُ الإمامة ، والتي تَصِف الإمام ، وتُبيِّن خصائصه ومزاياه بطريق يَجعله قريناً للنبي ومُساوياً له في الدَّرجة والمكانة [١] ، وتَعتقِدُ في طائفةٍ كبيرةٍ من صحابة الرسول ﷺ

---

(١) يستفاد من كتاب «الشافي» للشريف المرتضى و«تلخيص الشافي» للطوسي، و«أصل الشيعة وأصولها» للعلاّمة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، أن الإمام معصوم عن الخطأ والنسيان والمعاصي ظاهراً وباطناً، وطاهر مطهر، تفرض طاعته وتظهر المعجزات على يديه، وعلمه محيط بما يتعلّق بالشريعة لا يندّ عنه شيء، وذلك يحصل له تلقائياً بطريق العلم اللَّدنِّي، ويظهر كحجة لله تعالىٰ في كل زمن إلى قيام يوم القيامة. ويقول العلاّمة محمد أبو زهرة في كتاب «تاريخ المذاهب الإسلامية» الجزء الأول بعدما استعرض عقائد الفرقة الإمامية، وما قال علماؤهم الكبار في الإمام والإمامة: هذه إشارات موجزة إلى منزلة الإمام عند الإمامية والاثني عشرية، ويظهر أن الإمامية جميعاً على رأيهم في هذا النظر، وليس مقام الإمام ومقاربته لمقام النبي عندهم موضع خلاف، فإنَّهم يصرِّحون تصريحاً قاطعاً؛ بأن الوصي لا يفرقه عن النبي إلاّ شيء واحد، وهو أنه لا يوحىٰ إليه» (ص ٥٩).
وقد جاء في رسالة «خطاب الإمام الخميني حول: ١ ـ مسألة تحرير القدس ، ٢ ـ مسألة المهدي المنتظر ـ «التي نشرها مركز الإعلام العالمي للثورة الإسلامية في إيران، طهران=

ما يُشَكِّك في تأثير صُحْبَة الرسول وتَغْيِيره للنُّفوس ، ويتَّهِمُ تَربيته المؤثِّرة المُنجبة بالنقص والتقصير ، ويُنافي معنىٰ هذه الآية الكريمة : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] . وكانت آثار هذه الفرقة ـ لأسباب سياسية وعلمية مختلفة ـ تنتشر ـ بسُرعة ـ في الهند انتشاراً واسعاً، ويتأثر المجتمعُ المسلِم ـ الذي كانت أكثريَّتُه سُنيَّة المُعتقَد والمَذْهَبِ ـ بعقائِدها وتصوُّراتِها ، وأفكارها وآرائها ، وتقاليدها وعاداتها ، تأثُّراً كبيراً.

وهكذا فتح الإمامُ السَّرْهنديُّ بمفتاح تجديد الإيمان بمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإعادة الثِّقة برسالته ، جميعَ الأقفال المعقَّدةِ الثَّقيلة التي اخترعتها الفلسفة الإيرانية واليونانية ، والإشراقية المِصريَّة [1] ، والهندية ، وأصاب مقتل هذه الفتن كلها التي تَهدُف الطبقة المثقَّفة من المسلمين ، بِسَهمٍ واحدٍ مُسَدَّد ، ورميةٍ مُصيبة قاتلة.

عَجـزُ العقـل والكَشْـفِ وإخْفـاقُهُمـا فـي إدراك حَقَـائِق مـا وراء الطبيعـة:

إنَّ العملِ التجديدي الذي قام به الإمام السَّرهندي هو أنه أثبتَ عجْزَ العقل والكشف وقُصُورهما في إدراك الأمور الغيبية ، والعلومِ التي هي وراء طور

= ص ب. ٣٩٣١ ـ ٢١، بمناسبة الحديث عن نقد مفتي مصر، ومسألة الإمام المهدي ـ: عندما نتحدَّث حول هذا الموضوع ونقول بأن الأنبياء لم يوفقوا في تنفيذ مقاصدهم، وأن الله سبحانه وتعالىٰ يبعث في آخر الزمان شخصاً يقوم بتنفيذ مسائل الأنبياء، فإن هؤلاء المساكين يقومون عن غير فهم بتأويل كلامنا خدمة للأجانب» ص ٢٢. وبذلك اعترف الخميني بصحَّة نسبة ما شاع عنه من قول أن الأنبياء لم يوفقوا في تنفيذ مقاصدهم، وأن الإمام المهدي سيوفَّق بذلك، وبذلك يفهم اعتقاد الشيعة في الأئمة وفي الإمام المهدي.

(١) التي تسمَّىٰ «الأفلاطونية الحديثة» (Neo Platonism) وكان مركزها الإسكندرية، وكانت مصر مركزاً للأفلاطونية الحديثة (Neo Platonism) نشأ فيها فلاطينس (Platonus) وبارفري (Porpgyer) وبراكلس (Proclus) وأسست مدرسة جديدة للأفلاطونية الحديثة.

العقل ، والمعرفةِ الصحيحة لذات الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وصفاته ، وإحراز العلم الذي لا يَشوبُه شَكٌّ ، والحقائق الثابتة القطعية التي لا تُخالجُها شبهة ـ بحتميَّة ويقين ـ وإن النتائج المكتسَبة بهما لا تخلو من الشك والرِّيبة ، والخطأ والزَّلَّة ، وسُوء الفهم والتحريف ، ولا يمكن إدراك المعرفة الصحيحة لذاتِ الله ـ سبحانه ـ وصفاته إلا عن طريق الأنبياء والمرسلين ، وإذا كان العقل وَرَاء طور الحِسِّ ، فإنَّ النبوَّة وراء طور العقل ، ولا سبيلَ إلى معرفة الطريقة الصحيحة لتقديس الله وتعظيمه وتحميده ، وتمجيده إلا النبوَّة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم .

وقد وقع حُكماءُ اليُونان بهذا الصَّدد في زَلَّات خطيرة ، وأخطاء فاحشة ، فكما أنَّ العقل الخالص والعقل المجرد ليسَ له وُجود ، كذلك الكشف الخالص والكشف المجرد ـ الذي يكون بعيداً عن التأثيرات الخارجية ، والأهواء الداخلية ـ صعبُ الوُجود ، بل عديم الوجود ، وقد زَلَّتْ أقدام الإشراقيِّين ، وأصحاب صفاء النَّفس وسموِّ الروح ، ووَقعوا فريسة الأوهام والجهالات كما زَلَّ زُعماء العقل والفَلْسَفة .

فالعَقْلُ والإشراق لا يُغنِيان في الحصول على اليقين والوصول إلى الله شيئاً ، والبعثة المحمدية ، والرسالةُ النبويَّة هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة ذات الله ـ تعالىٰ شأنه ـ وصفاتِه وأحكامه .

وأعلن أنَّ مِن المستحيل تَجرُّد العقل وخُلوصه ، وأنَّ العقل ـ كالحواس الأخرىٰ ـ يتأثَّر بالعقائدِ والمسلَّمات الداخلية ، والعوامل والتأثيرات الخارجية ، وأن كثيراً من استنتاجاته ، وأحكامه تتلوَّن بالألوان الخارجية ، التي يكون وُجُودها في داخله وباطنه ، وتَمتَزج بها .

وأثبتَ أنَّ العقل قاصرٌ عن أن يكون حُجَّة وبرهاناً ، وأنَّ بعثة الأنبياء هي الحجَّة البالغة ، ولا سبيل إلى التزكية الحقيقية بدون الاهتداء بهذه البعثة .

وأقام حدّاً فاصلاً ، وفارقاً واضحاً بين صفاء النفس ، وصفاء القلب ، وبيَّـنَ هذا الفارق بينهما ، وأثبتَ أن المصدِّق لرسالة الأنبياء ، والمُؤمنَ بها من

أصحاب الاستدلال والبرهان ، وأنَّ إخضاع أخبار الأنبياء للعقل إنكارٌ للنبوَّة ، وبيَّن هذه النقطة بإيضاح : أن التعارض مع العقل شيء ، وأن يكون الأمر فوق مدارك العقل ووراء طوره شيءٌ آخر .

إنَّ التحقيقات الدقيقة المبنيَّة على العقل والكشف ، والتي ساعدها التأييد الإلٰهي ، والنُّور المقْتبس من مِشكاة النبوَّة ، هي تلك العلوم والمعارف الدقيقة التي أحدثت ضَجَّةً في الأوساط العلمية والروحية ، وفتحتْ باباً جديداً للتأمُّل والتفكير ، وزَيَّفت كثيراً من الحقائق السائدة في الأوساط العلمية والعقلية ، ونادت بعظمة النبوَّات والشرائع السَّماوية ، وصِدقها وجلالها ، وأعادت الثِّقة إليها من جديد ، وهي المأثرة التجديدية الثوريَّة ، والعلمية الدقيقة التي لم تكُن وليد المناهج الدراسية السائدة في ذلك العصر ، ونتاج البيئة العلمية والجهود العقلية وحدها ، إذ أنه عالج فيها أموراً لم تتوصَّل إليها الأوساط العقلانية والفلسفية ، إلا بعد قرون ، وشهِدت على صدقها وثُبُوتها التجارب العلمية والروحية .

لقد كان ذلك نتيجة التأييد الرَّباني ، والهِداية الإلٰهية التي اختارته عند بداية الألف الثاني لتجديد هذا الدين ، والدفاع عن النبوَّة المحمدية والذَّبِّ عن الشريعة الإسلامية ، وكان جائزة ذلك الإخلاص ، والحميَّة الدينية والمتابعة الكاملة لخاتم النبيين ﷺ التي تمسَّك بها من أول الطريق وعضَّ عليها بالنواجذ .

وينبغي ـ لتفصيل هذا الإجمال ، وشرح هذه الإشارات ـ التأمُّل في تلك الخَلفيات والأوضاع التي تتجلَّىٰ فيها قيمة هذه التحقيقات العلمية ، وإدراكُها بأبعادها وعلى حقيقتها .

التَّساؤلات الأساسية ، والمُحاولات المختلفة لِلإجابة عليها ، ونقدها ودراستها:

إنَّ التساؤُلات الأساسية الأولية عن الدين وهذا الكون ، التي تعتمد عليها

استقامة هذه الحياة وتنظيمُها تنظيماً سليماً ، وتدور عليها سعادة الآخرة والنجاة من عذابها ، وهي :

مَنْ صانعُ هذا الكون؟

وما هيَ صِفاته وخصائصه؟

وما هي علاقته بنا؟

وكيف يَنبغي أن تكون صِلتنا به؟

وما هي وَضْعِيَّة هذه الصلة؟

وما هي الأمور التي يُحِبُّها ويرضاها؟ وأخرىٰ يُبْغضها ويَسْخَط عليها؟

وهل بَعْدَ هذه الحياة الرَّاهنة حياة أخرىٰ؟

وإن كانت؛ فما هي طبيعتُها وحقيقتها؟

وما هي التَّعاليم والإرشادات المتعلِّقة بها؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات بتفصيل ودقَّة ، لابدَّ أن يتعرَّض المُجيب للبَحْثِ في ذات الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ وصفاته ، وأفعالِه ، وحدوثِ العالم أو قِدَمه ، ووجود الجنَّة والنار ، والوحي والملائكة ، ومباحث أخرىٰ تتعلَّق بما وراء الطبيعة، وهي تحتلُّ مكانة العقائد الأساسية ، وأصول الديانة الأوَّليَّة .

وقد نَحَىٰ المَعنيُّون بهذه المباحث للإجابة عن هذه الأسئلة، وحلِّ هذه المشاكل نحو تجربتين اثنتين بصفة عامة، تجربة العقل والإدراك، وتجربة الروحانية والإشراق ، وكان من نتيجة التجربة الأولىٰ ظُهور الفلسفة ، ونتيجة التجربة الثانية نشأة التصوُّف الإشراقي .

ولكنَّ هاتين التجربتين والمحاولتين الأُوليتين ـ بالنظر إلى أصول النقد والموضوعية العلمية ـ مبنيتان ـ أساساً ـ على الخطأ والمغالطات ، ويتسنَّى لنا قبل أن ننقل مقتبسات من رسائل الإمام السَّرهندي ، أن نتناول هذا الموضوع ـ توطئة وتمهيداً ـ بشيء من الشرح والإيضاح .

الخُطْوَةُ التجديدية في نقدِ العقل المجرّد ، والكشفِ الخالص:

ينبغي - قبل كلِّ شيء - ألَّا ننسىٰ أنَّ العقل ليسَ حراً طليقاً في أداء مسؤوليته الطبيعية ، من الاكتشاف والتحقيق والاستدلال ، وأنه في حاجة إلى أشياء أقل منه شأناً ، وأتفهَ منه قيمة ، وأنَّ دوره الأصيل هو التوصُّل من المحسوسات والمَعلومات والتجاربِ السابقة ، إلى أمور غير محسوسة ومعلومة ، وأن يَصل بترتيبها عِلمياً بالاستعانة بذخيرة هذه المعلومات والمبادىء والمقدِّمات ، إلى نتائج لم تكن حاصلةً له من قبل ، وما كان يُمكنه الحصول عليها ، بالاعتمادِ على الحواس والتجارب ، فإننا إذا نقدنا جميعَ المعقولات وحلَّلناها تحليلاً علمياً ، يتضح لنا أن العقل لم يصل إلى هذه الحقائق الدقيقة والمعارف العالية إلا عن طريق هذه المحسوسات التافهة ، والمعلومات البدائية البسيطة ، التي لم تكن تُؤدِّي بنفسها - من غير مساعدةِ الترتيب العقلي والعلمي - إلى هذه النتائج الخطيرة ذاتِ القيمة العظيمة .

فمِنَ الظاهر البديهي أن المجالات التي لا تستطيع الحواس البشرية أن تعمل فيها ، ولا تملكُ أيَّ ركيزة لمعلوماتها الأساسية ، ولا تَعرِف مباديها وأولياتها ، ولا يُمكن أن يكون لديها أيُّ تقدير وتجربة لحقيقتها ، ولا دخلَ للقياس فيها ، فأنّىٰ للعقل والذكاء والقياس والتَّخمين أن يصول فيها ويجول؟!

إنَّ العقل ليعجز فيها عن أن يصل إلى نتيجةٍ ما من النتائج ، ويَقِفُ مَقْصُوص الجناح ، مثلما يعجز الإنسان عن أن يَعْبُر البحر بغير سفينة ، أو يطير في الجو على غير طائرة ، وليس في إمكان أي فَطِن ذكيٍّ أن يَحلَّ مسألة في علم الرياضيات من دون أن يكون له علم بالأعداد والحِساب ، كما أن مَن لم يَعْرِفِ الخَطَّ المستعمل في لغة من اللغات ، ولا يَعْرف حُرُوفها الهجائية (Alphabet) لا يستطيع أن يقرأ سطراً واحداً من هذه اللغة مهما كان ذكاؤُه وعبقريته ، ومهما استخدم العقل والقياس ، ومهما كدَّ وجدَّ ، كذلك يستحيل أن يستقِلَّ العقل في الإجابة عن هذه الأسئلة الخطيرة لأن الإنسان لا يعرف مباديها وأوَّلياتها ، وهي لا تقبل القياس والتَّقدير .

والحقيقـة الثانيـة أنَّ قوَّة العقل ، ودائرةَ عمله ضيِّقة محدودة ، فلهُ نطاقٌ لا يتعـدَّاه ، وكمـا أن القِـوىٰ الحِسِّيَّـة فـي الإنسـان لهـا دوائـرُ ومجـالاتٌ لا تتجاوزها ، فحاسَّةُ البصر تلتقِطُ آلافاً من المُبْصرات ، ولكنَّها لا تستطيع أن تسمعَ ولا صوتاً واحداً ، وكذا الحواس الأخرىٰ ، ثم إن قوَّة هذه الحواس وعَمَلَها في دوائرها الخالصة ، وفي محسوساتٍ خاصَّة ، ليست مُطلَقة غيرَ محدودة.

كذلك العقـلُ بالرغـم من أنَّ مجـاله أفسـح ، ودائرتـه أوسع من هذه الحـواس الظـاهـرة إلاَّ أنَّــه محــدود ، لا يتعــدَّىٰ طــورَه ، وفـي تعبيــر ابن خلدون العلمي الدقيق:

«العقلُ ميزانٌ صحيحٌ، فأحكامه يَقينيَّة لا كذب فيها، غير أنَّك لا تطمح أن تَزِن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصِّفات الإلٰهية وكل ما وراء طوره ، فإن ذلك طَمَعٌ في محال ، ومثال ذلك رجل رأىٰ الميزان الذي يُوزن به الذَّهب ، فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لا يدُلُّ على أنَّ الميزان في أحكامه غيرُ صادق ، لكنَّ العقل قد يَقِفُ عنده. ولا يتعدَّىٰ طوره حتىٰ يكون له أن يُحيط بالله وبصفاته ، فإنَّه ذرَّة من ذرات الوجود الحاصل منه» (١).

والحقيقةُ الثالثة أنَّ العقلَ يستعصي عليه التجرُّد الكامل من الشوائب الخارجية ، والحياد التام في الأحكام والنتائج ، ويَعرف العلماء المطَّلعون على حقيقته ، أنه ليس هناك شيء أندر في الوجود من «العقل الخالص» و«العقل المجرد» ، فإنه يَصعب عليه التحرر والانطلاق من تأثير العواطف والرغبات ، والمُيول والنزعات ، وتأثير البيئة ، والتربية الخاصة ، والدراسة الخاصة ، والعقائد والنَّظريات الخاصة ، وتأثير الوهم والخيال ، والسَّهو والنِّسيَان ، ولأجل ذلك فإنه من المُستبعد أن تكون أحكامه صادقة ـ دائماً ـ ونتائجه حتمية يقينية.

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣٦٤ ـ ٣٦٥، طبعة دار الفكر ـ بيروت.

ولكنَّ الذي يُستغرَب ويُتعجَّب منه أن الفلاسفة ـ بِصَرفِ النَّظر عن هذه الحقائق البيِّنة كلها ـ أخطؤوا في تحديد موضوعهم ، وبحثوا في ذات الله وصفاته ، وما يتعلَّق بها من أمور غيبية من غير أن تكون لديهم موادُّ هذا الموضوع وعُدَّته ، ومن غير أن يكونوا على علمٍ وبصيرة ، في تفصيل وتدقيق ، وثِقةٍ واعتماد لا يليق إلا بالخبير الكيمياوي الذي يقوم بالتحليل والتجزئة ، والفحصِ والدِّراسة في المعامل الكيمياوية ، فكانتْ بحوثهم وتدقيقاتهم هذه عِبارة عن الظنِّ والتَّخمين ، ومجموعة طلاسم خيالية ، وبناءً واهياً على أساس القياس المجرَّد ، وهي في علم الإلٰهيات بمثابة «حكايات ألف ليلة وليلة» و«قصة عنترة» [١] مما سَنَقِفُ على نماذج منها في السطور الآتية .

وبإزاء هذه المحاولة العقلية والفلسفية ، محاولةٌ أخرىٰ ، وهي «الإشراق» ومن مبادئه الأساسية أن العقل ، والعلم والبرهان ، والاستدلال ، لا تنفعُ في البحث عن اليقين والوصول إلى الحقِّ شيئاً ، بل ضررُها أكبر من نفعها ، وأن الشرط الأساسي لمعرفة الصِّدق والحقيقة هو الشُّهود أو المشاهدة ، ولاتتيسر هذه المشاهد إلاَّ بنُور الباطن ، وصفاء النَّفس، وتنبيه حاسَّة داخلية تُدْرك الحقائق الروحية، وما وراء الطبيعيات، كما تُدرك هذه العيون الظاهرة الأشياء المبصرة الظاهرة ، ولا تتولَّد هذه الحاسة إلا بالقضاء على المادية ، وإماتة الحواسّ الظاهرة إماتة كاملة ، فهذه الحِكمة الإشراقية، والنُّور الباطني الذي ينشأ بالرياضات والمجاهدات ، والتأمُّلات والمراقبات ، ويكون مُجَرداً خالصاً عن كلِّ شائبة من شوائب العالم الخارجي ، هو الوسيلة الوحيدة للحصول على الحقيقة .

إنَّ وجود هذه الحاسَّة الزائدة أمرٌ لا شكَّ فيه ، بل يمكن أن تكون هناك حواسّ أخرىٰ كهذه ، ولكن على كلِّ حالٍ فإنها حاسَّة إنسانية ضعيفة محدودة ،

---

(١) مجموع حكايات وأساطير .

مثل الحواس الأخرىٰ ، قابلة للخطأ والتأثر بالعوامل الخارجية ، شأنَ سائر القوىٰ الإنسانية ، ووسائل الكشف للعلم ، وما الدليل على أن هذه الحاسة ليست محدودة ، ولا قابلة للأخطاء ولا تتعرَّض محسوساتها ومشاهداتها للغلط ، والانخداع ، والغرور بالنَّفس؟ ولو كان الأمر كذلك لما كان في نتائجها تعارضٌ ولا تناقضٌ ، ولم يخالجها اضطرابٌ أو إمكانٌ للخطأ ، ولم تتورَّط في مزالق وأغاليط في القضايا المهمة الحاسمة كما هو الواقع (١).

وعلى كلٍّ فإنَّ هذه «الحكمة الخاصَّة» يصعُبُ عليها كالعقل أن تتجرَّد تجرُّداً كاملاً ، فإنها كذلك تتأثَّرُ بالعوامل الخارجية ، والأشياء الظاهرة والباطنة وتنعكس عليها ظِلالها وأشباحُها ، ولا تُصوِّر هذه المرآة كذلك الحقائِقَ تصويراً صحيحاً ، وتَنطبع عليها آثار البيئة الإشراقية ، وعقائدها ومُسلَّماتُها ، وتتأثَّر مشاهداتُها هذا التأثر الخفيَّ الدقيق ، ولأجل ذلك كان كثيرٌ من الإشراقيين يَرَون في كشوفهم ومُشاهداتهم تأييداً لكثيرٍ من الأساطير والخرافات اليونانية والمصرية ، التي لا يُسيغُها العقل ، ولا تقوم إلاَّ علىٰ أساس الوهم والخيال ، وتَتشكَّل كثيرٌ من الفَرَضِيَّات والتخمينات ، بِشَكلِ الحقائقِ الثابتة ، والمُسلَّمات البديهية ، وليس لها في العالم الخارجي وُجود (٢).

ثم إنَّ هذه التساؤلات المذكورة ـ أعلاه ـ كما هي خارجةٌ عن نطاق الفلسفة وحُدُودِها ، كذلك هي خارجة عن نطاق الإشراق وحدوده ، إنه قد يُساعد في اكتشاف أسرار عالم الأرواح وعجائبه ، ويَرىٰ صُوراً وألواناً ، ويَسمع أصداءَ

---

(١) راجع للأمثلة والتفاصيل كتاب المؤلف «بين الدين والمدنيَّة»، ص ٢٨ ـ ٢٩ الباب الأول خاص ببحث «الإشراق». [هذه محاضرة ألقاها العلامة المؤلِّف في الجامعة الملِّية الإسلامية بدهلي (الهند) عام ١٩٤٢ بعنوان «بين الدين والمدنيَّة» اقرأها في «محاضرات إسلامية في الفكر والدَّعوة للعلامة الندوي» ج ٣ ، ص ٢٦٩ ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.

(٢) انظر «بين الدين والمدنية» للمؤلف، ص ٣٦ ـ ٣٧.

وأصواتاً ، لكنَّه على جَهْلٍ تام بالعلم التفصيلي لمشيئة الله ، وقوانينِه وأحكام شريعته ، وأحوالِ الدار الآخرة وحقائقها ، كما يَجْهلُها الإنسان العادي الذي لم يعرف مبادىء الإشراق (١) .

والحقيقةُ أنَّ كُلاًّ من الفلسفة والإشراق يتَّجهان اتجاهاً واحداً ، وتُسيطرُ عليهما رُوحٌ واحدة ، وكلاهما يُحاولان التوصل إلى الحقيقة بطَرح وساطة الأنبياء والمرسلين ، وأن غاية الفريقين واحدة ، وإن تعدَّدت الطرق ، فأحدهما يريد الوصول إلى غايته مشياً على الأرض ، وآخر عن طريق التَّحليق في الجو ، أو عن طريق خفيٍّ من سردابِ (الطريق الروحي الإشراقي) (٢) .

ولكنَّ الحقيقة ، ولُبَّ لُباب العلمِ والعِرفان أنه لا طريق إلى هذه الحقائق والمعارف ، إلاَّ طريق الأنبياء الذين شرَّفهم الله ـ تعالىٰ ـ بمَنصب النبوَّة والرِّسالة ، ورزَقهم أكبرَ قِسطٍ من العلم بذاته وصفاته ، وبملكوتِ السَّموات والأرض ، وأخبرهم ـ مباشرة ومن دون وسائط ـ بما يَرضاه وما لا يرضاه ، وبما يأمره وما ينهىٰ عنه ، وجَعَلَهم وسائط بينه وبين خلقه، وأنَّ نبوَّتهم ورسالتهم مِنَّة عظيمة على هذه الدنيا ، ونعمة ظاهرة ، وما يُعطونه من علم جليل بذات الله وصفاته العليا ، وأسمائه الحسنىٰ ـ من غير مشقَّة ، وبدون مُقابل ـ لا يمكن إحراز ذَرَّةٍ من ذرَّاته بالتأمُّلات الفلسفية، والبحث والاستدلال على مدىٰ آلاف السنوات ، وبالمجاهدات الشاقَّة ، وتصفية النَّفس ، والمراقبة والتَّفكير لأعوام وسِنين .

﴿ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف : ٣٨] .

وما أصدق ما قال القرآن : ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ ، نَعَمْ إن الفلاسفة والإشراقيِّين لا يُقدِّرون هذه النعمة ، ولا يشكرون هذه اليد

(١) انظر «بين الدين والمدنية» للمؤلف : ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٢) المصدر السابق : ص ٢٧ ـ ٢٨ .

المعطاءة ، ويُريدون أن يصلوا إلى الحقائق بمجادلاتهم الكُلِّيَّة التي قد أغناهم الله عنها ، وليْست نتيجةُ هذه الجهود والمحاولات عَبرَ الآلاف المؤلَّفة من القرون إلاَّ أقوالاً يَنْقُض بعضها بعضاً ، وتحقيقاتٌ تتصادم وتتعارض ويضحك عليها صبيان الكتاتيب.

وهي كُلُّ تُراثهم ومتاعهم في علم «الإلٰهيَّات» ، وأنَّهم بدل أن يُقرِّبوا أتباعهم وتلامذتهم إلى ربهم، أبعدوهم عنه، وأوقعوهم في الجهل المُشين بذات الله وصفاته ، وقلَّة اليقين ، والاستغناء عن الرجوع إليه ﴿ ۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم: ٢٨] .

إنَّ الإمام السَّرهندي على علمٍ عميق ، ودِرايةٍ كاملةٍ بكلتا الناحيتين ، «الفلسفة» و«الروحانية» وهو ـ على جانبٍ آخر ـ من وَرثة علوم الأنبياء والمُرسَلِين ، والعارفين البصيرين بمكانة الوحي والرسالة ، فكان نَقْدُه للفلاسفة والإشراقيين نَقْداً عِلمياً موضوعياً ، يَدلُّ على جامعيَّته ورُسوخه في العلم ، وأن هذا المبحث المهم هو النُّقطة الرئيسية والمِحْوَر الأساسيَّ لعَمَلِه التجديدي العظيم.

لأنَّ أساس الشريعة الإلٰهيَّة ، والنظام الديني بأسره يقوم على البَتِّ في هذه القضية ، والحكمِ الحاسم فيها ، وهي أنه ما هو المنبع الأصلي، والمصدر الأساسي للحصول على العِلمِ القطعي، واليقين الذي لا يداخله شك ، والمعرفة الضرورية للذات الإلٰهيَّة وصفاتها ، وبَدء الكائن الإنساني ونهايته ، ونجاحه وسعادته؟ هل يكون مَصدرها التأمُّلات الفلسفية ، والبحثُ العلمي والاستدلال المنطقي ـ الجوانب التي تمثِّلها الفلسفة ـ أو النُّور الباطني ، ومجاهدة النفس وتصفية القلب ، وتزكية الباطن ، والمشاهداتُ والكشوفات التي تحصل من الحواسِّ الباطنة ، والقوىٰ الروحية ـ الجوانبُ التي يُمثِّلها «الإشراق» ـ؟ أو أن مصدرها اتِّباع الأنبياء والإيمانُ بهم والتَّسليم لهم؟

هذه هي نُقطة البداية التي تتفرَّق منها السُّبُل ، وتتَّجه هذه الجهات الثلاثة ، فلا تلتقي ولا تتصافح أبداً ، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣] .

وما صدر في هذا الصَّدد بقلم الإمام السَّرهندي ، من تحقيقات نادرة، وعلوم دقيقةٌ ومعارف عالية متناثرة في المجاميع الضخمة لرسائله العلمية القوية ، أُقدِّم ترجمةَ شيءٍ منها بعناوين مختلفة معبرة :

قُصور العقل وعَجزه في إثبات صانع الكون ومعرِفة صفاتهِ الكاملة:

«نحمدُ الله ـ عزَّ وجل ـ الذي أنعم علينا بالهداية إلى الإسلام ، وجعلنا في أمة محمد ﷺ وأن الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصَّلوات والتسليم ـ رحمة للعالمين ، لأنَّ الله عزَّ وجلَّ ـ أخبرنا نَحن أصحاب العقول القاصرة ، والأذهان الكليلة العاجزة ـ عن طريقهم ـ بذاته العلية وصفاته العظيمة ، وخاطبنا في بيان صفاته الكاملة ، وذاته الجليلة على قدر عقولنا المحدودة ومداركنا الضعيفة ، وميَّز بين ما يرضاه تمييزاً تاماً ، وأوضح لنا المنافع والمضارَّ في الدنيا والآخرة .

فلو لم تكنْ بيننا وبينه وساطةُ هؤلاء المُصْطَفَينَ لَعَييتِ العقُول البشرية ، وعَجزت عن إثبات صانع هذا الكون ، وباءت بالخيبة والكلال في معرفة كماله وعظمته .

لقد كان الفلاسفة القدماء الذين كانوا يَعتبرون ـ أنفسهم حُكماء أذكياء ، أنكروا صانع الكون ، ونسبوا الأشياء ـ لقصور أفهامهم وضَعف مداركهم ـ إلى الدَّهر ، وأن مناقشة نمرود مع إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ في خالقِ الأرض والسموات ، معروفة مذكورة في القرآن الكريم ، فكان فرعون الشقي يقول: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] ، وقال مخاطباً لموسىٰ ـ عليه السلام ـ: ﴿ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٩] ، وهو ذلك الشقيُّ المحروم الذي وجَّه خطابه إلى هامان: ﴿ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧] ، فخُلاصة الأمر أن العقل كليلٌ عاجزٌ كلَّ العجز عن الوصول إلى هذه الثروة العظيمة ، وأن لا سبيل إلا هُدىٰ الأنبياء وتعاليمهم»[1] .

سفَاهاتُ حُكماء اليونان في المعرِفة الإلٰهية:

إنَّ خالق هذا الكون ومُنَظِّمه وحاكمَه الذي يُسمِّيه فلاسفة اليونان «المبدأ الأول» ، الذي بَحث في كيفية خلقه ، ونشأة الكون من أمره هؤلاء الفلاسفة ، لو شَقُّوا الشعرة ، وتخيَّلوا أموراً ، وافترضوا افتراضات ، ثم بنوا على هذا الأساس الخِياليِّ المنهار عمارات شاهقة ، ناطحةً للسَّحاب ، يتكفَّل بشرحها وتفصيلها كتب الفلسفة ، وتعلق عليها وتنقُدها كُتب العقائد وعلم الكلام ، فيمكن أن يراجعها القارىء للوقوف على تفاصيلها ، وليس هنا مجال لإثارتها ومناقشتها.

ولكن ينبغي ، لإدراك أفكار الإمام السَّرهندي وآرائه ، ومعارفه العالية ، وللاطِّلاع على ذلك العامل الذي يُفجِّر قلم الإمام كالشَّلال الهادر ، ويَدفعه في قوة وحماس للردِّ على تلك الأخيلة والافتراضات التي اخترعَتْها الفلسفةُ بقوَّتها المتخيِّلة ، وَبنتْ على أساسها كُل ما بنتْ ، أن نُقدِّم هنا «شجرة نسب» العَقْل الفعَّال الذي هو المؤثِّر الأصيل ، والمدبِّر الحقيقي لهذا الكون عند فلاسفة اليونان ، فصوَّروها ، ووضعوا عليها أساس الخَلْق والأمر ، وهناك آلافٌ من الأدلَّة والبراهين مؤيِّدة لها أو معارضة ، ولكننا هنا نقتصر على ذكر هذه الشجرة فحسب :

«المبدأ الأول واحدٌ من كل وَجه ، ومن المُسلَّم أن الواحد لا يصدر منه إلا الواحد ، والعالَم مُركَّب من أشياء مختلفة ، فلا يُتصوَّر أن يكون فعلاً لله. والمبدأ الأول فاض من وُجوده العقل الأول ، وهو موجودٌ قائمٌ بنفسه ، ليس بجسم ولا مُنطَبع في جسم ، يَعرف نفسه ويعرف مَبدأه ، وقد سمَّيناه العقل

(١) الرسالة رقم: ٢٣ المجموعة الثالثة كتبها إلى خواجة إبراهيم قياذياني.

الأوَّل ولا مشاحَّةَ في الأسامي ، سُمِّي ملكاً أو عقلاً أو ما أُرِيدَ ، ويَلزم عن وجوده ثلاثة أمور: عقل ، ونَفس الفَلك الأقصىٰ وهو السماء التاسعة ، وجُرم الفلك الأقصىٰ ، ثم لزم من العقل الثاني عقلٌ ثالث ، ونَفس فَلك الكواكب وجُرمه ، ثم لزم من العقل الثالث عقل رابع ، ونَفس فلك زُحَل وجرمه ، ولزم من العقل الرابع عقلٌ خامس ، ونَفس فلَك المُشتري وجرمِه ، وهكذا حتىٰ انتهىٰ إلى العقل الذي لزم منه عقلُ نفس فلَك القَمر وجُرمه ، والعقل الأخير وهو الذي يسمَّىٰ العَقل الفعَّال ، لزم منه حشو فَلَك القمر ، وهي المادة الكاملة للكون والفساد ، من العقل الفعَّال ، وطبائع الأفلاك.

ثم إنَّ المواد تمتزج بسبب حركات الكواكب امتزاجات مختلفة ، يحصل منها المعادن والنبات ، والحيوان ، . . . الخ. فخرج منه أن العقول عشرة والأفلاك تسعة» [١].

هذا هو عِلم الأصنام لدىٰ حُكماء اليونان ، الذي سمَّوه الفلسفة وعلم الإلٰهيات ، وبدأ الناس يتأمَّلون فيه ، ويتناقشون بجد وإخلاص ، أو أنها الأساطير الخيالية ، والافتراضات الوهمية ، وروايات ألف ليلة وليلة ، يتذكَّر الإنسان تلقائياً عند الوقوف عليها، قول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا ﴾ [الكهف: ٥١].

وما أصدق ما قال الإمام الغزالي بعدَ نقل هذه الشجرة الوهمية الباسقة:

«ما ذَكرتُموه تَحكُّمات ، وهي على التَّحقيق ظُلُماتٌ فوق ظُلُماتٍ ، لو حكاه الإنسان عن منام رآه ، لاستُدِلَّ به على سوء مِزاجه» [٢].

وقال في موضع آخر: «فَلَسْتُ أدري كيف يَقْنع المجنون من نفسه بمثل هذه الأوضاع فضلاً عن العقلاء الذين يشُقُّون الشَّعْرةَ بزعمهم في المعقولات» [٣].

---

(١) تهافت الفلاسفة: ص ٢٩ـ ٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص ٣١.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٤.

إنَّ هؤلاء الفلاسفة سَلَبُوا من ذات الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ كُلَّ صفات الجلال والكمال ، ونَفَوا خَلْقَه وإبداعه لجميع المخلوقات ، ونَفَوا عنه القُدرة والاختيار ، وأثبتوه جامداً لا يتحرَّك ولا يعمل ، وفعلوا كل ذلك ـ بزعمهم ـ لتنزيه «واجب الوجود» ، وتقديسه وتعظيمه ، ولا يتمالك الإمام الغزالي بهذه المناسبة إلاَّ أن يقول :

«ومَن قَنع أن يكون قولهُ في الله ـ تعالىٰ ـ راجعاً إلى هذه الرُّتبة ، فقد جعله أحقرَ من كُلِّ موجود يَعْقلُ نفسه ، ولا يعقل غيره ، فإنَّ من يَعقله ويَعقلُ نفسه أشرف منه ، إذا كان هو لا يَعقلُ إلاَّ نفسه ، فقد انتهىٰ بهمُ التَّعمُّق في التعظيم إلى أن أبطلوا كلَّ ما يُفهم من العظمة ، وقرَّبوا حاله من حال الميِّت الذي لا خبرَ له بما يجري في العالم إلاَّ أنه فارقَ الميت في شعوره بنفسه فقط ، وهكذا يَفعل الله بالزائغين عن سبيله والنَّاكبين عن طريق الهدىٰ ، المنكرين لقوله تعالىٰ : ﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ [الكهف: ٥١] . الظَّانِّين بالله ظنَّ السوء ، المعتقدين أن أمور الربوبية يستولي على كُنهها القِوىٰ البشرية ، المغرورين بعقولهم ، زاعمين أنَّ فيها مندوحة عن تقليد الرُّسل واتباعهم ، فلا جَرَم اضطروا إلى الاعتراف بأنَّ لُباب معقولاتهم رجعتْ إلى ما لو حُكيَ في منام لتُعُجِّبَ منه»[1] .

وتنبعث في الإنسان عواطف الشكر والتَّقدير عندما يرىٰ للفلسفة وتأملاتها هذا المصير ، ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] . وأن هذا الإخفاق الذَّريع في القضايا الإلٰهيَّة الذي مُنيَ به فلاسفةُ اليونان وحُكماؤها ـ الذين أحرزوا النجاح بعقلهم وذكائهم في العلوم الرِّياضية ، والعلوم التطبيقية ـ وهذا العجز والقصور الذي أُصيب به العقل في هذا المجال موضعُ عبرة ودرس ، حيث إنَّهم نسبوا إلى الله ـ سبحانه وتعالىٰ ـ ما يستنكفون عن نسبته إلى أنفسهم وإلى أحقر المخلوقات في العالم ، وقرَّروا أنه فاقدُ القُدرة

---

(١) تهافت الفلاسفة : ص ٣٢ .

والعلم والاختيار، ليس له دَخْلٌ في إحداث العالم، وظنُّوا ذلك غاية التنزيه والتَّقديس: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الصافات: ١٨٠-١٨٢].

ولْنُلْقِ نظرةً على أقوال الإمام السَّرهندي وتحقيقاته التي اقتطفناها من رسائله يقول:

«إذا كان العقلُ يكفي للمعرفة الإلٰهيـة، لِمَا كان فلاسفةُ اليونان - الذين جعلوا العقلَ إمامهم وقائدهم - حيارىٰ تائهين في بَيْداء الضَّلال، ولكانوا أعلم بالله، وأعرف به من غيرهم، والحالُ أنهم أجهل الناس لذات الله - عزَّ وجلَّ - وصفاته وأسمائه، إذ أنَّهم ظنُّوا لله - تعالىٰ شأنه - وُجوداً يتَّسم بالتعطُّل والبِطالة، ولا يعتقدون أنه خلق شيئاً سوىٰ شيء واحد، هو «العقل الفعَّال»، وقد كان صدوره من الله - تعالىٰ - اضطراراً لا عن قدرة واختيار.

إنَّهم هم الذين اخترعوا - بعقولهم - العقل الفعَّال، فينسبون الحوادث إليه، بدلاً من أن ينسبوها إلى خالق الأرض والسموات، ويفتَرون أنَّ الأثر ليس بالمؤثِّر الحقيقي، بل بما زوَّروه من العقل الفعَّال، لأنَّ المعلول عندهم نتيجةٌ للعلَّة القريبة، ولا دَخل في حصول المعلول للعلَّة البعيدة، ويَظنُّون - بجهلهم وقلَّة فهمهم - أنَّ عدم نِسبة هذه الأمور إلى الله - تعالىٰ - من صميم تنزيهه، وعظيم كماله، ويَرون بطالته وتعطُّله عن أيِّ عمل، من تعظيمه وتقديسه، والحقيقةُ أن الله - عزَّ وجلَّ - يصف نفسه بأنه خالق السموات والأرض، ويعرف بذاته بأنه ﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ ﴾ [المزمل: ٩].

إنَّ هؤلاء السُّفهاء يعتقدون - في زعمهم - أنَّهم في غِنىً عن الله، وعن الخضوع والإنابة إليه، فليُنيبوا - إذاً - إلى «عقلهم الفعَّال» لطلب الحاجات وتلبية الضرورات، لأنه هوَ - في نظرهم - صاحبُ السلطة الحقَّة، والقُدرة الكاملة.

بل إنَّ «العقل الفعَّال» أيضاً - كما يزعمون - مَقهُورٌ غيرُ قادر على أداء أعماله؛ فطَلَبُ الحاجات منه كذلك أمرٌ غير معقول ومُستساغ.

والحقُّ أن هؤلاء كما وصفهم القرآن الكريم لا وكيل لهم ولا نصير: ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١١] ، لا ربُّ السموات والأرض ينصُرهم ، ولا «العقل الفعَّال» يُسْعِفُهم.

وما هو هذا العقل الذي يُدبِّر الأمور ، ويُنسب إليه خلق الحوادث ، وإبرازها إلى هذا الوجود؟.

إنَّ هناك آلافاً من الاعتراضات على ثُبوت هذا العقل ووجوده ، إذ أنَّ ثُبوته ووجوده قائمان على مقدِّمات فلسفية مفتَرضة ، ناقِصة مخدجة في ضوء أصول الإسلام الصحيحة وقواعِده الثابتة.

وليس من يصرف الأشياء عن الإله القادر المُريد والمُختار ، ويَنسبها إلى الأشياء المُتوهَّمة المفترضة ، إلاَّ سفيهاً يستحقُّ الحَجْرَ ، بل إن هذه الأشياء نفسها تُشعر بالذُّلِّ والعار في نِسبة خَلقِها وإيجادها إلى شيء اختلقته الفلسفة ، ولا نصيبَ له من الواقع ، وإنها لترضىٰ بالفناء ، وتحمد الموت والبِلىٰ ، ولا ترغب في الحياة والبقاء مُقابل أن تُنسب إلى شيء فَرضي وهمي لا أصل له في الواقع ، وتُحرَم السَّعادة العظيمة في نسبتها إلى القادر القوي المختار ، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥] .

إنَّ الكفرة المشركين في دار الحرب ـ رُغم عبادتهم للأصنام والأوثان ـ خيرٌ من هؤلاء الفلاسفة ، إذ أنهم يتضرَّعون إلى الله عند الشَّدائد والكُرُبات ، ويتوسَّلون بأوثانهم وأصنامهم إليه.

وأَغربُ مِن ذلك أن فريقاً من الناس يدعو هؤلاء السُّفهاء (فلاسفة اليونان) بالحُكماء ، ويَنسبهم إلى الحكمة ، إنَّ معظم تحقيقاتهم في القضايا الإلٰهية ـ التي هي المبحث الأسنى ـ خاطئةٌ ، مُعارضة للكتاب والسُّنَّة ، فما هو وجه تلقيبهم ـ وجُلُّ مباحثهم جَهْلٌ وسفاهة ـ بالحكماء ، اللَّهم إلا أن يكون سُخرية منهم ، وضحكة عليهم ، أو كما يُدعىٰ الأعمىٰ بالبصير»[1] .

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى خواجه إبراهيم قياداني.

لا كِفايةَ لَدَىٰ العقل في إدراك الحقائقِ الدينية:

«﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] ، بأيِّ لِسان نشكر الله ـ تعالىٰ ـ ونحمده على إنعامه علينا ببعثه الأنبياء والمرسلين عليهم الصلوات والتسليم ، وبأي قلب نؤمن بذلك المنعم الجليل ، وأين الجوارح التي تُكافىء بالأعمال الحسنة هذه النعمة العظيمة؟ ، فلولا وجود هؤلاء ذوي الخيرات والبركات من كان يهدينا ـ نحن القاصري العقول ـ إلى الإيمان بوجود خالق السموات والأرض وتوحيده ، فإن فلاسفة اليونان المتقدِّمين ـ رغم ذكائهم وألمعيَّتهم ـ لم يَهتدوا إلى خلق السموات والأرض ، ونسبوا خلقَ الكون إلى الدَّهر .

ثم لمَّا ظهرت دعوةُ الأنبياء عليهم الصلاة والتسليم وتجلَّت ـ على مرِّ الأيام ـ للعَيان ، نَهَض الفلاسفة المتأخرون ـ بتأثير هذا النور وبركته ـ للردِّ على مذهب الفلاسفة المتقدِّمين واعتقدوا بوجود صانع الكون ، وأقرُّوا بتوحيده ، فعقولنا ـ بدون نور النبوَّة ـ عاجزةٌ قاصرة ، وإدراكنا من غير وساطة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ كَلِيلٌ حَسير» (١) .

طَوْرُ النُبُوَّة وراء طَوْر العقل:

«إنَّ طور النبوَّة وراءَ طور العقل والتَّفكير ، فالحقائقُ التي يَعجز العقل عن إدراكها ، تأتي النبوة لتُثبِّتها وتُحَقِّقها ، ولو كان العقل كافياً وحده ، لما بُعث الأنبياء ـ صلوات الله تعالىٰ وتسليماته عليهم أجمعين ـ ولما رُبط عذاب الآخرة ببعثتهم ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] ، والعقل حجة ، ولكنه ليس بحجَّة بالغة ، وليس في حُجَّته بكامل ، وقد تحقَّقتِ الحجة البالغة ببعثة الأنبياء والرُّسل ، ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ فَقطعت ألسنةَ المُكلَّفين ،

---

(١) الرسالة رقم: ٢٥٩، المجموعة الأولىٰ، وهي مكتوبة إلى ابن الإمام السَّرهندي الشيخ محمد سعيد.

وقَضت على معاذيرهم ، يقول الله تعالىٰ : ﴿ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥] .

ولمَّا ثبت عجزُ العقل وقصُوره في بعض القضايا ، فليس من المستحسن أن تُوزن الأحكام الشرعية في ميزان العقل ، وإن محاولة التَّطبيق بين العقل وبين الأحكام الشرعية ـ بصفة دائمة ـ والتزامُ ذلك والتقيُّد به ، حُكم بكفاية العقل وغناه ، وإنكارٌ للنبوة ، أعاذنا الله تعالىٰ منه» (١) .

لا يُمكِن حِياد العقل وتجرُّده ، ولا غناء عنده في معرفة الحقائق الإلٰهيّة ، وإن أمدَّه الإشراق وصَفاءُ النَّفس:

إنَّ ممَّا يبعث على العَجَب ـ ولا يُمكن تأويلُه وتوجيهه إلاَّ أنه قَبس من التأييد الإلٰهي ، وإصابة الفكر ، وسَداد الرأي ـ أنه في هذا القرن العاشر ـ القرن السادس عشر المسيحي ـ الذي كانت تسود فيه العَقلانيةُ ، وكانتِ العلوم العقلية ـ بتأثير مُقررات الفلسفة والمنطق تُسيطر على جميع العالم ـ بصفة عامة ـ وعلى الهند وإيران ـ بصفة خاصَّة ـ التي كانت تقتصر على تدريس الفلسفة اليونانية ، والتي رَفعت أفلاطون وأَرسْطو ، إلى مقام العصمة والقُدسيَّة ، حتىٰ كان الاستنتاج العقلي من المُقدِّمات العقلية ، على الطريقة المنطقية ، والتصريح بما صرَّح به فلاسفة اليونان ، وقَرَّرُوه من القطعيات البديهيات ، يُخرِس الألسنة الذَّلقة ، ويُغشي العُيون المُبصرة ، بل كان عُبَّاد الفلسفة والمنطق يَسجدون عن طوعٍ وخضوعٍ أمام هذه الحقائق «المزعومة» .

في مِثل هذا الجوِّ رفع الإمام السَّرهندي صوته ـ لأوَّل مرة ـ في حدود علمي ، بين علماء الإسلام ـ : إن تجرُّد العقل عن صِلة الجسم المادي ، وعن الأوهام والتصورات ، والعقائد ، والمسلَّمات السائدة في بيئته ومحيطه ، وتحرُّره عن الميول النفسية ، والرَّغبات الداخلية ، والأخلاق المتمكِّنة ، والعادات الرَّاسخة شِبْه مستحيل ، حتىٰ ولو كان الإشراق وصفاء النفس يرافقانه

(١) الرسالة رقم: ٣٦، المجموعة الثالثة كتبها إلى الشيخ مير محمد نعسان.

في الطريق ، ويمدانه بالمعونة ، فإن وصوله ـ متحرراً متجرِّداً عنِ التأثيرات الخارجية والداخلية ، والدراسة والتربية ، والمجتمع والبيئة ، ومما رسَّخت جذورها فيهما من عادات وتقاليد ، وأصبحت بمنزلة المسلَّمات والبديهيات ـ إلى حقيقة الأمر الواقع الصحيح وإصدار الحكم المنصف الحاسم ، ليس إلاَّ شُذوذاً ، و«الشَّاذ» كالمعدوم لا احتجاج به ولا اعتماد عليه .

إنَّ هذا التَّحقيق الدَّقيق الذي كشف الإمام عن سِرِّه ، وضغط في رسائله ـ عليه مرَّات وكَرَّات ، ليس كشفاً جديداً لعَصْره وبيئته ، بل إنما هو اكتشافٌ خطير في عالم الأفكار والدِّراسات العلمية ، وإعلانٌ تجديدي جريء ، لم يُقدَّر حَقَّ قَدْره ، ولم تُعرف قيمتُه وأهميَّتُه حتىٰ الآن ، بيد أنه كان يستحقُّ أن يُجعل موضوعاً مستقلاً للبحث والتَّحقيق ، والشَّرح والتَّفصيل .

ومِن عجيب المصادفة ، وتوارُد الخاطر ، أنَّ الفيلسوف الألماني الشَّهير عمانويل كانت (Emanuel Kant.1724-1804) بدأ ـ بعد قُرابة قرنين من وفاة الإمام السَّرهندي ـ البحث الموضوعي ، والتَّحقيق العلميَّ في صلاحية العقل لتجرُّده وتحرره عن البيئة وعوامل الوراثة ، والعادات والمعتقدات ، والحكم الفاصل في قضية ما من القضايا ، إنه عَيَّن حُدود العقل ودوائره في شجاعة ووضوح ، ونشر كتابه الخطير «نقد العقل الخالص» Critique of Pure Reason عام ١٧٨١م ، الذي أحدث هزَّة واضطراباً في الأوساط الفكرية والفلسفية ، وكما يقول الدكتور إقبال: «إنه هدم أعمال المتنوِّرين وحوَّلها إلى كومةٍ من تُـراب» (١) .

وقد أشاد الغَرْبُ بهذا العمل ، واعترفَ بقيمته وخطورته في مجالِ الدِّراسات اعترافاً لائقاً بمكانة الكتاب ، حتَّىٰ قال القائلون: «إنه كان مِنحةً ربَّانيَّة عظيمة للشَّعب الألماني» ويقول مؤلِّف «تاريخ الفلسفة الحديثة» الدكتور هيرالد هوفيدنك ، في تعليقه على هذا الكتاب : «إنَّ هذا الكتاب قطعةٌ

---

(١) (The reconstruction of religion Thought in Islam)

حيَّـةٌ خالدة تدلُّ على عظمة الفلسفة وكمالها ، أضاءت معالم الطريق في متاهات الفكر الإنساني وحيرَته» [١] .

يقول «عمانويل كانت»: «إنَّ الفكر يبدأ بمهمَّته بالدعاوي ، ويعتمد ـ عن غير شعور وفي معظم الحالات لسَذاجته ـ على صِحَّة مُقدِّماته ، ومفروضاته ، وطاقاته ، ويكون على ثقة ويَقين بأنه يَحلُّ جميع المسائل ، ويصل إلى كُنْه الكون ، ثم يأتي عليه زمان يتجلَّىٰ فيه أنَّ هذه الأبنية العقلية والفكرية لا تنطح السحاب ، ولا تسمو إلى الأفلاك ، ولا يمكن الاتفاق عليها على خِطَّة مبنية على الأعداد ، وهذه فترة الارتياب والتَّشكيك ، وقد رأىٰ أنَّ هناك أمراً متروكاً صَرَفَ النَّظر عنه كُلٌّ من الادِّعائيين ، والمُتشكِّكين ، وهو أنه من الواجب علينا البحث في عقلنا ، وإدراكنا ، وماهيَّة علمنا ونوعيَّته ، ونكشف عن نوع الصُّور والقِوىٰ التي نتمتَّع بها لفهم الأشياء وإدراكها ، وإلى أي مدىٰ نستطيع أن نسيرَ في ضوئها [٢] .

ونَوَدُّ أن نقرأ ـ بعد هذا التَّمهيد البسيط ـ التصريحات الواضحة التي صدرت من عالمٍ ومفكِّر مُسلم ـ عاش في الأوساط العلمية والمدرسية المحدودة في الهند ، وجعلَ غاية حياته ، وهدفها الأساسي ، علوم النبوَّة والمعرفة الإلٰهية ؛ ومرضاة الله ، بدلاً من أن يَنصرف كليّاً نحو الفلسفة والمنطق ـ في نقد «العقل الخالص» بعيداً عن ملتوياتها الفلسفية وتَعقيداتها في أسلوب سهل مُبين .

يقول الإمام السَّرهندي ردّاً على سؤال: إنَّ العقلَ رغم كونه بنفسه عاجزاً مشلولاً في الأحكام الإلٰهيَّة ، ولكن إذا نشأتْ ـ بِحُكمِ صفاء النَّفس وإشراق الروح ـ بينه وبين ذات الله تعالىٰ مناسبة خاصَّة ، واتصال خاص غير متكيِّف ، بحيث يُقدر باستعانته على الأخذ المباشر من حَضرة القُدُس ، ولا يحتاج إلى البعثة التي تتحقَّق بواسطة الأنبياء ، فما هو الرأي عندئذ؟ .

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة: ج٢ ، ص ٣٨.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٠ ـ ٣١.

«الإجابة هي أن العقلَ اتصل ، وحصل له من المناسبة مع الله ما حصل ، إلا أنه لا تزول علاقته بالجسم العُنصري بتاتاً ، ولا يَجد إلى التجرد الكامل ، والتحرُّر المطلق سبيلاً .

فالقُوَّة الوهمية تُمسك بزمامه ، والقوة المتخيّلة تأخذُ بلجامه ، وقُوَّة الغضب والشهوة كالظِّل المرافق ، وخِصال الحِرص والطمع الذميمة شعارُه ودثارُه ، والسَّهو والنِّسيان ـ وهما من لوازم الإنسان ـ لا يَبرحان ، والخطأ والغلط ـ وهما من خصائص البشر ـ لا يَزولان ، فليسَ العقل إذاً جديراً بالثقة والاعتماد، وليستْ أحكامه ونتائجه متحرِّرة من قُيود الوهم ، والتصرُّف والخيال ، وليست مَصُونة من اختلاط السهو والنسيان ، وشبه الخطأ والغلط .

بعكس الملك المنزَّه عن هذه الخصال ، والبريء من هذه العيوب والتقصيرات ، فهو ـ لا محالة ـ جدير بالاعتماد ، وأحكامُه ونتائجه محفوظة عن اقتراح الوهم والخيال وشبه السَّهو والغلط والنسيان .

ويُخيَّل ـ في بعض الأحيان ـ أنَّ العلوم التي اكتسبها الإنسان عن الطريقة الروحية تختلِط معها ـ عن غير إرادة وشعور ـ في أدائها إلى القُوى والحواس ـ مُقدِّمات هي عنده قطعيات ، ولكنها غير حقيقية ، بل جاءت عن طريق الوهم والخيال ، حتى يتعسَّرَ بينهما التمييز ، وقد يهتدي الإنسان ـ في حين آخر ـ إلى النقد والتمييز ، وقد لا يهتدي .

فلا جرَمَ أنَّ هذه العلوم ـ لاختلاطها بهذه المقدمات ـ تبقى مَوضع شَكٍّ ، ولا يتحقَّق فيها الصدق ، فلا يمكن الثِّقة بها والركون إليها» (١) .

أصحابُ الإِشراق وصَفاءِ النفس:

قُرِّر من قديم الزمان أن الإشراق وصفاءَ النفس والروحانية ، من الوسائل

---

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولىٰ، كتبها إلى الشيخ خواجه عبد الله، والشيخ خواجه عبيد الله.

البريئة المعصومة عن الخطأ والنسيان للوصول إلى اليقين ، والعلم الصحيح ، وتهذيب الأخلاق ، وتزكية النفس وطهارة الباطن ، وإقامة المجتمع الإنساني ، وبناء المدينة الصالحة على أساسها.

وكانت مصر والهند ـ في العصور القديمة ـ مركزاً كبيراً لهذه الحركة ، وقد ساعد على نشر هذه الحركة وتقويتها وقبولها في الناس ، رَدُّ فعل عنيف نشأ في رُوما ويُونان لمقاومة التطرُّف والمغالاة في تقديس العقل ـ في جانب ـ والعبودية المجنونة للحواس في جانب آخر ، وتمركزت ـ أخيراً ـ في الإسكندرية التي كانت ملتقى العَقليات والديانات الشرقية والغربية.

ويقول دعاة الفلسفة والحركة وأتباعها: إنَّ أكبر وسيلة لتحصيل اليقين والعلم الصحيح ، هو المشاهدة ، التي لا تحصل إلاَّ بصفاء النفس ، ونُور الباطن ، وتَنبيه حاسَّة باطنية ، وأنه ليس في الإمكان التوصل إلى الحقائق إلا بهذا العقل الخالص المجرد (وهوحكمة الإشراق) ، وبالنور الداخلي (نور الباطن) الذي يتولَّد بالرياضة ، ومجاهدة النفس والهوى ، والفِكر والمراقبة.

وإذا سلَّمنا هذه الدعوى ، فمُحَصّلها أن هناك حاسة سادسة (باطنية) تعمل عملها في الإنسان عدا الحواس الخمس المعروفة ، وأَنَّ نتائجها (المشاهدات) تتجلَّى للإنسان أنواراً غير مرئية ، وأصواتاً غير مسموعة ، وحقائق لم تكن معلومة من قبل ، ولكن ما هو الدليل على أن هذه الحاسَّة ليست محدودة ، ولا قابلةً للخطأ والمغالطات كالحواسِّ الأخرى؟.

فلو كان الأمر كذلك لما تطرَّق إلى نتائجها الشك والاحتمال ، وما وُجد فيها التناقض والتعارض ، ولكنَّ تاريخ هذه الإشراقية يدلنا على أَنَّ محسوسات هذه الحاسة الباطنة، وما تُؤدي إليها من نتائج ومعتقدات، تكون مُعَرَّضة للتعارض والاختلاف ، كما يُوجد هذا التعارض والاختلاف في استنتاجات فلاسفة اليونان ، وحُكماء الشرق وعُقلائه.

دَعُوا الإشراقيةَ القديمةَ ـ التي لم يُحفظ تاريخُها ، ولم يُنقل إلينا ، وانظُروا إلى الإشراقية الجديدة (Neo Platonism) تَجدون في الأعمال المترتبة على

عقائد أَئِمَّتها ورُوادها الدينية تَعارضاً بيِّناً ، واختلافاً ظاهراً ، ففلاطينس (Platonus) لا يَعترف بالنِّظام الديني ، والعبادات السائدة في عصره ، وهو فيلسوف حُرٌّ طليقٌ ، يُركِّز على الفكر والمراقبة أكثر من تركيزه على العمل، ولكنَّ تلميذه النجيب بارفري (Parphyre) صُوفيٌّ زاهدٌ متقشِّفٌ، ويقول فلاطينس (Platonus) بتناسخ الأرواح ، وتحوُّل الأرواح الإنسانية إلى الظهور في نفوس حيوانية، ولكن بارفري (Parphyre) لا يُؤمن بذلك .

والرائد الثالث الشَّهير ـ من روَّاد هذه المدرسة الثلاثة ـ براكلس (Proclus) كان متقيِّداً بجميع التَّقاليد والعادات، والطُّقوس المصريَّة، وكان يعبدُ الشَّمس ثلاث مرَّات في النَّهار، وكان مذهبه خليطاً من شتَّىٰ العقائد والدِّيانات، وكان هؤلاء ـ جميعاً من أصحاب المشاهدة واليقين (١) .

وقد عارَضَ بارفري (Parphyre) المسيحيَّة ، وأيَّد قيصر الرُّوم في حركته ، لإحياء الوثنيَّـة والجاهليَّة (Paganism) الرُّوميَّة من جديد ، ولم يمنعه نُور باطنه وصفاء نفسه من ربط مصيره بسفينة الوثنيَّـة ، والجاهليَّة الغارقة .

وإنَّ أهل الكشف والإشراق من المسلمين أيضاً، الذين كانوا يعتمدون على هاتين القوَّتين ، تجد في كشوفهم ومحسوساتهم الباطنة كذلك اختلافاً كبيراً ، وتعارضاً كثيراً ، فإنَّ واحداً منهم يعارض آخر ، ويثبت أنَّ كشفَه بعيدٌ عن الحقيقة ، غيرُ مطابق للواقع ، ويَحمله ـ أحياناً ـ على السُّكر وغَلَبَة الحال ، وتجدهم يصافحون «العقول» ـ التي ليس لها وجود ، إلاَّ في مطاوي الذِّهن ، وبطون الكتب ـ ويُثبتون أنَّهم اجتمعوا بها وقابلوها ، إلى آخر ما هناك ، وإنَّ تاريخ التصوُّف مَليءٌ بهذه الأمثلة والوقائع .

شَيخُ الإشراق شهاب الدِّين السَّهَروَردِيُّ المَقتول:

اشتهر من هؤلاء الإشراقيين المُسلمين في القرن السَّادس الهجري ـ القرن

---

(١) راجع للتفصيل موسوعة الديانات والأخلاق. (Encyclopedia of بعنوان: Neo . PlatonimReligion and Ethics

الثاني عشر الميلادي ـ الحكيمُ الإشراقيُّ الشيخ شهاب الدِّين السّهرورديُّ (٥٤٩ـ٥٨٧ هـ) المعروف بالمقتول ، اشتهاراً عظيماً ، وقد قُتل لآرائه وعقائده المُبَلْبَلة ، والمعارضة للإسلام ، بأمر الملك الظاهر عام ٥٨٧هـ ، وكان يُلقِّب نفسه بالمشَّائيِّ والصُّوفي ، وهو يحمل إضافة إلى التصوُّرات المشَّائية ، كما يقول «S.V.Denbergh» : «تلك الفلسفة الصوفية بحذافيرها ، التي اقتبسها المسلمون من النَّظرية التطبيقية عند اليونان ، ومعتقداتهم ، ووحدة المذاهب والديانات» ، وكما يقول كاتب هذا المقال في «دائرة المعارف الإسلامية» ـ المتقدِّم ذكره ـ :

«إنَّها في الواقع نَظرية النور عند الأفلاطونية الحديثة ، الذي يعتقد فيه أنه الحقيقة الأساسية لجميع الأشياء» (١) .

ويقول الشَّهْرَزَوْرِيّ : «إنه كان جامعاً بين الفلسفة الذوقية (الإشراقية) والفلسفة البحثية (المشائية) وأَهمُّ كتبه «حكمة الإشراق» الذي شرحه العلامة قُطب الدين الشِّيرازي ، وعُرف في الأوساط العلمية الدراسية «بشرح حكمة الإشراق» .

ويرى شيخ الإشراق أنَّ عدد العقُول ليس محصوراً في العشرة ، بل إن لكلِّ نوع من أنواع الموجودات ، عَقلاً خاصاً به ، يَحفظُه ويَكلَؤُه ، ويُسمِّيها شيخ الإشراق بـ «الأنوار المجرَّدة» .

ويرى أن السماء مخلوق حيٌّ تحمل النفسَ المجرَّدة التي تحركها ، وأنها مَصونة من الفساد والعدم ، وأن في السماء نَفساً ناطقة ، ولذلك فإنها تَملك الحواس أيضاً .

ويرى أنَّ جميع السموات مخلوق حيٌّ واحد ، تؤثر عليه الأنوار العالية يَعني عالم المجردات عن طريق الكواكب والنجوم ، وبها تتحرَّك القِوى والأجسام ، وأن أكبر الكواكب هو الشمس ، يَجب في مذهب الإشراقيين

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية .

تعظيمها واحترامها، وأنَّ النور هو صاحب الأمر والنهي ـ مباشرة ، وبوسائط ـ في عالَم الأكوان.

ومِن النُّور تَتولَّد الحركة والحرارة ، وهما عُنصران أكثر توفراً في النار ، فكما أنَّ النفس تُنوِّر عالَم الأرواح ، كذلك النار تُنوِّر عالَم الأجسام ، وقد نصَب الله في كل عالم من هذه العوالم خليفة من خلفائه ، فالعقل الأول في عالم العقول ، والكواكب والنجوم في عالم الأفلاك ، ونفوسُها الناطقة ، والنفوس البشرية في عالم العناصر ، وأشعة النجوم والنار لا سيَّما في ظلمة الليل ، كل هؤلاء من خُلفائه ، أي أنهم يُدبِّرون شؤونها ويُصلحون أمورها ، وأن الخلافة الكُبرى تحصل لنفوس الأنبياء الكاملة ، والخلافة الصُّغرى تتعلَّق بالنار ، لأنها تقوم مقام أشعة النجوم والأنوار العلوية في الليالي المظلمة ، وتُنضج المواد الغذائية ، والمواد الخام.

والعالم ـ عند شيخ الإشراق ـ قديمٌ ، والزَّمان أزليٌّ أبدي ، ولا يقول بتناسخ الأرواح، ولا ينكره «إذ أن أدلَّة الفريقين في هذه القضية غير مقنعة» [(١)].

وهكذا لم تستطع الإشراقية ، وصفاءُ النفس أن يَمنع الحكيمَ الإشراقي النابغة ـ في عصره ـ الذي حاز في الشرق لقب «شيخ الإشراق» ، واعترف معاصِروه بذكائه وتبحُّره في العلم ، وزُهده وتجرده ـ عن أن يقع في التزويرات المَجوسية الإيرانية ، والمفروضات والتحكُّمات اليونانية ، وظل محروماً من المعرفة الصحيحة ونِعمة البعثة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ والهداية المترتبة عليها ، والنجاح في الدنيا ، والسعادة في الآخرة ، وعاشَ حياة متناقضة مضطربة ، مَليئةً بالفوضى والخَيبة والخسران ، وفارق هذه الدنيا ، ولم يُخلِّف من نِظامه الفكري الفلسفي ما يَنفع الخلق ويَهدي الناس.

---

(١) استفيدَ في هذا الفصل من كتاب «حكماء الإسلام» تأليف المرحوم الأستاذ عبد السلام النَّدوي، ج٢، طبع دار المصنِّفين بأعظم كره (الهند).

العَقلُ والكَشف راكبا سفينةٍ واحدة:

لقد أَثار كانت (Kant) شُكوكاً كثيرة في تَجرُّد العقل وتَخلُّصه ، وقرَّر أن صفاءه ، وعدم اختلاطه ، وتحرُّره من التأثيرات الخارجية والداخلية شِبه مستحيل ، ولكنه رجلُ فلسفة لا شأن له بالكشوف والعِلم الباطني ، فلم يستطع أن يتقدمَ خطوة أخرى.

ولكنَّ الإمام السرهندي الذي كان من الغوَّاصين في هذا البحر الخضم ، تقحَّم خُطوة أخرى ، وتناوَل موضوع «الكشف الخالص» و«الإلهام الخالص» ، وأنهما صعبا المَنال ، يَندُر أن يُحصل عليهما ، بشرح وتفصيل ، وقرَّر أن الإشراق ، وصفاءَ النفس ليسا كفِيلين بالوُصول إلى الحقائق الغيبية ، والعلوم التي لا يُخالجها شكٌّ وريبة ، والتي لا يَقِفُ عليها العامة والخاصة ، إلاَّ عن طريق الأنبياء ورسالتهم ، كما أنه لا يُمكن الوصول إلى المعرفة الصحيحة ، ولا الحصول على النجاة من النار ، ولا التزكية الحقيقية ، إلاَّ بالإيمان ببعثتهم ، واتِّباع رسالتهم ، اقرأ ـ فيما يلي ـ بعض رسائله في هذا الصدد:

«اختار هؤلاء السُّفهاء (الفلاسفة) طريقَ الرياضات والمجاهدات اتّباعاً للصوفية الربانيين ـ الذين كانوا في كل عصر يتبعون الأنبياء والمرسلين ـ ونبذاً لطريق الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وانخدعوا بصفاء أوقاتهم ، واعتمدوا على تصوراتهم ورُؤاهم ، وائتمُّوا بكُشوفهم ومشاهداتهم ، فضلّوا وأضلّوا.

إنَّهم يجهلون أن ما يعملونه هو «تصفية النفس» التي تُضلهم وتُغويهم، وليس صفاءَ القلب الذي هو المَنفذ إلى الهدى والنور ، فإنَّ صفاء القلب مرتبط باتباع الأنبياء ـ عليهم الصلوات والسلام ـ وإن تزكية النفس مرتبطٌ بصفاء القلب، بشرط أن يُربي النفس ويصلحها ، فإنَّ تصفية النفس مع ظلمة القلب ـ الذي هو مظهر أنوار الله ـ تعالى ـ وتجلياته ، مثل السِّراج الذي أشعل ليقوم العدو المُستَتِر إبليس اللَّعين (في ضوئه) ويَهدم البيت من أساسه ، ويُحوِّله نهباً خراباً.

وحاصِلُ هذا التحقيق أنَّ طريقة المُجاهدات والرياضات في صِبغتها الاستدلالية النظرية لا تُورِث اليقين والطمأنينة ، ما لم يُرافِقْها الإيمان بالأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والتسليم ـ الذي يُبلِّغون عن الله سبحانه ، ويَنزِلُ عليهم نصره وتأييده، وأن نظام هؤلاء ـ نزول الملائكة ، المعصومين عن الغلط والإثم عليهم ـ في مَأمن من مَكر العدو اللعين ، ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] ، وليس ذلك لغيرهم ، ولا يُتوقَّع الإفراج عنهم من سجن هذا الشقي اللعين ، إلاَّ من اتَّبع هُداهم ، واقتفى آثارهم ، ولقد صدق الشيخ سعدي الشِّيرازي ، إذ قال ما معناه:

«مُحال يا سعيد أن تسلك طريق الصَّلاح والصفاء إلا باتِّباع شريعة المصطفى ﷺ».

فصَلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، وعلى إخوته من الأنبياء والمرسلين» [١].

الخَلطُ في الكَشف:

«ينبَغي أن نعلم أنَّ الخطأ في الكشف لا ينشأ ـ دائماً ـ بإلهام الشيطان ووَسوسته ، بل كثيراً ما ترسُب أحكام وحوادث ، لا نصيب لها من الصحة والواقعية ، في المُخيِّلة حيث لا دخل للشيطان ، ثم تتمثَّل هذه الأخيلة والتصوُّرات في الخارج ، ومن هذا ما يقع لبعض الناس في المنام من رؤية الرسول ﷺ وتلقي أحكام عنه تُخالف أحكام الشريعة الثابتة بالنص ، وتُعارِض الأحاديث الصحيحة ، فلا يتصور هنا ، إلقاء الشيطان ووسوسته ، لأن الشيطان لا يتمَثَّل بصورة الرسول ﷺ إذاً فهي القوة المتخيّلة التي تتخيَّل وتتصوَّر غير الواقع واقعاً» [٢].

ويقول في رسالة أخرى:

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣ ، المجموعة الثالثة ؛ كتبها إلى الشيخ خواجه إبراهيم قياداني.

(٢) الرسالة رقم: ١٠٧، وهي موجَّهة إلى الشيخ محمد صادق الكشميري.

«إنَّ النفس ـ مهما أصبحت بالتزكية والتصفية نفساً مطمئنة ـ لا تستطيع أن تتجرد ـ بتاتاً ـ من صِفاتها وخَصائصها ، ولذلك يحتمل أن يتسرَّب الخطأ إليها وتَقعَ في الغلط»[١].

التَّعارُض بين تَعاليم الفلاسفة ، وهَدْي الأنبياء:

ويقول الإمام ـ بعد ذلك ـ مُشِيراً إلى التعارض الصريح الواقع بين تعاليم الفلاسفة وتعاليم الأنبياء الذي لم يزل قائماً عَبر مئات القرون ، ولا يمكن التطبيق بينها ، وأنَّ تعاليم الفلاسفة وبُحوثهم العقلية ، وتحليقهم في أجواء التأمُّلات الفلسفية لا يعني إلاَّ ما قيل: «تمخَّضَ الجبلَ فوَلَدَ فَأراً».

كأنَّ عقل الفلاسفة القاصر المحدود ، على الضِّد ـ تماماً ـ من النبوَّة ، وعلى طرف النقيض منها ، فبُحوثهم وتحقيقاتهم في بَدء الكون ونهايته ، وفي الدار الآخرة تُعارض تعاليم الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ مُعارضة كاملة ، فلم يُصحّحوا إيمانهم بالله ، ولا إيمانَهم بالآخرة ، ويَقولون بِقدَم العالم ، رغم أَنَّ جميع الديانات ، وأهل جميع المِلل والنِّحل مُجمعون على حدوث العالم بجميع أجزائه.

ولا يؤمنون بانفطار السموات ، وانتثار الكواكب ، وَنسف الجبال ، وتفجير البحار ، كما جاء الوعد بذلك ليوم القيامة.

ولا يُؤمنون ـ كذلك ـ ببَعث الأجساد وإحيائها من جديد ، ويكفرون بتصريحات القرآن الحكيم ونصوصه.

والمتأخِّرون منهم الذين يَعدُّون أنفسهم من جماعة المسلمين ، متشبِّثون ـ مثلهم ـ بأصولهم الفلسفية ، ويقولون بقدم الأفلاك ، والكواكب وغيرها من الأشياء ، ويدَّعون أنها لا تفنى ، ولا يلحقها الهلاك ، إنما رِزقُهم تكذيب التصريحات القرآنية ، وغذاؤُهم إنكارُ ضروريات الدين ، عجباً من هؤلاء

(١) الرسالة رقم: ٤١ ، وهي موجَّهة إلى الشيخ درويش.

المؤمنين ، الذين يؤمنون بالله ورسوله ، ولا يؤمنون بما صرَّح به الله ورسوله! فهل هناك سَفَهٌ أكبر من هذا السفه؟ ولله درُّ القائل :

«إذا كان مُعظم الفلسفة جَهْلاً وسفاهة ، فكلُّ الفلسفةِ جَهلٌ وسفاهة ، لأن للأكثر حكم الكُلِّ» .

إنَّ هذه الجماعة صرفت جُلَّ عمرها وعِنايتها لتحصيلِ آلة (المنطق) التي تَعصِمُ من الخطأ الفكري ، والزَّلل العقلي ، وتجشَّموا في سبيل هذا العلم المشاقَّ وتكبدوا جهد البحث والتنقيب ، فلما وصلوا إلى البحث عن ذات الله ـ تعالى ـ وصفاته ، الذي هو أَخْطَر مَبحَثٍ وأعظمُه ـ خارتْ قُواهم ، وطرحوا هذه الآلة ، التي كانت لتعصمَهم من الخطأ في الفكر ، وبدؤوا يتعثَّرون ويُسَفْسِطون ، ويَضلون ويَتيهون في مَهامِه الجهل والضلال ، كَمثل من يُعدُّ آلاتِ الحرب وعُدَّته ـ على مدى أعوام وسنين ـ فإذا جدَّ الجدُّ ، وكَشَّرت الحرب عن أنيابها ، سرَى الوهن إلى أعضائه ، وخَارتْ قُواه ، وسُقط في يديه .

يَظُنُّ الناس أنَّ الفلسفة مبنيَّة على أصول حكيمة ، وتنظيم دقيق ، ويعتقدون أنها بمَنجاة عن الخطأ والغلط ، فإذا سُلِّم ، وُجِّه هذا الحكمُ إلى تلك العلوم التي يُجدي فيها العقل ويُغني غناه ، وليس ذلك من موضوعنا الآن ، ولا يَعنينا ـ أصلاً ـ ولا علاقة ـ لهذه العلوم بالآخرة ـ التي هي خَالدةٌ دائمة ـ كما لا علاقة لها بالسعادة الأبدية ، وحديثنا في تلك العلوم التي يَعجز العقلُ عن تحصيلها وإدراكها ، وهي مرتبطةٌ بطريق النبوَّة ، وتَرتبط بها السَّعادة الأُخروية والنجاة الأبدية» .

ثم يقول :

«ولا يُجدِيهم عِلْمُ المنطق ـ الذي هو كالآلة للعلوم العاليـة ـ والذي قال عنه الناس، إنَّه يُجنب عن الخطأ ـ ولا يُغنيهم من جـوع ـ ولا يُخرِجهم من وَرطة الأخطاء والغلطات في هذا البحث العظيم ، فإذا لم يأخذ هذا العِلم بيدهم ، ولـم يُسْعِفهُم أنفسهم، فكيف يُسعفُ غيرهـم ، ويُخرجهم من الخطأ والغلط»؟ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وإنَّ بعض الناس الذين لهم إلمام بعلوم الفلسفة ، وواقعون في خداعه وتزويره الفلسفي ، يَعتقدون أن الفلاسفة يُضاهون الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بل يكادون يُفضِّلون علومَهم المُزوَّرة المكذوبة ـ بتصديقها والإيمان بها ـ على شرائع الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ أعاذنا الله من عقيدة السوء ، نعم ، فإنَّهم إذ يعتقدون أنهم حكماء ، ويُسَمُّون علومهم بالحكمة ، يَقعون فريسة مشاكل وتعقيدات ، لأنَّ الحكمة عبارة عن العِلم بشيء كما هو في الواقع ، فالعُلوم التي تُخالِف علوم الحكمة هذه (كشرائع الأنبياء) فإنها ـ في ظن هؤلاء الحكماء ـ تُخالِف الواقع والحقيقة.

وخُلاصة القول: أنَّ تصديق هؤلاء ، وتصديقَ علومهم ، تكذيبٌ للأنبياء ، عليهم الصلوات والتسليمات ـ وتكذيبٌ لعلومِهم ، لأن هذين العِلمين ـ علم الحكماء وعلم الأنبياء ـ على طَرَفَي نقيضٍ ، يستلزمُ تصديقُ أحدهما تكذيب الآخر ، فمن شاء فليتبع دين الأنبياء ويَكُنْ من حزب الله ، وأصحاب السعادة والنجاة ، ومن شاء فَلْيَكُن فيلسوفاً ، ويدخل في حِزب الشيطان ، ويَحقُّ له الإخفاق والخسران ، يقول الله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٢٩] ، وسلام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على من اتبع الهدى واقتفى الرسولَ المصطفى ﷺ ، وعلى إخوته الأنبياء الكرام والملائكة العظام أتَمَّ الصلوات وأكمل التسليمات» [1].

لا تُمْكِنُ التَّزكية الحَقيقية بغير البعثة النبوية:

«إنَّنا نقول: إنَّ التزكية والتصفية مرتبطتان بالأعمال الحسنة الصالحة التي

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى الشيخ خواجه إبراهيم قيادياني.

يرضاها الله ـ تعالى شأنه ـ ويتقبَّلها ، ولا يُعلم ذلك إلاّ عن طريق البعثة ، فلا صفاء ولا تزكية بغير البعثة»[١].

الحَاجَةُ إلى بِعثة الأنبياء ، وعَدمُ كفايَة العقل:

يَتحدَّث الإمام السَّرهندي عن الحاجة إلى بعثة الأنبياء والرُّسل ، والضرورةِ إليها للهداية ، وعَدم كفاية العقل وحده؛ لذلك ـ مهما كان يَملِك من سُمُوِّ الفكر وبُعْد الغور ـ فيقول في رسالة من رسائله:

«إنَّ بعثةَ الأنبياء والرسل ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعين ـ رحمةٌ لأهل الأرض قاطبة ، فلولا وجود هؤلاء ووساطتهم ، لما وُجِد من يهدينا إلى معرفة ذات الله ـ وهو واجب الوجود ـ وصفاتِه ، ويُميِّز بين مأموراته ومنهياته.

إنَّ عقولنا المحدودة القاصِرَة من غير استعانةٍ بضوء دعوة هؤلاء الأنبياء والرُّسل عاجزةٌ عن الوصول إلى هذا المَطلب العظيم ، وإنَّ مداركنا الناقصة ، من غير تقليدهم واتباعهم كليلةٌ حائرةٌ.

نعم العقلُ حُجَّة ، ولكنَّ حُجِّيته غيرُ كاملة ، لا تبلُغ درجة التأثير والتكميل ، وإنَّ الحجَّة البالغة هي بِعثة الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلوات والتسليم ـ التي يرتبط بها العذاب والثواب الخالدان الدائمان»[٢].

البِعْثَـةُ هـي الوَسيلـةُ الوحيـدة لِمَعرفـةِ ذاتِ الله وصفاتـه وأحكامـه:

«إنَّ البعثةَ رحمةٌ ، إذ إنَّها سببٌ لمعرفة ذات الله وصفاته التي تتضمَّن جميعَ السعـادات الدنيوية والأخرويـة ، وإنَّ بنعمـة هذه البعثـة ، يَحصلُ العلم والتميز بين ما يليق بجلال الله وعظمته ، وما لا يليق ، لأنَّ عُقولنا العاجزة المظلمة ـ التي وُصِمَ جبينها بوَصمة الإمكان والحدوث ـ أنَّى لها أن تُدرِك

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولى، كتبها إلى الشيخ خواجه عبد الله، والشيخ خواجه عبيد الله.
(٢) المصدر السابق، رقم: ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

ما يليق من الأسماء ، والأفعال ، والصفات ، بذات الله ـ تعالى ـ الذي هو قديم لم يَـزل ولا يزال ، فتنسِب إليه ، ما لا يليق من ذلك ، فيُجتنب منه ، بل طالما يَـظُنُّ عقلنا القاصر النقصَ كمالاً والكمال نقصاً ، وأن التمييز الصحيح ـ الذي تُنشئه النُّبوَّة وتُربيه ـ وهو نعمة أعظم وأجل ـ عند هذا العبد الضَّعيف ـ من كُلِّ نعمة ظاهرة أو باطنة ، وإن مِنْ أشقىٰ الناس مَنْ يَنسبُ إلى الله عزَّ وجلَّ ما لا يليق بعظمته وجلاله ، وما يُستكرَه في حقِّه.

والبِعثةُ هي التي فرَّقت بين الحق والباطل ، وميَّزت بين من يستحقُّ العبادة ، ومن لا يستحق ، وبوساطة هذه البعثة يدعو هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الله عزَّ وجلَّ ويُشرِّفون عباد الله بالتقرُّب إليه والاتصال به ، وبهذه البعثة تُعْلَمُ مرضيَّاتُ الله وأوامره ، كما تقدَّم ذلك ، ويُميَّز بين ما يجوز فيه التصرُّف من ملكوته ، وما لا يجوز التصرُّف فيه.

وللبِعثة كثيرٌ من مثل هذه الفوائد والمصالح ، فَثَبَتَ أنَّ البِعثة رحمة ، فمن يَكفر بالبعثة اتِّباعاً للنَّفس الأمَّارة بالسوء ، وخضوعاً للشَّيطان الرَّجيم ، ولا يعمل حَسْب مُقتضياتها ، فماذا في ذلك من ذَنْب للبِعثة ، ولماذا لا تكون البِعثة رحمة» [(١)]؟.

لا طَريق إلى معرفةِ الله ـ تعالى ـ إلاَّ الأنبياء:

«وبِسَببِ ما عُرِف به الأنبياء والمرسلون من الدَّعوة إلى الله ـ خالق السموات والأرض ، عـزَّ وجـلَّ ـ لاستمـرارِ بعثتـهـم، وتَـواتُـر رسـالتهـم، وتسلسـلُ ظهورهم، وبسبب انتشـار دعوتهـم ونفاذِ كلمتهم ، رجعَ سُفهاء كل عصر ومصر ـ الذين كانوا في شكٍّ مريبٍ من وجود صانع الكون ـ إلى الاعتقاد بوجوده ـ عَنْ غير إرادة منهم وقصد ـ فنَسبوا الأشياء كلها ، والمخلوقات بأسرها إلى الله ـ عزَّ وجلَّ.

(١) الرسالة: رقم ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

فهذا النور الذي استناروا به قَبَسٌ من أنوار الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وفُتات مائدتهم ، فصلوات الله تعالىٰ وسلامه عليهم دائماً أبداً إلى يوم القيامة.

كذلك جميع الأمور المنقولة التي لم نَعْلَمْ خَبَرَها ، تنتهي إلى تبليغ الأنبياء والرُّسل ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ كصِفات الله الكاملة ، وبعثة الأنبياء ، وعِصمةِ الملائكة ـ عليهم الصلوات والتسليمات والبركات ـ والبعث ، والحَشرِ ، والنُّشور ، والجنَّة ، والنَّار ، ونعيم الجنَّة المقيم ، وعذاب النَّار الأليم ، وأمورٍ أخرىٰ تُخبرنا بها الشريعة المطهَّرة ، ويَعجز العقل عن إدراكها ، ويَقْصُر دون إثباتها بغير سماعها من الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وروايتها عنهم»[(١)].

الوَضعُ الصَّحيح في التَّرتيب والتَّدريج:

«ينبغي ـ قبل كل شيء ـ الإيمان بالرسول ـ ﷺ ، وتصديقُ رسالته ، حتى يُصدّقه الإنسان في كل أوامره وأحكامه ، وينجو بذلك من ظلمات الرَّيب والشكوك ، يَجبُ العلم بالأصل وتعقُّله وفهمه أولاً ، حتى يتيسَّر علم الفروع والجزئيات ـ بكل سهولة ـ وتفهُّمها وإدراكه ، وأن إدراك كل فرع من الفروع على حِدة من غير إثبات الأصل وإدراكه ، أمرٌ متعسِّر.

وأَقربُ طَريق إلى هذا التصديق الكامل ، وطُمأنينة القلب ، هو ذكر الله ، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴾ [الرعد: ٢٨ ـ ٢٩] ، ويُستبعدُ الوصُول إلى هذا الهدف الأعلى عن طريق النظر والتأمل والاستدلال ، يقول الشاعر[(٢)] ما معناه:

«إنَّ أَرْجُلَ أصحاب الاستدلال ـ أي الفلاسفة والمنطقيين ـ أرجلٌ خشبية ،

---

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، كتبها إلى الشيخ خواجه إبراهيم قياداني.

(٢) [هو مولانا جلال الدِّين الرُّومي ، قد سبق الحديثُ عنه في الجزء الأول من هذه السلسلة].

والأرجلُ الخشبية جِدُّ واهيةٍ ضعيفة» (١).

المُصدِّق برسالة الأنبياء مِن أصحاب الاستدلال:

«اعْلم أَنَّ منَ يقلِّد الأنبياء الكرام ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ ويَقتفي آثارهم ، بعد الإيمان بِثبوت نُبوَّتهم ، وتصديقِ رسالتهم ، يُعدُّ من أصحاب الاستدلال ، فإنَّ تصديقَه بأحكامهم ـ من غير دليل ـ بعدَ الإيمان بنبوتهم عن دليل ـ عَين الدليل.

وعلى سبيل المثال ، إذا كان شخص قد أَثبت بعض الأصول بالدليل والبرهان ، فكل ما يَنتج عنها من فروع ، تكون ـ بالطبع ـ بالدليل والبرهان ، ويكون هذا الشخص ـ عند ذاك ، من أصحاب الاستدلال في إثبات هذه الفروع كُلها ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣] ، «والسَّلامُ على من اتبع الهدى» (٢).

إخضاعُ أخبار الأنبياء للعُقول إنكارٌ للنبوة:

«إنَّ الصراط والميزان ، والحساب حَقٌّ ، لأنَّ المخبر الصادق ـ عليه الصلاة والسلام ـ أخبر بها ، وإن استبعاد بعض الجهلة الذين لا يعرفون طريق النبوَّة ، لهذه الحقائق الثابتة ، سَاقِط مَرذُول ، لأنَّ طريق النبوَّة وراء طريق العقل ، وإن إخضاع أَخبار الأنبياء الصادقة للطريقة العقلية للبحث والتأمُّل ، والتحقيق ، والتوفيق بينهما ، إنكارٌ ـ في الحقيقة ـ للنبوة ، فالاعتماد في هذه القضايا التي هي وراء طور العقل ، على الاتِّباع الكامل ، والإيمان الصادق بالأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ من غير طلب الدليل والبرهان» (٣).

---

(١) الرسالة رقم: ٣٦، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى الشيخ مير محمد نعمان.

(٢) الرسالة السابقة نفسها.

(٣) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولى.

فَرْق كبير بين ما يعارض العقل وما يكون وَراء طوره:

«لا يظنُّ ظانٌّ أن طريق النبوَّة يُعارِض طريق العقل ، لا ! بل إن طريق العقل ـ وهو النظر والاستدلال ـ لا يؤدي بدون تقليد الأنبياء واتباعهم إلى هذا المقصد الرفيع ، المعارضة شيء ، والعَجز والقُصور شيء آخر ، لأن المعارضة لا تُتصوَّر إلاَّ بعد القُدرة والتَّمَكُّن» (١) .

مَعرفةُ طريق تعظيم الله ـ تعالى ـ وتقديسِه محصورةٌ في النبوة ، وتعاليم الأنبياء وأخبارهم:

«فلا مناصَ من وجود الأنبياء ، حتى يُبصِّرونا بطريق الشكر للمنعم الحقيقي والثناء عليه ـ الذي ثَبت وجوده بالعقل لُزوماً وضرورة ـ ويبيِّنوا لنا طريق التعظيم والتكبير ـ علمياً وعملياً ـ لواهب هذه النِّعَم ، لأن التعظيم الذي ليس مَصدر علمه هو نفسه ، تعالى شأنه ـ لا يَجدر بجلاله ، ولا يليق بكماله ، لأنَّ القوة البشرية قاصرةٌ على إدراكه ، بل كثيراً ما يعتقد الإنسان تعظيماً وتسبيحاً ما ليسَ بتعظيم ولا تسبيح ، ويتحوَّل من الحمد والشكر إلى الذَّم والعيب ، ولا يُعلمُ طريق تعظيمه وتكبيره ، إلا بالنبوة وتعاليم الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأخبارِهم ، وما يَتلقَّى أولياءُ الله ـ تعالى ـ من الإلهامات لا تعدو قَبَساً من قَبَسات الأنوار النبويّة ، وفيضاً من فُيوض أتباعهم ، والاقتداء بهم وبركة من بركاتهم» (٢) .

مكانةُ النُّبوَّة وراءَ العقل كما أنَّ مكانة العقل وَراء درجةِ الحواسّ:

«وكما أَنَّ مكانة العقل ومَنزِلَتَهُ وراء مَنزلة الحواس ، حيث لا تُدرِك الحواسُّ ما يُدركه العقلُ ، كذلك مكانة النبوَّة وراءَ طَور العقل ودرجتِه ، فما

---

(١) الرسالة السابقة نفسها.

(٢) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثالثة، وهي موجَّهة إلى الشيخ خواجه إبراهيم قياداني

لا يدركه العقل ، يُدرَك عن طريق النبوة ، فمن لا يَعترف بطريقةٍ لتحصيل العلم غير طريقة العقل ، فإنه ـ في الواقع ـ مُنْكِرٌ لطريقة النبوَّة ، معارِضٌ للهداية والنور» (١) .

مَكانَةُ النُّبوَّة:

لقد نَشأ في الفلاسفة وبعضِ الإشراقيين المسلمين جَهْلٌ بِمكانة النبوة ، واستهانةٌ بقيمتها ـ لاشتغالهم ليل نهارَ بعلوم اليونان ، وحِكمتها ، وفَلسفتها ، التي ازدهرتْ وأثمرتْ عبر القرون والأجيال بمعزل عن دعوة الأنبياء وهُداها ـ ولاعتقادهم بأنَّها غايةُ العِلم وسِدْرة المنتهى، وانصرافِهم عن دراسة الحديثِ النبوي والسيرة النبوية ، واهتمام بهما ، وبعدم اهتدائهم بهَدْي الكتاب والسنة وتأمُّل في نصوصهما ـ وانقطاعهم كُلّياً إلى الَرياضات البدنية والمجاهدات النفسية ، والاعتكاف لمدد خاصة ، ومواقيتَ معينة في القرون الأخيرة ـ ورافقَ هذا الجهل بمكانة النبوَّة نوعٌ من التَّنفُّر والاستغراب ، والاستبعاد .

وقد قوَّى هذا الاتجاه أنَّ هؤلاء الحكماء والإشراقيِّين يقرؤون في سير الأنبياء وأخبارهم ، وفي سيرة سيِّد المرسلين ـ صلى الله عليهم وسلم أجمعين ـ أنهم كانوا يعيشون كما يعيش الناس ، يَتزوَّجون ، ويتناسلون ويعولون أهلهم وأولادهم ، ويَمشُون في الأسواق ، ويبيعون ويشترون ، ويرعون المواشي ، ويُشارِكون في الحروب ، ويتأثَّرون بالأحداث ، ويُسَرُّون بما يُسَرُّ به الناس ، ويَحزنون لما يحزنون له ، وليست عندهم هذه العبادات الـمُجهِدة المُضْنِية، فلا صَوم الوصال، ولا هذا الاعتكاف، والاعتزال الذي يُسمَّى بـ «الأربعينية» وغيرها مما نشهدها عند أوساط الصوفية ، والأولياء ، والزهاد .

ثم إنهم كانوا لتبليغ رسالتهم ، وأداء دعوتهم مختلطين بالناس معنيين

---

(١) الرسالة السابقة نفسها.

بشؤونهم ، إذ لا تتأدَّى هذه المسؤولية ، إلا بالاتصال بهم ، والعناية بحالهم ، ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب: ٤] . فالتفاتٌ إلى شيء يصرف عن الالتفات إلى شيء آخر ، ولم تكن لهذه الجماعات والأوساط المنصرفة إلى الفلسفة والرياضات ، أيُّ عناية بالعلوم الدينية ، لا سيَّما علم الحديث الشريف ، وكانت تُردِّد صباحاً ومساء وَقائع الكُشوف والكرامات ، وتَتحدَّث في معارض الأولياء المتقدِّمين والإشراقيِّين المتأخِّرين، وكمالاتِهم الباطنية ، وتجرِيدهم ، وتفرِيدهم ، وفَنائهم ، وسُكرهم وغير ذلك .

«لهذه الأسباب سَوَّلت للفلاسفة والإشراقيين أنفسُهم أَنَّ مَقام الولاية فَوق مقام النبوَّة ، وأنَّ الولاية عبارة عن كمال الانصراف إلى الله ، والانقطاع عن الخلق ، وأنَّ مهمة النبوة هي التبليغ والدعوة ، التي تتعلَّق بالخلق فالوَلِي «متوجِّه إلى الحق» والنبيُّ «مُتوجِّه إلى الخلق» ، والتوجُّه إلى الحق ـ طبعاً ـ أفضل وأعلى شَأناً من التوجه إلى الخلق ، وتَورَّع بعضهم قليلاً فقال: ليست الولاية فوق النبوة على سبيل الإطلاق ، ومُراد من قال ذلك: أن ولاية النبي ـ نفسه ـ أفضلُ من نبوته ـ وأن النبي عند اشتغاله بالحق أرفعُ شأناً من حال اشتغاله بالخلق ، ودعوتِهم وتبليغِ الرسالة إليهم .

وعلى كُلٍّ فإنَّ الأسلوب للتَّفكير يدلُّ ـ حتماً على أنَّ كثيراً من الأوساط الدِّينيَّة أيضاً ـ آنذاك ـ كانَتْ مُصابة بدهشة عظيمة للولاية ، ومَدارجها وكمالاتها ، التي كانت تترك آثاراً بعيدة المدىٰ على ارتباط الأمَّة الإسلامية بِمَنْبَعِها الأصيل: النبوَّة المحمَّديّة والشريعة الإسلامية ، وكان ذلكَ خطراً عظيماً يُـحَتِّم على المجدِّدين ، وورثة الأنبياء والمُرسلين أن يُقاوِموه ، ويَـرُدُّوه على أعقابه .

وإنَّ أوَّل من رَفع صوته بهذا الصَّدد ـ في حُدود عِلمِنا ـ صارخاً مُدوِّياً ، قويّاً مُوثِّراً ، مُدعَّماً بالأدلَّة ، والحُجج الناهضة ، وفي أسلوب يَجذب النُّفوس ، ويأخذ بمجامع القلوب ، هو العالم الرَّباني المحقِّق ، والعارف البصير الشَّهير الإمام شرف الدِّين أحمدُ بنُ يَحيَىٰ المُنِيري (٦٦١ـ ٧٨٦ هـ) في

أواسط القرن الثامن الهجري ، وردَّ على هذا الخطر ـ المشار إليه ـ رُدوداً قويّة مُفْحَمَةً في رسائله العلميَّة.

ونبَغ بعد الإمام المُنِيري الإمامُ السَّرْهندي ، الذي كان مُجدِّد هذا العلم العظيم ، والطريق المستقيم ، وخاتمة المحقِّقين ، فقد أثبت في رسائله : أنَّ الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ هم المَثَلُ الكامل ـ خُلقيّاً وعقلياً ، وروحياً ، وعقيدياً ـ لصَنعة الله الخلاق العظيم ، وَصِفَة جُوده الكريم ، وأنَّ صلتهم مع الله وتوجههم إليه ، لا يصرفُه صارفٌ من شُغل أو عمل ، وذلك نتيجة شرح صدورهم الذي يَخُصُّهم الله به من دون العالمين ، وأنَّ من مُقتضيات عُلوِّ همَّتهم وقوة صبرهم واحتمالهم ، وسعَة صدورهم ، ومن مُقتضيات دعوتهم ، ورسالتهم ومهمَّتهم ـ التي نِيطت بهم ـ أن يكونوا في «صحوٍ دائم» ويَقَظة مستمرَّة ، وحُضورِ بديهة ، وسرعة إدراك ، وهي تلك الخصائص التي لا يَتمتَّع بها أهل الوِلاية والسكر والغياب ، وأنَّهم يبدؤون من حيث ينتهي الأولياء ، ويحصل باتباعهم التقرُّب بالفرائض الذي لا يسمو إليه التَّقرُّب بالنَّوافل ، وأنَّ مثل كمالات الوِلاية ومقاماتها إزاء كمالات النبوَّة ودرجاتها ، مثل القَطرة في البحر ، ولْنَدع القُرَّاء الآن ليستمعوا من الإمام السَّرْهندي حديثَ هذه الحقائق الرَّفيعة والعلوم العالية :

الأنبياءُ أفضلُ موجود ، ومواهبُهم أعظمُ مَوهُوب:

«إنَّ الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ أفضل من جميع الموجودات ، ووُهبوا أفضل المواهب والثَّروات ، وإنَّ الوِلاية جُزء من النبوَّة ، والنبوة كلّ ، فالنبوَّة ـ لا محالة ـ أفضلُ من الوِلاية ، سواءٌ كانت ولاية النبيِّ ، أو ولاية الوليِّ ، والصَّحوُ أفضل من السُّكرِ ، لأنَّ السُّكرَ يَنطوي في الصحو ، كالولاية تنطوي في النبوَّة.

أمَّا ما يكون عند عامَّة النَّاس من يَقظة وتعقُّل ، فليس من مَبحثنا إذ لا اعتبار لتفصيل السُّكر على هذا الصَّحو العامي ، ولكنَّ الصحو الذي يحتوي على السُّكر ، أفضل حتماً من السُّكر ، وأنَّ علوم الشريعة التي مصدرها ومنبعها

النبوّة ، كُلها صحو في صحو ، وكُلُّ ما يخالفها سُكر في سُكر ، وصاحب السُّكر معذور ، والجديرة بالاتباع والتَّقليد هي علوم «الصحو» لا علوم «السُّكر» (١).

لا يَحـول تَـوجُّـه الأنبيـاء إلـى الخَلـق دون تـوجُّههـم إلـى الحـق ، لانشِـراح صدورهـم:

«قال بعضُ المشائخ في حال الغَيبوبة والسُّكر: «إنَّ الوِلاية أفضلُ من النبوَّة» وقال آخرون: «إنَّ المُراد بهذه الوِلاية ولايَةُ النبيِّ ، حتىٰ لا يَتوهَّم مُتوهِّم أنَّ الوليَّ أفضل من النبيِّ» ، ولكن الواقع بالعكس ، لأن نبوَّة النبيِّ أفضل من ولايته نفسه ، إذ لا يتيسَّر الالتفات التَّام إلى الخلق في الوِلاية ، لضِيق الصَّدر وحرجه ، أمَّا في النُّبوَّة فلسَعة الصَّدر وانشراحه ، لا يحول الالتفات إلى الخلق ، دون الالتفات إلى الحقِّ ، ولا الالتفات إلى الحق دون الالتفات إلى الخلق ، ولا يكون الالتفات في النبوَّة إلى الخلق وحدهم ، حتىٰ تَرجح عليها الوِلاية التي تتوجَّه دائماً إلى الحقِّ ، والعياذ بالله سبحانه.

الالتفاتُ الكامل إلى الخلق منزلةُ العوام الذين هم كالأنعام ، ومكانةُ النبوَّة جليلة عظيمة ، ولا يَفقه هذه الحقيقة أهلُ السُّكر إلاَّ قليلاً ، فإنَّ هذه المعرفة حظٌّ من حظوظ أصحاب الصحو والاستقامة ـ «هنيئاً لأرباب النَّعيم نعيمهم» (٢).

بَاطنُ النَّبيِّ مع الحقِّ ، وظاهرُه مع الخلق:

«يُفضِّل بعضُ أصحاب السُّكر عِلم الوِلاية ـ الذي يُقبل على السُّكر ـ على عِلْم النبوَّة ـ الذي صُبغ بالصحو ، ومما صدرَ عنهم في حالة السُّكر قولُهم: «الوِلاية أفضل من النبوَّة» على أساس أن الوِلاية وجهها إلى الحق ، والنبوَّة

---

(١) الرسالة رقم: ٩٥ ، المجموعة الأولىٰ وهي موجَّهة إلى السيد أحمد بجواره.

(٢) الرسالة رقم: ١٠٨ ، المجموعة الأولى كتبها إلى السيد أحمد بجواره.

وجهها إلى الخلق ، ولا شكَّ في أنَّ التوجُّه إلى الحق أفضل من التوجُّه إلى الخلق ، ويُؤوِّل بعضهم قائلاً : «إنَّ وِلاية النبيِّ أفضل من نبوَّته».

ويرىٰ هذا الفقير أنَّ هذه الأقاويل تَشَدُّقٌ وتَقعير ، فليس في النبوَّة التفات إلى الخلق فحسب ، بل يُرافقه الالتفات إلى الحق كذلك ، وأنَّ باطن المتبوِّىء مكانةَ النبوَّة مع الحق ، وظاهرَه مع الخلق ، ومن كان كلُّ التفاته إلى الخلق فهو ممَّن لا يُؤبه بهم ، ولا خلاقَ لهم» (١) .

الرَّدُّ على من يقول: «بدايات الأولياء نِهاياتُ الأنبياء»:

«إنَّ القول المحكيَّ عن بعض النَّاس: إن بداية الأولياء هي نهاية الأنبياء ، قول مرذولٌ ، والمُراد ببداية الأولياء ونهاية الأنبياء عندهم «الشَّريعة» ، نعم لم يكن يدري ذلك المِسكين حقيقة الأمر ، فَتفوَّه بما يُخالِف الظاهر الصَّريح ، ولم يتصدَّ أحد لبيان هذه الحقائق ، بل صرَّح معظم النَّاس بعكسِها من الأقوال والآراء ، وَيَستبعدون هذه الحقائق الواضحة ، ولكنَّ المُقْسِطَ العادل الذي ينظر إلى عَظَمَةِ الأنبياء ، ومكانتهم الرَّفيعة ، وتُسيطِر على قلبه ومشاعره عَظمة الشَّريعة وحرمته ، يتقبَّل هذه الأسرار الدقيقة ، ويَجعلها وسيلة لزيادة الإيمان وترقِيَتِه» (٢) .

اقتصارُ دَعوة الأنبياء على عَالَمِ الخَلْق وبحثُهم عن القلب:

«استمع إليَّ يا بنيَّ ، إنَّ الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ قَصروا دعوتهم على «عالم الخلق» وجاء في الحديث الشَّريف: «بُنِيَ الإسلامُ على خمس ، شهادةِ أن لا إلٰه إلا الله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله ، وإقام الصَّلاة ، وإيتاء الزَّكاة ، وحجِّ البيت ، وصومِ رمضان» (٣) .

---

(١) الرسالة رقم: ٩٥، المجموعة الأولى، وهي موجَّهة إلى السيد أحمد بجواره.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٠، المجموعة الأولىٰ كتبها إلى ابنه الشيخ محمد صادق.

(٣) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ : «بني الإسلام على خمس» =

ودَعَوا إلى تصديق القلب أيضاً لأنَّ للقلب صلة أكثر بعالم الخلق ، ولم يتعرَّضوا لما وراء القلب ، ولم يبحثوا ويخوضوا فيه ، ولم يَعُدُّوه من المَقاصد والغايات ، تأمَّل في نعيم الجنَّة ، وآلام النَّار ، ونِعمة رؤية الرَّب تعالىٰ ، ونِقمة الحرمان منها ، كل ذلك مُتَّصِل بعالم الخلق ، ولا علاقة له «بعالم الأمر» (١).

في اتِّباع النبوَّة تحقيقُ التَّقرُّبِ بالفَرائض:

«كذلك أداءُ الفرض والواجب والسنَّة من الأعمال ، كُلُّها متَّصلة بالقلب الذي هو من عالم الخلق ، ويتَّصل بالأعمال النَّافلة ما يتعلَّق بعالم الأمر ، والتَّقرُّب الذي يحصل بسبب هذه الأعمال ، يكونُ على قدر هذه الأعمال ، فثبت من ذلك أنَّ التَّقرُّب الذي هو نتيجة أداء الفرائض ، يَرجع إلى عالم الخلق ، والتَّقرُّب الذي هو ثمرةُ أداء النَّوافل ، يرجع إلى عالم الأمر ، وما من شكٍّ في أنَّ النَّفل لا يُعدُّ شيئاً في جنب الفرض ، وليستْ نسبة النَّفل إلى الفرض ، كنسبة القَطرة إلى البحر ، بل النَّفل بالنسبة إلى السنَّة ، مَثله كذلك مَثل القطرة في البحر ، وإن كانت النسبة بين السنَّة والفرض ، كتلك النِّسبة بين القطرة والبحر ، ومن هنا ينبغي أن يُقاس تفاوت ما بين التقَرُّبين ، وأن يُدركَ ما لعالم الخَلق من رُجحان وفضلٍ على عالم الأمر» (٢).

مَقاماتُ الوِلايـة لا شـيءَ إزاءَ مَـقَـامـاتِ النُّبـوَّة:

«لقد شرح الله ـ عزَّ وجلَّ ـ صَدري لمعرفة أنَّ مقامات الوِلاية ودرجاتِها ليست بشيء إزاء مقامات النُّبوَّة ودرجاتها ، حتىٰ إنَّها لا تُوجد بينهما تلك

= برقم (٨) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب أركان الإسلام ، برقم (١٦). وغيرهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، واللفظ لمسلم].

(١) الرسالة السابقة نفسها.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٠ ، المجموعة الأولى.

النسبة التي تُوجد بين القَطرة واليَمِّ ، فما يُنال عن طريق النُّبوَّة من خير وفضل وامتياز يكون أضعاف أضعاف ما يُنال عن طريق الوِلاية ، فالأفضليَّة المُطلقة للأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ والأفضليَّة الجزئيَّة للملائكة ، ومن ثَمَّ فإنَّ قول جمهور العلماء هو المصيب.

وتجلَّىٰ من هذا التَّحقيق أنَّ أيَّ وليٍّ من الأولياء لا يستطيع أن يسمو إلى مكانة الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ بل إنَّ رأس ذلك الولي تحتَ قدم النبيِّ ﷺ »[١].

وَجْـهُ إصابـةِ عُلوم العلماء وتحقيقاتهم ، ورُجحانها وأفضليَّتُها:

«إذا تأمَّلتَ في المسائل التي اختلفتْ فيها أقوالُ الصُّوفيَّة والعلماء ، تجدُ الحق مع العلماء ، والسِّرُّ في ذلك أنَّ نظر العلماء ـ لاتِّباعهم الأنبياء ـ يَنفُذ إلى علوم النبوَّة وكمالها ، وأنَّ نظر الصُّوفيَّة يَنْحَصِرُ في كمالات الوِلاية وعلومِها ومعارفها ، فالعِلم الذي يُقتبس من مِشكاة النُّـبوَّة ، لا جرم أن يكون أصحَّ وأحقَّ ، وأصوبَ من العِلم الذي يُؤخذ من مراتب الوِلاية»[٢].

«وقد ذَكر الفقير في كتبه ورسائله ، وحقَّقه تحقيقاً: أن معارج النبوَّة بمثابة البحر الخِضَمِّ ، وكمالاتُ الوِلاية إزاءها كقَطرةٍ حقيرة ، ولكن عَجباً من جماعة قالت: ـ لعَدم وصولها إلى إدراك معارجِ النبوَّة ـ «إنَّ الوِلاية أفضلُ من النبوَّة» وأوَّلَ ذلك فريق آخر ، فقال: «إنَّ وِلاية النبيِّ أفضل من نبوَّته» ، وكلا الفريقين بجهلهما بحقيقة النبوَّة أَصْدروا حكمهم على الغائب ، ويقرُب منه تفضيلهم السُّكر على الصحو ، فلو كانوا يَدرون حقيقة الصَّحو لما رَضوا للسُّكر بأن يُعدَل بالصحو ، «أين الثَّرىٰ من الثُّـريَّـا»؟

---

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولىٰ وهي موجَّهة إلى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله.

(٢) الرسالة السابقة نفسها.

ولعلَّهم قاسوا «صحوَ» الخاصَّة على صحو العامَّة ويَقظتِهم ، ففضَّلوا السُّكر عليه ، فكان عليهم أن يَحكموا سُكر الخاصَّـة بذلك ، قياساً لسكر الخاصَّة على سكرة العامَّة ، لأنَّ الحكماء مُتَّفقون على أنَّ الصَّحو أفضل من السُّكر ، وهذا الحكم نافذ في كلا الحالتين ، سواء كان الصحو والسُّكر مجازيِّين أو حقيقيِّين»[١] .

عَظمةُ الأنبياء ورِفعَتُهم بنُبوَّتهم:

«ينبغي أن يُعلَم ـ حتماً ـ أنَّ كُلَّ ما ناله الأنبياء من عظمة وعلو مكانة ، نالوه عن طريق النبوَّة ، لا عن طريق الوِلاية ، وليست الوِلاية بإزاء النبوَّة إلاَّ خادماً من خَدمِها ، ولو كانت الوِلاية أفضلَ من النبوَّة لكان ملائكة الملأ الأعلىٰ ـ الذين وِلايتهم أكملُ الوِلايات وأجلُّها ـ أفضلَ من الرُّسل والأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ.

ولمَّا كان فريقٌ منهم يعتقد أنَّ الوِلاية أفضل من النبوَّة ، أدَّاه ذلك إلى الاعتقاد بأنَّ وِلاية ملائكة الملأ الأعلىٰ أكمل من ولاية الأنبياء ، وفضل ملائكة الملأ الأعلىٰ ـ تبعاً لذلك ـ أفضلُ من الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ فشذَّ عن جمهور أهل السُّـنَّـة .

وإنَّ كل ذلك نتيجةُ الجهل بحقيقة النبوَّة ، ومكانتها العظيمة ، ولما أن النَّاس ـ لبُعد عهدِهم بالنبوَّة ، يَحقرون فضائل النبوَّة ومَدارجها إزاء مدارج الوِلاية وكمالها ، ويستهينون بها ، رأيتُ أن أتحدَّث عن هذا الموضوع بِشَرح وإسهاب ، وذكرت درَّة من الحقائق وواقع الحال»[٢] .

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

---

(١) الرسالة: رقم ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٨، المجموعة الأولىٰكتبها إلى خانخانان.

الإيمان بالغيب نعمةٌ خُصَّ بها الأنبياء وصحابتهم والعلماء ، وعامَّة المؤمنين:

«بَعد الحمد لله ، والصلاة والسَّلام على النبيِّ - صلَّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلَّم - ليعلم أخي وعزيزي مُحِبُّ الله أنَّ الإيمان بواجب الوجود - تعالىٰ شأنه - والإيمان بجميع صفاته بالغيب ، مما خُصَّ به الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم - وصحابتهم - رضي الله عنهم - والأولياء الذين ينزلون نزولاً تاماً كاملاً لدعوة الخلق إلى الخالق - جلَّ ذكره - ونِسبتهم إلى الأنبياء كنِسبة الصَّحابة إليهم ، بَيْدَ أنَّهم أقلُّ منهم شأناً ودُونهم مكاناً - كما خصَّ له العلماء وعامة المؤمنين.

أمَّا الإيمان بالشهود فنصيب الصُّوفيَّة ، سواء كانوا من أصحاب العُزلة (المُنقطعين عن الخلق) أو أصحاب العِشرة (المُتَّصلين بالخلق) لأنَّ أصحاب العشرة وإن كانوا يَنزلون إلى النَّاس بعد الانقطاع إلى الحق ، ولكن لا يكونُ نزولهم كاملاً تاماً ، إذ أنَّ باطنهم يبقىٰ معلَّقاً بالعُلو ، وهم بظواهرهم مع الخلق ، وببواطنهم مع الحق ، ولذلك يرافقهم الإيمان بالشهود دائماً.

أمَّا الأنبياء - عليهم الصلوات والتَّسليمات - فلما أنهم ينزلون نزولاً تاماً ، ويصرفون كل عنايتهم - ظاهراً وباطناً - بالدعوة إلى الحق - جلَّ اسمه - فيكون الإيمان بالغيب نصيبهم ، ويُخَصُّون به دون الصُّوفيَّة» [1].

نُزول الأنبياء دليلٌ على بُلوغهم نِهاية النِّهايات:

«لقد أثبت هذا الفقيرُ إلى الله ، في بعض رسائله أنَّ التَّعلُّق بالعلوِّ بعد النُّزول ، والحنينَ إليه ، دليلٌ على النقص والقصور ، وعلامةٌ على عدم الوصول إلى الغاية المبتغاة ، وأنَّ النزول التام الكامل دليلٌ على بلوغ نهاية النِّهايات وغاية الغايات ، وقد ظنَّ الصُّوفيَّة الجمعَ بينهما (أي التوجُّه إلى

(١) الرسالة رقم: ٢٨٢، المجموعة الأولى وهي موجَّهة إلى السيد محب الله المانكبوري.

الحقِّ، والتوجُّه إلى الخلق) كمالاً، وعَدُّوا الموفِّقين بين التَّشبيه والتنزيه، والجامعينَ بينهما من الكاملين فأين نحنُ من هؤلاء!»[1].

نشأة التصوُّف:

إنَّ منهج العلاقة مع الله ـ تعالىٰ ـ وتَقوية الصِّلة به، وتقويمها والصِّيانة عن الغفلة والماديَّة، ومُعالجة الأدواء النَّفسيَّة، والأمراض الرُّوحيَّة، الذي سُمِّي ـ على مرِّ الأيام ـ لعوامل وأسباب عديدة ـ بالتَّصوُّف، هو الذي يدعىٰ في المصطلح القرآني بـ«التَّزكية» وفي التَّعبير الحديثي بـ«الإحسان»، وقد اعتُبرت هذه الشعبةُ من شُعب الدِّين من مَقاصد البعثة المحمديَّة الأربعة التي صرَّح بها القرآن الحكيم:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢].

وقد كانت هذه المهمَّة العظيمة لإقامة الدِّين قَلباً وقالباً، وجسماً وروحاً، وقانوناً وعاطفة، مَنُوطة بخاتم النَّبيِّين ـ عليه الصلاة والتَّسليم ـ ثم بخُلفائه الرَّاشدين، والوَارثين لميراثهم بحق وجدارة، وقد قام هؤلاء بتجديد هذا «الطِّب النَّبويِّ» والحِفاظ عليه، ونقله إلى الأجيال تلو الأجيال، مثل حفاظهم على الشَّريعة الغرَّاء، واستمرُّوا يَبْذُلون الجهود في نشر «فِقه الباطن» والدَّعوة إليه، مع نشر «فِقه الظَّاهر» وأدائه وتبليغه، وقد كان عملهم هذا بإجمال أكثر منه بالتَّفصيل، وعلى أساس الاهتمام بالأصول أكثر منه بالفروع.

ولكن لمَّا توسَّعت الرُّقعة الإسلامية، وانداحتْ دائرة الفتوح والانتصارات، ودخلتْ بلادٌ جديدةٌ في الإسلام، وانتشرت الدَّعوة الإسلامية في الآفاق، وانهالتِ الأموال والثَّروات، وتيسَّرت سُبُلُ العيش، وتوفَّرت وسائل التَّرف والبَذخ، وبَعُد عهدهم بالنُّبوَّة، وصدقَ عليهم قولُ

---

(١) الرسالة السابقة نفسها.

ربِّك: ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦]. ومُدَّت حبائل الشَّيطان، ونَجمت فِتَن المادِّيَّة، والأمراض الرُّوحيَّة، والأدواء النَّفسيَّة في صور وألوان، وفي ثياب النَّظريَّات الجديدة، والفلسفات الوليدة، قامَ العلماء بتدوين علم التَّزكية والإحسان باصطلاح حادث جديد، ألا وهو «التَّصوُّف».

كما أنَّ اختلاط الشُّعوب العَجميَّة حول قواعد اللغة (النَّحو والصَّرف) وفنِّ المعاني والبيان ـ الذي كان أهل اللِّسان يعرفون أصوله ومباديه بِسَليقتهم وفطرتهم ـ إلى علم واسع دقيق، وهو ما يُسمَّىٰ بعلم النَّحو والبلاغة، ظهر فيهما نوابغ العلماء البارعين الذين أنشؤوا «مدارس» مستقلَّة، و«جامعات» شهيرة، ووُضعت لها المناهج الدِّراسيَّة، وقصدها هُواة العِلم والطُّلاَّب من كلِّ حدب وصوب.

لقد كانت عمدةُ هذه الطَّريقة لمعالجة الأمراض الرُّوحيَّة (أي التَّصوُّف والتَّزكية) على تَـتَـبُّع الكتاب والسُّنَّة، وسيرة الرَّسول ـ ﷺ ـ وأخلاقه وعاداته وشمائله.

البِدَعُ والخُرافات تغزو التصوُّف:

ثم بدأت تغزو التَّصوُّفَ ـ نتيجة عوامل الزَّمن، والاختلاط بالشُّعوب العجميَّة، والتي دخلت حديثاً في الإسلام، وصحبة النُّسَّاك والزُّهَّاد، وإجلالهم والعقيدة فيهم ـ البِدعُ والخُرافات، والمُغالاة في التَّنسُّك والزُّهد، وتسرَّبت إليه جراثيم الرَّهْبَنة، والتَّجرُّد، والاعتزال، والتَّعظيم المفرِط المُتطرِّف لأشخاص ورجال يُعتقد فيهم الصَّلاح والوِلاية، وكثير من العادات والتَّقاليد المختلفة المُفتراة، حتَّىٰ دبَّت على مرِّ الأيَّام إلى بعض الأوساط الرُّوحيَّة عقيدةٌ أجنبيَّة دخيلة على الإسلام، وهي أنَّ السَّالك بعد الاستغراق في العبادات بإخلاص ودقَّة، واستيعاب، والتزام الفرائض، والسُّنن لمدَّة خاصَّة، وبعد حصول المعرفة الكاملة يَرتقي إلى مقام يُرفع عنه فيه التَّكليف،

وتَسْقُط عن ذمَّته الفرائض الشَّرعيَّة، والعِبادات المكتوبات ، يُستثنىٰ من التزام كل ذلك والتَّقيُّد به ، وهذا ما يُسمَّىٰ بـ «سقوط التَّكاليف» ، ويَستدلُّ أصحاب هذه العقيدة بقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٩] ، إنَّها كانت فتنة عمياء ، صَمَّاء تجمِّد نِظام الشَّريعة بأسره ، وتُحرِّر السَّالك من كلِّ القيود والحدود ، وتُطلق رقبته من نير العبادات والقُرُبات.

ويبدو أنَّ هذه المُحْدَثات والتَّحريفات في الإسلام بدأت من أوائل القرن الرابع حين كانتِ الخِلافة العبَّاسيَّة في أَوجِ زَهرتِها ، وعُنفُوان شَبابها ، وكانت المدينة الإسلامية العظيمة (بغداد) في ذُروة الرُّقيِّ والمدنيَّة ، فإنَّ أقدم ما أُلِّف في التَّصوُّف ومما طُبع ونُشِر هو تأليف الشيخ أبي النَّصر السرَّاج (م٣٧٨هـ) «كتاب اللُّمع» وفيه فصل بعنوان «كِتاب الأسوة والاقتداء برسول الله ـ صلَّىٰ الله عليه وعلى آله وسلَّم ـ» (١) ، ولعلَّه لأجل ذلك وردت بعده في كتاب «كشف المحجوب» للسيِّد علي الهِجْوَيْرِيّ (م٤٦٥هـ) (٢) ، مثل هذه العبارات المُنذِرة المذكِّرة: «إنَّ إقامة الحقيقة من غير الحِفاظ على الشَّريعة محال ، والحقيقة بغير الشَّريعة نِفاق».

وأقدَمُ كتابٍ يَضمُّ منهجاً كاملاً للتَّصوُّف هو «الرِّسالة القشيريَّة» تأليف الإمام أبي القاسم القُشَيْرِيّ (م٤٦٥هـ) ، وقد بلَغ التَّصوُّف في عصره من التَّردي والانحطاط حتىٰ قال القُشيري في كتابه:

«وارتحل عن القلوب حُرمة الشَّريعة ، فَعدُّوا قِلَّة المُبالاة بالدِّين أوثق ذريعة. . . واستخفُّوا بأداء العبادات ، واستهانوا بالصَّوم والصَّلاة» (٣).

والبابُ الأوَّل في كتابه يتعلَّق بتعظيم حُرمة الشَّريعة ، وقد ذكر فيه نُبْذةً من أحوال المشايخ والصُّوفيَّة ، وأخبارِهم في تعظيم حُرمة الشَّريعة ، واتِّباع السُّنَّة

(١) كتاب «اللمع»، ص ٩٣ ـ ١٠٤، طبعة لندن ١٩١٤م.
(٢) هو الإمام أبو الحسن علي بن عثمان أبي علي الجلابي، وقبره بلاهور.
(٣) الرسالة القُشيريَّة: ص١، طبعة مصر.

النَّبويَّة ، ويقول في الباب الأخير ـ رقم ٥٤ ـ بعنوان «وَصيَّة المُريدين» :

«بناءُ هذا الأمر ومَلاكُه على حِفظ آداب الشَّريعة» ، والكتاب كلُّه يحتوي على الحقائقِ الشَّرعيَّة والعلوم الصَّحيحة النَّافعة ، وقد اهتمَّ به الصُّوفيَّة المُحقِّقون ككِتابٍ دراسيٍّ يُوثَق به ويُعْتَمَدُ عليه .

والإمام عبد القادر الجيلاني البغدادي أَجلُّ مشايخ الطَّريقة ، وأئمة الحقيقة شأناً ، وأشدُّهم تحمُّساً للشَّريعة ، وحماية لها والدَّعوة إليها ، فقد كان أكبرُ تركيز في تعاليمه وإرشاداته على التَّمسُّك بالسُّنَّة واتِّباع الشَّريعة ، وكانت حياتُه كلها ترجمةً حيَّة لهذه الدَّعوة وصُورةً جليَّة لهذا المنهج ، وقد رَبط بتأليف كتابه العظيم «غُنية الطَّالبين» ناصية الطريقة بأذيال الشَّريعة ، وتَختصُّ الموعظة الثَّانية من كتابه «فتوح الغيب» المُشتملُ على خطبه ، ومواعظه؛ باتِّباع السُّنَّة ونبذ البِدعة ، ويبدؤها بقوله : «اتَّبعوا ولا تبتدعوا» .

إنَّـه يتبـوَّأُ مَكَانة المُجدِّد في إخضاع الطَّريقة للشَّريعة ، واستخدامها لزيادة التَّمسُّك بالشَّريعة ، ويُرشِد إلى الاشتغال بالفرائض أوَّلاً ، ثم بِالسُّنن ثانياً ، ثم بالتَّطـوُّع ثالثاً ، ويُـصرِّح بأنَّ الاشتغال بالثانـي يكون بتَـرك الأوَّل ، سَفاهَةٌ ورُعُونَة .

وإنَّ أكثر كُتب التصوُّف قَبولاً ورواجاً ، وأوثقها عند الصُّوفيَّة وأفضلَها هو كتاب «عوارف المعارف» للشيخ شِهاب الدِّين السَّهْرَوَرْدي (م ٦٣٢هـ) الذي تمسَّك به الصُّوفيَّة ، وردَّدوه في كل عصر ومصر ، وكان يُدرَّس في كثير من الزوايا والرباطات ، ويتعلَّق الجزء الثَّاني من هذا الكتاب ببيان أسرار أركان الشَّريعة الإسلاميَّة وآدابها ، وتوصَّل الشَّيخ فيه إلى هذه النَّتيجة : «إنَّ التَّصوُّف عبارةٌ عن الاقتداء بِالرَّسول ﷺ قولاً وعملاً وحالاً ، وبالمُواظبة عليه تتقدَّس نفوسُ الصُّوفيَّة ، وتَرتَفع الحُجب ، ويتحقَّق الاتِّباع للرَّسول ﷺ في كُلِّ شيء» (١) .

---

(١) عوارف المعارف : ص١ .

تحوُّل التصوُّف إلى فلسفة:

وتَحوَّلَ التَّصوُّفُ في القرن التَّاسع الهجري بتأثير الشيخ محيي الدِّين بن عربي الأَندلسيِّ الطَّائي (م٦٣٨هـ) وتلامذته ـ وكان تأثيراً قوياً انتشر في العالم الإسلامي كالتَّيَّار المُندفع السَّريع ـ إلى فلسفة انطوت على كثيرٍ من مصطلحات الفلسفة الإلٰهيَّة اليونانيَّة، وقضاياها المُتشعِّبة، وأصبحتْ نظريَّة «وحدة الوجود» شعَار الصُّوفيَّة، يَعْتَزُّون بها ويَفتخرون، وتحمَّست لها الزَّوايا والتَّكايا، والمدارس، وحلقات العلم، وظلَّتِ الرِّباطات والزَّوايا الصُّوفيَّة ـ لقلَّة الاشتغال بالكتاب والسُّنَّة، والجهل بعلم الحديث الشَّريف، وقِلَّة وجود الصِّحاح والكتب المعتمد عليها عند أهل الصِّناعة ـ مرتَعَ العقائد والأفكار التي لا دليل عليها، ولا سندَ لها، في مصادر الدِّين الأصليَّة، ولم يكن يَعْرفُها مسلمو القرون الأولىٰ على الإطلاق.

التصوُّف في الهند:

وهنا في الهند ـ التي كانت منذ آلاف السِّنين مركزَ اليُوك، والتَّنسُّك والرَّهبانيَّة ـ واجَه الصُّوفيَّة الواردينَ من الخارج اليَوكِيِّين المُحنَّكين المُرتاضين الذين كانوا ضاعَفوا قوَّة نفوسهم، ومخيَّلتهم عن طريق حَبْس الأنفاس، والتَّأملات اليوكيَّة المعروفة لديهم، فتعلَّم بعض المتصوِّفة المسلمين منهم هذا الفنّ [١].

---

(١) هذا في جانب، وفي الجانب الآخر كانت هذه البلاد لا تعرف شيئاً عن الصِّحاح الستة، ومؤلفيها، وأئمة هذا الفن الذين نقدوا علم الحديث ونخلوه، وميَّزوا بين صحيحها وسقيمها، وقاوموا البدع والمُحدثات، وأثبتوا أن حياة المسلمين يجب أن تقوم على أساس السنة المطهرة، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة ونستثني من ذلك ولاية كجرات، التي انتشر فيها علم الحديث لنزول العلماء العرب بها، وكثرة الرحلات منها إلى الحرمين الشَّريفين،ونبغ فيها العلامة علي المتقي البرهان بوري، وتلميذه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني.

ويمكن الاطِّلاعُ على هذا التَّأثير الذي خَلَّفَتْهُ الفلسفات والتَّجارب المحليَّة في الهند على التَّصوُّف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي ، الذي ذَاع صِيته في عصره ، وحَصل له القبول العظيم عند النَّاس ، والكتاب يشتمل على أقوال الصُّوفيَّة ، وتجارب الشَّيخ الكواليارى الشَّخصيَّة ويُخيَّل إلينا أنَّهم لم يروا حاجةً إلى ثُبوت هذه الأمور بالأحاديث الصَّحيحة ، واقتباسِها من كتب السِّيرة النَّبويَّة المُعتبرة ، فَتَجِدُ في هذا الكتاب المذكور آنفاً «صلاة الأحزاب» و«صلاة العاشقين» و«صلاة تنوير القبر» ، والصلوات المخصوصة للأشهر المختلفة والأدعية الخاصَّة بها ، التي لا أصل لها في السُّنَّـة ، ولا أَثَر لها في الحديث.

وقد جمع المؤلِّفُ (الشَّيخ الكواليارى) في «الجوهر الثاني» ـ حَسب تقسيمه للكتاب ـ «الأسماءَ الأكبريَّة» التي تحتوي على أسماء المَلائكة باللُّغتين العِبرانيَّة والسِّريانيَّة ، وقُدِّمت بِحروف النِّداء ، وهذا يدلُّ على الاستعانة بغير الله ، وذُكِرَ فيها دعاء باسم «دعاء بَشمخ» الذي ذُكرت فيه الأسماء السِّريانيَّة والعِبرانيَّة مُقدَّمة بحروف النِّـداء.

والكِتابُ كُلُّه مؤسَّس على الدَّعوة إلى الأسماء ، ويُعتقد أنَّ لهذه الأسماء حَفَظَةً مُوَكَّلين يَعرفون حقيقتها وماهيَّتها ، وذُكرت حروف الهِجاء ، وأسماء الموكَّلين بها أيضاً ، وفيه دعاءٌ بهذه الصِّيغة «نادِ عليّاً مُظهرَ العجائب» !.

لقد بدأ عملُ الإمام السَّرْهندي التَّجديديُّ في هذا العصر الذي امتاز بهذا الخليط الغَريب من السُّنَّة والبدعة ، والشَّريعة والفلسفة ، والتَّصوُّف الإسلامي واليُوك ، ويقول هو نفسُه في رسالةٍ وجَّهها إلى ابن شيخه محمد عبد الله ، وهو يُصوِّر هذا الوضع المُكْفَهِرّ:

«لقد كَثُرت البِدَعُ والمُحدَثات في هذه الأيام كثرةً فاحشة ، حتىٰ لَيُخيَّل للنَّاظر ، أنَّ بحراً من الظُّلُمات تَتلاطم أمواجه ، وأنَّ نور السُّنَّـة في هذا البحر الهائج المائج يتلألأ تلألؤ يَراعاتٍ منتشرة في ظُلمة الليل البَهيم».

رفع الإمامُ السَّرْهنديُّ صَوتَهُ مُجلجِلاً مُدَوِّياً ـ في هذه الفترةِ الخطيرة الحرجة في الهند ، إذ كانت شَأفَةُ الإسلام تُستأصَل بأيدي الدَّولة التي تَتسمَّىٰ بالإسلام ، ويُستهان في الزَّوايا الصُّوفيَّة بالسُّنَّة النَّبويَّة ، ويُقال علناً وجهاراً: إنَّ الطَّريقة في واد ، والشَّريعة في واد ، لِكُلٍ منها طريقه وتقاليده وأصوله.

أمَّا طالب الحق الذي يريد معرفة الحقِّ ، فَيَسأل المشايخ عن الدَّليل الشَّرعي ، فكان جوابه «هذا وادٍ ليس زاد المسافر فيه إلَّا التَّقليد والانقيادُ المُطلق للشَّيخ الحكيم ، ولو أَمَرَه بِإتيان مُحَرَّمٍ ومحظورٍ في الشَّرع».

حماية الشريعة الإسلامية والدِّفاع عنها ، وإصلاح العقائد ، ودحض الشِّرك وتقاليد الجاهلية:

في هذا الجوِّ القاتم أعلن الإمام السَّرْهندي في قُوَّة وجَراءَة ، «أنَّ الطَّريقة من خَدَم الشَّريعة ، خاضعةٌ لأمرها ، وأنَّ محاسن الشَّريعة أعلىٰ وأرفع من «المقامات ، والأحوال ، والمُشاهدات» وأنَّ العمل بحكُم شرعيٍّ واحدٍ أنفعُ من مُجاهدة آلاف السِّنين ، وأنَّ القيلولة اتباعاً للسُّنَّة ، أفضلُ من إحياء الليل من غير اتِّباعِ السُّنَّة ، ولا اعتدادَ بأعمال الصُّوفيَّة في الحِلِّ والحُرمة ، بل الحاجة إلى دليلَ من الكتاب والسُّنَّة ، وكُتب الفِقه ، وأنَّ رياضات أهل الضَّلال ، ومجاهداتهم لا تستوجب القرب ، بل تستحِقُّ البُعد والطَّرد ، وأنَّ الأشكال والصُّور الغيبيَّة من قبيل اللهو واللعب ، ولا يَسقط التَّكليف الشَّرعي أبداً.

واقرأْ ـ بعد هذا التَّمهيد ـ مُقتبساتٍ من رسائل الإمام التي تشتمل على بيان هذه الحقائق:

«إنَّ الشَّريعة مُتكفِّلةٌ بجميع السعادات الدنيويَّة والأخرويَّة ، وليس هناك مَقْصدٌ نحتاج في تحقيقه وإنجازه إلى شيء غير الشَّريعة ، وأنَّ ما يمتازُ به الصُّوفيَّة من «الطَّريقة والحقيقة» كلتاهما خادمتان للشَّريعة تُساعدان في تحصيل الإخلاص وصَفاء النيَّة ، وهكذا فإنَّ الهَدف من وراء تَحصيل الطَّريقة

والحقيقة ، ليس إلاَّ تطبيقَ الشَّريعة ، بِرُوحهـا وحقيقتها ، لا ما هو خارج عن نِطاق الشَّريعة .

أمَّا الأحوال والمواجيد ، والعلوم ، والمعارِف التي تَقَع في طريق السَّالك لا علاقة لها بالمقاصد ، بل إنَّها أشكال وألوان وأخيلة و«لُعب تربَّىٰ بها أطفالُ الطَّريقة» وينبغي الوصول مروراً بهذه الأشياء إلى مقام الرِّضا ، الذي هو نهاية السُّلوك والمواجيد والمقامات» [١] .

وَيقول في هذه الرِّسالة أيضاً :

«يَظُنُّ قِصار النَّظر أنَّ الأحوالَ والمواجيد من المقاصد والغايات ، وأنَّ المشاهدات والتَّجليات من المطلوبات ، ويَستلزم ذلك حَبْسهم في سِجْنِ الوهم والخيال ، والحِرمان من فضائل الشَّريعة ومدارِجِها العظيمة :

﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [٢][الشُّورىٰ: ١٣] .

ويقول في رسالة أخرىٰ ، مُبيِّناً تقديم الفرائض على النَّوافل ، وترجيحاً عليها :

«إنَّ ما يُتقرَّب به إلى الله من الأعمال ، هي إما فرائض وإمَّا تطوُّعات ، وليس للتَّطوُّعات أيُّ قيمة إزاء الفرائض ، وإنَّ أداء فريضة في وقتها أفضلُ من تطوُّعِ ألفِ سنة ، ولو كان بِنيَّةٍ خالصة» [٣] .

ويقول في رسالة لبيان أنَّ العمل بأحكام الشَّريعة بغية إصلاح النَّفس وإزالة الأمراض الباطنيَّة أنفعُ من آلاف الرِّياضات والمُجاهدات :

«إنَّ العمل بالأحكام الشَّرعيَّة بُغية إزالة الأهواء النَّفسانيَّة أعظمُ نفعاً وتأثيراً من رياضاتِ ألف سنة ، ومُجاهداتها التي يَضعها السَّالك من تلقاء نفسه ، بل

---

(١) الرسالة رقم: ٣٦، المجموعة الأولىٰ وهي موجَّهة إلى الشيخ حاجي محمد اللاهوري.
(٢) الرسالة السابقة نفسها.
(٣) الرسالة رقم: ٢٩ ، المجموعة الأولىٰ ، وهي موجَّهة إلى الشيخ نظام التهانيسري.

هذه الرِّياضات والمُجاهدات التي لا تُوافق مُقتضيات الشَّريعة الغرَّاء ، تَزيدُ في شدَّة الأهواء والأمراض النَّفسانيَّة صرامتها ، فإنَّ البراهمة واليُوكيِّين لم يَدَّخروا وسعاً في الرِّياضات والمُجاهدات الشَّاقَّة ، ولم تُجدهما فتيلاً ، ولم تَزِدهُما إلاَّ عُتواً وضلالاً».

ويقول في رسالة أخرىٰ مُبيِّناً أهميَّة محاسن الشَّريعة وفضلها :

«إنَّ أكثر الناس ـ في هذه الدُّنيا ـ فرِحون بتخيُّلاتهم ورُؤاهم ، ومُقتصرون على اللَّوز والجوز ، ما يُدريهم بمحاسن الشَّريعة وفضائلها ، وحقيقة الطَّريقة وأصلها؟! إنَّهم يَرون الشَّريعة قِشرة ، والطَّريقةَ لُباباً ، ولا يدرون الحقيقة، مخدوعين بشطحات الصُّوفيَّة، وأقوالهم السَّطحيَّة ، مَفتونين بأحوالهم ومقاماتهم» (١) .

ويقول في رسالة لبيان فضيلة العمل بسُنَّة واحدة وأهميَّته :

«الفضيلةُ مُرتبطة باتِّباع السُّنَّة السَّنيَّة ، والشَّرفُ قائم على العمل بالشَّريعة ، فالقيلولة ـ مثلاً ـ بِنيَّة اتِّباع السُّنَّة أفضل من إحياء اللَّيل مئات الآلاف من المرات ، وأداءُ فِلس واحد من الزَّكاة أفضلُ من إنفاق جبالِ الذَّهب تطوُّعاً وتصدُّقاً» (٢) .

ويقول في رسالة أخرىٰ :

«يعتقدُ الصُّوفيَّة النَّاقصون أنَّ الذِّكر والفِكر أهمُّ المهمَّات ، ويتكاسلون عن أداء السُّنن والفرائض ، ويُفضِّلون الرِّياضات والأربعينيات على الجمعة والجماعات ، ولا يَدرون أنَّ أداء صلاة واحدة مع الجماعة أفضلُ من آلاف الأربعينيَّات التي يعتكفون فيها ، أمَّا إذا كان الذِّكر والفِكر مع مراعاة الآداب الشَّرعيَّة فهما من أفضل الأعمال والقربات ، وكذلك العلماء النَّاقصون

(١) الرسالة رقم: ٤٠، المجموعة الأولىٰ كتبها إلى الشيخ محمد الجتري.

(٢) الرسالة رقم: ١١٤، المجموعة الأولىٰ، وهي موجَّهة إلى الصوفي قربان.

يجتهدون في نَشر النَّوافل والتطُّوعات والدَّعوة إليها ، ويُضيِّعون الفرائض ويُفسِدونها» [١].

ويكتب إلى الشيخِ مِيْر مُحمَّد نُعمان ، فيقول:

«هناك فريق من هؤلاء الصُّوفيَّة لم يُقدَّر له أن يعرف حقيقة الصَّلاة وفضائلها الخاصَّة ، فَيَبحثُ عن علاجِ أمراضه الرُّوحيَّة في أشياء أخرىٰ ، ويَظُنُّ أن أهدافه ومقاصِدَه مرتبطة بأمور أخرىٰ .

بل إنَّ منهم فريقاً لا يرىٰ فائدة في الصَّلاة ، ويحملها على «الغيريَّة» والأجنبيَّة ، ويُفضِّل عليها الصَّوم ، إذ تتجلَّىٰ فيه صِفة «الصَّمَدِيَّة».

والكثْرةُ الكاثرةُ من هؤلاء الصُّوفيَّة تَجِدُ طُمأنينتها وسلواها في الأغاني والنَّغمات ، والوَجْد والتَّواجد ، وتحسَب الرَّقص مَنْقَبَةً وكمالاً ، ألم يسمعوا قول الرَّسول ﷺ : ـ«ما جعل الله في الحرام شفاءً»[٢] ، لو انكشفتْ عليهم ذَرَّةٌ من مكانة الصَّلاة وحقيقتِها ما سرَّتْهُم الأغاني ، ولا أطربَتْهُمُ الألحان ، ونَسَوا المواجيد والأذواق ، فلمَّا لم يُبصرُوا الحقيقة كما هي ، هاموا على وجوههم في الأساطير والخُرافات» [٣].

ويُشِيرُ في موضع إلى ذلك الصَّفاء الذي يحصل لنفوس المُشركين والكُفَّار والمُنهمِكين في أعمال الفسق والفجور من الرِّياضيين اليوكيِّين ، فيقول:

«تَـنْحَصرُ التَّزكية الحقيقيَّة في الأعمال الصَّالحة التي يرضاها الله تعالىٰ ويتوقَّف ذلك على البِعثة ـ كما تقدَّم ـ فلا تصفية ولا تزكيَة إلا بالبعثة ، وما يجده الكفَّار وأهلُ الفسِق من الصَّفاء ، إنما هو صفاء النَّفس ، وليس صفاء

---

(١) الرسالة رقم: ٢٦٠، المجموعة الأولىٰ، وهي موجَّهة إلى ابنه الشيخ محمد صادق.

(٢) [لم أجده بهذا اللفظ]. أخرجه الطبراني بسند صحيح في المعجم الكبير (٣٢٦/٢٣) برقم (٧٤٩) عن أم سلمة مرفوعاً «إنَّ الله تعالىٰ لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم»، وفي لفظ [كما ذكره الذهبي في «الكبائر» (١/ ٨٤) من حديث أم سلمة رضي الله عنها نفسها] «إنَّ الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرَّم عليها».

(٣) الرسالة رقم: ٢٦١، المجموعة الأولىٰ، وهي موجَّهة إلى الشيخ مير نعمان.

القَلب ، ولا يزيدُها صفاءُ النَّفس إلاَّ زيغاً وضلالاً ، ولا يَهدي إلاَّ إلى طريق الخَيبة والخُسْران ، وما يحصُل لبعض الكُفَّار والفَسَقة عند صفاء النَّفس من كشفِ بعض الأمور الغيبيَّة ، فذلك استدراجٌ ، وليس في حقِّهم إلا ضرراً وضياعاً ، وخُسراناً مبيناً»[١].

ويقول ردّاً وتفنيداً لعقيدة سُقوط التَّكاليف الشَّرعيَّة عن ذمَّة السَّالك والعارف ، وتحرُّره من رِبقة الفرائض والأحكام الشَّرعيَّة ـ التي هي بمثابة مُتفجِّرات وألغام ، وضعت لِنسف الشَّريعة الإسلاميَّة بأسرها والقضاء عليها ـ:

«يُفكِّر المتصوِّفةُ المُخدجون النَّاقصون والمُلحدون الضَّائعون في تحرير رِقابهم من طوق الخضوع للشَّريعة الإسلاميَّة ، وقَصر الأحكام الشَّرعيَّة على العوام من النَّاس ، ويعتقدون أنَّ الخواصَّ ليسوا بمكلَّفين إلاَّ بالمعرفة ، كما أن الأمراء والسلاطين مكلَّفون بالعدل والقِسطِ بين الناس فحسب ، ويقولون: إنَّ الغرض من العمل بالشَّريعة ليس إلاَّ تحصيل المعرفة ، فإذا تحقَّقتِ المعرفة سقطت التَّكاليف الشَّرعيَّة ، ويستدلُّون بهذه الآية: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾[٢][الحجر: ٩٩] .

ويُثبِت في رسالة أنَّ عمل الصُّوفيَّة ليس بِحُجَّة في إباحةِ شيء أو حرمته ، فيقول:

«ليس عَمَلُ الصُّوفيَّة حُجَّة في الحرمة والإباحة ، ألا يكفي أن نَعذُرهم ونَتْرُكَ مَلامهم ، ونكِل أمرهم على الله ، والحُجَّة في مثل ذلك قول الإمام أبي حنيفة والإمام أبي يوسف ، والإمام محمد مثلاً ، لا قول أبي بكر الشِّبلي ، وأبي الحسن النُّوري؟! إنَّ صُوفيَّة هذا العصر التَّافهين يتعلَّلون ويستدلون بأعمال مشايخهم في الرَّقص والغِناء ، ويتَّخذونها ديناً مُتَّبعاً ،

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة الأولىٰ وهي موجَّهة إلى الشيخ عبد الله والشيخ عبيد الله.

(٢) الرسالة رقم: ٢٧٦، المجموعة الأولىٰ، وهي موجَّهة إلى الشيخ بديع الدين.

وسُنَّة مطاعة ، وظنُّوها طاعة وعبادة ، ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ (١)[الأعراف: ٥١] .

وتحوَّلت حمايةُ الإمام السَّرْهندي هذه للشَّريعة الإسلاميَّة إلى حَمِيَّة جيَّاشة ، فإذا سَمِع شيئاً من تَحقيقات الصُّوفيَّة وأحوالهم ، مما يُخالِف الكتاب والسُّنَّة ، وعقيدةَ جمهور الأمَّة ، أو يَرىٰ الاستدلال والاحتجاج بأحوال الصُّوفيَّة أو أقوالهم ، أو أيَّ كتاب من كُتب التصوُّف؛ تَتَحرَّك هذه الحَمِيَّة في صدره ، ويَغلي مِرجلُهُ ، ويَنبضُ عِرْقُه العُمَرِيُّ (٢)، ويَنْبَجِسُ من قَلَمِه السيَّال سيلٌ عرم من الغيرة على السُّنَّة ، والذَّب عن الشَّريعة ، والرَّدِّ على البِدعة ، ذكر له بعض تلاميذه قولاً شاذاً موحشاً من أقوال الشَّيخ عبد الكبير اليَمني ، فلم يتمالك الإمامُ زمامه ، وصدرت من قلمه ـ عفو الخاطر ـ هذه الكلمات :

«يا سيِّدي إنَّ الفقير لا يستطيع أن يَصْبِرَ على هذه الأقوال ، إنه يتحرَّك عِرقي الفَاروقيُّ ولا يترك مجالاً للتَّوجيه والتأويل ، سواء كان قائله الشيخ الكبير اليمني ، أو الشيخ الأكبر الشَّاميّ (٣) ، نحن في حاجة إلى كلام محمد العربي ـ عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّلام ـ لا كلام محيي الدِّين ابن عربي ، ولا صَدر الدِّين القونوي ، ولا الشيخ عبد الرَّزاق الكاشي ، نحن نُريد النَّص ، لا الفَص (٤) ، وقد أغنتنا الفتوحات المدنيَّة عن الفتوحات المكيَّة» (٥).

ويَقُولُ مُصرِّحاً بأنَّ كل عمل يؤدَّىٰ وفق الشَّريعة الغرَّاء ، يندرجُ في الذِّكر :

«يَنبغي صرفُ الأوقات كُلِّها في ذكر الله ، وكُلُّ عمل وفق الشَّريعة الغرَّاء

(١) الرسالة رقم: ٢٦٦، المجموعة، وقد تقدَّمت.
(٢) [نسبة إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه].
(٣) أي الشيخ محيي الدين ابن عربي الذي توفي بدمشق، ودفن فيها.
(٤) المراد بالنص، النص الشرعي، والمراد بالفص، كتاب ابن عربي «فصوص الحكم».
(٥) كتاب مشهور للشيخ ابن عربي، الرسالة رقم: ١٠٠، المجموعة الثانية، كتبها إلى الشيخ ملا حسن الكشميري.

داخل في الذِّكر ، وأمَّا البيع والشِّراء فيجب الاهتمام في جميع الحركات والسَّكنات بالأحكام الشَّرعيَّة ، حتىٰ تصبح كلها ذكراً ، لأنَّ الذِّكر عِبارة عن إزالة الغفلة ، فإذا روعيت الأوامر والنَّواهي الشَّرعيَّة في جميع الأعمال يتخلَّص العالم بذلك من الغفلة والنِّسيان لمن أمر بهذه الأعمال ، وهو الله الواحد الآمر والنَّاهي ، وتَحصُل له نِعمةُ المُداوَمة على الذِّكر»[١].

محارَبةُ العقائد والتَّقاليد وشعائر أهل الجاهليَّة ، والدَّعوة إلى الدِّين الخالص:

لقد كان مَعِينُ الإسلام الصَّافي في الهند ـ التي لم يَزل أساسُ الإسلام فيها ضعيفاً ، لأسبابٍ وعواملَ تاريخيَّة مختلفة ، وكانتْ موطن شعوبٍ مُشركةٍ وديانات وثنيَّة ـ تتسرَّب إليه المخلَّفات والرَّواسب من الدِّيانات السَّائدة ، وكان يَخشىٰ أن يغيب هذا الينبوع في الظُّلُمات المُتراكمة حتىٰ يَضِلَّ الخِرِّيتُ ويحار الدَّليلُ.

ولذلك لمَّا بدأ الإمام السَّرْهندي رِحلَته التجديدية ، وكانت أوَّلَ خطوة خطاها على طريق الأنبياء ، وعلى نَفس المنهج الذي سار عليه الرُّسل ، هي الخُطوةُ نحو إصلاح العقائد ، وتصحيح الاتِّجاه ، فقد كان إباؤُه عن سَجدةِ التَّحيَّة أمام السُّلطان (جَهَانكِيْر) ، ورفضُه لهذه البِدعة الشَّنيعة عنواناً لامعاً في تاريخ إصلاحه وتجديده.

وقد تناول في رسائله التي وجَّهها إلى مُختلف أصحابه وأتباعه بيان حقيقة التَّوحيد بأسلوب واضح مبين ، وعِبارات موجزة جامعة رصينة ، وقدَّم الدَّلائل والبراهين على وحدانيَّة الله ـ تعالىٰ ـ وأنه هو المُستحقُّ للعِبادة وحده ، بأسلوب يدلُّ على رسُوخه وعُلوِّ كَعْبه في هذا العلم.

وقام بدحضِ الشِّرك ومظاهره وتقاليده ونهىٰ أصحابه وأتباعه نهياً شديداً عن الأعمال الشِّركيَّة ، والعادات الجاهليَّة ، وتقليد الكُفَّـار ، من اليهود والنصارىٰ

---

(١) الرسالة رقم: ٢٥ للمجموعة الثانية وهي موجَّهة إلى الشخ خواجه محمد شرف الدين.

والمُشرِكين ، إذ أنه لا بداية لعمل الإصلاح والتَّجديد إلاَّ به فضلاً عن نِهايته وكماله .

وهنا مُقتطفاتٌ من رسالة مُسْهَبَة كتبها إلى امرأة صالحة بايَعَتْهُ وتابَتْ على يده ، وقد تضمَّنتْ هذه الرِّسالة الرَّدَّ على عامَّة ما يُبْتلىٰ به الجُهلاء من المُشركين خُصوصاً النِّساء منهم ، يقول فيها :

تَعظيمُ مَظاهرِ الشِّرك والوثنيَّة:

«إنَّ تعظيم مظاهرِ الشِّرك ، وأعياد الجاهليَّة من أعظم أنواعِ الإشراك بالله ـ عزَّ وجلَّ ـ وإنَّ من يَعتقد بِصحَّة دينين وصلاحيتهما في وقتٍ واحدٍ، فهو مشرِك، وإنَّ من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكُفر والشِّرك، فهو مُشرِك ، ولا يتم الإسلام إلاَّ بالبراءة من الشِّرك ، ومُحادَّته ومُعاداته ، وإنَّ التَّوحيد هو الاشمئزازُ والنُّفور من كلِّ شائبةٍ من شوائب الشِّرك» .

الاستِعانـةُ بغَيـرِ الله:

ويقول رحمه الله : «إنَّ الاستعانة بالطَّواغيت والأصنام في دفع الأمراض وشِفاء الأسقام ـ التي راجت في المسلمين وعمَّت في دَهْمائِهم ـ عينُ الشِّرك والضَّلال ، وإنَّ طَلبَ قضاء الحاجات من الأحجار المَنحوتة جُحُود صريح بالله ـ تعالىٰ ـ وعينُ الكُفر ، يقول الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ مُبيِّناً حال بعض الغُواة الضَّالِّين :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ﴾ [النِّساء: ٦٠] .

وإنَّ كثيراً من النِّساء ـ لِغايةِ جَهْلِهِنَّ وضَلالهنَّ ـ يَطْلُبنَ قضاء حوائجهنَّ من غيـرِ الله ، ويسألن بأسماء ما أنـزل بها الله من سُلطان ، دفـعَ البَـليَّـات وكَشْف الكُربات ، إنَّهنَّ لأسيراتٌ في أغلال الشِّرك وطقوسِه وتقاليده .

سِيتلـه:

«وتَتجلَّىٰ هذه العقائد الشِّركيَّة وتُشاهد هذه الأعمال والتَّقاليد الجاهليَّة ـ بصفة خاصَّة ـ عندما ينتشر مرض الجدري (الذي يُعرف في أوساط النِّساء في الهند باسم «سِيتله») [١] حيث تقع جميع النِّساء في الجهل المُطبق ، والكُفر الصَّريـح ، ويأتين بأعمال شِركيَّة ، وقلَّما تجد امرأة تتَّـقي دقائـق هذا الشِّرك ، ولا تُـقدم على أيِّ نوعٍ من أنـواع الشِّرك بهذه المناسبة ، اللَّهم إلاَّ مَنْ عَصمَ رَبُّكَ» .

تعظيـم أعيَاد الكفَّـار والمُشركيـن وتقيلدُ عاداتهـم وطقوسِهـم:

«كذلك فإنَّ تعظيم أعيَاد الهنادك ، والاحتفال بالأيَّام التي يقوم فيها الهنادك بتقاليدهم وطقُوسهم ، يَستلزم الشِّرك ويستوجب الكُفر ، وإنَّ الجهلة من المسلمين في أيَّام «دِيْوَالِيّ» ـ هو عيدٌ من أعياد الهنادك ، يُوقدون فيه المصابيح ويُقامرون ، ويَتبادلون الهدايا والتَّهاني ـ لا سيَّما نساءهم يُـقلِّـدنَ الهنـادك في عاداتهـم وطقوسهم ، ويَـحتفِلْنَ بعيدهـم ، ويَـتهادين فيما بينهن ، فيَبْعَثْنَ بالتُّحف والهدايا إلىٰ أخواتهنَّ وبناتهنَّ مثلما يفعلُ المُشركون والمُشركات ويُلوِّنَّ أوانيهنَّ بنفس الألوان التي تُلَوِّنُ بها الكافرات ، ويملأنها «بالفِيْرِنِيِّ» الأحمر [٢] ، ثم يَبْعثْنَها هدايا ، ويحتفلنَ بهذه الأيام وهذا العيد احتفالاً كبيراً ، وكُلُّ ذلك شرك وكفر بدين الإسلام وجحودٌ به» .

النُّـذُورُ وذَبـح القَرابيـن للأولياء وللصَّالحيـن:

ويقـول فـي هـذه الـرِّسـالـة : «وكـذلـك يَـنذرون الحيـوانـات للمشـايـخ

(١) اسم آلهة من الإلٰهات المفروضة المتخيّلة عند وثنيي الهند، يعتقدون أنها تسبب الجدري، ولا يرتفع هذا الوباء، ولا يشفى المريض إلا إذا أرضيت هذه الإلهة بالنذور والقرابين.

(٢) طبيخ الرز واللبن، وهو مثل المهلَّبيَّة.

والصَّالحين ، فَيسوقونها إلى قبورهم ، ثمَّ يذبحونها هناك ، وقد وَرد في كتب الفِقه ما يدلُّ على أنَّ هذا كذلك من الشِّرك ، وجاء فيه تشديد وتأكيد ، واعْتُبرتْ هذه الحيوانات التي تُذبح على قبورهم كالذَّبائح التي تُذبح باسم الجن التي كان المُشركون يذبحونها خوفاً منهم وطمعاً في نوالهم ، مما هو مَنهيٌّ عنه شرعاً ، وداخلٌ في الشِّرك ، فلا بدَّ من اجتناب هذا العمل الذي تُشم منه رائحة الشِّرك ، وإنَّ للنَّذرِ طُرُقاً كثيرة وأشكالاً مُتعدِّدة فما الذي يُلزمهم بنذر الحيوانات؟ حتَّىٰ يتشبَّهوا بِعَمَلِهم هذا بِعُبَّاد الجنّ لمشابهة ذبائحهم وقرابينِهم ذبائحَ المُشركين للجِنِّ».

نَـذْرُ الصِّيـام للأوليـاء والصَّالحـات:

«ويَـدخُل في ذلك أيامُ الصِّيام التي تَـصومُها النِّساء باسـم المشايـخ والأولياء والصَّالحات الزَّاهدات من النِّساء ، فكثيراً ما يَنتحلْنَ أسماءَ ما أنزل اللهُ بها من سلطان فَيَنْذُرْنَ الصِّيامَ لها ، وَيَخْتَرنَ طريقة خاصَّة لكل صوم من هذا الصِّيام عند الإفطار ، ويُحدِّدْنَ لها أيَّاماً خاصَّة ، ويَرْبِطْنَ قضَاء حوائجهنَّ وبلوغ مقاصدهنَّ بهذا الصِّيام ، ويسألنَ باسم هذا الصِّيام الأولياءَ الصَّالحين والنِّساءَ الصَّالحاتِ أن تقضى حَوائجُهنَّ ، ويعتقدن بأنهم يقضون حاجاتهن، ويُلبُّون مَطالبهنَّ، وذلك من الإشراك في العِبادة، والاستعانةِ بغير الله تعالىٰ عن طريق العبادة لغير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

فينبغي أن يُعلم قبح هذه الأعمال وشناعتها ، وقد جاء في حديث قدسي: يقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: «الصَّوم لي وأنا أَجزِي به»[1] ، ومعنىٰ ذلك أنَّ عِبادة الصَّوم لي خاصَّةً ، لا يشركني فيها أحد ، ومَعلوم أنه لا يجوز الإشراك إطلاقاً في أيِّ نوع من أنواع العبادات إلاَّ أنَّ تخصيص الصَّوم هنا بذلك لأهميَّة هذه

(١) [أخرجه البخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]، برقم (٧٤٩٢) ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب فضل الصيام ، برقم (١١٥١) ، وغيرهما من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما].

العِبادة ، ولذلكَ جاء النَّفي للإشراك في هذه العبادة بتأكيدٍ بليغ .

وإنَّ مِن الحِيَل وخِداع الشَّيطان أنَّ بعض النِّساء (عندما يُكْشَفُ لهنَّ عن قُبْح هذه الأعمال الشَّنيعة) يَقُلْنَ: إنَّما نصوم هذا الصِّيام لله تعالىٰ ، ونُهدي ثوابها إلى الأولياء ، فلو كُنَّ صادقات في قولهنَّ ، لمَا التزمْنَ من أنفسهنَّ أياماً معيَّنة ، وأطعمةً خاصَّة ، ولما انْتَحَلْنَ العاداتِ القبيحة ، والآدابِ المُخْتَرَعَة المُحدَّدة عند إفطارهنَّ ، فإنَّهُنَّ كثيراً ما يَرتكبْنَ عِندَ الإفطار أموراً من المُحرَّمات ، فيُفطرن على حرام ، ويتكفَّفْن بدون ضرورة ، ويسألنَ عن غيرِ حاجةٍ ، فيُفطرنَ بما يَحْصُلْنَ عليه عن طريق التَّكفُّف ، ويَعتقدْنَ بأنَّهُنَّ ـ بهذه الأعمال المُحرَّمة ـ يَقْضينَ حوائجهنَّ ، ويُكملْنَ مَطالبهنَّ ، وذلك عَيْنُ الضَّلال وخِداعُ إبليس اللَّعين ، ولا عاصمَ إلاَّ الله» (١) .

النَّهي عن سَجْدةِ التَّحِيَّة:

وهناك عَدد من رسائل الإمام القويّة الواضحة في النَّهي عن سَجْدةِ التَّحيَّة ، نذكر بعض مُقتطفاتها فيما يلي:

«إنَّه لا يليق بالسَّلاطين العظام إلاَّ التَّواضعُ أمام ربِّهم ـ عزَّ وجلَّ ـ والنَّظرُ إلى عَجزهم وضعفهم ، وأن لا يسمحوا ـ أبداً ـ بهذا الذُّل وغايةِ الخضوع إلاَّ لله تعالى؛ وقد سخر الله لهم البلاد وأحوَج إليهمُ العباد ، فعليهم أن يشكروا هذه النِّعمة الجسيمة ، ويَخُصُّوا هذا النَّوع من الخضوع والذُّلِّ والاستكانة لحضرةِ ذي الجلال والجبروت ، ولا يجوز الإشراك بـه في ذلك ، وإن كانتْ طائفة من الفقهاء رأتْ جوازَ ذلك (٢) ، ولكن ينبغي لهؤلاء السَّلاطين ـ بِتَحَلِّيهم بالتَّواضع والأدب ـ أن لا يُبيحوا ذلك لأحد ، وذلك لقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرَّحمٰن: ٦٠] .

---

(١) الرسالة رقم: ٤١ ، ج٣، كتبها إلى إحدىٰ الصَّالحات.

(٢) لم نطلع على من أباح ذلك، ولو ثبت حمل على الشذوذ والمنكر من القول.

وَيَقولُ في رِسالة إلى الشَّيخ نظام التَّهانيسِري :

«ذكر لي النَّاس أنَّ أصحاب بعض خُلفائك يسجدون له سَجدةَ التَّحيَّة، ولا يَكتفون بالانحناءةِ المُعتادة للتَّحيَّة (عند المُبتدعين) ألا إنَّ قبح هذا العمل وشناعته أظهَر من الشَّمس ، فانْهَهم عن ذلك ، وأكِّد عليهمُ النَّهي ، وشدِّد النَّكير ، إنَّ الاجتناب عن هذه الأفعال مطلوب من جميع النَّاس لا سيما من شخص قد نصَّب نفسه ليكون قُدوةً لغيره ، فاجتنابُه مثل هذه الأفعال القبيحة من أشدِّ ضروريات الدِّين ، إذ أنَّ أتباعه يَقتدون به ، ويَقتفون أثره ، فَيَقعون في هذه الأحابيل والوَيلات» (١) .

وكان هذا هو العملَ التَّجديديَّ العظيمَ لإصلاح العقائد الفاسدة ، والردِّ على الشِّرك والبِدعة ، والدَّعوة إلى الدِّين الخالص ، الذي بدأه الإمام السَّرْهندي على أرض الهند ـ التي كانت الأقليَّة المسلمة فيها تواجه خطرَ الجاهليَّة المُشركة بصفة دائمة ، لإحاطة الأكثريَّة المشرِكة بها ، وقُربِ عهد البلاد بالإسلام ـ ووسَّعه وأكمله ـ فيما بعد ـ مَشايِخُ سِلسلته الكبار ، مثلَ حكيم الإسلام ولي الله الدِّهْلوي ، وأفراد أُسرته (٢) ، إلى الإمام أحمد بن عرفان الشَّهيد ، وكان ذلك عن طريق الخطابة والكتابة ، والرَّسائل والمؤلَّفات ، وتَرجَمَة معاني القرآن ، والأحاديث النَّبويَّة والجولات الدَّعَويَّة الواسعة ، والحركةِ الجِهاديَّة العظيمة (٣) .

نَشرُ السُّنَّة والرَّدُّ على «البِدْعَةِ الحَسنة»:

تُعَرَّف البِدعة بأنها إدخالُ شيءٍ في الدِّين لم يُدْخِلْهُ الله ورسولُه فيه ، ولم

---

(١) الرسالة رقم ٢٩، ج٢. كتبها إلى الشيخ نظام التهانيسري.

(٢) على رأسهم وفي مقدمتهم حفيده الشهير العلامة محمد إسماعيل الشهيد (١٢٤٦).

(٣) راجع للتفصيل كتاب المؤلف «إذا هبَّت ريح الإيمان» [طبع في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢١ هـ ـ ٢٠٠٠ م] ورسالته «الإمام الذي لم يُوفَّ حقُّه من الإنصاف والاعتراف» [رَاجِعْهَا في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص١٢٢ ، طُبع في سلسلة «تراث العلامة الندوي» في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م)].

يأمروا به ، واعتقادُ أنه جزء من الدِّين ، يُعملُ به احتساباً ، والتزام آدابه ، وشروطه المزعومة ، كالتزامِ الحُكم الشَّرعيِّ .

والبِدعة شريعةٌ وضعيَّةٌ إزاءَ شريعة إلٰهيَّة ، ولها فِقْهُها المستقل ، وفَرائضها وواجباتها وسُننها ومندوباتها التي تقف نِدّاً للشَّريعة الإلٰهيَّة حيناً ، وتَفُوقُها أهميَّةً وعظَمَةً حيناً آخر .

وتَغُضُّ البِدعة طَرْفَها عن حقيقةٍ ناصعةٍ ، وهي أنَّ الدِّين قد أُكمِل ، وأنَّ الشَّريعة قد خُتم عليها ، فما كان ينبغي أن يتقرَّر ، تَقَرَّرَ، وما كان ليتعيَّن فرضاً أو واجباً ، تَعيَّن فرضاً أو واجباً ، وأُغلقت «دَار الضَّرب» للدِّين ، فأيُّ عُملةٍ جديدةٍ تُنسب إليه ، لا تكون إلاَّ مُزوَّرة مُزيَّفة ، وما أحسنَ ما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ :

«مَن ابتدعَ في الإسلام بِدعةً يَراها حسنةً فقد زعمَ أنَّ محمداً ﷺ خان الرِّسالةَ ، فإنَّ الله سبحانه يقول : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] . فما لم يكُن يومئذ ديناً ، فلا يكونُ اليوم ديناً» .

وإنَّ من خصائص الشَّريعة المنزَّلة من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تكونَ سَمحةً سَهلةً ، صالحة للعمل والتَّطبيق في كل عصر ومِصر ، لأنَّ من شرَّع هذا الدِّين هو الذي خلق النَّاس ، فهو الذي يعرف ضروراتهم وحاجاتهم وطبائعهم ، وطاقاتهم ومواضع ضعفهم وعجزهم : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

ولأجل ذلك لُوحِظَتْ مُراعاة هذه الأمور كُلِّها في التَّشريع الإلٰهي ، ولكن إذا اتَّخذ الإنسان نفسَه شارعاً فلا سبيلَ إلى مُراعاة هذه الجوانب المتعدِّدة ، وكُلَّما تختلط البِدَع والمُحدثات بالدِّين ، وتَجري تعديلاتٌ وإضافات بشريَّة فيه ، يَزدادُ الدِّين عُسراً وضِيقاً وتَعقُّداً ، حتَّىٰ يُضطرَّ النَّاس إلى أن يخلعوا رِبقة الدِّين من رقابهم ويُحرَمُوا هذه النِّعمة المُحقَّقة في رفع الحرج ، ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] ، ويُمكن أن تلاحظ أمثلةُ ما نَقولُ في تلك

الفهارس الطَّويلة للطُّقوس والعبادات ، والفرائضِ والسُّنن المُحدثة التي عَمِلَتْ فيها البِدع عَملها بكُلِّ حُريّة وانطلاق.

ومن خصائص الدِّين والشَّريعة الإسلاميَّة الانسجامُ التَّامُّ ، والوحدة العالميَّة، فلا يتغيَّران في عصر وزمان ، فلو سافرَ مُسلم من بقعة في العالم الإنساني إلى بُقعة أخرىٰ ، لا يَلقىٰ أي صعوبة وحَرَج في العمل بالدِّين ، وتطبيقِ الشَّريعة ، ولا يَحتاج إلى منهج مُخصَّص ، أو دليل محلِّي.

أمَّا البِدع فلا تَوافُقَ فيها ولا انسجام ، فهيَ تُصهرُ في بوتقةٍ محليَّة في كل مكان ، وتُضربُ في دارِ الضَّرب لمدينةٍ ما من المُدن ، أو بلدٍ من البلدان ، وتكون نِتاج العوامل التَّاريخيَّة المحليَّة الخاصَّة ، والمصالح الشَّخصيَّة ، والأغراضِ الفرديَّة الخاصَّة ، فَتَخْتصُّ بِدَعُ كل بلد من البلدان ، بهذا البلد نفسه ، بل بِدع كلِّ وِلاية ، وكلِّ مدينة وخرافاتُها ، بل بِدع كلّ حيٍّ من الأحياء ، وكلِّ بيتٍ من البيوت ، وأباطيلُها وخرافتُها ، تختصُّ بها نفسها ، يَنتج من كلِّ ذلك دين متعارض يَصطدم بعضُه ببعض في كل قرية وبلد ، وكلِّ حيٍّ ومنزل.

لهذه المصالح الشَّاملة الخالدة التي نعلم بعضها ولا نُحيط بها ، نهىٰ الرَّسول ﷺ عن اقتراب البِدع، وأمرهم باجتناب كل المُحدثات في الدِّين ، والحفاظ على السُّنَّة ، والتمسُّك بها ، يقول ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ:

«مَن أَحْـدَثَ في أَمْرنـا هذا ما ليسَ منـه فهوَ رَدٌّ» (١) ، «إيَّـاكُم ومُحْدَثَـاتِ الأُمور ، فإنَّ كُلَّ مُحْدثَـةٍ بِدعـةٌ ، وكُلَّ بِدعةٍ ضلالـةٌ» (٢).

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الصلح ، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود ، برقم (٢٦٩٧) ، ومسلم في كتاب الأقضية ، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨) وغيرهما من حديث عائشة رضي الله عنهما].

(٢) [أخرجه أبو داود في كتاب السنة ، باب في لزوم السنة ، برقم (٤٦٠٧) ، وأحمد في المسند (٤/١٢٦) ، وابن حبان في الصحيح (١/١٧٩) ، برقم (٦) ، وغيرهم من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه].

وتنبّأ بهذه النبوءة الحكيمة : «ما أحدَثَ قومٌ بِدعة إلا رُفع بها مثلُها مِن السُّنَّة»(١) .

وقد عارضَ الصَّحابةُ ـ رضيَ الله عنهم ـ وأئمَّةُ الدِّين ، وفُقهاءُ المُسلمين ، وجميعُ المجدِّدين والمُصلِحين ، والعلماء الرَّبانيِّين في عصورهم ، محدثاتِ زمانهم والبدعَ النَّاشئة فيه مُعارضةً عنيفة قويّة ، وبذلوا جهد طاقتهم في الحيلولة دون رَواج هذه البِدع والمُحدثات ، وتأثيرها في المجتمعات الإسلاميَّة ، والأوساط الدِّينيَّة .

وقد صوَّر القرآن الحكيم ما يُوجد في هذه البِدع والمُحدثات ـ في كل عصر ـ من جاذبيَّةٍ مغناطيسيَّة ، وما يرتبطُ بها من أغراض أبناء الدُّنيا ، والمُحترفين بالدِّين ، ومَصالِح الفِرَق الدِّينيَّة المُغْرِضة الشَّخصيَّة ، ومنافعها الذَّاتيَّة ، في أسلوب المُعجز الحكيم :

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٣٤] .

ولقيَ هؤلاء الدُّعاة والمُصلحون والمُجدِّدون في سبيل ذلك من الأذىٰ والاضطهاد ما لقوا ، ولكنَّهم لم يُبالوا بما أُوذوا به في سبيل الله ، واعتقدوا أنَّ عملهم هذا جهادُ السَّاعة ، والمُهمَّة الدِّينيَّة المُقدَّسة لصِيانة الشَّريعة الغرَّاء والدِّين الخالص من التَّحريف والتَّزوير، وقد لَقَّب هؤلاء المُعارضين للبِدع والمُحدثات، والحاملين لراية السُّنّة والشَّريعة المُطهَّرة، مُخالِفوهم من العامَّة أو الخاصَّة الَّذين لا يمتازون عن العامَّة بألقابٍ تُشبِه ألقاب الكُفَّار من قُريش للمسلمين، كالصَّابئة والمارقة (٢) وأعداء الدِّين ، فلم يُعيروها أيَّ اهتمام

(١) [أخرجه أحمد في المسند (٤/ ١٠٥) وقال الهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨): رواه أحمد والبزار ، وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو منكر الحديث].

(٢) مثل «الوهابية» والجامدين والمحافظين، والقشوريين، والحرفيين، وغيرهما في عصرنا هذا [وأمّا «الوهابيّة» فيُلَقِّبُ بها البَريلَوِيُّون ـ أصحابُ البِدَع والخرافات في الهند =

فقَضوا بجهادهم وكفاحهم بالقلم واللِّسان ، وإثباتِ الحق ، وإبطالِ الباطلِ على كثير من البِدَع ومُحدثات الأمور ، التي لا نجد لها الآن ذِكراً إلاَّ في بعض كُتب التَّاريخ ، وما بقي منها لم يزل يُكافحها العلماء الرَّبانيُّون ، ولا يزالون يُحاربونها ، ويقضُون عليها :

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

وقد كانت أكبرُ مُغالطة في هذا الصَّدد مُغالطة البِدعة الحسنة ، فكأنَّ النَّاس قسَّموا البِدعة قِسمين : البِدعة السيِّئة ، والبِدعة الحسنة ، وكانوا يقولون : إنَّه ليس كُلُّ بِدعة سيِّئة ، فكثيرٌ من البِدَع حسنة ، استُثنيت من إطلاق حديث : «كُلُّ بِدعةٍ ضلالة» [١] .

إنَّ ما قام به الإمام السَّرْهندي من مُعارضة شديدة ، واستنكار قوي ، لهذا التَّقسيم المُحدث للبِدعة الحسنة والبِدعة السيِّئة ، في ثِقة وقوة اعتماد ، وبأسلوب علمي ، واستدلال موضوعي ، لا يُوجد له نظير في كثير من

= وباكستان ـ علماءَ «دار العلوم دِيُوْبَنْدَ» ، الذين هم أصحاب العقيدة السنية الصحيحة في التوحيد واتباع السنَّة والاجتناب عن البدع.
والبريلويُّون: هم أتباع الشيخ أحمد رضا خان البَرِيْلَوِيّ (ت ١٣٤٠) حاملُ لواء التكفير في شبه القارة الهندية ، وأشهر داعٍ إلى التمسُّك بالتقاليد البدعية والخرافية المنتشرة في الهند حول الأعراس والضرائح والأعياد والمواسم ، وإثبات علم الغيب للنبي ﷺ ، والتصرُّف العام للأولياء والمشائخ ، وهو الذي أذاع لقبَ «الوهابي» في القارة الهندية تقرأ للاطلاع على هذه الجماعة البدعيةِ والخرافيةِ كتابَ «البريلوية: عقائد وتاريخ» للشيخ إحسان إلٰهي ظهير].

(١) وأكبر دليلٍ للناس في هذه القضية قول عمر ـ رضي الله عنه ـ حين رأىٰ الناس مجتمعين لصلاة التراويح: «نعمت البدعة هذه»، مع أن العلماء متفقون على أن إطلاق لفظ «البدعة» هنا بمعناه اللغوي، لأن صلاة التراويح ثابتة بالأحاديث الصحيحة، وبالتواتر العملي، وينبغي للاطلاع على تعريف البدعة، والتفصيل فيها مراجعة كتاب «الاعتصام بالسنة» للإمام الشاطبي، وكتاب «إيضاح الحق الصريح في أحكام الميت والضريح» للإمام محمد إسماعيل الشهيد، وهما من أجود الكتب في هذا الموضوع.

الأقطار ، فاقرأ ـ فيما يلي ـ مُقتبساتٍ من رسائله في هذا الصَّدد :

يقول في رسالة ـ مُحرِّضاً على نشر السُّنن النَّبويّة، وترويجها ، ومُرغِّباً في ردِّ المُحدثات ، والقضاء عليها ـ موجَّهةً إلى ابن شيخه ومرشده الشَّيخ محمد عبد الله :

«هذا هو العصر الذي مَضتْ ببدايته ألفُ سنة على البِعثة المحمدية ـ على صاحبها الصَّلاة والسَّلام ـ وبدأتْ أماراتُ السَّاعة تظهر ، فأصبحتِ السُّنَّة لبُعْد عهدِ النُّبوَّة محجوبةً متروكةً ، والزَّمانُ زمانُ الكذبِ والاختلاق ، فَتُروَّج البِدَع وتَـنْـتَشِرُ المُحدثات ، ويَرنو العالم إلى بطلٍ يَحمي حَوزة السُّـنَّة ويَنصُرها ، ويَدْحَرُ البِدعة ويَغلِبُها ، فإنَّ نشر البِدعة إماتةُ السُّـنَّـة ، وإنَّ تعظيم المُبتـدع وإكرامَه بِمثابـة هـدْم لقصر الإسـلام وتخريبه ، وقد جاء في الحديث: «مَنْ وَقَّـرَ صَاحِبَ بِدْعَةٍ فقَدْ أعانَ على هَدْمِ الإسلام» (١) .

فينبغي الاهتمام بالهمَّة العالية ، والعزيمة الصَّارمة ، بِنَشْر سُنة من السُّنن ، وإزالة بِدعة من البِدع ، لقد كان هذا العَمل فريضةً في كل عصر ، لكنَّ وجوبه في هذا العصر الذي ضَعُف فيه الإسلام ، وارتبطتْ إقامةُ معالمه وتعظيم شعائره بنشر السُّنَّة ، وَهدم البِدعة ، أقوىٰ وأشدّ» .

ثُمَّ يقول في نفس هذه الرِّسالة مفنِّداً لاصطلاح البِدعة الحسنة ، ومُنكراً لوجود نَوع من الحُسن والخَير فيها :

«رأىٰ بعضُ النَّـاس في العصر المـاضي شيئـاً من الحُسـن فـي البِدعـة فاستحسنوا بعضَ أنواعِ البِدع والمُحدثات ، ولكنَّ الفقير لا يوافقهم في ذلك ،

---

(١) [أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧/ ٦١) برقم (٩٤٦٤) من حديث إبراهيم بن ميسرة مرسلاً ، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٧/ ٣٥) برقم (٦٧٧٢) من حديث عائشة رضي الله عنها].

فإنه لا يرىٰ أي بِدعة حسنة ، ولا يَشعُرُ فيها إلاَّ بالظُّلمة والكَدَر ، وقد قال ﷺ : «كُلُّ بدعة ضلالة» (١) .

ويقول في رسالة أخرى باللغة العربيَّة ، كتبها إلى الشيخ مِير مُحبِّ الله :

«النَّصيحةُ هي الدِّين ، ومُتابعة سيد المُرسلِين عليه وعلى آله الصَّلاة والسَّلام ، وإتيانُ السُّنة السَّنيَّة ، والاجتنابُ عن البِدعة غير المرضية ، وإن كانت البِدعة تُرىٰ مثل فَلَقِ الصُّبح ، لأنه في الحقيقة لا نُور فيها ولا ضياء ، ولا للعليل منها شفاء ، ولا للدَّاء منها دواء ، كيف والبِدعة إما رافعةٌ للسُّنَّة ، أو ساكتةٌ عنها ، والسَّكتةُ لا بُدَّ أن تكون زائدة على السُّنَّة ، فتكون نَسَّاخة لها في الحقيقة أيضاً ، لأنَّ الزِّيادة على النَّصِّ نسخٌ له ، فالبِدعة كيف كانت ، تكونُ رافعة للسُّنَّة نقيضة لها ، فلا خيرَ فيها ولا حُسْنَ فيها .

ولَيت شِعري من أين حكموا بحُسن البِدعة المُحدثة في الدين الكامل والإسلام المرضي بعد إتمام النِّعمة ، ولم يَعلموا أنَّ الإحداث بعد الإكمال والإتمام وحصول الرِّضا بمعزِل عن الحُسن ، فماذا بعد الحقِّ إلاَّ الضَّلال؛ ولو علموا أنَّ الحُكم بحُسْن المُحْدَث في الدِّين الكامل مُستلزِمٌ لعدم كماله ، ومُنبِىءٌ عن عدم تمام النِّعمة ، لما اجْترؤوا عليه ، ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] ، والسَّلام عليكم وعلى مَن لديكم» (٢) .

ويقول في رسالة أخرى ، وهو يتحدَّثَ عن هذا الاستثناء المذكور ـ آنفاً ـ :

«لمَّا كان كلُّ مُحْدَثٍ في الدين بِدعة ، وكلُّ بِدعة ضلالة ، فلا معنىٰ للحُسن في بِدعة من البِدع .

ولمَّا كانتِ الأحاديث الصَّريحةُ تُفيد بأنَّ كُلَّ بِدعة تَرفعُ سُنَّة ، من غير

(١) الرسالة رقم: ٢٣، المجموعة الثانية، وهي موجَّهة إلى ابن شيخه الشيخ محمد عبد الله .

(٢) الرسالة رقم: ١٩، المجموعة الثانية .

تَخصيص وتقييد ، فلا معنىٰ لذلك ، ولا بُدَّ أن تكون كُلُّ بِدعةٍ سيِّئة ، ورد في الحديث :

«ما أحدَثَ قومٌ بِدعةً إلا رُفِع مثلُها من السُّنَّة ، فتمسُّكٌ بسُنَّةٍ خيرٌ من إحداث بِدعةٍ» (١) .

ورُوي عن حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما ابتدَعَ قومٌ بِدعة في دينهم إلاَّ نزع الله من سُنَّتِهم مثلها ، ثم لا يُعيدُها إليهم إلى يوم القيامة» .

واعلم أنَّ بعض البِدَع التي استحسنها بعض العلماء والمشايخِ ، يتجلَّىٰ عند التَّأمُّل الدَّقيق فيها أنها كذلك تَرفع السُّنَّة وتَمحوها (٢) .

ويقولُ في هذه الرِّسالة ، مُستنكراً لوجود البِدعة الحسنة :

«يقولُ النَّاس: إنَّ البِدعة قِسمان: البِدعة الحسنة ، والبِدعة السيِّئة ، فيُسَمُّون العملَ المُحدث بعد عهد النُّبوَّة وعهدِ الخلفاء الرَّاشدين بِدعة حسنة ، وهي لا تَرفعُ ـ عندهم ـ سُنَّة من السُّنن ، والبِدعة السيِّئة هي التي تَرفع السُّنَّة .

أمَّا هذا الفقير فلا يَرىٰ في شيء من البِدعة أيَّ حُسنٍ ونُور ، ولا يجد فيها إلاَّ ظُلمةً وكَدراً ، ولو فرضنا أن إنساناً يرى في العمل المبتَدع ـ لضعف بصره ـ نُضرة وصفاء، فإنه عندما يكون غداً حديدَ البصر ، بَعيدَ النظر ، سوف لا يجد إلاَّ الحَسْرة والنَّدم ، ولاتَ ساعة مَنْدَم ، وكان كما قال الشَّاعر:

سَوفَ تَرىٰ إذا انْجَلى الغُبارُ أَفَرَسٌ تَحْتَكَ أمْ حِمارُ؟

يقُول سيِّد البشر ﷺ : «مَنْ أحدَثَ في أمرِنا هذا ما ليسَ منه فهوَ ردٌّ» (٣) .

كان مِن ضمن هذه «البِدَع الحسنة» التي كانتْ قد انتشرتْ في ذلك العصر

---

(١) [قد سبق تخريجه].

(٢) الرسالة رقم: ١٨٦ ، المجموعة الأولىٰ، كتبها إلى الشيخ المفتي عبد الرحمن الكابلي.

(٣) نفس الرسالة السابقة، والحديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها [قد سبق تخريجه].

مجلسُ مولد النَّبيِّ ﷺ والاحتفالُ له ، وكان من العسير الإنكارُ عليه لعزوه إلى ذات الرَّسول ﷺ ولمَّا كان يُقصدُ منه ذِكر مَناقبه ﷺ وما خصَّه الله به من فَضْل ومكانة ، وكان موضوعُ نَقْدِ هذه المجالس في ضوء الشَّريعة والسُّنَّة موضوعاً مثيراً للجماهير ، ومَظنَّة حملهم ذلك على قلَّة الحُبِّ للرَّسول ﷺ وإساءةِ الأدب معه ، ولكنَّ الإمام السَّرْهندي قد شرحَ الله صدره في كل ما لم يُؤْثَر عن خير القرون ، فكان مُقْتَنِعاً بأنَّه ليس فيه فلاحٌ للأمَّة ، وليسَ في صالح هذا الدِّين ، وكان يَخشىٰ أنَّ كل ذلك يجرُّ على مدىٰ الأيام إلى مفاسد مختلفة .

وقد سُئل عن رأيه في هذا المجلس إذا تجرَّد عن محظورات شرعيَّة ، واقتصر على مُجرَّد الاجتماع والاستماع إلى قِصَّة المولد في يومٍ مُعيَّن ، واهتمامٍ خاصٍّ ، فأجاب عن ذلك بقوله :

«سيِّدي يَجول في خاطر هذا الفقير أنَّه ما لم يُسدَّ هذا البابُ على مصراعيه ، لم يزل لأهلِ الأهواء مجالٌ في هذا الشأن ، فلو وُسِّع في الأمر ، وأُطلق شيء من العَنان ، انجرَّ الأمر إلى ما لا تُحمدُ عاقبته ، «قَليله يُفضي إلى كثيره»[(١)] .

وهكذا كان موقفه الجريء الحاسم إزاءَ البِدع ، وإنكارُه لوجود «بِدعة حسنة» سدَّاً للذَّريعة ، وقضاءً على فوضىٰ دينيَّة قد بدت طلائعها بتأييد العُلماء غَير المُحقِّقين الذين لا يَنفون عن هذا الدين تَحريفَ الغالين وانْتِحال المُبْطلين ، وتأويل الجاهلين ، واحتضان المشايخ الذين لم يكن لهم رُسوخٌ في العلم ، وإلمامٌ بمقاصد الشَّريعة وعلوم الحديث والسُّنَّة ، ودافَع عنها وتحمَّس لها أمراء ومُلوكٌ لم يكن لهم نَصيبٌ من العلم ، فجزاه الله عنِ الإسلام والمسلمين خير الجزاء .



(١) الرسالة رقم: ٧٢، ٣، إلى الشيخ حسام الدين الدهلوي.

البَابُ السَّادِس

وحدة الوجود
أو وحدة الشهود؟

وَحدَةُ الوُجود أو وَحدةُ الشُّهود

الشَيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي ، وتدوينُ نظرية «وحدة الوجود» وشرحها وتفصيلها:

لقد صَدَرتْ مِن لسان بعض الصُّوفِية المتقدِّمين ممَّن غَلب عليهم السُّكْرُ والحال ، أقوالٌ هي شِبه نظرية الاتحاد ، وتَدُلُّ على «وحدة الوجود» ، وقد اشتُهر من بين هذه الأقوال قَولُ العارِف الشهير الشيخ أبي يزيدَ البَسْطامي - الذي هو من كبار المشايخ الذين تَنتمي إليهم معظم السَّلاسل والطُّرق الصوفية: «سُبحاني ما أعظم شأني» ، وقوله: «ليس في جُبَّتي إلاَّ الله» ، وما اشتهر عن الحُسين بن منصور الحلاَّج من هتافه: «أنا الحق».

ولكنَّ الشيخ محيي الدين ابن عربي (م٦٣٨هـ) - الذي عُرف واشتهر باسم «الشيخ الأكبر» - كان مؤسِّساً لهذه النزعة ، والمذهب - من الناحية العلمية - ورائداً له ، ومُجدِّداً ، وخاتمةَ المحقِّقين لهذه النظرية ، ومنذ ذلك العصر الذي عاش فيه ابن عربي ، بلغتْ هذه النظرية من الذُّيوع والانتشار والقبول والرَّواج ، حتى سرت في أوصال التصوف ، وجَرتْ منه مجرى الدم كالوباء الذي لا يستطيع أقوى الناس طبعاً وجسماً أن يقاومه ولا يتأثَّر بمفعوله ، حتى ظلَّت شعارَ أصحاب الذوق والتحقيق ، وكلمَتَهم الجامعة ، وكان إنكارُها دليلاً على جَهل صاحبه وتطفُّلِه على مائدة الصوفية ، وغفلته عن دقائقهم وأسرارهم ، وكما يقول الإمام السرهندي:

«إنَّه وَضع لها أبواباً وفُصولاً كما هو الشأن في علم النَّحو والصرف»[١].

وبعد، فما هي حقيقة «وَحدة الوجود» عن الشيخ محيي الدين، وكيف يَعرِضها وَيُبيِّنها، وما هي الأدلة والحُجَج التي يسوقها لإثباتها؟ وكيف يُحوِّل هذه النَّظرية إلى عملية كشفية ومشاهدةٍ، وتجربة علمية تطبيقية، بل إلى حقيقة بديهية؟ ثم كيف اتخذتْ شكلَ فَلسفة مستقلَّة، وتحولَتْ إلى مدرسة فكرية إشراقية، وتكوَّنتْ حولها تِلك المكتبةُ الضخمة التي يَحتاج استعراضُها إلى كتاب ضخم مستقل؟ كلُّ ذلك لا يمكن أن يَسعه هذا الكتاب.

ولمَّا أنَّ القضية من القضايا الدقيقة العويصة في الفلسفة والتصوُّف، التي يَحتاج الإنسان لإدراك مبادئها إلى مراجعة المصطلحات الدقيقة للفلسفة والتصوف، كما أن لها صلة وَثيقة بالتجارب الباطنية، والسلوك العلمي، فليسَ من السهل ـ لذلك ـ استيعابُها وإلقاء الضوء الكامل عليها في هذا الباب الوجيز، فمَنْ كان عندَه تَذوقٌ لهذه المعاني، ورغبةٌ في دراستها العلمية فليُراجع كتب الشيخ محيي الدين ابن عربي كـ «الفتوحات المكيَّة» و«فصوص الحكم»[٢].

وقد كَتب الإمام السَّرهندي في إثبات «وحدة الشهود» رسائل مفصلة طَويلة، يُتوصل منها ـ في ضوء عَرض الإمام السرهندي لمذهب ابن عربي وتلخيصه وشرحه ـ إلى فَهم هذا المذهب وإدراكِ أبعاده وغاياته ومقاصده، وسوف تَرِد مقتطفاتُها المهمة في خلال هذا الباب، في مواضعها المناسبة.

ونُورِد هنا مقتبسات من رسالة «وحدة الوجود» للعلامة عبد العلي بحر العلوم اللَّكْنوي (م ١٢٢٥ هـ) إذ أنـه مع تَبحُّـره في علوم الحكمة وأصول

(١) الرسالة رقم: ٨٩ المجموعة الثالثة: كتبها إلى القاضي الشيخ إسماعيل الفريد آبادي.

(٢) ويفيد في هذا الصدد الاطلاع على كتاب «أصل الأصول في بيان مطابقة الكشف بالمعقول والمنقول»، للسيد شاه عبد القادر مهربان فخري الميلابوري (م١٢٠٤هـ) طبعة جامعة مدراس ١٩٥٩م، فهو كتاب جامع في هذا الموضوع.

الفقه ، يُعتبر شارحاً وترجماناً لنظرية الشيخ محيي الدين في «وحدة الوجود» ، وغواصاً ماهراً في بحر مؤلَّفاته ، لا سيما «الفُتوحات المكية» و«فُصوص الحِكَم» ، وسوف تُعِين القارىءَ هذه المقتبساتُ في فَهْم مرادِ الشيخ الأكبر ومقاصده، وإن كانت وردتْ فيها أيضاً مُصطلحاتٌ وتعبيراتٌ لا يَعرف معانيها إلا أصحابُ المعرفة والذوق في هذا الشأن ، المُلمِّين بهذا الأسلوب وهذه التعبيرات ، ولم نَقِفْ على شرحٍ لهذه النظرية في وضوح وإيجازٍ أخصَر من هذا الشرح ، فرأيتُ أن أورده فيما يلي :

«جَميعُ ما سوى الله ـ تعالى ـ عالَم الشؤون والتعينات ، وجميع الشؤون والتعينات مَظاهرُه ، هو ظاهرٌ فيها وسارٍ ، ليس هذا السريان هو ما يقول به أصحاب «الحلول» أو يعتقده أهل «الاتحاد» بل إنَّ هذا السريان كسَريان عددِ الواحد في الأعداد ، وجميعُ الأعداد ليست إلاَّ وحدات ، فلا يَظهر في العالم إلاَّ عينٌ واحدة أو ذات واحدة ، وهي التي ظَهرتْ من ذاتِ الله القدوس ، فتتجلى ذاتُ الله ـ تعالى ـ في هذه الكَثرة ، فاللهُ هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، تَعالى عن الشركاء والأنداد.

ولا تَظهرُ أسماءُ الله ـ تعالى ـ في غير مَظهر ، سواءٌ هذه الأسماء المباركة تَنزيهيةٌ أو تشبيهيةٌ ، ولما كانت الأسماء بالمظاهر ، ولا يُتصوَّر كمالها بدون مظاهِرها ، أَوْجَد الله سبحانه وتعالى أَعيانَ العالم ، لتكونَ مظَاهرَه وتجلي كمالُ أسمائِه بأجلى مظاهرِه ، وأن الله تعالى غنيٌ ـ في كماله الذاتي ، ولكنه لا يَستغني في مرتبة الكمال الاسميّ عن الوُجود الخارجي للعالم ، يقول الحافظ الشيرازي ما معناه :

«لو استظلَّ العاشق بِظلِّ المعشوق فماذا فيه؟ فنحنُ في حاجةٍ إليه ، وهو في شَوْقٍ إلينا».

وأُشير إلى ذلك في هذا الحديث القدسي: «كُنتُ كَنْزاً مخفياً، فأَحْبَبْتُ أَنْ أُعْرَفَ، فَخَلَقْتُ الخلقَ»(١).

والذي يَعتقد في وُجودين اثنين، وجود الله ـ واجبِ الوجود ـ ووجودِ الممكن، فإنه يُشرك، وشِركه هذا شِركٌ خفيٌّ.

أمَّا من يَعتقدُ في وجودٍ واحد ويقول إنه لا وجود إلاَّ لله، وكلُّ ما سواه فمظَاهِرُه، وكَثرة المَظاهر لا تُنافي وَحدته، فهو إنسانٌ موحِّد».

«ولَسْتَ عينَ الحق، لأنه هو الموجود المطلق، وأَنْتَ المقيَّد المتعين، ولا يُمكن أبداً أن يكون المقيَّد عَيْن المُطلَق، ولكنك في حقيقتك عينُ الحق، لأن الحق تَعيَّن فيك، فتجِد الحق ـ جل شأنه ـ مُطْلَقاً من قيد التَّعيُّن في عين الموجودات، ومُقيَّداً بقَيْد التعيُّن فيها، أي أنك ترى الحق ظاهراً في المتعين لا موجود ولا إله إلاَّ الله»(٢).

وقد كان لهذه النظريةِ من التَّأثير العالميِّ الشامل ـ بعد عصر الشيخ محيي

---

(١) هذا الحديث أو ما معناه قد كثر وروده في كلام الصوفية، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ليس من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له سندٌ صحيحٌ ولا ضعيف، وتبعه الزركشي والحافظ ابن حجر في اللآلى، والسيوطي وغيرهم. (مستفاد من «كشف الخفا ومزيل الإلباس» للعجلوني [٢/ ١٧٣، برقم ٢٠١٦]، المؤلف).
[ذكر الإمامُ المفسِّر الآلوسي هذا الحديثَ في «روح المعاني» عند تفسير قوله تعالى في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. وقال: «... من يرويه من الصوفية يعترفُ بعدم ثبوته نقلاً، لكن يقول: إنه ثابتٌ كشفاً، وقد نصَّ على ذلك الشيخُ الأكبر ـ ابن العربي ـ في الباب المذكور، والتصحيح الكشفي شِنْشِنةٌ لهم!».
قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة ـ رحمه الله ـ: يُشير الإمام الآلوسي رحمه الله تعالى بهذا إلى أنه لا عبرة بالتصحيح الكشفي عند المحدِّثين، وهو كذلك (انظر: المصنوع في معرفة الحديث الموضوع». للإمام علي القاري الهروي، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، طبع مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب)].

(٢) رسالة «وحدة الوجود» (بالفارسية) للعلامة بحر العلوم عبد العلي الأنصاري اللكنوي، انظر ص ٢٩ ـ ٥٦.

الدين ـ حتى يمكن أن يُقال إن تسعةً وتسعين في المئة من الصوفية والفلاسفة ، والشعراء ، تَهيباً وإجلالاً للنظرية أو لقائلها ، أيّدوها واعتنقوها ، ومُعظم من يُعارِض الشيخ محيي الدين في هذه المسألة هم المُحدِّثون والفقهاء وكبار العلماء ، منهمُ الحافظ ابن حجر العَسْقلاني ، والعلامة السَّخاوي ، والمفسِّر أبو حيَّان ، وشيخ الإسلام عِزُّ الدين بن عبد السلام ، والحافظ أبو زُرْعة ، وشيخُ الإسلام سِراج الدين البَلْقِيني ، والعَلاَّمة نور الدين علي بن سلطان محمد الهَرَوي (المعروف بمُلاَّ علي القاري) والعَلاَّمة سعد الدين التَّفْتَازَانِيّ ، العُلماءُ النَّوابغ ، وأئمةُ الفن ورجالُ الإسلام.

وإنَّ هؤلاء العلماء ـ رغم تفوقِهم على الناس في التبحُر ، والتعمُّق في العلوم الدينية ، ودراستِهِمُ الواسعة العميقة للكتاب والسنة ، وفضلِهم وصلاحِهم وتورُّعِهم ـ لا يَعتَرِفُ المتصوِّفة وأصحاب «الحقائق» بمعرفتهم. باستثناء شخص منهم أو شخصين ـ للعلوم الباطنية ، والحقائق الروحية الغامضة ، ولذلك حَملوا مُعارضتهم على المَثل الشائع: «النَّاس أعداءُ ما جهلوا».

شَيخ الإسلام ابن تَيميَّة ، ونَقْد عَقيدة «وحدة الوجود» ، ومُعارضتُها والرَّدُّ عليها:

إنَّ أكبرَ قادةِ حركة المعارضة لنظرية «وحدة الوجود» الذي قام بنَقْدِها وتحليلها تحليلاً علمياً ، والتعليق عليها ، وإبداء رأيه الحرِّ عنها على أساس الكتاب والسنة ، وفي ضَوء تلك النتائج والآثار التي ظهرتْ لاعتناق هذه النظرية ، خلاَل مدة قليلة في أوساط التصوف وعامة الناس ، هو شيخُ الإسلام تقي الدين الحافظ أحمد ابن تيميَّة (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) الذي اسمه في صفّ المعارضة لهذه النظرية ، وكان قد وُلد بعد وفاة الشيخ محيي الدين (عام ٦٣٨ هـ) بثلاث وعشرين سنة ، ونَشأ في نفس المدينة (دمشق) ـ التي تُوفي فيها الشيخ محيي الدين ودُفِنَ فيها ـ وتعلَّم ، وتربَّى ، وبلغ المكانة الفريدة في المجالات العلمية والفكرية ، فلما بلغتْ مداركُه النُّضج الفكري ، وتهيَّأ

لدراسة بيئتِه ومحيطِه دراسةً ناقدة ، لم يكن قد مضى على وفاة الشيخ ابن عربي أكثرُ من أربعين أو خمس وأربعين سنـةً .

وكان لِتَحقيقاتِـه العِلْميَّة النـادرة دَوِيٌّ في أجـواء مصـر والشام ، وكانتِ الأوساط الصوفية سكرى بمَشْرَبه في التوحيد ، وكان الشيخ أبو الفتح نصر المَنْبَجِيُّ في مصر ، من غُلاة محبِّيه ومريديه .

كما كان ركن الدين بيبرس الجاشنكير صاحبَ السلطة المطلقة في مصر والشام (بعد ما اعتزل السلطان ناصر بك قلاوون السلطنة سنة ٧٠٨هـ) مُعجَباً بالشيخ نصر المَنبَجِي ومُريداً له .

وكانت كُتب الشيخ ابن عربي لا سيما «الفُتوحات المكية» و«فصوص الحِكم» مُتداولةً في أيدي الناس بالشام ومعظم البلدان العربية آنذاك ، قد نالتِ القبول والإعجاب ، يقرؤها الناس في نَشوة وانفعال ، حتى الإمام ابن تيمية اعترف بأنَّ في «الفتوحات المكية» و«كُنه الحكم المربوط» و«الدرَّة الفاخرة» و«مطالع النجوم» بعضَ الفوائد العِلمية ، والتحقيقات الجيدة [١] ، وكان من أشهر المعتنقين لمذهب ابن عربي ، ابنُ سبعين ، وصَدُر الدين القَوْنَوِيّ ـ الذي كان تلميذاً مباشراً للشيخ ابن عربي ، والبَلياني والتِّلمساني ، وقد فضَّل ابنُ تيمية الشيخَ الأكبر على جماعتِه وأصحابه كلهم ، مما يَدُل على إنصافه وتحقيقه وموضوعيته ، وعَمله بقول الله ـ عز وجل ـ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] .

يَـقـولُ ابـنُ تيميَّـة :

«لكنَّ ابن عربي أَقرَبُهم إلى الإسلام ، وأحسنُ كلاماً في مواضع كثيرة ، فإنه يُفرِّق بين المَظاهر والظَّاهر ، فيُقرُّ الأمرَ والنهي والشرائع على ما هي عليه ، ويأمر بالسلوك بكثير مما أمرَ به المشايخ من الأخلاق والعبادات ، ولهذا كثيرٌ

(١) انظر جلاء العينين: ص ٥٨ ، للعلامة نعمان الآلوسي.

من العُبّاد يأخذون من كلامه سُلوكهم ، فينتفعون بذلك ، وإن كانوا لا يفقهون حَقائقه ، ومن فَهمها منهم ووافقه فقد تبيَّن قوله»[١] .

ويَقول في موضع آخر في إحساسٍ مَشُوب بالحرج في الحُكم الفاصل ، والشُّعور بدِقَّة الموقف ، وإحسانِ الظن بمُسْلِمٍ له مكانته ، ومنزلَتُه عند كثير من المسلمين :

«والله تعالى أعلمُ بما مات الرجلُ عليه ، واللهُ يغفر لجميع المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، الأحياء منهم والأموات» ، ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢] [الحشر : ١٠] .

غُلاة الدُّعاة لعقيدة «وَحدة الوجود» وآثارُهم ونتائجهم:

ولكنْ يبدو أنه ـ للحماس الزائد ، وقِلَّة الحَذَر والحيطة في تعليم هذه النظرية وتلقينها للناس ، ونشرِها والدعوة إليها دعوةً عامة شاملة ، وللأذواق والنفسيات الخاصة ـ ظهرت هناك في الشام ـ التي كانت مركزاً كبيراً للعلوم الدينية ، وولايةً ذاتَ شأن من ولاياتِ دولة يحكُمها حُكّام من سلالة تركية ـ فوضى خُلقيةٌ وفكرية ظلت تَعمُّ وتَسود ، وبدأ الناس يَتعدَّون حدود العقل والشريعة ، والأخلاق ، ووَقعَت مِحنة خطيرة في المجتمع الإسلامي ، وحَسْبَ ما يقول بعض الحكماء «أن الشجرة بثَمرتِها لا بأصلها» ، كان ما تأتي به عقيدة «وحدة الوجود» من ثِمار مُرّة ، ونتائج خطيرة ، يدفع الغيارى على الإسلام وحُماةَ الشريعة والدعاة إلى الله إلى أن يَقلقوا لهذا الوضع ويَثوروا عليه ، ويَنتقدوه ، وكانت تستحق الرد والتفنيد.

يحكي ابنُ تيميَّة ـ وهو ثِقة في حكايته وروايته ، أن «التِّلِمساني» ـ وهو من حُذّاقهم علماً ومعرفة ـ كان يُطبّق المذهب الوجودي عَمَلياً فيستحلُّ

---

(١) جلاء العينين: ص ٥٨ .

(٢) المصدر السابق.

جميع المحرَّمات (لأنه إذا كان الموجود واحداً فلِمَ التفريق بين الحلال والحرام)[١]؟

وَيقـول ابـنُ تيميَّـة:

«وحدَّثني الثقة أنه قرأ عليه «فُصوص الحِكم» لابن عربي، وكان يَظُنه من كلام أولياء الله العارفين، فلما قرأه رآه يُخالِف القرآن، فقلتُ له: هذا الكلام يُخالف القرآن، فقال: القُرآن كله شِركٌ، وإنما التوحيد في كلامنا، وكان يقول: ثَبت عندنا في الكَشف ما يخالف صَريح المعقول»[٢].

ويمضي قائلاً:

«وحدَّثني من كان معه آخرُ نظيرٌ له، فمرَّ على كَلبٍ أجرَب ميِّتٍ بالطريق، فقال له رفيقه: هذا أيضاً هو ذات الله؟ فقال: وهل ثَمَّ شيءٌ خارج عنها؟ نَعَمْ الجميع في ذاته»[٣].

ويَقولُ في كتابه «الردُّ الأقوم على فصوص الحكم»:

«وقيل لبعضهم: إذا كان الوجود واحداً، فلِم كانت الزوجة حلالاً والأمُّ حراماً؟ فقال: الكُلُّ عندنا واحد، ولكنْ هؤلاء المحجوبون قالوا حرامٌ، فقلنا حرامٌ عليكم»[٤].

ولا يُمكن أن يُقال: إن مسؤولية هذه الجراءة على اللهِ، والإباحية والفوضى الخلقية تقعُ على الشيخ محيي الدين ابن عربي وحدَه، الذي كان يجتهد في اتّباع السنَّة[٥]، وكان عابداً زاهداً متنسِّكاً، صاحبَ رياضات ومجاهدات،

(١) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٥.
(٢) المصدر السابق: ص ١٤٥.
(٣) الفرقان بين الحق والباطل: ص ١٤٥.
(٤) الردُّ الأقوم على فصوص الحكم: ص ٤٢.
(٥) كان الشيخ ابن عربي متبعاً لمذهب داود الظاهري الذي ينكر القياس، ويأخذ بظاهر الحديث!!!.

ومحاسبة شديدة للنفس ومعرفةٍ دقيقة واسعة بمصايد الشيطان ونزغاته ، وغوائلِ النفس وآفاتها (١) ، ولكنْ مع ذلك توجد عندَه أقوالٌ شاذَّة غريبة ، تكون مادةً لمن يُريدُ أن يجعل من الحَبَّة قُبَّة ، مثل قوله : إن عُبّاد العجل ـ في عهد موسى عليه السلام ـ ما عَبدوا إلاّ الله ، وأن موسى أنكر على هارون ، لكون هارون أنكر عليهم عبادة العجل (لأنها في الحقيقة : عِبادة الله ، إذ الموجود واحد) وأن موسى كان بزعمهم من العارفين الذين يَرون الحقَّ في كل شيء ، بل يرونه عين كل شيء ، وأن فرعون كان صادقاً في قوله : ﴿ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ [النازعات : ٢٤] . بل هو عين الحق ، ولما كان فرعون في منصب الحكم صاحبَ الوقت ، جاز له أن يقول : «أنا ربُّكم الأعلى» أي وإنْ كان الكُلُّ أرباباً بنسبةٍ ما ، فأنا الأعلى منهم بما أُعطيته في الظاهر من مقاليد الحكم فيكم ، قال : ولما عَلِمتِ السحرةُ صِدق فرعون فيما قاله لم ينكروه ، وأقرُّوا له بذلك وقالوا له : ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ [طه : ٧٢] ، فصلح قول فرعون «أنا ربكم الأعلى» .

ولهذا عابَ نوحاً ، وعظَّم قومَه الكفارَ؛ الذين عبدوا الأصنام ، وقال : إنهم ما عبدوا إلاَّ اللهَ ، وإن طوفان نوح كان طُغيان المعرفة الإلٰهية ، وهيَجان بحرها الذي غَرِقوا فيه (٢) .

ولأَجل ذلك كان كثيرٌ من المشايخ العارفين ـ الذين كانوا يعترفون بمكانة الشيخ ابن عربي وعُلُوِّ كعبه في العلوم ويرونه من الأولياء المقبولين ـ يَنْـهَون أصحابهم وتلامِذتَهم عن مُطالعة كتبه .

يحكي الشيخ محيي الدين عبد القادر العِيْدروس مؤلف «النور السافر» عن شيخه العلامة بحرق أنه سمع الشيخ أبا بكر العيدروس يقول :

---

(١) راجع كمثال على ذلك كتابه «روح القدس» .

(٢) هذه الأقوال كلها مقتبسة من «الرد الأقوم على ما في كتاب فصوص الحكم» وينبغي الإشارة هنا إلى أن فريقاً من المهتمين بعلوم الشيخ ابن عربي وكتاباته يقول بأن هناك إلحاقات وزيادات دُست في كتبه ، لا سيما في كتابه «فصوص الحكم» .

«لا أذكُر أنَّ والدي ضربني ولا انتهرَني إلاَّ مرة واحدَة بسبب أنه رأى بيدي جُزءاً من كتاب «الفتوحات المكية» لابن عربي ، فَغضِبَ غضباً شديداً ، فهَجرتُها من يومئذٍ. قال: كان والدي ينهى عن مُطالعة كتابي «الفتوح» و«الفصوص» لابن عربي ، ويأمُر بحُسن الظن فيه ، وباعتقاد أنه من أكابر الأولياء العلماء بالله العارفين» (١).

عَقيدةُ وَحدة الوُجود في الهند:

ولمَّا وصَلتْ هذه العقيدة في القرن الثامن إلى الهند ، كانَ لها ـ بسبب ما كانت الهندُ نفسُها مركزاً قديماً للدَّعوة المتحمّسة إلى هذا المذهب ، والذوق الإشراقي الخاص ، والإيمانِ به إيماناً منبعِثاً دافعاً ، وكما يقولُ بعض مؤرِّخي التصوُّف: إن المتصوفة المسلمين الذين ولدوا في إيران والعراق والمغرب ، ونشؤوا فيها ، إنما كانوا تعلَّموا نظرية «وحدة الوجود» من الهند.

ولم تَزل هذه البلاد حتى بعد الفتوح الإسلامية ـ باستمرار ومن غيرانقطاع ـ حاملةً لواء هذه العقيدة والمتمسِّكة بها ، وطبيعةُ النسل الآريِّ تتجه دائماً إلى حبِّ «الإطلاق» والتهرُّب من القيود والتَّعيُّنات ، بعكس الديانات الناشئة في مواطن الشعوب السامية ، ومَسقط رأس الأنبياء والمرسلين ، فكانتْ سِمة هذه البلاد ـ الخاضعة لتأثير السُّلالة الآرِيَّة حُكماً وعَقلية وثقافة ـ التَّمسُّك بعقيدة وحدة الوجود ، ووَحدة الديانات من آلاف السنوات.

لذلك كله ، كان لعقيدة وَحدة الوجود في الهند من التأثير والقوة والقبول ، ما لم يكنْ لها في بلدٍ آخر ، وقد انسجمتْ طبيعةُ هذه الفلسفة بطبيعة البلاد ، وائتلَفتْ أرواحُهما ، واحتضَنتْ إحداهُما الأخرى ، فكان من هذا الوِئام حَماسٌ جديد ، وحرارة جديدة ، وتشكَّلتْ مدرسة إشراقيَة جديدة ، فنَجِد عَدداً كبيراً من أبناء هذه البلاد ومشايِخها يتحمَّس لهذه العقيدة ، ويُدافع عنها ويدعو إليها ، فَمِن أَخصِّهم وأشهرهم في هذا الباب شيخ السلسلة الجِشْتِيَّة

---

(١) النور السافر: ص ٣٤٦.

الصَّابرية الشهير الشيخُ عبدُ القدوس الكَنْكُوْهِي (م٩٤٤هـ) ، والشيخ عبدُ الرزاق الجَهَنْجانوي (٩٤٩هـ) والشيخُ عبدُ العزيز الدِّهْلَوي المعروف بشكربار (م٩٧٥هـ) ، والشيخُ محمدُ بنُ فضلِ الله البُرهَانبوري (م١٠٢٩هـ) ، والشيخ مُحِبُّ الله الإله آبادي (م ١٠٥٨) [١] ، وكان كل واحد من هؤلاء ابنَ عربي عصرِه ، وابن فارِض مِصرِه ، وتصدَّر مُعظم هؤلاء قبل الإمام السَّرْهندي ، بزمن قليل أو بعده بقليل ، أو في عهده نفسِه ، للتربية والإرشاد ، والدعوة والإفادة.

الشيخ علاء الدولة السِّمْناني ومُعارضَةُ نظرية «وحدة الوجود»:

قُلنا فيما تقدَّم: إن من تَصدَّى للردّ على مذهب «وحدة الوجود» وانتقادِ الشيخ محيي الدين ابن عربي ومعارضته كان معظمهم من العلماء المتبحِّرين في العلوم الدينية ، غير المتذوِّقين للمعارف والحقائق ، لم يُقاسوا الرياضات والمجاهدات، ولم يُلمُّوا بالتجارب العملية الشخصية ، ولا سَلكوا أودية الكشوف والمشاهدات ، فكان أصحابُ المعرفة والذوق من هذه المدرسة الإشراقية لا يُلقون لهذه الانتقادات والاعتراضات بالاً ، ويَرونها لا تستحقُّ أي اهتمام ، ويقولون استصغاراً لشأنهم:

«لا تَستطيع أن تَعرف لَذَّةَ الخمر ما دُمْتَ لم تَذُقْها».

ويخاطبونهم بقول الشاعر:

وإذا لم تَرَ الهِلالَ فَصدِّقْ ... لأُناسٍ رَأَوْهُ بالأبصَارِ

وإنَّ أول مسلمٍ صوفيٍّ ، ومحققٍ عارفٍ تصدى للردِّ على هذه العقيدة وتفنيدها بعناية بالغة واهتمام كبير ، هو الشيخُ رُكن الدين أبو المكارم علاءُ الدولة السِّمناني [٢].

(١) يمكن الاطلاع على تراجمهم واتجاهاتهم وأذواقهم في الجزء الرابع والجزء الخامس من كتاب «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني.

(٢) انظر «رسائل الإمام الرباني» الرسالة رقم: ٨٩ ، المجموعة الثالثة.

وُلد علاء الدولة السِّمْناني (٦٥٩ ـ ٧٣٦ هـ) في أسرة شهيرة ، كان أفرادها يتبوَّؤون مناصبَ عالية في الحكومة والوزارة ، بقرية سِمْنان من ولاية خُراسان ، واستفادَ المعارف الباطنية من الشيخ نور الدين عبد الرَّحمن الكسرقي الإسْفَرايِيني في الطريقة الكُبروية ، ونال الإجازة والخلافة ، واستمرّ في مناظراته ضد نظرية الشيخ الأكبر في «وحدة الوجود» ، وتعرَّض لها في مواضع كثيرة من رسائله ، فإنَّه يرى أن غاية السالك هي العبودية لا التوحيد الوجودي ، جَمع رسائله ورتَّبها أحدُ مريديه الشيخ إقبال بن سابق السَّجِسْتاني ، تُوجد عدة نسخ ، منها باسم «جهل مجلس» ـ أربعون مجلساً ـ أو «أقوال الشيخ علاء الدولة السِّمناني» وغيرهما في المكتبات ، وتشتمل أكثر أجزاء «نفحات الأنس» (١) ، للجامي على أقواله ومواعظه» (٢).

وَحدةُ الشُّهود:

لا نَعلم ـ في حُدودِ دراسَتِنا واطلاعنا إلاَّ شخصيتين شهيرتين ، نجدُ عندَهما فِكرة وَحدة الشهود إزاء نَظرية وحدة الوجود ، وإشاراتٍ متفرِّقة إليها ، رغم ما بينهما من اختلاف في الذوق والمشرب ، وَبون كبير في المنهج وأساليب الدعوة ، إلاَّ أن بينهما وَحدة الإخلاص وصَفاء النية ، وسَلامة الذوق ، واستقامة الفطرة ، التي تُفتح لها أبوابُ الهداية الربانية ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] أحدهما شيخ الإسلام الحافظ ابن تيميَّة الذي كان مُحدِّثاً ومتكلِّماً وفقيهاً ، والآخر الإمام شرف الدين يحيى المُنيري الذي كان عارفاً محققاً وإماماً من أئمة

---

(١) انظر «نفحات الأنس» ص ٥٠٤ ـ ٥١٥ ، وللشيخ علاء الدولة رسالة خطية أسماها «العروة لأهل الخلوة» مكتبة خدابخش خان بتنه ـ مخطوطة رقم: ٩٠٥ ، اقرأ ورق ٨٣ ـ ٨٤ (ألف) ورق ٨٦ (ألف).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية: مقال F. Meier

التصوف والإحسان يتجلّى من كتابه [١] المتقدِّم الذكر «العبودية» ، أنه من المُطّلعين على فكرة وَحدة الشهود ، ويُعرّف هذه الحقيقة أَنّها مَقامٌ يعترض السالك أثناء تربيته وسلوكه ، وأنها منزلةٌ لا تسمو إلى مكانة الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ وأتباعهم بإحسان من الصحابة الكرام ـ رضي الله عنهم ـ وغيرهم ، ولكنها على كل حال منزلة فوق منزلة «وحدة الوجود» وأفضلُ منها حالاً وأرفع مكاناً [٢] ، ولكنه ـ لِعَدمِ خوضه في هذا المجال ـ يكتفي بإيماءات وإشارات .

وأمّا الشيخ المُنِيري (م٧٨٢هـ) فقد قَدَّم هذه الفكرة في رسائله بتفصيل أكثر ، فيقول في ضَوء تجاربه الشخصية ، وتحقيقهِ العلمي لهذا المقام الخاص:

«إنَّ ما يظن وَحدة الوجود ، وفناء كل موجود سوى واجب الوجود ، وعَدَمِه عدماً كاملاً ، هو ـ في واقع الأمر ـ ليس إلاَّ أُفول الموجودات إزاءَ الوجود الحقيقي ، وغروبَها وانقهارها ، كما يخبو ضوء النجوم وينطمس إزاء ضوء الشَّمس الوهَّاج، وتُصبح الذَّرات كأنها لا حقيقة لها ولا وجود».

إنَّه يُلخِّص النظريَّتين في كلمتين خفيفتين ، فيقول: «عَدم الأشياء وفناؤُها شيءٌ ، وعدم رُؤيتها شيء آخر» ، ويقول: «إنه مقام دقيق خطير تتعثَّر فيه أقدام الكبار من المشايخ ، وتتعسَّر الاستقامة إلا بتوفيق الله ، ثم بتربية المرشد المحنَّك الخبير» [٣] .

الحاجة إلى شَخصية تجديديّة جديدة:

ولكنْ كانتِ الحاجةُ ماسَّة ـ لتنقيح هذه الفكرة وإيضاحها ، وإقامة الحجة

---

(١) الضمير هنا يعود إلى ابن تيمية .

(٢) انظر «رسالة العبودية» ص ٨٥ ـ ٨٨ ، وأما النوع الثاني فهو الفناء عن شهود السوى . . الخ (المكتب الإسلامي ، دمشق).

(٣) راجع الرسالة الأولى من مكتوبات «سه صدى».

على الناس في بيانها ـ إلى شَخصية جديدة، خاضَتْ في أودية السُّلوك والإشراق الشائكة ، ومرَّت برِباعها ومنازلها ، وعرَّجت على مَقاماتها العالية ، وسَبحتْ في بحور المعارف الإلٰهية، والحقائق الربانية ، وعَبرتِ البحر الطاغي المتلاطم بالتجارب التطبيقية العملية إلى شاطىء الحقيقة ، فلا يُستدل بعدم العلم على عدم الوجود ، بل يقول كشاهد العيان والمُسافر المغامر الطموح في ثقة وقوة ، وبصيرة واعتماد ، «أَعْرِفُ كلَّ ربع من هذه الرباع(وحدة الوجود) بل كلَّ ذَرَّة من ذرات هذه الدار ، فقَدِ استمرَّ بها عهدي ، ودامتْ بها صلتي ، ولكنْ يَردُفه بهذا القول: «إنَّ وراء هذه الكواكب والنجوم عوالمَ أخرى، ومجالاتٍ أفسح».

لقد كانتْ هناك ثلاثةُ مذاهب بين المُثبِتين والنُّفاة لنظرية «وحدة الوجود» ، وهي:

١ـ التَّأييدُ الكامل لنظرية وَحدة الوجود ، وأنها حقيقة بَدهية ، وغايةُ المعرفة والتحقيق.

٢ ـ المُعارضة الكُلِّية لنظرية وحدة الوجود ، وأنها ليست إلاَّ نتائجَ القُوَّة الوَهْمِية والمُتخَيَّلة ، والمشاهداتِ الباطنية ليس غير.

٣ ـ عَرض نظرية «وحدة الشهود» بدلاً من وحدة الوجود ، وأنَّ ما يراه السالك ، والذي هو واقع الحال ليسَ أن الوجود واحد وما سوى واجب الوجود معدومٌ لا حقيقة له ، بل الواقع أنَّ الموجودات قائمةٌ في مكانها ، ولكنَّ نور الوجود الحقيقي لواجب الوجود حَجَب وُجودها عن الأبصار حتى كأنها فانيةٌ معدومةٌ ، وكما أنَّ النجوم تنكدر وتأفُل إزاء ضوء الشمس بعد طلوعها ، حتى لو قال قائل: إن النَّجم غيرُ موجود لما كان كاذباً ، كذلك هذه الموجوداتُ إزاءَ الوجود الكامل الحقيقي ، تتضاءل أمامها ، وتَهون وتَصغرُ حتى كأنها معدومةٌ لا وجودَ لها.

مَركز الإمام السَّرهندي الاجتهاديُّ والتَّجديديُّ:

اختار الإمام السَّرهندي مَذهباً رابعاً إزاء هذه المذاهب الثلاثة ، وهو أَنَّ

«وَحدة الوجود» مقامٌ يعرض للسالك خلال السلوك ، فيُشاهِد ـ عند ذاك ـ عَياناً وجَهاراً ـ أنه لا وجود هناك إلاَّ لواجب الوجود ، وكلُّ ما يَراه الإنسان من وجود ، فهو وجُودٌ واحد ، وما سواه فليس إلاَّ «تنوُّعاتُه وتلويناتُه» وفي تعبير الشيخ محيي الدين ابن عربي ، والعارفين المتذوِّقين لهذا المشرب الوجودي إنما هي «تَنزُّلاته».

ولكن لو حالفَ التوفيقُ الرَّبانيُّ ، ورافق الهَدْيُ النَّبويُّ ، وكان السالك صاحبَ طموح وعُلُوِّ هِمة ، فإنه يفوز بمقامٍ آخر ، وهو مقام «وَحدة الشُّهود».

وهكذا يُضيف الإمام السرهندي ـ مع نَقْضه لنظرية وحدة الوجود ـ الذي كان مذهب غالب المتصوِّفين والحكماءِ المُدقِّقين ، والإشراقيِّينَ المتعمِّقين ، واعترافِه بعلو كعبِ مؤسِّس هذه النظرية ـ علمياً ـ ورائدها الأكبر ، الشيخ محيي الدين ابن عربي ـ في كثير من العلوم والتحقيقات ـ إضافةً جديدة ، وَيكتشفُ عالَماً جديداً يُوافق عقيدة جمهور المسلمين ، ويَتفق مع الكتاب والسنَّة والشريعة الإسلامية ، في جانب ، ويضُيف شيئاً ـ بدون أن يرجع بالعلوم القهقرى ، ويُلغي تحقيقاتِ جماعة كبيرة ذات شأن وعلومها ومداركها ـ يَنْسَجِمُ مع التحقيقاتِ والكشوف الأخيرة في الأَنفُس والآفاق ، ويتلاءمَ مع النُّصوص الشرعية ، والأُصول القطعية ، ويُطابق بينها جميعاً.

التَّجـربةُ والمُشاهـدة الشَّخصِية:

واقرأ معي ـ بعد هذا التمهيد البسيط ـ مُقتبساتٍ من رَسائلِ الإمام العالية ـ التي هي أقرب إلى الفهم ، وأوضحُ في العبارة ، وأسهل للإدراك.

يتحدَّث عن تَقدُّمه ورُقيِّه في الروحانية ، وانتقاله من مذهب «وحدة الوجود» إلى «وحدة الشهود» وما شاهدَ أثناء ذلك ، فيكتُب إلى بعض أصحابِه المتَّصلين به من المشايخ الصوفية :

«سيِّدي العزيز كان هذا الفقير ـ من الصِّغر ـ يَعتقدُ اعتقاد أهل التوحيد (أصحاب وحدة الوجود) وكانَ والدُ الفقير ـ قُدِّس سِرُّه ـ على هذا المذهب ،

ويَشتغل بهذه الطريقة ، فنالَ هذا الفقير حسب ما يقال: «ابن الفقيه نصف الفقيه» قِسْطاً عِلْمياً وافراً من هذه الطريقة ، فكان يَجِدُ فيها لَذَّة ومُتعة كبيرة ، حتى ساقَني سائِقُ التوفيق الرَّبانيُّ إلى الإمام العارف بالحقائقِ والمعارف ، مُؤيِّد الدين ، الشيخُ الراشد المُرشِد إلى صراطِ الله المستقيم ، محمد الباقي ـ قُدِّس سِرُّه ـ فعلَّمه الشيخُ المرشد الطريقة النقشبندية العَليَّة ، واهتمَّ بأَمره غايةَ الاهتمام ، حتى انكشف عليه ـ بعدَ مُمارساتٍ وتطبيقاتٍ لهذه الطريقة لمدة قليلة ـ «التوحيدُ الوجودي» ، وكان في هذا الاكتشاف شيءٌ من التطرُّف والمُغالاة ، وفاضتْ عليه في هذا المقام علومٌ ومعارفُ كثيرة ، حتى لم يَبْقَ شيءٌ من دقيق وجليل يتعلق بهذا المقام إلاَّ انكشف عليه وظهر له جليّاً.

وتَجلَّتْ له علوم الشيخ محيي الدين بن عربي الدقيقة الخطيرة ، كما ينبغي أن تتجلَّى ، وفازَ بمعارج التجلِّي الذاتي الذي ذكر صاحب «الفصوصِ» ، والمقام الأعلى فيه الذي يقول عنه: «ما بَعدَ هذا إلاّ العدمُ المحض» ووقفَ على عُلوم هذا التَّجلي ومعارفه التي يَظُنُّ الشيخُ اختصاصَها بخاتم الولاية ، بإفاضة وتَفْصيل ، وبلغ منه السُّكْر في هذا المقام وغَلبة الحال حتى كَتب في بعض رسائله ـ التي بعث بها إلى الشيخ المرشد ـ أبياتاً من الشعر في السُّكْر.

وطالَ هذا الحال مُدةً طويلةً ، ودام شهوراً بل أعواماً ، إذ فاجَأتْـهُ العنايةُ الربانيةُ ، وتطلَّعتْ من نافِذة الغيب ، وتجلَّتْ وجلّت ذلك الغطاء الذي كان مُسدلاً على «لا كيفَ ولا كَمَّ» ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] ، ومَالَتْ تلك العلوم والمعارف السابقة التي كانت تُنبىء عن الاتحاد والوحدة إلى الزَّوال والانقراض ، وتَستَّرتْ تِلك الإحاطة ، والسَّريَان ، والقُرب والمعيّة الذاتية التي كان انكشافها في ذلك المقام واختفت، وظهرَ العلم الذي هو يَقين اليقين، إنَّه ليست لهذا العالم الصانِع للكون ، أيُّ نسبة من تلك النِّسب التي تُعزَى إليه ، وإن إحاطَته ومَعِيَّته عِلمية ، وليست بذاتيَّة ، كما هي عقيدة أهل الحق ـ شكرَ اللهُ سعيهم ـ.

إنَّ الله الأحد القدوس لا يَتَّحد بشيء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى: ١١]

والعالَم مُتَّسِمٌ بالحدوث والنقص والمحدودية ، فكيف يمكن أن يكون ما لا يُوصف بالكَيف والكمّ عينُ أو مِثلُ ما يوصف بالكَيف والكَم ؟!، وكيف يقال للواجب إنَّه عينُ المُمْكِن؟ ولن يكون القديمُ عينَ الحادث ، ولا ممتَنِعُ العَدم عينَ جائز العدم ، وانقلابُ الحقائق مستحيل ـ عقلاً وشرعاً ـ ولا يَصحُّ ـ أبداً ـ أن يُحمل شيء على شيءٍ آخر أصلاً ورأساً .

والعَجب من الشيخ محيي الدين وأتباعه إذْ يصفون واجب الوجود بالمجهول المُطلَق ، ولا يَرونه محكوماً عليه بحُكم ، ورغم ذلك يُثبتون الإحاطة الذاتية والقُرب، والمعيَّة الذاتية، والصحيح في هذا الباب ما قالَه علماء أهل السنة : إنَّ الأمر كله راجع إلى القُرب العِلميِّ، والإحاطة العلمية .

وفي أيام فَيضان هذه العلوم والمعارف المخالِفة لوحدة الوجود ، قاسى هذا الفَقيرُ فترةً صعبةً قَلِقة ، لأنه ما كان يظن أن وراء هذا التوحيد توحيداً آخر ، فكان يَدعو متضرِّعاً مبتهلاً ، ألاَّ يُسلبَ هذه المعرفة ، حتى انقشعت تلك الحجب كلها التي كانت مُلقاة على وجه هذه الحقيقة ، وتجلَّتِ الحقيقة الواقعة ، وعلم أَنَّ العالَم وإن كان بمثابة مرآةٍ لصفات الله الكاملة ، ولكنَّ العكس الذي تراه على وجه المرآة ليس هُو ذلك الوجود نفسَه الذي يَنعكس مَظهرُه عليها ، وأنّ الظِّل لا يمكن أن يكون عينَ صاحبِ الظل ، كما يَعتقد أصحاب وحدة الوجود .

وَلْنَضرِبْ لشرح ذلك أكثر من ذي قبل مثالاً ، أراد عالمٌ بارعٌ يجمع بين جميع العلوم والفنون أن يُظهر كماله وكفاءاته المتنوعة الكثيرة ، ويُعلِن فضائله ومحاسنه الخفية على مشاهد الناس ، فأَبدَع حرُوفاً وأصواتاً ليُظهر كمالاته المخفيَّة في مرآةِ هذه الحروف والأصوات ، فلا يُمكن ـ في هذه الحال ـ أن يقال : إن هذه الحروف والأصوات التي هي مَظهر هذه المحاسن المستورة ، ومرآةُ الكمال المكنون ، إنما هِي عَينُ هذه المحاسن والكمال ، أو أنّها محيطةٌ بها إحاطة كاملة ، أو أنّها قريبةٌ منها أو معها معيَّة ذاتية ، وقُرْب ذاتي ، بل إنَّ بينهما من النِّسبة ما بين الدالِّ والمدلول عليه ، فليستْ هذه الحروف

والأصوات إلاَّ دليلاً على هذا الكمال ، وما نشأتْ من النِّسبة بينهما ، إنما هي بفعل الوَهْم والخيال .

والحقُّ أنه لا تتحقَّق نسبة من نسب : العينية ، والاتحاد ، وإحاطة القُرب ، والمعيَّة الذاتية هناك .

ولكن لمَّا أنَّ نسبة الظاهر ، و المظهر ، والدال ، والمدلول عليه مُتحقِّقة بين هذه الأصوات والحروف ، والمدلول والمحاسنُ والكمال لذلك تحصل ـ بتأثير بعض العوامل والعوارض ـ لبعض الناس ، هذه النِّسَب الوَهْمِيّة المتخيَّلة .

ولكنْ هذه المحاسن ـ في حقيقة الأمر ـ خاليةٌ بعيدة من جميع هذه النِّسب ولا صِلة بين الحق والخلق ، إلاَّ ما يُتصوَّر من صِلةٍ بين الدال والمدلول عليه ، والظاهر والمظهر ، وتؤدِّي كثرةُ مراقبةِ التوحيد ببعض السالكين إلى إصدار هذه الأحكام الوهمية ، لأنَّ صورة هذه المراقبات تُنْقَش في القوة المتخيَّلة ، وتَتثبَّتُ فيها ، ويَحصُل لبعض الناس ـ للإمعان في دراسة علم الوحدة ومذاكرتها وإجالة النظر فيها ـ ذوقٌ خاص في هذه الأحكام .

ويَدفع بعضُ الناس إلى هذه النزعة الوجودية ، والاعتقادِ بالوحدة ، غَلبةُ الحب عليهم ، لأن استيلاء حُبِّ المحبوب على القلب يَطرد غير المحبوب ، فلا يَرى في العالم إلاَّ المحبوب ، وليسَ الواقعُ أنَّ غير المحبوب مَعدومٌ ، إذ أنه مُعارِض للعقل والحِسّ والشرع ، وتَدفَعُ هذه المحبّة نَفسَها أحياناً إلى الحُكم بالقرب الذاتي والإحاطة الذاتية .

وإنَّ هذا النوع من التوحيد أرفعُ وأفضلُ من النوعين السابقين ، وداخلٌ في دائرة «الأحوال» وإن كان لا يُطابِقُ الواقع ولا يتفق مع العقل ، وتَطبيقُها مع الشريعة والواقع ، تَنطُّعٌ وتكلُّفٌ خالص .

وغاية ما في الباب أنه خَطأ كشفيٌ ، وهو في حكم الخطأ الاجتهادي يَرتفع

عنه العتاب واللومُ ، بل يُصوَّب أحياناً لغلبة الحال واستيلاء السُّكْر»[١].

التَّوحيدُ الشُّهودي أو (وَحدة الشهود):

ويقول الإمام في رسالة أخرى ، كَتبها إلى الشيخ فريدٍ البخاري:

«إنَّ التوحيد الذي يَحصُل للصوفية في أثناء سُلوكهم ينقسم قسمين: التوحيدُ الشهودي ، والتوحيد الوجُودي.

والتوحيد الشهودي: عبارةٌ عن رؤيةِ واحد ، أي أن لا يكون شهود السالك إلاَّ فرداً واحداً.

والتوحيدُ الوجودي: عبارةٌ عن اعتقادِ وجود واحد ، وَفناء كلّ ما سِواه وعدمه».

ثم يقول:

«مثل أن يطمئنَّ قلبُ إنسان على وجود الشمس ، فلا يستلزم استيلاءُ هذا اليقين أن يعتقدَ عدم النُّجوم وفَناءَها ، ولكنَّه عندما يرى الشمسَ ولا يَرى النجوم ، فإن مَشهوده ـ حينئذٍ ـ ليس إلاَّ الشمس ، ولكنَّه رُغْم ذلك لا يعتقد أن النجوم فانيةٌ معدومة ، بل يكونُ على يقينٍ من أنها مُختفية ، ومَغلوبة بضوءِ الشمس وشُعاعِه».

ويُضيف قائلاً:

«كان شيخنا المُرشِد الشيخ الكبير عبد الباقي ـ لمدَّة يسيرة ـ على مَذْهبِ التوحيدِ الوُجودي ، وقد أبدى ذلك في رسائله ، ولكنَّ العناية الربانية تقدمتْ به من هذا المقام إلى مقام أعلى ، وهَدَتْهُ إلى ذلك الصراط السوي ، والطريقة الفسيحة التي نجا بها من ضِيق هذه المعرفة»[٢].

ويقول في رسالة أخرى ، مُبيِّناً مذهب الشيخ ابن عربي وأتباعه:

---

(١) الرسالة رقم: ٣١ ، المجموعة الأولى كتبها إلى شيخ صوفي.

(٢) الرسالة رقم: ٤٣ ، المجموعة الأولى ، وهي موجهة إلى الشيخ فريد البخاري.

«إنه يقول بـ «وحدة الوجود» ، ويَرى أنه لا موجود في الخارج إلاَّ موجودٌ واحدٌ ليس غير ، وهو الحقُّ سبحانه ، ولا وجود للعالم في الخارج بتاتاً ، إلاَّ أنه يَعتقِد بتحقُّقِه العلمي ، ويقول: «الأعيان ما شمَّتْ رائحة الوجود» ، ويعتقد أن العالم ظلٌّ الله سبحانه ، ولكنَّ هذا الوجود الظِّليَّ ـ بزَعمه ـ في مَرتبة الحِسّ ، أما في نفس الأَمر وفي الخارج فعَدمٌ مَحْضٌ.

ويَحكي الإمام السَّرهندي في نفس هذهِ الرسالة قصةَ انتقالهِ من مقام «وحدة الوجود» إلى «وحدة الشهود» ، فيقول:

«لقد كانَ كاتبُ السطور يَعتقدُ أولاً في التوحيد الوجودي ، وكان على عِلْمٍ بهذا التوحيد من صغره ، وقَد رَسخ يقينُه في قلبه ، إلاَّ أنه لم يكن ـ عند ذلك ـ صاحبَ الحال في هذا المقام ، فلمَّا شدا في طريق السلوك ، انكشفَ له طريق توحيد الوُجود ، فجال في هذا المقام ومراتِبه وصال ، لمدَّةٍ طويلة من الزمن ، وفاز بعلوم كثيرة خاصة بهذا المقام ، وانحلَّت عقد تلك الواردات والخواطر المشكلة التي تَعرض لسالكي طريق الوحدة بهذه المكاشفات ، والعلوم المُفاضة الموهوبة.

ثم استولتْ على هذا الفقير بعد مُدة غير قليلة نسبةٌ أخرى ، فتردَّد في طريق توحيد الوجود في حال استيلاء هذه النسبة.

ولكنَّ هذا التردُّد كان يُرافِقه حُسن الظن ، لا الإنكار والجحود ، وبَقي متوقفاً متردّداً مدة طويلة من الزمن ، حتى بلغ به الحال إلى الإنكار ، وكُشِف له أنَّ هذه المنزلة أدنى وأَحطُّ ، ووصل إلى مقام الظِّلية الذي يفوقها ويَفضُل عليها ، وكان هذا الإنكار اضطراراً وعن اندفاع ، فإنه لم يَكن يحبُّ الخروج من هذا المقام ، لأنَّ كبار المشايخ والعارفين ألقَوا به عصا التِّرحال ، ولكنه لما بَلغ مقام الظِّلية ، ورأى نفسَه والعالَم كله ظِلاً ، تمنى ألاَّ يُفارق هذا المقام ، لأنه كان يعتقد الكمال في وحدة الوجود ، ولهذا المقام مناسبة بها بالجملة ، ولكنْ كان مِن مقادير الله ، ولطفه، وكمال شَفقتِه عليه ، أنْ رَقَّاه وصَعد به إلى مقام أسمى وأرفع ، هو مقام العبدية ، فتجلى له ـ عند ذاك ـ كمالُ هذا المقام

وعظمته ، وجعل يتوب إلى الله ويستغفره من المقاماتِ السابقة ، فلو لم يَكن لُطْف الله أرشدَ هذا المسكين إلى هذه الجادة الواضحة، ولم يَكشف له تَفوُّق مَقام على مقام ، لكان يَعتقدُ انحطاطَه وسُقوطه في ذلك المقام ، لأنه كان يرى أن لا مقامَ أفضَلَ وأعلى من مقام «وحدة الوجود» ، «والله يقول الحق وهو يهدي السبيل» (١).

الرَّأيُ الوَسطُ العَادل عَنِ الشَّيخ الأكبر:

يقول الإمام ـ رغم ما بينَه وبينَ الشيخ ابن عربي من اختلاف ، مُبَيِّناً مذهَبه ومنهجه:

«يرى هذا الفقير أنَّ الشيخ محيي الدين بنَ عربي من الرجال المقبولين، ولكنه يرى معارفه وعلومه التي يُخالِف فيها عقائد جمهور الأمة وظاهر الكتاب والسنة ، خطأً وضرراً على قارئيها. وقد سَلك الناسُ في أمره مَسلك الإفراط والتفريط، وابتعدوا عن التوسُّطِ والاعتدال.

ففريقٌ من الناس يَطعَنُ في الشيخ ويَجرحه ، ويُخطئُه في علومه ومعارفه.

وفريقٌ قلَّده تقليداً كاملاً ، واعتقد جميع معارفه وعلومه حقّاً وصواباً ، يُثبِتُ صِحتها وحقيقَتها بالحُجَجِ والبراهين.

وما مِن شكٍّ أنَّ كلا الفريقين وَقع في الإفراط والتفريط ، وجانَبَ الاعتدالَ.

وممَّا يُعْجَب له أن الشيخ ابن عربي يَبدو من المقبولين ، وتَبدو أكثرُ معارفه وتحقيقاته التي جانبَ فيها أهلَ الحقِّ خاطئةً بعيدةً عن الصواب» (٢).

---

(١) الرسالة رقم: ١٦٠ ، المجموعة الأولى ، كتبها إلى الشيخ يار محمد الجديد البدخشي الطالقاني.

(٢) الرسالة رقم: ٢٦٦ ، المجموعة الأولى.

ويذكر ـ في موضع من رسائله ـ الفارقَ الحقيقيَّ بينه وبين عامَّة المُثبِتين أو النافين «لوحدة الوجود» ، فيقول:

«إنَّ اختلاف هذا الفقير مع القائلين بوَحدة الوجود ، عن طريق الكشف والشهود.

والعلماءُ يستقبحون هذه الأمور كوحدة الوجود ، والنفي المطلق لما سوى واجب الوجود.

أمَّا الفقير فلا يَتردَّد في الاعتراف بحُسن هذه الأقوال والأحوال الصادرة من فكرة وحدة الوجود ، إذا أدّت بصاحبها إلى العبور ، (أي أن يَعبُر السالك هذا المقام إلى مقامٍ أرفع) (١)».

الحَاجَـةُ إلـى مُعارضَـة وَحـدة الوُجـود والـردُّ عليهـا:

وهنا يَثورُ سؤالٌ ، وهو أنه ما دامت «وحدة الوجود» مقاماً من مقامات السلوك ، ومرحلةً انتقالية ، مرّ بها ـ في كل عصر ـ جَم غفير من السالكين والعارفين ، فتوقفَ فَريقٌ كبير منهم عند هذه المرحلة وثَبت عليها ، وقاد بعضَهم التوفيقُ الإلهي والسعادةُ الربانية من هذه المرحلة ، إلى مقام «وحدة الشهـود» ، فمـا وَجْـهُ الاستنكـار والاعتـراض؟! ولمـاذا يكـرُّ عليهـا الإمـام السرهندي بالرَّدّ والتفنيد ، ويَستخدم قَلمَه السَّيَّال ـ في قُوة وحماس ـ لتقرير وَحدة الشهود وتفضيلِها على «وحدة الوجود»؟.

وللإجابة على ذلك نقول: إنَّه نشأ هُناك بين القائلين بنظرية «وحدة الوجود» والحاملين لِلوائها ، والدُّعاة المتحمّسين إليها ـ في عصر الإمام السرهندي ، وقَبل عصره ـ عدد كبير من الصوفية المتزعِّمين ، الذين تحرَّروا من كل القيود والحدود الشرعية ، وخَلعوا رِبقة الفرائض والواجبات الإسلامية ، واعتقدوا أنَّ كل شيء من عند الحق ، بل كُله عين الحق ، فلماذا هذا التفريق والتمييز بين

(١) وهو مقام العبدية والتوحيد ، الذي جاء به الأنبياء (صلوات الله عليهم وسلامه) ، الرسالة رقم: ٤٢ ، المجموعة الثانية ، بعث بها إلى الشيخ جمال الدين حسين.

الحَق والباطل ، والكُفرِ والإيمان ، والحلال والحرام؟ ، وأنَّ غاية أنفسِهم مقامٌ أسمى وأرفعُ لا يحظى بها إلا الكاملون الواصلونَ إلى حضرات القدس ، وهو مقامُ (وحدة الوجود).

وقد كانتْ هذه الصبغة الوجودية ـ في القرن العاشر ، العصر الذي وُلد فيه الإمام السرهندي ، وعَقَل ووَعىٰ ونَضج روحياً وفكرياً ـ هي السائدةُ في الهند ، حتى كان الشعراءُ المتذوِّقون لهذه المعاني يتغنَّون بهذه العقيدة ، ويُساوون بين الكفر والإيمان ، بل قد يتعدَّون حدودَ ذلك إلى ترجيح الكفر على الإيمان ، وكان الناس يُـردِّدون أبياتـاً معنـاهـا : «الكفرُ والإيمان قرينان ، فمَنْ لم يَتمتَّع بالكُفر لم يَتمتَّـعْ بالإيمان».

ثم قيل في بعض الكتب شرحاً لهذا البيت ، وإيضاحاً لمعناه :

«ثَـبت من ذلك أن الإسلام في الكُفر ، والكفرَ في الإسلام ، يعني : ﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ ﴾ [آل عمران: ٢٧] فالمراد بالليل هو الكفر ، والمراد بالنهار الإسلام».

ويَنقُل في موضع آخر ، البيتَ الذي معناه : «للعِشقِ مع الكُفر صِلةٌ وقَرابة ، الكُفر يتجلَّى في نفس الإشراق والتَّصوُّف».

ثم يقول : «أَصبح العِلْمُ حِجاباً أكبر ، ـ والمُراد بهذا العلم هو العبودية التي هي حِجابٌ أكبر ـ فإذا ارتفع هذا الحجاب ، اختلط الكُفر بالإيمان ، والإيمانُ بالكفر ، وارتفعتِ العبادة والعبودية» (١).

هـذه هي الخَلْفِيَّـاتُ الخطيرة التي بَعثتِ الإمام السَّرْهـنـدي على المُحاسبة الدينية العِلمية لهذه العقيدة ، وقد وهَبه الله قِسطاً كبيراً من الحميَّة الدينية الثائرة ، والغيرة «العُمَرية» الشديدة ، والذي كانتْ تتحقَّق به تلك النبوءة العظيمة في الحديث المشهور ، التي قيل فيها :

---

(١) انظر «رسالة عشقية» ، ص ٧٣.

«يَحْمِلُ هذا العلمَ من كُلِّ خَلَفٍ عُدولُه، يَنفُون عنه تحريفَ الغَالين وانْتِحالَ المُبطلين، وتأويلَ الجاهلين»[1].

وقد قام بالنَّقد العلميِّ الموضوعي لهذه الفكرة التي تَستخدِم لنَشرها وتعميمِها كلَّ وسائل النشر والإذاعة في ذلك العصر، وفي بلاد الهند ـ بصفة خاصة ـ في حماسٍ بالغ، ونشاطٍ زائد، وبكُلِّ حُرِّية وانطلاق، وكان الإمام السَّرْهندي يَشهدُ بأم عينيه أنَّ التمسُّك بالشريعة وتعظيم حُرماتها وشعائرِها نحو الزوال، وأنَّ التفكُّك والانحلال يتَسرَّبان إلى صفوف الأمة الإسلامية، يقول في رسالة من رسائله:

«إنَّ مُعظم أبناء هذا العصر ـ اعتماداً على التقليد أو على قُوَّة العِلم المحض، أو اعتماداً على العلم الذي يَختلط معه الذوق ولو في قَدَر محدود ـ أو بسبب الزندقة والإلحاد ـ تمسَّكوا بفلسفة «وحدة الوجود» فيعتقدون أنَّ كل شيء من الحق، بل هو عَيْن الحق، وَيَخْلَعون ـ بحيلة أو أخرى ـ عَنْ رِقابهم رِبْقة التكاليف الشرعية، ويَتساهلون في العمل بالأحكام الشرعية، ويُداهِنون، وهم فَرِحون بسلوكهم هذا ومُطمئنُّون، وأنهم إذا اعترفوا بضرورة العمل بالأوامر والنواهي الشرعية، اعترفوا به كعَمل ثانَوي فَرْعي، وَيرَون الغاية المُبتغاة وراء طور الشريعة، حاشا لله، ثمَّ حاشا لله، أعاذَنا من هذه العقائد الفاسِدة السَّيئة».

ويقول في نفس هذه الرسالة:

«إنَّ كثيراً من الناس، الذين تلبَّسوا بلباس الصُّوفية في عصرنا هذا، يُعلنون عقيدة وَحدة الوجود على ملأٍ من الناس، ولا يَعتقدون الكمال والرُّقـيَّ إلاَّ فيها، فقد جانَبوا بعَملهم هـذا وجَـه الحقيقـة والصـواب، وحملوا أقـوالَ المشائخ على ما يَخطر في عقولهم من معان وأفكار، ثم قلَّدوها، واعتَنقوها،

(١) «مشكاة المصابيح» كتاب العلم [أخرجه البيهقي في السنن (١٠/ ٢٠٩) برقم (٢٠٧٠٠) عن إبراهيم بن عبد الرحمن العذري، والقُضاعي في مسند الشاميين (١/ ٣٤٤) برقم (٥٩٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه].

وهكذا جعلوا سُوق أوهامهم وتخيُّلاتهم الكاسدة نافقة مُتحرِّكة»[١].

مِيزَةُ الإمام السّرهندي وَعبقريتُه:

لَيستْ مأثرةُ الإمام التجديديَّةُ في إثباته بالدليل والبُرهان أنَّ نظرية «وحدة الوجود» التي كان لها القبولُ العام، وكانتِ كالعُملة السائدة، لا تجدُر بأن تكون مِقياساً صحيحاً، وغايةً أخيرة في طريق السلوك والمعرفة، بل إنَّ ميزته وعَبْقرِيَّته في هذا الباب، أنَّه تناولَ هذه النظرية بالنَّقد في ضَوْء تجاربه الشخصية ومشاهداته الذاتية، وأثبتَ للناس أنه سبرَ أعماقَ هذا البحرِ الزاخر وأبعادَه، ونزل إلى قَعْرِه ثم خَرج، وقد ساقه التوفيق إلى أن يُجدِّف سفينةَ المعرفة والتحقيق إلى بَـرِّ الأمان، وشاطىءِ السلامة، وأنه يتعذَّر ـ في هذا المجال ـ أن يكون له زميلٌ أو مثيلٌ، وقد أصاب المؤلِّف الغربي بيتر هاردي (Peter Hardy) رغم أنـه ليس حُـجَّـةً في هذا الباب:

«إنَّ سرَّ النجاح العظيم الذي أَحرزه الشيخ السَّرهِندي يَكْمُن في أنه قد خلَّص الإسلامَ الهنديَّ عن طريق التصوف من التطرُّف الصوفي، ولعلَّ السبَب وراء ذلك: أن النظرية التي ردَّ إليها وعارضها، كان على إدراكٍ شخصي عميقٍ لمعانيها ومقاصدِها، وأهمِّيتها وخطورتها»[٢].

مَوقفُ العُلماء والمشايخ السّلمي بَعد الإمام السَّرهندي تجاه نظريـة وَحـدة الوجـود:

وقبل أَن ننتهي من هذا الباب لا بُدَّ من إعلان هذه الحقيقة التاريخية كمؤرِّخ محايد، إنه لم تَبْقَ هناك بعد وفاة الإمام السَّرهندي ـ باستثناء سِلسلته وطريقته الخاصة التي انتشرت على أيدي ابنه الشيخ محمد معصوم في الهند وخارج الهند ـ نزعةٌ واضحةٌ حاسمةٌ فيما يتعلَّق بنظرية وحدة الوجود، ولم يَبقَ ذلك

(١) الرسالة رقم: ٤٣، المجموعة الأولى، بعث بها إلى الشيخ فريد البخاري.

(٢) Soûrces of Indian Tradition.n.y.p-449.

اليقين والإيمان بصحَّة نظرية «وحدة الشهود» التي رَفع الإمام السَّرهندي لواءَها ، وكان يقول بها على بينة ويدعو إليها على بصيرة.

ونشأتْ بعد وفاته نَزْعةٌ جديدة في أوساط التصوُّف والطُّرق الصوفية ، والأوساطِ التي كانت تنتمي إليها هي: نزعةُ التوفيق والتطبيق بين النظرتين ، حتى قال بعض كبار العلماء المحققين: «إن هذا النزاع كان نزاعاً لَفْظياً صرفاً» ، وقال بعضهم: «إن الإمام السَّرْهندي أخطَأه التوفيق في هذا المجال، وأنه لم يطَّلع على جميع مؤلَّفات الشيخ الأكبر ابن عربي».

ولأجل ذلك ألَّف الشيخ غلام يحيى البهاري (م ١١٨٠ هـ) أحدُ مريدي الشيخ الأجل مرزا مَظْهَر جَانِ جَانَان (أحد المشايخ الكبار في السلسلة المجدِّدية) بأمرٍ منه ، كتاباً بعنوان «كلمة الحق» صرَّح فيه بتحقيق الإمام السَّرهندي ، وبيَّنه بياناً شافياً ، وردَّ على تلك النَّزعة التطبيقية التي كان بعضُ أوساط السِّلسلة المجددية أيضاً يحاول على أساسها التوفيقَ بين وَحدة الوجود ، ووَحْدة الشهود.

الإمامُ أحمدُ بنُ عِرفانَ الشَّهيد على أثر الإمام السَّرْهندي:

وإذا كان هناك في هذه السِّلسلة المجدِّدية العالية ـ بعد وفاة الإمام ـ شيخٌ من المشايخ العارفين المحقِّقين ، يدعو إلى نظرية «وحدة الشهود» الواضحة النَّيرة ، ويسير على آثار الإمام السرهندي ، فهو شيخ السِّلسلة المجدِّدية الأحسَنِيَّة[١] المعروف ، الداعي إلى الله ، والمجاهد في سبيل الله الإمامُ أحمدُ بنُ عِرفان الشهيد الرَّائِي بَرِيْلَوِيّ[٢] (ت ١٢٤٦ هـ).

* * *

(١) وهي سلسلة الشيخ السيد آدم البَنُّوري ، خليفة الإمام السرهندي ، التي تسمَّى السلسلة الآدمية ، والسلسلة الأحسنية.

(٢) ويمكن أن يكون ذلك نتيجة الميول التي ورثها عن آبائه ، لأن جده الرابع الشيخ الأجل السيد عبد الله الحسني ، كان خليفة الشيخ السيد آدم البنوري ، كما يمكن أن يكون نتيجة بحثه وتحقيقه ، واجتهاده الذي كان جديراً به.

البَابُ السَّابِع

جهود الإمام الدؤوبة الصامتة في توجيه الدولة إلى الإسلام من جديد

جُهود الإمام الدَّؤوبةُ الصَّامتة في تَوجيه الدولة إلى الإسلام من جديد

العُلماء والمشايخ الشُّجعان الصُّرحاء في عَهد «أكبر» و«جهانكير»:

ونرى من الواجب ـ قبلَ أن نَذْكُرَ تلك الجهودَ الموفَّقة التي بذلها الإمام السَّرهندي ، والتي غيَّرت مجرى الدولة وحوَّلت تيارها العنيف ـ أن نُصرِّح بحقيقةٍ مهمة ، وهي أنه لا يَصحُّ التصور عن عهد الملك (أكبر) ، أنه كان يسود الهند ، خلال هذا الاضطراب ـ الذي يُشبِه الاضطهاد ـ صَمْت كامل ، ويُخيم عليهم من أقصاها إلى أقصاها ، هدوء تام في صفوف العلماء ، ولم يكن هناك من ينتقد «أكبر» ، ويَعترض عليه ، ويعملُ بالحديث المُثير ولو بأدنى درجة من درجاته :

«مَنْ رأى منكُم مُنْكَراً فلْيُغيِّره بيدِه ، فإن لم يَستطِعْ فَبلسانه ، فإنْ لَمْ يَستطِعْ فبقَلبه ، وذلك أضعَفُ الإيمان» (١) .

---

(١) متفق عليه. [أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان برقم (٤٩) ، وأبو داود في كتاب الصلاة ، باب الخطبة يوم العيد برقم (١١٤٠) ، والنسائي في الكبرى (٦/ ٥٣٢) برقم (١١٧٣٩) ، وابن ماجه في أبواب الصلاة ، باب ما جاء في صلاة العيدين برقم (١٢٧٥) . وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

فنذكرُ ـ فيما يلي ـ رجالاً تشهدُ كُتب التاريخ والتراجم بأنَّهم بذلوا جهودهم ، وأبدَوا استنكارهم لهذه الأوضاع في نطاق عملهم وقَدْر مستطاعهم ، وجاهَروا بعواطفهم الدينية وحَميَّتهم الإسلامية .

ذَهبَ الشيخ إبراهيم المحدِّث الأكبر آبادي (م١٠٠١هـ) ـ ذات مرَّة ـ إلى مَعبد الملِك (الأكبر) على دَعوته ، فلم يأتِ بالآداب والتَّحيات التقليدية للملك ، التي كانتْ مُخالفةً للشريعة ، ثم خَطب عِنده ، فرغَّبه ورهَّبه ، وذكَّره بالله ، ولم يَتهيَّبِ الشوكةَ والحِشمة المُلوكية [١] .

وغادر الشيخُ حسين الأَجْمِيْرِيّ ، الذي تُوفِّي بعد عام (١٠٠٩هـ) ، مدينة أجمير استنكاراً لمجيء الملِك أكبر هناك ، وساخطاً عليه ، فعَزله الملك أكبر عن نَظارة زاوية جَده الشيخ الكبير مُعين الدين الجِشْتِيّ وضريحه ، وأمر بجلائه إلى الحجاز ، فلما رجع إلى الهند ، لم يُباشِر سجدَة التحية له ، فغضب عليه السلطان ، وأَمر بحَبسه في قلعة (بهكّر) ، فلَبِثَ بها بضعَ سنين ، ثم أطلقه ، فلما مَثُل بين يديه أبى أن يُحيِّيه على الوجه المرسوم ، ولم يَقْبلْ هدية السلطان [٢] .

وغَضِب السلطان ـ مرةً ـ على الشيخ سُلطان التَّهَانَيْسَرِيّ ـ الذي كان من أصحاب الحظوة والتقرُّبِ لديه ، وكان السلطانُ أمرَه بترجمة «مَهَابَهارَات» ـ الكتاب المقدَّس عند الهنادك ، في اللغة السنسكريتية إلى اللغة الفارسية ، وكان سَبب هذا الغضب اتهامُ الهنادك إياه بذَبْح بقرة ـ وكان ذبْحُها محظوراً في القانون «الإلٰهي» الجديد ـ وأمر بجَلائه إلى بهَكّر ، من أرض السند ، وولاّه على كَرَوْركِيْرِيّ ، أي جَعله مُحصِّلاً للخراج بها ، ثم بَلغ السلطانَ عنه بعض الشكاوي ، التي كانت تتعلَّق بموقفه الإسلامي الخالص ، فأمرَ السلطان بإعدامه ، ونُفِّذ فيه الحكم عام ١٠٠٧ هـ [٣] .

(١) انظر «نزهة الخواطر» ج٥ .
(٢) انظر «نزهة الخواطر» ج٥ ، ترجمة الشيخ حسين الأجميري .
(٣) منتخب التواريخ : وكان الشيخ التهانيسري والد زوجة الإمام السرهندي .

وأكبر خُطوة جريئة ومُغامرة قامَ بها الشيخ (شَهْبَاز كنبوه) (م١٠٠٨هـ) الذي كانَ من كبار الأُمراء في بلاد السلطان أكبر ، وتولَّى - أخيراً - منصب «مِيْربَخْشِيّ» [١] ، وكان ذا جُرأة وَنجدةٍ لا يقصُر عن قول الحق عند السلطان ، ولا يخافه ، ولا يبالي برِضاه أو سَخطِه في الأمور الشرعية ، فلم يُقصر اللحية ، ولم يشربِ الخمر ، ولم يُرغِّبْ في الدين الإلٰهي المختَرَع قَطُّ».

وقال شاه نَوازْخان في «مآثر الأمراء»: «إنَّ (أَكْبر) شاه السُّلطان كان يتفرَّج يوماً بين العصر والمغرب ، على بُركة ماءٍ بـ(فَتَحْغُوْر) ، وكان (شَهباز) خان بينَ يديه ، فأخذَ بيدِه والتفتَ إليه ، وكان يَمشي ويتكلَّم معه ، والناسُ كانوا يَزعمون أنَّ (شهباز) لا يستطيع أن يَنزع يَدَه عن يَدِ السلطان ، فتَفُوته الصلاةُ ، وكان من عادته ألا يتكلَّم بعد العصر إلى المغرب ، فلما رأى شهبازُ أَن الشمس قد مالت إلى الغروب استأذنَ السلطان للصلاة ، فقال السلطان: تَدارَكْهَا بالقَضاء ، ولا تتركني خَليّاً ، فنزع شهباز يدَه، وَبسط مئزَره على الأرض واشتغلَ بالصلاة ، ثم بالأوراد الرَّاتبة ، والسُّلطان واقفٌ على رأسهُ يشدِّد عليه ، وتواجَد مير أبو الفتح ، والحكيمُ علي الكيلاني أيضاً في تلك الساعة فشَعرا بدقَّة الموقف ، فتقدما وقالا - لصرف نظر السلطان وغضبه عنه - نَحن نَستحقُّ أيضاً أن يلتفتَ إلينا السلطان ، فسَكن غَضبُه ، وانصرفَ عن شهباز خان ، والتفتَ إليهما [٢].

وكان الشيخ عبد القادر الأجِّي كذلك من أصحاب النَّجدة والجراءة ، لم يوافق السلطان في مخالفة الشريعة ، قدَّم إليه أكبر - ذات يوم - الأفيون ، على جَري عادته ، فامتَنع عَنْ بَلْعه ، فأنكر عليه السلطان ، فبينما هو قد فرغ من

---

(١) الأمير الكبير الذي يرجع إليه أمر العساكر السلطانية المعيّنة في تلك الولاية. وأمر «الداغ» أي وسم الخيل ، والتصحيح ، وغير ذلك من المهمات العسكرية ، وهو من أمراء الألوف (الهند في العهد الإسلامي).

(٢) «نزهة الخواطر» ج٥ ، ترجمة شهبازخان.

الصلاة المكتوبة يوماً في «عِبادت خَانَهْ» ـ القصر الذي بَناه (أكبر) للعبادة ـ واشتغلَ بالنوافل ، إذْ خرج عليه (أكبر) ، وقال: يَنْبغي لك أن تَتَنَفَّلَ في بيتك ، فقال عبد القادر: يا مولانا ، هذا ليس بملْكِكَ فيكونَ تحت سلطانك ، فغضبَ عليه السلطان وقال: إذا لم تكن تَرضى عن مُلكي ، فاخرجْ عنه ، فخرج الشيخ من ساعته ، ورحل إلى مدينة «أَج» ، وعكف على الإفادة والعبادة [١] ، وكذلك سَميُّه عبد القادر اللاَّهوري (م١٠٢٢هـ) الذي كانَ السُّلطان ساخطاً عليه لتصلُّبه في الدين ، وشِدة تمسُّكه بالشريعة ، فأمره أن يسافر إلى مكة المكرمة.

ومنهم (مِرْزا عزيز الدين الدِّهلوي كَوْكَهْ) (م١٠٣٣هـ) الذي كان تِرْباً لأكبر وأخاه من الرضَاعة ، يُحبه «أكبر» حُبّاً مفرطاً ، ويُقدِّمه في كل باب ، وكان عزيزُ الدين ـ مع ذلك ـ يُغلظ القول عليه فيما يأمره وينهاه ، لا سيَّما فيما يُخالِف الشرع ، فعَزله عن ولاية كُجْرات ، ثم ولاَّه على (بنكاله وبِهار) ، ولقَّبه بالخان أعظم ، وكان رغم ذلك لا يَستحسَن بعضَ ما اخترعه من السَّجدة بحضرته ، وحَلْقِ اللحية وغيرها.

ومنهم الشيخ مُنوَّر بن عبد الحميد اللاَّهوري (م١٠١٥م) وَلاَّه أكبرُ الصدارة عام ٩٨٥هـ بأرض مالوه ، ولكنْ لم يَدُم له هذا الحال ، لِصَلابتِه في الدين ، واستقامتِه في السلوك ، وضَيَّق عليه في السجن حتى مات [٢].

العلماء والمشايخ الشجعان الصرحاء في عهد (جَهَانْكِير):

واستمرَّتْ ـ بعد جلوس السلطان (جَهَانْكِيْر) على عرش الدولة ـ القوانينُ والطُّقوسُ التي اختَرعها أكبر ، وكانتْ نافذةً في عصره إلى مدَة غير يسيرة ، فكانت تَسودُ الدولة نفسُ الأساليب ـ والأعمال ـ عدا المعارضة الصريحة

---

(١) نزهة الخواطر: ج ٥ ، وراجع تراجم هؤلاء المذكورين.

(٢) المصدر السابق نفسه ، وراجع تراجم هؤلاء المذكورين.

للإسلام ـ التي كانت من قبل ، إلى أن مال السلطان جهانكير إلى تَعظيم الشريعة الإسلامية ، واحترامِ شعائرها.

وقد تصدَّى عددٌ من العلماء والمشايخ أثناء تلك الفترة من عهد (جهانكير) ـ للإنكار على هذه التقاليد والقوانين ، وخاطَروا بأنفسهم في رفض تلك التقاليدِ والآداب الملوكية ، التي كانت تُعارض الدِّينَ والشريعة الإسلامية البيضاء ، ولم يَرضَوْا لأنفسهم بأن يَتجاوزوا حُدودَ الله ، ولم يَتَلعْثَموا في الجهر بكلمة الحق ، فكان الشيخ(أحمدُ بن محمد بن إلياس الحسيني الغرغشتي) أحدُ مشايخ الطريقة في الحدود الشمالية الغربية للهند ، طَلبه جهانكير بين يديه ، فلم يَرض أن يُحيِّيه بالآداب المرسومة ، فحبسَه في قلعة كواليار ، فلبِثَ بها ثلاث سنين ، ثم أُطلِق سراحه عام ١٠٢٠ هـ ، واستصحَبه إلى (آكره).

مِيزةُ الإمام السَّرْهندي مِنْ بين هؤلاء:

ولكنَّ الفضل الأكبر مُقاومة انحرافِ الدولة وضَلالِها ، ومعارضتِها بقوة وتنظيم ، والجهود الموفَّقة الحكيمة في إصلاحها وتقويمها يَرجع إلى الإمام السَّرْهندي الذي قَيَّضه الله ـ عز وجل ـ لصيانة الدين ، ونَصْرِ الإسلام والمسلمين ، وقُدِّر أن يُناط به هذا العملُ التجديدي العظيم ، الذي واصل ليلَه بنهاره في إكمال هذه الخطة التجديدية ، وإحداثِ تلك الثورة الصامتة الهادئة التي لم تُهرق فيها الدماء وغيَّرت مجرى التاريخ ، ولا يُوجد لها نظير في تاريخ الدول والبلاد الإسلامية الأخرى.

وكانَ نتيجةَ هذه الجهود أَنْ تَولَّى الدولة ـ بعد وفاة السلطان (أكبر) ـ مَنْ كان خيراً منه وأفضل ، يَمتاز بحَميَّته للإسلام ، وتعظيمِه لحُرمات الدين ، وسلامته من الجرائيم المناوئة للإسلام ، والكراهية له ، وانتهتْ هذه السلسلة الذهبية ، وبلغتِ الأوج والكمال على يد السلطان (محيي الدين أَوْرَنْكَ زيب) الذي كان مَثَلَه الأعلى حياةُ الخلفاء الراشدين ، وخِدْمتهم للإسلام والمسلمين.

جُلُوس السلطان جهانكير على عَرْش الدولة واستئنافُ الإمام السَّرْهندي عَمَله التَّجديدي لإصلاح الدولة والسلطان:

مَات السُّلطان (جلال الدين أكبر) عام ١٠١٤هـ ، وكان الإمام السَّرْهندي - إذ ذاك - في الثالثة والأربعين من سِنّه ، لقد كانتِ الأيام الأخيرة من حياة السلطان أكبر - التي أحدقتْ فيها الفتنُ والأخطار بالهند ، وهُدِّد الإسلام بالزوال والانقراض - هي الفترة التي بلغ فيها الإمام السَّرهندي كماله الروحي، ونُضجه الفكري وذَروة الصفاء والربانية ، ولم تكن له أيُّ صلة بأركان الدولة وأمرائها ، كما أنه لم يَحِن الوقت الذي يطَّلع فيه أهلُ البلاط على جلالة شأنه ، وعِظَم منزلته ، وإخلاصِه ، وربانيته ، وكمالِه الباطني ، ولأجل ذلك كان الإمام السَّرْهندي لا يجد الطريق لبداية عمله ، وإزجاءِ مشاعره وانطباعاته ، وتَسريب خواطره وأحاسيسِه إلى البلاط المَلكيِّ ، وتأثيره على سياسة الدولة العامة ، فيما يتعلّق بالدين والقانون.

وكانَ يستولي على البلاط وعقلية السلطان ونفسيته وعلى التنظيم والإدارة - عند ذاك - الأشخاصُ الذين كانوا يَحُوْلُون بين السلطان وبين كل رجل مُتديِّن مُخلِص ، وقد أَقاموا سُوراً حديدياً حول البلاط ، حتى لا تَصِلَ إليه نَفْحَةٌ طَيِّبة مُنعِشة ، ونَسْمةٌ خالصة نَقيَّةٌ من الخارج ، ولا يعرفُ السلطان وحاشيته ما يدور في البلاد وما يَختلِجُ في نفوس الرعايا من كُره أو حُب ، أو سَخط أو رضا ، وكان الإسلام والمسلمون في هذه البلاد الواسعة - التي قامتْ فيها حكومات مُسلمة قوية في اتصال واستمرار - يُعانون ما صوره القرآن الحكيم في تَعبيره البَليغ المُعجِز: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة: ١١٨].

ولكنْ لم يبقَ الوضع على ذلك بعد أن أخذَ السُّلطان (جَهَانْكِيْر) زمامَ هذه البلاد بيده عام ١٠١٤ هـ ، ولئنْ كان جهانكير - لعواملَ خاصة من التعليم والتربيـة في إشراف والـده السلطـان أكبر - لا يمتـازُ بصـلاح ونزعـة دينيـة

ملحوظة ، وتَقَيُّدٍ بالشريعة الإسلامية ، والتزام للفرائض والواجبات الدينية ، فإنَّه لم يكن ـ كذلك ـ يحمل في صَدره البُغض والاستيحاش من الإسلام ، أو الشَّغفَ والتأثُّر بحضارة قومية ، أو فَلسفة من الفلسفات الدينية، والرَّغبةَ في إعلان دين جديد، وقانون جديد وتنفيذِهما، وبتعبير آخر: إنه إنْ لم يكن حامياً لبيضَة الإسلام ، ذاباً عن حماه ، لم يكن كذلك راغباً في مَحْو آثاره ، وطمس معالمه ، فإنَّ السلاطين المغرَمين باللهو والمُجون ، والمعيشة الفارهة الباذخة ، لا يُعنَون ـ بصفة خاصة ـ بإزالة النُّظم السائدة ، وإحلال النظم الجديدة مكانها ، بل إنما كلُّ همِّهم في حياة الأفراح والليالي الملاح ، وعز السلطان ، وفَخْفَخةِ الدولة.

وقد شُوهد فيهم في مطاوي النفس إعجاب وإكبار لأولئك الرجال الذين يتسَامَوْن بأنفسهم عن هذا المستوى المادي ، ولا يَلتفتون إلى بَهرج الدنيا وزينَتها ، ويَستغْنُون عن الجاه والمنصب ويكون لديهم استعداد أكثر لقبول الحقِّ منهم ، والخضوع له ، من أولئك الذين يَدعُون إلى حركة ويتبنون فلسفة جديدة ، أو يَطْمحون إلى أن يكونَ لهم ذِكر في التاريخ أو شهرة في الناس كمخترعِ طريقةٍ ، أو مُبتكِر مذهبٍ خاصٍّ.

المَنهَجُ الصَّحيح:

كانتْ في هذه الفترة أمام الإمام السَّرْهندي وجميع العلماء الغيارى على الإسلام ـ الذين كانوا يتحلَّون بالعلم الديني ، والصَّلاح الباطني ، وكانوا مشغولين بخواص أنفسهم ، ويقطعون فَيافي السلوكِ إلى الله ، وَتَملكُ قُلوبَهم ومشاعرهم الحميَّة الدينية الثائرة ، والغيرة الإسلامية المتأجِّجة لمواجَهة هذه الأوضاع التي كانت تظل الدولة وتحيط بها؛ ثلاثُ طرق:

١ ـ الطَّريقة الأولى: أَنْ يعتزلوا الدولة والبلاد ، ويَتركوا حَبْلها على غَاربها ، ويلجؤوا إلى زاوية ، يشتغلون فيها بذكر الله ـ في سَكينة وطُمأنينة ـ وتربية الطالبين وإرشاد السالكين ، والانهماك في الطاعات والعبادات.

كان هذا هو الطريقَ الذي اختاره ـ في عهد الإمام السَّرهندي ـ عشراتٌ بل مئاتٌ من العلماء والمشايخ، وكانتْ لهم رباطات وزوايا في كل بُقعة من البقاع، حيث كانوا منصرفين إلى التربية والإرشاد في هُدوء وصمت وانهماك، وكانَ الطالبون والمسترشدون من عِباد الله يَشُدُّون إليهم الرحال، ويستفيدون منهم فوائد روحية وإيمانية كبيرة.

٢ ـ الطريقة الثانية: أن يقطعوا الرجاء ـ بصورة حاسمة ـ من إصلاح السلطان ـ الذي كان انتماؤه إلى الأسرة الإسلامية اسميّاً ـ ويَعتبروه مُعارضاً عنيداً للإسلام تَشهد بذلك كثيرٌ من القوانين والمراسيم الملكية، وسيرتُه وسلوكه، ويَيْئَسوا من إصلاح الدولة، فَيلجؤُوا إلى إقامة جَبهة دينية معارضة مقابل الدولة والسلطان وإلى محاربته، والنضالِ المستمرِّ معه نظراً إلى أنه عَـدُوٌّ لدودٌ للإسلام، ومُعارِض دائم للدين، وأَن يجمعوا حولهم رِجالاً تَغلي فيهم الحميَّةُ الدينيةُ، وتَستولي على مشاعرهم عواطفُ الجهادِ والاستماتة في سبيل الله، ويتميَّزون غيظاً من الأوضاع الراهنة، من الأمراء والأتباع والمريدين، والمُحبين والمعجَبين بهم، ويُحدِثوا ـ بعد ذلك ثورةً في الدولة، بالإجراءات السياسية والعسكرية، ويُحاولوا أن يُولُّوا السلطة رجلاً صالحاً ديِّناً ـ ولو كان من الأسرة المغولية، ومن أبناء «بابر» ـ يُغيِّر وُجهة الدولة، فتتغير الأوضاع، وتتحسن الظروف.

٣ ـ الطريقةُ الثالثة: أن يتَّصلوا بأعضاء الدولة وأمرائها، ويُثيروا الحمية الإسلامية، والعواطفَ الدينية، فيمَن عَرفوهم واتصلوا بهم من قبل، ويعتقدون في إخلاصهم، وسُمو شخصيتهم، وتوجُّعهم للأوضاع، وينفضوا الرماد عن تلك الجمرات الكامنة في قلوبهم، ويُشعلوها وَينفخوا فيها، ويُحرضوهم على النصيحة للسلطان، وأنْ يُحركُوا تلك العروق الإسلامية التي وَرِثها عن آبائه وأجداده المؤمنين، ويَحملوه على حماية حَوزة الإسلام، وتَضْميدِ القلوب الجريحة للمسلمين وتَدارُكِ العهود الماضية.

وأَن يَسمُوا بأنفسهمْ ويترَفَّعوا على الجاه والمناصب، ويُثبتوا للناس زُهدَهُم

وتقشُّفهم في الحياة واستغناءَهم عما في أيدي الناس ، ويَكلوا الدَّولة إلى أهل الدولة ، والمناصبَ إلى أهلها ، والمُتبوِّئين عليها ، ويتظاهروا بإخلاصٍ ونزاهة ، وسُمُوٍّ نفسٍ لا ترقى إليه شبهة ، ولا يَقْدر أشدُّ الناس معارضةً لهم ، وأكثرَهم كيداً وحسداً ، أن يتَّهمهم بالحِرص والطمع في الجاه والسلطان ، ولا تنجح أيُّ مؤامرة لإسقاط شأنهم وحطِّ منزلتهم.

أمَّا الطريق الأول: فما كان يلائم طبيعة الإمام وعُلُوَّ همَّته وشِدة عزيمته ، وعظيم مكانته التي بوأه الله ـ تعالى ـ إياها ، ولا يَنسجمُ معها أيُّما انسجام.

فقد كان الإمام السَّرْهندي ـ بعد أن فاز بالتَّكميل الباطني ، والتربيةِ الروحية العالية، على ثِقة ويقين تام ، بأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هيأه لأمر عظيم ، وأنه لم يُخلق للعبادات الفردية المكتوبة ، والتقدُّم في المراحل الروحية ، فحسب ، أو بِشياخة الطرق وإرشاد السالكين فحسب ، وقد أباح سرّه وتحدث عن نفسه عندما أشار إلى قولٍ من أقوال الشيخ الكبير الشيخ عُبيد الله أَحْرَار (م٨٩٥هـ) الذي كان شيخاً رفيعَ المكانة من مَشايخ سلسلة الإمام السَّرْهندي ، بل يُعتبر إمام هذه السلسلة يقول: كَان الشَّيخ عُبيد الله أحرار يقول:

«لو تَصدَّيْتُ للشياخة والإرشاد ، وأخذِ البيعة من الناس ، لما وَجَد أيُّ شيخ من مشـايخ الطرق من يُبـايعه ، ويَنخرط في سلك مُريديـه ، ولكنَّ الله ـ تعالى ـ أراد بي أمراً آخر ، وهو نَشْرُ الشريعة السمحة ، وتأييد المِلَّة الحنيفية».

ثم يقول الإمام تَعليقاً على ذلك: «كان (الشيخ الكبير عبيد الله) يَدخُل على السلاطين ويحضر في مجالسهم، ويُـؤثِّـر فيهم بقُوّتـه الباطنيـة ، وَمَلَكتِه الروحية ، فينقادون له ، ويُطيعونه ، ثم يَستعينُ بهم في نشر الشريعة».

أمَّا الطريق الثاني: فإنَّه لا يسلكه من الدعاة أو القادة إلا صاحبُ عقلية سياسية ، قاصرُ النظر ، محدودُ التفكير الذي يبدأ عمله من الشكِّ وسوء الظن ، ويَجعلُ الحكومة ـ بتسرُّعِه وترجيح إقامةِ الجبهة المعارضة على حِكمة

الدعوة ، وعاطفةِ الإصلاح والنصيحة ـ تَقِفُ إزاءَه وجهاً لوجه ، وتُعارِضه من أول الطريق ، وهو بذلك يُضيّق عليه الأرضَ بما رَحُبت ويُقلِّل إمكانيات انتصار الدين وهَيْمنَةِ الشريعة .

وليس هذا طريق الداعي الموفَّق إلى الله الذي لا يُريد لنفسه ولِحزبه علواً في الأرض ، وسيطرةً على الحكم ، بل كُلُّ هَمِّه أن يَظهر الدين وتُنفذَ أحكامُ الشريعة ، وتَصْلُح الدولة ، كائناً من كان المنفِّذ لهذه الأحكام المُسَيطِر على البلاد .

وكانَ القيامُ بتكوين جَبهة مُعارضة للدولة ، وإعلان الحرب عليها محفوفاً بالصُّعوبات والأخطار ، وكانتْ هذه الخُطوة ـ في الأوضاع السياسية السائدة في البلاد ـ نَوعاً من الانتحار في حَق الإسلام ، لأن الدولة المغولية ، التي وَطّد أركانَها السلطانُ (بَابَر) وثبَّت جذورها بيديه ، وتجشَّم لها الملك همايون مشاقَّ الرحلة الخطيرة إلى إيران ، وأحكمها وقوَّاها السلطان أكبر بفتُوحه وانتصاراته المتتالية ، وتسخيرِ البلاد ـ كانت شابَّة فَتيَّة ، لم تَبْدُ فيها آثار الضَّعْف والهرم ، ولم يَستطع السُّلطان (سليم شاه) خليفةُ الملك العصَامي السلطان (شَيْرشاه السُّوْرِي) أن يَقضي عليها .

وأخفقتْ كل المحاولات ـ في فتراتٍ مختلفـة ـ للثورة وقلب نظام الحكم .

ثم إذا نجحتِ الجهـود لخـلع السلطان المغُولي ، كـان من المتوقع جداً ، أن يستولي الراجبوت ـ الذين تولوا في عهد السلطان مناصبَ عالية خطيرة في الدولة ، وكانت قُوتهم العسكرية هي الوحيدَة التي كان السلطان يَثِقُ بها ويَعتمد عليها ـ على الحُكم ، فيكونُ ذلك ضَربةً قاصمةً للسُّلطة المسلمة في هذه البلاد إلى الأبد .

ثم إنَّ هذه التجربة لقيت إخفاقاً ذريعاً من قبل ، فقد قامتْ ـ في عهد السلطان (أكبر) ـ حركةٌ دينية ، منظَّمة كبيرة تحت قيادة الشيخ بايزيد ـ باسم الفرقة الروشنائية ـ وقد تقدم ذكر شيءٍ من تاريخها وعقائدها ـ وحاربتْ هذه الفِرقة جيوش الدولة المغولية الجرّارة ، طِوال أعوام وسنين ، واستولت على

مَـمَـرِّ (خَيْبَر) ، بعد أن جَعلت مقرها «جبل سليمان» ، وشنَّت غارات على المناطق المجاورة ، بعث السلطان أكبر لمقاومتها «رَاجَهْ مَانْ سِنْكه» و«رَاجَهْ بَيْرَبَلْ» وزين خان ، وكُلهم باؤوا بالخيبة والهزيمة ، وقُتل بيربل في معركة من المعارك ، واستولتِ الفرقة الروشنائية بجيشها اللجب على (غزنين).

ولم يُمكن التغلب على هذه الفِتنة الداهية إلا في عهد السلطان (جهانكير) ، ثم قضي عليها قضاءً باتاً في عهد السلطان (شَاهْجَهَان) ، ورغم كل ذلك ، لم تُنتج هذه الثورة إلاَّ فوضى واضطراباً ، واستسلمتْ ـ أخيراً ـ للدولة المغولية ، وبقي اسمها يُذكر في التاريخ.

إنَّ مثل هذه الإجراءات العسكرية باسم إصلاح الأوضاع الفاسدة ، تُستهدَف للظُّنون السيئة ، والشكوكِ المريبة عند أصحاب السُّلطة والحكومات فيُشمِّرون عن ساق الجد ـ لظنِّهم أن الدِّين هو المعارضُ المناوىء لسلطتهم ـ لاستئصالِه والقضاء عليه ، ويَتَّبعون أَتباعه والمتحَمِّسين له ، فيُصفُّونَهم ويُبيدونهم إبادة كاملة.

ولعلَّ الإمام السرهندي لأجل ذلك ـ بعد خروجه من مُعتقل كواليار ، ومرافقة العسكر الإجبارية أربَع أو خمس سنين ، أشار على الوزير الشهير في بلاط السلطان (جهانكير) الأمير (مَهابَتْ خان) عندما قام بالثورة عام ١٠٣٥هـ على الدولة أن يَكُفَّ عنها ، ولا يُثير الاضطراب ، فكان دليلاً واضحاً على فِراسته الإيمانية ، والتوفيق الرباني الذي كان حليفه ، إنه ما اختار ـ لإحداث تغيير جذري في الأوضاع ـ هذا الطريقَ المشبوهَ المحفوف بالأخطار ، بل سلك طريق البناء بدلَ الهدْم ، والإيجابَ بدل السلب ، والإمالةَ بدل الإزالة ، الطريق الذي كان بمأمن من كل خطر وضرر.

ولم يَبق بين يدي الإمام إلا طريق واحد ، وهو أن يَبدأ باتصالات خاصة ، مع أركان الدولة وأعيانها ـ الذين كانوا مسلمين ـ وكان الإمام السَّرهندي يعرف بذكائه الموهوب ـ معرفَته العميقة للنفوس ، أنه لم يكنْ لهم في هذه المؤامرة والكيد على الإسلام في عهد السلطان (أكبر) ، ناقةٌ ولا جمل ، بل كانوا

يستنكرون كثيراً من إجراءاته ، ولكنَّ السُّلطة لم تكن بأيديهم حتى يَعملوا شيئاً وكان عددٌ منهم يتَّصف بالحب العميق للإسلام ، والحَمِيَّة الدينية ، وعددٌ آخر كانوا معجبين بشيخ الإمام ومرشده الشيخ الكبير عبد الباقي ، ويُحبُّونه ويعتقدون في علو مكانته ، وإن لم يكونوا من مريديه ، والمبايعين على يديه ، وكانوا يعرفون إخلاصَ الإمام السَّرهندي ، وتحرُّقه للإسلام وتوجُّعَه للدين ، وزُهده وعفافه.

وكان أشهرُ هؤلاء الأعيان ، وأجلهم شأناً النَّواب السيد مرتضى المعروف بالشيخ فريد (م ١٠٢٥ هـ) وخان أعظم مِرْزَا كَوْكَه (م ١٠٣٣ هـ) وخان جهان اللُّودهي (م ١٠٤٠ هـ) وصدر جهان البَهَانْوِيّ (م ١٠٢٧ هـ) والإلٰه بَيْك جهانكير.

ما صَدر مِن القلب نَفذَ إلى القَلْب:

وَجَّه الإمامُ السّرهندي خطابَه إلى أركان الدولة وكِبار الأمراء والوزراء ، واسْتأنَف المراسلة معهم ، ونَثر قِطع قلبه ، ومُزَعَ نَفْسِه على صفحات الرسائل ، التي تمتاز ـ بين مجاميع الرسائل التي كُتبت في لغةٍ من لغات العالم وفي تاريخ أيّ حركة دينية إصلاحية ـ ببلاغَتها ، ونَصاعة أُسلوبها ، ورَوْعة تأثيرها ، وتدفُّق معانيها ، وقد تجلَّى فيها تألم مُنشِئها للوَضع والواقع ، وإخلاصُه واستحواذ الفكرة عليه في أروع مظاهره.

ولا تزال ـ رُغم مضي مئات السنين عليها ـ تَحملُ ذلك التأثير والروعة والجمال ، يقدر بملاحظتها القارىء ما كان لها من فِعل وتأثير في نفوس مَن وُجِّهتْ إليهم ، والواقعُ أنَّ هذه الرسائل هي رسولُ الإمام السَّرهندي ، وسفيره في الدعوة والتبليغ ، وتُرجمانه الصحيح لقلبه المَكلوم الجريح ، وهي قَطرات دموعه ، وفَلذات أكباده ، وقد كانتْ لها مساهمةٌ أساسية فعَّالة في إحداث ذلك الانقلاب العظيم الذي ظَهر في الدولة المغولية في القرن العاشر بالهند.

الرَّسائلُ الدَّعوية المحرِّضة إلى أُمراء الدولة:

إنَّ عدداً كبيراً من هذه الرسائل بَعث بها الإمام السَّرهندي إلى الأمير السيد فريد[(١)]، الذي كان يَتمتَّع بمكانة مرموقة في أركان الدولة، وأمراء الولايات، وكان مُستشاراً خاصاً، وصاحب حَظْوة وزُلفى في الدولة، من عهد السلطان (أكبر)، وكان مُعجَباً بالشيخ عبد الباقي، مُحِباً له مع الإجلال والاحترام.

وانتهز الإمامُ هذه الحَمِيَّة الدينية فيه وَشَرَفَ نَسَبه، وحرَّضه ـ مذكراً إياه بما خصَّه الله به من صفات النُّبل وكرم المحتدِ ـ على أداء مسؤوليته الدينية، وما يَفرضُ عليه كونه من أهل بيت النبوَّة من واجبات إسلامية، وأن يَنصح السلطان جهانكير، ويُشير عليه بما يُغيِّر مجرى الدولة من سيرها على خطة الملك (أكبر)، وَغْفلَتها من مقتضيات الإسلام، وقِلة الاهتمام بشأن الدين، وما يُعاني الإسلام والمسلمون من غُربة ووَحشة، ويُوجِّهها إلى تعظيم شعائر الدين الحنيف، وحِماية بيضة الإسلام، واحترامِ الأحكام الشرعية والتعاليم النبوية.

---

(١) هو الأمير الكبير مرتضى بن أحمد أبي بكر البخاري المعروف بنواب فريد الدين، أحد أجواد الدنيا، لم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبير، والسخاء والكرم، والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالي الأمور؛ أدرك أكبر بن همايون في صغر سنه، فتقرب إليه وتدرج إلى الإمارة حتى نال «المير بخشي كري» (وهو الذي يرفع إليه أمر العساكر ويعين لها الرواتب) ثم لما ولي المملكة ولده جهانكير أضاف في منصبه، ولقبه بصاحب السيف والقلم، وولاه على كجرات أولاً، ثم على بنجاب، فأقام بها مدة حياته، وكان أجود الناس، وأنفعهم خيراً، لم يخيب سائله قط حتى كان يبذل عليهم قباءه، ودثاره، ورداءه، وما كان عليه، وكان قد وظف الأيامى والمتوكلين، وأهل الحاجة، من يومية وسنوية، وكان يكفل اليتامى ويربيهم كتربية الآباء للأبناء ويزوج البنات العوانس، ويجهز لهن، وكان يأكل على سفرته قرابة ألف وخمسمئة نفس كل يوم، وسميت مدينة «فريد آباد» (بقرب دهلي) نسبة إليه، توفي في عام ١٠٢٥هـ. (ملخص من ترجمته في «نزهة الخواطر» ج٥).

ولا تَحمل هذه الرسائل ـ للأسف ـ تاريخَ كتابتها ، وإلاَّ تعرفنا على جوانب كثيرة ، من حِكمة الدعوة ، والتقدُّم التدريجي فيها ، ووقَفْنا على سلسلة هذه المراسلة ، وكيف وجَّه الإمام السَّرهندي مَنْ خاطبه في رسائله توجيهاً تربوياً ، وماذا عَملوا هم للتأثير على السلطان ؟ ، ثم كيف قام السلطان بتغيير وُجهة الدولة إلى صيانة الإسلام وحمايته ، وكيف بدأت مخلَّفات الحكومات السابقة ورواسبها تضمحِلُّ وتتلاشى ـ تدريجياً ـ ويحلُّ محلَّها احترام الإسلام ومعرفةُ قَدْره وأهميتِه ، والميل إليه ؟ .

ونحن نُحاوِل ـ حسب تقديرنا ـ أن نُقدِّم هذه الرسائل مُرتبة ترتيباً تدريجياً ، إلى حد ممكن .

يقول الإمام السرهندي في رسالة بَعث بها إلى الأمير السيد فريد البخاري فورَ جلوس السلطان (جهانكير) على عرش المملكة ، كما يبدو : يَدعو له باستقامتِه على جادَّة آبائه الميامين وبخاصَّة جدِّه سيدِ المرسلين ﷺ ثم يقول :

«إنَّ السلطان في الدنيا كالقَلْب في البدن ، فإذا صَلح القَلب صلح الجَسد ، وإذا فَسد القَلْبُ فَسَد الجسدُ ، وإنَّ صلاح السلطان صلاحُ الدنيا ، وفسادَ السلطان فَسادُ الدنيا .

وأنتم تعرفون جيداً ما مُني به الإسلام في القرن الماضي ـ في عهد السلطان أكبر ـ من رَزِيئة ونكبة ، ولم يكن الإسلام ـ رَغم غُربته في القرون التي مضت قبله ـ ذليلاً مهاناً ، مثلما كان في هذا القرن ، فقد كان في الزمن الذي مضى قبله ، يتمسَّك الكافر بكُفره ، والمُسلِم بإسلامه ، ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾ [الكافرون: ٦] ولكن ظهر أهل الكُفر في القرن الماضي وغَلبوا أهل الإسلام ، وبدؤوا ينفِّذون أحكام الكُفر بصورة سافرة ـ في دار الإسلام ، وكان المسلمون لا يَقدرون على إظهار أحكام دينهم ، ومَنْ تَجاسر على إظهار دينه لقِيَ العقاب ، وحُكم عليه بالإعدام .

وَاويلاه ، وامصيبتاه ، واحُزناه ، واحَسرتاه! أتبَاعُ محمد ﷺ الذي هو

حبيبُ رب العالمين ـ أَذِلة ضُعفاء مهانون ، والجاحدون بنُبوَّته أعزةٌ أقوياء مُكرَّمون ، كان المسلمونَ بقلوبهم الجريحة المكلومة يَنْدبون الإسلام ، ويَرثُونه ويَنوحون عليه ، وكان المكابِرون الجاحدون يسخرون ويستهزئون ويَنكَؤون جُروح المسلمين الدامية ، غابتْ شمس الهداية في ظلام الضلال ، واختفى نُور الحقّ في حُجُبِ الباطل وسُحبه الداكنة .

واليوم بعد أَن زال ما كان يحول بين الإسلام وتقدُّمه وانتصاره ، وتشنفتِ الآذان ببشرى تُمكِّن سلطانَ الإسلام من عرش الحكومة ، ورأى أهل الإسلام مِن الواجب عليهم أن يُساعدوا السلطان ويناصروه، ويُبصّروه بطريق نشر الشريعة الإسلامية ، وتأييدِ الملة الحنيفية ، سواء كانت هذه المساعدة والمناصرة باليدِ أو باللسان» .

ويقول بعد بضعة سطور ، وقد وَضع الأصبع على الدَّاء الذي أصيبت به الدولة في العهد الماضي :

«كُلُّ رَزيئة رُزِىء بها الإسلامُ في القرن الماضي ، كان من شُؤم عُلماءِ السوء ، فهمُ الذين أضلُّوا السلطان وأَغْوَوْهُ ، وعندما تفرقتِ الملة الإسلامية اثنتين وسبعين فرقة واتخذْت طريق الزَّيغ والضلال ، كان علماءُ السوء رؤوسَ هذه الفِتَن ، وقادةَ هذا الانحراف ، وقليلٌ من ضلَّ من العلماء وانحرف ، ولم يُؤثِّر ضلالُه على الناس ، وإنَّ مُعظم جهلة هذا العصر ، المتزعّمين للتصوف يُمثِّلون دور علماء السوء ، ففسادهم ـ كذلك ـ فسادٌ مُتَعدٍّ مُعْدٍ .

فإذا كان هناك من يستطيع أن يُناصر في هذا العمل (نَصْرَ الدين الحنيف) ثم يُقصِّر ويتكاسل ولا يُؤدِّي دوره ، فإنه مسؤولٌ عن الإسلام ، يَستحِقُّ المَلام .

نظراً إلى ذلك يُحب هذا الفقير ـ الذي بضاعته مُزجاة ـ أن يَنضمَّ إلى معسكر المناصرين للإسلام ، وللدولة المسلمة ، ويُحاول جُهده في نُصرة الدين ، فإن «مَنْ كَثَّر سَوادَ قوم فهو منهم» ، ومن يدري ، لعلَّ الله يَجعلُ هذا الفقير من هذه الجماعة الكريمة ، وهو يَرَى أن مثله مِثلَ تلك العجوزِ المسكينة ، التي فَتلتْ

عدداً من الحبائل ، لِتَنْسَلِك في سلك المُساوِمين في يُوسفَ الكريم (١) ، ويأملُ هذا الفقير أن يتشرَّف بالحضور لديكم في وقت قريب ، أرجو منكم ـ لتقرُّبكم إلى السلطان وتَهيُّؤ الفُرص في الحديث معه ـ أن تَبذُلوا جُهودَكم في تمكين الشريعة المُحمَّدية ونشرِها ، وتُخرجوا المسلمين من غُربتهم ومَسكنَتِهم ومَهانتهم» (٢).

ويقول في رسالة أخرى إلى السيد فريد :

«إنَّ المسلمين الغرباء الذين هم في هذه الوَرطة الهائلة ـ في هذه الأيام ـ إنما يَتوقَّعون خلاصَهم منها بسفينة أهلِ البيت ، فقد قال الرسول ـ ﷺ ـ: «مَثَل أَهْلِ بيتي كمَثَل سفينةِ نُوحٍ مَن ركبَها نَجا ، ومَن تخَلف عنها هلَكَ» (٣).

فَركِّزوا هِمَّتكم القَعْساء على هذا الهَدف العظيم ، لِتَنالُوا هذه السعادة العُظمى ، وقد وَهَبكُمُ اللهُ ـ عز وجل ـ كُلَّ أنواع الحِشمَةِ والجاهِ والسلطان، فَلو جَمعْتُم بين شَرَفِكُم في النسب ، وبينَ هذه السَعادة الجليلة ، لبذَّتْ سعادَتُكم جَميع السعادات ، ويَنوي هذا الفقير ـ للتحدُّث معكم في هذه الأمور التي يَقصد من ورائها تَأييدَ الشريعة الإسلامية وتَرويجَها ـ أَنْ يَتَشَرَّفَ بالحضور لديكم» (٤).

ويقول في رسالة ثالثةٍ إليه :

(١) قصة يحكيها بعض القصاص ، وأوردها بعض المفسرين في كتب التفسير ، وقد أصبحت مثلاً لمن يلقي دلوه في الدلاء ، ويريد أن يخرط في سلك الأغنياء والعظماء ، على قلة البضاعة.

(٢) الرسالة رقم: ٤٧ ، المجموعة الأولى.

(٣) [أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٣) برقم (٣٣١٢) و(٣/ ١٦٣) برقم (٤٧٢٠) ، والطبراني في الكبير (٣/ ٤٥) برقم (٢٦٣٧) ، وفي الأوسط (٤/ ١٠) برقم (٣٤٧٨) ، وفي الصغير (١/ ٢٤٠) برقم (٣٩١) من حديث] أبي ذر رضي الله عنه ، والحديث روي أيضاً عن ابن عباس ، وابن الزبير ، وأبي سعيد. قال في مجمع الزوائد (٩/ ١٦٨): فيه ابن لُهيعة وهو لينٌ، وقال الهيثمي فيه جماعة لم أعرفهم].

(٤) الرسالة رقم: ٥١ ، المجموعة الأولى.

«سَيدي الشريف إن الإسلامَ ـ اليوم ـ مسكينٌ غريب ، وإنَّ فلساً واحداً يُنفقُ ـ الآن ـ لتقوية الإسلام وتأييده ، يُعادل الملايين ، فلْنَنظرْ مَنْ يكون ذلك الصقرُ الجريء الذي يُنعم الله عليه بهذه النعمة الجليلة .

إنَّ العمل الذي يقوم به الإنسان لنَشر الدين وتأييدِ الملَّة ـ في أي عصر من العصور ـ جميلٌ محبوب ، ولكنه اليوم حيثُ الإسلام غريبٌ أجملُ وأحبُّ ، فجديرٌ بكم ـ أنتم الأشراف ـ إذ أن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم ، وهُو لَكُم مباشرة ، ولِغَيركم بواسطة ، وإن وِراثَتكم لجَدِّكم الكريم لها أهميتها الكبيرة في نَيل هذه السعادة ، فإنَّ هذه الساعة هي التي ورد عنها ذلك الحديث: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «إنَّكم في زمانٍ مَنْ تَرك مِنكُم عُشْرَ ما أُمِر به هَلَك ، ثم يأتي زمانٌ مَن عَمل مِنهم بعُشْر ما أُمِر به نَجا» [(١)].

وإنَّ هذه الجماعة من الناس ، هي تِلك الجماعة ، ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٦] .

والشَّخصيةُ الثانية التي وَقع اختيار الإمام السَّرهندي عليها بعد الأمير السيد فريد ، هو رُكن الدَّولة المغولية المكين (خَان أَعْظَم [(٢)]) الذي كانتْ له مع الأُسرة الملوكية صِلَةٌ وقَرابةٌ ماسَّةٌ ، وكان (جهانكير) مُعترفاً بعُلوٍّ مكانته وأَهميَّته ، وكان في قلبه إجلال وإكبار لمشايخ الطريقة النقشبندية ، ولعل

(١) [أخرجه الترمذي في أبواب الفتن برقم (٢٢٦٧) ، وقال: حديث غريب].

(٢) هو الأمير الكبير مرزا عزيز الدين ، كان يلقب بكوكه لكونه أخا السلطان أكبر من الرضاعة ، استوطن غزنين ، ثم مدينة دهلي ، كان والياً على كجرات عام ٩٨٠ ولما خالفه محمد حسين مرزا وحاصره ، سار إليه أكبر وجاب ١٤٠٠ ميل في تسعة أيام ، وولي على بكاله وبهار بعد ولاية كجرات ، ولقب بالخان الأعظم ، وولي على كجرات مرة ثانية عام ٩٩٧هـ ومع هذا التقرب والزلفى لدى السلطان ، كان يغلظ القول عليه ، فيما يأمره وينهاه ، ورغم ذلك سلم إليه السلطان خاتمه «مهراوزك» وجعله وكيلاً مطلقاً في مهمات الأمور وأسند إليه السلطان جهانكير أيضاً مناصب خطيرة ، وولاه على كجرات وتوفي عام ١٠٣٣هـ ،(ملخص من ترجمته في «نزهة الخواطر» ج٥).

الإمام بَعثَ بهذه الرسالة التالية إليه بَعد تَولّي السلطان (جهانكير) للدولة ـ يقولُ فيها:

«أَيدكُم الله ـ سبحانه ـ ونَصرَكم على أعداء الإسلام في إعلاء الإسلام، قال رسول الله ﷺ: ««بَدأ الإسلامُ غَريباً، وسَيَعُود غريباً كما بدأ، فطُوبىٰ للغُرباء»[1].

فَقدْ بلغتْ غُربة الإسلامِ في هذه الديار أن أَطال الكفارُ ألسنَتَهُم على الإسلام، ويَعيبُون المسلمينَ، ولا يَستحيُون من إظهار أَحكام الكُفر، ومَدْحِه والثناءِ عليه في المشاهدِ والأسواق، والمُسلمون إزاءَهم لا يَقدِرون على إظهار أحكام الإسلام ويُعابون إذا عمِلوا بها ويُذَمُّون».

وقد قال الشاعرُ ما معناه:

«ما بَالُ الحُور العِين مُصفرةَ الوجوه، شاحبةَ الألوان، والسَّعالى في الجَمال والدَّلال، يا لَلْحَيرة القاتِلة، ويا لَلْعَجب العُجاب».

ثم يقول:

«نَرى وجودَكُم الكريم ـ اليوم ـ نِعمةً سابغة، ولا نَرى فارساً غيرَكم في الساحة لإدالةِ الإسلام من مُنافسيه وخُصومه وإقالةِ عَثاره، أيّدك الله ونَصرك بحُرمة النبي وآلهِ الأمجاد عليه وعليهِمُ الصلوات والتسليمات والبركات، ورَد في الحديث الشريف ما معناه: «لَنْ يُـؤمِنَ أحَدُكم حتى يُقال إنَّـه مُجنونٌ»[2]، وإنَّ ذاك الجنون الذي يَكونُ دافعُه الغَيرة المُفرِطة على الإسلام، لا نُحسُّ به

---

(١) [أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، في كتاب الإيمان، باب بيان أنَّ الإسلام بدأ غريباً . . .] برقم (١٤٥)].

(٢) ولفظ الحديث كما أخرجه الحاكم في «المستدرك» [(١/ ٦٧٧) برقم (١٨٣٩)]: «أكثروا ذكر الله حتى يقولوا مجنون». قال الذهبي في التلخيص: صحيح . ورواه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٧١) وابن حبان في «الصحيح» [٣/ ٩٩ ،برقم (٨١٧) ، وأبو يعلى في مسنده (٢/ ٥٢١) برقم (١٣٧٦)] كما جاء في «الجامع الصغير» للسيوطي كلُّهم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الآن إلاَّ في طبيعتكم الفيَّاضة ، فالحَمد لله سُبحانه عَلى ذلك ، اليوم يومُ الجزاء الجزيل الجليل على العملِ الحقير القليل ، لم يَظهر مِنْ أصحابِ الكَهف من الأعمال البارزة إلا الهجرةُ العَملية ، فكانتْ لها هَذه الأهميةُ الكبيرة ، وإذا أبدى الجُنديُّ عندَ غَلب الأعداء وانتصارهم شجاعتَه ونَجدَته ، يَلقى من التَّبجيل والإكرام ما لا يلقاه في حالِ الأمن والسلام ، إذِ الأعداءُ في بلادهم .

إنَّ هذه الفُرصة للجهاد بكَلِمة الحقِّ ، التي أتاحها اللهُ لكمُ اليوم ، هي الجهاد الأكبر ، فانتهزوا هذه الفُرصة وقولوا: هل مِن مَزيد ؟ واعتَبِروا هذا الجهاد باللسان ـ في هذا الوقت بالذات ـ أفضلَ من الجهاد بالسَّيف والسِّنان ، ونَحنُ الفُقراء العَجزةُ حُرمنا هذهِ النعمةَ العظيمةَ :

هَنئيـاً لأربــابِ النَّعيــمِ نَعيمُهُــم   وللعــاشِــقِ المسكِيـن مـا يَتجَـرَّعُ

هَدينـاكَ إلى مَكان الكَنـز الدفيـن ، فـإنْ كُنتُ لـم أظفر بـه لعلّـك أنتَ تَظفَرُ به» .

ثُمَّ يقولُ بعدَ بِضعة سطور : «إنَّ ما كان يُشاهَدُ من المعارضة العنيفة للدين الحنيف في الدولة السابقة لا نَجدُها في هذه الدَّولة اللاحقة ، وإن كان هناك شيءٌ من ذلك فسببُه الجهل ، ويُخاف أن يصل الأمر ـ بتدريج ـ إلى نَفس تلك المعارضة والمعاندة ، ويُضيّق الخناق على المُسلمين» (١) .

* * *

ويَـكتُب إلى شخـصٍ آخـر من أصحـاب المنـاصبِ العاليـة فـي بـلاد السلطان (جهانكير) ، وهو (خان جهان) (٢) ، في نَـفْسِ الموضوع :

---

(١) الرسالة رقم: ٦٥ ، المجموعة الأولى.

(٢) الأمير الكبير خان جهان بن دولت خان اللودهي، كان جهانكير يعتمد عليه، ويحبه حباً مفرطاً لا يتصور فوقه ، وكان من خيار الأمراء ، يحب العلم والعلماء ، ويحسن إلى الناس كافة ، قام في عهد السلطان شاهجهان بالثورة ضده ، وقتل ١٠٤٠هـ («نزهة الخواطر» ، ج٥ باختصار).

«لو جَمعتُم بين ما تتبوَّؤون من مَنصب كبير وبين العَمل على الشريعة الإسلامية ، لأَدَّيتُم أَمَانةَ الأنبياء ـ عليهم الصلوات والتسليمات ـ وأَوضحتُم الدِّينَ المتين وأَضَأْتمُوه ، وعمَّمْتمُوه ، ولو جَهدنا ـ نحن الفقراء ـ أنفسَنا أعواماً طوالاً ، لما لَحِقْنا بغُبار أمثالكم من صُقور الإسلام.

أَلا نُفُـوسٌ أَبيَّـاتٌ لهـا هِمَـمٌ أَمـا علـى الخَيـرِ أَنْصـارٌ وأَعوانُ؟»

ويقول في رِسالةٍ مُسْهَبةٍ:

«لا يعرفُ الناسُ قيمةَ تِلك النعمة الجسيمة التي شرَّفكم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بها ، وأخاف أنكم كذلـك لا تَعرفونها حقَّ معرفتها ، ذلك أن السلاطين في هذه البلاد من سَبعة أجيال مسلمون ، ومِن أهل السنَّة والجماعة ، مُتمسِّكون بالمذهبِ الحنفي ، وإن كان في الزمن الأخير مُنذ بضعة أعوام ـ إذ الزمان زَمان دُنُـوِّ السَّاعة ، وبُـعد العَهد بالنُّـبوَّة ـ تَقـرَّبَ بعضُ الأذكياء بشُؤم طمَعهم وحِرصهم ـ الذي هو وَليدُ فَساد باطنهم ـ إلى الحُكَّام والسلاطين ، تملَّقوهم ببَذرِ الشُّـبَـه والشكوك في الدين ، وأضلُّوا السُّذَّج من الناس عنِ الصراط المستقيمِ.

ولمَّا كَان السلطان العظيم (جهانكير) يستمعُ إلى حديثِكم بإصغاءٍ واهتمام ، ويَقدرُه قَدْرَه ، فما أجملَ هذه الفُرصة لتُـبَلِّغوا إلى السلطان ـ بصريح العبارة أو الإشارة ـ كلمةَ الحقِّ التي يَعتقدها أهلُ السنة والجماعة ، شكرَ اللهُ سعيهم ، وتتقدَّموا بكلام أهلِ الحق ما اتَّسَع لهُ المقام ، واقتضَى الحال ، بل انظروا والتَمِسُوا دائماً مناسبةً من المناسبات يَتطرَّق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية ، حتى تَنتهزوا الفُرصة لإظهار أنَّ الإسلام حقٌّ ، والكُفرَ باطلٌ شَنيعٌ» (١).

وقد كتب الإمام السَّرْهندي ـ عدا ما كتبه هؤلاء الأُمراء الكِبار وأعيان الدولة ـ رسائلَ عديدةً تُثِير نفسَ المواضيع إلى (الإله بَيْك) ، الذي كان يَحتَلُّ منصب

(١) الرسالة رقم: ٦٧ ، المجموعة الثانية.

«بَخْشِي» للسُّلطان مراد ، ابن السلطان أكبر ، وكان والياً على (بِهَار) ، يقول :

«زَادنا اللهُ ـ سبحانه ـ وإياك حَميَّة الإسلام ، لقد مضى على غُربة الإسلام وَمسكَنَتِه قَرنٌ كامل ، وبَلغ الحالُ بهذه البلاد إلى أنَّ أهل الكفر لا يَرضَون بالعمل على أحكام الكُفر فحسب ، بل يُريدون أن تَزولَ الأحكام الإسلامية ـ بتاتاً ـ ولا يَبقَى أيُّ فَرْق بين الكفر والإسلام ، لقد تَجاوز الأمرُ إلى أن مُسلماً لو أراد إظهارَ شَعيرةٍ من شعائر دينه (كذَبْح البقرة) يُعاقب بالقَتل والإعدام» .

ويَزيدُ قائلاً : «فلو تمكَّن الإسلام في بداية هذه الدولة ، وارتفعتْ رُؤوسُ المسلمين ، ونالوا العزة والكرامة ، فَبِها ونِعْمَتْ ، وإذا حال تَوقُّفٌ وتَردُّدٌ في هذا الأمر دون ذلك ، والعِياذُ بالله ، فسَوف يَزدادَ حال المسلمين سُوءاً وتعقّداً ورَزيئة ، فالغياثَ الغياثَ ، ثم الغياثَ الغياثَ ، فلْنَنْظُر مَنِ المُقبل المَنْصور الذي يُشرِّفه الله بهذه السعادة ، ومن هو الصقر الجسور الذي يظفر بهذه النعمة الجليلة ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[1] [الحديد : ٢١] » .

يقول في رسالة إلى «صدر جهان» [2] أحدِ أُمراء الدولة في عهد (جهانكير) :

«أنا على يَقين من أنَّ قادةَ الإسلام الأشرافَ العظام ، العلماءَ الكرام مُنصرِفون إلى تأييد الدِّين المتين وتَقويته ونَصْره ، وبناءِ الصراط المستقيم

(١) الرسالة رقم : ٨١ ، المجموعة الأولى .

(٢) هو الشيخ العالم المفتي صدر جهان الحسيني البهانوي (مديرية هَرْدُوئِي حالياً) كان من العلماء المبرزين في العلوم العربية ، ولي الإفتاء في العسكر ثم ولي الصدارة ، وتتلمذ عليه جهانكير ، أخذ عنه أربعين حديثاً ، ولاه على منصب أربعة آلاف ، وأقطعه أراضي واسعة عاش مئة وعشرين سنة ، مع صحة حواسه وسلامة أفعاله ، توفي سنة ١٠٢٧هـ («نزهة الخواطر» ج٥ ملخص) .

وتكميلـه ـ سِرّاً وعَلانيـة ـ فلا داعي لهـذا الفقير العاجز إلى إطالـة الـنفس ، والإفاضة في الحديث»[١].

يَنبغي ألاَّ يُعاد الخَطأ مرّة أُخرى:

وحان ـ أخيراً ـ ذلك العَهْدُ السَّعيد الذي شَعر فيه السُّلطان (جهانكير) بخَطَئِه ، وأراد ـ حَسْب القوانين العامة للحكومة والإدارة ـ أن يُكوِّن لجنةً من العلَماء للاستشارة في الأمور الدينية ، وتَجْنيب الدَّولة من الأخطاء والمشاكلِ التي تَقعُ في هذا الصَّدد ، فطلبَ من أعيانِ الدولَة المتديّنين أن يَبحثوا عن العلماء الصالحين ، ويَدعوهم إلى البلاط ، ويحثّوهم على أن يُقيموا في البلاط ـ بصفة دائمة ـ ليُبَيِّنوا المسائل الشرعيـة ، ويُستَفْتَـوا في القضـايا الدينيـة ، ويُهتدى بهم.

ولمَّا اطَّلع الإمام السَّرْهندي ـ الذي آتاهُ اللهُ الحكمةَ والفِراسةَ الإيمانيةَ، والبَصيرةَ في الدين ، وكان يعرف خَطَّ الانحراف في الدولةِ السابقة وتاريخَه، وعَوامِله وخَلفِيَّاته معرفةً عميقة ـ ارتاعَ لذلك ، بدل أن يَفرح بهذا النبأ السار ـ في الظاهر ـ وكَتب رسالةً إلى الأمير السيد فريد ، وأُخرى إلى الأمير صدر جهان ، وقال فيهما ما يلي:

«أُناشِدكم بالله ـ سبحانه ـ ألاَّ تُقدموا على هذا الخطأ ، واختاروا عالماً واحداً ، ربَّانياً مُخْلِصاً ، بدلَ أن تَختاروا عدداً من علماء الظاهر».

ويَقول في الرِّسالة التي وجَّهها إلى السيد فريد:

«ثبَّتَـكُم الله ـ سُبحانه ـ على جَادَّة آبائِكم الكرام ، سمعنا أَنَّ سُلطان الإسلام بما جُبِلَ عليه من سَلامة الفطرة ، وحُبِّه للإسلام ـ أوصاكم بأن تَختاروا أربعةً من العلماء ، ليُقيموا في البلاط ، ويُبيِّنوا المسائل الشرعية ، حتى لا يقعَ عملٌ من السلطان ، أو لا يُصدِرَ حُكماً من الأحكام خِلافَ الشريعة الإسلامية ،

(١) الرسالة رقم: ١٩٤ ، المجموعة الأولى.

الحمدُ لله ـ سبحانه ـ على ذلك ، فَليستْ هناك بُشرى للمسلمين أعظمُ من هذه البشرى ، ولا خبرَ يدخل السرور على المفجوعين والثَّكالى أعظمُ من هذا الخبر ، ولكن الفقير مُضطرٌ إلى أن يتحدَّث معكم قليلاً ، رجاءَ المعذرة ، فإنَّ صاحبَ الحاجة أرعن.

فالّذي أُريد أن أَقولَه ، هو أَنَّ مِثلَ هؤلاء العلماء المُتديِّنين الذين يَتسَامَوْن بِأَنفُسهم عن حُبِّ الجاه والسلطان ، ولا هَمَّ لهم إلاَّ تأييدُ الإسلام ونَصْرُ الدِّين ، وَنشْرُ الشَّريعة الحنيفية ، هم أقل القليل ، فإنْ كان واحدٌ من هؤلاء العلماء يَميلُ إلى الجاه ، وَيتظاهرُ بفضله وتَفوُّقه وَبراعته ، ويُثير مسائل خلافية ، ويُحاوِل عن طريق ذلك الزُّلفى لدى السطان والحفاوةِ والإكرام ، فإن ذلك يُسيء إلى الدين ويُعرِّضه للخطر ، فقد كانتْ هذه الخلافياتُ الجُزئية بينَ العُلماء في القرن الماضي ، هي التي سَبَّبتِ الكارثةَ ، وأصابتِ الدنيا بِدَاهيةٍ ، ويَعودُ نَفْسُ ذاك الخطر ، الذي يكون سبباً لِتَلفِ الدِّين وضَياعه ، فَضلاً عن تَمكين الدِّين وتأييدِه ، والعياذ بالله ـ سبحانه ـ مِن ذلك ، ومنِ فتنةِ العلماء السُّوءِ.

فلو اخْتِير ـ بدلَ العُلماء الأربعة ـ عالِمٌ واحد ، لكان أصلحَ وأحسَن ، لأنَّه إن كان من عُلماء الآخرةِ فما أحسَن ذلك ، ومُجالسَتُه كالكِبريت الأحمر ، وإنْ لم يكن مِنْ عُلماء الآخرة؛ فَينبغي أن يُختار من طبقة العلماء من هو أحسَنُهم حالاً ، وأفضَلُهم شأناً «فما لا يُـدْرَكُ كُلُّه لا يُـتْرَك جلُّه».

ثُمَّ يَقـول: «لا أَدري ماذا أَكتُب ، إنَّ نَجاة الخَلْق وخَلاصَهم كما هو مُرتبِطٌ بالعلماء ، كذلك خُسرانهم وضياعُهم مرتبطٌ بالعلماء ، فأَفضلُ النَّاس في العلماء أَفضَلُهم في الدنيا ، وشَرُّ الناس من العلماء أَسوؤهم وأَفْسَدهم في الدنيا ، فقدِ ارتبطَ بهمُ الهداية والإضلال.

رأى بَعْضَ الصالحينَ إبليسَ اللَّعينَ قاعداً في تَعطُّل وبِطالة ، فسأَله عن سَببِ ذلك ، فقال: إنَّ علماء هذا العصر يَكفُوننا همَّنا ، ويُؤدُّون دَورَنا في الإغواء والإضلال ، ويَقولُ الشَّاعر مُخاطِباً للعُلماء:

يـا أَيُّهـا القُـرّاء يـا مِلْـحَ البَلَـد   ما يُصْلِحُ المِلْحَ إذا المِلْح فَسَدَ؟

والغَرضُ من كُلِّ ذلك ، أنْ لا تتَّخِذوا أيَّ إجراءٍ في هذا الصدد إلاَّ بعد تَروٍّ كثيرٍ وتفكير عميق ، لأنَّه إذا انقضى الأمرُ فلا تَدارُك ولا عِلاج ، وأنا خَجِلٌ من مِثل هذا الحديث مع أصحاب الفِطنة والألمعية ، ـ مثلَ شخصكم الكريم ـ ولكنْ لاعتقادي أنَّ هذا سبَب سعادتي وَجَدْتُ في نفسي اندِفاعاً إلى هذا الحديث»[(١)].

المُعجَبُـون بالإمـام السَّـرْهنـدي مِـن أعيـان الـدولـة وأُمـرائهـا ، ومُراسَلته مَعهم:

عدا هؤلاء الأمراء ـ الذين تَقدَّم ذِكرُهم ممَّنْ رَاسَلَهُم الإمام السَّرْهندي ، وبَكى في رسائله دُموعاً غزيرةً من الدَّم على غُربة الإسلام ، ومَهانَتِه ، وقِلَّةِ حيلته وانتهاكِ حُرمات الشعائر الإسلامية ، والأحكامِ الدينية ، وهَوانِ المسلمين وإلجامِ ألسنتهم أن تَنْطِق بالحق ، ووجَّهَهُم ـ باستخدام مناصبهم الكبيرة ، ومكانَتِهِم الخطيرة ، وخَدماتِهم العظيمة للدولة ـ إلى أن يُلفتوا نظرَ السلطان إلى الأوضاع المتردِّية ، وما يُعاني الإسلام من غُربة ، وأن يُثيروا فيه عِرْقَه الإسلامي الذي وَرِثه عن آبائه ، ويُوقِظوا الحميَّةَ الدينيةَ من سُباتها.

عدا ذلك هناك رسائل إصلاحية تَربويةٌ أخرى ـ في عدد كبير ـ كتَبَها إلى عدد من كبار الأمراء وأركان الدولة ، وعالجَ فيها مواضيعَ التربية والسلوك وحلَّ فيها مُشكلات الطريق ، وغوامِضَ الفَنّ ، وأَرشدَهُم فيها إلى الزُّهد في الدنيا والرَّغبة عنها ، والشَّوقِ إلى نعيم الجنَّة ، والاهتمام بتَنوير الباطن ، وتزكية النفس ، وهذه الرسائلُ مُوجَّهة إلى (عبد الرحيم خَانِ خَـانَـان) (المتوفى ١٠٣٦ هـ) ، و(قليج خان الأندَجاني الأكبري المتوفى سنة ١٠٢٣ هـ) ، (وخواجه جهان (المتوفى سنة ١٠٢٩ هـ) ، ومرزا داراب بن خان خانان

---

(١) الرسالة رقم ٥٣ ، المجموعة الأولى ، وعالج نفس هذا الموضوع في رسالة أخرى رقم: ١٩٤ ، المجموعة الأولى ، التي بعث بها إلى الأمير صدر جهان.

الجهانكيري (م ١٠٣٤ هـ) ، و(شرف الدين حسين البَدخشي) .

ويُقدَّر من هذه الرسائلِ: أنَّ هؤلاء الأمراء الكبار كانوا يُحبُّون الإمام ، ويُجلُّونه إجلالاً كبيراً، وهي مثل ما يَكتب الشيخُ المرشِد إلى مريديه ومُسترشديه يُنبّههم على أخطائهم ، ويُذكِّرهم وَينْصَحُهم ، ويُبدي سروره وارتياحه على تَقدُّمهم في الدين، ورُقيّهم في الاستعداد الروحي ، وصفاءِ الباطن وقُوة النسبة .

ويستطيعُ الإنسان أن يُقـدِّر من خلالها أيضـاً أَنَّ هؤلاءِ الأمراء الكبار لم يكونوا قد قـصَّروا في النصيحـة للإسلام والعَطْفِ عليـه ، والجَهْر بكَلِمة الحق عند السلطان ـ حَسْبَ ما أراد الإمام السَّرْهندي منهم لإصلاح الدولة والبلاد ـ وتحقيق آمال شيخهم ومُرشدهم التي كان يُعلِّقها بهم ، والتعاضدَ مع الأمراء الآخرين وتأييدهم في إنجاز ذلك الهدف العظيم الذي وجَّههم إليه الإمام السَّرْهندي في رسائله .

تأثيرُ الإمام السَّرهندي الشخصيُّ وأثره الباطني في إصلاح الأوضاع:

ما ذكرنا ـ فيما تقدَّم ـ يَتَّصل بِتلْك المُحاولاتِ والجُهود التي بَذلها الإمام عن طَريق الأمراء ، فإنَّ هذه الرسائل التي كانت تَتْرى على الأمراء وأعيان الدولة مِن قِبل الإمام السَّرْهندي ، والتي كان يُحرِّضهم فيها على نَصْر الإسلام وحماية الدين ، وتوجيهِ السلطان إلى احترامِ شعائرِ الإسلام وتَنفيذِ الشريعة الإسلامية ، وإصلاحِ الأوضاع الفاسدة ، الرسائل التي تَبرُق وتَـرْعُد حَماساً وحَميَّة ، وتَـتدفَّق قُـوة وغَيرة ، وتكادُ تَسيل رِقَّـة وعُذوبة ، لم تذهبْ هذه الجهود عن طريق الرسائل سُدىً في تكميل خِطَّته ، وأداء دَوره .

وقد لَعِب من وُجِّهتْ إليهم هذه الرسائل دورَهم ، لا سيَّما الأمير السّيد فَريد الذي قام بمهمَّةٍ موفَّقةٍ أساسية في تَغيير تيار الدولة ، وتحويلِ اتجاهها إلى الإسلام من جديد .

ولكنْ لم يحدث ـ إلى ذلك الوقت ـ في نَفْسِية السلطان (جهانكير) ذلكَ التغيير الجذري الذي كان يَحتاج إليه هذا العمل الجذري الذي كان يَحتاج إليه هذا العمل العسير العظيم ، ومعلومٌ أن شخصية السلطان في الحكومات الملوكية تَحتلُّ مكان النُّقطة المركزي والقُطبَ الذي تدور حوله جميعُ أنظمة الدولة ، فلو قصد أمراً ، أو اعتنقَ فِكرة ، أو أحبَّ شخصاً ، أو اعتقد في رجلٍ ربّانيٍّ مُخلِص وأكنَّ له الإجلال والإكبار ، واعتمدَ على صلاحه وَوَثِق بإخلاصه ، فإنَّه يَقطع مسافة آلاف الأميال في ساعاتٍ ودقائق ، وقد يَجعلُ المستحيل مُمكناً بل أمراً واقعاً.

وكان (جهانكير) ـ إلى تلك الساعة ـ يَجهلُ مكَانة الإمام السَّرْهندي ومَنزلَته في العِلم والربانية، لأنه لم يكن من العلماء والمشايخ الذين يتردَّدون إلى البلاط ، ويَختلفون إليه ، إذاً فما هو الطريق للاتصالِ به مباشرة ، حتى يَعرِف عُلُوَّ مكانته ، وعِظمَ مَنزلَتِه ـ في حُدود استعداده وكفاءَتِه ـ؟ .

هنالـك دبَّرتْ مقاديرُ الله ـ تعالى ـ في ذلك تدبيراً ، وكان تَفسيراً عملياً لقوله تعالى: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

تـأثُّـر السلطان جهانكير:

قَرأنا في الباب الثالث قصَّةَ اعتقال الإمام في قلعة (كَوَالِيَار) ، والإقامةَ الجبرية في المعسكر ، وكان الإمام السَّرْهندي مَكث في المعسكر ثلاثَ سنين وسِتة أشهر [(١)] صَحِب فيها السلطان وجالسه ، وذاكَره في المسائل الدينية ، وشهِد السلطان شدة شكيمَته وصلابَته ، واستقامَتهُ في الدين في مظهر إبائه الصَّريح عن سَجْدة التَّحية ، والآدابِ الرسمية ، وإقامَته في قلعة كواليار سجيناً في عِزة نفس واعتدادٍ وكرامة ، وعدمِ خضوعٍ لطلب العفو ، كما شهدَ تأثيرَ صُحبته ومجالسته ، وتأثيراته الباطنية ، وقُوته الرُّوحية ، في دخولِ المئات من

(١) أطلق سراحه من قلعة كواليار في شهر جمادى الآخرة عام ١٠٢٩هـ ، وودع المعسكر في شهر ذي الحجة عام ١٠٣٢هـ ، وهكذا تكون هذه المدة ثلاث سنين وستة أشهر.

الكفار في حظيرة الإسلام ، واطَّلع ـ أثناء إقامته في المعسكر ـ ومُرافقته الطويلة ـ على زُهده وتقشُّفه ، واستغنائه ، وانهماكه في العبادات ، واهتمامه بالأوراد والأذكار ، ورأى تبحُّره ورسوخه في العلم أثناء مجالسته ، وفي الحديثِ معه .

وكان (جهانكير) حاكمَ دولةٍ عظيمة ، يَمتازُ بسَلامة الفِطرة ، والذكاء والنبوغ ، وسَنَحتْ له فُرصة الخِبرة بكثير من الأمراء والعلماء والمشايخ ، وأبناءِ الدنيا وعُبّاد المادة ، والصَّالحين المتديِّنين من عهد والده (أكبر) ، إلى عَهْد حُكمه ، نشأتْ فيه مَلَكةُ التعرُّفِ على طبائع الناس وخصائصهم ، التي لا يَتمتَّع بها من لم تَحصُل له هذه الفرصة الكثيرة ، للخِبرة والنقد ، وتَمييزِ الزَّيف من الصحيح ، فلا شك أنه أدرك أن الإمام السَّرْهندي طِراز آخر من الرجال ، يَختلف اختلافاً كبيراً عَمَّنْ كانوا يَحتلُّون المناصب في الدولة ، ويتجمَّل بهمُ البَلاط ، ويزدان بهم دُست العِلم والشياخة .

يتجلَّى هذا التأثيرُ لصُحبة الإمام وخواطِره وعواطفه ، في الحادثة التالية التي سجَّلها السلطانُ جهانكير نفسه في شيءٍ من الفَخر والاعتزاز ، وتزدادُ أهميَّة هذه الخُطوة التي اتخذها جهانكير ، إذا أخذنا بعَين الاعتبار أنَّ هذه القَلعة فُتحت بأيدي (الرَّاجَهْ بَكَرْ مَاجِيْت) الهِنْدُوكيّ ، لا بأيدي قادةِ الجيش المُسلمين المحنَّكين .

يَقـولُ جَهانكيـر : «خرجنا يوم ٢٤ من شهر «دي» [1] المذكور للتَّفَرُّج والنُّزهة في قلعة (كَانْكَرَه) ، فأَمرنا أن يُرافقنا القاضي ومير عدل وغيرُهما من العلماء ، ليُظهروا في هذه القلعة شعائرَ الدين الإسلامي ، وأحكامَ الشريعة المحمدية ، على سبيل الإيجاز ، ووصَلْنا بعد سَيرِ فَرسخ واحد إلى ذُروةِ القلعة ، فأَمرتُ ـ بتوفيق الله تعالى ـ بالأذان ، فأُذِّن ، ثم ألقيتُ خطبة ، وأَمرتُ بذَبح البقرة ـ ولم يتفق ذلك قطُّ منذُ بِناء هذه القلعة ـ ثم خَرَرْتُ لله

(١) الموافق غرة ربيع الأول ١٠٣١هـ.

ساجداً على أن وفَّقني إلى ما لم يُوفّق إليه أيَّ سُلطان قَبل ، وأَمرتُ ببناء مسجدٍ واسعٍ عال في داخل القلعة» [١].

وهكذا تحوَّل اتجاه الدولة ـ بالجُهود المباشرة أو غير المباشرة ـ من إهمالِ الإسلام ، والغفلة عنه ، بل من مُعارضتهِ ومُشادَّته ، إلى تعظيم الشعائر الإسلامية وإعلاءِ كلمةِ الله ، واحترامِ الدين ، وشَغَفِ السلطان المُسلم بالإسلام ، وقد بدا هذا التحول الكبير من أواخر عهد السلطان (جهانكير) ، وامتدتْ ظِلاله الوارفة إلى عهد السطان (شَاهْجَهَان).

عَهْد السُّلطان شَاهْجَهَان:

لقد كان عَهْد السلطان الغازي شاهجهان (١٠٠٠ ـ ١٠٧٥ هـ) الملقَّب «بصاحب القرن الثاني» [٢] عهدَ الخير والإصلاح التدريجي ، وقد بدأ من عام ١٠٣٦ هـ واستمر بأُبَّهته وعظمته ٣١ سنة ، وكان قد تولَّى زِمام البلاد بعد وفاة الإمام السَّرْهندي بعامين ، وليستْ لدينا وثيقة تاريخية مَوثوقٌ بها ، تُـقيِّد اتصال السلطان شاهجهان بالإمام السَّرْهندي أو بابنهِ الجليل الشيخ محمد معصوم اتصالَ بَيعةٍ واسترشاد خاص ، ولكنَّ الذي لا يُشك فيه أنه كان دائم الإجلال والتعظيم للإمام السَّرهندي ، ولأجل ذلك لما قصَد الإمام السَّرْهندي زيارة السلطان على طَلَبٍ منه ، وكان يَعرف أن الإمام لا يُباشر الآداب الرسمية ، ويَرفُض سَجدة التحية ، بعث بالشيخ أفضل خان والمفتي عبد الرحمن ـ اللَّذين كانا من المصاحبَين لوليِّ العهد والمقرَّبين لديه ـ ببعض الكتب الفقهية وأَمرَهما أن يقولا له: إن سجدة التَّحية تَجوزُ للسَّلاطين ، وقد أَجازها بعضُ الفقهاء في ظُروف خاصّة [٣] «فلو باشرتَ هذه الآدابَ الرسمية

---

(١) توزك جهانكيري: ص ٣٤.

(٢) سمِّي بذلك لأن الألف الثاني يلتقي بالألف الأول في عهده.

(٣) لم نطَّلع على هذه النصوص الفقهية ، وفتاوى الفقهاء التي تبيح السجدة لغير الله ، والذي نعرف أنها محرمة إطلاقاً ، إلا أن يكون ذلك كأكل الميتة وتناول المحرمات ، وقاية للحياة وعصمة من القتل ، مع فضل من عمل بالعزيمة ، وتجنب الرخصة.

عند مُقابلة السلطان ، فأنا ضامنٌ لك بأنه لا يَصِلُك أيُّ ضررٍ» ، فأبى الإمام السَّرْهندي ورفضَ هذا العرض ، وقال: «إنها رُخصة ، والعزيمة ألَّا يُسجد لغير الله ، مهما كانتِ الأوضاع والظروف» (١) .

واتَّفق المؤرِّخون على أن السلطان (شَاهْجَهَان) كان طيِّب النفس ، مُعظِّماً للشريعة الإسلامية ، شَغوفاً ببناء المساجد ، مُلْتَزِماً ـ في ذات نفسه ـ بالفرائض الشرعية ، يُدني إليه العلماءَ والصالحين ، ويُقرِّبُهم ، ويعتمدُ عليهم ، وكان وزيرُه المدبّر الحصيف جُملة المُلك سَعد اللهِ خان العلَّامي (م١٠٦٦هـ) من نوابغ العلماء والمدرِّسين في عصره (٢) .

ورَفع السلطان (شَاهْجَهَان) بعضَ التقاليد والآداب الرسمية التي كانت اختُرعتْ في العهود السابقة واستمرتْ إلى عهده ، يقول الأستاذ المؤرخ ذَكاء الله الدِّهْلوي ، على أساس ما جاء في الكتبِ التاريخية العاصرة بالفارسية كـ «بَادِشَاهْ نَامَه» وغيره .

«لمَّا تربَّع السُّلطان على أَريكة الدولة ، كانَ له من الاهتمام والاحترام لشعائر الملَّة الحنيفية ، والشريعة المحمدية ـ التي كان تسرَّب إليها الإهمالُ والغفلةُ من قبل ـ أَن أَمرَ بأنه لا يَستحِقُّ السُّجود إلاَّ المعبودُ بحقٍّ ، فلا يُعفِّرنَّ أحد جبهته في الأرض لأحدٍ من بعد ، وأشار عليه (مَهَابَتْ خَان) بتحية «زَمِيْن بَوْس » ـ التي يلمس فيها الأرضَ باليَدِ عند التحية ـ فأمرَ بها ، ولكن رأى أن فيها كذلك شبَهاً بالسجدة ، فنهى عنها ، وأمر بـ «التَّسليم الرابع» (٣) .

وَيقول سِير ريتشارد برن: (Sir Richard Burn) :

كان السُّلطان (شَاهجهان) يُريد إحياءَ العقائد الإسلامية وإعادَتها بقُوة وشدة ، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ لم يَكُنْ يُحب التعرض لأصحاب الدِّيانات

(١) راجع للتفصيل الباب الثالث من هذا الكتاب.
(٢) راجع لترجمته الحافلة «نزهة الخواطر» ج٥ .
(٣) تاريخ هندوستان: ج٧ ، ص ٥٥ ـ ٦٦ ملخصاً.

الأخرى ، ورفعَ بعد اعتلائه على سَرير المُلك بيسير سجدة التحية الرسمية ، وانتهى استخدامُ التقويم الإلٰهي الذي بدأه (أكبر) وروَّجه في الناس ، منَ الأوراق والوثائق الرسمية ، والعُملاتِ السائدة بعد ولاية شاهجهان ببضعة أعوام ، وأصدر أمراً عام ١٦٣٤ م بمنع الزَّواج بين المُسلمين والهندوكيين ، الذي كان سائداً مُنتشِراً في (بنجاب) و(كشمير)» [١].

ويَقولُ المؤرِّخ ذكاءُ الله: «وُظِّفَ القُضاة والمعلِّمون من قِبل السلطان ، ليُعلِّموا الناسَ أحكام الشريعة ، وآدابَ العبادة ، وعُيِّن الشيخ محمود ليَفُكَّ النساء المسلمات ـ بعد التحقيق والإثبات ـ من حبال الرِّجال الهندوكيِّين ، ويُميِّز عمارات المسلمين ومساجدَهم عن أَبْنيةِ الهنادك ومَعابدِهم ، فنفَّذ هذا الأمر ، واستعاد كثيراً من المساجِد التي كانتْ تَحت تصرُّف الهنادك ، وفرضَ عليهم غرامات ، ثم بناها من جديد ، وعاقَب من الهنادك من ثَبتَ عليه إهانةُ القرآن الكريم عِقاباً رادعاً ، ثم أمر السلطان أن يحقّق جميع الموظفين للمهمَّات الشرعية في مثل هٰذه الأمور ـ إن كانت وقعت ـ في سائر ولاية (بنجاب)» [٢].

ولكنْ ـ رَغم كلِّ هذه الحميَّة الدينية واحترام الشعائر الإسلامية ـ لا نشكُّ في أن السلطان (شاهجهان) كان يفضِّل ابنه (دارا شكوه) على ابنه (أَوْرَنْكَ زَيْب) العالم المتديِّن ، وصاحبِ الكفاءة والمقدرة ، ويُحِبُّ أن يتولى دارا شكوه أمر هذه الدولة ، ويخلُفه في الملك وهذه خِصِّيصة الحكّام والسلاطين المتمَسِّكين بمبدأ الحكومات الشخصية الوراثية ، والفَصلِ بين الدين والسياسة ، حيث لا يكون لتدينهم الذاتي أيُّ تأثير على شؤون الدولة ، ولا يَحول بينهم وبين أن يختاروا خليفة غير كفؤ يُلحق الأضرار بما بَنوه وأنشؤوه ويُخِلُّ بالنظام.

---

(١) Cambridge History of india Vog.Ivp.217 باختصار.

(٢) تاريخ هندوستان: ج٧ ، ص ١٧٥ ـ ١٧٦ ، باختصار.

وَلِيُّ العَهد (دارا شِكُوَهْ):

تُفيدنا تصريحاتُ المؤرِّخين من غير المسلمين أن (دارا شكوه) ، كان أقربَ إلى مذهبِ جدِّه السلطان (أكبر) ومشربِه ، وكان مُعجَباً بفلسفة وحدة الديانات ، ويُحاول التوفيق والتطبيق بين الشريعة الإسلامية ، و«الويدانت» ـ شريعةِ الهنادكة ـ يقول الدكتور الفرنسي برنير : «كان دارا شكوه يُصغي إلى مواعظ البطريق فلِيم الدّينية ، ويستمعُ إليها بشَوقٍ ورغبة زائدة ، وكان يحاول الجمع بين الديانة الإسلامية ، والديانة الهندوكية».

وجَاء في «دائرة المعارف الإسلامية» : «كان دارا شكوه وَلُوعاً بالتصوف ، مُعجَباً بالفلسفة الهندوكية ، أقامَ علاقاتٍ وطيدةً مع الصُّوفية المسلمين ، والنُّسَّاك الهندوكِيِّين ، كان منهم من العلماء والصوفية المسلمين «سَرمد» المعروف بعقيدته في وَحدة الوجود ، و(باباﻻَلْ دَاسْ بِيْرَاكِي) تلميذُ «كبير» ومريده.

«تَنِمُّ بعض مؤلَّفات دار شكوه الأخيرة عن عَقيدته وتمسُّكه بنظرية وحدة الوجود ، وكأنَّه كان متأثراً بالفلسفة الهندوكية ، مُعْجَباً بالوثنية ، ولأجلِ ذلك نزع إلى عددٍ من الآراء المُلحدة التي تُوجَد نظائرُها الصريحة في الفلسفة الهندوكية ، ولا مَجال لها في الإسلام.

وقد توصَّلَ (دارا شكوه إلى أنَّ التصوف ، والويدانت ـ اللَّذان يُستعان بهما في إدراك «الحق» ـ لا يتعارضان ، وأنَّ الفارق بينهما لفظي ، وحاول (دارا شكوه) في ترجمته لـ «أوبنيشد» ـ التي كان يَعتبرها منبَع «الوحدة» ـ التوفيقَ والتطبيقَ بين نَظرياتٍ وآراءِ أتباعَ الديانتين الكبيرتين ـ الإسلام ، والهندوكية ـ المشتَركة ، وأراد أيضاً أن يعرِّف المسلمين عن طريق الترجمة بمُعتقدات الهنادك» [١].

---

(١) راجع «دائرة المعارف الإسلامية» (أردو) المقال بعنوان «دارا شكوه» ج٩ ، وكاتب المقال هو ستيش جندر الباحث الهندوكي ، وراجع أيضاً (Aurangzeb) تأليف ظهير الدين الفاروقي ، ص ٣٨ ـ ٤٧.

وليس محلَّ استغراب ـ بسبب هذه الآراء والنظريات ، والمُيول والنَّزعات التي كان يحملها (دارا شكوه) ، ولم تكن لِتخْفى على المُجتمع المسلم ـ آنذاك ـ في الهند والتي يُمكن أن يكون وليُّ العهد (أورنك زيب) انتفعَ بها في صالحه ، أن تكونَ الأوساط الدّينية من عُلماء الدين ، ومشايخ الطريقة المُتمسِّكين بالشريعة ، وأتباعهم ـ الذين شَهدوا بأمِّ أعينهم غربة الإسلام ، وذِلَّته في عهد السلطان (أكبر) ، أو سمعوا قصصها وحكاياتها من آبائهم ـ في صَفّ وليِّ العهد (أورنك زيب) ـ أعظمِ حماة الإسلام في الهند المتمسك بالشريعة والدين ـ في هذه الحرب الداخلية بين الأخوين ، وأن يُساعِدوه ويناصروه باستمالة الناس إليه ، وحثّهم على تأييده ، والدعاء له»[1] .

ويَعرِف جميع المطَّلعين نتيجَة هذه الحرب ، فقد انتصر السلطانُ (أورنك زيب) على (دارا شكوه) ، وتربع على عرش المملكة عام ١٠٦٨هـ ، وحكم نصف قرن من الزمان؛ بالشَّوْكة والقوة والسلطان.

السُّلطان (محيي الدِّين أَوْرَنْكَ زَيب عَالَمْكِير) وحَميتُه الدينية ، وحمايته للإسلام:

اتَّصل السلطان (أورَنك زِيب) الذي كان يُجِلُّ أُسرة الإمام السرهندي ورجالَها ويعظِّمهم ، ويَنسجم مع دعوتهم ومذهبهم ، بالشيخ محمد معصوم ابن الإمام السَّرْهندي ، اتصالَ بَيعة وسُلوك[2] ، وتَشهدُ قرائن كثيرة على أن صِلةَ السلطان بالشيخ محمد معصوم لم تكن صِلة إجلالٍ واحترامٍ عادية فحسب ، بل كانت صلة التربية والاسترشاد ، وتحصيلَ علمِ السلوكِ على يديه.

---

(١) راجع للتفصيل مقال البروفيسور محمد أسلم بعنوان «دور العلماء والمشايخ في تولية السلطان أورنك زيب» في كتابه «المحاضرات التاريخية» ص ٢٢٦ ـ ٢٤٣.

(٢) «المكتوبات السيفية» الرسالة رقم: ٨٣ ، وهي موجهة إلى الشيخ الصوفي سعد الله الأفغاني.

وقد كان الشيخ محمد معصوم من يوم أَنْ كان السلطان وليَّ العهد ، يَعتني به اعتناءً خاصاً ، ويُلقّبه بوليِّ العهد الحامي لذمار الإسلام ـ الذي كان إرهاصاً لمستقبله العظيم ، وتَفاؤلاً نافعاً ـ يقول الشيخ سيفُ الدين في رسالةٍ بعثَ بها إلى والده الشيخ محمد معصوم:

«إنَّ إخلاص السلطان الحامي لذمار الإسلام لسيدي الشيخ من طِراز آخر ، وقد مرَّ بمقام ذِكر اللطائف الستة ، وسُلطان الأذكار ، إلى مقام ذِكر النفي والإثبات وهو يقول: إنه لا تُدغدغه الوساوس ـ بإطلاق ـ وإذا طَرأتْ وَسوسةٌ من الوساوسِ ، لا يكونُ لها قرارٌ ، فهو في مأمن من خطرها ، ويقول: إنه كان ـ قَبْلَ ذلك ـ يَقْلَق ويَضطرب لزَحمة الوسَاوس والخَطَرات ، ويَشكُر هذه النعمة».

وأثنى الشيخُ (محمد معصوم) على اللهِ ـ سبحانه وتعالى ـ وحمَده كثيراً في تلك الرسالة التي بَعَث بها رداً على رسالة الشيخ سيفِ الدين ، وشكر اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أن وَهَب السلطان هذه المقامات الروحية العالية ، ويُستفاد من هذه الرسالة أيضاً ، أن السلطان بلغ مرتبة «الفَناء القلبي» الذي هو من أعلى «المقامات وأرفعها في السلوك» (١).

يقولُ أبو الفتح في «آداب عَالَمكيري»:

جاء الشيخُ (محمد معصوم) وأخوه الأكبر الشيخ محمد سعيد فورَ جلوس السلطان (أورَنك زِيب) على عرشِ الدولة إلى البلاط ، وأَهدىٰ إليهما (أورنك زِيب) ـ بهذه المناسبة ـ ثلاثمئة خاتمٍ ذَهبي» (٢).

ونَقل البروفيسور محمد أسلم في مقاله بعنوان «دورُ العلماء والمشايخ في

---

(١) رسائل الشيخ محمد معصوم ، الرسالة رقم: ٢٢٠.

(٢) «آداب عالمكيري» «لأبي الفتح ، النسخة الخطية في India Office Library London ٣١٧ ، ق ب ٤٣١ ، محمد كاظم «عالمكيرنامه» طبعه كلكته ١٨٦٨م ، ص/٢٩٣ ، مقتبس من «المحاضرات التاريخية» للبروفيسور محمد أسلم.

تـوليـةِ السلطـان أورَنـك زيـب» حـوادثَ مـن «مـرآة العـالـم» و«فُتـوحـات عالمكيري» (١) ، تَدُلُّ على الصلات العميقة بين السلطان ، وبين أُسرة الإمام السَّرْهندي ، وأبنائه الكرام ، فكانوا يُقابِلون السلطان ، ويُقدِّم السُّلطان إليهم هَدايا فاخرةً ثمينة ، وقابَل الشيخَ (محمد معصوم) وغيرَه من أفراد الأسرة المجدِّدية عِدَّة مرات في سَرْهند ، ذاهباً من (دهلي) إلى (لاهور) ، أو آيِباً في طريقه إلى دهلي .

تُفيد دراسة رسائل الشيخ سيف الدين ـ التي بعثَ بها إلى السلطان (أورنك زيب) وطُبعتْ باسم «المكتوبات السيفية» دراسةً عميقة ، أنَّ صلة السلطان (أورنك زيب) بالشيخ سيف الدين ـ بصفةٍ خاصة ـ وبأسرة الإمام السرهندي ـ بصفة عامة ـ لم تكُن صلة حب وإجلال فحسب ، كما توجد لدى السلاطين المتديِّنين مع علماء ومشايخ بلادِهم وعهودهم ، بل كانتْ هذه الصلة عمليةً أكثر منها عاطفية ، وتربوية إصلاحية أكثر منها حُباً وإجلالاً محضاً .

يقول الشيخ سيف الدين في رسالة كَتبها إلى والده ، وهي الرسالة الثالثة في الترتيب :

«سيدي الوالد نَعيشُ هذه الأيام مجالساتٍ ومذاكرات طويلة ، ونُذاكِر في بعضِ الرسائل الدقيقة ، ويَسْتَمِعُ السلطان بغايةِ الإخلاص والإصغاء» .

ويقول في رسالة رقم : ١٤٢ ، بَعثها إلى الشيخ محمد باقر اللَّاهُوري :

«شَرَّفَنا السُّلطانُ في البيت ليلَة السبت التي كانتِ الليلَّة الثالثة من هذا الشهر ، وتَناولَ ما حَضر من الطعام من غير كُلفةٍ ، وطالتِ الصحبة ، ووَقع في أثنائه السكوتُ والصمت ، وبالجملة فإني آملُ ظُهور الطريقة العالية أيضاً كما يُحِبُّ ويتمنّاه المخلصون» . (ص ١٦٨ ـ ١٦٩) .

واستمرَّتْ هذه الصلاتُ والعلاقاتُ وذلك التأثيرُ إلى وفاة السلطان أوْرَنْك

---

(١) يوجد الكتابان في مكتبة المكتب الهندي India Office Library ومكتبة المتحف البريطاني British Museum .

زَيب ، وقد ورَدتْ إشاراتٌ وتنبيهاتٌ في الرسائل التي كَتبها شيخ الطريقة الجِشْتِيَّة النظامية الشهيرة الشيخُ (كليمُ الله الجَهَانْ آبادي) (المتوفى سنة ١١٤٣ هـ) إلى خليفته الخاص الشيخ (نظام الدين الأَوْرَنْكَ آبادي) أنه يُرافِق السلطانَ ـ في هذه الأيام ـ أبناءُ الإمام السرهندي ، فينبغي أن تأخذوا بالحِيطة والحذر في عَقْد حفلات الغناء والأناشيد لئلا يتكدَّر صفو خاطرهم ، ويُسيء إليهم ، تَدُلُّ هذه الشواهد دلالةً واضحة على أن أفراد هذه الأسرة ذوي المكانة العالية كانوا يُرافقون السلطان ـ من حين لآخر ـ في غَزواته ورحلاته إلى (الدَّكَن) ، وإقامته الطويلة فيها ، ويُساهِمون معه بتفكيرِهم ودُعائِهم كذلك .

وقد طَلبَ السُّلطان ـ مراراً ـ كما يحكي المُفتي (غُلام سَرْوَر) مؤلِّف «خزينة الأصفياء» ـ من الشيخ (محمد معصوم) أن يرافِقَه في سفره وإقامته ، ولكنه ما اختار مرافقَة السلطان ـ حسب وصية والده ـ ، وبَعثَ مكانه ابنه الشيخ سيفَ الدين إلى دهلي ، وتُفيد رسالتان رقم: ٢٢١ ، و٢٣٧ من «المكتوبات المعصومية» وُجِّهتا إلى السلطان أنَّ علاقة السلطان بالشيخ علاقةُ مريدٍ مسترشِد مع شيخه .

وسوف يأتي ذِكر صلاتِه بالسلطان ، وتأثُّر السلطان به ، والعمل وفق إشارته وإرشاداته في الباب الثامن ، في تَرجمة الشيخ سيف الدين .

وقد واصل الشيخُ سيف الدين جهودَه مع السلطان في إحياء السنة ، وتنفيذ الشريعة الإسلامية ، ولم يدَّخر فِي ذلك وسعاً ، وتُوجد في مجموعة رسائله «المكتوبات السيفية» ثماني عشرةَ رسالة [1] كتبها إلى السلطان ، لَفتَ فيها انتباهه إلى إزالة البِدع والمنكرات ، وإحياءِ السنة ، وإعلاء كلمة الله ، وتَمكين الدين الإسلامي في هذه البلاد .

ويَصعُبُ الحُكم على جميع أعمال أيِّ حاكم أو سلطان لدولة ما من

---

(١) وأرقام هذه الرسائل كما يلي: ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ١٦١ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، انظر «المكتوبات السيفية».

الدول ، وجميعِ عاداته وأخلاقه ، وأحكامه وأقضيته وإجراءاته ، بأنها موافقة ـ مئةً في المئة ـ للتعاليم الإسلامية ، والأحكامِ الشرعية ، ولا يُمكن أن يقال ذلك إلاَّ في الخلفاء الراشدين المهديِّين ، وبعض الوُلاة الذين كانوا على سيرة سيدنا عُمر بن عبد العزيز في إقامة الخلافة على مِنهاج النبوة ، كما يتعذَّر الإدراك الدقيق للمصالح والضرورات التي اتُّخذتْ في ضوئها هذه الإجراءات السياسية والإدارية ، التي تختلف فيها الآراء ، وأنه ما مَدى واقعيةِ تلك الصُّورة التي تتجلَّى لهذه الأعمال والإجراءات في ضَوء بياناتِ المؤرِّخين وتصريحاتهم ، وإلى أي حَدٍّ تقومُ على الصِّدق والواقع ، فِمن الصعب جداً ـ بعد مُضي مدة طويلة ، وعَدم توفُّر الشواهدِ والوثائق التاريخية المعتَبرة ـ أن نَحكم عليها حُكماً قطعياً حاسماً.

ورَغم كُلِّ ذلك ما يُوجد لدينا من الوثائق التاريخية الثابتة عن السلطان (أورنك زيب) يدلُّنا بكل وضوح ، ويُورِث فينا الاعتماد على أنَّ السلطان كان متأثراً بالغ التأثر بحركة الإمام السَّرْهندي الإصلاحية التجديدية ، ومحاولاتِه المتواصلة الصامتة لإحداث تغييرٍ أساسيٍّ في الدولة وتَحويلِ اتِّجاهها من هَدْم وتخريب للإسلام ، إلى بناء وتعميرٍ وتمكين له ، كما كان متأثِّراً مُعجَباً غاية الإعجاب بربّانية أبنائه الكرام وأفراد أسرته الآخرين ، وإخلاصهم ، وصَفاء نُفوسهم وشخصياتِهم المؤثِّرة الآخذة بمجامع القلوب ، وقد كان انْسَجم مع دعوة الإمام وحَركته ، وأهدافه كُلَّ الانسجام ، وكان يريد أن يخطو خطوات جريئة ، ويُحْدِثَ تغييراتٍ عميقة بعيدة المدى في نظام الدولة ، وفي المجتمع المسلم الخاضع لهذا النظام ونفَّذ ـ لأول مرة ـ بعضَ الإصلاحات التي كانت تُؤثِّر على اقتصاد الدولة ، تطبيقاً لبعض الأحكام الصَّريحة في الشَّريعة الإسلامية.

وبِغَضِّ النظر عن حياته الشَّخصية التي اتَّفق المؤرِّخون على أنه كان فيها متديِّناً متورِّعاً ، يتمسَّك بالشريعة ، ويعمل بها ، والتي نكتفي في الإشارة إليها ببعضِ الأمثلة التي تُلقي الضوءَ على نُبذة من حياته الدينية :

يَقولُ مُؤرِّخ الهند الأستاذ ذكاء الله الدِّهْلوي:

«كانَ شهر رمضان وكانتْ تَهُب السُّموم اللاَّفحة، وكان النهار طويلاً، ولكنَّ السلطان يَصوم النهار، ويَقرأُ الأورَاد، ويَتلو القرآن، ويحفظُه غيباً، يَكْتُب ويؤلِّف، ويُدير دَفة شؤون الدولة، ويَقومُ بأعمالِ المحكمة والقضاء والسُّلطة، وبعد أن يدخل «مسجد غُسل خَانَه» «مسجد الدرَّة» المعروف في داخل القلعة الحمراء فيُصلي المكتوباتِ، والتراويح، والنوافل حتى يَنتصف الليل، فَيتناول قليلاً من الطعام، وقليلاً ما يَهجع ويَنام، ويُحيي بَقيَّة الليل بالقيام ويُحيي بعضَ الليالي ذاتِ الخيرات والبركات كُلّها، وهكذا يقضي شهر رمضان»[1].

ويقـول المـؤرِّخ وهـو يَصِفُ حالَه عنـد احتضاره:

«غَلَبَتْهُ الحُمَّى في العام الواحد والخمسين من جُلوسه، الموافق ١١١٨هـ، والتزمَ الصلاة بالجماعة ـ رغم شدة المرض ـ أربعةَ أيام، لِكمال تَورُّعه وتقواه، وكان قد كَتب وَصيَّة من قبل، أوصى فيها بأن يُنفق أربع روبيات ونصف روبية ـ وهي ما بَقي مما اكتسبَه بيده بخياطة القلانس ـ فيشتري بها ما يحتاج إليه في التكفين والتدفين، وتوزِّع ثمانمئة وخمس روبيات، وهي ما حصلت لي من أُجرة كتابة المصاحف على الفقراء والمساكين، ولما كان يوم الجمعة ٢٨ ذي القعدة عام ٥١ للجلوس، الموافق ١١١٨هـ، صلَّى السلطان صلاة الفجر، ثم اشتغل بالتهليل، حتى فارق هذه الدنيا الفانية بعد أن تَعالى النهار، ورَحل للأبد إلى دار القرار»[2].

ونقتصر ـ فيما يلي ـ على تِلك الأحكام والفرامين السلطانية التي تتعلَّق بتعظيم الشعائر الإسلامية، وتنفيذِ الأحكام الشرعية:

---

(١) تاريخ هندوستان: ج٨، ص ٢١٤، تأليف الأستاذ ذكاء الله الدهلوي. (نقلاً عن «مآثر عالمكيري» وغيره).

(٢) المصدر السابق: ص ٤٦٥.

يقول المؤرِّخ في حوادث العام الثاني من ولاية السلطان الموافق عام ١٠٦٩ هـ:

«أَسَّس التقويم المتَّبع في الإدارة والولاية منذ عهد السلطان جلال الدين أكبر على غرة «فروردي» التي تدخُل فيها الشمس برجَ الحَمل، ويَزدهر الربيع، وكان تاريخُ جلوس السلطان قريباً من هذا التاريخ، فوَضع التقويم بدءاً من شهر «فروردي» إلى شهر «إسْفَنْدَيَار»[1]، وسمَّى الشهور «شُهوراً إلٰهية»، ولما كان هذا الأمر يُشبه طريقة السلاطين عُبَّادِ النار، بدأ السلطان ـ مراعاة للشريعة الإسلامية ـ التقويم الهلالي العربي للشهور والسنين لجلوسه وإدارته ومهرجاناته، وأمرَ بتقديم التَّقويم العربي الهلالي على التقويم الشمسي، وأمرَ بإلغاء الاحتفال بمهرجان (نُوروز).

وَيعلَمُ جميعُ الناس أنَّ الشهور الهلالية تتغيَّر دائماً، وتَحدُث مشاكل وتعقيدات في استخدام التقويم الهلالي، ولكنَّ هذا السلطان المتديّن لم يُبال بمشاكل هذا التقويم، ونهى عن الاحتفال بمهرجان «نوروز» لتشبُّهها بطريقة عبَّاد النار المجوس ـ أصلاً ـ وقرر بدايةَ تاريخ الجلوس الثاني بغُرَّة شهر رمِضان وهكذا بدأ تقويماً جديداً للجلوس، وأبدل مهرجان نوروز، بمهرجان عِيد الفطر[2].

ويذكر المؤرِّخُ وَقْفَ السلطان للدَّخل الكبير الذي كان يأتي الدولة من طريق غيرِ شرعي، فيقول:

«أمرَ السلطان بإلغاء «رَاهِدَارِي» ـ ضَريبة الطريق ـ الذي كان يُؤخذ على جميع الحدود والثغور، وتُوضع جميع وارداته في خزانة الدولة، فكان دَخْلُها ودخل خراج «بانداري» الذي يسمَّى «تِـهْ بَازَارِي»... يزيدُ على مئات الآلاف ويدخل الخِزانة السلطانية، كما ألغى السلطانُ جميعَ الواردات التي كان دخلُها

(١) وهما شهران في التقويم الإيراني القديم.
(٢) تاريخ هندوستان: ص ٨٣ ـ ٨٤.

من الحانات والخمارات والغرامات وما يقدَّم إلى الموظفين والحكام إظهاراً للشكر وغير ذلك ، ممَّا يبلغ الملايين من الرُّوبيات ، وكان دخلاً كبيراً للدولة» [١] .

كانتِ الحسبة مَنصباً خطيراً في الحكومات الشرعية ، وشِعاراً ظاهراً من شعائر الخلافة الإسلامية ، وألَّف كثير من العلماء لبيان مسؤوليات هذه الوظيفة المهمة ونَوعية العملِ فيها كتباً بعنوان «الحسبة في الإسلام» وكانت هذه المهمة الخطيرة مهجورةً معطَّلة في الحكومات المسلمة في الهند ، وأحيا السلطان هذه السُّنة أيضاً.

يقول المؤرِّخ: «عَيَّن السلطان الشيخ (عَوض وجيه) مُحتَسِباً ، وأمره بأن يَنهى الناس عن جميع المحرَّمات ، خاصة عن شُرب الخمور ، وتناول الحشيش وجَميع المسكرات ، وجميع الفواحش ، ويمنعَهم ـ قدر المستطاع ـ من جميع المُسِيئات والمُنكرات» [٢] .

ويَقول المؤرِّخ في حوادث ووقائع السنوات من عام ١١ للجلوس إلى ٢١ للجلوس ، الموافق عام ١٠٧٨هـ:

«كان السُّلطان يزدادُ ـ كل يوم ـ اهتماماً بإجراء الأحكام الشرعية وتنفيذِها ، ومُراعاةِ الأوامر الإلٰهية ، فكان يُصدر فَرامين مُفصّلة لإلغاء دخل «راهداري» و«بانداري» الذي كان يَبلُغ مِئات الآلاف من الروبيات كل عام ، وكان يَدخُل في الخِزانة السلطانية ، وكان يأمرُ بإغلاق الحانات والخمارات ، ومكامِن الرِّيبة والفساد» [٣] .

ويَزيـدُ قائـلاً: «أمرَ السُّلطان بإلغاء الرَّقص والغنـاء ، ونَهى عن اجتماع

---

(١) تاريخ هندوستان: ٩٠، وذكر مؤلف «نزهة الخواطر» اعتماداً على كتب التاريخ بالفارسية أن عالمكير نسخ عام ١٠٦٩هـ ثمانين نوعاً من الخراج والضرائب» التي كان دخلها السنوي للخزانة السلطانية ثلاثة ملايين روبية.

(٢) المصدر السابق: ص ٩٢.

(٣) المصدر السابق: ٢٧٥ ـ ٢٧٦ باختصار.

الناس تحت قصر السلطان لزيارته ، ورُؤية طلعتِه من نافذةٍ في أعلى القصر ـ وكان هذا تقليداً من التقاليد السلطانية المُختَرعة ، ويسمَّى «جهروكه دَرْشَن» ، وترك الجلوسَ على النافذة ، استنكاراً لهذه التقاليد غير الشرعية».

كان السلاطينُ المسلمون في الهند ـ حَسْب مُعتقداتِ الهنادك وعادتِهم القديمة ـ يَثقون كثيراً بالتَّنجيم والمنجِّمين ، ويُعيِّنون الأيام والشهور لأعمالهم الخاصة حسب ما يُقرِّر المنجِّمون في ضوء عِلم التنجيم ، فقضى السلطان (عالمكير) على هذه العقيدة والعادة المتَّبعةِ ، وأهمُّ من ذلك أَن الأحكام القضائية كانت تقتصر على محاكم الحُكَّام والأمراء وأحكامها المطلقة فيما يتعلق بالقوانين الشرعية. فعيَّن السلطان (عالمكير) قُضاةً شرعيين وأعطاهُم السلطةَ.

«الشُّعراء والمنجِّمون الذين كان لهم مكانةٌ واعتبار في الدولة ، مُنعوا من ممارسة أعمالهم خاصة في عهد السلطان (شاهجهان) ، وعُيِّن القضاة للشؤون الداخلية والمرافعات الجزئية والكلية ، وحصل لهم من التمكن والاستقلال في شؤونهم ما بعثَ الأمراء وأعيان الدولة على الغِبطة والحسَد» (١).

وتكفَّل السلطان ـ لتنفيذ القوانين الشرعية في سائر البلاد ، وتَوفير التسهيلات للقُضاة ـ بترتيبِ المسائل الفقهية ، وتَدوينها من جديد ، وكوَّن لأجل ذلك لجنـة من العلماء البارعين ليُرتِّبوا المسائل في عِبارة سهلة واضحة ترتيبـاً جيداً ، ويقتصروا في المسـائـل على ظاهر الروايـة ، ولا يَلتفتوا إلى «النوادر» إلا عند الضرورة ، ويُحيلوا على المراجع التي يَقْتبسون منها ، وعيَّن لذلك ـ في أوائل حكمه ـ الشيخ (نظام الدين البُرهانبوري) رئيسَ هذه اللجنة ، الذي استعان بكِبار العلماء البارعين في الفقه الحنفي (٢) ، وتمَّ هذا العمل

---

(١) تاريخ هندوستان: ص٢٧٧، وراجع كذلك كتاب (Aurandzeb and His) لمؤلفه الفاضل ظهير الدين الفاروقي «أورانك زيب وعصره» الباب بعنوان (A Reformer).

(٢) راجع ترجمة«أورنك زيب عالمكير» في «نزهة الخواطر» ج٦ ، و«الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة عبد الحي الحسني طبع المجمع العلمي بدمشق ، وقد سرد فيه أسماء =

الضخم في ستة مجلَّدات ، وأَنفق عليه من الخزانة السلطانية مئتا ألفِ رُوبية ـ وهي تساوي الآن ملايين الرُّوبيات ـ ويُعرف هذا العمل الفقهي العظيم في الهند بـ «الفتاوى العَالَمْكِيْرِيَّة» وفي بلاد مصر والشام وتركيا بـ «الفتاوى الهندية» ، ويحتلُّ لبعض خصائصه وميِّزاته أهميةً كبيرة في كُتب الفقه والفتاوى ، وكانتِ الخُطوة الأخرى أكثرَ جَراءة وشجاعة ، فقد أذِنَ السلطان لرعاياه أن يرافعوا إلى المحكمة ضدَّ السلطان ، ويُطالِبوا بالحكم طِبق الشريعة الإسلامية ، وعيَّن لذلك مُحامين شرعيين ، يقول مؤرِّخ الهند:

«أَمر السلطان عام ١٠٨٢ هـ ، بأن يُنادى في البلاد والمُدن والقُرى: من كانتْ له دعوى شرعيةٌ على السلطان ، فليحضر وليراجع وكيل السلطان ، وليأخذ حقَّه إذا ثَبتتْ دعواه ، وأمر بتَعيين المحامين والوكلاء في البلاط ، وفي المُدن القريبة والبعيدة حتى يَرفع من لا يستطيع الوصول إلى البلاط أمرَه إليهم ، ويُثبِتوا عن طريقهم دعواهُم ، وَيطلبوا حقَّهم»[(١)].

كانتِ الآدابُ والتقاليدُ الجاهليةُ للتحية ـ التي كانت مُناقضَة صريحة للشريعة الإسلامية ، والتعظيمُ المتطرف المفرِط ـ الذي لا يَصحُّ لغير الله ـ سائداً في البلاط المغولي للسلاطين المغولية ، أمَّا التسليم فلم يكن سائداً في أوساط كثيرٍ من المشايخ والعلماء فضلاً عن الأعيان والأمراء ، وفي مُحيط البلاط الملكي ، فتناولَ السلطان هذه العادة بالإصلاح ، وأمرَ بالاقتصار على التسليم.

يَقول المؤرِّخ نفسه: «وصدر الأمر ـ في تلك الأيام ـ بأنَّ المسلمين عند

= أعضاء هذا المجمع الفقهي ، وهم من كبار علماء الهند ، فبلغ عددهم إلى عشرين عالماً.

(١) «تاريخ هندوستان» لذكاء الله ، وللاطلاع على تفاصيل أخرى تلقي الضوء على اتجاه عالمكير الديني يحسن مطالعة كتاب (History of Aurangzeb) للمؤرخ الهندكي الفاضل جادو ناتهركار ، وكتاب (Aurangzeb) للمؤرخ الإنجليزي المشهور استانلي لين بول.

مُقابلة السلطان ، ينبغي أن يقتَصروا على أن يَقولوا السلام عليك ، ولا يَضعوا أيديهم على رُؤوسهم مثل الكُفَّار ، ويَجب على الحُكَّام والأمراء أن يتَّبعوا ذلك مع الخاصة والعامة».

ولَقَّبتِ الأوساطُ الدينية السلطان (أَورنك زِيب) ـ بناءً على هذه الإجراءات والعواطف الإسلامية ـ «بمُحيي الدين» وكان الدكتور إقبال ـ كذلك ـ الذي يَعرف فلسفات الهند ونزعاتها ، والحرب القائمة فيها بين الشريعة و«الويدانت» والصراعَ الشديد بينهما في صيانة المستقبل للهند ، معرفة عميقة دقيقة ـ يَعدّ السلطان (أَورنك زيب) من تلك الشخصيات العديدة البارزة التي يرجعُ إليها الفضل في صيانة الدين وحماية المسلمين عن الذَّوبان في الحضارة الهندية.

وقد كان كاتبُ هذه السطور ذكر في مقالة بعنوان «ساعات مع العارِف الهندي» الذي كتبه كمذكرة لمقابلته مع الدكتور محمد إقبال يوم٢٢ نوفمبر عام ١٩٣٧م بلاهور ، والاجتماع به لمدة ساعات ، ما يلي:

«وتَطرَّق الحديثُ إلى حركة الإصلاح والتجديد في الهند ، فأَثنى الدكتور على مُجدِّد الألف الثاني الإمام السَّرهندي ، والإمام وليِّ الله الدَّهلوي ، والسلطان (محيي الدين عالمكير) ـ رحمهم الله ـ ثَناءً كثيراً ، وقال: إنَّني أقولُ دائماً إنه لولا وجود هؤلاء ، وجهودَهم الموفَّقة لَذَابَ الإسلامُ في الديانة الهندوكيَّة وحضارتِها»[1].

وقال فيـه ـ لأَجل هذا اليقين والإيمان بعَظمة شخصيته ودَوْرِه في تاريخ الهند الإسلامي ـ هذه القصيدةَ المُثيرة المؤثِّرة الرائعة ، التي أُحاوِل ترجمتها فيما يلي:

«ذاك السلطان أَورَنك زيب ذو المجد السَّامق الذُّرى الذي تتباهى به الأسرة

---

(١) [انظر الحديث الذي جرى بينهما ، ذكره العلاَّمةُ الندوي في كتابـه «روائع إقبال» بعنـوان «صلتي بمحمد إقبال وشعره» ص: ١٧ـ١٨ ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م].

الكُوركانية ، وتَعتزُّ به ، علا بهِ نَجْم المسلمين ، وارتفعتْ مكانتهم ، ونالت به الشريعة الإسلامية عِزَّها وكرامتها ، كان السَّهم الأخير في كِنانة الإسلام للحرب الحامية بين الكفر والإيمان. تعرَّضتِ الأمة الإسلامية لمحنة عظيمة ، بسبب بذرة الإلحاد والزندقة التي بذَرها (أكبر) ، وسقاها ونماها ، والتي نشأت ـ مرة ثانية ـ في فِطرة دارا شكوه ، وكانتْ شموع القلوب في الصدور خامدَةً مظلمة بسبب الفساد الشامل والظلام الحالك.

هناك قَيَّض اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ السلطان (عالمكير) ، ذلكَ الزاهد الغيور والفارس الجسور ، الذي اجتباه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لإحياء الدين وتجديد الإيمان واليقين ، فحرَقَتْ صواعقُ سيُوفه المهنَّدة بيادر الكفر والزندقة ، وأضاءت شموعُ الدين في محافل المسلمين ، وتخرَّص المتخرِّصون من قِصار النظر ، وضعاف النفوس ، فحَكموا عليه بأحكام قاسية ، وقاسُوه بمقاييسهُم الزائفة [1] ، ولم يعرفوا عُمقَ مداركهِ ، وأبعاد تفكيره ، لقد كان فَراشةً مُتهافتةً على شُعل التوحيد ، وكان في بلاد الشِّرك والوثنية كإبراهيمَ في نار نمرود ، نَسيجَ وَحده في صَفِّ الملوك والسلاطين ، ومِثالاً فريداً في زُمرة الزُّهاد والناسكين» [2].

وأخيراً أَثمرتْ جُهود خليفتي الإمام السَّرْهندي الكبيرين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البَـنُّوري ، وخلفائِهما الربَّانيين المخلصين العِظام ، وأصبحتْ هذه البلاد ـ تدريجياً ـ مركزاً رُوحياً وعلمياً للعالم الإسلامي الذي كانت تَغشاهُ سحب الضعف والانحطاط الفكري والعلمي في القرنين الحادي

---

(١) إشارة إلى كتابات المؤرخين المغرضين من غير المسلمين ، والشائعات التي شاعت عنه في أوساط غير المحققين من المسلمين.

(٢) رموز بيخودي: الديوان الفارسي ، ص ٩٨ [انظر ترجمة هذه الأبيات المترجمة بالعربية شعراً بعنوان «قصة السُّلطان عالمكير والأسد». في «ديوان محمد إقبال» (في الديوان الثاني المعنوَن بـ«الأسرار والرُّموز»). ج١ ، ص ٢٠٠ـ٢٠١ ، المعتني بهذا الكتاب ، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م.

عشر والثاني عشر ، وبدأتِ الوفودُ من أقاصي العالم الإسلامي ، تتوجَّه إلى الهند لينهَلوا من مَعينها العلمي والروحي ، ويَتلقَّوا التربية الدينية ، ويَقْطَعوا مَفاوز السلوك على مَشايخها الربَّانيين ، ويأخذوا الحديث الشريف على مُحدِّثيها البارعين ، وقامتْ في كل بقعة من بقاع هذه البلاد ، زَوايا روحيةٌ للطريقة المجدّدية ، ومراكزُ علمية لتعليم الكِتاب والسنَّة ، واستفاد بها القاصي والداني.



البَابُ الثّامِنُ

قيام خليفتي الإمام السرهندي

وأصحابهما بتوسيع نطاق عمله

التجديدي وتكميله

قيامُ خَليفتي الإمام السَّرْهندي وأصحابهما بتوسيعِ نِطاق عمله التجديدي وتكميلِه

مَشاهيرُ خُلفائه:

إنَّ استيعابَ أسماء خلفاءِ الإمامِ السَّرْهندي العظام ، وإحصاءَ مآثرهم الجليلة ، ليس أمراً ميسوراً ، فقد بلَغ عددهم الآلاف ، وتفرَّقوا في أقطار العالم يَحملون هذه الدعوةَ ، ويَنشرون هذه الحركةَ ، وقد مرَّت بنا ـ في الصفحات المتقدِّمة ـ أسماءُ عدد من كبار خُلفائه الذي بعثهم الإمام إلى بعض البلدان الخارجية ، للتَّربية والدعوة والإرشاد ، وعيَّن بعضَهم في المناطق الرئيسية الحساسة في الهند ، للقيام بهذه الخدمة العظيمة .

ونذكرُ هنا ثَبَتاً بالمشاهير من خُلفائه مرتباً على الحروف الهجائية ، ثم نَذكُر خليفتَيه الجليلين ـ الشيخ محمد معصوم والشيخ السيد آدم البَنُّوري ـ بشيء من التفصيل ، ونُقَدِّم ـ بصورة إجمالية ـ نُبذة من أخبار خلفائهما الكبار ، وانتشارِ سلاسلهم ، وما قاموا به في مجال التربية والإصلاح ، وأسَّسوا من المراكز الروحية التربوية ، وما استفادَه العامة والعلماء مِنهم من فوائد العلم والتزكية والتربية .

نَستطيع أن نقدّر به ذلك القبول العظيم والانتشار الواسع الذي أحرَزَته طريقة

الإمام السَّرْهندي ، وكيف أَثمرتْ جُهوده الإصلاحية والتجديدية ، وآتت أُكلها يانعاً شهياً ، ولا يُمكن كل ذلك إلاَّ بالتأييد الربَّاني ، والإرادة الإلٰهية ، والقبولِ عند الله ـ سبحانه ـ وغايةِ الإخلاص والصفاء ، واتِّباع السنَّة النبوية والشريعة الغرَّاء.

وفيما يلي ثَبَتُ الخُلفاء المشاهير ، ويُعرَفُ منه تَنوُّع أوطانهم وأُصولِهم ويُفهم منه انتشار سلسلة الإمام في بلاد الإسلام:

١ ـ الشيخ السيد آدم البَنُّوْري .
٢ ـ الشيخ أحمد البركي .
٣ ـ الشيخ أحمد الدِّيبِني .
٤ ـ الشيخ أمان الله اللاَّهُوري .
٥ ـ الشيخ بدر الدين السَّرهندي .
٦ ـ الشيخ بديع الدين السَّهَارَنْبُوري .
٧ ـ الشيخ حَسن البركي .
٨ ـ الشيخ حميد البَنْغالي .
٩ ـ الحاج خضر خان الأفغاني .
١٠ ـ الشيخ مِير صغير أحمد الرُّومي .
١١ ـ الشيخ طاهر البَدْخَشِي .
١٢ ـ الشيخ طاهر اللاَّهُوري .
١٣ ـ الشيخ خواجه عُبيد الله المعروف بخَوَاجه كَلاَن .
١٤ ـ الشيخ خواجه عبد الله المعروف بخواجه خُوْرَد .
١٥ ـ الشيخ عبد الحيّ الحصاري .
١٦ ـ الشيخ عبد الواحد اللاَّهُوري .
١٧ ـ الشيخ عبد الهادي الفَاروقي البَدَايُونِي .
١٨ ـ الشيخ فرّخ حسين الهَرَوِي .
١٩ ـ الشيخ قاسم علي .

٢٠ ـ الشيخ كريم الدين بابا حسن الأَبْدَالِي .
٢١ ـ الشيخ السيد محب الله المَانكْبُوري .
٢٢ ـ الشيخ محمد صادق الكابُلِي .
٢٣ ـ الشيخ محمدصالح الكَوْلابي .
٢٤ ـ الشيخ محمد صدّيق الكشمري .
٢٥ ـ الشيخ مزمِّل .
٢٦ ـ الشيخ الحافظ محمود اللاَّهُوري .
٢٧ ـ الشيخ نور محمد الفَتْني .
٢٨ ـ الشيخ يار محمد الجديد البَدْخَشي الطَّالِقاني .
٢٩ ـ الشيخ يار محمد القديم .
٣٠ ـ الشيخ يوسف البركي .
٣١ ـ الشيخ يُوسف السَّمرقندي .

الشيخ محمد مَعصوم السَّرهندي (١)

الشيخُ الإمامُ العالم الكبير معصومُ بنُ أحمدَ بنِ عبد الأحد العدوي العُمري الشيخ محمد معصوم النقشبنديّ السَّرهندي ، كان أحبَّ أولاد أبيه ، وأشبَهَهم سَمْتاً به ، وأَقربَهم منزلةً إليه ، وأتْبَعهم لسِيرته ، وأخصَّهم بمعارفه ، وأبعَدَهم صِيتاً بين الناس ، وأنفَعَهُم لهم .

وُلد لإحدى عشرةَ خلون من شوال سنة سبعٍ أو تسع بعد الألف ، وقرأ بعض الكتب الدراسية على صِنوه الكبير محمد صادق ، وأكثرَها على والده ، وعلى الشيخ محمد طاهر اللاَّهوري ، ولازم أباه ، وأخذ عنه الطريقة ، وحفظ القرآن في ثلاثة أشهر .

وحالُه في تحصيل نسبة والده كحال صدر الشريعة صاحب «شرح الوقاية»

(١) هذه الترجمةُ للشيخ محمد معصوم ، التي جاءت فيها معظم الجوانب المهمة من حياته ، مقتبسة من «نزهة الخواطر» ج٥ ، بتعديل يسير .

حيث كان يَحفَظُ ما يؤلِّفه جَدُّه بلا تأخير ، ولذلك بلَغ رُتبة لم يصلْ إليها أحد من أصحاب والده ، فبشَّرهُ والدُه بمقامات عالية .

ولما تُوفِّي أبوه ، جلس على مسند الإرشاد وسافرَ إلى الحرمين الشريفين فحجَّ وزار ، وأقام بالمدينة المنورة زماناً صالحاً ، ثم رَجع إلى الهند وصَرف عُمره في الدرس والإفادة ، وكان أكثرُ اشتغاله تدريساً بـ «تفسير البيضاوي» ، و«المشكاة» ، و«الهداية» ، و«العضدي» ، و«التلويح» .

قال الشيخ مُراد بن عبد الله القزّاني في «ذي الرشحات» «إنه كان آيةً من آياتِ الله مثلَ والده الماجد ، قد نَوَّر العالم ، وبَدَّد ظلماتِ الجهل والبِدَع بيُمن توجُّهاته العليّة ، وأحواله السَّنيَّة ، محرماً للأسرار الخفية .

وصاحبه ألوفٌ من الرجال وتحقَّقوا بالحالات السَّنية بشرف صُحبته العلية ، حتى قيل : إن جميع من بايعه في الطريقة تسعُمئة ألفٍ ، وعدد خلفائه سبعةُ آلاف ، منهم الشيخ حبيب الله البخاري كان أعظَم مشائخ خراسان وما وراء النهر في زمانه ، وقد نُوِّرت بخارى بنور السُّنَّة بعد ما غَشِيتها ظُلمة البدعة ، وشَرّف بالخلافة والإجازة أربعة آلاف من مريديه بعد إيصالهم إلى رتبة الكمال» ، انتهى .

وللشيخ معصوم مكاتيبُ في ثلاثةِ مجلَّدات مثلَ مكاتيب والده متضمنةٌ لغوامض الأسرار واللطائف ، أكثرُها يحل مُغلَقات معارِف والده المرحوم .

تُوفِّي في اليوم التاسع من ربيع الأول سنة تسع وسبعين وألفٍ بمدينة سَرْهند ، فدُفن بها .

الشّيخ آدم البَنُّوري (١)

الشيخ العارف الولي الكبير آدمُ بنُ إسماعيلَ بن بهوه بن يوسف بن يعقوب ابنِ الحسين الحسيني الكاظمي البَنُّوري ، أحدُ كبار المشائخ النقشبندية بُشِّر به

(١) مقتبس من «نزهة الخواطر» ج٥ ، بتعديل يسير .

والده في رؤيا صالحة ، بشَّره بذلك النبي ﷺ ، وُلد ونشأ بقرية «بَـنُّور» بفتح الموحدة وتشديد النون من أعمال سَرْهند ، وأخذ الطريقةَ عن الحاج خضر الرُّوغاني أحد أصحاب الشيخ أحمدَ بن عبد الأحد العُمري السَّرْهندي، بمدينة (مُلْتَان)، ولازَمه شهرين كاملين ، ثم قَدِم سَرْهند بأمره ، ولازم الشيخ أحمدَ المذكورَ مُـدَّة من الزمان ، وأخذ عنه .

وقد ذُكر في «خلاصة المعارف» أنُه حصلت له نفحةُ الجذَبات الربانية عن الشيخ محمد طاهر اللاَّهوري بحقٍّ ما وصل إليه عن الشيخ (إسكندر) عن (جَده كمال الدين الكيتَهلي) ، وبالجُملة فإنَّه بلغ رُتبة لم يصلْ إليها كثير ممن عاصره من المشائخ ، وكانتْ طريقتُه اتباعَ الشريعة المحمدية واقتفاءَ آثار السنَّة السَّنيَّة لا ينصرف عنها قَدْر شعرة في الأقوال ، ولا في الأفعال .

أخذَ عَنه خَلْقٌ كثير حتى قيل إن أربعمئة ألف مسلم بايعوه ، ثم ألفَ رجلٍ منهم نالوا عنه حظاً وافراً من العِلم والمعرفة ، وقيل إنَّ زاويته قلَّما كانت تخلو عن ألف رجلٍ كل يوم ، وكُلُّهم كانوا يأكلون الطعام من مَطبخه ويستفيدون منه .

وفي «التَّذكرة الآدمية» أنَّه سار إلى لاهور سنة اثنتين وخمسين وألف ، وكـان معـه عشـرةُ آلاف مـن السَّـادة والمشـائـخ ، ومِـن كُـلِّ طبقـة ، وكـان (شاهجهان بن جهانكير) سلطانُ الهند بلاهورُ في ذلك الزمان ، فاستعظَمه وأمرَ سعد الله خان أن يَذهب إليه ، فجاء سعدُ الله خان ، وتكدَّرت صُحبته بالشيخ ، فسعى إلى السلطان بالوِشاية ، فأمرَ السُّلطان أن يُسافِر الشيخ إلى الحرمين الشريفين زادهما الله شرفاً ، فسافرَ معه أصحابُه وعشيرته فحجَّ وسكَن بالمدينة المنوَّرة حتى ماتَ بها» انتهى .

وللشيخ آدمَ رسائلُ في الحقائق والمعارف ، منها «خُلاصة المعارف» في مجلدين بالفارسية ، أوله : «الحمدُ لله رب العالمين حمداً كثيراً بقَدر كمالات أسمائه وآلائه . . . الخ» ومنها «نُكات الأسرار» .

وكان الشيخُ آدم أُمِّياً ما قرأ شيئاً من الكُتب على أهل العلم .

مات لِسَبْعٍ بَقِين من شوال سنة ثلاثٍ وخمسين وألفٍ بالمدينة المنوَّرة، فدُفن ببقيع الغَرْقد عند قُبة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

السِّلسِلةُ المجدِّدية المَعصومية ومشايخها الكبار:

نذكر ـ أولاً وبصورة إجمالية ـ نُبذة من حياة المشايخ الكبار في سلسلة الشيخ محمد معصوم، لعلَّنا نستطيع أن نُدرك بها ما أحرزوا من القبول والإعجاب، وتَهافُت الناسِ عليهم تَهافُتَ الفَراشِ على النور، وسَعةَ حَلقتهم للتدريس والإفادة والتربية والإفاضة، وكثرةَ وفُود الطالبين والمسترشدين، وتأثيرهم الواسع العميق في المجتمع الإسلامي المعاصر وحياةِ المسلمين ـ بصفة عامة ـ وينبغي للاطلاع على تراجمهم المفصَّلة الرجوعُ إلى الكتب التي أُلِّفت في حياتهم ـ بصفة مستقلة ـ أو كُتب السِّير والتراجِم العامَّة التي تقدم ذكرها إجمالاً.

أمَّا ما يتعلق بالهند، فيكفي إلقاءُ نَظْرة على الأجزاء: الخامس، والسادس، والسابع، من كتاب العلامة السيد عبدِ الحي الحسني الشهير «نزهة الخواطر».

الشَّيخ سَيفُ الدِّين السَّرْهندي:

انتشرتْ طريقةُ الشيخ محمد معصوم، وحقَّقتْ أهدافَ الإمام السرهندي ـ مؤسس هذه الطريقة ـ ومقاصدَه التي تشتملُ على تجديد الصلة مع الله ـ سبحانه وتعالى ـ وَالدَّعوة إلى اتباع السنة، ونَبْذِ البِدع والمنكرات، وبلغتْ ذُروة الرُّقي والكمال على يد الشيخ (سيف الدين بن الشيخ محمد معصوم) وخليفتِه الراشد (١٠٤٩ ـ ١٠٩٦هـ) الذي اختار بَلْدة دهلي للإقامة بأمر والدِه فصار مرجعاً للطالبين، ومجمعاً للسالكين، وتأسَّستْ على يديه تلك الزاوية العامرة التي أصبحت في عهد الشيخ المرزا مظهر (جَانِ جَانَان)، والشيخ غلام علي مركزاً عالمياً رُوحياً للتربية والإفاضة، واستنارتْ بها أرجاء أفغانستان

وتُركستان في جانب ، وأضاءتِ العراقَ والشامَ في جانب آخر ، وصدقَ قَولُ الشاعر الذي وصف الشيخ محمد معصوم بما معناه :

«الشيخُ محمد معصوم سِراجٌ يُضيء الممالك والبلاد ، استنارتْ به الآفاقُ من الهند إلى الروم» .

وتَلقَّى السلطان (أَورنك زيب) التربيَة الرُّوحيَّة على يد الشيخ (سيف الدين) ، ويُذكر في كُتب التاريخ دخولُ الشيخ سيف الدين في قصر السلطان ، وإنكارُه على الصُّوَرِ المنحوتة في الجدران ، وانقيادُ السلطان له ، وأمرُه ـ مباشرةً ـ بإزالة هذه الصُّوَر [1] ، وأخبر الشيخُ سيفُ الدين والدَه بِهذه الحادثة في رسالة إليه ، فوجَّه والدُه الشيخ محمد معصوم رسالةً إلى السلطان ، وأبدى فيها سروره ، يقول فيها :

«إنَّها لنِعمةٌ عظيمةٌ أن يَسمع السلطان ـ رُغْمَ أبَّهته وشوكتِه وحِشمته ـ كلمةَ الحق ويَنصاع لها ، ويُـؤثِّر فيه قولُ مِسكين فقير» [2] .

كما أخبر الشيخُ سيف الدين والدَه بظهور آثار الذِّكر على السلطان ، وقَطْعِه المسافاتِ الطويلة في «السلوك» ، فكتَب إليه والدُه الشيخ محمد معصوم في سرور وارتياح وغِبطة ، يقول :

«ما ذكرتَه من أحوال السلطان الحامي لذِمار الإسلام ، مثلُ سرَيان الذكر في اللطائِف ، وحصولُه على «سلطان الأذكار» و«الرابطة القلبية» وقِلة الوساوس والخطَرات ، وتقبُّله الحسنُ لكلمَة الحق ، وإزالةُ بعض المنكرات وزوال «لوازم الطلب» انكشفَ لي كل ذلك برسالتكَ غاية الانكشاف ، فيَجبُ علينا أن

---

(١) ذيل الرشحات : للشيخ محمد مراد القزاني ، ص ٤٨ ، المطبعة الميرية بمكة المحمية ١٣٠٠ هـ .

(٢) رسائل الشيخ محمد معصوم ج٣ ، الرسالة رقم : ٢٢٧ .

نحمد الله ـ عز وجل ـ على ذلك ، فإنَّ هذه الصفات شاذَّةٌ نادرة في طبقة السلاطين» [(١)].

وداومَ السلطانُ على الاتصال به روحياً وتربوياً ، فقد ذكر مؤلف «مآثر عالمكيري» محمد ساقي مستعد خان في وقائع يوم ١٣ محرم العام الثاني عشر للجُلوس الموافق لعام ١٠٨٠هـ ، أنَّ السلطان ذهب بعد ما مضى هزيعٌ من الليل إلى بيت الشيخ سيف الدين من البُستان الذي كان فيه ، وجلس عنده ساعة ، يَستفيدُ بصُحبته المباركة وكلماته الطيبة النافعة ، وأبدَى له إجلاله واحترامه ، ورَفع شأنَه ، ثم رجع إلى قصره [(٢)].

قال الشَّيخُ مُراد بن عبدِ الله القزاني في «ذيل الرشحات» :

«كان في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على رُتبةٍ لم يكن عليها شيخٌ من المشايخ مثله ، حتى كادتِ البدع ترتفع عن بِلاد الهند في زَمنه وتُستأصل ، ولذلك لقَّبه والده بمُحتَسِب الأمة ، وكان صاحبَ جذْب قويٍّ ، وتصرُّف عال بحيث كان الناس يضطربون من قوَّة تَوجُّهاته ، ويَبقون بلا اختيارٍ في يده» .

وكانتْ له شوكةٌ ظاهرة حتى كان السلاطين والأمراء يقومون على أَرْجُلِهم بالأَدبِ التام بين يديه ، ولا يَتجاسرون على القُعود أمامه ، وكان يأكُل من مطبخه كل يوم ألف وأربعمئة رجل مرَّتين مما يُوافِق طَبعه ، وترغب فيه نفسه» [(٣)].

وخَلَف الشيخَ سيفَ الدين السيدُ نُور محمد البَدَايُوْنِي (المتوفى سنة ١١٣٥ هـ) الذي عَمَّر هذه الزاوية ، ونوَّرها بنور الشريعة المحمدية ، ثم خَلفه الشيخُ (مِرزا مَظهر جَان جَانَان) ، الذي ازدادتْ به هذه الزاوية بَهاءً ونُوراً.

---

(١) رسائل الشيخ محمد معصوم: ج٣ ، الرسالة رقم: ٢٢٠ .

(٢) مآثر عالمكيري: قام بنشره مجمع بنغال الآسيوي» (Bengal Asiatic Society) .

(٣) انظر «نزهة الخواطر» ج٦ ، نقلاً من «ذيل الرشحات» ص ٤٨ ـ ٤٩ .

مِن الشيخ مُحمَّد زُبير إلى الشيخ فضل رحمن الكَنج مُراد آبادي:

وكان الابنُ الثاني للشيخ محمد معصوم هو الشَّيخُ محمد نقشبند (م ١٠٣٤ ـ ١١١٤ هـ) الذي اشتُهر بحُجَّة الله نقشبند ، استخلفه الشيخ محمد معصوم وأجازه ، فانصرفَ ـ بعد وفاته ـ إلى التربية والإرشاد ، انصرافاً كلياً.

وكان من خُلفائه الشيخ محمد زُبير بن أبي العلاء بنِ الشيخ محمد معصوم (م ١١٥١ هـ) حصل له مِنْ رجوع الناس إليه ، وتَقاطرهم عليه من كل حَدْب وصَوْب ما لم يحصل لغيره في عَصْره إلا نادراً ، وإذا خرج يعود مريضاً أو يُلَبِّي دعوة ، تَبِعَهُ الملوك والأمراء فيُظَنُّ أنه موكب السلطان (١) .

خَلَفه في الدعوة والإرشاد الأعلامُ من الرجال ، اشتُهر منهم ثلاثة : الشيخ (ضياء الله) ، الذي خلَفه الشيخ محمد آفاق ، والشيخُ (محمد ناصر عندليب) ، الذي خلَفه ابنُه الشاعر العارف (مِيْرَدْرد الدِّهلوي) ، والشيخ (عبد العدل) ، الذي كان من خُلفائه الشيخ عبد القادر الدَّهلوي ، أول مُترجم لمعاني القرآن الكريم بالأردية لسانِ مُسلمي الهند ، وابنُ الإمام حكيمِ الإسلام (وليٍّ الله الدِّهلوي).

وكان الشيخُ (ضياء الله) من أَجِلَّة المشايخ ، وصاحب الصلة القوية مع الله ، حتى كان الشيخ غلام علي يقول: مَنْ لَمْ يشهدِ النسبة المجدِّدية فلينظر إلى الشيخ ضياءِ الله (٢) .

ورُزِق خليفتُه الشيخ محمد آفاق (١١٠٦ ـ ١١٥١ هـ) قَبولاً عظيماً ، وطبَّق صيته الآفاق ، فاستفاض به الناس من دهلي إلى كابُل ، ولما سافر إلى أفغانستان بايعه زَمان (شاهْ مَلِك) (كابُل) وَخلْقٌ كثير (٣) .

---

(١) در المعارف: مجموعة أقوال الشيخ غلام علي ، وانظر «نزهة الخواطر» ج٦ .

(٢) المصدر السابق: ص ١٦ .

(٣) انظر «نزهة الخواطر»: ج٧ .

وكان خليفة الشيخ محمد آفاق: الشيخ فضل رحمن الكَنج مراد آبادي، الذي عمَّر الهند وأضاءها ـ لا سيما المنطقة الشمالية منها ـ برُوحانيته وطَهارةِ أنفاسه، وحَرارة حُبِّه ولوعته، وزُهده في زخارف الدنيا، واتِّباعه للشريعة الغرَّاء، واشتغالِه بتدريس الحديث الشريف، وتمسُّكه بالسُّنة في دقيق وجليل، أكثرَ من نصف قرن من الزمان، وبتعبيرٍ دقيق «قامتْ سُوق الحبّ الإلهي ونَفَقت نَفاقاً عظيماً».

ويقول مُؤرِّخ الهند ومُترجِم رجالها، المعروفُ بأمانته العلمية، وَسَعة نظره وتحرِّيه للدقة وعدم المبالغة، العلامةُ السيد عبد الحي الحسني مؤلِّف «نزهة الخواطر» في ترجمته الحافلة الجميلة في كتاب «نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر»[١]:

«الشيخُ العلاَّمة المحدِّث المُسنِد المعمَّر صاحبُ المقامات العلية، والكراماتِ المشرقة الجليَّة شرفُ الإسلام فضل رحمن بن أهل اللهِ بن محمد فياض بن بركةِ الله بنِ عبد القادر بن سعد الله بنِ نور اللهِ المعروف بنور محمد بنِ عبد اللطيف بن عبد الرحيم بن محمد الصِّديقي الملانوي ثم المُراد آبادي، كان من العلماء الرَّبانيين.

وُلد سنة ثمان ومئتين وألف، بملاَّ نوان ـ بتشديد اللام ـ وقرأ العلم على مولانا نُور بن أنوار الأنصاري اللَّكهنوي وعلى غيره من العلماء، ثم سافر إلى دهلي بصحبة الشيخ حسن علي اللكهنوي المحدث، فأدركَ بها الشيخ عبد العزيز بنَ ولي الله والشيخ غُلام علي، والشيخ محمد آفاق وغيرهم من كبار المشايخ، وأخذ الحديث المُسَلسل بالمحبة عن الشيخ عبدِ العزيز المذكور، وسمع منه شَطراً من صحيح البخاري، ثم رجع إلى بلدته ولَبثَ

---

(١) [قد طُبع هذا الكتاب النفيس ـ كما ذكرنا في ترجمة المؤلِّف في الجزء الأول ـ منقَّحاً ومصحَّحاً في ثلاث مجلَّداتٍ، في دار ابن حزم ببيروت، بعنوان «الإعلام بمَن في تاريخ الهند من الأعلام»].

بُرهة من الزمان ، ثم سافر إلى دهلي بعد ما توفي الشيخ عبد العزيز ، فلازم سِبطَه الشيخَ إسحاق بن محمد أفضل العُمري ، وقرأ عليه الصِّحاح الستة .

وأخذ الطريقَة عن الشيخ محمد آفاق النقشبندي الدِّهلوي ، صَحِبه مُدة ، حتى نال حظاً وافراً من العلم والمعرفة ، ثم عاد إلى بلدتِه وأقام بها زماناً .

ولمَّا تُوفِّيت أمُّ عياله انتقل إلى (مُرَاد آباد) على أربعة أميال من (ملّانوان) ، وتزوَّج بها وسكن ، ولكنّه كان في ذلك الزمان يؤثر السفر على الإقامة ، فربما يسير إلى (لكهنؤ) و(كَانْبُور) و(بَنَارَس وقَنُّوْج) وغيرِها من البلاد ، وربما يَشتغل بتصحيح المصاحف في دُور الطباعة ، ويَشتغل بتدريس الحديث الشريف .

ثم لمَّا كَبِرَ سنُّه ترك السفر واعتزل بمراد آباد ، فتَهافتَ عليه الناس تهافُتَ الظمآن على الماء ، وتواترتْ عليه التحف والهدايا ، وخَضع له الوجهاء وسُراة الناس يأتون إليه من كل فج عميق ومَرمىً سحيق ، حتى صار عَلَماً مفرَداً في الديار الهندية ، ورُزق من حسن القبول ما لم يُرزق أحدٌ من المشائخ في عصره .

وكان أكبرَ منْ رأيتُ وأعلَمهم بهدي النبي ﷺ ، ودَلّه وسَمْته ، لا يتجاوز عنه في أمر من الأمور مع العَفاف والقناعة ، والاستغناء والسخاوة ، والكَرم والزُّهد ، لا يَدّخر مالاً ، ولا يخاف عوزاً ، تَحصُل له الألوف من النقود فيفرِّقها على الناس في ذلك اليوم ، حتى كانَ لا يبيتُ ليلة وفي بيتِه درهمٌ أو دينارٌ ، وكان لا يُحسِنُ الملبس والمأكل ، ولا يَلبس لبس المتفقّهة من العمامة والطَّيلسان فَضلاً عن تكبير العمامة وتَطويل الأكمام ، ولا يَهابُ أحداً في قول الحق ، وكلمةِ الصدق ، ولو كان جبَّاراً عَنيداً ، قد انتهتْ إليه الإمامة في العلم والعَملِ والزُّهد والورع ، والشجاعة والكرم ، والجلالة والمهابة ، والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكر ، مع حُسن القصد والإخلاص ، والابتهالِ إلى الله تعالى ، ودَوامِ المراقبة له والدعاء إليه ، وحسن الأخلاق ونفع الخلق ، والإحسانِ إليهم ، فإن حَلفْتُ بين الركن والمقام أني ما رأيت في العَالم أكرَم منـه ، ولا أفـرغَ منه عن الدينـار والدرهم ، ولا أطـوَع منه للكتاب والسنَّـة

ما حَنَثْتُ ، وأنِّي ما رأيتُ أعلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ منه .

وكان رَبْع القامة ، نَقيَّ اللون ، عظيمَ الهامةِ ، مُرسل اللحية قصيرها، يُصلّي بالناسِ في المسجد ، يسكُنُ في حُجرة بفنائه ، ويسعى مع أصحابه في مصالحهم ، وَملْبُوسه كآحاد الناس ، يُدرِّس القرآن الحكيم والحديث الشريف قبل الظهيرة ، وبعدَ الظهر وبعد العصر في أغلب الأوقات ، سمعتُ منه المُسلسل بالأولية والمُسَلسَل بالمحبَّة ، وشطراً من «صحيح البخاري» ، كان يقرأ رضي الله عنه ويتكلَّم في أثناء القراءة على الأحاديث .

وأمَّا كُشوفه وكراماته فلا تسأل عن ذلك ، فإنَّها بلغت حدَّ التواتر ، وإني ما وَجدتُ في الأولياء السالفين من يكونُ مِثله غير الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه .

تُوفِّي لثمانٍ بقين من ربيع الأول سنة ثلاث عشرة وثلاثمئة وألفٍ بمراد آباد فدفن بمقبرة مراد خان» (١) .

الشَّيخ مِرزا مَظهر جان جانان والشيخُ غُلام علي:

كان الشيخ مرزا جان جانان ، الشهيد (١١١ ـ ١١٩٥هـ) خليفة السيد نور محمد البدايوني الذي بقي ٣٥ سنة يُشعل بحرارة أنفاسه مجامرَ القلوب ، وينوّر بإشراقه الأرواحَ والنفوس ، وأقام سُوق الحبِّ لله بدهلي العاصمة ، يَقولُ عنه العالِم الكبير ، ومعاصره الناقد البصير الإمام (وليُّ الله الدَّهلوي):

«لا تَخفى عليّ أخبارُ رجال الهند وسِيَرُهم، فقد وُلدتُ هنا، وعِشت، وزُرتُ البلدان العربية ، وقُمتُ فيها برحلات وجولات ، وسَمِعْتُ أحوال رجال أفغانستان وإيران من أهلها الثقات ، وتوصَّلت بعد كل ذلك إلى أنه لا يوجد في أي بلد من هذه البلدان مُربٍّ روحيٌّ يُضاهِيه في اتباعه للكتاب والسنَّة، وتمسُّكه بهما، واستقامته على جادة الشريعة والطريقة ، ويُساويه في

(١) نزهة الخواطر: ج٨ ، ص ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

علوِّ كعبه في إرشاد الطالبين وتربية السالكين ، وفي قُوةِ تأثيره ، في عصرنا هذا ، يمكن ـ من غير شكٍّ ـ أن يكونَ أمثاله في القرون الماضية ، وفي الأولياء المتقدِّمين ، بل الواقع أنه لا يوجد أمثاله في كل عَصرٍ ، إلاَّ في عَدد قليل ، فضلاً عن هذا العَصْر الذي عمَّ فيه الفسادُ وشَمِل البلاد والعباد» (١) .

* * *

وخَلفَه ـ في تربيته وإرشاده ـ نَوابغُ العلماء وأَعلام المشايخ (٢) ، كالشيخ نَعيم الله البَهْرَائِجي (١١٥٣ ـ ١٢١٨هـ) والشيخ القاضي ثَناءِ الله الباني بَتّي (م١٢٢٥هـ) بيهقيُّ عصرِه (كما لقبه بذلك مُسنِد الهند الشيخ عبد العزيز الدَّهلوي) ومؤلِّف «التفسير المظهري» و«ما لا بدَّ منه» ، والشيخُ غلام يحيى البِهاري (١١٨٠هـ) .

ولكن قيَّض الله ـ سبحانه وتعالى ـ لنَشر طريقته ، بل الطَّريقة المجدّدية وتبليغِها على النطاق العالمي الواسع خليفَته الشيخ (غلام علي البتالوي) (٣) (١١٥٦ ـ ١٢٤٠هـ) الذي يَستَحِقَّ أن يُدعى بمجدِّد الطريقة المجددية ، بل مجدِّدِ علم السلوك والإحسان والتزكية ـ الذي يُعرف بعلم التصوف ـ في القَرنِ الثالث عشر الهجري ، الذي قَصده الطالبون من البلاد العربية والعَجمية ، وتهافتوا عليه تهافُت الفراش على النور ، ولم تبق مدينة من مُدن الهند ، إلا وتَشرَّفت بخليفةٍ من خلفائه ، وكان في مدينة «أَنْبَالَة» وحدها خمسونَ شيخاً مُرشداً من خلفائه ، يقول السر السَّيد أحمد خان الدِّهلوي مُؤسِّس جامعة عَلِيْكَرَة الإسلامية (٤)، وقد أدرك آخر أيام حياته في كتابه «آثار الصناديد» :

---

(١) كلمات طيبات : ص ١٦٤ ـ ١٦٥ .

(٢) وقد جاء في كتاب «مقامات مظهري» ص ٦٤ أسماء ٤٣ شخصاً من خلفائه .

(٣) كان اسمه عبد الله ، ولكنه اشتهر باسم الشيخ غلام علي .

(٤) [وهي منسوبة إلى مدينة «عليّ كَرَة» لا إلى سيِّدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ اختصاراً لـ«عليّ كرَّم الله وجهه» كما اشتهر ، ومعنى «كَرَة» في اللغة : السنسكريتية : القلعة ، أو الحصار] .

«شاهدتُ بأُم عيني في زاويته رجالاً من الروم والشام، وبغداد ومصر، والصين والحبشة ، وفَدُوا عليه وبَايعوه ، ورأَوا خدمة هذه الزاوية سعادَة العُمر وحَسنَة الدَّهر ، أما البُلدان والمدن القريبة مثل الهند وبنجاب وأفغانستان ، فلا تسألْ عن أهلها ، الذين قَصدوه كالجراد المنتشر ، وكان يَسكُن في زاويته زهاء خمسمئةٍ من الطالبين المُنقطعين إلى التربيةِ والتزكية ، وكان الشيخ مُتكفِّلاً بطعامهم وملابسهم»[1].

ويَذكر الشيخ رؤوف أحمد المجدِّدي في كتابه «در المعارف» فهرسَ القُرى والمدنِ والبُلدان التي يَنتمي إليها المُحتشِدون من أنحاء مختلفة في هذه الزاوية ، وذلك في يوم ٢٨ جمادى الأولى عام ١٢٣١هـ ، واقرأ ـ فيما يلي ـ هذا الفهرس:

«سَمرقند، بُخارى، غَزنين، حَصار ، قَندهار ، كَابُل ، بَشَاوَر ، كشمير ، مُلْتان ، لَاهور ، سَرْهند ، أَمْرَوْهَهْ ، سَنْبَهل ، رامْبور ، بَرِيلي ، لكهنؤ ، جَائِس ، بَهْرَائِج ، كوكخبور ، عَظيم آباد ، دَهاكه ، حَيدَر آبادَ ، بُونا ، وغيرها من المدن والقرى»[2].

الشَّيخ خَالد الرُّومي[3]

وقدَّر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تنتشرَ سلسلة الشيخ غلام علي وطريقته ، ويمتد رواقها على العراق والشام وتركيا ، بالشيخ (خالد الرُّومي الشَّهرزوري) ، أحدِ الفضلاء الأكراد ، الذي بَلغه صِيتُ الشيخ غُلام علي وإرشادُه وتربيته في بلاده ، فشدَّ رَحله في شوقٍ وحنين واضطراب ، وقَطع المفاوز والمسافاتِ الشاسعة ، حتى وَصل في مُدة عامٍ كامل إلى دهلي ، فألقى رَحْله في زاويته

(١) آثار الصناديد: الباب الرابع.
(٢) در المعارف: ص ١٠٦.
(٣) [وهو يُعرف في البلاد الشامية بالشيخ خالد النقشبندي ، وقبره معروفٌ في جبل قاسيون].

ولزمها إلى أن أكرمه الله ـ سبحانه وتعالى ـ بعدَ التربية والسلوك ، بالإجازة والخلافة ، وقد كانَ من انقطاعه الكامل إلى الاشتغالِ بتزكية نفسِه أثناء إقامته ، أنَّ العلماء والمشايخ من أهل دهلي الذين كانوا يَسمعون ـ من أعوام وسنين ـ أخبارَ فضْله ونبوغه ، وسُمو منزلته ، يأتون لزيارته ، ويقول لهم:

«لا يَستطيعُ الفقيرُ أن يَلتفتَ إلى شيء آخر غيرَ هَدفِه المنشود الذي جاء لأجله».

ولمَّا رجع إلى بلاده تهافتَ عليه الناس من كل صَوب وحَدب ، وقصدوه زُرافاتٍ ووُحداناً ، ورُزق من القبول ورُجوع الطالبين ما يَندُر نظيره ، يقول الشيخ رؤوف أحمد المجدِّدي في «در المعارف» في مذكرة يوم الجمعة ٢٤ رجب ١٢٣١ هـ:

«حضر شَيخٌ مغربي متجَشِّماً عناء السفر الطويل في هذه المسافة الشاسعة البعيدة عندما سَمِعَ بذكر شيخنا الجليل ، ولقي في الطريق ببغداد الشيخ خالد الرومي ، فذكر من حال قبولِه العظيم ورجوع الناس إليه ، وقال إنه بايعه ، وتاب على يديه زهاء مئة ألف شخص ، وانخرطوا في سِلك مريديه ، كما بايعه ألفٌ من العلماء المُتبحِّرين ، الذين يَمثلُون لدى الشيخ في إجلال واحترام» (١).

ويقول الشيخُ خالد الروميُّ نفسُه في رسالة كتبها إلى الشيخ أبي سعيد ـ تحدثاً بالنعمة وشكراً على آلاء الله ـ:

«جميعُ بلاد الروم والعرب والحجاز والعراق ، وبعض بلاد العجم وجميعُ كردستان متأثرةٌ تأثُراً عميقاً بالطريقة النَّقشبندية العالية، وبركاتِها ، ويتذاكر الناسُ ـ صغارُهم وكبارهم ـ في مجالسهم ومحافلهم ، ومساجدِهم ومدارسهم ـ صباح ومساء ـ محاسن الإمام الرَّباني مجدِّد الألف الثاني ومنوره ، ومآثِره وفضائله، فهو حديثُ المجالس والنوادي ، وما كنا نتوقع ـ في أي بلد وفي أي

---

(١) در المعارف: ص ١٧٠.

عصر ـ أن تُشَنِّف سمعَ الزمان هذه الألحان ، أو تشهد السماءُ هذه الرغبة ، والشوق والاجتماع ، وإنْ كان الحديث عن هذه الأمور يحمل نوعاً من الجَراءة والإعجاب بالنفس ، والفقيرُ خجلان ، ولكنه أقدم على بيان ذلك ، مُراعاةً لحقِّ الأحباب والأصدقاء».

كان العلاَّمة ابن عابدين المعروف بالعلامة الشامي مؤلِّف «رَد المحتار شرح الدُّر المختار» تلميذَ الشيخ خالد الرومي ، تربَّى على يديه ، وألَّف رسالة مستقلة عنه بعنوان «سلّ الحُسام الهندي لِنُصرة مولانا خالد النقشبندي» وهي في الحقيقة ردٌّ على كتاب ألَّفه بعض الحاسدين الكائدين ، في معارضة الشيخ خالد الرومي وتضلِيله ، وتناولَ في آخر الرسالة ترجمةَ حياته ـ بإيجاز ـ.

الشَّيخُ أَحمد سعيد وخُلفاؤه:

كان خليفةُ الشيخ غلام علي الحقيقيُّ ـ الذي نشر طريقته في الآفاق ـ الشيخ أحمد سعيد بن الشيخ أبي سعيد (١٢١٧ ـ ١٢٧٧هـ) [(١)] ، الذي كان سَليل الأسرة المجدّدية الذي تلقى التربية في أحضان الشيخ (غلام علي) وازدانت به ـ بعد وفاة والده عام ١٢٥٠هـ ـ زاويةُ الشيخ (غلام علي) ، والشيخ مرزا مظهر (جان جانان) ، وقضى ٢٣ سنة كاملة ـ من ١٢٥٠ إلى ١٢٧٣هـ ـ في الجُهود المتواصلة لنَشر الطريقة المجدّدية ، واضطر في هذا العام نفسه ـ الموافق ١٨٥٧م أن يُغادر الهند ويودِّع زاوية آبائه الميامين ، فغادر (دهلي) في شهر محرم الحرام عام ١٢٧٤هـ ، ووَصل (مكة المكرمة) في شهر شوال ١٢٧٤هـ ، ثم اختار السُّكنى الدائمة بالمدينة المنورةَ ، وعاش عامين ، حتى وافاه الأجلُ المحتوم ، فدُفن بها ، وتهافَت المِئات من العرب والأتراك عليه ـ في هذه المدة القليلة ـ للبَيعة والتوبة على يديه ، حتى قال أحد شاهدي العيان : «لو مُدَّ

(١) راجع لترجمته المفصلة «نزهة الخواطر» ، ج٧.

في أجله واستمرتْ هذه السلسلة للبَيعة لبلغ عدد تلامذته ومريديه مئات الألوف من الناس» (١).

ويتعذَّر استقصاءُ خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، فقد ذكر عددهم في «المناقب الأحمدية» (٢) ثمانين.

وانتشرتْ طريقتُه في الهند لجهود الشيخ (دوست محمد القَنْدَهاري) ، الذي تصدَّى خليفته الأكبر الشيخ عثمان الداماني (المتوفى سنة ١٣١٤هـ) في قرية «موسى زئي» من قرى «دَيْرَهْ إسماعيل خان» في المنطقة الشمالية الغربية مِن الهند (٣) ، للإفادة والإفاضة ، وملأَ الجو بحَيوية الحب الدافق وحرارةِ العشق الطاهر ، وغَشَّاها بسكينة النّسبة النقشبندية ، ثم قام خليفتُه الأكبر الشيخ (سراج الدين) (المتوفى سنة ١٣٣٣هـ) بنَشر هذه الطريقة في الآفاق ، وقد كَساه الله ـ سبحانه وتعالى ـ ثَوْبَ المهابة والوقار ، فعمَّر زاوية سَلَفه الكرام بالتربية والإرشاد ، والتدريس والإفادة ، والاشتغالِ بعلم الحديث الشريف.

وخلَفه الشيخ (حسين علي) (١٢٨٣ ـ ١٣٦٣هـ) من «وَانْ بجهران» (٤) الذي كان له أُسلوب خاصٌّ في تفسير القرآن الكريم يُعنَى فيه بشرح آيات التوحيد عِناية خاصة ، وكان دَاعياً متحمِّساً إلى التوحيد الخالص ، قامَ بإصلاح العقائد الفاسدة ، ودَحض البدع الباطلة ، ورَفع راية التوحيد الخالص في بُنجاب ، وفي مَناطقَ عمَّت فيها الأعمال الشركية ، وانتشرتْ فيها البدع ، واتخذ فيه الناس الضرائحَ مساجد ومعابد ، والأولياءَ والصالحين أرباباً من دون الله ، لا يَهابُ في ذلك أحداً ، ولا يخافُ لومة لائم (٥).

وكان في هذا العصر بالذات ، الشيخ (إمام علي المكانوي) (١٢١٢ ـ

(١) رسالة الشيخ محمد عمر بن الشيخ أحمد سعيد إلى الشيخ السيد عبد السلام الهنسوي.
(٢) تأليف الشيخ محمد مظهر.
(٣) تقع الآن في باكستان الغربي.
(٤) تقع هذه القرية في مديرية «ميانوالي» في البنجاب الغربية في باكستان.
(٥) اقرأ ترجمته في نزهة الخواطر: ج٨.

١٢٨٢ هـ) أحدُ المشائخ الكبار في السلسلة المجدِّدية ، كان لِكثرة وفود الناس وتهافتهم عليه وقبولِه العام فيهم ، يُذبح في مطبخه ـ كل يوم ـ ثلاثمئة طَلِيٍّ لِقِرَىٰ الضُّيوف [١].

وكان مِن أَجِلَّة خلفاء الشيخ أحمد سعيد ، الشيخُ (عبد السلام الواسطي الهنسوي) [٢] (١٢٣٤ ـ ١٢٩٩هـ) الذي كان صَاحب نِسبة عالية ، واستقامةٍ وورع . وانتشرت به هذه الطريقة في الولايات المتحدة بالهند.

وكان الشيخ عبد الرشيد ـ أحد أبناء الشيخ أحمد سعيد الذي تلقَّى التربية على يديه الأمير (كلب علي خان) أمير ولاية رامبور ـ خليفَةَ أبيه بعد وفاته في المدينة المنورة ، وسكن في (مكة المكرمة) آخر أيام حياته ، وبَقيَ مشتغلاً بتربية السالكين وإرشاد الطالبين ، إلى أن لَبَّى داعي الأجل ، ودفن في (المعلاَّة).

وأسَّس ابنُه الشيخ محمد معصوم (١٢٦٣ ـ ١٣٤١هـ) الزاويةَ المعصومية برامفور ، وأقام بها ٣٢ سنة ، وتُوفي في مكة المكرمة عام ١٣٤١هـ.

والابنُ الثاني للشيخ أحمد سعيد هو الشيخ محمد مظهر (١٢٤٨ ـ ١٣٠١هـ) كان صاحب نِسبة قوية ، وشيخاً كثيرَ الاشتغال بالتربية والإرشاد ، واستفاد منه مئاتٌ من الطالبين الوافدين من سَمرقند وبخارى وقزان ، وأرض الروم ، وأفغانستان ، وإيران ، وجزيرة العرب ، والشام ، وبنى عام ١٢٩٠هـ عمارةً فخمة ذات ثلاثة طوابق لزاويته في المدينة المنورة ، تُعرف بالرباط المظهري وتقع بين باب النساء والبقيع.

وكان ابنه الثالث الشيخ محمد عمر (١٢٤٤ ـ ١٢٩٨هـ) الذي أَنجب الشيخ أبا الخير المُجدِّدي.

---

(١) نزهة الخواطر : نقلاً عن «تذكره بي مثل راجكان راجور» لمرزا ظفر الله خان ، ص ٥٠٨ ـ ٥٢١ .

(٢) راجع لترجمته المفصلة ، «نزهة الخواطر» ج٧.

الشيخ عبد الغني:

هو أخو الشيخ أحمد سعيد الصَّغير ، ولكنه الكبيرُ مَنزلةً ، وهو المُحدِّث الجليل الشيخ (عبد الغني بن أبي سعيد) وُلد في سنة ١٢٣٥هـ ، جمَع بين تدريس الحديث الشريف ، والتَّربية والتَّسليك بحيث يَتعذَّر نظيرُه باستثناءِ الشيخ (عبد العزيز الدهلوي).

كان ـ مع تَحليه بِنعمة الصفاء الباطني والنِّسبة المجدِّدية وشِياخة الطرق ـ انتهتْ إليه رئاسة التدريس في الحديث الشريف في الهند والحجاز وتخرَّج على يديه أعلام العلماء ، كالشَّيخ الأجل الإمام محمد قاسم النَّانُوْتَوِي ، ـ مؤسِّس دارِ العلوم دِيُوبَنْد ـ والشَّيخ المحدِّث الكبير العلامة رشيد أحمد الكَنْكُوْهِي ، وانتشَر به عِلْمُ الحديث ، وأصبحتْ مدرستا دار العلوم بديوبَند ، ومظاهر العلوم بسَهَارَنْفُور ، العظيمتان مركزاً لتدريس الحديث الشريف.

ولمَّا وقعتْ كارثةُ عام ١٨٥٧م هاجرَ من الهند مع أخيه الأكبر إلى المدينة المنوَّرة وأقام فيها ، وأَحيا سُنَّة العلامة الشيخ (علي المُتَّقي) مؤلِّف «كنز العمَّال» فاشتغل ـ طوال عمره ـ بخِدمة الحديث الشريف في الحرمين الشريفين ، وأفاد الطلاب ـ عرباً وعجماً ـ حتى تُوفي سنة ١٢٩٦هـ ، ودُفن في البقيع [1] ، له ذَيل نفيس على «سنن ابن ماجه» سمَّاه «إنجاح الحاجة على سنن ابن ماجه».

ومِن مَشاهير خلفاء الشيخ عبد الغني الشيخ (عبد الحق الإله آبادي)

---

(١) ألَّف تلميذه النجيب الشيخ محمد يحيى التُّرهَتي في سيرته وسير مشايخه كتاباً مستقلاً بالعربية ، أسماء «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» ، وترجم له العلامة عبد الحي الحسني الإدريسي الكَتاني الفاسي في الجزء الثاني من كتاب «فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات» ، فجاءت ترجمته في أربع صفحات من القطع الكبير (طبع المطبعة الجديدة بطالعة فاس سنة ١٣٤٧هـ) قال فيها: أخذ عن الشيخ عبد الغني الناس بالحجاز والهند والمغرب ، طبقة بعد طبقة.

المهاجر إلى مكة المكرمة المعروف بـ «صاحبِ الدلائل» (المتوفى سنة ١٣٣٣ هـ) والشيخ أبو أحمد المُجدِّدي البُوفالي (م ١٣٤٢ هـ)، والشيخ رفيعُ الدين الدِّيوبَندي ـ العميد الأول لدار العلوم ديوبند ـ (المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ) الذي نال منه المفتي عزيزُ الرحمن الدِّيوبَندي (المتوفى سنة ١٣٤٧ هـ) الإجازَة والخلافة.

وأَقفرتْ هذه الزاوية ـ العامرة من نصف قرن ـ بعد هِجرة الشيخ أحمد سعيد والشيخ عبد الغني إلى مكة المكرمة، وأخيراً عَمرها وأعاد إليها الحياة سليلُ هذه الأسرة العظيمة وأحد المشايخ الأجلاء الشيخ (أبو الخير المجدِّدي) (١٢٧٢ ـ ١٣٤١ هـ) الذي كان حَفيداً للشيخ أحمد سعيد، فأمَّ هذه الزاوية ـ في مدة قريبة ـ القاصي والداني، وأصبحتْ مرجعاً للطالبين المسترشدين.

* * *

وتَفرَّقتْ أُسرة الإمام السَّرهندي العالية في جِيلها الرابع والخامس في مختلف أقطار العالم وأنحائه، وكان في ذلك مصالحُ كبيرة، من اجتنَابِ مجاورة قبور الآباءِ الكرام ـ التي أصبحتْ عادةً عند كثير من خلفاء المشايخ الصوفية، وظهرتْ مفاسدها وعُيوبها الكثيرة ـ ونَشْرِ الطريقة المجدِّدية، والقيام بالدعوة والتربية في البلاد النائية، فأقامَ فرعٌ من فروع هذه الأسرة في عِزٍّ ووقار، وإفادة وإرشاد، بكابُل ـ وكان مركزه الأخير (قلعة جواد) [١]، وكان الشيخ نور المشائخ فضل عمر المجدِّدي المعروف بـ «شَيْر آغا» يَنتمي إلى

(١) وممَّا يؤسف له أن هذا المركز ـ بغزو الجنود السوفيتية والحكومات الأفغانية الاشتراكية ـ عاد خراباً بلقعاً، واعتقل علماؤه، ومشائخه، وطردوا من بلادهم، وكان المؤلف قد سعد بزيارة هذا المركز عام ١٩٧٣م وكان عامراً ناضراً، راجع كتاب المؤلف «من نهر كابل إلى نهر اليرموك»، ص ٤٢ ـ ٤٣ [ورحلات العلاّمة أبي الحسن علي الحسني الندوي مشاهداته ـ محاضراته ـ لقاءاته ـ انطباعاته». جمع وإعداد المعتني بهذا الكتاب، ص ٢٣٤، طبع دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م)].

هذا الفرع ، وقد تجاوز عددُ مريديه المئات ، وكانوا منتشرين في الهند وباكستان [(١)] .

وكان أَخوه الأصغر الشيخ (محمد صادق المجدِّدي) ـ سفيرُ أفغانستان في الشرق الأوسط سابقاً ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي ـ يمتازُ بالمكانة المَرموقة في البلدان العربية ، وقد كان لهذين الأخوين مُساهمة فعَّالة رائدة في الحركة التي اضطرت الأمير (أمان الله خان) إلى الاعتزال عن الدَّولة ، وتولية نادر شاه مَكانه .

وكان أحدُ فروع هذه الأسرة الكريمة يَسكُن في قرية (تنده سائين داد) ، بحيدر آباد السِّند ، نَبغ فيه واشتهر الشيخ (محمد حسَن المجدِّدي) وابنه الشيخ الحافظ (محمد هاشم جان المُجَدّدي) .

وتُوجد بعضُ فروع هذه الأسرة في المدينة المنورة ، ومكة المكرمة ، وهي معروفة بتمسُّكها بتقاليد هذه الأسرة الموقرة مع الاشتغال بالوظائف والمهَن الكريمة ، محتفظةً بحُسن الصيت وجميل الذكر .

السِّلْسِلة الأحسنية ومشايخُها الكبار:

وبالرَّغم من أَنَّ الشيخ السيد آدم البَنُّوري من المنتمين إلى طريقة الإمام السَّرْهندي ، وتَلقَّى التربية في أحضانه ، كان مُؤسس طريقةٍ جانبية ، تُسمى لكثير من خصائصها الاجتهادية بالطَّريقة الأَحسنية ، وكان من مظاهر حِكمة الله ـ عز وجل ـ وقُدرتِه أن حَظِيتْ هذه الطريقةُ العالية التي أُسِّست بيدِ رَجُلٍ أميٍّ ، بكثير من العلماء النابغين ، والمحدِّثين البارعين ، وأساتذة عصرهم ، والقائمين بنشر الكتاب والسنَّة والدعاة والمصلحين ، ومؤسسي المدارس الدينية الكبيرة ، والمؤلِّفين والباحثين المحقِّقين ، وهو في ذلك على أَثر جَدّه سيد المرسلين ﷺ والسائر على سنته ، والوارث لميراثه ، فقد كان حكيمُ الإسلام (وليُّ الله الدِّهلوي) ، وسراجُ الهند الشيخ (عبد العزيز الدِّهلوي) ،

---

(١) توفي في ٢٥ محرم الحرام ١٣٧٦هـ ، زاره المؤلف بمكة المكرمة ولاهور .

والدّاعي إلى الله المجاهد في سبيل الله الإمام (أحمد بن عرفان الشهيد)، والعلامة (محمد إسماعيل الشهيد)، ومُسنِد الهند الشيخ (إسحاق الدهلوي)، ومُؤسِّس دار العلوم ديُوبَند الشيخ (محمد قاسم النَّانَوْتَوِي)، والعالم الرَّباني الشيخ (رشيد أحمد الكنكوهي)، والمجاهد الكبير الشيخ (ولاية علي العظيم آبادي)، والمُربِّي الكبير الداعي إلى الله الشيخ (عبد الله الغَزنوي الأَمْرَتْسَرِي)، ونجلُه الشيخ (عبد الجبَّار الغزنوي الأمرتسري)، كُلُّهم يَنتمون إلى الطريقة المجدِّدية النَّقشبندية، بوساطة المشايخ الكبار للطريقة الأَحسنية، وكانوا أصحَاب الإجازة والخلافة فيها.

وكان خُلفاء الشيخ آدم البَنُّوري في عددٍ كبير يتعذَّر إحصاؤُهم في هذا الباب، وقد ورَدت هذه الأسماء التالية في «نزهة الخواطر» لأصحاب الشيخ آدم البَنُّوري من مريديه ومسترشديه، وحامِلي نسبته، وبعضُهم ممن نال منه الإجازة والخلافة وهم:

ديوان خَواجه أحمد النَّصير آبادي (المتوفى سنة ١٠٨٨هـ)، والشيخ بايزيد القَصوري (المتوفى سنة ١٠٩٠هـ)، والشيخ فتح الله السَّهَارَنْفُورِي (المتوفى سنة ١١٠٠هـ)، والشيخ سعدُ الله البَلْخَاري اللاَّهوري (المتوفى سنة ١١٠٨هـ).

ولكن انتشرتْ هذه الطريقة بهؤلاء الأعلام الأربعة الذين كانوا مِثالاً كاملاً لتربيته واجتهاده وتعليمه، وصورةً حية لتأثيره وإفادته، وهم: الشيخ السيد علمُ الله الحسني (١٠٢٣ ـ ١٠٩٦هـ)، والشيخ سُلطان البَلْيَاوِي، والشيخ الحافظ السيد عبدُ الله الأكبر آبادي، والشيخ محمد شريف الشاه آبادي.

الشَّيخُ السيد عَلَمُ الله الحَسني وأسرته:

قال الشيخ آدم البَنُّوريُّ للشيخ عَلم الله الحسني عند توديعه «سرْ على بركة الله، وتَصدَّ للتربية والإرشاد بجَمعِيَّةِ القلب وطُمأنينة البال، فإنَّك سَتكون بين

مشايخ ولاية «أَوَدْه» كالشَّمس بين النجوم»[١].

ويقول عنه الشيخ: محمد أمين البَدْخَشي ـ خليفةُ الشيخ آدم البَنُّوري ومن خواص أصحابه ـ: «لا يسمحُ لرائحةِ الدنيا أن تَمُرَّ ببابه، وقد طبَّق صيتُه لِوَرعه واستقامته الهندَ والبلدان العربية... وأكثرُ الناس الذين يرونه يقولون: لعلَّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا هكذا»[٢].

ويقُول مؤلِّف «البَحر الزخَّار» في ترجمته:

«إنَّ المجاهداتِ الشاقة التي ظهرت من هذا النابغة الفريد في النُّفور من الدنيا، واتباعِ السنة النبوية ـ صلى الله على صاحبها وسلم ـ ينذُر مثلها بعد الصحابة الكرامَ ـ رضي الله عنهم ـ في الأولياء والمشايخ المتأخرين»، ويقول: «إنه لما سافر إلى (مكة المكرمة) و(المدينة المنورة) للحج والزيارة، كان الناس عندما يشاهدون جِده واجتهاده وقُوَّته على الطاعات، وكمالَ اتباعه للسنَّة، والأخذ بالعزيمة، يقولون: «هذا كأبي ذرٍّ» حتى سارتْ هذه الكلمة مسيرَ الأمثال على ألسنةِ الناس».

وكانتْ نتيجة هذا التمسك الشديد بالسنَّة النبوية، أن رَأى السلطانُ (عالمكير) في المنام ليلة وفاته، أن الرسول ﷺ تُوفي، فاضطربَ، وأهمّه هذا الأمر، فعَرض على العلماء والمشايخ، وسألهم تأويلَه، فأولوه بأنه تُوفي في تلك الليلة من كانت له نِسبة صحيحة بالنبي ـ ﷺ ـ وقَدَمٌ راسخة في اتِّباعه، ثم أُخبر بأن السَّيِّد علمَ اللهِ تُوفيَ في تلك الليلة، فأجمع العلماء على أنه هو المعبَّر عنه بذلك المنام»[٣].

---

(١) راجع لترجمته المفصلة «سيد أحمد الشهيد» (بالأردوية) للشيخ غلام رسول مهر، ج١، و«سيرة سيد أحمد شهيد» ج/١، للمؤلف، و«تذكرة شاه علم الله» للأستاذ محمد الحسيني، وراجع أيضاً «أنفاس العارفين» للإمام ولي الله الدهلوي.

(٢) نتائج الحرمين: رواية الشيخ عبد الحكيم.

(٣) انظر «نزهة الخواطر»، ج٥، و«البحر الزخار» للشيخ وجيه الدين أشرف وقد جاء فيه =

واستمرَّتْ هذه الطريقةُ الأَحسنيةُ في أُسرته ، والتي نَبغ فيها من العلماء والمشايخ الكبار كابنِه الرابعِ الشيخ السيد محمد (١١٥٦هـ) وابنه الشيخ السيد محمد عَدل المعروف بشاه لَعَلْ (المتوفى سنة ١١٩٢هـ) ، والشيخ السيد محمد صابر بنِ الشيخ علم الله (المتوفى سنة ١١٦٣هـ) ، والشيخ أبي سعيد بن السيد محمد ضياء بن السيد آية الله بن السيد علم الله (١١٩٣هـ) والسَّيد محمد واضح [١] بن السيد محمد صابر ، والسيد محمد ظاهر الحسني (المتوفى سنة ١٢٧٨ هـ) ، والسيد خواجه أحمد بن السيد ياسين النصير آبادي ، والشيخ السيد ضياء النبي الحسني (المتوفى سنة ١٣٢٦هـ) الذي نَفع الله بهم خلائقَ لا يحصون، وتاب على أيديهم الألوف المؤلفة، وفازوا بنِعمة الإيمان والإحسان، والتمسُّك بالشريعة الإسلامية، واتباع السنَّة النبوية، ونبذِ البِدَع والمحدثات [٢].

الشَّيخ سُلطان البَلْيَاوِي:

كان الخليفةُ الثاني للشيخ آدم البَنُّوري الشيخ سلطان البلياوي ، ويُستفاد من «نتائج الحرمين» أنه كان من أَجلَّة خُلفاء الشيخ البَنُّوري ، وكبار أصحابه ، ويُذكر اسمُه قريناً باسم الشيخ علم الله الحسني.

الشَّيخُ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادي والطريقة الولي اللهية:

وكان الخليفة الأجلُّ الثالث للشيخ آدم البنوري ، الذي انتشرت به هذه الطريقة في أوسع نطاق، هو الشيخُ الحافظ السيد عبد الله الأكبر آبادي [٣].

وكان والدُ الإمام وليّ الله الدِّهلوي، الشيخ عبد الرحيم

= المنام مفصلاً ، و«در المعارف» للشيخ رؤوف أحمد المجددي ، ص ٤٦ ، وذكرت فيه هذه الرؤيا الصادقة إجمالاً.

(١) توفي في بداية القرن الثالث عشر الهجري.

(٢) راجع لتراجمهم «نزهة الخواطر» ج ٦ ـ ٧.

(٣) راجع للاطلاع على ترجمته ومناقبه الجليلة «أنفاس العارفين» ، ص ٦ ـ ١٥ ، ألفه ولي الله الدهلوي في ترجمة والده ، وتناول فيه حياته وأعماله وتراجم أسرته بتفصيل ، وطبع عام ١٣٣٥هـ بمطبعة مجتبائي ، انظر ١٥ ـ ٨٧.

الفاروقي (م١١٣١ هـ) خليفتَه ، تلقَّى عنه التربية الروحية ، يَنتمي إلى هذه الطريقة الأحسنية المجددية في سلسلة الإمام ولي الله الدِّهلوي ، وسراج الهند الإمام عبد العزيز الدِّهلوي ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، وعن طريقة الشيخ الحاج عبد الرحيم الولايتي الشهيد ، والشيخ نور محمد الجهنجانوي ، وعن طريقِه شيخ العرب والعجم الشيخ الأجل إمداد الله التَّهانَوِي المهاجر إلى مكة المكرمة ، وخُلفاؤه الشيخ محمد قاسم النانوتوي ، والشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، والمُصلح الكبير الشيخ أشرف علي التَّهانوي ، ثم عن طريق الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي ، شيخُ الهند الشيخ محمود حسن الدِّيُوبَنْدِي ، والشيخ عبد الرحيم الرَّائي بُوري ، والشيخ خليلُ أحمد السَّهارنبوري ، والمجاهدُ الكبير السيد حسين أحمد المدني .

ومن خلفاء الشيخ عبد الرحيم الرَّائي بُوري : الشيخُ عبد القادر الرَّائي بوري ، ومن خلفاء الشيخ خليل أحمد السهارنبوري : الداعيةُ الكبير محمد إلياس الكَانْدهلوي ، مُؤسِّس «جماعة التبليغ» ، والعلاَّمة المحدِّث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب «أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك» ، و«حَجَّات النبي ﷺ وعُمراته» ، وكُتبٌ كثيرة ، وكُلُّهم من أصحاب الإجازة والخلافة في هذه الطريقة .

ونَقل الشيخ غلام علي وصفَ الشيخ (مرزا مظهر جان جانان) للإمام الدِّهلوي في كتابه «مقامات مظهري» ، فقال :

«إنَّ الشيخَ (وليَّ الله) قد بيَّن طريقةً جديدة ، وله أسلوب خاص في تحقيق أسرار المعارف ، وغوامِض العلوم ، وإنه ربَّاني من العلماء ، ولعلَّه لم يوجد مثله في الصوفية المحقِّقين ، الذين جمعوا بين عِلمي الظاهر والباطن، وتكلَّموا بعلوم عديدة ، إلاَّ رجالٌ معدودون»[١] .

---

(١) نزهة الخواطر : ج ٦ ، ص ٤٠٥ ، نقلاً عن «مقامات مظهري» طبعة المطبع الأحمدي ص ٦٠ ـ ٦١ .

ولمَّا وَقف إمامُ العلوم العقلية العلامةُ فضل حق الخير آبادي على كتابه «إزالة الخفاء» قال بمَحضر من تلامذته: «إنَّ الذي صنف هذا الكتاب لَبَحْرٌ زَخَّار لا يُرى له ساحل».

أمَّا سِراجُ الهِند الإمامُ عبد العزيز الدِّهلوي فإنَّه نادرةُ عصره في نبوغه وبراعته في العلوم العقلية والعلوم النقلية، والفُنون الأدبية ـ في حين واحد ـ وانهماكه في التدريسِ والإفادة، ونَشر علم الحديث، والإفاضة الباطنية، والتربية الربانية، وسَيلان قَلمه في التأليف، وحَلاوة منطقه ومَلاحةِ كلامه، ورحابة صدره، وجميل عِشْرته، وتوجُّعه للأمة الإسلامية الهندية واهتمامِه بها، وعموم إفادته، وكثرة فيوضه، ويَنْدُر نَظيره في أنحاء العالم الفسيحة، والأقطارِ النائية[١].

الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجماعته:

أمَّا الإمام (أحمدُ بن عرفان الشهيد) الذي كانتْ له صِلَةٌ خاصَّةٌ بالطريقة الأحسنيَّة المُجدِّدية، فقد أُلِّفت حوله كُتبٌ ضخمة، يكفي الاطلاع منها على كتاب «سيد أحمد شهيد» للمؤرِّخ الباكستاني الشهير الأستاذ غلام رسول مَهَرْ في أربعةِ أجزاء، و«سيرة سيد أحمد شهيد» للمؤلف في جزءين[٢]، ونَكتفي هُنا للإشارة إلى تأثيرِه العميق في عَصْره وفي تاريخ الهند، وما أَنجز الله ـ تعالى ـ على يديه من هِدايةٍ عامة شاملة، ونَشْرٍ للدعوة الإسلامية وحفاظٍ على خصائص الإسلام ومَيِّزاته، ببعض الشهادات.

---

(١) راجع للاطلاع على أحواله ومناقبه العظيمة بتفصيل وإفاضة «نزهة الخواطر» ج٧.

(٢) وكلاهما بالأردوية، وللمؤلِّف كتاب بالعربية بعنوان «إذا هبت ريح الإيمان» يتحدث عن دوره العظيم، وجهوده الموفقة في إقامة الدولة الإسلامية في أسلوب قصصي مشرق [طبع في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م]، وكتيب آخر بعنوان «الإمام الذي لم يوف حقه من الإنصاف والاعتراف» [انظر هذا الكُتيب في كتاب «من أعلام المسلمين ومشاهيرهم» ص١٢٢، طبع دار ابن كثير بدمشق]. ردَّ فيه على الشبه المثارة حوله، وصدر لها أكثر من طبعة في الهند ومصر.

يقولُ معاصِرُه العالِمُ الجليل الشيخُ (عبد الأحد) الذي له خِبرةٌ واسعة بأحوال الهند وأخبارها:

«أَسلمَ على يديه أكثرُ من أربعين ألف شخص من الهَنادك والكُفار، وبايعه ثَلاثَة ملايينَ من المسلمين، ولو وَضعنا في الاعتبارِ سلسلة البَيعة والإرشاد التي لا تَزال مُتصلة الحلقات، وتجري حتى اليوم على أرضِ الله عن طريق أتباعهِ وأتباع أتباعِه، ليكون قد دخلَ في بَيعته مَلايين الملايين من الناس».

ويَقول مؤلِّف الهند الشهير العلامة السيِّد صِدّيق حسن خان القَنَّوْجِي أميرِ بوفال (م١٣٠٧هـ) - الذي شاهدَ آثار تربيته وإرشاده، واطَّلع عليها عن كَثب، وعاصَر كثيراً ممن شاهدوه وصحبوه - في كتابه «تقصار جيود الأحرار»:

«إنَّه كان آية من آيات الله تعالى في هِداية عباده، وإصلاح حالهم، والرُّجوع بهم إلى الله وعبادته، وبلغ خَلْقٌ كثير وعالم بأسرِه إلى درجة الربانية و«الإحسان» بتعليمِه وتربيته، وتزكيته القلبية والجسمية، وتطَهَّرتِ الهند من أدناس الشرك والبِدع والخرافات والأوهام، بفَضْلِ مواعظ أصحابه وخُلفائه، واهتدت إلى جادة الكتاب والسنة، ولا تَزال مواعِظُه وتعاليمه تفعل فِعلها وتُؤتي أُكُلَها»، إلى أن قال:

«وقُصارى القول: إننا لا نعلم رجلاً يُدانيه في جلالة شأنه وفضله في أيِّ جُزء من أجزاء العالم المعاصر، وما جَناه الخَلْق من المنافع الإيمانية والمكاسب الروحية من هذه الجماعة الحقة، لم يَنالوا مِعشاره من العلماء والمشايخ المعاصرين الآخرين».

وإنَّ أعلام مشايخ دِيُوْبَنْـدَ، وصادِقْپُـور [1]، - كما تقدَّم من قبل - يَنتمون

---

(١) «صَادِقْپُور»: حيٌّ من أحياء مدينة (پَـتْـنَـهْ)، كان مركزاً مهماً لدعوة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وجهوده الإصلاحية، وواصل أهله مهمة هذه الحركة إلى أن قضت عليها الحكومة الإنجليزية قضاءً كاملاً، وصبت عليها كأس غضبها وحقدها، كان من أشهرهم وأرفعهم مكاناً الشيخ ولايت علي العظيم آبادي، والشيخ يحيى علي، =

إلى الطريقة المجددية النقشبندية ، وحَصلوا على الإجازة والخلافة فيها عن طريق الإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، ولا يَستطيع أنْ ينكر فضلهم وجهادَهم في نشر العلوم الدينية، وتأسيسِ المدارس الإسلامية، وجُهودِهم العظيمة في سبيل الدعوة والتربية والإرشاد ، وأعمالهم الإصلاحية الواسعة النطاق في شِبه القارة الهندية ، إلاّ جاحدٌ مُكابِر.

* * *

وكلُّ ذلك من نتائج العمل الإصلاحي التَّجديدي الذي قام به الإمام السَّرْهندي وثِمارِه اليانعة الجنية ، لأنّه هو الذي شق الطريق أمام الناس في فترة القرن الحادي عشر الهجري الحَرِجة الشائكة المليئة بالفِتَن والأخطار، وهيأ الجوَّ المُلائم وغيَّر مجرى الأحداث للعَمل الإسلاميِّ العظيم ، وأيقظ النائمين ونبّه الخاملين ، ونفخ في جسم الأمة الإسلامية الهامدة رُوحاً جديدَة ، وعاطِفة فياضة ، وربَّى أمة سهرت على الدين والحفاظ عليه ، وحَفظت بلوعَةِ قلبها ، وحرارةِ نَفْسِها ، ونُورِ باطنها شُعلَةَ الإيمان واليقين مُضيئةً مُلتهبةً.

واستمرَّتْ هذه الشعلة تَنتقِلُ من جيل إلى جيل ، تُلهب النفوس وتُضيء القلوب ، ولم تَعُدِ الجاهلية والكفر ، والشرك والوثنية ، والمنكرات والبدع ، تَنشرُ جناحها الأسود المظلم ، وظِلَّها الكثيف الثقيل على المجتمع الإسلامي الهندي ، كما نُشرت في القرن العاشر الهَجري ، وحُقَّ لمن انتمى إليه ـ مبَاشرة ـ أو بواسطة ـ أن يقول في ثِقة واعتزاز:

أَولئكَ آبائي فجِئْني بمِثْلِهم ... إذا جَمَعتْنَا يا جَريرُ المَجامِعُ

= والشيخ أحمد الله ، والشيخ عنايت علي الغازي ، والشيخ عبد الله ، أمير جماعة المجاهدين (جمرقند) والشيخ عبد الرحيم الصادقبوري ، وكان شعارهم الجمع بين عقيدة التوحيد الخالصة ، والعمل بالحديث الشريف ، والاشتغال بالذكر ، والتزكية والجهاد في سبيل الله.

مُؤلَّفات الإمام السَّرْهندي ورَسائِله:

وللإمام السرَّهندي مؤلفاتٌ ورسائل أكثرها بالفارسية ، وأشهرُها وأنفعها مجموع رسائله التي تسمَّى «مكتوبات إمام الربَّاني» ، وهي مِنْ أَعظم مآثِره العلمية والإصلاحية والتجديدية ، وتصويرٌ حيٌّ لعواطفه ، ومشاعِره ، وبها تُعرف مكانته في التجديد والإصلاح ، وبُلوغه درجَة الاجتهاد والإمامة في المَعارف الإلٰهية والعلوم الدقيقة ، والانتصار للكتاب والسنة ، وهي مَليئةٌ بالتحقيقات العالية ، والنُّكتِ البديعة التي لا يُوَفَّقُ لها ولا يُخَصُّ بها إلا الأفذاذ من العدول ، الذين يَنفُون عن هذا الدين تَحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، وانتحالَ المُبطلين ، عَبر القرون والأجيال ، ويَحتاج الحديث عن مكانتها العلمية ، وتَعيين درجتها في الأدب الفارسي إلى كتاب مُستقل ، قلَّما حظي مجموعٌ من الرسائلِ في الآداب واللغات التي نَعرفها بالقبول والانتشار وعُني بالدراسة والتأمُّل مثلما حَظِي هذا المجموع ، وقد تُرجم إلى العربية والتركية ، وَقُرِّر ككتاب دراسي في المراكز العلمية والروحية ، وعَكف عليه العلماءُ والسالكون واشتغلوا به وردَّدوه ، ولا يزال ـ إلى يومنا هذا ـ غَضّاً طَرِيّاً ، كأنّ الرسائل كُتبت اليوم.

وَيقع هذا المجموع في ثلاثة أجزاء ، وعَددُ هذه الرسائل يبلغ ٥٣٦ رسالة ، وطُبعتْ مجاميع هذه الرسائل عدةَ طَبعات في مختلف السنوات ، ولا يزال يُعاد طَبْعُها.

ومِنْ رَسائله:

١ ـ «إثبـاتُ النُّـبوة» .

٢ ـ «رد الروافض» ، وهو رد على بعض علماء الشيعة الإيرانيين ، أُلفت حوالي سنة ١٠٠١هـ ، وقد شرح الإمام ولي الله الدهلوي هذه الرسالة ولم تطبع بعد .

٣ ـ «الرسالة التهليلية» (بالعربية) فرغ من تأليفها في عام ١٠١٠هـ ، وهي مطبوعة مع الترجمة الأردوية .

٤ ـ «شرح رباعيات» وللإمام ولي الله الدهلوي شرحٌ له ، باسم «كشف العين في شرح رباعيتين» وكلاهما مطبوع .

٥ ـ «معارف لدنية» بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندي وتحقيقاته الخاصة في علم السلوك والطريقة ، ألفه عام ١٠١٥هـ. ويبلغ عدد هذه المعارف ٤١ معرفة ، والكتاب مطبوع عدة طبعات .

٦ ـ «المبدأ والمعاد» بالفارسية ، يشتمل على معارف الإمام السرهندي وعلومه ، وتبلغ هذه الفصول ٦١ فصلاً ، والكتاب مطبوع ، وقد تَرجم الشيخ مراد المكي هذه الرسالة إلى العربية ، ونُشرت هذه الترجمة مع مجموعة رسائله المترجمة إلى العربية في الحاشية .

٧ ـ «مكاشفات عينية» بالفارسية ، والكتاب مطبوع .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلى الله على نبيه محمد وآله وأصحابه وأهلِ بيته ، ومَن تَبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

الإمامُ الدِّهْلَوِيُّ

(١١١٤ ـ ١١٧٦ هـ)

حياة حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم
المعروف بالشيخ وليّ الله الدّهلَوي
والتعريف بالدّور الإصلاحي التجديدي، القيادي الاجتهادي
الذي قام به في مجال العِلْم والعمل والتفكير والتأليف

الجزء الرابع

تعريب

الأستاذ سلمان الحُسَيْنِي الندوي
أستاذ الحديث بكلية الشريعة وأصول الدين
في دار العلوم ـ ندوة العلماء (لكهنؤ)

كلمة المؤلِّف

الحمدُ لله رب العالمين ، والصَّلاةُ والسلام على سيِّد المرسلين وخاتم النبيِّين محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين .

أمَّا بعد ، فَيسرُّ المؤلِّف ويُسعده أن يقدِّم للقرَّاء العرب الجزءَ الرابع من كتابه : «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، وهو الجزءُ الخاص بحياة حكيم الإسلام الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدِّهْلوي (١١١٤ ـ ١١٧٦) والتعريف بدوره الإصلاحي التجديدي ، التربوي القيادي ، الذي قام به ووُفِّق له في شبه القارة الهندية ، التي كانت الجزءَ الحاسم الحسّاس من العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر وما بعده ، وبدوره في إحياء الفهم للدين ، وإعادة الحياة والنشاط والحيوية والنموِّ إلى الفكر الإسلامي ، وعرض الشريعة الإسلامية في صورة مُتناسقة شاملة ، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدها وحكمها ، والتطبيق بين العقل والنقل ، وبين الفقه والحديث ، والتوفيق بين المذاهب الفقهية الرئيسية ، وذلك في مجال العالم الإسلامي كلِّه ، والأجيال الآتية كلها .

فهو بذلك استحقَّ دراسة اختصاصية من الباحثين في تاريخ الإصلاح الديني والفكر الإسلامي ، ومن المعنيِّين بالصحوة الإسلامية وربطِ المجتمع الإسلامي

بالأصول الإسلامية السليمة ، والتعاليم الشرعية القويمة ، في كل بلد من بلاد الإسلام ، وفي كل طبقة من طبقات المثقَّفين الإسلاميين ، والعاملين لرفع شأن الإسلام والمسلمين.

إنَّ العمل الضخم المتنوِّع الواسع ، الذي قام به الإمام الدِّهلوي اشتمل على إصلاح العقائد ، ونشر الكتابِ والسنَّة ، والردِّ على المذاهب الدخيلة على الإسلام ، النابتة الطُّفيلية في حَقْلِهِ ، وعلى المحاولة الحكيمة القائمة على الدراسات العميقة ، لجمع شَمل الأمة المحمدية ، بتقصير الفجوة بين المذاهب الفقهية السائدة ، وبين الفقه والحديث ، ورَفع الفجوة بين المنتمين إليها ، وعرض الشريعة الإسلامية وشُعَبها وأبوابها في ترابط ونظام ، وفي تناسق واتِّزان ، يُخيل إلى القارىء كأنَّها لآلىءُ العقد المنظوم ، أو حلقاتُ سلسلةٍ مترابطة ، وعلى رفع القناع عن فوائد الشريعة العملية والاجتماعية والمدنية ، وشرح التعاليم الدينية والهداية السماوية في محيط الحياة الواسع ، وفي سياق العلاقات المشتركة بين الناس ، وصلة الأسباب بالنتائج.

هذا هو الدور القيادي الذي قام به في عهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة الإسلامية في الهند ، وبذل الجهود لإقامة مملكة قوية موطَّدةِ الأركان ، الدور القيادي الحكيم الذي يقوم به أكبر سياسي بصير لا يمتُّ إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأي صلة ، مع عَدم إهمال المجتمع المسلم الذي هو مصدر كل انقلاب صالح وغير صالح ، والحاضنة للقادة والحكَّام ، والأرضية التي تقوم عليها الحكومات والمنظَّمات ، وقد وُفِّق لوضع الأصابع على أمراض طبقاته المختلفة ومواضع ضعفها ، وضرب على الوَتَر الحسّاس ، ودل على مكامن الضعف والانحراف وأنواع الغرور والخداع ، مع توجيه النصائح والملاحظات ، إلى كل طبقة من هذه الطبقات.

ولم يكن كُلُّ ذلك نظرياً وعلمياً فحسب ، ومقصوراً على شخصه الخاص ، فقد ضم إلى كل ذلك تربية الخلفاء والرجال الأكفاء ، الذين قاموا بإكمال مُهمته ، حسب مقتضيات الزمن ، ومُتطلَّبات الدين ، ومدّ دوره

الإصلاحي إلى مَساحةٍ مكانية وزمنية من أوسع المساحات التي قُيِّضت لمصلح ديني ، وعالم مؤلِّف ، مُدرِّس مربٍّ ، مضافاً إلى ذلك كله : إحياء الجهاد في سبيل الله ، ومقاومةُ الخطر على حُرية المسلمين وسُلطتهم .

وبهذا الشمول العجيب ، والتنوّع النادر ، والفكر الإسلامي الأصيل ، والعلم الديني الراسخ ، وفَهْم روح العصر ، والتنبّه للأخطار والتحديات التي كان يتمخّض بها المستقبل ، ولاتزال في ضمير الزمان ، والتَّنبيه عليها ، والدعوة إلى إعداد العدّة لها ، أصبح نموذجاً كاملاً للمصلح الديني ، والمجدِّد الإسلامي في كل بيئة من بيئات العالم الإسلامي ، وفي أوضاع دينية واجتماعية وسياسية ، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً ، وأصبح مدرسة علمية فكرية ، واسعة جامعة ، يتخرج فيها علماء مصلحون ، ومُفكِّرون إسلاميون ، على اختلافِ مستوياتهم ، وتَـنوُّع اتجاهاتهم .

وفي الحقيقة إنَّ هذا العصر هو عصرُ (شيخ الإسلام الحافظ أحمد بن تيميَّة الحرّاني) (المتوفى سنة ٧٢٨ هـ) ، وحكيم الإسلام أحمد بن (الشيخ عبد الرحيم وليّ الله الدِّهلويّ) (المتوفى سنة ١١٧٦هـ)، وذلك لاعتمادهما على الكتاب والسنة ـ اللذين كُتب لهما من الخلود وصلاحية البقاء ما لم يُكتب لنتاج علمي ومدرسةٍ فكرية ـ واعتبارهما الأصل والأساس ، والقائد والنبراس في حل المعضلات والمشاكل ، في العبادات والمعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنية والسياسة ، وتربيةِ النفوس وتزكيتها ، وبما كانا يَدينان به من الحاجة إلى الاجتهاد في كل عصر ، وتجديد الفكر الإسلامي ، وبما كانا يتصفان به من مُقاومة الجمود والتحجّر العلمي والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية ، ويمتازان به من دراسة الديانات غير الإسلامية ، والمذاهب المتزعِّمة للإسلام .

هذا مع ما لا بدَّ منه من اختلاف في المنهج والذوق ، وفي العناصر التي تركبت بها شخصية كل واحد منهما ، وتكوّن بها مزاج خاص ، اختلاف يقتضيه اختلافُ البيئات ، وأساليب التربية ، وطبيعةُ الزمان والمكان ، واتجاهُ الأسر

والآباء ، لذلك كان نشرُ مؤلفات كل واحد منهما وتحقيقاته وتاريخ كفاحه ، ودوره الإصلاحي ، في مكانه وأوانه.

وقد سَبق للمؤلِّف وَضْعُ كتاب خاص بحياة شيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيميَّة ، كوّن الحلقة الثانية من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» (١)، وأَتبعَ ذلك بإصدار كتاب خاص بالإمام السَّرهندي الشيخ أحمد بن عبد الأحد (٩٧١ ـ ١٠٣٤ هـ) يُكوِّن الجزء الثالث من سلسلة «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وقد صدر في سنة ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣م)، وهو إمام من كبار أئمة الإصلاح والتجديد في تاريخ الإسلام الطويل ، وقد كُتب له من النجاح في أهدافه الإصلاحية والتجديدية ما قل لمصلح آخر في الماضي ، فقد قضى على بعض الفتن التي كادت تقضي على الإسلام ـ لولا قضاءُ الله ببقائه وكفالته بحفظه ـ وجلّىٰ بعضَ الحقائق الدينية الرئيسية ، والحاجةَ إلى النبوة ، وفضل الأنبياء ، وإعادةَ الثقة والإيمان بالنبوة المحمدية ، تجليةً لم تُؤْثَر عن مصلح آخر ، وغيَّر مجرى التاريخ في شبه القارة الهندية ، وحوَّل وُجهة الإمبراطورية المغولية ، من الفكر والإلحاد والبَرهمية ووحدة الأديان ، إلى الدين الحنيف والشريعة الإسلامية السَّمحة ، ذلك كله بطُرق حكيمة سلميّة ، وأساليب دعوية تربوية ، وربَّانية صادقة خالصة.

وها هي الحلقة الرابعة من هذه السلسلة الذهبية ، يَسنُدُ بعضها بعضاً ، وكلها مترابطة متناسقة ، تَدلُّ على أن شجرة هذا الدين تُؤتي أُكُلها كلَّ حين ، وعلى أن خليته لا تنقطع عن التَّعسيل ، وكنانته لا تنفد ولا تخطئ سِهامها..

وقد وضعَ المؤلِّف هذا الكتاب أصالة في الأردو ، لغة شبه القارة الهندية ، العلمية والتأليفية ، التي يَفهمها أكثر من مئتي مليون إنسان في شبه القارة

(١) صدرت الطبعة الأولى للكتاب من دار القلم (الكويت) سنة ١٣٩٥ هـ والثالثة سنة (١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣ م).

وخارجها ، والتي ابتدأ المؤلِّف وَضع هذه السلسلة التاريخية فيها ، وقد قامَ بنقل الجزءين الثالث والرابع من هذه السلسلة[١] العزيزُ الأستاذ السيد سلمان الحُسيني النَّدوي من أساتذة دار العلوم ندوة العلماء خيرَ قيام ، استحق به دعوات المؤلف بطول حياته وحسنِ توفيقه ، وشكرَ القرَّاء ، وفوق كل ذلك ، رضا من الله وحسنَ ثوابه.

أرجو أن يَنال هذا الكتاب مكانهُ اللائق في المكتبة الإسلامية الحديثة ، وفي أوساط الدارسين والباحثين ، والمعنيين باليقظة الإسلامية والإصلاح الديني ، وعلى الله قصدُ السَّبيل.

أبو الحسن علي الحسني الندوي

دارة الشيخ علم الله الحسني
رائي بريلي ، ١٣ من جمادى الآخرة
سنة ١٤٠٥ هـ

---

(١) قام بنقل الجزء الثاني من هذه السلسلة وهو الجزء الخاص بشيخ الإسلام الحافظ أحمد ابن تيمية، الأستاذ الدكتور سعيد الأعظمي الندوي، أحد أساتذة دار العلوم الكبار، ورئيس تحرير مجلة «البعث الإسلامي» وجزاه الله خيراً.





البَابُ الأوَّلُ

العالم الإسلامي في القرن الثاني عشر الهجري

العالمُ الإسلاميُّ
في القَرن الثاني عَشرَ الهِجري

أَهمية دِراسة أوضاع البلاد الإسلامية وتطوراتها وأحداثِها في القرن الثاني عشر الهجري:

لقد صرَّح مؤلِّف هذا الكتاب في بداية الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة» الذي يختصُّ بحياة الإمام أحمد بن عبد الأحد السَّرهندي (٩٧١ - ١٠٣٤ هـ) وتاريخ عصره ومآثره الإصلاحية والتجديدية العظيمة ، وهو يُشير إلى أهمية الدراسة التاريخية للقرن العاشر الهجري (الذي وُلد فيه الإمام السَّرهندي ، ونشأ نشأته العقلية والعلمية) بما يلي:

«ويَنبغي - ونحن في هذه الدراسة - ألاَّ نغفل حقيقةً ذات شأن ، وهي أن العصر الذي يُولد فيه الإنسان ، والعالَم الذي يُعاصره ، والمجتمع الإنساني الذي يعيش فيه ، هو كالنهر الجاري ، تتصلُ كلُّ موجة فيه بالموجة الأخرى ، وتتَّسق معها ، فلا يمكن لأجلِ ذلك أن يبقى بلد - مهما كان نائياً ، يعيش في عزلة عن سائر العالم - غير متأثِّر بالأحداث الخطيرة والثوراتِ العظيمة والقُوى المتحاربة ، والحركات المؤثِّرة القوية التي تجري في بلدان العالم الأخرى ، لاسيما إذا كان مركز هذه الأحداث والوقائع ، والثورات والتطورات ، بلداً يشاركهُ في العقيدة والمذهب والمشرب ، ويجاوره في المكان ، ولذلك فلا يجوز للمؤرخ البصير في هذه الدراسة التاريخية أن يقتصر على الهند

فحسب ، بل يَلزمه أن يُلقي نظرة عامة على العالم الإسلامي كُلِّه في القرن العاشر ، لاسيَّما البلدان المسلمة المجاورة التي كانت بينها وبين الهند أواصرُ علمية ودينيَّة وحضارية ، وكانت تصل إليها لَفحاتُها الشديدة اللاذعة ، ونَفحاتها الرَّخيَّة الناعمة على بعد الدار وطول المسافة»[١] .

إنَّ الحاجة إلى مراعاة هذه الحقيقة التاريخية ، وتطبيق هذا الأصل المهم في دراسة حياة الدهلوي ، وإلقاءَ الأضواء على أعماله التجديدية الكبيرةِ أشدُّ وأكثر ، إذ إنَّ تربيته الفكرية والعلمية تَدين لبلاد الحرمين الشريفين ، وأن لهما الدورَ الأساسيَّ في تكوين عَقليته وثقافته ، حيث أقام الإمام الدِّهلوي أكثر من عام واحد في الفترة الواقعة بين ١١٤٣ ـ ١١٤٤ هـ[٢] ، ودَرَسَ علم الحديث الشريف على المحدِّث الشيخ أبي طاهر محمد بن إبراهيم الكُردي المدني ، أحد أئمة الفنِّ وعُلماء الحديث الكبار في عصره ، الذي كان يؤُمُّه طلاب الحديث من مختلف الأقطار والأمصار ، وتخرَّج على يديه وأسندَ عنه جميع مروياته ، وجالس علماء الحرمين الشريفين (الذين كانوا من مختلف البلدان الإسلامية والعربية) وصَحِبه مدة من الزمن .

وقد كان الحجاز آنذاك في ولاية الدولة العثمانية وإدارتها ، وكان أشرافُ مكة يتبوؤون منصبَ الإمارة كنُوّابٍ عن السلاطين العثمانيين ، وقد كان الحَرَمان الشريفان ـ لاسيما المدينة المنوَّرة عل صاحبها الصلاة والسلام ـ اللذان يجمعان في أيام الحج في رحابهما كلَّ عام صفوة أصحاب العقول النَّيرة والقلوبِ الصافية ، يتهافتون عليهما تَهافُت الفراش على النور ؛ مركزاً دائماً لعلم الحديث الشريف ، حيث يلتقي طلاب هذا العلم وهُواته من كل بقعة من بقاع العالم الإسلامي .

---

(١) رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، الجزء الخاص بـ«الإمام السرهندي ـ حياته وأعماله» .

(٢) لقد كان الإمام الدهلوي وصل إلى الحجاز في أواخر عام ١١٤٣هـ وعاد منها إلى الهند في أوائل عام ١١٤٥هـ ، وحج حجتين .

وكان من الميسور لمن يُقيم بها أن يستعرض العالم الإسلامي كُلَّه ويدرسه روحياً وعلمياً ، وخُلقياً واجتماعياً ، ومَدنياً وسياسياً ، وأن يُقدِّر ـ بسهولة ـ رُقيَّ البلدان الإسلامية والعربية ، وازدهارها ، أو سقوطها وانحطاطها من هذه النواحي كلِّها ، ويطَّلع على مُختلف رجالها وشخصياتها ونوابغها، وحركاتها ودعواتها الإصلاحية، وما يُبذل فيها من جهود بناءة ومثمرة ، وما تحاك فيها وتُبيَّتُ من مؤامرات مُفسدة مُدمِّرة .

بل كان من الممكن أن يجسَّ نبضَ العالم الإسلامي ويُقدر سيره ويسمعَ خفقات قلبه ، ومن اللازم أن إماماً نابغة كالإمام الدهلوي في ألمعيَّته وتوقُّد ذكائه ، ولَوعة قلبه وتوجُّعه ، يكون قد استفاد من كل ذلك ، وتأثَّر به ، واستخدمه في توسيع نطاق فِكره وبُعدِ نظره ، وآفاقية دعوتهِ وفلسفته ومنهجه.

زِدْ على ذلك أنَّ الهند كانت ـ عبر قرون وأجيال ـ مجالاً للغزاة والفاتحين من الأُسر الأفغانية والتركية بآسيا الوسطى ، ولم تزلْ هذه البلاد تحت وصايتهم سياسياً وإدارياً ، وهم الذين كانوا يُزوِّدون حكوماتها الضعيفة النحيلة ، وهيكلها التنظيمي والإداري بدماء جديدة حارة ، ويَهبون إدارتها المفكَّكة المُهلهلة ، وقُوَّتها العسكريةَ المتخاذلة قسطاً جديداً من القوة والحيوية والحرارة ، وإذا أشرفت أسرةٌ حاكمة ـ طال عَهْدُ حكمها ـ على مرحلة الشيخوخة والهرم ، أقبلت من ممرِّ «خيبر» أو ممرِّ «بولان» قوةٌ عسكرية جديدة دافقة بالحيوية والحرارة إلى الهند ، وطعَّمت سلسلة الحكومات التي كانت تدين بدين واحد «الإسلام»، وعقيدة واحدة «عقيدة أهل السنة والجماعة»، وقانون واحد «الشريعة الإسلامية» ولغة واحدة «التركية أو الفارسية»، وحضارة واحدة (وهي الحضارة التي كانت مزيجاً من الحضارات العربية والإيرانية والتركية والهندية) بالقوة والنشاط ، ووهبتها قِسطاً جديداً من الحياة.

ثم إنَّه لاينبغي أن ننسى حقيقة تاريخية ، وهي أن أفغانستان وولايتها الكبيرة المهمة «كابُل» و«قَنْدَهَار» لم تزل منذ عهد استيلاء الملك (بَابَر) وقيام الدولة المغولية جزءاً من الحكومة الإسلامية الهندية ، وقلعةً خارجية لها ، وسوراً

منيعاً ، وقد كان دُخول الملك (نَادِر شاه) مَلك إيران في الهند ، وزَحفه إلى دلهي في عهد الإمام الدِّهلوي نفسه ، كما غزا الهند في عهده أحمد (شاه الأَبْدَالِي) عدة مرات حتى كانت أخيراً عام ١١٧٤ هـ الموافق عام ١٧٦١ م تلك المعركة الحاسمة في ساحة «باني بَتْ» التي هزم فيها المرهته هزيمة نكراء وغيَّر وجهة التاريخ وتيار الأحداث ، وأعطى الدولة المغولية فُرصة صالحة تستدرك ما فات ، وتعود إلى الحياة والمجتمع المُسلم وطبقة الأمراء والولاة فُرصةٌ سانحةٌ للقيام بدور جديد لم يستطيعوا أن يقوموا به لعدم كفاءتهم وسُوء تصرفاتهم.

لقد كانت هذه الأحداث كُلُّها في عهد الإمام الدِّهلوي ، بل كان الحدثُ الأخير منها بإشارة منه وإرشاد ، وكان صاحبا هاتين الغزوتين ينتميان إلى إيران وأفغانستان ، ولأجل ذلك لا يمكن في دراسة عهد الإمام الدِّهلوي واستعراض القرن الثاني عشر الهجري التغاضي عن أوضاعِهما وانقلاباتِ الدول بجرَّاء كل ذلك.

تأثيرُ إيرانَ الحَضاريُّ والثقافيُّ على الهند:

ثُم إنَّ الهندَ كما كانت من القرنِ الخامس الهجري تحتَ تأثير تركستان وأفغانستان من النَّواحي السياسية والعسكرية ، كذلك كانت في قليل أو كثير تحت تأثير إيران، من النواحي العلمية والأدبية والثقافية والحضارية والفكرية ، وتجد على فكرتها وعَقليتها ظلال أدبها وشعرها ، وطُرق تصوُّفها ، وأخيراً ظلال مناهجها الدراسية ونظمها التعليمية ، ومُؤلَّفات علمائها ونوابغها ، لاسيما منذ دخول الملك (هِمَايُون) إلى إيران واستعادةِ الدولة الهندية بمناصرتها وتأييدها.

ثم منذُ مَقدم الأمير (فتح الله الشِّيرازي) والحكيم (علي الكيلاني) في عهد الملك (أكبر) ، أصبحتِ الهند ـ كلياً ـ عالةً على إيران في مناهجها الدراسية وطُرق التعليم ، وتحديد مقاييس الفضل والنبوغ ، وفي مجال العلوم العقلية

والحكمية تُقلدها وتَدين لها وتمشي في أثرها ، وتَمت بذلك السُّلطة العليا لإيران على الهند في هذا الصدد ، فلا يمكننا ـ نظراً إلى هذه الحقيقة التاريخية ـ أن نُغفل الأحداث الجارية فيها في هذه الدراسة التاريخية .

أَهميّة الدَّولة العُثمانية وعَظَمتُها:

كذلك لا يمكننا التغاضي ـ عدا بلاد أفغانستان وإيران المجاورة ـ عن الدولة العثمانية (التي كانت تتولى من القرن العاشر الهجري منصب الخلافة ، وهي وإن كان موقعُها الجغرافي على مسافة شاسعة من الهند في أوربة وآسيا الصغرى ، ولكنها كانت تحتضن جميعَ البلدان العربية تقريباً (مصر ، الشام ، العراق ، اليمن ، نجد ، الحجاز ، والجزء الكبير من إفريقية الشمالية) .

وقد كان المسلمون كُلُّهم ينظرون إليها ـ من حيث كونها حاميةً للديار المقدَّسة ، وحاملةً عِبء الخلافة الإسلامية ، ولأنها كانت قُوةً ومملكة كبرى ، ورمزاً للجبهة الإسلامية في نظر الغرب والقُوى المعادية للإسلام ، ومحافظةً على كثير من المصالح الإسلامية ـ نظرة تقدير واحترام ، ولم يكونوا يهتَمون بما يجري فيها من وقائع وأحداث فحسب ، بل كانوا يتأثَّرون بها ويتكيَّفون معها ، فلم يكن يُمكن مثل الإمام الدِّهلوي في سعةِ أفقه وعالمية تفكيره ، والذي كان اطلاعه على التاريخ الإسلامي اطلاعاً واسعاً عميقاً أن يَغُضَّ النظر عن الدولة العثمانية ، وقد كان خبيراً بموقف الشريعة الإسلامية من الخلافة ، وأهميَّتها السياسية والاجتماعية .

وكان يرى أنه لا بد للدين والأخلاق الصالحةِ والمجتمع الصالح والمدنيَّة الصحيحةِ والحياة الإسلامية من حُكومة مُستقلَّة حُرَّة ، وقوة سياسية صالحة .

وكان يتمنَّى أن يرى المسلمين قوة مؤثِّرة آمرة ناهية لا في بلادهم فحسب ، بل في العالم كله .

وكيف كان من المُمكن أن يتغاضى عن رُقي أعظم مملكة للمسلمين وسقوطها ، وصعودها وهبوطها ، وهدوئها الداخلي واضطرابها ، لاسيما وقد

عاش في أحبِّ البقاع وأكرمها في نطاق دولتها وهي الحِجاز بعين مفتوحة ، وذِهن وقَّاد ، وعقل حاضر ، وقلب شاعر؟!

وكان قد درس تلك التأثيرات وسَمع أخبارها عن طريق الوافدين من مُمتلكاتها وولاياتها والبلدان التي كانت تَحت وصايتها كمصر والشام والعراق التي كانت تترُك على أوساط هذه البلدان العلمية والدينية بَصماتها ، نتيجةً لميول سلاطينها العثمانيين ووزرائها و«شيوخ الإسلام» والعلماء الأتراك فيها وعَقْليَّتهم ونزَعاتهم ، فلا بد إذاً من إلقاءِ نظرة إجمالية على المملكة العثمانية في القرن الثاني عشرَ الهجري (القرن الثامن عشر المسيحي) وعلاقاتها بالبلدان الغربية المسيحية المجاورة ، وتفكُّكها وانحلالها ، وتماسُكها واستحكامها ، ودورات المدِّ والجَزْر في قُوَّتها السياسية .

* * *

الفصل الأوَّل
الوَضعُ السِّياسيُّ في العَالَم الإسلاميِّ

سننظر ـ أولاً ـ: في حالة العالم الإسلامي السياسية ، وانقلابِ الدول والحكومات وأهم الوقائع والأحداث ، ثم ندرس أوضاع العالم الإسلامي العلميةَ والدينيةَ والخلقية.

الدَّولةُ العثمانيـة في القرن الثانـي عَشر:

وُلد (الإمام الدِّهلوي) عام ١١١٤ هـ وتوفي عام ١١٧٦ هـ وقد توالىٰ في هذه الفترة ـ (٦٢) عاماً ـ على عرش الدولة العثمانية خَمسةُ سلاطين ، وهم: (مصطفى الثاني) (ت ١١١٥ هـ) أحمد الثالث (ت ١١٤٣ هـ) محمود الأول (ت ١١٦٧ هـ) عثمان الثالث (ت ١١٧١ هـ) ومصطفى الثالث (م ١١٧١ ـ ١١٨٧ هـ).

وتولّى أربعة من هؤلاء السلاطين ـ أحمد الثالث ، محمد الأول ، عثمان الثالث ، ومصطفى الثالث ـ زمامَ الأمور في عهدٍ بلغَ فيه الإمام الدِّهلوي أشده ، واكتمل وعيُه ، وبدأ عمله وتفكيره ، إلا أنَّ أهم الفترات الزمنية من حياته (وهي السنوات الخمس الأخيرة) قضاها في عهد مصطفى الثالث.

حكم مصطفى الثالث (١٦) عاماً ، و(٨) أشهر ، واندلعت في عهده نارُ الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا ، انهزمت فيها الدولة العثمانية عام ١٧٦٩ م ولكن لم يكن لروسيا فيها أي مفخرة ومكرمة ، بل كانت هذه الهزيمة

بسببِ بعض الأحداث والخَللِ في بعض التدابير والإجراءات [١].

وأراد الجنرال الرُّوسي «الفنتن» أن يَحمل على القُسطنطينية أيضاً، إلا أنه مُنع من ذلك.

واتخذ مصطفى خان إجراءات لتعزيز جنوده، واهتم بالإصلاحات العسكرية، وأحرز مكاسب عسكرية، وتقدَّمت روسيا بشروطٍ للمهادنة، كانت تشتمل على الإهانة لتركيا وجَرْح كرامتها، وعقد في «بخارست» في ١٣/ شعبان عام ١١٨٦ هـ (أي بعد وفاة الإمام الدِّهلوي بعشرة أعوام) الموافق ٩ نوفمبر عام ١٧٧٢ م مؤتمرٌ قُدمت فيه بعضُ الشروط، ولكن رَفضتها الدولةُ العثمانية، وأصدرت أوامرها للجيش التركي بإعلان الحرب ضد رُوسيا، فلقيت فيها روسيا هزيمةً منكرة ودخل في قلوبهم الرعب، حتى عندما مرَّ الجيش التركي بسوق «جق» (التي تدعى اليوم Tobulkhin) خلَّى سُكان هذه المدينة الروسُ المدينةَ بأكملها، يقول المؤرخ هيمر (Hemer): «إنَّ العثمانيين وَجدوا قُدوراً موضوعةً على المراجل والأثافي كان يُطبخ فيها اللحم».

تُوفِّي السلطان مصطفى الثالث في ٨ ذي القعدة عام ١١٨٧ هـ (الموافق ٢١ يناير عام ١٧٧٤ م)، ويُثني المؤرِّخون على عدلهِ ورَغبته وجهوده في أمور الخير، وكان قد أقام في عهده كثيراً من المدارس والرِّباطات.

وقد انتشرت المطابعُ في الدولة العثمانية حين كان الإمام الدِّهلوي شاباً، وقامتِ المطبعة الأولى في القُسطنطينية وظهرت في هذا العهد نفسِه حَركةُ الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ ـ ١٢٠٦ هـ)[٢].

واستولى (علي بك الكبير) الذي كان يُدعى «بشيخ البلد» في عهد عثمان الثالث على حكومةِ مصر وإدارتها، وتآمر مع الجنرال الرُّوسي الذي كان قد عُيِّن لبحر الروم، واشترطَ عليه مساعدته بالسلاح والذخيرة حتى تستقل

---

(١) انظر للتفصيل «تاريخ الدولة العلية العثمانية» لمحمد فريد بك المحامي، ط بيروت.

(٢) المصدر السابق: ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠.

مصر ، ونجح علي بك بمساعدته في سيطرته على غزة ونابلس والقدس ويافا ودمشق .

وكان يُريد التوجه إلى أناطوليا إذ خرج عليه أحد القادة المماليك المدعو بمحمد بك المعروف بأبي الذهب الذي اضطر (علي بك) للعودة إلى مصر ، ولقي هزيمة على يديه ، كان من نتيجة هذه الحروب الداخلية والفوضى أن أطلقتِ الأساطيلُ الروسيةُ النيرانَ على بيروت ، وانهدمَ بسببها حوالي ثلاثمئة بيتٍ ، ثم وقعت الحرب بين جيوش (علي بك) وجيوشِ (محمد بك) في شهر محرم عام ١١٨٧ هـ ، انتصر فيها (محمد بك) ، وأُسر علي بك ، ومات بجروحه ، وفصل رأسه عن جسده ، وبُعث به مع أربعة ضُباط روسٍ إلى الوالي العثماني (خليل باشا) الذي أرسله إلى القُسطنطينية ، وعادت مصر مرة ثانية إلى حكم الدولة العثمانية .

الوَضْعُ السياسي في الحجاز:

عندما سافر الإمام الدَّهلويُّ إلى الحجاز ، وأقام في الحرمين الشريفين مدة عام ، كان ذلك في خلافة السلطان محمود الأول (١١٤٣ ـ ١١٦٧ هـ) وكان يُمثِّل السلطانَ العثماني ويَنوب عنه في الحجاز محمدُ بن عبد الله[(١)] بن سعيد بن زيد بن محسن الحسني[(٢)] (م ١١٦٩ هـ) واليه على الحجاز بعد وفاة والده عام ١١٤٣ هـ[(٣)]، وقد كان عهده عهد الحرب الداخلية والصراع بين

---

(١) ذكر اسمه في بعض الكتب محمد عبد الإله ولعل ذلك لأجل تجنب المماثلة اللفظية لاسم محمد بن عبد الله تأدباً واحتراماً.

(٢) واستولى بعد ذلك الأمير سعود بن عبد العزيز (١١٦٢ـ ١٢٢٩هـ) أمير نجد بقوة التنظيم العسكري، وحماسه للجهاد وبهذه الدعوة على الجزء الأكبر وجزيرة العرب عام ١٢١٨هـ، ثم عادت هذه البقعة بجهود الخديوي محمد علي والي مصر إلى قبضة الدولة التركية عام ١٢٣٤هـ، ونفي الأمير عبد الله بن سعود بن عبد العزيز إلى قسطنطينية وقتل بها.

(٣) لم يزل أشراف مكة (الذين كانوا يُختارون من السادة الحسنيين نسبة إلى الحسن بن علي=

أفراد الأسرة على الإمارة ، فقد عزله عمه مسعود بن سعيد عام ١١٤٥ هـ وتسلَّط على الإمارة ، ولكنه استعاد منصبه عام ١١٤٦ هـ ، ثم عزله عمُّه ، وبقي والياً عليها إلى آخر عمره عام ١١٦٥ هـ ، وساد في عهده الأمن والسلام في الحجاز ، ويَصِفه المؤرِّخون بأنه كان ذكياً متيقظاً وسياسياً محنكاً[١] .

وإنَّنا نجد كُتبَ التاريخ والرحلات ومذكرات الحج التي أُلِّفت في منتصف القرن الثاني الهجري أو تؤرخ ذلك العهد ، إنها تشكو قِلة الأمن في الطُّرق وغاراتِ البدو وفسادَ النظام وسوء الإدارة ، الذي كان نتيجة بُعدِ مركز الدولة العثمانية(القسطنطينية) ، وسياسة عدم التدخُّل من جانب الأتراك إلى حد المستطاع في الأمور الداخلية للحجاز ، والتَّسامح الزائد مع أشراف مكة(الذين كانوا من الأسرة الحَسنية وكان نَسبهم صحيحاً معلوماً) والإجلال الزائد للعرب ، واحترامهم ، وسياسة التغاضي عن تجاوزاتهم وسوء تصرفاتهم ، وعلاوة على ذلك نظام الوراثة في إمارة الحجاز ، وانحصارها في أسرة واحدة .

ومن المُمكن أن يُقطع بأن الإمام الدِّهلوي كان قد نظر في هذه الأوضاع القَلقة المُضطربة ، والصراع الداخلي على منصب الإمارة وقلةِ النظام وضعف الإدارة بعين بَصيرته ، وشَعر بفداحة الأمر بقلبه العامر بالحميَّة الدينية ، ولعلَّ

= رضي الله عنه ، ولذلك كانوا يُدعون بالأشراف يتولون شؤون الحجاز من الثلث الأول للقرن الرابع الهجري، فقد عين الشريف الأول بمكة في عهد الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤هـ ٣٦٣هـ) ثم كانت تولية الأشراف إلى عهد استيلاء السلطان سليم على الشام ومصر وولايته للحرمين الشريفين من قبل أسرة المماليك في مصر، فلما استولى السلطان سليم أقر شريف مكة في عهده السيد بركات وابنه السيد أبانمي على منصبهما، وكانا شريفي مكة، واستمرت هذه الإمارة في الأشراف إلى الشريف حسين، الذي خرج على العثمانيين في يونيو عام ١٩١٦ م الموافق شعبان عام ١٣٣٤ ، بعد استيلاء السلطان ابن سعود على الحجاز.

(١) الأعلام: جـ ٨ ، ص: ١١١ ـ ١١٢، نقلاً عن «حاجة الكلام»، و«عنوان المجد» و«تذييل شفاء الغرام لأخبار البلد الحرام» جـ ـ٢، ص: ٣٠٩ ـ ٣١٠ باب ولاة مكة.

الصراع بين العمِّ وابن أخيه على الإمارة الذي كان عام ١١٤٥ هـ ، قد يكون وقع في مُدة إقامته بالحجاز ، ولعله توصل بهذه الأوضاع إلى نتائج بعيدة المَدى ، وأخذ منها شواهد على الانحطاط الخلقي الذي أُصيبت به هذه البلادُ.

الوضع السياسي في اليَمن:

وكان يسود في اليمن أيضاً مثلُ هذا النظام السياسي ، فكانتِ اليمن تحتَ السُّلطة العثمانية من الناحية السياسية بصفةٍ عامة ، والسياسة الخارجية بصفة خاصة فكان يُوجد بها حاكمٌ من الحُكَّام العثمانيين يُعَيَّن من قِبل الدولة العثمانية ، ولكنها رغم ذلك يسودُ فيها نظام الإمامة كذلك ، الذي كان يستمر فيها من القرن الثالث الهجري ، وكان يتولاَّها الأشرافُ الزَّيدِيُّون(١).

فكانَ أهلُ اليَمن يُبايِعونهم بَيعة الخلافة ويَدعونهم «الإمام»، وكان مَن يتولى هذا المنصب يُعتقد فيه أنه بلغ رتبة الاجتهاد والإمامة في المذهب ، وأنَّـه عالم متبحِّر فيه ، مُسلَّمٌ له الزعامة والقيادة.

دَخلتِ اليمنُ في حَوزةِ الدولة العثمانية في عَهْد السُّلطان (سليمانَ القانُوني) بن يَاور سليم ، وكان يَحكُمها ـ آنذاك ـ «إمامُها» وخليفةُ الأئمة

---

(١) يرى العلامة محمد أبو زهرة في كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية» أن:
«هذه الفرقة هي أقرب فرق الشيعة إلىالجماعة الإسلامية وأكثر اعتدالاً، وهي لم ترفع الأئمة إلى مرتبة النبوة، بل لم ترفعهم إلى مرتبة تقاربهم بل اعتبروهم كسائر الناس، ولكنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، ولم يكفروا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ.
و«الزيدية» لا يؤمنون بأن الإمام الذي أوصى به النبي ﷺ ،قد عينه بالاسم والشخص، بل عرفه بالوصف، وأن الأوصاف التي عرفت تجعل الإمام علياً ـ رضي الله عنه ـ هو الإمام من بعده».
«... وعلى ذلك الأصل أقرَّ الإمام زيد إمامة الشيخين أبي بكر وعمر ولم يكفر أحداً من الصحابة...».
«... وعلى ذلك نقول: إنَّ الزيدية قسمان: المتقدمون منهم وهم لا يعدون رافضة ويعترفون بإمامة الشيخين أبي بكر وعمر».

الأشراف فيها السيد المطهر ابن الإمام شرف الدين(م ٩٨٠ هـ)، فكانت بينه وبين القائد التركي سِنان باشا حربٌ أسفرتْ عن خُضوع اليمن للدولة العثمانية[١].

إلاَّ أنَّ الأتراك العثمانيين أبقوا هنا كالحجاز على نظام الإمارة ، وأعطوا الإمام الحرية في الشؤون الداخلية.

ولمَّا كان الإمام الدِّهلويُّ في الحجاز، كان الإمام (المنصور بالله الحسين بن المتوكّل على الله قاسمُ بن حسين) إمامُ اليمن ، الذي استمر عهدُ إمامته وإمارته من ١١٣٩ هـ إلى ١١٦١ هـ ، وكان أكثرُ سكان اليمن ـ رغم سُلطة المذهب الزَّيدي ورعايته الحكومية ـ من أهل السُّنة في العقائد ، والشافعية في المذهب.

وقد كانتِ اليمن مركزاً كبيراً لعلم الحديث الشريف في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، حيث وُلد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير (م ١١٤٢ هـ) صاحب «سُبل السلام» في القَرن الثاني عشر ، والعلامة محمد بن علي الشَّوكاني (م ١٢٥٥ هـ) صاحب «نيل الأوطار» في القَرن الثالث عشر ، ولعل الإمام الدهلوي أثناء إقامته بالحجاز يكون ـ لقرب المسافة والعلاقات العلمية ـ قد استفاد من مؤلَّفات علماء اليمن ، وخدَماتهم الجليلة في الحديث الشريف.

الوضع السياسي في إيــران:

كان قد مضى في إيران على الأُسرة الصَّفوية الحاكمةِ قَرنان من الزمن وجرىٰ عليها حسب سنة الله ـ تعالى ـ منَ الضَّعف والهرم ما يقول عنه المؤرِّخ الفيلسوف العلامة ابن خلدون: «إن الهَرم إذا نزل بدولة لا يرتفع»[٢]، وقد استغلَّ هذا الوضع في إيران البلدُ المجاور أفغانستان ، وحملَ عليها في قيادة

---

(١) راجع للتفصيل «البرق اليماني في الفتح العثماني» للعلامة قطب الدين النهروالي الفتني الحنفي.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

حاكمها الطموح الشجاع (محمود خان الغَزْنَويّ) عام ١١٣٤ هـ وفتح أصفهان ، فأَسر (حُسين شاه).

ثم أراد الأفغانيون فتحَ ما بقيَ من المُدن والأمصار ، ولكن لم يكن عندهم من العدد ما يكفي للاستيلاء على مناطق أخرى والبقاء فيها ، ومات (محمود خان) بعد أن حكم ثلاثة أعوام ، عام ١١٣٧ هـ الموافق ١٧٢٤ م وانتشرتِ الفوضى في البلاد في عهد خَلَفِه (أشرف خان) ، فزحَف حاكم الروس (البطرس الأعظم) على المديريات الشمالية في إيران ، واضْطُرَّ ملك إيران إلى الصلح ، وخسرتْ إيران بذلك كثيراً من مناطقها الخصبة المهمة ، وكان (شاه إيران) في الأسر ، إذ رزق خَلَفه ووليُّ عهده طهماز قائداً محنكاً صاحب عزيمة وتدبير وسياسة ، وهو رغم كونه ينتسب إلى أسرة خاملة ، وكونه رجلاً من عامة الناس ـ استطاع بكفاءاته الممتازة ، وصلاحيته للقيادة أن يَنخرط في سِلك أولئك العصاميين الذين يُؤسسون الدولَ والحكومات ، كان ذلك نادر شاه.

نَـادِر شاه أَفْشـار:

أَجلس (نادر شاه) ، وليَّ العهد طهماسب على عَرش آبائه ، وكانت الدولة الصفوية تعاني السقوط والانهيار ، ولم تكن هناك علائم العودة إلى الحياة والنشاط وكانت الفوضىٰ تسود البلاد ، وفُقدت الثقة بين الناس.

فأحسنَ (نادر شاه) استغلالَ هذا الوضع ونظَّم قوةً عسكرية جديدة ، ونَفخت رُجولته وطموحهُ وشجاعته روحاً جديدة في الإيرانيين ، فهبَّ كالعاصفة العاتية ، واستولى على البلاد وطرد الأفغانيين كُلِّياً من إيران عام ١١٤٣ هـ الموافق عام ١٧٣٠ م، ووقفتِ الجيوش الروسية عام ١١٤٦ هـ الموافق ١٧٣٣ م على بُحيرة الخزر (Caspiansea) وصالحهم مُصالحةً عزيزة مع إباء وشَمَمٍ ، ولم يدع العَربَ يتجاوزون الحدود الغربية ، واضطرَّ سُلطان الروم إلى الانسحاب من الشمال ، واستعادَ ولايات المملكة الإيرانية القديمة من المستولينَ عليها ، وتوسَّعت إيرانُ نتيجةً لكل ذلك حتى عادت عام

١١٤٨ هـ الموافق ١٧٣٥ م إلى حدودها وثغورها القديمة ، وانتهتِ الأُسرة الصَّفوية عام ١١٥٠ هـ الموافق ١٧٣٧ م ، وسَيطر (نادر شاه) على إيران كلِّها فكان مَلكها الوحيد غيرَ مُنازع[١] .

كان نادر شاه ـ حَسب تصريح مؤلِّف «موسوعة تاريخ العالم» ـ قَبِلَ عَرش المملكة على شَرط أن يتخلَّى الإيرانيون عن التشيُّع ويتبرؤوا منه ، وكان نادر شاه سُنياً عقيدة ، تركياً نسبة ـ والأتراك معروفون بشدة تمسُّكهم بالسنية ـ ولكن نادر شاه لم ينجح في استمالة الإيرانيين إلى قبول المذهب السُّني ، لقد استولى قُوَّاده عام ١٧٣٧م على بلوجستان ، وبلخ، وتم استيلاؤهُم عام ١٧٣٨ م على قندهار ، ثم توجَّه للاستيلاء على الهند إلى كابل ، وبشاور ، ولاهور.

واستولى عليها وهزمَ عام ١٧٣٩ م جيشَ الملك المغولي الجرَّار قرب دهلي ، واستولى على دهلي وَوَضع في رقاب أهلها السيفَ ، فأقام مَجزرة رهيبة[٢] ، ولم يَسلب نادر شاه عرشَ المَغول بل أخذَ منهم جباية خمسمئة مليون دولار ، كما أدخل المناطق الشمالية الغربية من نَهر السِّند في مملكته ، وتمَّ استيلاؤه على بخارى وخوارزم (خيوه) عام ١٧٤٠ م ، وكان هذا نهايةَ حملاتهِ التوسعية وسيطرتهِ ، ومن هنا بدأ التحوُّل في حياته.

لقد كان نادر شاه قائداً عصامياً كبيراً ، ولكنه لم يكن يَملك من التدبير السياسي وصلاحية الإدارة والتنظيم شيئاً ، وكان من نتيجة محاولاته القضاء على التشيُّع[٣] أن اضطربت الأمور وعمت الفوضى ، وتعوَّد نادرشاه لقمعِ هذه

---

(١) ملخص من كتب «تاريخ إيران والهند».

(٢) انظر تفاصيل هذه الوقائع في الصفحات التالية.

(٣) يمكن أن تثار شبهة في تصريحات المؤرخين الغربيين وبعض المؤلفين المسلمين أن نادر شاه أراد استئصال مذهب التشيع من إيران بجد وإصرار، وأنه كان سنياً متعصباً، هل كان ذلك محاولة لتغيير العقائد نفسها والمذهب نفسه أم كانت سياسة اتخذها لأغراض أخرى؟ فإنه لايتضح لنا من حملاته على دهلي وإقامته بها وبأيّ شيء في حياته أنه كان سني المُعتَقد، وأنه كان يريد سَوق إيران إلى راية السنية وتحت حكمها.

الاضطرابات والقضاء عليها الجورَ والظُّلم والعدوان ، وأرهقَ بلاده بجباياتهِ الباهظة ومُكوسهِ الظالمة ، وقُتِل أخيراً بيد أحد أبناء قبيلته عام ١٧٤٧ م .

حالةُ إيران بعدَ مَقتل نادر شاه:

لقد أدَّى مَقتلُ (نادر شاه) في إيران إلى فَساد الأمن واضطراب الأوضاع وطَوائف الملوك ، وبدأ يَحلمُ قادة جيشه بحكوماتهم المستقلَّةِ ، وتربَّع على عرشه بعد قتله ابن أخيه (عادل شاه) (١٧٤٧ م) الذي أعملَ السيف في أسرته ، وقتل جميع أفرادها ، ولم يَنجُ من بطشه إلا (شاه رخ) أحدُ أبناء الملك المقتول الذي كان حينئذٍ ابن أربعَ عشرة سنة ، وعُزل عادل شاه في ظرف عام واحد بيد أخيه إبراهيم وسُملت عيناه .

أعقب ذلك ثورة في جيش إبراهيم ، فأَسرهُ ضُبَّاط جيشه ، ثم قتلوه ، ثم قُتل عادل شاه كذلك .

ثم استولت على إيران أسرة «زَنْد»، وحكم كريم خان زند (١١٦٤هـ ـ ١١٩٣هـ) الموافق (١٧٥٠ م ـ ١٧٧٩ م) على إيران تسعة عشر عاماً ، وجعل مدينة «شيراز» عاصمة مملكته ، وكان معروفاً بعدله ورأفته ، وأعاد إلى إيران بعد الحروب والمعارك الدَّامية الأمن والطمأنينة والسلام ، ولذلك حزنَ الناس على موته ورَثوه .

وخلفه عدد من الملوك الضعاف ، حتى انقرضت حكومة هذه الأسرة في عهد لطف علي انقراضاً كلياً ، فقتل لطف علي عام ١٢٠٩هـ الموافق عام ١٧٩٤ م ، وخلا عرش إيران لأسرة قاجار ، ولا نريد أن نتعرَّض لهذا العهد وما يليه ، لأنه لا علاقة له بعهد الإمام الدِّهلوي .

أفغانستان وأحمد شَاه الأَبْدَالِي:

لقد كان بعضُ الأجزاء من بلاد أفغانستان قبل القرن الثامن عشر الميلادي تحتَ سلطة إيران ، والجزءُ الآخر تحت سُلطة الهند ، وكان يحكم الجزءَ الثالث خوانينُ بخارىٰ ، واستقلت قندهار عام ١٧٠٦ م ، ثم استولى نادر شاه

على قندهار عام ١٧٣٧ م، وأخذ الحكم من أيدي الأفغانيين.

ثم استولى على أفغانستان كلِّها والجانبِ الغربي من الهند.

وجيء إلى (نادر شاه) في تلك الأيام بشخص كان يعرف بأحمد خان كأسير من أسرى الحرب، وأُعجب نادر شاه به، وجَعله في حاشيته وخدمه، فصار أحمد خان يتدرَّج في مراتب الرُّقي، ويَحوز على ثقة الملك، ويتمكَّن من نفسه، فلما قُتل نادر شاه، انتدب هـو نفسَه وتولَّى زمام الولايات الأفغانية، وكان ينتمي إلى الفرع الدرَّاني (سدوزئي) من القبيلة الأبدالية، ولقب: «دردوران»، وسُمِّيت أسرته لأجل ذلك بالدُّرَّانية.

لقد أرسى أحمد شاه قواعد الحكومة للأسرة الدرانية، بل أَسَّس المملكة الدُّرَّانية، وكانت المملكةُ الأفغانية حين وفاته تحتوي على شرق إيران (مشهد)، وبلاد أفغانستان كلها، وبلوجستان كلها، وعلى كشمير وبنجاب في الناحية الشرقية، وهو يَستحق أن يُعدَّ من كبار المؤسِّسين للدول والحكومات، والقادة المحنكين العصاميين، والحكام العادلين الطيبين الذين يخشون الله، ويَستحق من حيث مجموع صفاتهِ وخصائصه (إذا نظرنا إلى بيئته وحياته البدائية وفقره وقلة وسائله) أن يُعدَّ من الشخصيات العبقرية (Genius) النابغة، إنه جعلَ الهند كالسلطان محمود الغزنوي ساحة لحروبه وغزواته من عام ١٧٤٧ م إلى ١٧٦٩ م.

وقد اعترف عددٌ من معاصريه المعروفين الكبار بحنكته وذكائه وصلاحيته العسكرية، وتديُّنه، وحبه للعلم والعلماء، وطِيبِ نفسه وكرم طبعه، إنه وحَّد أفغانستان التي كانت تشتمل على وحدات متعددة منتشرة بعد مدة طويلة من الزمن، وضمَّ هذه الوحدات بعضها إلى بعض في صورةٍ وحدة قوية محكمةٍ ثابتة[١].

---

(١) وسيأتي عنه تفصيل أكثر في الباب التاسع في ذكر أحمد شاه الأبدالي.

أَفغانستانُ بعدَ أَحمد شاه الأَبدالي:

تُوفِّي أحمد شاه الأبدالي عام ١١٨٦هـ الموافق ٢٣/ أكتوبر عام ١٧٧٢ م بقندهار ، ومن المُؤسف أن خلفاءَه كخُلفاء السلطان العادل أُورنك زيب عالمكير ، كانوا ضُعفاء غيرَ أكفاء (وقد وقعت هذه المأساة مع أكثر مؤَسِّسي الدول والحكومات والفاتحين المظفَّرين والحكام الأقوياء)، فكان تيمور شاه الذي خلفه في السلطان ووَرث عنه هذه المملكةَ العظيمة الناشئة ، لا يمتُّ إلى والده العظيم العبقريِّ الطموح بأيٍّ صلة في خصائصه ومزاياه ، فقد حكم عشرين سنة في ضعف واختلال كانت تظهر أثناءها على مملكته الناشئة علاماتُ السقوط والانهيار ومات عام ١٧٩٣ م ، وانتقلت السلطة أيام حكم ابنه محمود إلى أسرة «بازك زئي»[١]، التي لم تزل تَحكم أفغانستان إلى ثورة عام ١٩٧٥ م[٢].



(١) انظر للتفصيل «سيرة سيد أحمد شهيد» بالأردوية، الجزء الأول «سقوط الأسرة الدرانية وأسبابه»، ص: ٤٢٠ ـ ٤٢٣.

(٢) كانت هذه هي الأسرة التي واجهها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وأصحابه وانتهى فرعها الأخير على الملك ظاهر شاه عام ١٩٧٥.

الفصل الثاني
وضْعُ العالم الإسلامي العِلميُّ والدِّينيُّ

سنتعرَّض ـ بعد أن استعرضنا العالم الإسلامي سياسياً وإدارياً ـ لدراسته علمياً ودينياً إذ إنَّ لها صلة قريبة بحياة الإمام الدَّهلوي وموضوعهِ وتخصصه وذوقهِ وعمله الإصلاحي والتجديدي.

نوابغُ القَرن الثاني عَشرَ الهجريُّ:

تفيدنا دراسة تاريخ المسلمين العلمي والفكري وقصةُ نشاطاتهم العلمية التحقيقية والتأليفية أنَّ حياتهم العلمية والفكرية ونشاطاتِهم في مجالات العلم والبحث والتصنيف والتأليف لم تكن مُرتبطة بالتقدُّم السياسي ورُقيِّ الدُّول وازدهارها وفتوحها وانتصاراتها مثلما نجد في تاريخ الشعوب والمِلَل غير الإسلامية، فإنها تُعاني من الانحطاط العلمي وأزمةِ الرجال مع الانحطاط السياسي وانقلابِ الحكومات وسوءِ الإدارة والفوضىٰ في البلاد. وإذا فَقدت تَشجيعَ الحكومات وإشرافها واحتضانها، وفَقدتِ الثقة بالنفس والشعورَ بالاستعلاء، فإنها تَجفُّ منابع فكرها وذكائها، وتموت فيها عواطفُ المسابقة والمنافسة وحب التقدم، وتَضعف دوافع العمل وأسبابُ الإنتاج.

أمَّا المسلمون فإنَّ شأنهم يختلف في ذلك عن غيرهم، فقد نبغ فيهم مراراً وتكراراً ـ رغم انحطاطهم السياسي والفوضىٰ الداخلية واضطراب الأوضاع ـ عباقرةٌ ونوابغ لا يبدو أنهم وليدو عهد السقوط والانهيار، ففي آخر القرن

السابع الهجري بعد سقوط بغداد ـ عاصمة المسلمين ودار خلافتهم ـ على أثر هجمات التَّتار ـ ذلك الجراد المنتشر ـ الذي حطَّم شرق العالم الإسلامي وأهلك الحرثَ والنسلَ ، وخرَّب الديار والبلدان التي كانت مراكز العلم والمعرفة مُنذ عدة قرون ، بعد كُلِّ هذا الدَّمار والسقوط والانهيار نَجدُ في أواخر هذا القرن وأوائل القرن الثامن رجالاً من نوابغ العلماء كشيخ الإسلام تقي الدين ابن دقيق العِيد (م ٧٠٢ هـ) مُحدِّثاً ، والعلامة علاء الدين الباجي(٧١٤هـ) أصولياً ومتكلِّماً ، وشيخ الإسلام ابن تيمية الحرَّاني (م ٧٢٨هـ) إماماً ومجتهداً ، والعلامة شمس الدين الذَّهَبي (م٧٤٨هـ) محدِّثاً ومؤرِّخاً ، والعلامة أبي حيَّان النحوي (م ٧٤٥ هـ) نحوياً ومفسِّراً ، وأمثالهم من نوابغ العلماء وعباقرة الفنون.

والسِّرُّ في ذلك أن دوافعَ النُّبوغ في العلوم الدينية والبواعث على خدماتها ونَشرها والحفاظ عليها مما تستقرُّ في داخل هذه الأمة وباطنها ، لا في الخارج من إشراف الحكومات وتقديرها وتشجيعها ، وهذه الدوافع الخفية الباطنة هي الرغبة في الحصول على رضا الله ـ تعالى ـ والقيام بواجبِ نيابة الأنبياء والمرسلين والشعور القوي بالحفاظ على الدين ونقلهِ مصوناً من جيل إلى جيل.

فبالرَّغم من أنَّ هذا العهد الذي نؤرِّخه هو عهد الاضطرابات الداخلية في البلاد ـ وقد بدت في الأفق علامات سقوط الدول والحكومات المسلمة حتى المملكة العثمانية العظيمةُ ظهرت عليها أمارات الهَرم والسقوط ، وكانتِ البلدان الإسلامية حتى بلاد الحجاز تَشهدُ صراعاتٍ وحروباً داخلية للتوصل إلى الإمارة والسلطان ـ كان العلماء في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وإيران والهند وغيرها من بلدان العالم الإسلامي منصرفين إلى التَّدريس والإفادة ، وكان الباحثون والمحقِّقون والمفكِّرون مُقبلين على التأليف والتصنيف والبحث والتحقيق.

وكان المشايخ والصوفية الربَّانيون متَّجهين إلى إصلاح النفوس وتزكية القلوب ، متصفين بالفضائل الروحية من صفاء القلب وإشراق الروح ، وقد بلغ

بعضُهم من علو المكانة وجلالة الشأن ما لا يوجد له نظير في الأقطار المترامية والبلاد القاصية والدانية في الماضي القريب.

خُذْ مثلاً علم الحديث الشريف، تجد فيه المحدِّثين الكبار كالعلاَّمة أبي الحسن السِّندي الكبير (م ١١٣٨ هـ) الذي درّس مدة طويلة في الحرم الشَريف، وتعليقاتهُ على الكتب الستة معروفة بالهوامش الستة، والشيخ محمد حياة السِّندي (ت ١١٦٣ هـ) الذي يزدان به كذلك هذا العهد، والشيخ إسماعيل العَجْلُوني المشهور بالجرَّاحي (ت ١١٦٢ هـ) الذي كان من المحدِّثين الكبار في الشام وكتابه «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»[1] من أنفعِ الكتب وأجمعها في هذا الموضوع، ولعلَّه أكبر مجموعة من مجاميع الأحادَيث الضعيفة والموضوعة، ويتَّضح من دراسة الكتاب ما يملكه المؤلِّف من سَعة النظر والإحاطة بالموضوع والأخذِ بالإنصاف والاحتياط، وتشتملُ هذه المجموعة عدا الأحاديث الضعيفة والموضوعة على تلك الأحاديث المُشتهرة بين الناس التي لا يُعرف تخريجها بصفة عامة، فعرَّف بها المؤلِّف وخرَّجها.

وكان الحرمان الشريفان من أكبر المراكز لتدريس الحديث الشريف حيث كان الشيخ أبو طاهر الكوراني الكُردي، والشيخ حَسن العجيمي يُلقيان الدروس.

وكان في اليمن الشيخ سليمان بنُ يحيىٰ الأهدل (ت ١١٩٧هـ) مُحدِّث اليمن الجليل، ومن أكبر المحدِّثين وأجلِّهم في عصره خدمةً للحديث ونشراً لعلوم السنَّة المطهرة، وكان الشيخ محمد بن أحمد الإسفراييني (ت ١١٨٨هـ) من كبار عُلماء الحديث والأصول، وهو صاحب «الدرر المصنوعات في الأحاديث الموضوعات»، وكان الأمير محمد بن إسماعيل الحسني الصَّنعاني (ت ١١٤٢هـ) محدِّثاً جليلاً، ومحقِّقاً كبيراً، ومن مؤلَّفاته الجليلة «سبل

(١) نشرته «مكتبة التراث الإسلامي» بحلب ـ سورية، [ومؤسسة الرسالة ببيروت بتحقيق الشيخ أحمد قَلاَّش].

السلام» شرح «بلوغ المرام»، و«توضيح الأفكار» شرح «تنقيح الأنظار».

ويلمع في نوابغِ هذا القَرن أيضاً اسم العلامة الشيخ محمد سعيد السُّنبل (ت ١١٧٥ هـ) الذي يَعتمد أكثر شيوخ الحديث على أوائله لكتب الحديث[١]، في رواياتهم وإجازاتهم، ومن كبار المحدِّثين كذلك العلامةُ محمد بن عبد الباقي الزَّرقاني (ت ١١٢٢ هـ) الذي وَصفه المؤرِّخون بقولهم: «خاتمةُ المحدِّثين بالديار المصرية»[٢].

ومِن العلماء البارزين في هذا العهد في تَبحُّرهم العلمي، وكثرةِ التدريس والإفادة، والتصنيف والتأليف، الشيخ عبد الغني النَّابلسي (ت ١١٤٣ هـ) الذي كثر تلامذته والآخذون عنه، وَيصفونه: «بالأستاذ الأعظم»، ويقال: إنَّ مؤلَّفاته تبلغ مئتين وثلاثة وعشرين.

وقد كان العلامة إسماعيل حقِّي (ت ١١٢٧ هـ) أيضاً من علماء هذا العصر الذي ألف كتابه «روح البيان في تفسير القرآن» ويعرف بالتفسير الحقِّي كذلك.

وكان الشيخ عبد الله بن حسين السُّوَيدي (ت ١١٧٤ هـ) من علماء بغداد، صاحب مؤلَّفات كثيرة[٣].

وتوجد في هذا العصر عدا المدارسِ والجامعات القديمة كالجامع الأزهر وجامع الزَّيتونَة بتُونس، وجامعة القرويين بفاس ـ المغرب ـ أسماء المدارس الأخرى بدمشق كالمدرسة الحافظية، والمدرسة الشبلية، والمدرسة العذراوية[٤].

ويتكرَّر من بين الطُّرق الصوفية ذكر الطرق النقشبندية، والخلوتية،

---

(١) وهو المعروف بالأوائل السُّنبلية في أوائل كتب الحديث.

(٢) انظر للتفصيل «البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع» للعلامة محمد بن علي الشوكاني صاحب «نيل الأوطار» و«سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر» للمرادي.

(٣) انظر «سلك الدرر» و«البدر الطالع».

(٤) انظر «سلك الدرر».

والشاذلية ، والقادرية ، والرفاعية ، ويظهرُ أنَّ مشايخها وأصحابها مُنتشرون من تركيا إلى أندونيسيا .

نَظرةٌ على الذَّوق العلمي والأدبي والرُّوحي في العالم الإسلامي:

يَغلب على أصحاب العلم والمثقَّفين في هذا العصر ذَوقُ الأدب والشعر وثقافةُ المجالس والنوادي ، واللطائف والطرائف ، والألغاز والأحاجي ، ولا يبدو أنهم حازوا فيها الفضلَ والسبق ، أو ابتكروا نوعاً جديداً ، بل يطّرد فيه السَّجع وتكثُرُ القوافي ويَغلبُ التكلُّف والتعمل ويتجلَّى تأثيرُ الحكومة التركية على[1] الأوساطِ العلمية والأدبية ، فلا يُعثر على باحِثٍ محقِّق ومُفكِّر كبير إلا بعدَ بَحثٍ كبير ، وتزخرُ المجلَّدات الأربعة لـ«سِلك الدُّرر» للمرادي بالقصائد والغزليات والأبياتِ والمقطوعات الشعرية ، ويكثُر فيها ذكر المكاشفاتِ والكرامات ، والأوهامِ والخرافات .

ويتوجَّـه علماء البلدان التي هي تحت السُّلطـة العثمانيـة ونوابغها وأصحاب الفضل والكمال فيها إلى دار الخلافة «القسطنطينية»، ويتولَّون مناصب الحكومة ، والعلوم العقلية والحساب والهندسة وعلوم البلاغة والفقه وشيء من الحديث هي الأجزاءُ الأساسية للمناهج الدراسية .

وتنتشرُ الرُّقى والتمائم ، وقد نظم بعض العلماء متن «القُدوري»، والمُتون الفقهية الأخرى .

وكان عددٌ من العلماء العرب يعرفون اللغة الفارسية والتركية ، وكان الناس لاسيما في الشام يألفونَ اللغة التركية لكونها اللغة الرسمية ، وكان عددٌ كبير من علماء تركيا نازلين بسورية ، ويتكلَّمون بالعربية الفصحى ، وكان التدريس في الجامع الأموي بدمشق من أسباب الفخر والاعتزاز ، وكان بعض العلماء

---

(١) طبيعة الأتـراك في طبيعـة السياسـة والإدارة والعسكرية (Martial Race) ولانجد فيهم في عهد حكمهم الطويل كبار العلماء المحققين والمؤلفين البارزين أمثال العلامة أبي السعود وطاش كبري زاده وخليفة جلبي إلا قليلاً جداً.

والمشايخ يُلقون الدروس في «الفتوحات المكية» وآخر يُدرِّس «فصوص الحكم» وكان يدرس «شرح الجامي» و«مختصر المعاني» في الشام أيضاً ، وكان التَّصوفُ هو السِّمة الغالبة حتى على العلماء والمحدِّثين ، وكان الشيخ عبد الغني النَّابلسي وعددٌ من العلماء والمشايخ يقولون بوحدة الوجود(١) .

سَيطَرةُ العُلوم العَقليّة في إيرانَ وتأثيرها على البُلدان المجاورة:

لقد أَسَّس إسماعيلُ الصَّفَويُّ (٩٠٥ ـ ٩٣٠هـ) في بداية القرن العاشر الهجري ، الحكومةَ الصفوية في إيران ، وجعلَ المذهبَ الشيعيَّ هو المذهبَ الرسميَّ في البلاد ، وقضى على المذهب السُّني ، ومحا آثاره إلى حدٍّ كبيرٍ ، وبذلك انقطعت صلة إيران ـ تلك البلاد الخصبة التي أنتجت في جانب أئمَّة فنِّ الحديث والأساطينَ الأربعة لبنيان الحديث الشامخ ، وهم الإمام مسلم(٢) ، والإمام أبو داود ، والإمام النَّسائي ، والإمام ابن ماجه ، الذين خضع الناس لإمامتهم وجلالة شأنهم وأنتجت في جانب آخر ، كبارَ الفقهاء النابغين ، والعلماء المتبحرين كالإمام أبي إسحاق الشِّيرازي ، وإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجُويني ، وحجَّة الإسلام أبي حامد محمد الغزالي ـ وأمثالهم من نوادر الزمن ونوابغ العلوم ، لقد انقطعت صلة إيران في عهد هذه المملكة القوية العظيمة الذي يمتد على قرنين وربع قرن من الزمن عن الحديث الشريف والفِقه والعلوم النافعة المفيدة .

فقد كان الملوكُ الإيرانيون يميلون إلى الحكمة والفلسفة ، لأنَّ الشيعة لم تزل مُتعلقةً بالفلسفة والاعتزال، وقد كان الفيلسوف والرياضي المعروف خواجه نصير الدين الطُّوسي (ت ٦٧٢ هـ) مؤلِّف «شرح إشارات ابن سينا» ـ الذي كان

---

(١) انظر: «سلك الدرر»، الأجزاء: ١ ـ ٢ ـ ٣ ـ ٤ .

(٢) [الإمام مسلم عربيٌّ خالصُ النسب من قبيلة «قُشَير» المعروفة ، التي سمِّيت باسم جدِّها: قُشَير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة].

شِيعياً ومعتزلياً ـ مستشاراً خاصاً لهولاكو خان وأميناً لديه[١].

وكانت هذه الثِّقة والزُّلفى عند الملك التَّتاري سبباً كبيراً في نشر علوم الفلسفة والرياضيات في المملكة التتارية؛ التي كانت تحتوي على تركستان وإيران والعراق، فقويت فيها الميول إلى العلوم العقلية.

وفي عهد الحاكم الثاني الملك طهماسب (ت ٩٨٤ هـ) للمملكة الصَّفوية نفسِها، لمع نجمُ مِيرغياث الدين منصور (ت ٩٤٨ هـ) الذي كان حكيماً إشراقياً، وفيلسوفاً ومؤسِّساً للمدرسة المنصورية بشيراز، وتولّى منصب الرئاسة فيها في عهد الملك طهماسب مدة طويلة، وانتشرَ تلامذتُه إلى الهند، فكان الأمير فتحُ الله الشيرازي (ت ٩٩٧هـ) من تلامذته الذي قصدَ الهند في أواخر القرن العاشر الهجري، وولّاه الملك (أكبر) منصبَ الصدارة، وهو الذي طَبع المناهج والمقررات الدراسية والطرائقَ التعليمية في الهند بالطابع العقلي، وترك تأثيراً عميقاً استمر مفعولهُ إلى القرن الثالث عشر الهجري، وهو الذي جاء حسب تصريح العلامة آزاد البَلْكَرَامِيّ ـ بمؤلَّفات صدر الدين الشيرازي والمير غياث الدين منصور، والفاضل (مِرزا جان) (ت ٩٩٤ هـ) إلى الهند، وقرَّرها في المدارس الإسلامية.

وطلعت شخصية المِيْر باقِرْ دَامَاد (ت ١٠٤١ هـ) في منتصف القرن الحادي عشر الهجري الذي سيطر بذكائه وعقليته وأدبه على الأوساط العلمية والتعليمية من إيران إلى الهند، وقد كان مرموقاً عظيم القدر والحظوة في بلاد السلطان عباس الصَّفوي (ت ١٠٣٧ هـ) وظلَّ كتابه «الأفق المبين» غاية ما يُحلِّق في أجوائه المعلِّمون، والكتابَ النهائيَّ في الأوساط الدراسية.

ثم برزت شخصيةُ العلامة صدر الدين الشِّيرازي (ت ١٠٥٠ هـ) الذي كان حكيماً إشراقياً، وفيلسوفاً طليقاً، حُرَّ التفكير، ومؤلَّفاه «الأسفار الأربعة»

(١) انظر «تاريخ أخبار وآثار خواجة نصير الدين الطوسي» نشر جامعة طهران، إيران.

و«شرح هداية الحكمة» المعروف بـ«صدرا»[١] يحملان صيتاً ذائعاً وشهرةً عالمية.

لقد تعاون الذَّوق الإيراني ـ الذي تعود منذ قرون على صُنع القُبة من الحبة وتشقيق الشعرة ـ مع هذه النزعة العقلية الفلسفية، وبثٍّ شبكة التقعير في الألفاظ وتوليد الطرائف والنُّكات وتعقيداتِ الدعاوى والمفروضات من الحدود الغربية لإيران إلى الحدود الشرقية للهند، التي لم يكن مَثَلُها إلا كما يقال «تمخَّض الجبلُ فوَلد فأراً».

لقد كانت دولة العلوم العقلية والفلسفية تُسيطر على الأوساط التعليمية والتأليفية من عَجَم القرن العاشر إلى عرب القرن الثاني عشر، ولم تكن هناك وسيلةٌ للعلماء لإظهار فَضلهم ونبوغهم وإثبات ذكائهم وعبقريتهم إلا حلُّ عبارات المؤلِّفين السابقين، وشرحها والتحشية عليها، ومحاولات فهمها وإفهامها، وكان أدنى مقال وانتقادِ لفائدتها وثمرتها إثباتاً للجهل والغباوة وسوءِ الفهم.

لقد تركت إيرانُ تأثيرها ـ بطبيعة الحال ـ على أفغانستان، ولاسيما على «هرات» المدينة الغربية لأفغانستان، فكانَ القاضي محمد إمام الهَرَوي الكابُلي (ت ١٠٦١ هـ) كسفير لأساتذة إيران، ونوابغها في المنطق والفلسفة، ورفع ابنه القاضي محمد زاهد، المعروف بمير زاهد (ت ١١٠١هـ) منارَ هذه العلوم وزاد في قدرها ومكانتها، وقد أمضى مُعظمَ حياته في الهند، ونالت حواشيه الثلاثة على «شرح المواقف» و«شرح التهذيب» و«الرسالة القُطبية» التي تعرف بـ«الزواهد الثلاثة» قبولاً كبيراً ورواجاً عظيماً في الأوساط الدِّراسية في الهند.

ولم يكن هو بجانب فضلهِ ونبوغه في العلوم العقلية عالي الكَعب في الفقه

---

(١) كتاب «صدرا» مقرراً في المناهج الدراسية في الهند من القرن الحادي عشر الهجري، ولم يكن الطالب يعد قبل دراسته وإحراز البراعة فيه خريجاً فاضلاً لأي مدرسة من مدارس الهند.

والحديث والعلوم الشرعية ، حتى إنه لم يكن يَثق بنفسه في تدريس كتاب متوسِّط مُتداول في الفقه كـ«شرح الوقاية» ، فقد جاء في «ملفوظات الشيخ عبد العزيز الدِّهلوي» وهي مجموعة كلماته التي دوَّنها بعض أصحابه: كان أحدُ الأمراء يقرأ على (مير زاهد) كتاب «شرح الوقاية»، ولكنه ـ لعدم ثقته بنفسه في تدريس هذا الكتاب ـ لم يكن يُدرِّس إلا بعد أن يحضر الجد[1]، (وهو الشيخ عبد الرحيم ، الذي كان أحد تلامذته نفسه في العلوم العقلية).

وكان خَوضهُ ـ بجانب ذلك ـ في العلوم العقلية إلى حدٍّ أن كان يقول: «كلام المرزا جان هو رُوحي ، وكلام أخوند هو رُوحُ روحي»[2].

ولم يكن هذا التأثيرُ لإيران على الهند وأفغانستان فحسب ، بل كانت إيران تترك تأثيرها على العراق والشام أيضاً ، فكان يُنظر هناك كذلك إلى علماء المعقولات بعين التقدير و الاحترام ، وكانت لهذه العلوم مهابةٌ في القلوب وجلالةٌ في النفوس ، وكانت كُتبها مقررةً في المناهج الدراسية.



(١) ملفوظات شاه عبد العزيز.

(٢) المصدر السابق: ص: ٨٣.

الفصل الثالث
الوَضْعُ الخُلُقي والاجتماعيُّ والعقائديُّ العام

لقد كان العالم الإسلامي ـ رغم اشتغال العلماء بالعلم والبحث ووُجودِ عددٍ كبير من النوابغ وأصحابِ الفضل والكمال وانتشارِ السَّلاسل والطُّرقِ الصوفية في الناس، والعنايةِ بالحديث النبوي الشريف، وتَديُّنِ كثيرٍ من الملوك والحكام، ورُغم وجود تلك الحكومات المسلمة التي كانت تدين بالإسلام وتَدين بالشريعة الإسلامية في كثير من نواحي الحياة العملية وقوانين الأحوال الشخصية، ووُجود المدارس آهلة والمساجد معمورة، وكون الجمهور وعامة المسلمين يحبون الإسلام ويَدينون به، ويعتقدون في المشايخ والصالحين، ويُحافِظون على أركان الدين وفرائضه، ولا تخلو قلوبهم من الحمية الإسلامية ـ كان العالم الإسلامي رَغم كل ذلك يعاني من الجمود والانحطاط، وقد تسرَّبتِ الأدواء إلى الأخلاق والاجتماع، وقَبل المسلمون كثيراً من العادات والشعائر والتَّقاليد العجمية غير الإسلامية، وكان الحكّام والأمراء أنانيين قد رَكبوا رؤوسَهم وعملوا بأهوائهم، وكانتِ الفوضى في الدول والحكومات.

وقد ألْهت طبقةَ الأمراء والأثرياء أموالهم وثَرواتهم، وتسربتْ إليهم أخلاق المُترفين ونزعاتهم، وسيطرتْ على كثير من طبقات المجتمع عادةُ الكسل والتواكل والبطالة، والتعلُّق بحواشي السلطان، والتقرُّب في البلاد،

والإطراءُ والتملّق، وكانت طبقاتٌ أخرى تهيم في الأوهام والخرافات، وكانت تَتراءى نماذج عبادة القبور وتقديس الأولياء وتعظيمهم إلى حَدّ التأليه وتعدِّي حدود التوحيد، حتى ظهرتْ مظاهر الشِّرك الجلي في بعض المواضع.

وقد صوَّر المؤلف الأمريكي الدكتور لوثروب استودر (Stoddard Lothrop) في كتابه الشهير «New World of Islam» العالَمَ الإسلامي في القرن الثامن عشر المسيحي، وهو إن كان يُوجد فيه إفراط وغلوٌّ في بعض المواضع، ولكنه بمجموعه ليس تصويراً خطأ (١) للعالم الإسلامي حينذاك، وقد جاءتْ فيه جوانبُ كثيرة لا يَنتبهُ لها من يعيشون داخله، والشاهدون له كلَّ حين، وتَسترعي انتباه الزائرين الجُدد والمشاهدين لأول مرة، وسوفَ لا يكون خطأ ولا غير لائق بالمكان أن ننقُل شيئاً من هذا التصوير بدون أن نَتحمَّل مسؤولية صحته مئة في المئة، يقول المؤلف الأمريكي:

«في القَرن الثامن عشر كان العالَم الإسلاميُّ قد بلغ من التضعضع أعظمَ مَبلغ، ومن التدني والانحطاط أعمَق دَركه، فازْبدَّ جَوُّه، وطبَّقت الظُّلمة كل صَقع من أصقاعه ورجا من أرجائه، وانتشَر فيه فساد الأخلاق والآداب، وتلاشى ما كان باقياً من آثار التهذيب العربي».

«واستغرقت الأُممُ الإسلامية في اتِّباع الأهواء والشهوات وماتتِ الفضيلة في الناس، وساد الجهلُ، وانطفأتْ قبسات العلم الضئيلة، وانقلبتِ الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال، فليس يُرى في العالم الإسلامي في ذلك العهد سوى المُستبدِّين الغاشمين كسُكَّان تركية وأواخر ملوك المغول

---

(١) لقد صدَّق هذا التصوير والاستعراض العام للعالم الإسلامي واستحسنه ورآه أمسَّ بالحقيقة والواقع أمير البيان الأمير شكيب أرسلان في حواشيه الشهيرة علىترجمة هذا الكتاب للعربية التي نشرت باسم «حاضر العالم الإسلامي» فقال معلقاً على هذا الوصف «لو أن فيلسوفاً من فلاسفة الإسلام أو مؤرخاً عبقرياً بصيراً بجميع أمراضه الاجتماعية، أراد تشخيص حالته في هذه القرون الأخيرة ما أمكنه أن يصيب المحز وأن يطبق المفصل تطبيق هذا الكاتب الأمريكي ستوارد» (ش).

في الهند ، يحكمون حكماً واهناً فاشيَّ القوة مُتلاشي الصِّبغة ، وقام كثيرٌ من الولاة والأمراء يَخرجون على الدولة التي هم في حكمها ويُنشئون حكومات مستقلَّة ولكن مستبدَّة ، كحكومة الدولة التي خَرجوا عليها ، فكان هؤلاء الخوارج لا يستطيعون إخضاع مَن في حكمهم من الزعماء هنا وهناك ، فكثُر السَّلب والنَّهب ، وفُقد الأمن ، وصارت السَّماء تُمطِر ظلماً وجوراً ، وجاء فوق جميع ذلك رجالُ الدين المستبدون يزيدون الرعايا إرهاقاً فوق إرهاق ، فغُلَّت الأيدي وقُعد عن طلب الرزق ، وكان العزم يتلاشى في نفوس المسلمين ، وبارتِ التجارة بواراً شديداً ، وأهملت الزراعة أيما إهمال».

«وأمَّا الدِّين فقد غشيته غاشية سوداء ، فألُبست الوحدانية التي علمها صاحب «الرسالة» الناسَ سُجفاً من الخُرافات وقُشور الصوفية ، وخَلتِ المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عديد الأدعياء الجهلاء ، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والسُّبحات ، ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحجِّ إلى قبور الأولياء ، ويُزيِّنون للناس التماسَ الشفاعة من دُفناء القبور ، وغابت عن الناس فضائل القرآن ، فصار يُشرب الخمر والأَفيون في كل مكان ، وانتشرتِ الرذائل ، وهُتكت سِتر الحُرمات على غير خَشيةٍ ولا استحياء»[1].



(١) حاضر العالم الإسلامي (تعريب الأستاذ عجاج نويهض): جـ ١ص : ٢٥٩ ـ ٢٩٠.

الفصل الرابع
الهند

١ ـ الوَضـع السِّياسـي:

وُلد الإمام وليُّ الله الدِّهلوي قَبل وفاة السلطان أَوْرَنْكَ زَيْب عَالَمْكِيْر (ت ١١١٨ هـ) بأربع سنين، عام ١١١٤هـ، وقد كان السلطان عَالمكير في ضوء التاريخ المعلوم المحفوظ، أكبرَ سلاطين شبه القارة الهندية بعدَ الملك أَشَوْكا (إذا كانت البيانات والتصريحات عن سعة مملكته وعظمَتها صحيحةً معتمدة) وكانتْ مملكتُه وحكومته أوسَع الحكومات التي قامت في الهند، يقول مؤلِّفو «تاريخ الهند» Cambridge History of India:

«كانتْ حُكومة أورنك زيب من غَزْنَـة إلى شَتَّا غَوْنغ، ومن كشمير إلى كَرْنَاتَك»[1].

ويقولُ المؤرِّخون الآخرون: «لم تَقُم في الهند من العهد القديم إلى عهد سيطرة الإنجليز وغلَبتهم مثلُ هذه الحكومة (حكومة أورنك زيب) الواسعةُ الأرجاء، الطويلةُ الأبعاد»[2].

وقد فتح (مِير جُمله) في عهده وبإيعاز منه ولاية «آسام» لأول مرة (التي

(١) ſ Cambridge History of India,VOL. 4P.316.

(٢) Muslim Rule in India,D.P Mahajan. Delhi,1917 Cambridge History of World.P.175 Delhi 1970.

كانت ولا تزال منطقة مستقلة عن الهند[١] في لغتها وثقافتها ومدنيتها، ودیانتها وسلالتها) وضمَّها إلى الهند.

وبالرغم من تعليقات وانتقادات من المؤرِّخين الغربيين والمؤرخين الهندوس التي ليس الدافعُ إليها إلاّ حميَّة أورنك زيب وحمايته للإسلام[٢]، فإنَّ قوة إرادته التي لا يوجد لها نظير، ورَباطة جأشه، ومقدرته الإدارية والتنظيمية، وحياته البسيطة الزاهدة وبطولته وشجاعته؛ من الحقائق التاريخية التي لا يَختلف فها اثنان، ويَعترفُ بها جميع المؤرِّخين[٣].

أَوْرَنْكَ زَيْب عَالَمْكِير:

وجَّه السلطان أورنك زيب بعدما تولَّى زمام الأمور كُلَّ همِّه إلى القضاء على آثار العهد الأكبري المخالفة للإسلام، والحدِّ من تأثير التشيُّع (الذي كان أكبرُ مراكزه في جنوب الهند.

ولذلك صرف عالمكير الجزءَ الأكبر من حياته وطاقاتِه للسيطرة عليه) واستئصال التأثيرات الحضارية لإيران المختلطة بالنزعات المجوسيَّة التي دخلت في عهد الملك (أكبر)، وكانت تُوجد في أشكال التقويم الإيراني، وعيد النيروز.

وعَيَّنَ المَنصب الشَّرعي للمُحتسِب، ليردعَ الناس عن ارتكاب المحرَّمات والمنهيات، وعطل كثيراً من أنواع الدَّخْل المحرَّمة التي كانت تحصل بها

(١) انظر للتفصيل «مآثر عالمكير» لمحمد ساقي مستعد خان، ص: ٩٣-٤٠ طبع كلكتة عام ١٨٧١م، و«وقائع سيرو سياحت» (مذكرات السياحة) للدكتور برنير Dr.berner ص٢٩٤.

(٢) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» للمؤلف الجزء الثالث (الإمام السرهندي).

(٣) انظر كتاب استينلي لين بول بعنوان «أورنك زيب» وكتاب ظهير الدين الفاروقي، بعنوان Aurangzeb And His Age وكتاب جاونات History of Aurangzeb ومقالات العلامة شبلي النعماني «عالمكير».

للحكومة ثرواتٌ طائلة ، ووقفَ الرقص والغناء ، وعادة الاجتماع لزيارة السلطان التي كانت تُشم منها رائحة التقديس .

وعيَّنَ القُضاة الشرعيين ، وخوَّل لهم حقوقاً وسُلطة كبيرة وتولَّى ـ تيسيراً للقضاة وتطبيقاً للقوانين الشرعية وتنفيذاً لها في سائر مملكته ـ تدوين المسائل الفقهية ، وترتيبَها من جديد ، فكان من نتيجة ذلك أن ظهرت مجموعة ضخمة باسم «الفتاوى العالمكيرية» التي اعتبرت في مصر والشام أيضاً حيث تعرف باسم «الفتاوى الهندية» مصدراً مُعتمداً كبيراً من مصادر القانون الإسلامي .

وألغى عاداتِ تقبيل العَتبة والأرجل غير الإسلامية عند التحية والتسليم ، وكلَّ ما يخالف التوحيد ، وأعادَ العمل بسُنة التحية الإسلامية ، وبالجُملة فقد كان كما يقول الدكتور إقبال في بيتٍ من شعره :

«كان فَراشةً لشمعةِ التوحيد ، وكان في بَيت الأصنام والأوثان كإبراهيم عليه السلام»[١] .

وعلاوةً على هذه المآثر الإصلاحية الثورية ـ التي تَحملُ قيمة دينية كبيرة ـ كانتْ من أكبر مزاياه وأبرزها ، يَقظتُه وذكاؤه ، وجدُّه ونَشاطه ، واهتمامه بالمسؤولية ، ومعرِفتُه الدقيقة بكل صغير وكبير في أمور دولته ، ومحاولتُه الهيمنة الكلية على إدارة البلاد ونظامِها ، الأمر الذي يُعتبر من الشروط الأولية لأيّ حاكمٍ من حُكام هذه المملكة الواسعة العريضة ، إنه كان قد كتب إلى والده السلطان شاهْجَهَان ـ وتَشهدُ عليه حَياته وتُؤيِّده ـ :

«إنَّني لا يمكن أن أتَّهم بالكسل والفتور»[٢] ، وقال مرة وهو يردُّ على كلامِ أحد الأمراء الذي أشار عليه بألا يتحمَّل المجهودات الشاقة المُضنية في أمور

---

(١) [ترجمته العربية شعراً:

كان إبراهيمُ بيت الصنم ... في لظى الحقّ فراشاً يرتمي

«ديوان إقبال» (١/ ٢٠٠)، طبع دار ابن كثير بدمشق].

(٢) انظر «ظفرنامه شاهجهان».

الدولة (فإنَّه يخاف منها الإضرار بصحة الملك) فقال: إنَّ ربي ابتعثني لأن أجتهدَ وأكدَح للناس ، وأنشد بيتاً من شعر السَّعدي ما معناه:

«لا تنَمْ غافلاً فإنَّ النوم حرامٌ على قائد القوم» (١).

إنَّ هذا الاطلاع الواسع والمعرفةَ الدقيقة الشاملة بإدارة البلاد ، وشؤونها - رغم سعة الدولة وانتشار أطرافها - ليس إلا عمل ذلك الرجل العصامي الذي يحمل إرادة حديدية ، وجسداً حديدياً ، وشعوراً بالغ الغاية بالمسؤولية وخشية الله تعالى في السر والعلن.

ومِن المُدهش الغريب أنَّ معرفته بالكليات ومهام الدولة وشؤونها الكبيرة ، لم تكن تحول دون معرفته بالجزئيات ، بل كانت معرفته بالكليات لا تقل عن اطّلاعه على جزئيات الدولة ، إنه كان في دكن (الجنوب) ، ولكنه كان في الوقت نفسه خبيراً بما يجري في شمال الغرب والشرق ، وكان لأجل اطلاعه الشخصي ، وبالاستعانة بكتّابه يفحص بنفسه تفاصيلَ الأمور الإدارية ويختبرُها ، وكان عُماله لذلك دائماً في حالة حَذَرٍ وتَهيؤ ، وهو الذي يُعيِّن الكتّاب والمحرِّرين بنفسه (٢)، ويُعبر هذا البيت من شعره عن قلبه وشعوره بالمسؤولية ، ويُصوِّر ما يواجهه - نتيجة هذا الشعور الزائد - من مشاكل ومعضلات ، فقد كان يُنشد هذا البيت كثيراً الذي معناه:

«إنَّ هموم العالم وأحزانه كثيرة ، ولا أحملُ إلا قلباً واحداً ، فكيف أَحمِلُ رمَال هذه الصحراء في زُجاجةٍ ساعةً واحدة»(٣).

وكان يُنشِد أحياناً هذا البيت ويأخذ به في العَملِ والتطبيق ، ومعناه: «لا أقول لك ضيع أو فكر في المنفعة ، أيها الغافل عن الفُرص المتاحة لك كُن أسرعَ ما تكون فيما تُحب أن تكون».

---

(١) انظر «أورنك زيب» لاستينلي لين بول ص: ٧٢ - ٧٣.
(٢) المصدر السابق: ص: ٧٩.
(٣) تاريخ هندوستان: ص: ٤٧٥، ج: ٨.

خلفاء عَالمكير الضّعفاءُ:

وخَلف أورنك زيب على عرشه العظيم المهيب (الذي كان قد أصبح حامياً للدِّين وحارساً له وخادماً للشعب المسلم بدل أن يكون ماحياً للدين وهادماً له ومستغلاً للشعب) من أولاده أولئك الأشخاص الضعاف الذين كأنهم حَلفوا أن يتداركوا ما وقع فيه عالمكير من«خطأ» الحفاظ على الدين والذبّ عنه ، وإحياء الشريعة الإسلامية ، وإجراء السنَّة النبوية سيُكفِّرون ـ دائماً ـ عن تلك «الجريمة» التي ارتكبها السلطان عالمكير بتوسيعه لحدود المملكة ، وتنظيمِه لإدارة البلاد ، وتوطيد دعائم الحكم بيقظته وحنكته ، وجدِّه ومثابرته ، وشعوره بالمسؤولية ، وما أدخل من الرعب والهيبة في قلوب العامة والأشرارِ والمفسدين ، بترفهم وبذخهم وكَسلهم وعدم كفاءتهم ، وصراعهم الداخلي ومنازعتهم ، واعتمادهم ـ كلياً ـ على الوزراء وأركان البلاط المغرضين المتكالبين على الجاه والسلطان ، وغَفلتهم عن شؤون الدولة وإدارة البلاد.

فكان من سُوء حظ الدولة المغولية ، بل الأمة الإسلامية ، بل الهند كلها أن توالى على عرش مملكتها ملوكٌ ضعفاء غير أكفاء ، وكان من عجائب التاريخ ومن الأدلة على أنَّ الله ـ تعالى ـ غنيٌّ عن العالَمين ، أنْ كان خليفة أورنك زيب الأول (شاه عالم بهادرشاه الأول) نفسُه على الضِّدِّ من والدِه العظيم.

لقد توالى على عرش الدولة المغولية في عهد الإمام ولي الله الدِّهلوي (١١١٤ـ ١١٧٦هـ) بعد السلطان أورنك زيب أحدَ عشر ملكاً ،وها هي أسماؤهم :

١ ـ محمد معظم بَهَادُرْشَاه (الملقب بشاه عالم بهادرشاه الأول).

٢ ـ معز الدين جَهَانْدَارْشاه.

٣ ـ فَرُّخ سير ابن عظيم الشان.

٤ ـ نيكو سير.

٥ ـ رفيع الدرجات بن رفيع القدر.

٦ ـ رفيع الدولة بن رفيع القدر.

٧ ـ محمد شاه بن جهان شاه.

٨ ـ أحمد شاه بن محمد شاه.

٩ ـ عزيز الدين عالمكير بن جهاندارشاه.

١٠ ـ محيي السنَّة بن كام بخش بن عالمكير.

١١ ـ شاه عالم بن عزيز الدين.

أي أنَّه تعاقب أحد عشر ملكاً في مُدة نصف قرن من الزمن، وكان منهم من لم تمتد حكومته إلا عشْرة شهور[١]، ومنهم من حكم أقل من أربعة شهور[٢]، ومنهم من حكم لأيام[٣]، أو مدة يسيرة جداً[٤]، وسوف نتحدث في السطور التالية عن أهمِّ الوقائع والأحداث في عهد خَلَفهِ الأول شاه عالم بهادرشاه، والملك فَرُّخ سير ابن عظيم الشان، والملك محمد شاه، والملك شاه عالم الثاني، الذين أسهموا بدورهم في تاريخ الهند، ومَصير المسلمين الهنود.

شَاه عَالمْ بهادر شاه الأول:

كان هذا أكبرُ أبناء عالمكير الذي هَزم أحَد إخوته محمد أعظم وتربَّع على عرش الدولة، وأكبر دليل وأوله على اختلافِ ميوله وطبيعته عن مُيول عالمكير وطبيعتِه أنه تبنَّى المذهب الشيعيَّ الذي لم يكن مُخالفاً لعقائد السلطان عالمكير وطبيعته وذوقِه فحسب، بل كان مخالفاً لعقائد جميع الملوك التَّيموريين المغول ومذهبهم ومنهجهم في الحياة، وكان مُعاكساً لمصالح هذه الدولة أيضاً (التي كان تسعون إلى خمسة وتسعين في المئة من سكانها من حدودها

---

(١) وهو معز الدين جهاندرشاه.

(٢) رفيع الدولة بن رفيع القدر وكانت مدة حكومته ثلاثة شهور وعشرة أيام.

(٣) محيي السنة بن كام بخش بن عالمكير.

(٤) رفيع الدولة بن رفيع القدر.

الشرقية بنغاله إلى حدودها الغربية بكابُل وقندهار سُنيينَ عقيدةً ، حَنفيينَ مذهَباً).

ولم تكن هناك إمكانياتٌ في الهند لقبول هذا المذهب ونجاحه على مستوى الجماهير.

وحسب تصريح غلام حسين طباطبائي مؤلِّف «سير المتأخِّرين» (الذي ينتمي إلى الفرقة الاثني عشرية ، وتتجلَّى شيعيته في تاريخه للوقائع والأحداث) لمَّا أمر بهادرشاه باعتناق المذهب الشيعي ، وعقدَ المباحثات والمناظرات مع علماء أهل السنة في هذه القضية ، وأمر بإدخال هذه الكلمات: «عليٌّ وليُّ الله ، وصيُّ رسول الله» في الخطبة حدث اضطراب في لاهور حيث كان الملك مقيماً ، ووقعت اشتباكات ، وصرّح المؤلف بأن ذلك لم ينل قبولاً ورواجاً ، يقول:

«لم يزل بهادرشاه يصرُّ على هذا ، ويسعى جاهداً في نشر المذهب الشيعي وتقويته ، ولم يزل باب المناقشة والمناظرة مع العلماء مفتوحاً لمدة طويلة من الزمن ، ولكن ذلك لم يُـجْدِ شيئاً»(١).

وكان من نتيجة هذا التَّغيير أن استاءت الجماهير والجيشُ كذلك ، ولم يَبق في الجيش ذلك الحماسُ الديني الذي كان في عهد المغول الماضي قُوةً دافعة كبيرة ، وقد تفطَّن لذلك بعضُ المؤرِّخين من غير المسلمين أيضاً ، يقول الدكتور سَتِيْش جَنْدَر Dr. Satiesh Chander: «لقد ضَعُف تأثير الدِّين على سياسةِ الحكومة»(٢).

ويقول الشيخُ ذكاء الله في «تاريخ الهند»:

«لقد حدثت انقلاباتٌ وتطورات كبيرة ، بعد عالِمكير في أمور الدولة ،

---

(١) سير المتأخرين: جـ: ٢، ص: ٣٨١.

(٢) DR.Stish Chandra. Partes and Politice in The Muchal Court, 1707- 40 Aligarh 1959,P- 40.

وتغيرت أشكال العلاقات كُلها ، وانقلبتِ العلاقات التي كانت بين الدولة التيمورية والمَرْهَتَهْ رأساً على عقب ، وكانتِ الدولة المغولية قد بلغت من الضَّعف والهُزال حد الاحتضار ، ولكنه رُغم احتضارها وإشرافها على الموت لم تنسَ كبرياءها وغطرستها»[١].

كان عالمكير إذا كان في أَوْرَنْكَ آباد[٢]، خافَه أركانُ الدولة وكبار الأمراء في بِهَارْ وبَنْغَالَهْ فضلاً عن دهلي وهابُوه ، فقد كان متفقداً للأحوال ، مُطلعاً على الأمور الجليلة والحقيرة من شؤون الدولة ، ولم يكن يتأخرَّ لحظة في إصدار أوامره في الحين المناسب ، أما خَلَفُه (بهادرشاه) فكان حاله كما يقول مؤرِّخ الهند:

«كانتْ أوامره غير منتظمة، ولم يعد أيُّ اعتبار لتوقيع السلطان ، وكان السلطان يقول لخدمه وحواشيه: لقد تحالف كل الموظَّفين وتوافقوا فيما بينهم فما يرونه أفضل عندهم ينفذونه، وليس لي إلا الاسم، ولم يَعُد لي عمل سوى أن ألبِّي حاجات الخلقِ وأُحقِّق مطالبهم»[٣].

ويقول: «لقد أرَّخ بعضُ الظرفاء المتندرين جلوسَه على عرش الدولة بـ«الملك الغافل» ، إنه يَسهرُ الليالي ، وينام إلى الضحى ، وهذا يُسبب المصاعب للناس في أيام أسفارهم . . »[٤].

ويقول: «إن الأمر الثالث الذي أقدم عليه مخالفاً لدستوره وقانونه ، أنه عاتب العلماء وغَضب عليهم ، وأودعهم في السجون ، ثم غلب عليه الخفقان

---

(١) تاريخ هندوستان: للمولوي ذكاء الله الدهلوي، جـ - ٩، ص: ٣٣.
(٢) مدينة في الجنوب، كانت في إمارة حيدر آباد سابقاً وتقع الآن في مهاراشتر وقد أقام فيها أورنك زيب فترة للقضاء على الإمارات النابتة (وأكثرها شيعية) التي انفصلت عن المركز في فترات مختلفة.
(٣) تاريخ هندوستان: ص: ٣٨.
(٤) المصدر السابق.

حتى وَدَّع هذه الدنيا الراحلة في عاصمته لاهور في ١٩/ محرم عام ١١٢٤هـ»[١].

ويُشِير الطباطبائي أيضاً إلى ما حصل له في آخر عُمره «من اختلاط سفهٍ، وإصدار أمر بقتل الكلاب، وأنه كان يظن به السِّحر»[٢].

وهكذا تضعضعتِ الدولة المغولية العظيمة في عهد الخليفة الأول لعالمكير، وفي مُدة ست سنوات فحسب، وزالت تلك المهابة والسطوة، والعظمةُ التي كانت من عهد الملك (بَابَر) تُخيف القوى المخالفة، وتُرعب قلوب الغوغائيين وأصحابَ الفِتنِ والثورات، وتُسيطر على قلوب الخاصة والعامة.

فَرُّخ سير:

لقد استولى في عهد فَرُّخ سير (١١٢٥هـ ـ ١١٣١هـ) حُسين علي خان وعبد الله خان (اللذين كان يلقب الأول منهما: بأمير الأمراء، والثاني بقطب الملك) على المُلك وعلى المملكة كُلِّها، فكان فَرُّخ سير أُلعوبة في أيديهما، وقد حبَساه أخيراً ثم أطلقاه من قيد الحياة، يقول مؤلِّف «تاريخ الهند»:

«لقد كان فَرُّخ سير طَيِّبَ الأخلاق، رَحب الصدر، يُقدر الناس، وكان يُحاول مقابل خِدمة كُل أحد واهتمامه به، أن يوليه منصباً لائقاً وخدمات جيدة، ويُبرزه في الأقران، ولكنه لم يكن يملك من السلطة شيئاً، ولم يكن مُحنكاً، فقد نشأ وتربَّى في ولاية بنغاله بعيداً عن آبائه وأجداده، وفي غفلة عن أمور المملكة وشؤون الدولة، وكان يَفقد الثبات والاستقامة والرأي السديد، ويَقتدي بآراء غيره، قد أتاه الجَد والحَظُّ بالعرش والتاج، وقد كانت الأسرة التيمورية تمتاز بالبطولة والشجاعة، أما هو فكان خِلواً من ذلك جباناً ضعيفاً،

---

(١) تاريخ هندوستان.

(٢) سير المتأخرين: ص: ٣٨١ ـ ٣٨٢.

ولم يكن يَسبُر غَور الكلام ، ولا يتَوصَّل إلى فهم غَرض المُغرض ، فأَصبح بنفسه من بداية حكمه مِعْول هَدْمٍ لدولته[١] .

وكان رَاجَهْ رَتَنْ سِنْكَه (ديوان السيد عبد الله خان) يتدخَّلُ في أمور جميع الوُلاة والأمراء ، فلم يكن عنده لأيّ واحد من الناس تقدير ولا اعتبار ، ولا سيما في الشؤون المالية ، وقد زاد ترف الملك وخلوتُه وسفهه ، وكانت ضرورات الناس مُعَطلة»[٢] .

وأخيراً سَمَلَ الأخوانِ (قُطب الملك وأمير الأمراء) عَيني الملك فَرُّخ سير ، وحبَساه في السجن داخل القلعة التي كانت كحُفرة القبر ، ومَات المَلِك بعد أن حَكم سِتَّ سنوات وأربعةَ أشهر ، وقد قضتْ هذه الوقائع والأحداث على ما كان لخلفاء العرش المغولي من تقدير واحترام ، وما كان للدولة المغولية من قوة واعتبار .

مُحمَّد شاه بادشاه (ت ١١٦١ هـ):

حكم محمد شاه تسعاً وعشرين سنة وستة أشهر ، وعَهْدُه مليءٌ بالحوادث والوقائع الهائلة ، ففي عهده كانتْ حملة نَادِرْشاه التاريخية على دلهي ، ولكنَّ هذين الأخوين من الشيعة الأشراف المعروفين بـ«سادات بارهه» قطب الملك عبد الله خان وأمير الأمراء حسين علي خان ، كانا مُسيطرين على الدولة ـ كلّياً ـ وكان أهل البلاط يَرون أن الملك لم يَبق له ـ لأجل سيطرة هذين الأخوين ـ شيءٌ من الحكم وإصدارِ الأوامر إلا صلاةُ الجمعة . . . وكأن هذين الأخوين قد شمَّرا عن ساق الجد على أن يُلحقا العار بالأسرة التركية والمغولية ، ولا نجاة في الخَلوة والعزلة عن المناصب .

وقُلوب الوارثين للعرش والتاج وأبنائِهم وأحفادهم وحشَمهم وخدَمهم البعيدين والقريبين الذين يَفْدُونهم بالأرواح في حُزنٍ عميقٍ وأسىً بالغ إذ يرون

---

(١) سير المتأخرين: ص: ١٠٩ .

(٢) المصدر السابق: ص: ١٣٠ .

وارث العرش والتاج لا سُلطة له ولا اختيار ، ولا قدرة على إجراء أحكام الشرع ولا صلاةِ الجمعة ، والهنادكُ من قُرب مدينة أكره إلى ساحل البحر يَبنون المعابد ، ويَمنعون مِن ذَبح البقر[١].

«وكان الناسُ كلُّهم صغيرُهم وكبيرُهم يَحنقون على رتَن جند سُلطته وتدخله في الأمور الدولية والشؤون المالية الذي لم يراعي إلا أشراف «بارهه» وقبيلة البقالين ، وكانت البيوتات الكريمة في كل مكان تَعيش بالذل والمهانة»[٢].

ويقول الطباطبائي مؤلِّف «سير المتأخِّرين»:

«لِما أنَّ الملك كان شاباً فاقداً العزيمة ، قليلَ الجراءة ، يَنهمك في اللذات وحياة الترف والبذخ ، ولا يلتفت إلى شيء من أمور الحكم إلا إذا كان أمراً ضرورياً جداً ، وهكذا زال الخوف والمهابة ـ تدريجياً ـ من قلوب الأمراء والأعيان والوجهاء ، بل من قُلوب عامة الناس ، فكان كُلٌّ أحد منهم يفكِّر في مَحلّه أن يُعلِن حريتَه واستقلالَه ، ويَنفُض يده من الطاعة والانقياد[٣].

ولم يكن حينذاك في البلاط وأركان الدولة إلا شخصيةُ (نظام الملك آصف جاه) الذي كان مع مَضاء عزيمته وعُلوِّ همته ، وفياً لصاحب العرش والتاج ، مخلصاً ناصحاً، ولكنَّ الأشراف والعناصر الإيرانية كانت تتغلَّب عليه، ولا تدع له أي مجالٍ ولا تَسمعُ له كلمة ، ولذلك لما رأى آصف جَاه أنه لا يُقدَّر وفاؤه وإخلاصُه، وأن إقامته هنا إضاعة للوقت ، وتعريضُ النفس للخطر في كل حينٍ اتجه إلى دَكَن (الجنوب)، وخلا الجَوُّ في دلهي للمُغرضين وأصحاب المطامع.

ثم غَلب على محمد شاه ترفٌ بالغ حتى خلَّف وراءه المُترفين السابقين وأنسى الناس قصصهم ورواياتهم ، وضربَ رقماً قياسياً في البَذخ والعيشة الرغيدة الناعمة ، يقول مؤرِّخو الهند:

---

(١) تاريخ هندوستان: جـ ٩، ص: ١٦٦.

(٢) المصدر السابق: ج ٩، ص: ١٨٢.

(٣) سير المتأخرين: جـ: ٢، ص: ٤٥٨.

«إنَّ محمد شاه لم يُغيِّر ديانته ، ولكنه غيَّر مذهبه ، فأصبح السحابُ الداكن من محبُوبيه ، وصدر الأمر العام بأنه إذا هاجتِ السُّحبُ من سفوح جبال هملايا ، ورَعدتْ وبَرقت ، فلتُنصَبْ له الخيام في الصحراء ، ثم لا يُسمع إلا صوتُ الملِك الهائم السكران:

الصَّبُوحَ الصَّبوحَ يَا أصحاب   المُدامَ المُدامَ يا أحبَاب

وانتهت أخيراً سُلطةُ أمير الأمراء السيد حسين خان وقُطب الملك النَّواب عبد الله خان(حسن علي خان) من أشراف «بارهه» ، وطفحتْ كأس حياتهما ، ولكن الدولة المغولية ـ رغم ذلك ـ لم تتغير ، لأن المَلِك كان يفقد كل صلاحية للحكم وأدنى بصيرةٍ وتفرُّسٍ للأخطار المحدِقة.

يَقول السيد هاشمي الفريد آبادي في تاريخه للهند:

«لقد احتُفل في البلاد كلها بمناسبة انتهاء الأشراف «صانعي الملوك» وعودة القوة والسلطة إلى محمد شاه ، واستقبل الناس ذلك ـ بصفة عامة ـ بفرَح وسرور ، ولكن هذا السرور لم يكن نتيجة عاطفة الحُبّ للسلاطين والملوك ، بل كان مؤسَّساً على أماني الإصلاح في المستقبل للإدارة والنظام ، وتحقيق مصالح البلاد ورفاهية الناس ، فلم يكن عاقبتها إلا الحُزن والبأس والآس ، لأن هذا الخليفة الجديد للملك (أكبر) والسلطان (أورنك زيب) كان عرياً عن صفاتِ آبائه الغُرِّ المُلوكية ، وأنه لم يكن له في حياته المُترفة والباذخة والاشتغال بالمتع والمَلاهي فرصةٌ للنظر في شؤون البلاد ، وأنه كان أكثر غفلة وجهلاً بأحوال الدولة وأقل تفكيراً في فساد الدولة وخرابها من نساء القصر الملكي ، حتى إننا نقرأ كثيراً عن جدَّته (مهربرور زوجة شاه عالم بهادرشاه) أنها كانت تُنبّه حفيدَها الغافل النائم من سُباته العميق ، وكانتِ النتيجة الواضحة لكل ذلك الانحطاط والسقوط»[١].

ويَنبغي في هذا الموضوع ألا نُغفل رأي جَادُوْنَاته سَرْكَار ، الذي أبداه وهو

(١) تاريخ الهند: للفريد آبادي، ج٣، ص: ٢٦١.

يُعلِّق على مواضع الضعف في محمد شاه ، يقول :

«لئن كان محمد شاه لا يَستحق التقدير والاحترام ، فإنه يستحق الرحمة والعطف ، لقد كانتِ الظروف والأوضاع أدتْ به إلى موقف كان في حاجة إلى شَخصية عبقرية (Genius) ، ولكنّه كان إنساناً عادياً ، وأنَّ المؤرِّخين يعيبونه على أنه قَضى عُمره في البذخ والترف ، بدلاً من أن يهتم بأمور الدولة ، ولكن المأساة هي أن مثلَه لو صرف همته إلى شؤون الحكم والإدارة ، ما كان بوُسعه أن يُغير تيار الأوضاع .

لقد كان أمثال «رفيع الدرجات» و«رفيع الدولة» ألعوبةً في أيدي غيرهم ، ولم يكن لَديهم شعور بِذُلهم ومَهانتهم ، أما محمد شاه فكان يشعر بفَداحة الخطب وسُوء الأوضاع ، وضَعفِه وعَجزه عن الإصلاح»[1] .

وبالجملة ، فإنَّ المملكة العظيمة التي قامتْ بعزيمة بابَر وبطولته النادرة ، وجِدّه وجهاده ، وقُوته وثباته ، والتي حفظها وأبقى عليها أخلافُه إلى السلطان أورنك زيب بشجاعتهم وقوة شكيمتهم وغَيرتهم التيمورية ، بلغتْ إلى غاية من الترف واللهو والغفلة والإهمال الذي أصبح حَظَّ الحكومات الوراثية الجابرة الجائرة ، وما أصحَّ ما قال الدكتور إقبال :

«أنا أُنبئك أيّها الإنسان بحظُوظ الشعوب وجُدودهم ، إنَّ بدايَتها بالسيوف والرِّماح ، ونهايتَها بالطَّواويس والطبول» .

وكانتِ النتيجة ـ أخيراً ـ هي تلك التي عبر عنها محمد شاه نفسه في شَطر من شعره ، ومعناه :

«إنَّ شُؤمَ أعمالنا ظَهر في صورةِ نادر» .

توجَّه نَادِرْشاه إلى دلهي عام ١١٥١هـ ، وكان قد كَتب ـ قبل ذلك ـ عدَّة رسائل إلى محمد شاه ، ولكنْ حسب تصريح المؤرِّخ :

«كانت هنا ـ إذ ذاك ـ أيامُ الأفراح والليالي الملاح ، وكان مُحمد شاه بَهَادُر

---

(١) Fall of The Mughal Empire P.373-74.

صاحبَ العرش والتاج ، ولم يكن له من العمل إلا الراحة واللذة ، فلا تفارق الكأسَ يديه ، ولا تفارق الغادة ذِراعيه ، فمن يكون له التفكير في الرد على الرسائل والاهتمامُ بالبريد؟»[١].

وينبغي أن تقرأ تفاصيل حملة نادر شاه في كُتب تاريخ الهند ، وما وصلتْ إليه حال دلهي بعد حملته (ولا يَغيبنَّ عن البال أن الإمام الدِّهلوي كان حينذاك ابن ٣٧ سنة ، وكان قد رجع من زيارة الحرمين الشريفين) ، نستمع لوصفه إلى مؤلِّف «تاريخ الهند» :

«لقد كانتِ المدينة (دلهي) بعدَ رجوع نادرشاه مليئةً بالجُثث والأشلاء ، فارغة من الأحياء ، وكانتِ البيوت خراباً مُهدّمة يُخيِّم عليها السكون المُهيب ، وكانت الأحياء والحارات بأسرها مَحرقةً تحوَّلت إلى رماد .

وكانتِ العفونة الصاعدة من الجثث ، والرياحُ الكريهةُ المنتنة تكاد تَشقُّ الدماغ وتَفْطره ، ولم يكن هناك من يُكفِّن أحداً ، أو يَدفن في القبر أحداً ، وقد اختلطت جُثثُ المسلمين والهندوس ، واحترقتْ في ركام إلى رماد .

هذا حال المدينة ، أما حال البلاد ، فكان نادر شاه يَغط في النوم أياماً فلما هبَّ من نومه ، كانت القذارة تُغطي عينيه حتى يتقزَّز منَ النظر إليه ، ولم يكن في الخزانة فلس واحد ، ولا يُعرف أين الخراج والمحاصيل ، وكان الجيش محطماً منهوكاً هالكاً .

وعلاوة على كل ذلك كان الخوف من المرهتة لا يزال مُسيطراً ، وقد خَربت تلك الولايات التي كانوا استولوا عليها ورَغم كل هذه المصائب والمحن كان النزاع قائماً بين أهل البلاط والحاشية ، فكان فريق من الأمراء التورانيين الذين كان على رأسهم آصف جاه وقمر الدين خان الوزير ، وفريقٌ آخر للأمراء الآخرين الذين كانوا يحاولون عَزلهم وإبعادهم عن البلاط ، وكان الملك أيضاً يُعدُّ منهم ، ولو لم تقع قضية المرهتة ولم تواجههم مُشكلتهم لكان هؤلاء

---

(١) تاريخ هندوستان: ج ٩ ، ص: ٢٥١ .

الأمراء قد توزَّعوا المملكة كلها فيما بينهم من زمان، وتركوا الأسرة التيمورية اسماً بلا رسم»[١].

ولما رجع نادرشاه من الهند كان من أولى نتائج رجوعه أن انفصلتْ ثلاث ولايات مُخصبة: بنغاله، بهار، وأريسه، من حكومة دلهي، وقامت فيها حكومة مستقلةٌ لعلي وردي خان[٢].

وأصيبَ محمد شاه أخيراً بمرض الإسهال، ومات في هذا المرض في ٢٦/ ربيع الآخر عام ١١٦١هـ الموافق أبريل عام ١٧٤٨م، وحَسب ما يقول مؤلف «تاريخ الهند»: «إنه حكم ثلاثين سنة، وقد أدّى فيها بالأسرة التيمورية إلى شفا الهلاك والدمار»[٣].

شَاه عالِم الثّاني:

لئنْ كانتِ الدولة المغولية مُنِيتْ في عهد محمد شاه بالانحطاط الخُلقي والإداري، ومالَ المجتمعُ الهنديُّ، وطبقة الأمراء والأغنياء ـ بصفة خاصة ـ لقانون «الناسُ على دينِ مُلوكهِم» إلى حياة المتع واللذائذ والتَّرف والبذخ، والدَّعة والراحة، فإنها أُصيبت في عَهد شاه عالم الثاني الذي تولى زِمام الحكم عام ١١٧٣هـ الموافق عام ١٧٥٩م بالانحِطاط السياسي الشائن الذي بلَغ الغاية.

إنَّه لم يزل في عهد حكومته الممتد على ٤٧ عاماً ألعوبة في يد غيره، وقد خضع للإنكليز وقَبِل طاعتهم عام ١٧٦٤م بعد أن لقي أميرُ أَوَدْه وزير شجاع الدولة ومير قاسم هزيمةً على أيدي الإنكليز في معركة «بكسر»، ووقَّع الوزير شجاعُ الدولة على معاهدةٍ ظلَّ بسببها موظَّفاً يتقاضى راتبه من الإنكليز، ثم كانت له اتفاقيةٌ أخرى مع الإنكليز عام ١٧٦٥م أدَّت إلى تولِّي الشركة الشرقية

(١) تاريخ هندوستان: ج ٩، ص: ٢٧٢.
(٢) المصدر السابق: ج: ٢٩ ص: ٢٦٢.
(٣) المصدر السابق: ج: ٢٩ ص: ٢٨٤.

الهندية جِباية المحاصيل والسلطة على المحاكم في ولايات بنغاله وبِهَار وأُرَيْسَهْ ، ودخل شاه عَالِم نفسُه في جوار المرهته ، ووَهَبهم مديريات إلٰه آباد وآكْرَه .

لقد كانتِ البلاد كلُّها قبل عهد الشاه عالم الثاني بزمنٍ ، تحتَ رحمة السِّيخ والمَرْهَتَة ، وكانت مناطق دلهي وآكره وراجبوتانه تحت رحمة الزط ، الذين كانوا يعيثون فيها فساداً ، ويخرجون كالطوفان ويُهلكون الحرثَ والنسلَ ، ولم تكن في البلاد قُوة تملك أن تَبسُط الأمن وتفرض القانون (١) .

وقد حفظ أحمد شاه الأبدالي هذه البلاد من خطر المُرهتة بعد أن هَزمهم في ساحة باني بت في ١٤/ يناير عام ١٧٦١م هزيمةً ساحقة نكراء ، وقد حاول جُهده في طلبه شاه عالم إلى دلهي ، وأرسل إليه سفيرَه لذلك ، حتى اضطر إلى أن استكتبَ والدته النَّواب زِينت محل رسالة إليه ، ولو كان في الدولة المغولية أيُّ رمق من الحياة ، وفي شاه عالِم أيُّ كفاءة وصلاحية للحكم ، لكانَ قد استفاد من نتائج حرب «بَانِي بَتْ» واستعادَ قوته وسُلطته ، ولكنَّ الدولة كانت جسداً بلا روح ، وكان المِلك فاقداً الهمة والعزيمة ، خالياً من الغيرة والحمية ، وكما يقول محمد إقبال :

«إنَّ ما يُـقال لها الحميَّـة ذَهبتْ من أُسرة تيمور وولَّتْ من غير رجعة» .

وعاد الملك من إلٰه آباد إلى دلهي عام ١٧٧١م بعد عشر سنوات كاملة وقد فات الأوان ، فلم يُقدَّر له أن يستفيد من الفتح العظيم في ساحة«باني بت» والهزيمة الساحقة التي لحقت بالمرهتة ، بل واجه هُنا فتناً جديدة ، صراعاً بين الأمراء وتحايلهم وتنازعهم ، وقُوة «رُوْهَيْلَهْ» الجديدَة ، وحَملاتِ السِّيخ ، وأخيرا استولى غُلام قادر روهيله حفيد نجيب الدولة على دلهي عام ١٧٨٨م ونَهب القصر الملكي ، وأمر بضَرب الأميرات بالسياط ، وأخرج عيني الملك المغولي وَوارثِ العرش التيموري بظُبةِ الخِنجر ، ولم يكن قد سَبق أن عُومل

(١) انظر التفصيل في الباب الثالث ، الفصل الخامس من هذا الكتاب ، ص. . . .

وارِث العرش المغولي بهذه المهانة والفضيحة والعار.

وَقتل سندهيه غلام قادر عام ١٧٨٩م بقَسوة فظيعة، وأجلس شاه عالِم على العرش مرة ثانية، وعَيَّن تسعمئة ألف روبية سنوياً لمصروفاته، ودخل عام ١٨٠٣م اللورد لِيك بجيشه الإنكليزي في دلهي بعد حُروب عديدة، وأجلىٰ المَرهتة، وقرَّر لِلملك المتقاعد راتب مئة ألف روبية سنوياً![1]

ولقيَ شاه عالم أجله عام ١٨٠٦م، بعد أن حكم ٤٥ عاماً، وقضى ١٨ عاماً في العمى مخلوعاً مهاناً.

٢ـ الوَضعُ العِلميُّ والرُّوحي:

لقد كان هذا العهد رغم الاضطراب السياسي، والفوضى الاجتماعية، والانحطاطِ العام، عَهْدَ النُّبوغ العلمي، والاشتغال بالتدريس والتأليف، والعزلة الروحية، والرقي الباطني، وتزكية النفوس وإصلاح القلوب، من الناحية الفردية، وقد ظهرَ فيه عددٌ من النوابغ وأصحاب الفضل والكمال، وممن لا يمتُّون إلى هذا العهد من الانحطاط والفوضى بصلة، ولا يوجد عليهم أيُّ تأثير لليأس من الأوضاع والخوف منها.

يقولُ بعضُ المطَّلعين إن كثيراً من المآثر والروائع العلمية والأدبية تَدين لجهود أولئك الأفراد الأفذاذ الذين كانوا يُعانون من الأمراض المزمنة أو شيئاً من العِلل والصَّدمات الداخلية، ويُعلِّل ذلك علماءُ النفس بأنَّ قوة الدفاع والمقاومة تندفع في مثل هذه الحالة وتُقوِّي الشعورَ بتدارك ما لَحِقَ بذلك المرض، ويدفعُ ذلك الشخص إلى إنجاز ما لا يَقدر على إنجازه لو كان في الأحوال العادية.

إنَّ هذه الناحية العِلمية والروحية في الهند، وظهورَ هؤلاء الأفذاذ

---

(١) انظر «تاريخ هندوستان»، ج٩، ص: ٣٤٣، وقد جاء في بعض كتب التاريخ بالإنكليزية أنه قرر تسعين ألف روبية.

النوابغ في عهد الانحطاط إثباتٌ لقوة المقاومة الداخلية في مُجتمع مريض مُنحطٍّ مُشرف على السقوط ، ودليلٌ على أنَّ خَلِيَّة الإسلام لم تزل تَعْسل ، وأنه لم يزل يَصنع الرجال ويُنتِج العبقريات.

فإنَّنا نجد في هذا العهد في سَعة العلم والذكاء الباهر ، وقُوة التدريس وحسن التأليف والتصنيف أمثالَ الشيخ أحمد بن أبي سعيد الأميتهوي (١٠٤٧ - ١١٣٠ هـ) صاحبَ «نور الأنوار» و«التفسيرات الأحمدية» ، والشيخ حمد الله السنديلوي (ت ١١٦٠ هـ) صاحب «شرح سلم العلوم» المعروف بـ «حمد الله» ، والشيخ محمد حسن المعروف بمُلاَّ حسن الفِرَنكي مَحِلِّي صاحب «شرح السلم » ، المعروف بـ«مُلاَّ حسن» (ت ١١٩٩ هـ) ، والشيخ رستم علي القَنُّوجي (ت ١١٧٨ هـ) والشيخ صفة الله الخير آبادي (ت ١١٥٧ هـ) والشيخ علي أصغر القنوجي (ت ١١٤٠ هـ) والشيخ غلام علي آزاد البَلْكَرامي (١١١٠ هـ - ١٢٢٠ هـ) والشيخ غلام نقشبند اللكنوي (ت ١١٢٦ هـ) والقاضي محب الله البِهاري (ت ١١١٩ هـ) مؤلِّف «سلم العلوم» و«مُسلَّم الثبوت» (الذي شغل علماء الهند ومُدَرسيها في شرح هذين الكتابين وتحشيتِهما قُرابة قرن من الزمان ، وكانت كُتبه مرجع العلماء الكبار ، وأساتذةَ الأزهر في مصر) والقاضي مبارك الكوباموي (ت ١١٦٢هـ) مؤلِّف «شرح السلم» المعروف بـ«قاضي» ، والشيخ محمد أعلى التَّهانْوِي مؤلِّف «كشاف اصطلاحات الفنون» (وهو كتاب فريد في بابه)[١] ، ومُلاَّ نظام الدين اللكنوي (ت ١١٦١ هـ) الذي كان يُسيطر منهجه الدراسي المعروف بالمنهج النظامي على الأوساط العلمية من الهند إلى بخارى وسمرقند ، والذي وصفه مؤلف «نزهة الخواطر» بـ«غيث الإفادة الهتون ، العالم بالرَّبع المسكون ، أستاذ الأساتذة وإمام الجهابذة» ، وأمثالُ هؤلاء من العلماء النابغين والمدرسين والمؤلِّفين والمؤسِّسين للحركات العلمية ومناهج التعليم والتربية ، الذين يتجمَّل بهم التاريخ وتعتزُّ بهم البلادُ

---

(١) [وقد طُبع محقَّقاً ومنقَّحاً مع تراجم اللغات الأجنبية في مكتبة لبنان ببيروت].

والأمصار ، لقد كان هؤلاء من رجال هذا القرن وأعيانه[١] .

وإذا نَظرنا إلى الطريقة والسلوك ، فقد كان في هذا القرن الشيخُ الربَّاني مِرْزا مَظْهَر جَانِ جَانَان (١١١١ ـ ١١٩٥ هـ) من كبار أصحاب التربية والتزكية في السِّلسلة النقشبندية المجدِّدية ، الذي قال فيه الإمام وليُّ الله الدهلوي نفسه : «إن أمثال هؤلاء المشائخ لا يوجدون في عدد كبير في كل عصر ، فكيف في هذا العصر المليء بالفتن والفساد؟»[٢] .

ونَجدُ في هذا العهد شيخَ السلسلة القادرية المعروف، والمرشد الروحي للعلاَّمة نظام الدين اللكنوي مؤسِّس المنهج النظامي ، السيدَ عبد الرزاق البانسوي (ت ١١٣٦ هـ) ، ومجدِّد السلسلة الجِشْتِيَّة النظامية الشيخ كليم الله الجهان آبادي (ت ١١٤٠ هـ) ، وإمام هذه السلسلة وناشرها الشيخ فخر الدين الدهلوي (ت ١١٩٩ هـ) ، وشيخَ السلسلة المعروف الشيخ محمد غوث القادري اللاهوري (ت ١١٥٤ هـ) ، وشيوخ السلسلة النقشبندية الربانيين الكاملين كالشيخ محمد عابد السُّنَّامي (ت ١١٦٠ هـ)[٣] ، والشيخ محمد ناصر عندليب (والد الشاعر العارف الكبير خواجه مِيرْدَرْد الدهلوي) (ت ١١٧٢ هـ)، والشيخ منيب الله البالابوري، والشيخ نور محمد البَدَايُوْنِي (ت ١١٣٥هـ)، يُزينون مجالس الطريقة والسلوك ، ويُرشدون إلى طرائق الحق ، ويُصلحون القلوب .

وبالجملَة فقد كان هذا العهد عَهد انتشار هذه الطرق الثلاثة : القادرية والجشتية والنقشبندية ، وقبولها وشيوعها ، وكان شيوخُ هذه الطُّرق الثلاث الكبار بقَيد الحياة وعلى نشاطٍ ، قال الشيخ عبد العزيز الدهلوي :

---

(١) مقتبس من «نزهة الخواطر» جـ٩ .
(٢) انظر «كلمات طيبات» ، ص: ٦٥ .
(٣) استفدنا هذه الأسماء ووفياتهم وخصائصهم المميزة من «نزهة الخواطر» ، جـ ٦ للعلامة السيد عبد الحي الحسني رحمه الله تعالى.

«كان في دهلي في عهد محمد شاه اثنان وعشرون من المشايخ الربَّانيين المرشـديـن المُنتمين إلى مختلف الطرق ، ولا يَـتَّـفقُ وجود مثـلِ هذا إلا قليلاً»؟[١] .

٣ـ الانحِطـاطُ الخُلُقـيُّ والاجْتماعـيُّ:

ولكنْ من الواقع ـ رَغم وجود هؤلاء النوابغ وأصحاب الفضل المعروفين والشيوخ الكاملين والمرشدين الربَّانيين ـ أنَّ المجتمع المسلم في الهند ـ ولا سيما طبقة الأمراء ـ قد وصل ذُروة التردي الخُلقي والإسفاف الاجتماعي بتأثير الدولة والانحطاط السياسي ، وتدفُّق الأموال والثروات الطائلة وبتأثير الحضارة الإيرانية ، ولأجْل ذلك كانت هذه الطبقة عاجزة ـ تماماً ـ عن أداء الدور الذي لَعِبَتهُ هذه الطبقة في كل عَصْر عند انقلاب الدُّول وتحوُّل الحكومات ، فقد برزَ من هذه الطبقة (التي كانت خطاً ثانياً (Second Line) في مُختلف العصور أولئك الأفراد الذين ملؤوا الفراغ الحادث في المجال السياسي والإداري ، ولقد أصاب المؤرِّخ الفاضل السَّيد هاشمي الفريد آبادي إذ قال:

«إنَّ ثروات الهند وأموالها الطائلة كانت قد مالت بهذه الطبقة من الأمراء إلى الترف والبذخ والدعة والاسترخاء... فإننا نرى أنَّ جهود هؤلاء الأمراء وكفاءتهم كلَّها تُبذل في الاحتيال والمؤامرات للأغراض الخسيسة التافهة ، فلم يكن أحدٌ من هؤلاء الأمراء يَجسُر على إعلان استقلاله في محلِّه ، دعْ عنك قَلْبهم للنظام والاستيلاءَ على الملك والسلطان ، فإذا كان الفساد الداخلي في الإدارة والنظام يسود في جانب في هذه الفترة ، ففي جانب آخر كانت تُفقد ـ تدريجياً ـ من أفراد الطبقة الحاكمة أيُّ صلاحية لإدارة الحكومة ، والإيهام في العمل والمسؤولية»[٢] .

---

(١) انظر «ملفوظات عزيزية»، ص: ١٠٦ .

(٢) تاريخ الهند: جـ ٣، للسيد هاشمي الفريد آبادي، ص: ٢٦٢ ـ ٢٦٣، طبع حيدر آباد، ١٩٢١م.

يقول الشيخ عبد العزيز الدهلوي:

«كانتِ النساء في بيت النَّواب قمر الدين، يَغتسلن الغسل الأخير بماء الوَرد، وكان يُصرَف في بيوت النَّوابين (الأمراء) الآخرين ثلاثمئة روبية على ورقة التنبول والوُرود»[١].

ويقول الشيخ غلام علي آزاد البلكرامي في «مآثر الكرام»:

«يقول سكَّان (أَوْرَنْكَ آباد) بإجماع منهم إن معظم الناس لم يكونوا يَطْبُخون الطعام في بيوتهم في عهد أمير الأمراء حسين علي خان، فكان طبَّاخ قصر أمير الأمراء يبيع حِصته من الطعام، وكان الناس يشترون طبق «بَلاؤ» الممتاز (وهو كالكبسة الممتازة عند السعوديِّين) بفلوس معدودة»[٢].

٤ ـ فَسادُ العَقيدة واستيلاءُ الإشراك والبِدَع:

وأفزعُ من هذا الانحطاط الخلقي والإسفافِ الاجتماعي، وأَدعىٰ للحرمان من نصر الله ـ تعالى ـ وتأييدهِ، والتجريدِ من القوة الحقيقية، هُو الفساد العقيدي، فقد كانتِ البِدع والمحدثات، وكثيرٌ من تقاليد الهنادك والشِّيعةِ وعاداتهم تسيطر على المجتمع المسلم، وقد تسرَّبت في حياة العامة من الناس وتَغلغلت في أحشائها مخالفةً للإعلان القرآني الصريح: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر: ٣] وكانت تُوجد للشرك الجَلي في كثير من المواضع والأوساط صُور وأشكال، لا يمكن أن تُعلَّل تَعليلاً عِلمياً، فمِن عبادة القبور، وسَجدة التحية للمشائخ، وتَقديسِ الأماكن الخاصة للزيارة كتقديس الحرم، ووَضع الكسوة على القبور والنذور والقرابين، والذَّبح بأسماء الأولياء والمشائخ، والطواف بالقبور والأماكن المقدَّسة المزوَّرة، والاحتفال وإقامة الأعياد بها، والأغاني والمزامير، وإشعال الشموع، وباختصار اعتقاد هذه الأماكن هي المرجع والمصير، والملجأ والمجير، وأمثال هذه من الأحوال والمَشاهد التي

(١) انظر «ملفوظات عزيزية».
(٢) مآثر الكرام: جـ ١، ص: ١٧٠.

لا تحتاج لزيارتها أن تتجشَّم السفر البعيد والانتظار الطويل ، بل كانت مُنتشرة في كل مكان.

كذلك الكبش المنذور للشيخ سِدُّو ، وبَقرة السيد أحمد الكبير ، وأعلام غازي مِيَان ، وتَعزيةُ محرَّم (وهي القباب والمقابر المصنوعة من القِرطاس يحملها الشيعة أيام المحرم) ، والاحتفال الرائع بالأعياد غير الإسلامية ، والالتجاء إلى الأرواح الخبيثة في رفع الأمراض ، واسترضَاء الآلهة والإلهات والخوف منهم ، وتقديس «سِيْتلا»[١] لدفع مرض الجدري ، والنذر والذبح للأولياء والصالحين ، والصوم باسم الأولياء والصالحات ، وتَعليق الحاجات بهم ، والسؤال منهم.

وتَعيين الأطعمة الخاصة في الأيام الخاصة ، والالتزام فيها بآداب خاصة ، هذه وغيرها من العناوين الكبيرة التي تَضم تحتها سلسلة طويلة من الأوهام والخرافات والعقائد الفاسدة المنحرفة ، وتقاليد الجاهلية ، وعاداتها والتزامِها وقيودها ، كما أنه كانت الأسماء مثل علي بَخْش (أي عطاء علي) حسين بخش ، بير بخش ، (أي عطاء الشيخ) مدار بخش وسالار بخش ، عامة شائعة.

وكانتْ عقيدة التوحيد في دائرة كبيرة فد انحصرت في هذا المفهوم ، وهو أن الله ـ تعالى ـ هو الخالق الحقيقي للأرض والسموات والصانع للكون ، وهو المعبود حقيقة ، وهو الذي يُدبِّر الأمور العظام ، ولكنه كسلاطين الدنيا قد ولّى كثيراً من مصالح مملكته وشعبها عباده المقبولين المقرَّبين ، الذين قد مَلكوها وخُيِّروا في التصرف فيها ، فهم يتصرَّفون حسب ما يشاؤون ، فلا يُمكن الآن إحراز أي نجاح أو قَضاءُ أي حاجة إلا باسترضائهم وإقامة الصلة القوية بهم ، وأن الشرك ليس إلا أن يُعتقد لهذا العالم صانعٌ وخالقٌ غيرُ الله ، ويُظنُّ أنه

(١) إلٰهة من إلٰهات الهندوس يعتقدون أن مرض الجدري في تأثيرها.

يستحق العبودية والسُّجودَ مباشرة ، مِنْ دُون اعتقادٍ بالوسيلة والشفاعة[١].

وبالجملة فإنَّ الهند في القرن الثاني عشر الهجري كانت قد تردَّت من الناحية السياسية والإدارية ، والخُلقية ، والاجتماعية ، والاعتقادية إلى حدٍّ كبيرٍ في الحضيض ، ووصلتْ إلى آخر نُقطة من الانحطاط والانهيار ، وهي التي تكون مرحلة خطيرة مؤسفة لسُقوط البلدان الإسلامية ، وانحطاطِ المجتمع المسلم ، وقد صوَّر العلاَّمة السيد سليمان الندوي هذه الأوضاع بمجموعها في إحدى مقالاته تصويراً بليغاً موجزاً ، يقول:

«لقد كانتْ شمسُ الدولة المغولية في أُفول ، وكان للعادات والتقاليد الجاهلية في المسلمين صولة وجولة ، فكان الدَّراويش والمشايخ الكاذبون المتصنِّعون مُتربِّعينَ على دستِ مشائخهم في رباطهم ، جالسين يُوقِدون الشموع على مقابرهم ، وكانت جنبات المدارس ترتجُّ بأصداء الفلسفة والمنطق ، وكان التقيد بالنصوص الفقهية والالتزامُ الحرفي في الفقه والفتاوى شعارَ كلِّ مُفت وفقيه ، وكان التحقيق والبحث في المسائل الفقهية جريمة كبرى في جانب الدين ، وكانت الخاصة فضلاً عن العامة جاهلةً بمعاني القرآن الحكيم ومطالِبه ، وأحكامِ الأحاديث النبوية وإرشاداتها ، وأسرار الفقه ومَصالحه[٢].

* * *

(١) سيأتي تفصيل هذا التصور للتوحيد في الفصل الأول «إصلاح الإمام الدهلوي وتجديده للعقائد» من الباب الثالث من هذا الكتاب فلينظر هناك.

(٢) مقالات سُليماني: ص: ٤٤.



البَابُ الثّاني

سيرة الإمام الدهلوي

الفصل الأول
أجداد الإمام الدِّهْلوي وَوَالِدهُ

أَجداد الإمام الدِّهْلوي:

إنَّ عهد الأجداد الأوَّلين للإمام الدهلوي (الذين استوطنوا مدينة «رَهْتَك» من عهد الشيخ شمس الدين المفتي) هو ذلك العهد للتاريخ العلمي والتأليف في الهند الذي لم يبدأ فيه تأليفُ كتب التراجم بصفة عامة، وأكثر ما يوجد من كتب التراجم فهي تراجمُ فرديةٌ لبعض مشائخ الطُّرق المعروفين.

ويحتل فيها ما كُتب في حياة العَارف الكبير الشيخ نظام الدين الدهلوي باسم «سير الأولياء» الذي ألَّفه أمير خورد، مكانة ممتازة، أو كانت هناك كُتب تشتمل على تراجم عدة من المشائخ والصالحين، يَجدر منها كتابان بالذكر، أولهما «كُلْزَارِ أَبْرار» للشيخ محمد بن حسن الغوشي المندوي (الذي يحتوي معظمه على تراجم مشائخ ماندوومالوه) والثاني «أخبار الأخيار» للشيخ عبد الحق المحدِّث الدِّهلوي.

وكانتِ الكتب المؤلَّفة في تراجم أصحاب الفضل والنبوغ والشخصيات العلمية المعروفة، التي تشتمل على تراجم رجال مختلف الطرق الصالحين، أو على تراجم الشخصيات البارزة في مختلف المناطق والأصقاع (التي لم تكن مؤسسة لإحدى السَّلاسل والطرق، أو حَلْقة مهمة من حلقاتها) وعلى تفاصيل

حياتهم ، قليلةً نادرة ، وإن كانت فهي تلك التي تدور حول شخصيات العاصمة المركزية ، أو عاصمة الولايات وأعمالها ونواحيها ، أو رجال المُدنِ المركزية ذات الشهرة التاريخية ، الذين كان يتيسَّر للمؤلف التوصُّل إلى وسائل الاطلاع على أحوالهم وفضلِهم وأعمالهم.

وقد كانت أسرة الإمام الدهلوي نازلةً في «رَهْتَك» من عهد الشيخ شمس الدين المفتي إلى عهد جدِّه الشيخ وجيه الدين ، ولم تكنْ هذه المدينة تحمل تلك الأهميَّة والمكانة الكبيرة ، ولذلك فإننا لا نعثر في عامَّة كتب التراجم على أحوالهم ووقائعهم.

وكان يُخشى أن تبقىٰ أخبارُ هذه الأسرة الكريمة مطمورةً مغمورةً ، ويُواجه المؤلفُ لترجمة حياة الإمام الدهلوي أو لتاريخ أُسرته صعوبَة شديدة ، لو لم يكنِ الإمام الدهلوي نفسُه ألَّف رسالة باسم «الإمداد في مآثر الأجداد»[1] في تراجم أجداده وأحوالهم ، وهذه الرسالة نفسُها تشتمل على تراجم مختصرة مُجملة لأجداده الأوَّلين ، وترجمةً مفصَّلة ـ إلى حد ما ـ لجدِّه الشيخ وجيه الدين لقرب العصر ، وقِلة الوسائط ، ولذلك فإننا نعتمد على «مآثر الأجداد» ونكتفي به ، فإنَّ صاحب البيت أدرى بما فيه.

سِياقُ النَّسَب:

لقد ذكر الإمام الدهلوي الذي ينتمي ـ نسباً ـ إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه ساق نسبه في بداية هذه الرسالة إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه وقد كان في أعقاب الشيخ سالار حسام الدين أحد إخوة الشيخ شمس الدين المفتي الذي كان أول من قدم إلى «رهتك» من هذه الأسرة ، وألقىٰ بها عصا

---

(١) هذه الرسالة تشتمل على ١٠ صفحات بالقطع المتوسط، وقد نشر في مجموعة رسائله الخمسة، والرسالة الأولى منها، بعنوان «إنسان العين في مشايخ الحرمين»، طبع مطبعة الأحمدي بدلهي، وهي مضمومة مع الرسائل السبعة أيضاً التي نشرت مع «أنفاس العارفين».

التِّرحال ، أحدُ المشائخ الصالحين الذي يدعى «شاه أرزاني البدايوني» وأن أنساب أسرته أيضاً تصدق هذه السلسلة من النَّسب ، وتؤكد صِحَّتها ، وتَصلُ هذه السلسلة النسبية بثلاثين واسطة إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه[1].

ويَرِدُ في هذه السلسلة لقب «ملك» مع عدد من الأسماء، يقول عنه الإمام الدهلوي : «إنه كان يُستعمل للتَّبجيل والتعظيم كلقب «خان» في عصرنا».

دُخولُ أُسرة الإمام الدِّهلوي في الهند:

إنَّ أولَ مَنْ نزل مدينة رَهْتَك من أُسرة الإمام الدهلوي حسب تصريحه وروايته ، (ولعلَّه هو أول من دَخل الهند من أُسرته أيضاً) هو الشيخ شمس الدين المفتي ، ويُقدَّر من حساب عددِ الوسائط والأعقاب ، وأعمارِهم الطبيعية التقريبية أن الشيخَ شمس الدين المفتي يكون قد قَدم الهند في أواخر القَرن السابع ، أو أوائل القرن الثامن الهجري ، حين كانت حَملات التتار تُدمِّر العالم الإسلامي ، وتَنْتَهك حُرمات الأسر والبيُوتات الإسلامية ، وتُبدِّد خَزائنهم العلمية ، وتُحوِّل المُدن الشهيرة الراقية من إيران وتركستان إلى خَرابٍ يباب .

ويُفيد «تاريخ فيروز شاهي» وكُتب التاريخ الأخرى أنَّ كثيراً من البُيوتات الكريمة والأسر الشريفة ذاتِ الفضل والنبوغ توجَّهت في تلك الآونة إلى الهند؛ التي كانت تحكمها الأسَر المُسلمة التركية الأصل؛ التي ردَّت حملاتِ التتار على أعقابها ، واضطرَّتها للانسحاب ، وبذلك فإنها لم تحفظ هذه البلاد من غاراتهم الوحشية فحسب ، بل حَوَّلت هذه البلاد لرعايتها للدِّين وحُبِّها لِلعلم والمعرفة دارَ علم وفضل ، ومدرسةً واسعة تَستقبلُ أصحابَ الفَضل والنبوغ وتُوجَد فيها في كل مكان حلقاتٌ للدروس، ومراكز للذِّكر والعبادة وتزكية النفوس ومجامعُ لأصحاب الأقلام وأهلِ البحث والتحقيق، حيث كانت

---

(١) راجع «الإمداد في مآثر الأجداد» في مجموعة الرسائل الخمسة للإمام الدهلوي ـ طبع مطبعة الأحمدي ـ دلهي.

الفرص مُهيّأة ومواتية لأن يُنجز كل واحد منهم عمله في سَكينة وطمأنينة وسلام(١).

الإقامة بـ «رهتك»:

يُخيَّل إلينا، ويَبدو من تَصريح الإمام الدهلوي أيضاً، أنَّ مدينة «رهتك» كانتْ إذ ذاك مدينة ذات أهمية وخطورةٍ للدولة الإسلامية الناشئة، وكانتْ أوَّل منزل وأهمَّه قبل دلهي للجيوش الإسلامية والمجاهدين المسلمين، ودُعاةِ الإسلام والمبلِّغين والعلماء والمشائخ الربَّانيين الذين يتوجَّهون إلى دلهي من غرب الهند.

ويُفيد الإمام الدهلوي أنَّ أقدم المشائخ الصالحين من القرشيين الذي قدم هذه المدينة، وظهرت بها بسَببه شعائرُ الإسلام وانتكست أعلامُ الكفر والجاهلية، وانطمست معالمها، هو الشيخ شمس الدين المفتي، وقد ذكر الإمام الدهلوي بعضَ كراماته، التي لا تُستغرب نظراً إلى صلاحه وتقواه، وظروف ذلك العصر وتلك البيئة، وكان يُولىٰ كل من ينزل بتلك المدينة من كبار العلماء والمشائخ منصبَ القضاء والحسبة، ويُولى أحياناً إدارة المدينة أيضاً، ولكنه لم يكن يُدعى في ذلك العصر بالقاضي أو المحتَسب.

مِن الشّيخ شَمس الدين المفتي إلى الشّيخ وَجيه الدين:

وقد تولَّى بعد وفاة الشيخ شمس الدين المفتي أكبَر أبنائه منزلةَ الشيخ كمال الدين المفتي، ثم ابنهُ الشيخ قطب الدين، ثم ابنه الشيخ عبد الملك هذه المناصب، وقاموا بهذه المسؤوليات.

ثم بدأ تعيين القضاة بعد هؤلاء المشائخ الكرام بصورة رسمية محددة، وقد أبقى الشيخ قاضي بده ابن الشيخ عبد الملك على هذه التقاليد للأسرة، وعلى الحياة والمكانة، وقد استمر نَسله من ابنيه، وحدثتْ مُصاهرة بين هذه الأسرة

---

(١) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» ج: ٣.

وبين الصدِّيقيين (المنتمين نسباً إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه) في رهتك ، والأشراف في «سُوْنِي بَت» ، فكان زواج الشيخ محمود (الذي هو الجد الخامس للإمام الدهلوي) والذي ترك منصب القضاء وتولى مناصب الحكومة والإدارة في أشراف «سوني بَت» ، ووُلد له ابن أسماه أحمد.

وقد ودَّع أحمد ـ في صغره ـ مدينة «رهتك» وأقام مع الشيخ عبد الغني ابن الشيخ عبد الحكيم في «سوني بت» واستوطَنها ، وزوَّجه الشيخ عبد الغني بنته ، وقام على تربيته.

ثم قدم الشيخُ أحمد مدينة رهتك ، وبنى عمارةً خارج القلعة ، وجَمع أحبابه وأقرباءه ، وكان ابنه الشيخ منصور جامعاً للفضائل من جاه وشجاعة وحكم ، وقد تزوَّج أولاً ببنت الشيخ عبد الله ابن الشيخ عبد الغني.

وكان ابنه الشيخ معظماً كاسمه وجيهاً مهيباً وقوراً ، يملك شجاعة نادرة ، وقد صدرت منه حوادث عجيبة ، ينقل الإمام الدهلوي عن والده الشيخ عبد الرحيم أن الشيخ منصور اشتبك في حرب مع أحد الرَّاجْوَات (الأمراء) الهنادك ، وكان مُعيّناً على مَيمنة الجيش ولم يتجاوز سِنه الثانية عشرة من عمره ، وكانت الحرب شديدة حامية ، وقد قُتل من الفريقين عدد كبير ، وفي أثناء المعركة ، خاطب أحد الناسِ الشيخ مُعظم وقال له: إن والدك الشيخ منصور تناول كأسَ الشهادة ، وانهزم الجيش الاسلامي ، فلم يملك أن ثارت غيرته الإسلامية ، ونبض عرقه الفاروقي ، وخاض مُجاهداً باسلاً في صفوف الأعداء ، يشقُّها ويُفرِّقها حتى وصل بعد محاولات شديدة إلى فيل الأمير الهندوسي ، وانبرى له أحد القادة الكبار من العدو ، فضربه الشيخ معظَّم بالسيف وصيَّره فلقتين ، فهجَم عليه أصحابُه وأنزلوه من فرسه ، وازدحم عليه الناس ، ولكن الأمير زجرهم ونهاهم من التعرض له بسوء ، وقال إن هذا الناشيء اليافع ، وهذه البسالة والجراءة إنه ـ فعلاً ـ من عجائب الزمن ، وأخذه الأمير وقبل يديه ، وأكرمه وأكبره ، وسأله: لماذا هذا الغضب الفائر؟

فقال الشيخ مُعظم: نُبِّئْتُ أن والدي قد استُشهد ، فعزمتُ على أن أحمِل

بنفسي ولا يقر لي قرار حتى أقتُلَ قائد العدو وأُلحقه بمقره ، وكنتُ قد قررت في نفسي أنني إما سأموت وأقتلَ أو أَقتُل .

فقال الأمير: إن من أخبرك بخبر والدك كاذب ، إنَّ والدك حي ، وانظر تتراءى أعلامُه تلك ، وأرسل الأمير ـ في الوقت نفسه ـ سفيرَه إلى الشيخ منصور أننا قد صالحنا لأجل هذا الناشىء ، وقَبِل كل ما قيل له ، ورَجع أدراجه .

ويحكي الإمامُ الدهلوي عن والده أيضاً قصة أحد المُلاَّك المعمرين للأراضي في قرية شكوه بور(التي كانت تحت ولاية الشيخ معظم) أنَّ ثلاثين من قُطاع الطُرق استاقوا ـ ذات مرة ـ مواشي هذه القرية وفَرُّوا بها ، وكان الشيخ معظم إذ ذاك بها وحيداً ، ولم يكن هناك أحد من أقربائه أو أبنائه ، فنمىٰ إليه هذا الخبر، وكانت سُفرة الطعام قد وضعت ، فلم يتظاهر بأي عجلة أو فزع ، بل تناول الطعام كعادته بكل طمأنينة حتى فرغ منه ، وغسل يده ، ثم قال عليّ بسلاحي وفرسي ، فلما ركب وسار ، رافقه بعض ملاك الأراضي مزوّدين بالأسلحة ، ولكن الشيخ معظَّم أمرهم بالعودة ، وقال إنني سوف أغذُّ السير وأطِير بفرسي حتى لا يُمكنكم أن تلحقوا غبار فرسي ، إلا أنه أخذ معه راوي هذه القصة الذي كان سريعاً في سيره حتى يُخبر الناس بما يجري ، ثم ركض فرسه حتى أدرك جماعَة قُطاع الطرق الذين كانوا قد قطعوا عِدَّة منازل ، واستثار غيرتهم ودَعاهم إلى النِّضال ، وبدأ يرمي بالنُّشاب ، فلما رأى قطَّاع الطرق بَراعته هذه في الرمي ، أخذهم الرُّعب ودُهشوا ، واستغاثوا به وقالوا نتوب مما اقترفنا ، فليصفح عنا .

فقال لهم الشيخ : إنَّ توبتكم أن تجرِّدوا أنفسكم من أسلحتكم ، ويَربط كل واحد منك يدي الآخر ، ثم ساقَهم في هذه الحالة المهينة مع الأسلحة والمواشي إلى القرية ، وحَلَّفهم حسب ما في ديانتهم أنهم سوف لا يفكِّرون في العودة إلى هذه القرية ولا ينظرون إليها ، فقبِلوا ذلك .

وأعقَب الشيخُ معظَّم من زوجته بنتِ السيد نور الجبار السُّوني بَنِي ثلاثَة

أبناء ، الشيخَ جمال ، والشيخ فيروز ، والشيخ وجيه الدين ، وهذا الأخير هو جدُّ الإمام الدهلوي ووالد والده .

جدُّ الإمام الدّهلوي الشيخُ وَجيهُ الدِّين:

لقد ذكر الإمامُ الدهلويُّ تَرجمة حياة جدّه الشيخ وجيه الدين بشيء من التفصيل بالنظر إلى غيره ، يقول: «إنه كان يجمع بين صفتي الصلاح والتقوى والشجاعة والفتوة ، كان الوالد (أي الشيخ عبد الرحيم) يقول: كان والدي (الشيخ وجيه الدين) جَعل حزبه أن يقرأ يومياً جزءين من القرآن الكريم ، ولم يكن يترك ذلك سفراً وحضراً وفي حالة المنشط والضعف والكسل ، فلما كَبُر وضَعُف بصره ، فكان يحمل معه مصحفاً مكتوباً بالحروف الكبيرة ، ولم يكن يفارقه في السفر أبداً.

وكان يقول: إنه لم يكن يَدعُ فَرَسه يرعى حقل غيره ، ولو كان الجيش كُلُّه يَركضون أفراسهم وخيولهم في الحقول المزروعة ، ولذلك كان أحياناً يتجشم الطريق الأبعد غير المعروف المسلوك .

وكان يقول أيضاً إنه إذا قَلَّت التموينات في إحدى الحروب ، ولم يتهيَّأ من المطعومات ، فكان أصحابه وزملاؤه من الجنود يَسطون على مواشي القرى ويأكلونها ، أما هو فكان يتورَّع من ذلك ، فإذا طالتْ ساعاتُ الجوع ولم يجد شيئاً يوماً أو يومين وخارت قواه ، فيُهيِّىء الله تعالى له رزقه من حيث لا يحتسب .

وكان أحياناً يُمعِن في التفكير ، ويَضرب سَوطه على الأرض ، فتخرج منها الحمص قدْر ما يُغذِّيه أو يُعَشِّيه فكان يَغسلها ويُطهِّرها ، ويَغْمسُها في الماء ثَم يتناولها .

وكان يقول: إنَّ سُلوك والدي مع باعة التِّبن وأصحاب الحرف الوضيعة (كما يظنُّون) كان في غاية اللطف واللين والعدل والنَّصَفة مما يَندر نظيرُه في أصحاب التقوى والورع أيضاً .

وكان يقول أيضاً: إنه شاهد ـ في أحد أسفاره ـ بعض علائم الولاية، فبايَع، واشتغلَ بالأشغال الصوفية، واتخذ قلة الكلام وقِلة الاختلاط بالأنام (الذي هو عادة الصوفية النقية) شعارَه، والتزم به التزاماً يكاد لا يُوجد في صُوفية هذا العصر.

ويقول الإمام الدهلوي: إنَّ الوالد كان يذكر جراءته وشَجاعته كثيراً، وقد ذكر الإمام الدهلوي في هذا الموضوع عدداً من وقائع شجاعته النادرة نقلاً عن والده، فقد واجَه ـ بعض المرات ـ جماعات وفرقاً من الأعداء، وبارزهم وقاتَلهم وحدَه، وكان يخرج في المعسكر الملكي إلى (مَالْوَهْ)، وكان قد بارز كبار الشجعان والأبطالِ المغاوير في عصره، وأنقذَ ـ بعض الأحيان ـ أصحابه أو ضُباط جيشه الذين كانوا تعرَّضوا لخطر العدو منهم في اللحظة الحرجة.

وصرع ـ ذات مرة ـ ثلاثة من المصارعين المبارزين كانوا لا يبالون بأحد ولا يعيرون لأحد أيَّ اهتمام، وكان فريداً في فن الفروسية[١].

وكان هو مع (عَالَمْكِيْر) في حربه مع إخوته، ولما خرج شاه شُجاع ضدَّه في بنغاله، كان هو في عسكر عالمكير، وقد قام بدور كبير، وأدى حقَّ الوفاء بولي نعمته، وأثبتَ صدقه واستقامته[٢]، وقد كتب النصر لعالمكير في تلك المعركة برجولته وشجاعته، وأراد المَلك بعد الفتح أن يُرقي منصبه، فلم يقبل ذلك لزُهده فيه، وقد أدَّى ـ أحياناً ـ حقَّ الصداقة والود لأحبابه وأصدقائه، وخاطر لأجلهم بنفسه وأنقذهم في المواقع الصعبة.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحيم عدداً من وقائع مغامراته وبُطولاته ورباطةِ جأشه، وقُوة شكيمته وعُلُوِّ همته، كما ذكر وقائع أخرى لِمُواساته ومُطايبته وشفقته على الفقراء والمساكين.

وقد تزوَّج وجيه الدين ببنت الشيخ رفيع الدين محمد، وكان الشيخ رفيع

---

(١) انظر للتفصيل «مآثر الأجداد» ص: ٦ ـ ٧.

(٢) المصدر السابق: ص: ٨ ـ ٩.

الدين ابن الشيخ قطب العالم، وهو ابن الشيخ عبد العزيز شَكَرْبَار[١].

وولد للشيخ وجيه الدين من هذه الزوجة ثلاثة أبناء، وهم: الشيخ أبو الرضا محمد، والشيخ عبد الرحيم، والشيخ عبد الحكيم.

يقول الشيخ عبد الرحيم: كان والدي ذَات مرة يُصلي التهجد، فأطال إحدى السجدات حتى ظُنَّ أنه فارق الحياة، فلما رفع رأسه، قيل له: لماذا أطلتَ السجودَ إلى هذا الحدِّ؟ قال: اعترتْني حالةُ الغيبوبة، وانكشفَ لي فيها درجة الشهيد وما أُعد له من ثواب، فتمنيتُ على الله تعالى أن يرزقني الشهادة، وألححْتُ وبالغتُ في الدعاء حتى انكشف لي قبول الدعاء، ووقعتِ الإشارة إلى جهة «دَكَن» (جنوب الهند) أنَّ محل الشهادة هو ذاك.

يقول الوالد: إنه بعد هذا الحادث ـ رغم أنه كان ترك وظيفة الجيش، وكان قد كرهها ونَفر منها، ولكنه هيأ أسباب السفر من جديد، واشترى الخيل وتَوجه إلى دكن، وكان يُخيل إليه أن حادث شهادته يقع في «سيوارا» الذي كان واقعاً خارج حدود الدولة الإسلامية، وكان حاكمه قد تعرض للقاضي المسلم بالإهانة والازدراء، إلا أنه لما وصل إلى «بُرْهَانْبور» انكشف عليه أنه تخطى محل الشهادة، فرجع القهقرى، ورافق في الطريق بعض التجار ممن كانت تلوح عليهم آثار الرشد والصلاح، وكان يريد العودة من قرية «هنديا» إلى الهند، إذا به عَرض له رجل مُسنٌّ ضعيف كان يعدو وهو لاغبٌ مَكدود، فأشفق عليه، وسأله عن حاله، فقال: أريد الذهاب إلى دلهي، فقال له: ابقَ عندنا وأعطيك ثلاث بيسات من راتبي كلَّ يوم.

وكان ذلك العجوز أحدَ جواسيس الكفار، فلما وصلت القافلة إلى رباط «نويزيا» أخبر الجاسوسُ أصحابه بخبر هذه القافلة للتجار، وأنها نازلة في الرباط، فهجم عدد كبيرٌ من قطاع الطرق على هذا الرباط، وكان الشيخ وجيه الدين إذ ذاك يتلو القرآن الكريم، فتقدم إليه منهم اثنان أو ثلاثة، وقالوا: من

(١) اقرأ ترجمته في «نزهة الخواطر» ج: ٤.

هو وجيه الدين ؟ فقال: ها أنا ، فقالوا: ما لنا بك من حاجة ، فنحن نعلم أنك لا تحمل شيئاً من الفلوس ، وأن لك على أحد منا حقَّ الضيافة ، ولكننا لا نترك هؤلاء التجار الذين يحملون أمتعةً كثيرة ، ولما أن الشيخ وجيه الدين كان أصلُ غرضه من رحلته هذه الشهادةُ ، فلم يَرض بمفارقتهم والتخلية بينهم وبينهم ، فتصدَّى للمهاجمين ، وانبرى يقاتلهم ، وقد وقع في جسمه اثنان وعشرون جَرحة وطعنة ، وكانت الطعنة الأخيرة فصلت رأسه من جسده ، ولم يَزل لسانُه في هذه الحال أيضاً رطباً بالتكبير ، حتى سقط أخيراً في مكانه ودفن به ، وقد أشهدَ اللهُ ـ تعالى ـ الشيخَ عبد الرحيم هذا الحادث ، فرأى أنه يُريه جروحه ، وأراد الشيخ عبد الرحيم أن يَنقل جثَّته ، ولكن إشارة غيبية منَعته من ذلك.

جَدّ الإمام الدهلوي مِن أُمّه الشيخُ مُحمّد الفلتي :

كان الشيخ محمد الفلتي جدَّ الإمام الدهلوي لأمه[١] وموطن أسرته الأول «سدّهور»[٢] ونزحت هذه الأسرة في عهد السلطان سكندر اللُّودهي إلى «فُلَتْ» ، كان والده يسمى الشيخ محمد عاقل الذي كان من صغره ذكياً ألمعياً ، ومُقرَّباً لدى العلماء الصالحين والمشائخ الربانيين.

وكان الشيخ جلال خليفة الشيخ السيد آدم البنوري ، بُشّر عند ولادته بمراتبه العالية.

قرأ أولاً على عم الإمام الدهلوي الشيخ أبي الرضا محمد ، ثم على الشيخ عبد الرحيم ، وكانت له به مناسبَةٌ تامة.

وقصدَ بعد الفراغ من تحصيل العلوم إلى فلت ، وكان صاحبَ قدم راسخة في الجود والعطاء وإنكار الذات وفناء النفس ، وكان قويَّ التأثير ، صاحب التزكية والإرشاد.

---

(١) للإمام الدهلوي رسالة في ترجمة حياته بعنوان «العطية الصمدية في الأنفاس المحمدية»، وهي مضمومة إلى مجموعة الرسائل الخمسة.

(٢) مديرية بارة بَنْكِي ـ حالياً ـ.

وقد ذكر الإمام الدهلوي وقائع من طاعته وخضوعه وتسليمه وانقياده لأستاذه ومربيه الشيخ عبد الرحيم[١]، وقد حَصلت له الإجازة من الشيخ عبد الرحيم.

وكان ابنُه الشيخ عبيد الله الذي كان خَال الإمام الدهلوي ووالد زوجته، وخليفته الأجل الشيخ محمد عاشق الفُلَتِي[٢].

وقد ذكر الإمام الدهلوي عدداً من وقائع قوة التأثير التي كان يمتاز بها الشيخ محمد الفلتي وإفادته وإفاضته[٣]، توفي الشيخ محمد في ٨/ جمادى الآخرة، عام ١١٢٥ هـ[٤].

عمُّ الإمام الدِّهلوي الشيخُ أبو الرضا محمد:

كانَ الشيخ أبو الرضا محمد الابنَ الأكبر للشيخ وجيه الدين، والعمَّ الأكبر للإمام الدهلوي، وقد أثبت الإمام الدهلوي في «أنفاس العارفين» ترجمةً مستقلة له، بعد تَرجمة والده، ووصفه بـ«إمام الطريقة والحقيقة»، وكانت مُعظم علومه(وإن كان هو قد قرأ على أساتذة عصره) وَهبيَّةً في نظر الإمام الدهلوي، بدأ ـ بإذن والده وإشارته ـ يتردَّد إلى أحد الأمراء، ثم إذا به قد جَذبته جاذِبة التوفيق الإلٰهي، ومَنعته منه، واتَّخذ التوكل الكامل، والتجريد التام، والعملَ بالسنة ديدنه وشعاره، وقد خَيَّر زوجته أيضاً مُسَتناً بقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [الأحزاب: ٢٨]، بين أن تختار الفَقر والمسْغبة إذا اختارت مُرافقته والبقاء معه، وإلا فلتذهب إلى بيتها، وقد اختارت هي أيضاً مُقتدية لسنَّة الأزواج المطهرات، الفقرَ والمسغبة، ولم تَرض بمفارقته.

---

(١) العطية الصمدية: ص: ٢٠.
(٢) انظر لترجمة الشيخ محمد عاشق الفلتي «نزهة الخواطر» جـ: ٤.
(٣) العطية الصمدية ص: ٢٢ ـ ٢٥.
(٤) المصدر السابق: ص: ٢٥.

وكان يتوالى عليه يومان أو ثلاثةُ أيام لا يجد طعاماً فيَبيتَ على الطَّوى ، وكانت له نسبة خاصة بالشيخ عبد القادر الجيلاني ، كما كان له حبٌّ خاص ومناسبة خاصة بسيدنا علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه [١] .

وقد أراد السلطان (عالمكير) زيارته مراراً ، ولكنه لم يرض بذلك ، وذلك لأنه كان لا يُقبل على الأمراء والحكام ، أما الخصَّافون وأصحاب الطواحين ، وأصحابُ أمثال هذه الحرف ، فكان يُقبل عليهم ويحبهم ، وإذا قدموا له ثلاثة أو أربعة فلوس كهدية يقبل منهم بكل رضا وسرور .

وقد نَعَتَهُ الإمام الدهلوي بـ«قوي العلم ، فصيح اللسان ، عظيم الورع ، واسع المعرفة ، كان جميل المحيا ، طويل القامة ، أبيضَ اللون ، خَفيف اللحية ، لطيفَ الكلام ، وكان يَعظ ويذكِّر بعد صلاة الجمعة ، ويُسمع الناس من حفظه ثلاثة أحاديث ثم يُترجمها إلى الفارسية ثم إلى الهندية ، وكان يلقي الضوء على معاني هذه الأحاديث وفوائدها ، إلا أنَّ كل ذلك بإيجاز واختصار .

وكان أولاً يدرِّس كتاباً في كل فنٍّ ، ويَزدحم عليه الناس إعجاباً بحُسن بيانه وحِلاوة منطقه ، ثم اكتفى أخيراً بدرسين ، أحدهما في «تفسير البيضاوي» ، والثاني في «مشكاة المصابيح» .

وكان يَشرح كلمات الصوفية شرحاً عجيباً ، وكان مستجاب الدعوات .

وقد ذكر الإمام الدهلوي كثيراً من الوقائع التي تدل على حبِّ الناس له ، وأنَّه من المصطفين الأخيار [٢] .

كان له اهتمامٌ بالغٌ بأداء السُّنن ، وكان يُنشد أحياناً الدوبيت في الهندية من شعر الحقائق والمعاني ، وقد ذكر الإمام الدهلوي عدداً من وقائع كُشوفه وكراماته [٣] ، ونَقل بتفصيلٍ كثير أقواله وكلماته التي يصعب فهمها والاستفادة

---

(١) أنفاس العارفين: ص ٨٦ ـ ٨٨.
(٢) المصدر السابق: ص: ٨٩ ـ ٩٠.
(٣) المصدر السابق: ص: ٩٠ـ٩٤.

منها في هذا العصر ، ولذلك نُفضل الإعراض عن ذكرها[١] كان عمره بين الخمسين والستين إذ وافاه الأجل المحتوم في ١٧/ محرم الحرام عام ١١٠١هـ بعد صلاة العصر ، وأُرخت وفاته بكلمة «آفتاب» (أي الشمس)[٢].

وَالدُ الإمام الدهلوي الشيخُ عبد الرحيم:

لقد ألف الإمام الدهلوي نفسُه في حياة والده ومناقِبه وكراماته وفضائله ، كتاباً مستَقلاً مفصَّلاً ، أسماه «بوارق الولاية» ويعرف بـ«أنفاس العارفين» [٣]، وإنه لا تتوفَّر لدينا أمثلة ونماذج في تاريخ الإسلام العلمي لتأليف كتب مستقلة بأقلام الأبناء النوابغ في تراجم آبائهم النوابغ الفضلاء بالدِّقة العلمية والمسؤولية التاريخية ، ويمكن أن يمثل في هذا الصدد بترجمة العلامة تاج الدين السبكي في كتابه الشهير «طبقات الشافعية» لوالده العلامة الشيخ تقي الدين السبكي ترجمة مفصلة مسهبة[٤]، وتأليف العلامة الشيخ أبي الحسنات عبد الحي اللكنوي الفِرَنْجِي مَحَلِّي رسالة مستقلة بعنوان «حسرة العالم بوفاة مرجع العالم» في حياة والده الشيخ عبد الحليم اللكنوي.

وسوف نختار من هذا الكتاب تلك الجوانب والوقائع التي تُلقي الضوءَ على شخصيته ، والتي يُمكن أن تقدَّر بها مكانتُه العلمية والدينية والروحية ، ويستعان به في تحديد ذلك الدور الأساسي الذي قام به والده في تكوين شخصية الإمام الدهلوي ومُيوله وذوقه والتأثير في حياته ، ولا نُكثر من ذكر الكرامات والكشوف والتجارب الروحية والمدارج الباطنية (التي كانت الشغلَ الشاغل في ذلك العهد ، وكانت للمُترجم بها مناسبةٌ خاصة) لأنَّ فهمها

(١) أنفاس العارفين: ١١٩.
(٢) المصدر السابق: ص: ١٥٥.
(٣) طبع أولاً في المطبع الأحمدي، ثم طبع في المطبع المجتبائي، والإحالات إلى الطبعة الأولى.
(٤) وهي تشتمل على (٨١) صفحة بحروف صغيرة.

وإدراكها يتعسر على أصحاب هذا العصر ، وينبغي لمن يريد هذه التفاصيل أن يرجع إلى أصل الكتاب.

ولا بدَّ من أن نقول ـ إجمالاً ـ إن هذه الأحوال والوقائع تدل على استعداد روحي بالغ ونُبوغ باطني طبيعي ، تُذكر بأحوال الأولياء المتقدمين الذين كانت استعداداتهم ومداركهم قوية بالغة ، وكان الزمن مواتياً صالحاً والبيئة متجاوبة مساعدة ، بل باعثة ومرغبة ، وكانت قدرة الله وتربيته بموجب قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴾ [الرحمن: ٢٩] تتجلَّى في هذا المجال ، وكان ذلك تفسيراً لقوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

لا يوجد التصريح في كُتب التراجم بسَنة ولادة الشيخ عبد الرحيم ، ولكن لما أنه توفي عام ١١٣١هـ ، وعمره ٧٧ عاماً؛ لذلك نستطيع أن نحدد سنة ولادته وهي ١٠٥٤ هـ[١].

وكان للشيخ عبد الرحيم ثلاثة إخوة: الشيخ أبو الرضا محمد ، والشيخ عبد الحكيم ، والشيخ عبد الرحيم.

يقول الشيخ عبد الرحيم: «كنتُ في صغري ألوث على رأسي العمامة وأجلس جِلسة الصلاة ، وكنت أسبغ الوضوء ، وأهتم بسننه وآدابه ، وكان خالي الشيخ عبد الحي (الذي كان أيضاً من المشائخ الربانيين) يَراني فيُسرُّ بي ، ويقول: يَطمئن قلبي عند رؤيته ، على أنَّ هذه الثروة المعنوية لسَلفنا ستستمرُّ في أعقابنا ، فلو لم يظفر بها أحفادنا فلا بأس ، فإن أسباطنا سيكونون حملةَ أمناء لهذا التراث»[٢].

لقد كان الشيخ عبد الرحيم من صِغره ميَّالاً إلى الدين ، نَفوراً من الدنيا ،

---

(١) أنفاس العارفين: ص: ٨٥.
(٢) المصدر السابق: ص: ٤.

ومالِها وجاهها ، فكان لا يلتفت إلى شيخ يريد أن يعلمه دعاءً يحقق حاجات الدنيا ويقول: لا حاجة لي به ، فلما رأى ذلك منه أحد المشائخ النقشبنديِّين الذي كان اسمُه خواجه هاشم ، وكان قد قدم من بُخارى ، ونزل في الحي الذي كان يسكنه الشيخ عبد الرحيم ، لقَّنه «طريقة الاستكتاب»(١)، يقول الشيخ عبد الرحيم: «وقد غَلبتْ عليَّ هذه الطريقة واستحوذتْ على نفسي حتى أنني انتسختُ مرة حاشية ملاّ عبد الحكيم (وهي حاشيته على شرح العقائد) فبدأتُ أكتب اسم الذات حتى تم جزءٌ واحد ولم أشعر به»(٢).

وكان الشيخ يَحضُر عند الشيخ عبد الله المعروف بخواجه خورد ابن الشيخ الربَّاني خواجه باقي بالله ، وكان من كبار العارفين ، وقد تقدم إليه الشيخ لبعض الإشارات الغيبية والبشارات الروحية بطلَب البيعة على يديه ، فأشار عليه ناصحاً أن يبايع أحد خلفاء السيد آدم البَنُّوري ممَّن تكون له قدم راسخة في العمل بالشريعة ، والزُّهد في الدنيا وتهذيب النفس ، فقال له: إن الشيخ الحافظ السيد عبد الله ، من خلفاء السيد آدم يسكن بجوارنا ، فقال: اغتنم وجوده ، فلا تتأخرْ في بيعته ، يقول الشيخ: فجئت إلى حضرة السيد عبد الله(٣)، وكان يَغلب عليه إخفاء حاله ويعيش في الخمول ، ولكنه أجابني على طلبي الأول وقبلني للبيعة ، فكنتُ أحضر لدى الشيخين الشيخ خواجه خورد ، والشيخ السيد عبد الله واستفيد منها.

وكانت عناية السيِّد عبد الله متوجِّهةً إلى الشيخ عبد الرحيم ، فقال له يوماً: كنتَ صغيراً ، تلعب مع الولدان ، فوجدتُ في نفسي انجذاباً إليك ، فدعوت الله تعالى أن يجعل هذا الولد من الأولياء والصالحين ، وأن يُظهر نبوغه على

---

(١) كان المشايخ لغرض نقش اسم الله تعالى على لوح قلب الطالب يستكتبونه اسم الله تعالى بكثرة على الورق حتى ينقش في القلب، وكان هذا إحدى الطرق لعلاج القلوب وإحيائها بذكر الله تعالى.

(٢) أنفاس العارفين: ص: ٥.

(٣) انظر لترجمته «أنفاس العارفين» ص: ٦ ـ ١٥.

يدي ، فأحمد الله تعالى على أن ثمرة هذا الدعاء قد ظهرت[١] .

دِراسَتُـه:

قَرأ الشيخ عبد الرحيم من الرسائل الصغيرة إلى «شرح العقائد» و«حاشية الخيالي» على أخيه الأكبر أبي الرضا محمد ، وقرأ سائر الكتب على ميرزا زاهد (المعروف بمير زاهد) وكان يقول: لقد قرأت «شرح المواقف» وسائرَ كتب الأصول على ميرزا زاهد ، وكانت له بي عناية خاصة ، حتى لو قلت له يوماً: لم أطالع الكتاب الليلة ، فكان يقول: اقرأ سطراً أو سطرين حتى لا يذهب اليومُ خالياً من الدرس .

وراجع الشيخُ خواجه خورد أيضاً في حل بعض المواضع من «حاشية الخيالي» واطمئنَّ بحلوله ، وكان يقرأ ـ أحياناً ـ شيئاً من بداية الكتاب ، ثم يَدرُسه إلى نهايته بنفسه .

وكان الشيخ خواجه خورد تلميذ الشيخ رفيع الدين جَد الشيخ عبد الرحيم لأمِّه ، وكان الشيخ خواجه خورد استفاد من أستاذه علمياً وروحياً ، ولذلك كان يُعامل الشيخ عبد الرحيم معاملةً خاصة .

وراجع الشيخ عبد الرحيم بعد وفاة السيد عبد الله الشيخ أبا القاسم الأكبر آبادي[٢] أحد كبار المشائخ في السلسلة أبي العلائية الأحرارية ، واستفاد من الأمير نور العلاء أيضاً ، وأجازه كذلك الشيخ أبو القاسم ، وكان الشيخ يُكرمه ويُقدره ويعتني به اعتناءً خاصاً ، لأجل أنه كان يتصل بالشيخ عبد العزيز

(١) أنفاس العارفين: ص: ١١ .

(٢) كان الشيخ أبو القاسم خليفة الشيخ ولي محمد النارنولي ، وهو خليفة الأمير أبي العلاء الحسيني الأكبر آبادي ، وقد عاصر الشيخ أبو القاسم الشيخ أبا العلاء وصحبه ، ولكنه حصل على الإجازة من الشيخ محمد النارنولي ، توفي عام ١٠٨٩هـ ، وينبغي أن يعلم أن الطريقة أبا العلائية الأحرارية هي مزيجة من الطريقتين الجشتية والنقشبندية ، وسلسلة كالبي الشهيرة التي كان فيها الشيخ السيد محمد الترمذي ، تنتمي إلى هذه السلسلة (انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» جـ: ٥ ، ص: ٢٢).

شكربار ، أحد أجداد الشيخ عبد الرحيم من أمه اتصالاً خاصاً.

وقد ذَكر الإمام الدهلوي في كتابه «أنفاس العارفين» حوادث ووقائع كثيرة للقاءات الشيخ عبد الرحيم مع مشائخ وأولياء عصره ومجاذيبه ، وعناياتهم الخاصة به ، فقد كان عصرَ الازدهار للسلوك والتصوف والشوق إلى الله ، ومعرفته الوصول إليه والزهد ، وكان أمثالُ هؤلاء المشائخ الذين يتذوَّقون هذه الأشياء ، ويتحلَّون بالفضائل الروحية الباطنية موجودين بكثرة[١] ، وقد كان لهم إقبالٌ كبير على الشيخ عبد الرحيم وعنايةٌ خاصة به ، وكانتْ للشيخ معهم لقاءات طيبة.

وذكر الإمام الدهلوي وقائع من كشفه للأرواح مما يدل على قوته الباطنية وتأثيره الروحي الكبير[٢] ، كما ذكر أيضاً كراماته وإشراقاته[٣] ، ثم ذكر أقواله وكلماته بتفصيل كبير[٤] ، ويَظهر من أقواله وكلماته دقةُ نظره وثقوبة ذكائه ، وصَلاحيته العلمية الفائقة.

يقول الإمام الدهلوي: كان عمل والدي في أكثر المسائل على المذهب الحنفي ، وكان في بعض المسائل يأخذ بالحديث ، أو يرجِّح أحد المذاهب بما يُملي عليه وجدانُه ، فكان من اختياراته قراءةُ الفاتحة خلف الإمام ، وقراءةُ الفاتحة في صلاة الجنازة.

وقد كانَ الشيخُ عبد الرحيم في تلك اللجنة من العلماء التي عُهِد إليها بترتيب «الفتاوى الهندية» المعروف في الهند بـ «فتاوى عالمكيري» ، والتي كانت تَشمل على كبار العلماء البارزين والمدرسين والفقهاء البصيرين في الفقه الحنفي في هذه البلاد ، وكان رئيسَ هذه اللجنة والمشرفَ عليها الشيخُ نظام

(١) انظر «أنفاس العارفين» ص: ٢٩ ـ ٣٤.
(٢) المصدر السابق: ص ٣٥ ـ ٥٠.
(٣) المصدر السابق: ص: ٥٠ ـ ٦٥.
(٤) المصدر السابق: ص: ٦٦ ـ ٨٥.

الدين البُرهانبوري ، وقد أنفق السُّلطان عالمكير على هذه الخدمة الجليلة مئتي ألف روبية[١] ، وقد ذكر مؤلِّف «الثقافة الإسلامية في الهند» أسماء هؤلاء العلماء المؤلِّفين بعد تتبُّع وفحص كبير، فبلَغ عددُهم اثنين وعشرين ، وكان الشيخ عبد الرحيم أحد أعضاء هذه اللجنة[٢] .

يقول الإمام الدهلوي: لقد كان السُّلطان عالمكير في هذه الفترة من الزمن على غاية الاهتمام بهذا الترتيب والتدوين ، وكان الشيخ مُلاَّ نظام الدين (أحد المشرفين على عَمل اللجنة) يَقرأ كلَّ يوم صَفحةً من الكتاب على السلطان ، فقرأ ـ ذات يوم ـ ذلك الجزء الذي كان عهد بترتيبه إلى الشيخ مُلاّ حامد ، وكان قد خَلَط بين عبارتين مُتفرِّقتين من كتابين تتعلَّقان بمسألة واحدة ، فنشأ غُموضٌ وإبهام ، فلمَّا وقَع بَصرُ الشيخ عبد الرحيم (الذي كان أحد أصدقائه) على هذا الموضع ، قام بالبَحث والتحقيق ، فظهر له أنه جمع بين عبارتين مختلفتين فكتَب على حاشية المسوّدة هذه العبارة: «من لم يتفقَّه في الدين قد خلط فيه ، هذا غلط ، وصوابُه كذا ، فقرأ مُلاَّ نظام مع عبارة المتن هذه الحاشية كذلك ، ولم يَتنبَّه في سُرعة قراءته للحقيقة ، أما السلطان الفاضل الذي كان يسمعُ بإصغاء واهتمام ، فقد التفتَ وتفطَّن ، وقال: ما هذه العبارة؟ فاضطرب مُلاَّ نظام بعضَ الاضطراب ، إذ أنه لم يكن قد طالعه من قبل ، ثُم تمالك نفسَه ، وقال: إني لم أكن قد طالعتُ هذا الجزء ، وسوف أشرح ذلك غداً بتفصيل ، فلما جاء منزله ، شكا إلى مُلاّ حامد توريطه ، وقال: كنتُ تركت مطالعة هذا الجزء ثقةً بك واعتماداً عليك ، وقد افتضحتُ بسببك لدى السلطان ، فلم ينبس مُلاّ حامد حينئذ ببنْتِ شَفة ، بل شكا ذلك إلى الشيخ عبد الرحيم ، ففتحَ الشيخ أمامه الكتاب وأراه مَوضع الغلط ، وأن العبارة نشأ فيها غموض واضطراب ، وكان ذلك مثارَ الحسد عند بعض الزملاء ، حتى اضطر الشيخ

---

(١) ولا يقل ذلك اليوم عن خمسة ملايين روبية.

(٢) انظر: «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة السيد عبد الحي الحسني المرحوم ص: ١١١ ، طبع المجمع العلمي بدمشق.

عبد الرحيم إلى أن يَعتزل هذا العمل بعد الانتظام في سلكه لمدةٍ من الزمن.

أَخلاقُه وشَمائِله وعَاداتُه وأورادُه:

يقول الإمام الدِّهلوي عنه: إنه كان مَجمعاً للفضائل والصفات الكريمة والأخلاق الحميدة، وقد كان مُتصفاً بغاية الشجاعة والجراءة، والغيرة والفراسة، وكان له مع «عقل المعاد» والتفكير في الآخرة النصيبُ الأوفر من «عقل المعاش» والحزمُ في الشؤون الدنيوية.

وكان يُحب التوسُّطَ والاعتدال في جميع أحواله وأموره، فلم يكن له في الزُّهد والعبادة من الإفراط والغلو ما يَصلُ إلى حدود الرهبانية، ولا من الرُّخصة والسهولة ما يبلغُ حدَّ التساهل وقِلة الاهتمام، ولم يكن يتكلَّف في اللباس، فما تيسر له من اللباس الخشن أو الناعم لبسه من غير كُلفة، إلا أن الله تعالى هيَّأ له دائماً من اللباس ما نعم وطاب، وكان اللهُ تعالى يكفيه جميعَ حاجاته، فكان قليلاً ما يخرجُ إلى السوق لشراء الحاجيات، ولا كان يذهب إلى قصور الأمراء والأغنياء، فقد أغلَق على نفسه الباب، أما إذا زاره أحدٌ من الأمراء أو الأثرياء فكان يستقبلُه طليقَ الوجه، ببشْرٍ وطيبِ خُلقٍ، وكان يُكرم الكريم منهم، وإذا طلب أحدٌ منهم موعظة، وَعظه برِفق ولين، وأدّى مسؤولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان يُعظم العلم والعلماء، ويَنْفُر من الجهل والجهلة، وتَتبع ـ دائماً وفي كل حال ـ سُنن المصطفى ﷺ، ومن استقامته والتزامه بالعبادات أنه لم تَفته الجماعة بغير عذر في عمره كله، ولم يمل طبعُه ـ في صباه كذلك ـ إلى المحرَّمات والمنهيات، ولم يكن يتحاشى البيع والشراء في الأمور الحاجية، ولا يلتزم هيئة العلماء وآدابهم المتكلفة، ولا ملابس الفقراء والدراويش المطلقة، بل كان يعيش بعيداً عن التَّصنُّع والتكلف، وكان يكره الاستدانة بدون ضرورة، ويَكره من يَستدين للتفكُّه ورغد العيش ويَعيبه، وكان له إدراك وذكاء بالغ في علم الطب.

وكان من التزاماته وأوراده اليومية أن يصلي على النبي ﷺ ألف مرة ، ويُهلِّل ألف مرة ، بعضُها جهراً ، وبعضُها خفية ، ويردد اسم الله تعالى اثني عشر ألف مرة ، وكان بعد وفاة أخيه الشيخ أبي الرضا محمد ، يُدرِّس في «مشكاة المصابيح» و«تنبيه الغافلين» ، و«غُنية الطالبين» ، ثم بدأ ـ أخيراً ـ إلقاء الدروس في التفسير ، وكان قد فرغ من تفسير الزهراوين (سورتي البقرة وآل عمران) إذِ اعتراه الضعف ، وانقطعَ هذا الدرس .

حمِيَّتُه الإسلامية:

لقد كان الشَّيخ عبد الرحيم حَسْبَ تقليد سَلفِه وارث والدِه الشهيد الشيخ وجيه الدين يتَّصفُ ببالغ الحَمِية الإسلامية ، ويَحمل مَشبوبَ العواطف الجهادية ، ومن المعلوم أن الجهاد والأخذ بالعزيمة تَسلْسَلا في أُسرته جيلاً بعد جيل من دون انقطاع ، فكان قد وَرِث الشجاعة والفتوة والغيرة ، وإن لم نَعثُر على حادث اشتراكه في معركة من معارك الجهاد ، ولكن الوقائع المذكورة في «أنفاس العارفين» تكفي للدلالة على ما يمتاز به من علو همة ، وعزيمة ، وغيرة دينية ، وهذا هو التراث الجليل الذي انتقل إلى أعقابه أيضاً .

زواجه وأولاده:

كان زَواج الشيخ عبد الرحيم الأول في حياة والده ، وقد وُلد له من زَوجته الأولى ابن سُمي «صلاح الدين» الذي لم يلبث أن مات[١] ، وبقيت هذه الزوجة على قيد الحياة مدة طويلة ، وتُوفيت بعد زواج الإمام الدِّهلوي عام ١١٢٨هـ أو ١١٢٩هـ[٢] .

---

(١) يستفاد من «القول الجلي» أن هذا الأخ العلاتي للإمام الدهلوي المدعو بصلاح الدين كان قد بلغ سن الشباب ، (انظر القول الجلي المخطوط في مكتبة كاكوري).

(٢) يقول الإمام الدهلوي في «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف»: إن والدي زوَّجني وكنت في ١٤ سنة ، وقد أسرع في أمر زواجي ، وقال لمن كان يريد التأجيل: إن في هذا مصلحة مرعية ، ثم وقعت بعد الزواج عدة مصائب في الأسرة لو كانت وقعت منها=

وكان الزواج الثاني في الكبر لبعض البشارات والإشارات الغيبية بكريمة الشيخ محمد الفلتي الصدِّيقي ، وقد ولد منها ابنان: الإمام الدهلوي ، والشيخ أهل الله .

وَفاتُه:

لقد صَام الشيخ عبد الرحيم آخرَ صيام حياتِه في شهر رمضان حين بلغ ٧٧ عاماً من عمره ، ثم مرض في شوال ، وانقطع الرجاء في الحياة ، ثم عادت إليه الصحة ، ثم رجع المرَض في أوائل صفر واشتد ، وبدَت علائم الموت قبل الفجر الصادق ، وكان جُلُّ اهتمامه ـ حينذاك ـ بأن لا تفوته صلاة الفجر ، فسأل في هذه الحالة من الضَّعف: هل أصبحنا ؟ هل طلع الفجر؟ فقال الحضور: لا لم يطلع بعدُ ، فلمَّا دنا الوقت جداً ، اشتد على هؤلاء وردَّ عليهم بغضب ، وقال: إن كان وقتُ صلاتكم لم يَحنْ بعدُ ، فقد حان وقت صلاتي ، وقال: وجهوني إلى القِبلة ، ثم صلى يُومىء إيماءً ، وقد كان في الطُّلوع شك ، ثم اشتغلَ بحركة شفوية بذكر «اسم الذات» ، وأسلم رُوحه لبارئها .

وقعَ هذا الحادث يوم الأربعاء ١٢/ صفر عام ١١٣١هـ ، وكان هذا آخرَ عهد الملك فَرُّخ سير ، ودام فَرُّخ سير بعد وفاته خمسين يوماً في الحبس، ووقع في المدينة اضطراب كبير ، وكان عمره عند وفاته ٧٧ سنة[(١)] .

الشَّيخُ عبد الرحيم في نَظر الإمام الدهلوي:

رَغم أنه لا يوجد أيُّ مؤلَّف (سوى رسالة واحدة) للشيخ عبد الرحيم يُحدِّد مكانته العلمية ، وأنَّ صِيته إنما يدين لولده النابغة العظيم ، وهو الذي عَرف به وترجمه في كتابه «أنفاس العارفين» ، وليس هناك أي كتاب لأحد من تلامذته ومُسترشديه في حياته ، ولكن مؤلفات الإمام الدهلوي ، ولا سيما كتابه

= مصيبة قبل الزواج لتأجل الزواج ، وذكر الحادثة الأخيرة من هذه الحوادث وفاة والدة أخيه الكبير صلاح الدين (انظر الجزء اللطيف ص: ٢).

(١) أنفاس العارفين: ص: ٨٣ ـ ٨٥.

«أنفاس العارفين» يدل على أن الإمام الدهلوي كبيرُ الإعجاب والاقتناع ـ على بصيرة وهدى ـ بسمو مكانته وقوته الروحية ، وقَبولِه عند الله تعالى ومنزِلته الرفيعة في العلم والسلوك مما يكون من تأثر الابن البارّ بفضائل والده ومآثره ، واعترافه بمنَّته العظيمة وثَنائه عليه.

ويَظهر أن الإمام الدهلوي على علم اليقين والوجدان الصحيح فيما يتَعلق بفضائله وكمالاته الروحية والعلمية ، ويستشعر القارىء في ترجمته له بأنه مُعجب به غاية الإعجاب ، يجد اللَّذة والحلاوة في ذكره.

ويبدو أن في تعليم الإمام الدهلوي وتربيته وفضائله العلمية والروحية والحصول على المدارج الباطنية ، ووصوله إلى درجة الإمامة والاجتهاد في العلم والسلوك حظاً كبيراً ونصيباً وافراً لقوة تأثير والده ونسبته الروحية ، وشفقتِه وأدعيته وابتهالاتِه.

الأُسَرُ العربيةُ الأصلِ في الهند وخصائصُها وتقاليدُها:

تُفيد التراجمُ المختصرة لأجداد الإمام الدهلوي وسلفِه (التي قدَّمنا خُلاصتها في الصفحات الماضية) أن هناك ثلاث خِلالٍ مشتركة تُتوارث فيهم بصفة عامة:

١ ـ صلةٌ عامة بالعلم والدين والتقوى والوَرَع والقضاء والإفتاء[١] ، الذي لا يُسْتبعد تسلسله واستمرارُه على أساس هذه المناسبة والانسجام السُّلالي الموروث بالعلم والدين والعزيمة وعلو الهمة (التي كان يُغذيها تعليم المربين والمشرفين من أصحاب الإخلاص والعزيمة والهمَّة العالية ، وتربيتهم ، والقَصص والوقائع التي يتناقلها أفراد الأسرة كابراً عن كابر) وقد حفظ الله تعالى كثيراً من الأسر والبيوتات لأجل مآثر الأسلاف ومكارِمهم وصلاحهم

(١) وظاهر أن هذا ليس كلية من الكليات التي لا مجال فيها للاستثناء ، بل هي قاعدة أغلبية كعامة البيوتات وأسر الأشراف وأهل الفضل والكمال.

وتقواهم ، واستخدامها للحفاظ على ثروة الدين وتراثه العظيم ، كما حَفِظ جدار اليتيمين ، الذي كان يُريد أن ينقضَّ ، بيد أحد عبادِه المخلصين المقبولين ، وشيَّد به بُنيانه ، وقد كان أبوهما صالحاً[١] .

ويشهد تاريخ عشراتٍ من الأسر في الهند التي استمر فيها العلم والدين والقضاء والإفتاء والتدريس والتأليف والدعوة والإرشاد على هذا التسلسل في كثير من الصفات الوراثية ، وحِفظ الله تعالى لهم وعنايته بهم .

٢ ـ حفظُ الأنساب ، وتعهُّد سلسلة النَّسب للأسرة وتربيتها والحفاظ عليها ، والاهتمام بـ«الكفاءة» بالمقياس والحد الذي لم يكن يوجد في البلاد العربية ، والبلدان الإسلامية القديمة ، ولعلَّ الدافع إلى ذلك كان عاطفة الحفاظ على النسب العربي (الذي حَملتْه هذه الأسر من البلدان العربية) في هذه البلاد الأعجمية ، وقد كان للتأثر بالنظام الطبقي في الهند أيضاً نصيب ، فقد عُرِف بالتفاخر بالنسب والاعتزاز به من قديم الزمان ، بالرغم من أن الشريعة لم تكلف الناس بهذا الاهتمام البالغ والرعاية الدقيقة ، وقد نشأ فيها إفراط وغلو في القرون المتأخرة وفي البلاد الأعجمية ، ولكن ينبغي أن يلاحظ ـ مع كل ذلك ـ أنَّ من نتائج هذا الحفاظ على النَّسب كان استمرار الخصائص الأسرية فيهم عبر قرون وأجيال ، وأنهم لم يذوبوا في مجتمع البلاد غير الإسلامية وحضارتها .

٣ ـ والصفةُ الثالثة هي صفةُ الشجاعة والجَلادة والفُتوة والفروسية التي هي كذلك من الخصائص السُّلالية الوراثية للنسل العربي ، ولا سيما قبيلة قريش ، والتي مرت بنا أمثلتها في وقائع الشيخ مُعظم والشيخ وجيه الدين وقصصهما البطولية ، ويُشاهد نموذجها الرائع في حياة حفيد الإمام الدهلوي نفسه ، الشيخ محمد إسماعيل الشهيد .

---

(١) قصة الخضر مع جدار اليتيمين الذين كان أبوهما صالحاً في «سورة الكهف» ، الآية : ٨٢ .

وهناك عواملُ ودوافعُ نفسيةٌ وعقلية أخرى لتوارُث هذه الخصائص وتسلسلها ، منها أن الأسر العربية الأصل التي نزحت إلى الحجاز والعراق وإيران وتركستان والهند في مختلف فترات التاريخ ، وعهوده ، إنما كان العامل الأساسي في هجرة أكثرهم واستيطانهم الهند مثلاً إما الحفاظ على دينهم وعقيدتهم ، أو عاطفة الحماية لمكانتهم وأعراضهم ، فقد كانوا تَعرَّضوا لخطر الحملات التتارية ، وقد حفظتِ الأجيال بعد الأجيال هذا الغرض الأساسي ، ولم يُمحَ من ذاكرتها ، وكانوا يحافظون عليه ويهتمون به فبارك الله تعالى لذلك في تديُّنهم وتقواهم ، فقد كانوا مصداق قول الله تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، أو كانت عاطفة الجهاد في سبيل الله والدعوة إلى الله ، التي كانت الهند لها (في عالم القرن السادس والسابع) مجالاً واسعاً وميداناً فسيحاً ، فكانت كثير من مناطق هذه البلاد الواسعة الأطراف (التي يصح أن تُدعى شبه القارة) لم تخضعْ لدولة المسلمين ، ولم تدخل في طاعتهم ، وكان يحكمها أمراءُ وحكام وثنيون ، وكانوا ـ أحياناً ـ يُعرقلون إقامة شعائر الإسلام وتنفيذ الأحكام الشرعية ، وكان كثير منهم يخرج ـ بينَ فينة وأخرى ـ ضدَّ الدولة الإسلامية ، ويُقيم فتنةً وثورة ، ولم يكن من الميسور وُصول الجيش الإسلامي إلى كل مكان ، فكان قيام هذه الأسر العربية الأصل ، الشريفةِ النجيبة ذات الطموح والهمة العالية، والراغبة في الجهاد والغزوات، وهؤلاء الأعيان والوجهاء، بفتح هذه المناطق وتسليمها إلى السلطة المركزية وإخضاعها لدولة الإسلام إرواءً لغليل طموحهم وعزائمهم ، وإشباعاً لعواطفهم الدينية الجهادية ، وسبباً من أسباب الجاه والإمارة ، فكانوا يُقطعون أراضيَ واسعة ، ويُولَّون مناصبَ القضاء والإفتاء والنيابة عن الأمراء ، ولذلك تكثُر في هذه الأسر العربية والإيرانية ـ الأصل أيضاً ـ وقائع فتحهم لمناطق بعيدة شاسعة مجهولة، غير ذات شأن كبير، لم تكنْ قد دخلت في الدولة الإسلامية[١] .

---

(١) ومن أمثلته الأمير الكبير السيد قطب الدين محمد المدني (م ٦٧٧هـ) الذي هو مؤسس =

كانت هذه الأُسر تَشعر في نفسها بأنها لم تأتِ الهند إلا لغرضٍ سامٍ كبير ، وأنَّ المنبع الأصيل لديننا وحضارتنا وسعادتنا هو مركز الإسلام ومهبطُ الوحي جزيرةُ العرب ، بل الحجاز المقدس ، فلا يجوز لنا أن ننقطع عن أصلنا هذا كُلياً ، ولا بد لنا من الحِفاظ مهما كان الأمر ، على خصائصنا وميزاتنا الأسرية والحضارية والخُلقية والاجتماعية ، وحينئذ نستطيع أن نبقى ـ في هذا الجزء البعيد من العالَم وفي هذه الحضارة والبيئة الأجنبية التي تحمل في نفسها تلك القُوة من الصَّهْر والإذابة التي أذابت الشعوب والسُّلالات الوافدة من الخارج ، وصبَّتْها وقضتْ على خصائصها وميزاتها وأحرقتها ـ أعزةً محفوظين من التأثيرات الخارجية ، وقد أنتج فيهم هذا الشعورُ غيرة دينية وسُلالية ، وقُوةَ مقاومةٍ خارقة ضدَّ كلِّ التأثيرات الخارجية ، استطاعت أن تُبقي على شخصيتهم المميزة إلى حد كبير ، وأن تنقل خصائصها عبر القرون إلى الأجيال بعد الأجيال.

وقد جاءت هذه الحقيقةُ واضحةً جلية في وصية من وصايا الإمام الدهلوي التي كتبها في رسالة باسم «المقالة الوضيئة في الوصية والنصيحة» التي خاطب فيها أولاً أسرته وعشيرته الأقربين ، ثم سائر أصحابه ، والأمة الإسلامية الهندية كُلِّها ، يقول الإمام الدهلوي:

«إنَّه لا ينبغي لنا أن ننسى أننا غرباء (في هذه البلاد) لقد هاجر آباؤنا إلى الهند ، وأن عربية نسبنا ولغتنا مفخرتان لنا عظيمتان ، فهما تقرباننا مِن سَيِّد الأولين والآخرين وأفضل الأنبياء والمرسلين ، ومفخرةِ الكون والخلق

= الأسرة القطبية الحسنية في ولاية أودهي ، والجد الأعلى للإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، قدم من طريق غزنين مع جماعة من أقربائه والأشراف وأعيان غزنين ووجهائها ومجاهديها في أوائل القرن السابع إلى دلهي ، ثم توجه من دلهي إلى الشرق وحمل أولاً على مدينة قنوج ، ثم على «مانك بور» و«كره» (التي كانت مركزاً لحكومة مستقلة في ذلك العصر) وفتح هذه المناطق كلها وضمها إلى دولة المسلمين (انظر «سيرة سيد أحمد شهيد» ج: ١ ص: ٧٩).

أجمعين محمد عليه الصلاة والتسليم ، وإنَّ من واجب الشكر على هذه النعمة الجليلة ألَّا تنقطع صلتُنا ـ كلياً ـ بعادات أولئك العرب الأولين وتقاليدهم ، الذين نشأ فيهم رسول الله ﷺ ، ولا ندعُ تقاليد العجم وعاداتِ أهل الهند الوثنيين وطقوسهم تَنتشر وتَشيع فينا».

ثم يقول: «إنَّ السعيد منَّا مَنْ له مشاركة في اللغة العربية ، وإلمام بالصرف والنحو والأدب ، واطلاعٌ على القرآن والحديث ، ويلزمنا أن نتشرَّف بزيارة الحرمين الشريفين ـ بين فينة وأخرى ـ وتكون لنا بهما صلةٌ قلبيةٌ ، ففي ذلك سرُّ سعادتنا ، وفي الإعراض عنه سِرُّ شقائنا وحرماننا»[1].

وقد كانت هذه الأسرة علاوة على أنها كانت عربية الأصل ، جليلةَ النسب ، حائزةً على شرف الانتساب إلى سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه.

وقد وفَّق الله تعالى الأسر العُمرية الفاروقية في الهند ـ مراراً وتكراراً ـ للمآثر التجديدية العظيمة من الحفاظ على الدين ، وإعلاء شعائِر الإسلام ، ومقاومةِ الحركات المعادية للإسلام ، التي كانت تنطوي فيها الغيرة الفاروقية ، ولعل الصِّلة النَّسبية والروحية بسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه أيضاً كانت تدفع إليها ، وهي من أكبر الدوافع النفسية وأقواها ، فقد قاوم أحدُ أفراد هذه السلالة في القرن العاشر فتنة الملك أكبر ، واجتث ـ بحول الله تعالى ـ جرثومتها ، وحفظ ـ بإذن الله تعالى ـ الهند من تعرضها لمؤامرة خطيرة من فِتنة وحدة الأديان ، ودعاوى «العهد الجديد» و«القانون الجديد» و«الألف الجديد» و«الإمامة الجديدة» ، والكفر والإلحاد[2] ، وكان الشيخ أحمد السَّرهندي يعتز بهذه النسبة ، ويرى هذه الحمية الدينية نتيجة طبيعية لها وإحدى مقتضياتها ، وقد صدرت من قلمه على سماع بعضِ التحقيقات المخالفة للعقائد الإسلامية ومَسلكِ جمهور أهل السنة والجماعة مَنسوبة إلى شيخ وعارف شهير ، هذه الكلماتُ القَوية:

---

(١) «المقالة الوضيئة في النصيحة والوصيّة» (بالفارسية) طبع دلهي عام ١٢٦٧هـ.
(٢) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة» ج: ٣.

«يا سيِّدي ، إن هذا الفقير لا يستطيع أن يَصبر على هذه الأقوال ، إنه ينبض فِيَّ عرقي الفَاروقي»[(١)].

وكذلك لمَّا سمع أنَّ خطيب الجمعة في قرية «سامانه» ترك ذِكر الخلفاء الراشدين عمداً في خطبته ، قال:

«لمَّا أورث هذا الخبر الموحش المقلق اضطراباً في نفسي ، وحرَّكَ عِرقي الفاروقي وأثاره ، صَدرتْ مِن قلمي هذه الكلمات المعدودة»[(٢)].

ومِن المقطوع به أنه يكون لهذه النِّسبة والنَّسَب والشعور بشرفِه ومسؤوليته تأثير ودخلٌ في ذلك العلم الضخم المتنوع الواسع ، الذي قام به الإمام الدهلوي لتجديد الدين وإحيائه (والذي اشتمل على إصلاح العقائد ، والرد على الإشراك والبدع ، ونشرِ الكتاب والسنة ، وترويج الحديث الشريف ، والرد على الرَّفض والتشيُّع ، وإثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وغير ذلك) وهو أمر يتفق وعلمَ النفسِ وعلم الحياة، والتجارب والأصول النسلية (التي توجد أمثلتها والشواهد عليها في تاريخ الأسر والأجيال بكثرة) ويُؤيده العقل والقياس ، وقد جاء في الحديث الصحيح:

«الناسُ مَعادِنُ كمعادن الذَّهب والفضَّة ، خِيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَـقُهوا»[(٣)].

* * *

(١) الرسالة رقم ١٠٠ ، وهي موجهة إلى الشيخ حسن الكشميري.

(٢) الرسالة رقم ١٥ ، الجزء السادس ، المجلد الثاني.

(٣) [أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب الأرواح جنود مجنَّدة ، برقم (٢٦٣٨) ، وأحمد في المسند (٢/ ٥٣٩) برقم (١٠٩٦٩) ، والقُضاعي في مسند الشهاب (١/ ١٤٥) برقم (١٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الفصل الثاني
حَياةُ الإمام الدِّهلويِّ بإيجاز(١)

وِلادتُه:

وُلِد الإمام الدهلوي صباح يوم الأربعاء عند طلوع الشمس في ٤/ شوال عام ١١١٤هـ في بيت أخواله بقرية «فُلَتْ» في مديرية (مُظَفَّر نكَر) ، وأرِّخت ولادته بـ «عظيم الدين»(٢) .

وقد كان والدُه الشيخَ عبد الرحيم عند ولادته في الستين من سِنه ، وقد سبقتْ وِلادة هذا الابن المبارك كثيرٌ من المبشرات ، ولما كان الشيخ عبد الرحيم أراد أن يتزوج زواجاً ثانياً وكان قد بلغ الستين ، وزوجتُه الأولى والدة الشيخ صلاح الدين في حِبالته ، كان في هذه الإرادة دخل للإشارات الغيبية

(١) لقد نُقِلت إلينا ـ من حُسن الحظ ـ ترجمة الإمام الدهلوي ، وما قرأ من مُقررات دراسية وشيء من منهج والده في التربية والتعليم ، وبَيعته وإجازته ، ورحلته إلى الحجاز ، واستفادته من مشائخه ، والتعريف بهم وتراجمهم ، وأهم وقائع حياتهم بقلم الإمام الدهلوي نفسه ، فهناك مصدران أساسيان لهذه المواد والمعلومات ، أولهما «الجزء اللطيف» والثاني «إنسان العين في مشائخ الحرمين» ، وقد اقتبسنا ما يتعلق بحياة الإمام الدهلوي من هذين الكتابين ، واستفدنا في بعض المواضع من «أنفاس العارفين» و«القول الجلي» .

(٢) الجزء اللطيف: ص ٢ ، طبع لاهور .

والبِشارات الكثيرة ، ولمَّا علم بذلك الشيخ محمد الفُلَتِي قرر أن يُنكحه ابنته[١] ، وتم هذا الزواج السعيد في أوائل عام ١١١٤هـ.

ويُفيد «القول الجلي» أن اسم هذه الزوجة كان (فَخر النساء) ، وكانت تمتاز ببراعة فائقة في العلوم الدينية ، قلَّما يتيسر مثلُها للنساء ، يقول مؤلِّف هذا الكتاب الشيخ محمد عاشق الفلتي الذي كان ابنَ أخيها الشقيق ، وصاحبُ البيت أدرى بما فيه:

«كانت أمُّه الكريمةُ عالمةً بالعلوم الشرعية كالتفسير والحديث ، مُتحلية بآداب الطريقة ، عارفة بأسرار الحقيقة ، وكانت لجمعها هذه الفضائل مَفخرة للنساء ، واسماً على مسماه».

وقد رأى الشيخ عبد الرحيم قبلَ ولادته ، الشيخَ خواجه قُطب الدين بَخْتِيَار الكَعْكِيّ فيما يراه النائم ، فبشَّره بالولد ، وقال: اجعل اسمه على اسمي «قطب الدين أحمد» يقول الإمام الدهلوي: لما وُلدت كان الوالد قد نسي هذا المنام ، وسمَّاني بوليِّ الله ثم تذكر بعد بُرهة ، فسماني ثانياً قطب الدين أحمد.

كان الإمام الدهلوي في السابعة من عمره إذ شارك والديه في قيام الليل وَوضع يديه عند الدعاء في أيديهما ، وهكذا جاء تأويل تلك الرؤيا التي كان رآها والده قبل ولادته[٢].

دِراسَتُـه:

ولمّا بلغ الإمام الدهلوي الخامسةَ من عمره أُدخل الكُتَّاب[٣] ، واختَتن في السابعة من عمره ، وعُوِّد من هذه السن على الصلاة ، وفرغَ في أواخر هذه السَّنةِ من حفظ القرآن الكريم ، وبدأ قراءةَ الكتب الفارسية والكتب الابتدائية

---

(١) أنفاس العارفين: ص: ٦٢ ـ ٦٣.
(٢) المصدر السابق: ص: ٦٣.
(٣) الجزء اللطيف: ص: ٢.

المختصَرة في العربية[١]، وفرغ من «الكافية» وبدأ قراءة «شرح الجامي للكافية» وهو ابنُ عشر سنوات، يقول: «وحصل لي استعدادُ المطالعة في الجملة»[٢]، ولما كان في السنة الرابعة عشرة من عمره قرأ شيئاً من «البيضاوي»، وفرغ من العلوم المتداولة في هذه البلاد، وهو في الخامسة عشرة من عمره، يقول: ونظم سيدي الوالد بهذه المناسبة السارة مأدبة فخمة للخاص والعام، وأطعم طعاماً وافراً[٣].

ويقول: (وهو في الخامسة عشرة من عمره) وسمعتُ من سيدي الوالد بقراءة بعض أصحابي «المشكاة» إلا طرفاً يسيراً، أعني من كتاب البيوع إلى الآداب، ولكن تداركت ما فات عني بالإجازة، وقرأتُ من «الصحيح» للبخاري إلى كتاب الطهارة تقريباً و«الشمائل» للترمذي كلّه.

وقرأت في التفسير طرفاً من «المدارك» و«البيضاوي»[٤] ويقول: ومن مِنَنِ الله العظمى عليَّ أني حضرتُ مراراً عند والدي لدراسة معاني القرآن والبحث عن أسباب النزول والنظر في التفاسير، فكان هذا سبب فتح أبواب معاني القرآن العظيم والحمدُ لله[٥].

المُقرّرات التي دَرسها الإمامُ الدِّهلوي:

لقد ذكر الإمام الدهلوي في «الجزء اللطيف» تلكَ المقررات الدراسية ـ التي درسها بتفصيل ـ وهي كما يلي:

يقول: وقرأتُ من الفقه «شرح الوقاية» و«الهداية» إلا طرفاً منهما، ومن أصول الفقه «الحسامي»، وطرفاً صالحاً من «التوضيح والتلويح».

---

(١) الجزء اللطيف: ص: ٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.

ومن المنطق «شرح الشمسية» كلّه، وقسطاً من «شرح المطالع»، ومن الكلام «شرح العقائد» كلّه، مع جُملة من حاشية الخيالي، وشيئاً من «شرح المواقف»، ومن السُّلوك قطعة من «العوارف»، وبعضاً من «الرسائل النقشبندية» وغيرها، ومن الحقائق «شرع الرباعيات» لمولانا الجامي و«اللوائح» و«مقدمة شرح اللمعات» ومقدمة «نقد النصوص»، ومن خواص الأسماء والآيات «المجموع الخاص لذاته»، و«الفوائد المئة» وغيرها، وأجازني بها مرة بعد أخرى.

ومن الطب «الموجز»، ومن الحكمة «شرح هداية الحكمة» وغيره، ومن النحو«الكافية» وشرحه للجامي، ومن المعاني «المطوَّل» أكثره و«المختصر» قدر ما عليه حاشية لملا زاده، وبعض الرسائل المختصرة من الهندسة والحساب.

لقد كان في هذه المقرَّرات التي درسها الإمام الدهلوي دخلٌ ما لاجتهاد والده وأستاذه الأول الحقيقي الشيخ عبد الرحيم، واختياره وانتقائه، فإنَّ المقررات الدراسية التي كانت متداولة في القرن السابع الهجري في الهند والتي أُضيف إليها في القرن التاسع الهجري بعد مَقدم الشيخ عبد الله والشيخ عزيز الله من مُلْتان إلى دلهي، وبقيتْ مستمرة سائرة في الأوساط الدراسية إلى القرن الثاني عشر الهجري عددٌ من الكتب في علم الكلام والبلاغة والمعقولات، ثم أُدخلت فيها في القرن العاشر بعد مقدم الأمير فتح الله الشِّيرازي والمير غياث الدين منصور وميرزا جان.

ولعلَّ الشيخ عبد الرحيم لواقعيته واعتماده على ذكاء ابنه حذف منها عدداً من الكتب (التي كانت تشتمل على مواضيعَ ومعلومات مُتكررة) فقد درَّسه في النحو ـ على سبيل المثال ـ «الكافية» و«شرح الجامي» مكان «المصباح» و«لب الألباب» تأليف القاضي ناصر الدين البيضاوي، و«الإرشاد» تأليف القاضي شهاب الدين الدولة آبادي، وفي أصول الفقه طرفاً صالحاً من «الحسامي» و«التوضيح والتلويح» بدل «المنار» و«شروحه» و«أصول البزدوي»، وحذف

«الكشاف» في التفسير ، كما لا يوجد «مشارق الأنوار» في مقررات الحديث.

وقد كان لـ «مقامات الحريري» في الأدب رواج وسيادة حتى يُذكر أنَّ بعض المشائخ كانوا يَحفظونه عن ظهر قلوبهم ، ولكننا لا نجده في المقررات الدراسية عند الإمام الدهلوي ، ومن المُمكن أن كثيراً من هذه الكتب أصبحت مهجورة في كثير من الأوساط الدراسية إلى أوائل القرن الثاني عشر.

ولْيَكُن معلوماً أنَّه في القرن الثاني عشر الهجري نفسه كان أستاذ العلماء مُلاَّ نظام الدين السَّهالْوي الفرنكي محلي (الذي كان مُعاصراً للإمام الدهلوي وأكبرَ منه في عمره ، والذي توفي قبل وفاة الإمام الدهلوي بـ ١٥ سنة عام ١١٦١هـ) قد زاد زيادات كثيرة في هذه المقررات الدراسية ، لا سيما في علم الصرف والنحو والمنطق والفلسفة والرياضيات والبلاغة وعلم الكلام ، فقد أضاف فيها كثيراً من الكتب والتي ظهرت بعد زيادات وإضافات أخرى (وهي التي تمت في عهد تلامذته وتلامذة تلامذته بدون تصميم وتخطيط) في صورة المنهج النظامي أو المقرَّرات الدراسية النظامية التي لا تزال سائدة في المدارس القديمة أو القائمة على الطراز القديم[١].

ولا نجدُ ضِمن المقررات التي ذكرها الإمام الدهلوي أيَّ كتاب في الأدب العربي مع أن مؤلفات الإمام الدهلوي ، لا سيما «حجة الله البالغة» تشهد على أنه ليس قادراً على اللغة العربية والتحرير والإنشاء فحسب ،بل إذا نظرنا إلى كتابه «حجة الله البالغة» فهو مؤسِّس لطراز أسلوب جديد هو أليقَ ما يكون من الأساليب بشرح المواضيع والمطالب العلمية وتحريرها ،ولا نجد له فيه بعدَ العلامة ابن خلدون نظيراً ولا قريناً.

---

(١) انظر للاطلاع على التطورات الحادثة في المقررات الدراسية في الهند ، والتغير في مقاييس الفضل والنبوغ في مختلف العهود ، وزيادة عدد من الشروح والحواشي لكتاب واحد في المقررات وعواملها وأسبابها ، كتاب «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة عبد الحي الحسني ، مجمع اللغة العربية بدمشق.

ويبدو أن الإمام الدهلوي كان قد طالع بنفسه كُتب الأدب العربي وكتب النَّثْر والنَّظْمِ القديمة ذات المستوى الرفيع التي كانت مثالاً لسلامة البيان وحلاوة العبارات ، وكانت مصونَة من التأثيرات الأعجمية ، وأنه قد أعدَّ نَفسه أثناء إقامته بالحجاز لذلك العلم التأليفي العظيم في اللغة العربية ـ بصفة خاصة ـ الذي كان قد اختصه به التدبير الإلٰهي [1].

وإذا كان لم يُهمل ذكر «مقامات الحريري» سهواً ونسياناً فكان عدم إدخالها في مقرراته الدراسية خيراً له ومفيداً بدلاً من أن يَنقصه ويَضره ، فإن أكثر المتأخِّرين من صرعىٰ هذا الكتاب، الذين قيدوا أنفسَهم بالعبارات المُسَجعة والجمل المُقفَّاة حتى لم يعودوا قادرين على أداء المطالب العالية ، والتعبير عمّا في نفوسهم بعبارة سهلة سلسة غير متكلفة.

وكلٌّ من جاء بعد الحريري وألف في موضوع من المواضيع ألَّف بقلم الحريري الذي كان قد بَليَ ومضى عليه الدهر ، حتى لا نجد الرسائل والمكاتبات ، وتقريظات الكتُب والمقدمات إلى عبارات الفتاوى الطويلة حُرة طليقة من هذا التأثير للحريري.

يقول الإمام الدهلوي: «وكان يَخطر ببالي في أيام الطلب المطالبُ العالية تَزداد بالجد والاجتهاد. . . وبعد وفاة (سيدي الوالد) وَاظبتُ على تدريس الكتب الدينية والعلوم العقلية نحواً من اثنتي عشرة سنة ، ووقع الخوض في كل علم» [2].

تربيةُ الوالد وعطفه وإجازتُه واستخلافُه:

يقول الإمام الدهلوي: «كان (والدي) يَعطف على الفقير ، ويُراعي حقوق البنوَّةِ بكل لطفٍ ودقةٍ، لا يَعدِله عطف أي أب على الابن، ولاضِنة أي أستاذ

(١) يقول مؤلِّف «اليانع الجني»: «وقد أقام بالحجاز سنتين وزاحم العرب وسمع من أهل البادية وهم يومئذ أحسن حالاً منهم في زماننا» ، ص: ٨٣.

(٢) الجزء اللطيف: ص: ٣.

بتلميذه، ولا رأفة أيِّ مرشد لمريده»[١].

وكان منهج الشيخ عبد الرحيم في التربية منهجاً تربوياً حكيماً، يقول الإمام الدهلوي: خرجتُ ذات مرة ـ في صغري ـ مع جماعة من أصدقائي وأقربائي إلى بستان، فلما عُدت من هناك، قال لي والدي: وليّ الله ما الذي أحرزته في هذا اليوم والليلة مما يَبقى؟ أما أنا فقد صلَّيت على النبي ﷺ كذا مرة.

يقول الإمام الدهلوي: لقد انصرف قلبي عند سماع هذا كلياً عن زيارة البساتين والتفرج فيها، ثم لم تعد لي رغبة إليها [٢].

ويقول: كان والدي يعلمني ـ كثيراً ـ الحكمة العلمية، وآداب المجالس والمحافل وكثيراً من أمور الحكمة والأدب ومكارم الأخلاق، وكان كثيراً ما يُنشد هذا البيت الفارسي الذي معناه:

«راحةُ العالَمين (عالَم الدنيا وعالم الآخرة) تفسيرٌ لهاتين اللفظتين، المُلاطفة مع الأصدقاء، والمُداراة مع الأعداء» [٣].

ويقول: وكان يَنصحني بأن أبدأ ـ دائماً ـ مَنْ هُم أقلُّ شأناً ومرتبةً بالسلام، وأن أبُشَّ في وجوههم وأستقبلَهم ببشر، وأتعهَّدهم وأتفقَّدَ أحوالهم ولا أرى ذلك أمراً هيناً أو شيئاً تافهاً، يقول أحد شعراء الفارسية ما معناه:

«تَستطيع بأدنى لحظتك أن تشتري مئات مملكة القلوب، ولكنَّ أصحاب الحُسن والجمال يُقصِّرون في هذا ولا يُبالون».

وكان يقول: إنَّ بعض الناس يلتزمون لباساً خاصاً، أو يتقيدون بعادة خاصة، أو يتعوَّدون على كلمة يكررونها، أو يكرهون بعض الأطعمة إلى حد أنهم يعافون ذِكره، ويغضبون عند سماع اسمه، فينبغي الاحترازُ من هذه

---

(١) أنفاس العارفين: ص: ٦٣.
(٢) المصدر السابق: ص ٦٣.
(٣) المصدر السابق: ص ٦٣.

الأشياء كلها ، ولا يكون الغرض في تحقيق بعض مطالب النفس أو رغباتها محضَ الحصول على المتعة واللذة ، بل يَنبغي أن يكون الغرضُ تحقيقَ مطلب أو قضاء حاجة من الحاجات ، أو الحصول على فضيلة من الفضائل ، أو أداء سنة من السنن ، ولا يظهر منك الكسل أو الضعف في المشي والسير والقيام والقعود وفي أيٍّ شيء.

وكان الشيخ عبد الرحيم ـ حسب تصريح الإمام الدهلوي ـ متصفاً بصفات الرجولة والشهامة من شجاعة وفِراسة وحسن إدارة وغيرة ، وكان يملك «عقل المعاش» كاملاً موفوراً كـ «عقل المعاد» ، وكان يُحب التوسُّط في كل شيء ، وقد كانت سيرة الإمام الدهلوي وأخلاقه عكساً من عكوس سيرة والده وأخلاقه [1].

يقول الإمام الدهلوي: ثم بايعتُ (وكان في الرابعة عشرة من سنه) سيدي الوالد ، ثم اشتغلتُ بأشغال الصوفية سيما المشائخ النقشبندية ، وحصَّلت التوجه والتلقين وطرفاً صالحاً من تعليم آداب الطريقة وألبست الخرقة ، ثم حين بلغتُ السابعة عشرة من عمري ، مَرض سيدي الوالد ، وانتقل إلى جوار رحمة الله تعالى ، وفي المرض الذي مات فيه أجازني للبيعة والإرشاد ، وكرَّر «يدُه كيَدي» [2].

زَواجُــه الأوّل:

يقول الإمام الدهلوي: وفي السنة الرابعة عشرة تزوجتُ (كان زواجه هذا ببنت خاله الشيخ عبد الله الصديقي الفلتي) ، وأسرع فضيلة الوالد في التزويج حتى إنه لما اعتذر أصهاري عن تحمل أعباء هذا الأمر واستمهلوه ، كتب إليهم سيدي الوالد: إن في هذا التعجيل سراً ، ثم أثبتت الوقائع والفجائع المتتالية

(١) أنفاس العارفين: ص ٨٣.
(٢) الجزء اللطيف: ص ٢.

فيما بعد أن التزويج إن لم يكن في ذلك الحين، لم يكن إلى سنين (١).

وقد وُلد له من هذه الزوجة ابنه الأكبر الشيخ محمد، الذي تخرج عليه، وألَّف الإمام الدهلوي له رسالة ابتدائية، وكان هو من الحاضرين مع الشيخ عبد العزيز في درس «شمائل الترمذي» وقارئَه (٢)، وانتقلَ بعد وفاة الإمام الدهلوي إلى قرية «بدهانه» ولبث بها إلى أن توفي عام ١٢٠٨هـ ـ ودُفن في فناء الجامع بالقرية (٣)، وكان الإمام الدهلوي يُكنىٰ به «أبا محمد» (٤).

ويرد ذكر ابنين للشيخ محمد دُفنا جَنبيه في كتاب «مقالات طريقت»، ولكن الكتب الأخرى تَصفه بأنه لا عَقِبَ له، وقد وجَّه الشيخ عبد العزيز في ثلاث من رسائله إلى الشيخ أبي سعيد الحسني الرائي بريلوي تحيات أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولي الله وتسليماته إليه، ووصفه في رسالة: «الأخ الأكبر الشيخ محمد» وفي أخرى: «الشيخ الكبير محمد»، ويُقدَّر من هذه الرسائل ما كان بين الإخوة من حُب ومودَّة (٥).

الزَّواجُ الثَّاني:

لقد تَمَّ زواج الإمام الدهلوي الثاني بعد وفاة زوجته الأولى بكريمة السيد ثناء الله من سكان سوني بت ومن أعقاب السيد ناصر الدين السُّوني بَتِي الشهيد.

وقد وُلد للإمام الدهلوي من هذه الزوجة الكريمة أبناؤه الأربعة المعروفون (الشيخ عبد العزيز، الشيخ رفيع الدين، الشيخ عبد القادر،

(١) يقول الإمام الدهلوي: إنه قد ماتت أم زوجتي بعد أيام، ثم بعد قليل توفيت جدتها من قبل الأم، ثم مات الشيخ فخر العالم ابن فضيلة عمي الشيخ أبي الرضا محمد ـ قدس سره ـ ثم ماتت أم أخي الكبير الشيخ صلاح الدين.

(٢) نزهة الخواطر: ج: ٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الإرشاد في مهمات الإسناد.

(٥) مكتوب المعارف: (مخطوط) ص: ١٦ ـ ١٧ ـ ١٨.

والشيخ عبد الغني) الذين هم الأركان الأربعة للنهضة الدينية العظيمة في الهند ـ رحمهم الله تعالى ـ.

كما وُلدت له كذلك بنتٌ سمِّيت بـ«أمة العزيز» ، وكان زواجها بالشيخ محمد فائق ابن الشيخ محمد عاشق الفلتي ، وكان لها أولاد ، تناسلوا وتعاقبوا.

رحلَتهُ للحَجِّ:

إنَّ رحلة الإمام الدهلوي إلى الحجاز وإقامتَه به تحتلُّ في حياته العلمية والفكرية والدعوية والتجديدية مكانةً تاريخية كبيرة ، وتُعتبر باباً جديداً ، وخطاً فاصلاً بين عهدين.

إنَّ ملكاتِه العلمية والعقلية في أثناء هذه الإقامة الطويلة التي تمتد على أكثر من عام ، قد تدرَّجت في مدارج الرقي التي لم تكن لتتيسَّر له ـ في ظاهر الحال ـ لو بقي في الهند ، وكان لا بد لذلك من مكان مركزي عالَمي كالحرمين الشريفين ، ففي هذه الرحلة كانت دراستُه الواسعة العميقة لِعلم الحديث الشريف ، وأكمل هذا الفنَّ على أيدي الأساتذة الكبار والشيوخ الكاملين ، الذين كانوا قد اجتمعوا هناك من مختلف الأقطار والأمصار ، وذلك ما يَحتل مكانة «حجر الزاوية» في إيوان إصلاحه وتجديده العظيم ، والذي قد وصل به إلى تلك المنزلة من التحقيق والاجتهاد التي قل من يصل إليها في هذه القرون المتأخرة.

(وأمَّا اكتناهُه لأسرار الشريعة ومقاصدها وغاياتها وتطبيقُه بين الفقه والحديث) فلم يصلْ إليها أحدٌ منذ عدة قرون.

كان الإمام الدهلوي عندَ رحلته للحج في الثلاثين من عمره[1] ، وقد كانت

(١) يستفاد من «القول الجلي» أن الإمام الدهلوي قبل هذه الرحلة للحج التي وفق فيها كان قد عزم فجأة على السفر للحج ، والهجرة إلى الحرمين الشريفين في حين كان عمره عشرين سنة ، وخرج من الوطن خفية بدون زاد وراحلة ، فلما وصل إلى المرفأ علم أن=

هذه الرحلةُ دليلاً ساطعاً على علو همَّته وحُبه للعلم، وصِلته القلبية القوية بالحرمين الشريفين نظراً إلى أوضاع ذلك العهد السياسية، وحالةِ الأمن المضطربة في الطرق وسيطرة بعض القوى الأجنبية، والأخطار البرية والبحرية، والقَرصنة وقطع الطريق.

كما يدلُّ ذلك على حَميَّته الإسلامية وبُعد نظره وسُموِّ فِكره، إذ أنه لم يكن منحصراً في مهمة الحفاظ على الدين في الهند، وتقدُّم الأمة الإسلامية الهندية، وازدهارها واستقلالها في دراسة أوضاع الهند، والاطلاع على ظروفها وأحوالها فحسب، والتفكير في علاجها وإصلاحها، بل إنه كان يريد أن يستفيد تطبيقاً لهذه الإشارة القرآنية البليغة: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨]، من قلب العالم الإسلامي ومركزه، ومن علوم الوافدين من أقطار الأرض وأرجاء المعمورة من وفود الإسلام وضُيوف الرحمن ومعارفهم، وعقولهم وأذهانهم، وأفكارهم وآرائهم، وجُهودهم وتجاربهم.

وقد كانت «سُوْرَت» ـ حينذاك ـ ميناءَ الهند وباب مكة المشرفة، وكانتِ المناطق الواقعة في الطريق لا سيما مناطق مالوه وكجرات مُعرضةً لغارات المرهتة وحملاتِهم وعمليات سلبهم ونهبهم، وكان من العسير الشاق قطعُ هذا الطريق من شمال الهند إلى جنوبه بالمراكب القديمة وعجلات الإبل والثيران [١].

وكانت جميع سواحل بحر الهند والبحر الأحمر مُهدَّدة بهجَمات القراصنة البرتغاليين والهولنديين وحملات الفرنسيين والإنكليز المستعمرين، ويمكن

= السفن تحركت ولم تبق أي سفينة، فاضطر للإقامة في مدينة «كهبايت» ثم غلبت عليه في إحدى مراقباته وخلواته كيفية صرفته عن هذه الإرادة، فمال طبعه عن السفر وعزم على الرجوع وكانت في ذلك إشارة من حضرة النبي ﷺ أيضاً. (القول الجلي).

(١) تفيد مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز الدهلوي (ملفوظات عزيزية) أن الإمام الدهلوي كان قد مرَّ في هذه الرحلة بولاية «راجبوتانه» أيضاً، انظر ص: ٧٣.

أن تقرأ تفاصيل مصائب الحجاج وحوادثَهم والأخطار التي كانت تُحدق بسفر الحج ، في مذكرات الرحلات لذلك العهد (التي لم يُرتَّب منها ولم يحفظ إلا القليل) وقد كان هذا الحال في الهند نفسها أن شخصاً إذا تُرك وحده في الليل في قرية أو عمران فكان يُخشى عليه ، ويدعو الإمام الدهلوي نفسه متضرِّعاً: يا بديع العجائب ، يا بديع العجائب ، (وكان ذلك ورداً يُقرأ عند غياب شخص والخوف عليه).

وَصل الإمام الدهلوي من «سورت» إلى جدة في ٤٥ يوماً ، ودخل مكة المكرمة يوم ١٥ من ذي القعدة ، وبدأ ـ بناء على طلب العلماء والطلاب ـ درسَه في المسجد الحرام عند المصلَّى الحنفي ، الذي كثر فيه الناسُ وتهافتوا عليه [١].

يقول الإمام الدهلوي في «الجزء اللطيف»: في سنة ١١٤٣ هـ تُقْتُ إلى زيارة الحَرمين الشريفين ، وتَشرفتُ بالحج في آخرها ، ثم جاورتُ في سنة ١١٤٤ هـ بيتَ الله الحرام ، وزُرت المدينة المنوَّرة ، أروي الحديث عن الشيخ أبي طاهر المدني وغيره ، وجالستُ علماء الحرمين وغيرَهم مجالسات طويلة واسعة ، ولَبستُ الخرقة الصوفية من الشيخ أبي طاهر المدني رحمه الله ولعلها حاوية لخرق الصوفية كُلها.

وعلى تمام هذا العام ، أي عام ١١٤٥ هـ وانتهيتُ إلى الوطن المألوف في يوم الجمعة العاشر من رجب سنة ١١٤٥ هـ في كنف الصحة والسلامة.

مشايخُ الإمام الدهلوي وأساتذتُه في الحَرمين الشَّريفين:

لقد ألّفَ الإمام الدهلوي في تراجم مشائخه وأساتذته في الحرمين الشريفين رسالة سماها «إنسان العين في مشائخ الحرمين» وقد ذكر فيها شيخه الخاص وأستاذَه المُحسن إليه المحبوب الشيخ أبا طاهر محمد بن إبراهيم الكردي

(١) القول الجلي: (مخطوط).

المدَني بشيء من التفصيل ، ولما كان الأساتذة والمشايخ المُرَبُّون يطبعون تلامذتهم الأذكياء ذوي الاستعداد العالي بطابَعهم العميق ، ويكون لميولهم ونزعاتهم وبحوثهم وتحقيقاتهم تأثيرٌ كبير مثيرٌ على الطلاب النجباء ، فمنَ المناسب هنا أن نذكُرَ تراجمهم بشيءٍ من التفصيل .

الشَّيخُ أبو طاهر المَدني:

يقول الإمام الدهلوي: لقد قرأ الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الحديث على والده الشيخ إبراهيم الكردي ، ثم كانتْ أكثر استفادته من الشيخ حسن العُجيمي[١] ، ثم قرأ على الشيخ أحمد النَّخلي والشيخ عبد الله البصري «شمائل الترمذي» و«مسند الإمام أحمد» في أقل من شهرين ، وكان يستفيدُ من العلماء الوافدين إلى الحرمين الشريفين ، وقد نال من الشيخ عبد الله اللاهوري إجازة رواية الكتُب للشيخ عبد الحق المحدِّث الدهلوي ، والشيخ عبد الحكيم السِّيالكوتي ، وقرأ على الشيخ سعيد الكوكني بعض الكتب العربية والربع من «فتح الباري»[٢] .

وذكر العلاَّمة محسن بن يحيى الترهتي في «اليانع الجني»: أن الشيخ أبا طاهر كان يقول: كان الشيخ ولي الله يُسند عني اللفظ وكنت أصحِّح منه المعنىٰ وكتب ذلك في إجازته له أيضاً[٣] .

وقد كان الشيخ أبو طاهر (رغم كونه محدثاً جليلاً) حسَن الظن بالصوفية محترزاً عن انتقادهم والزراية عليهم ، ويقول الإمام الدهلوي: إنني لما ذهبت إلى الشيخ أبي طاهر للتوديع والمغادرة إلى الوطن ، أنشدني هذا البيت:

---

(١) ذكر الإمام الدهلوي في «إنسان العين» نسبته «العجمي» ولعله خطأ مطبعي ، فإنه ذكر في عامة كتب التراجم «العجيمي» (بالتصغير) (انظر «الأعلام» للزركلي ، ج: ٢ ، ص: ٢٢٣).

(٢) إنسان العين: ص: ١٣ .

(٣) اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني: نقلاً عن «كشف الأستار عن رجال معاني الآثار» طبع دار الإشاعة والتدريس (ديوبند الهند).

نَسيتُ كُلَّ طَريقٍ كُنتُ أعرِفُهُ إلاَّ طَريقاً يُؤدِّيني لِربْعِكُمُ

وكان ردُّ الإمام الدهلوي كذلك ، ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوي: لما أراد والدي العودة من المدينة المنورة ، قال لشيخه (أبي طاهر) ـ وقد سُرَّ الشيخ بهذا القول ـ: إنني قد نسيت كل ما قرأتُه سابقاً إلا علوم الدين وعلم الحديث الشريف بصفة خاصة[1] .

وقد صَدَّقَتْ ذلك حياةُ الإمام الدهلوي وأشغالُه وأعمالُه (التي سيأتي تفصيلها في الصفحات القادمة) فيما بعد ، وقد حقَّق ما نطقَ به لسانه وأثبتَ القولَ بالعمل: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

تُوفِّي الشيخ أبو طاهر في شهر رمضان عام ١١٤٥هـ ، أي بعد مغادرة الإمام الدهلوي المدينة المنوَّرة والوصول إلى دلهي بشهر ونصف أو شهرين[2] ، فلم تُمهله الفُرصة بعد مقدم الإمام الدهلوي إلى الهند للإفادة والتربية والتدريس إلا قليلاً ، «وذلك تَقديرُ العزيز العليم».

وممَّا يجدُر بالذكر في ترجمته أن والده الشيخ إبراهيم الكوراني[3] كان يدافع عن شيخ الإسلام ابن تيمية ، يقول العلامة السيد نعمان خير الدين الآلوسي البغدادي في كتابه الشهير «جلاء العينين في محاكمة الأحمدين»:

«وكان سَلفيَّ العقيدة ، ذاباً عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وكذا يذُبُّ عما وقع في كلمات الصوفية ما ظاهِرُه الحلول أو الاتحاد أو العينية»[4] .

ويُستنتج مِنْ ذلك أن ما جاء في كتابات الإمام الدهلوي من تعريف وإشادة بكتب شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، والانتصار له والدفاع عنه ، ونَزعتِه التطبيقية التي ورثها عن آبائه ، كان لأحاديث الشيخ أبي طاهر فيها أيضا نَصيب وتأثير ،

---

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ٩٣ .

(٢) إنسان العين: ص: ١٤ .

(٣) وُلد سنة ١٠٢٥ هـ وتوفي سنة ١١٠١هـ ، له أكثر من ثمانين مؤلفاً.

(٤) جلاء العينين: طبع مطبعة المدني ، مصر ، ص: ٤١ .

ولعله وَرِث هذه النزعة مِن والده الشيخ إبراهيم الكوراني.

الشَّيخُ تَاجُ الدِّين القَلعي الحنفي:

وكان الأستاذُ الثاني للإمام الدهلوي الذي أجازه برواياته هو الشيخُ تاج الدين القلعي الحنفي مُفتي مكة المكرمة، وقد كانت أكثرُ دراسته للحديث الشريف تمَّت على يدي الشيخ عبد الله بن سالم المصري، وقرأ «الصحيحين» على الشيخ العُجيمي، ونال منه الإجازة العامة المطلقة، وله إجازةٌ أيضاً عن الشيخ أحمد النخلي وغيره، وقد حضر الإمام الدهلوي دروسَه لـ «صحيح البخاري»، ثلاثة أيام، وسمع منه أطرافَ الكتب الستة، وطرفاً من «الموطأ»، و«مسنَد الدارمي»، و«كتاب الآثار» للإمام محمد و«الموطأ» له، وأجاز الشيخُ جميعَ الحاضرين، وكان منهم الإمام الدهلوي، وسمع منه الحديث المُسلسَل بالأولية[١].

الشَّيخ مُحمد وَفدُ اللهِ المالكي:

وأخذ الإمام الدهلوي إجازة الشيخ محمد وفد الله المالكي لجميع مروياته عن والده حافظ الحديث ومَجمع الفضائل الشيخ محمد بن محمد بن سليمان المغربي (الذي كان يملك النسخة اليُونينية، جاء بها من إستانبول إلى الحرمين الشريفين وكان شيخَ جُمهور أهل الحرمين وأستاذهم) وَقرأ عليه ـ زيادة على ما تقدم ـ جميعَ «الموطأ» برواية يحيى بن يحيى المصمودي، وأجازَه الشيخ بروايته[٢].

وكان الإمام الدهلوي ـ أيامَ طلبه في الهند ـ حضر دروسَ إمام الحديث الشيخ محمد أفضل السِّيالكوتي[٣]، الذي كان يروي الحديث عن الشيخ سالم

(١) إنسان العين: ص: ١٥ ـ ١٦.
(٢) المصدر السابق: ص: ٧.
(٣) القول الجلي (مخطوط).

ابن عبد الله البصري ، وكان هو تلميذ عبد الأحد ابن الشيخ محمد سعيد السرهندي أيضاً ، الذي كان يُدرِّس في مدرسة غازي الدين خان بدلهي ، وكان الشيخ ميرزا مظهر جان جانان استفاد منه في الحديث والسلوك[١].

وقد كان يُرافق الإمام الدهلوي في رحلته هذه خالُه الشيخ عُبيد الله البارهوي وابنُ خاله الشيخ محمد عاشق الفُلَتي (مؤلِّف القولِ الجلي) ، وقد سمع الإمام الدهلوي نبأ وفاة والدته في العودة من هذه الرحلة بمكةَ المكرمة[٢].

لقد كانتْ هناك للإمام الدهلوي فُرصٌ طيبة مُواتية في الحرمين الشريفين لتَذوُّق الحديث الشريف والتوسُّع فيه ، وتدريسه وخِدمته ونشره ، وكانت إمكانيات الإفادة للعلماء وطلبةِ العلم والوافدين من مختلف البلدان والأقطار متوفرة ميسَّرة ، ثم كانتْ مجاورة بيت الله الحرام، وبركات جوار النبي ﷺ والأوضاعُ المضطربة في الهند واضطراب الدولة الإسلامية فيها ، والاطلاعُ على سيطرة القوى الأجنبية وإحكامِ استيلائها يوماً فيوماً ، كلُّ ذلك كان من الأسباب والدوافع القوية إلى نِية الهجرة والإقامة في الحجاز ، ولم تكن تُهيىءُ له الأدلة على جوازها فحسب بل تُؤيدها المصالح الدينية والعلمية ، ولكنَّه عزم على العودة إلى الهند ، تلكَ العزيمة التي كانت تنطوي على خير كبير قدَّره الله تعالى ، وتجلى في أروع مظهر في عمله التجديدي والاجتهادي العظيم ، وكان فيها تحقيقُ تلك البشارة النبوية التي تلقاها في المدينة المنورة ، وهي :

«إنَّ مُراد الحقِّ فيك أن يَجمع شملاً من شَمل الأمة المرحومةِ بك»[٣].

ولم يَكُنِ الإمام الدهلوي يرى ذلك لنفسِه بل كان يَرى لخواصِّ أصحابه أيضاً أن يتخذوا الهند مركزَ نشاطاتهم وخدَماتِهم العلمية والدينية ، تِلكَ البلاد

---

(١) نزهة الخواطر: جـ ٦.

(٢) المصدر السابق.

(٣) فيوض الحرمين: ص: ٦٢ ، طبع المطبع الأحمدي دلهي.

التي أنفق عليها أسلافُهم الميامين ما كانوا يملكون من كفاءات علمية ودينية فاضلة ، وقِوىً وطاقات كبيرة ، والتي أنتجت المحقِّقين والعلماءَ الربَّانيين في كل عصر ، وكانتْ تتهيأ لتكونَ في المستقبل مركزاً لعلم الحديث الشريف وللعلوم الدينية الأخرى ، ولما سافر أحدُ خَواصِّ تلامذته الشيخُ معين الدين السِّندي إلى الحجاز وأبدىٰ عزمه على البقاء والإقامة هناك ، كتبَ إليه الإمام الدهلوي ينهاه عن ذلك ، يقول:

«أمَّا عَزْمُ تركِ الرجوع إلى الوطن ، فَلا تَستبدّوا به حتى يَشرح الله صدركم أو صدر رَجُلٍ لأجلكم»[1].

تَدريسُ الإمام الدِّهلوي للحديث الشريف:

بدأ الإمام الدهلوي بعد عَودته من الحجاز تدريسَه للحديث الشريف في المدرسة الرحيمية لوالده التي كانت واقعةً في دلهي القديمة في ذلك الحي الذي يسمَّى الآن «حيّ مَهِنْدِيَان» ، ولم يلبث أن تواردت إليه جماعاتُ الطلاب وضَربتْ إليه أكبَاد الإبل من مُختلف الأنحاء والأصقاع ، وضاقَ بهم المكان ، وكان الله تعالى قد قدَّر للملك محمد شاه (رُغم كثير من سَقطاته ومواضع ضعفه) هذه السعادة أن وهبَ لمدرسة الإمام الدهلوي في المدينة بيتاً فخماً كبيراً ، ودعاه إلى المدينة ، فبدأ إلقاء دروسه هناك[2] ، يقول الشيخ بشير الدين:

«كانت هذه المدرسة ـ في فترة من الفترات ـ كبيرةً فخمة زاهية ، وكانت تُعتبر « «دار العلوم الكبرى» ، ولم تزل على حالها الأولى إلى ثورة (١٨٥٧م) ، ثم نُهبتِ البُيوت أيام الثورة ، وحمل الناس حتى الألواح والعُرا والحَلقات».

---

(١) حيات ولي: (مكتوبات الإمام الدهلوي ، المكتوب العاشر ، ص: ٥٣٦ ، طبع مطبع السلفية ـ لاهور).

(٢) انظر «دار الحكومت دلهي» ج: ٢ ص: ٢٨٦ ، للشيخ بشير الدين.

ويَزيد الشيخُ قائلاً: «وقد بُنيت الآن بيوتُ عددٍ من الناس في هذا المكان، إلا أن الحي لا يزال يدعى باسم مدرسة الشيخ عبد العزيز الدهلوي».

وجاء ذِكر مسجدِ هذه المدرسة في أحد المواضع في مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات الشيخ عبد العزيز)، يقول فيها:

«كان ـ في العهد الذي وُلدت فيه ـ كثيرٌ من الأولياء الصالحين الذين كانوا من خواص أصحاب السيد الوالد وأحبابه، كالشيخ محمد عاشق والشيخ محمد نور، يَعتكفون في هذا المسجد»[١].

وقد كان العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤلِّف «نزهة الخواطر» سافر إلى دلهي وما يُجاوِرها من المدن والقرى عام ١٣١٢هـ الموافق ١٨٩٤م وقَيَّد مذكرات هذه الرحلة، يقول في مذكرات يوم ٢٦/ من رجب:

«أَردتُ بعد عودتي من دَرس الشيخ المحدِّث السيد نذير حسين أن أزور مدرسة الشيخ الجليل قدوة العلماء والفضلاء التي استفاد فيها سَلفُنا جيلاً بعد جيل، ورأوا من الفخر والسعادة خِدمة الكناسة فيها[٢]، مَشيتُ من هنا إلى المسجد الجامع، ومن ثَم قُدَّامه إلى «كَلاَن محل»، وفي «كلان محل» توجد مدرسة شيخ مشايخنا مولانا ومقتدانا، فتذكَّرتُ على رؤيتها الآية الكريمة: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩] سبحان الله، إنها لَعجائبُ قُدرةِ الله، لقد كان يوم يُقيم فيه الطلاب العرب والعجم في هذه المدرسة ويستفيدون، وقد آلتِ اليوم إلى هذه الحال من الخراب والدمار، ما بها مِن أنيسٍ ولا جليس»[٣].

ثم حكى عَن بقية هذه الأسرة العليَّة الشيخ السيد ظهير الدين أحمد، أن في

---

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ١٠٩، طبع المطبع المجتبائي، ميرته.

(٢) ذكر العلامة هنا أسماء عدد من أسلاف أسرته الذين لم يزالوا من عهد الإمام إلى عهد الشيخ عبد العزيز يردون إلى هذه المدرسة ويستفيدون بها ويتعلمون.

(٣) دهلي أورأس كي أطراف: طبع أنجمن ترقي أردو، ص: ٦٣ ـ ٦٤.

حي «مهنديان» حيث توجد قبور هؤلاء الأعلام ، كانت توجد مدرسة أيضاً ، وقدِم الإمام الدهلوي ـ بعد وفاة والده الشيخ عبد الرحيم ـ إلى المدينة (دلهي) الجديدة ، وعُهد إليه بهذه المدرسة ، وأقام بها[١].

بَعضُ عادات الإمام الدهلوي وخصائِصه كما ذكرها الشيخُ عبدُ العزيز الدهلوي:

مِن المُؤسف أنه لا يوجد لدينا ترجمةٌ معاصرة أو رحلة أو مذكرة تُطلِعنا بتفصيل على خصائص الإمام الدهلوي وعاداتهِ وأحوال مواعيدِ أعماله وقيامِه وقعوده ، وقد تَردُ إشارات إلى شيء من ذلك في مجموعةِ كلمات الشيخ عبد العزيز الدهلوي.

يقول: لم أر مثلَ السيد الوالد في قوة ذاكرته ، لا أقول إنني لم أسمع بمثله ، ولكنني لم أشاهد[٢] ، وكان ـ علاوة على علومه وفضائله ـ عديمَ النظير في ضبط مواعيده وتَنظيم أوقاته ، وكان إذا جَلس مجلسَه بعد الإشراق لم يُغير جِلسته ، ولا يَحُك جسده ، ولا يَبصق إلى الظُّهر[٣] ، وكان قد هيَّأ في كل فن وعلم رجلاً من أصحابه ، وكان يَعهد بطالب ذلك الفن إليه ، ويَنصرف نفسُه إلى بيان المعارف والحقائق ، وتحريرها وتدوينها ، وكان يَدرس الحديث الشريف ويدرسه ، وكان إذا انكشف عليه شيءٌ سجله ، وكان قليلاً ما يمرض[٤] ، وقد كان جدي وعمي (اللذين كانا طبيبين أيضاً) يُعالجان الناس ، أما الوالد فقد انصرف عن هذا الشغل ، إلا أنه كان يُطالِع كتب الطب[٥] ، وكان ـ من صِباه ـ لطيف الطبع يُحب النظافة ، وقلَّما كان يُنشد

---

(١) دهلي أورأُس كي أطراف: طبع أنجمن ترقي أردو ، ص: ٦٧.

(٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ١١.

(٣) المصدر السابق: ص: ٤٣.

(٤) المصدر السابق: ص: ٤٠.

(٥) المصدر السابق: ص: ٢٢.

الأبيات الصوفية ، إلاّ أنه ـ أحياناً ـ كان يُنشد بيتاً أو بيتين[١] .

وَفاة الإمام الدِّهلوي:

وأخيراً آن وقتُ الرحيل لتلك الحياة الغنية المباركة التي كانت كلُّ لحظة منها كبيرَة القيمة ، مَصروفة إلى إعلاء كلمة الله تعالى واللَّهج بذكره ، ونفع الإسلام والمسلمين ، وإحياء السُّنن ونَشر الكتاب والسنَّة ، والتعليم والتربية ، الرحيل الذي لا يُستثنى منه لقوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] ، أيُّ نبي ولا ولي ولا مجدد ولا مجاهد ، كانت بداية عام ١١٧٦هـ وكان آخر تاريخ شهر المحرم الحرام أن وافاه الأجل المحتوم ، فودَّع الإمام الدهلوي حين بلغ من عمره اثنين وستين عاماً[٢] ، هذه الدُّنيا الفانية ، وأسلم رُوحَه لبارئها الكريم ، ومن أحبَّ لقاء الله ، أحبَّ اللهُ لقاءه ، وصدق الله العظيم : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٢٨] .

ولا تَتوفَّر تفاصيلُ المَرضِ وحادثِ الوفاة في أي كتاب من كتب التراجم ، ومما يَسُرُّ المؤلف ويشرفه أنَّ كلَ ما يوجد من معلومات وتفاصيل بهذا الصدد فمَصدرُها الوحيد هو رسالةٌ من أحد أفراد أُسرته الحسنية القُطبية الكبار الشيخ السيد محمد نعمان الحسني[٣] ، كان قد وجَّهَا إلى شخصية معروفة كبيرة

(١) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ٤٣ .

(٢) جاء في «ملفوظات الشيخ عبد العزيز» (الترجمة الأردية) أنه قال: كان عمره (الإمام الدهلوي) إحدى وستين سنة وأربعة أشهر ، ولد في الرابع من شوال عام ١١١٤هـ وتوفي في ٢٩ محرم الحرام عام ١١٧٦هـ ، وكان تاريخ وفاته بـ «إمام أعظم دين» (انظر «ملفوظات الشيخ عبد العزيز» ص: ٥٦).

(٣) السيد محمد نعمان هو ابن حفيد الشيخ علم الله الرائي بريلوي ، ونسبه هكذا نعمان بن نورين هدى بن علم الله الحسني الحسيني ، ولد في موطن الأسرة القديم «نصير آباد» بمديرية «رائي بريلي» ، اشتغل بالعلم زماناً في بلدته ، ثم سافر إلى «لكهنؤ» وقرأ على الشيخ عبد الله الأمتيهوي ، ثم رجع إلى «رائي بريلي» ، وبايع السيد محمد بن علم الله =

من شخصيـات هـذه الأسرة كـذلكَ الشيخ السيد أبي سعيد بعد وفاة الإمام الدهلوي فوراً من دلهي ، وأنَّ كاتب هذه الرسالةَ السيد محمد نعمان هو عمُّ المجاهد الكبير الإمام أحمد بن عرفانَ الشهيد ، والمُرسَلُ إليه السيدُ أبو سعيد من مسترشدي الإمام الدهلوي وخواصِّ أصحابه ، ويُوجد عدد من رسائل الإمام الدهلوي الموجهة إليه ، وننقُل بعض محتويات هذه الرسالة ـ فيما يلي ـ كما جاء في مجموعة رسائل الأسرة «مكتوب المعارف» (مخطوط):

«الحمدُ لله على النَّعماء، والرضا على القضاء، والصبر على المصيبة والبلاء، والصلاة والسلام على سيد الشاكرين وزبدة الراضين وقدوة الصابرين ، شفيع المذنبين ورحمة للعالمين ، محمد وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وعلى ورثته العلماء الراسخين ، والأولياء المرشدين إلى يوم الدين.

وبعد ، فإنَّ حادث وفاة إمامِ أهل السنَّة والجماعة. . . وقع ولهُ من العمر اثنان وستون عاماً ، وأدخل السرور على أهل البِدَع والضلالات ، وأُصيب أهلُ الدين والصلاح بالحُزن والأسى ، وقد كان ذلك سَلخ محرم الحرام عام ١١٧٦ هـ يوم السبت وقت الظهر ، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

إنَّ المجالس الأخيرة من حياته كانت مجالسَ عجيبة ، زاخرةً بالفيوض ، فكُنا نشعر ـ بصفة مستمرة ـ بنزُول الملائكة والأرواح الطيبة ، وكانت تَهبُّ نَفحات الأنس والرحمة ، وتَنزل رشحاتُ القدس والبركة كالمطر ، وكان أكثرُ أصحاب الصلة الروحية يُحسُّون بذلك بوُجدانهم الصحيح.

= البريلوي ولازمه زماناً ، ولما توفي السيد محمد المذكور لازم ولده محمد عدل ، وأخذ عنه الطريقة ، ثم ساح البلاد وأدرك المشائخ الكبار ، منهم محمود رسن تاب الخورجوي أحد أصحاب السيد علم الله المذكور ، ومنهم الشيخ يوسف بن فتح محمد الأنبالوي ، ومنهم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وخلقاً آخرين من المشائخ ، فاستفاض منهم فيوضاً كثيرة ، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار وراح إلى «القدس» و«الخليل» وتوفي في أثناء السفر ، ودفن في «بيت المقدس» أرض الأنبياء الكرام ، وكان ذلك عام ١١٩٣هـ (نزهة الخواطر جـ: ٦).

وأحمدُ الله تعالى على أنني وَجدتُ رضا الشيخ المرشد ـ قُدس سره ـ عنكم وعناياته البالغة بحالِكم إلى حدٍّ لا أقدر على وصفه ، فكان يسأل كثيراً عن أحوالكم ، وكان يذكر بلسانه الناطق بالجواهر والدرر معركة الأبداليين ومفاجأتكم بالوصول إلى مكان المعركة ، وانطفاء لهيب الفتنة بقدُومكم[1] ، ولعل الشيخ المرشد كان يَتمنَّى آخر لقاء بكم ، لأنه قال ـ ذات مرة ـ: يَنوي السيد أبو سعيد القدوم ، فلو عجَّل بالقدوم كان خيراً.

يا سيّدي ، لقد حُرمنا الآن صحبَة الشيخ الظاهرة ، ولكنَّ عدد مؤلفاته تِسعونَ بل أكثَر ، ففي علم الدين ـ أي التفسير والأصول والفقه والكلام والحديث ـ «حُجة الله البالغة» ، «أسرار الفقه»[2] ، «منصور»[3] ، و«إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء» ، وترجمته للقرآن ، وكل واحد من هذه الكتب يشتمل على ثمانين أو تسعين جزءاً.

وفي الحقائق والمعارف رسائل أخرى كـ«ألطاف القدس» و«همعات» ، و«فيوض الحرمين» ، و«أنفاس العارفين» ، وغيرها ، وهي بديلُ صُحبة الشيخ المرشد والممثلُ عنها ، فلْتهتمُّوا بهذه الكتب وتعزموا على كتابتها ونشرها ، وأن هذا العمل سيتمُّ بأدنى عناية ، يَعلمُ الله هل أُلِّفَتْ أمثالُ هذه الكتب سابقاً أولا ، كما يعترفُ بمكانتها أصحابُ البصيرة ، وكل ما كتبه الشيخ المربِّي في أي موضوع من المواضيع يحتل مكانة الأصول والأساس.

والشيء الثاني أنَّ الشيخ محمد عاشق بعد أن بلَّغ تحياته إليك قال: أكتب إلى مير أبي سعيد أن يُرسل إليك نسخ جميع الرسائل التي وجَّهها الشيخ المرشد إليه حتى نَضُمَّها إلى مجموعة رسائله»[4] (انتهى).

---

(١) لم نطلع على هذا الحادث الذي وقعت الإشارة إليه هنا.

(٢) ولم يتضح لنا ما هو مراده بهذا الكتاب.

(٣) ولم يتضح لنا ما هو مراده بهذا الكتاب.

(٤) مكتوبات المعارف الفارسية: (مخطوط) ص: ١٩ ـ ٣٠.

كانتْ وفَاة الإمام الدهلوي في ٢٩/ محرم الحرام ١١٧٩ هـ يوم السبت ظهراً (الموافق ٢١/ أغسطس عام ١٧٦٢ م) كما عَلِمنا من الرسالة المذكورة أعلاه[١].

وجاء في مجموعة «كلمات الشيخ عبد العزيز» رحمه الله:

«تُوفي في ٢٩ من محرم الحرام ظُهراً»[٢].

مَدفَنُه:

لقد دُفن الإمام الدهلوي في جانب اليسار من «دِلّي دَرْوَازَه» (باب دلهي) بالحيّ الذي يسمى «مِهنْدِيَان»، ولقد كان مكان هذه المقبرة ـ يوماً ـ رباط الشيخ عبد العزيز شكربار أحدِ أجداد الشيخ عبد الرحيم لأمه، ولا يزال قبرُه هناك على مسافة قليلة، ثم كانتْ إقامة الشيخ رفيع الدين بهذا المكان، كما كانت بيوت أسرة الإمام الدهلوي أيضاً به، وكان الإمام الدهلوي ترك الإقامة هنا واختار الإقامة داخل شاهجهان آباد، وتُوجد في هذه المقبرة قبور أبناء الإمام الدهلوي الأربعة، وقبرُ والده الشيخ عبد الرحيم أيضاً، وقد عُلّقت عليها اللوحات التي كتبت فيها أسماؤهم وتواريخ وفياتهم، كما تُوجد بها كذلك قُبور أفراد الأسرة الآخرين رجالاً ونساءً، ويَقوم بجنبها مسجدٌ تنتشر حواليه قبُور كثير من العلماء والصالحين، والمحبِّين للإمام الدهلوي ومُسترشديه، ولا تزال المقبرة تتَّسع وتستقْبل مزيداً من الموتى، غفر لهم الله ورحمهم أجمعين.

* * *

---

(١) مكتوبات المعارف الفارسية: (مخطوط) ص: ١٩ ـ ٣٠.

(٢) ملفوظات الشيخ عبد العزيز: ص: ٤٠.

الفصل الثالث
مُؤلَّفات الإِمامِ الدِّهلوي

الكُتب والرسائل:

نذكرُ ـ فيما يلي ـ قائمةَ مؤلَّفات الإمام الدهلوي الصغيرة والكبيرة، والفارسية والعربية حسب تَرتيب حُروف المعجم:

(أ)

١ ـ الأربعين (بالعربية).
٢ ـ الإرشادُ إلى مهمات علم الإسناد (بالعربية).
٣ ـ إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء (بالفارسية).
٤ ـ أطيب النغَم في مدح سيد العرب والعجم (بالعربية)(١).
٥ ـ ألطاف القدس (بالفارسية).
٦ ـ الإمداد في مآثر الأجداد (بالفارسية).
٧ ـ الانتباه في سلاسل أولياء الله (بالفارسية).
٨ ـ إنسان العين في مشايخ الحرمين (بالفارسية).
٩ ـ الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف (بالعربية)(٢).

(١) [قد طُبع بعناية الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة في دار النفائس ببيروت].
(٢) [طُبع أخيراً في دمشق بدراسة وشرح الدكتور مراد مولوي والدكتور خلدون صبح، لكنه حافلٌ بالأخطاء الطباعية].

١٠ ـ أنفاس العارفين (بالفارسية).

(ب)

١١ ـ البدور البازغة (بالعربية).

١٢ ـ بوارق الولاية (بالفارسية).

(ت)

١٣ ـ تأويل الأحاديث (بالعربية).

١٤ ـ تحفة الموحدين (بالفارسية).

١٥ ـ تراجم أبواب البخاري (بالعربية).

١٦ ـ التفهيمات الإلٰهية (بالعربية والفارسية)[١].

(ج)

١٧ ـ الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف (بالفارسية).

(ح)

١٨ ـ حجَّة الله البالغة (بالعربية).

١٩ ـ حسن العقيدة (بالعربية).

(خ)

٢٠ ـ الخير الكثير (بالعربية).

(د)

٢١ ـ الدُّرُّ الثمين في مبشِّرات النبي الأمين (بالعربية).

٢٢ ـ ديوان الشعر (العربي).

---

(١) [طبع في إدارة القرآن والعلوم الإسلامية بكراتشي].

(ر)

٢٣ ـ [الرسائل الثلاث (بالعربية)[١]].

٢٤ ـ رسالة في الرد على رسالة الشيخ خواجه خورد عبد الله بن عبد الباقي.

٢٥ ـ رسالة الحكمة (بالفارسية).

(ز)

٢٦ ـ الزهراوين.

(س)

٢٧ ـ سطعات (بالفارسية).

٢٨ ـ سرور المحزون (بالفارسية).

(ش)

٢٩ ـ شَرح تراجِم أبواب صحيح البخاري[٢] (بالعربية).

٣٠ ـ شفاء القلوب (بالفارسية).

٣١ ـ شوارق المعرفة (بالفارسية).

(ع)

٣٢ ـ العطية الصمدية في الأنفاس المحمدية (بالفارسية).

٣٣ ـ عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد (بالعربية)،

٣٤ ـ العقيدة الحسنة انظر: (حسن العقيدة).

(ف)

٣٥ ـ فتح الرحمن (بالفارسية).

---

(١) [طبع في إدارة القرآن والعلوم الإسلامية بكراتشي].

(٢) [قد طبع في دار الفكر ببيروت].

٣٦ ـ فتح الخبير (بالعربية)[١].

٣٧ ـ فتح الودود لمعرفة الجنود (بالعربية).

٣٨ ـ الفضل المبين في المسلسل مِن حديث النبيّ الأمين ﷺ (بالعربية).

٣٩ ـ الفوز الكبير (بالفارسية)[٢].

٤٠ ـ فيوض الحرمين (بالعربية).

(ق)

٤١ ـ قُرة العينين في تفضيل الشيخين (بالفارسية).

٤٢ ـ القول الجميل في بيان سواء السبيل (بالعربية).

(ك)

٤٣ ـ كشف الغَين عن شرح الرباعيتين (بالفارسية).

(ل)

٤٤ ـ لمعات (بالفارسية).

(م)

٤٥ ـ المقالة الوضيئة في الوصية والنصيحة (بالفارسية).

٤٦ ـ المقدمة السنية في الانتصار للفرقة السنّية (بالعربية).

٤٧ ـ المقدمة في قوانين الترجمة (بالفارسية).

٤٨ ـ المُسوّى من أحاديث الموطأ (بالعربية)[٣].

٤٩ ـ المصفى (بالفارسية).

٥٠ ـ المكتوب المدني (بالعربية).

---

(١) [نشرته مكتبةُ التوبة بالرياض بعنوان «فتح الخبير بما لا بدّ من حفظه في علم التفسير»].

(٢) [نقله إلى العربية الشيخ سلمان الحسيني الندوي (مترجم هذا الجزء) ونشرته دارُ الفارابي بدمشق].

(٣) [طُبع في دار الكُتب العلمية ببيروت].

٥١ ـ مجموعة رسائل في مناقب الإمام البخاري وفضل ابن تيمية (بالفارسية والعربية).

(ن)

٥٢ ـ النُّبذة الإبريزية في اللطيفة العزيزية (بالفارسية).

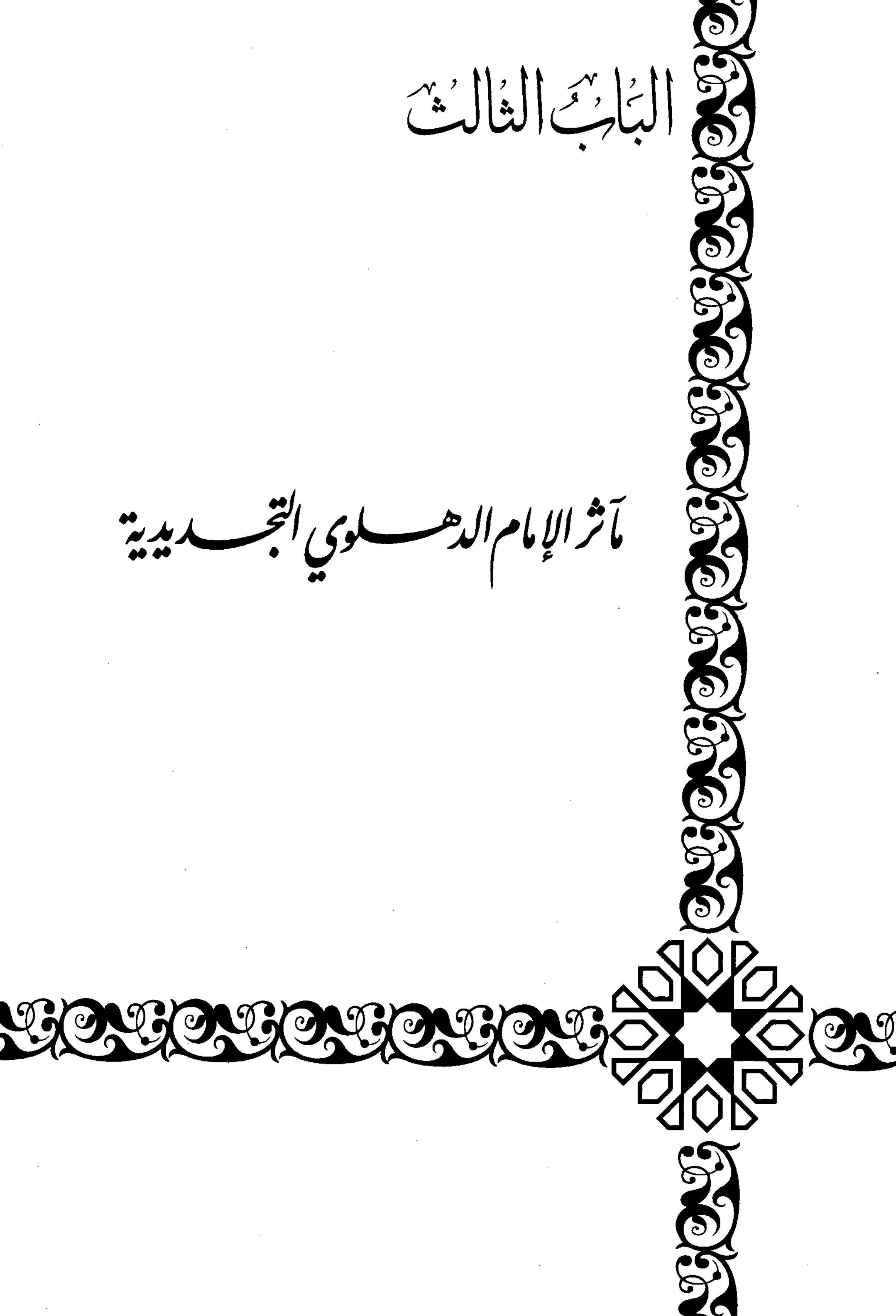
٥٣ ـ النوادر من أحاديث سيد الأوائل والأواخر (بالعربية).

٥٤ ـ همعات (بالفارسية).

٥٥ ـ هوامع شرح حزب البحر (بالفارسية)[1].

* * *

(١) لا يخفى على القارىء أن بعضاً من المؤلفات بالفارسية، قد تمت ترجمتها إلى العربية كما سيمرُّ في غضون الكتاب.



الباب الثالث

مآثر الإمام الدهلوي التجديدية

مآثرُ الإمام الدهلوي التَّجديديَّةُ تمهيد إصلاح العقائِد والدعوةُ إلى القُرآن

سَعَةُ دائرةِ التَّجديد الذي قام بهِ الإمام الدهلوي وتنوُّعه:

إنَّ الأعمالَ والمآثر الجليلة التي وفَّق اللهُ تعالى الإمام الدهلوي لتحقيقها وإنجازها من التجديد وإصلاح الأمة ، وإحياء الفهم الصحيح للدين ، ونشر العلوم النبوية وإعادة الحياة والنشاط والحيوية في فكر عهده والأمةِ الإسلامية وعملها وجهودها ، تتّسع دائرتها وتتنوع شُعبها بحيث لا يوجد له نظير لا في المعاصرين فحسب ، بل في عامة العلماء والمؤلِّفين في العهود السابقة أيضاً ، ويمكن أن يكون سبب ذلك ـ عدا التوفيق والتقدير الإلهيين ـ يرجعُ إلى مقتضيات ذلك العهد الذي عاشه ، وإلى ذلك الاحتواءِ والشمول وعُلُوِّ الهمة ، والمنهج الخاص للتعليم والتربية الذي خصَّه الله وقدَّره له.

وقد كان نتيجة كل ذلك أنَّ الإمام الدهلوي قام بمآثره التجديدية والإصلاحية في مجالات متنوعة من العلم والعمل ، حتى إنَّ المترجم له والكاتب في «تاريخ رجال الفكر والدعوة في الإسلام» لَيُواجِه الصعوبة في استيعابها ودراستِها التحليلية والتفصيلية ، والذي يريد استيعاب هذه الجوانب

والمجالات كلها فإن لسانه يُنشد ويَشكو بهذا البيت الفارسي المعروف الذي معناه:

«إنَّ ذيلَ النَّـظَرِ ضيق ، ووُرُودُ حُـسْنكَ كثيرة ، وإن مُـقْـتَطِفَ ربيعك يَشكو من ذَيـله الضَّـيِّق».

وإذا أردنـا أن نفرّقهـا في مواضيع مستقلـة ، فهي تـأتي بهذه العناوين البارزة:

١ ـ إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن.

٢ ـ القيام بنَشر الحديث الشريف وترويجه ، والجهود الموفَّقة للتطبيق بين الفقه والحديث والدعوة إليه.

٣ ـ عرض الشريعة الإسلامية في صورة متناسقة مدعَّمة بالأدلة والبراهين ، والكشف عن أسرار الأحكام الشرعية ومقاصدِها وحكمها.

٤ ـ بيان مكانة الخلافة ووظيفتها في الإسلام ، وشرح خصائص الخلافة الراشدة ومميزاتها وإثباتها بالأدلة ، والرد على الروافض.

٥ ـ عمله التجديدي القيادي في عهد الاضطراب السياسي ، واحتضار الدولة المغولية.

٦ ـ الحسبة على مختلف طبقات الأمة ، ودعوتها إلى الإصلاح والتغيير.

٧ ـ القيام بتربية العلماء الراسخين ورجال العزيمة والكفاح وتخريجهم حتى يقوموا ـ بعده ـ بهذا العمل التجديدي من الإصلاح ونشر الدين الصحيح وينقلوه إلى الأجيال القادمة.

* * *

الفصل الأول
إصلاح العقائد والدّعوة إلى القرآن

ونتناول ـ أولاً ـ عنوان إصلاح العقائد والدعوة إلى القرآن ، إذ أنه يحتل الدرجة الأولى ويأتي في مقدمة الصف إذا بدأ إصلاح الأمة وتجديد الدين في أي عصر أو مصر ، وكل جهد يُبذل لإحياء الدين وإنعاش الأمة بغَضِّ النظر عن ذلك ، فإنه لا يعدو خطّاً على الماء ومبنىً بغير أساس ، وقد أثبتَ القرآن الكريم بقصصِ الأنبياء والمرسلين ووقائعِهم وحوارهم لشعوبِهم ، وأثبتَ التاريخ الموثوق به من عمل العلماء الربانيين وورَثة الأنبياء والمرسلين ومَنهجهم في الدعوة وتدرجهم فيها هذه الحقيقة الأساسية ، وسوف يبقى هذا منهج كُل إصلاح وتجديد إلى أن يَرِث اللهُ الأرض ومَنْ عليها ، إذا كانا قائمين على الطبيعة النّبوية والنظام القرآني.

أهميّـةُ العَـقائـد:

يَكتفي المؤلِّف هنا بإيراد بعض كتاباته السابقة التي تشرح هذا الموضوع شرحاً وافياً ، يقول:

«إنَّ سِمَةَ هذا الدين الأُولى وشعارَه المميَّز الأول: التركيزُ على العقيدة أولاً وقبل كل شيءٍ ، فما زال الأنبياء من لَدُن آدم إلى خاتم الرُّسل محمدﷺ يَدعُون إلى عقيدة معينة يُوحى بها إليهم، يَدعون إليها ويُطالبون بها ، لا يَقبلون عنه

صرفاً ولا عدلاً ، ولا يَبغُون بها عوضاً ولا بَدلاً .

وإنَّ أفضل حياة خُلقاً وسلوكاً ورحمةً وبراً ، واستقامة وسداداً ، وإن أنجح إنسان في تأسيس حكومة أو إنشاء مجتمع أو إحداث انقلاب ، لا قيمَة له عندهم إذا لم يقترن كل ذلك بعقيدة جاؤوا بها ودَعَوْا إليها ، ولم يُقم كلَّ هذه الجهودِ على أساسها ، وهذا هو الخط الفاصل الواضح العريض بين دَعوة الأنبياء ـ عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ وبين الزعماء والقادة القوميين والانقلابيين والثَّوريِّين والنفعيِّين والماديين ، وكلُّ من كان مَصدر تفكيره غيرَ تعاليم الأنبياء وسيرِهم لسبب من الأسباب الأصيلة أو الطارئة من التعليم والتربية ، أو رَدٌّ من ردود الفعل ، أو الحبُّ الزائد لتحقيق النتيجة المطلوبة أو قلب نظامٍ أو انتصار وانتقام»(١) .

إنَّ أجلَّ علم أُخذ عن الأنبياء ـ عليهم صلوات الله وسلامه ـ معرفةُ الله وعِلْمُ ذاته وصفَاته وأفعاله ، وذلك عِلمٌ يختصُّ بالأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ إذ هو عِلمٌ ليستْ له وسائل وآلاتٌ ومعلوماتٌ أولية وتجارب عند البشر ، ولا يتناوله القياس ولا يُفيد فيه الذكاء والفطنة لفقدان أساس القياس ، وتعالى الله ـ تعالى ـ عن الأشباه والنظائر ، وسُموِّه وتقدُّسِه وتنزهِه عن التشبه والتمثل ولبُعده عن كل ما عرفه البشر وألِفه وجرَّبه في عالم الحس والمادة ، لأنه ليس حَلْبة تجري فيها جياد العقول ، وتتسابق فيها عِتاق العلم والتجربة .

وكان أجلَّ علم تتوقَّف عليه سعادةُ البشر إذ هو الأَساس للعقائد والأعمال والأخلاقِ والمدنية ، وهو الذي يعرف به الإنسان نفسه ، ويَفُك لُغز الكون ، ويكشف عَنْ سرِّ الحياة ، وبه يُعيّن الإنسانُ مركَزه في هذا العالم وينظم علاقاته واتصالاته ببني جنسه ، ويَضع منهاج حياته ، ويُحدد غاياته في ثقة وبصيرة ، ووضوحٍ ويقين(٢) .

(١) العقيدة والعبادة والسلوك: للمؤلِّف، ص: ٢٤ ـ ٢٥، طبع دار ابن كثير بدمشق.
(٢) المرجع السابق: ص: ٦٧ ـ ٦٨.

وإنَّ عناية الله ـ تعالى ـ الخاصة بهذه الأمة ووعدَه المؤكَّد لها بالنصر والتأييد والرضا والعزة والغلبة ، إنما هو ـ بصفة خاصة ـ على أساس العقائد الصحيحةِ والخصائص والصفات الإيمانية ، وعقيدةِ التوحيد الخالصة المبرَّأة من كل الشوائب ، يقول الله :

﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] .

ويقول في صراحة ووضوح : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥] .

إنَّ ورثة الأنبياء بحقٍّ ، والعلماء الربانيين الذي يَعرفون طبيعة هذا الدين وفِطرته الصحيحة ، يُهيِّئون الأرض ـ قبل إقامته في مكان ـ ويُصلحونها وينظفونها ويمهدونها ، ويستأصلون جذور الشرك والجاهلية وعروقها (سواء كانت من بقايا الوَثنيات القديمة أو نتائج التأثيرات القومية والمحلية) ويستخرجون جميع بذورها ويَقْلبون الأرضَ ظهراً لبطن ، مهما اقتضى هذا العمل منهم من مدة طويلة ومشقة كبيرة ، فإنهم لا يستعجلون النتيجة ، ولا يَفقدون الصبر.

«إنَّ هذه الوثنية والشرك في مختلف أشكالها وصُورها ، هي الجاهلية العالمية التي هي أقدم أدواء البشر ومواضع ضعفه وسَقطته ، وهي باقية مع البشر في جميع مراحل حياتهم وتَطوراتها ، وهي التي تُثير غَضب الله وغيرته ، وتحول بين العبد وتقدُّمه الرُّوحي والخلقي والمدني ، إنها هي الجاهلية التي تخنق القوى وتقتل المواهب ، وتقضي على الاعتماد على الله والاعتداد بالنفس والثقة بها ، وتصرف الإنسان عن الالتجاء إلى الله السميع البصير ، العليم القدير ، الجواد الوهاب ، الغفور الودود ، والاستفادة من صفاته التي لا تُحد

وخزائنه التي لا تنفد إلى الالتجاء إلى الضعيف الفقير، العاجِز الحقير الذي لا يَملك شيئاً»(١).

الحاجة إلى شرح عقيدة التوحيد والدعوة إليها من جديد:

لقد قال المؤلِّف في الجزء الثاني من «رجال الفكر والدعوة» الذي هو خاص بحياة الإمام ابن تيمية وأعماله تحت عنوان «العقائد والتقاليد الشركية في عهد الإمام ابن تيميَّة» ما يلي:

«كانت العقائدُ والتقاليدُ نالتْ رواجاً بين عامة المسلمين باختلاطهم مع غير المسلمين والعَجم، ونُفوذ الحكومة الباطنية وتأثيرِها، وانتشار تعليمات الجهلة والضُّلاَّل من الصوفية وأعمالهم، فقد وجد عدد وَجيه من المسلمين في ذلك الحين يَعتقدون في أئمة دينهم ومشائخهم والأولياء والصالحين منهم مِن الاعتقادات الفاسدة ويحملون منَ الأفكار المشركة ما كان يَعتقده اليهود والنصارى في عُزَير والمسيحِ عليهما السلام وأحبارِهم ورهبانِهم، وكلُّ ما كان يدور حول قبور الأولياء والمَشائخ إنما كان تقليداً نَاجحاً للأعمال والتقاليد التي كانت تُنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقدَّسين عندهم، فالاستغاثةُ منهم والاستعانة بهم، ومدُّ يد الطلب والضراعة إليهم، كلُّ ذلك كان عامّاً شائعاً بينهم.

كما عمَّت عادة بناء المساجد الفخمة على قبورهم وجعلِها مساجد وعقدِ المهرجانات عليها عاماً فعاماً، وقطعِ المسافات الطويلة للوصول إليها، وقد كانت عبادةُ القبور ـ بجراءة ووقاحة ـ وعدمُ الخشية من الله تعالى، والخوفُ من أصحاب القبور والخشيةُ منهم، والاستهزاء بذات العلي القدير والاستهانةُ بشعائره، والجراءة وقلة الأدب وتقديس الأولياء إلى حدِّ التّأليه، والحجُّ إلى

(١) النبوةَ والأنبياء في ضوء القرآن: للمؤلف، ص: ٥٦ ـ ٥٧ (طبع دار القلم الطبعة الرابعة) و«محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة» ج٣ طبع دار ابن كثير بدمشق.

المشاهد والقبور وترجيحُه ـ بعض الأحيان ـ على الحجّ إلى بيت الله العتيق ، وخَراب المساجد وضياعها ، ورَوعة المشاهد والأماكن الخاصة للزيارة والعناية بها مكان كلِّ ذلك من قَسَمات الحياة الجاهلية وعلائمها البارزة؛ التي لم تكن تحتاج رؤيتها إلى قطع مسافات طويلة ولا إلى تفكير وتأمل كثير[1].

لقد كان هذا الوضع في بلاد كمصر والشام والعراق التي فتحها الصحابة رضي الله عنهم بأيديهم المباركة ، ثم هي أقربُ البلاد وأكثرها اتصالاً بمركز الإسلام ومهبِط الوحي وموطن الرسول ﷺ .

وكانت لغتُها العربية التي نزل فيها القرآن ، ولم تتوقَّف فيها ـ ليوم واحد ـ سلسلةُ دروس الكتاب والسنَّة ، وأُلفت فيها كتب جليلة في علوم الحديث الشريف وشروحها.

ولا يَـبْـعُد إذاً أن نُقدِّر الوضع بإزاء ذلك في الهند (لا سيما هذا القرن الثاني عشر) التي وصل إليها الإسلام بعد أن طاف بتركستان وإيران وأفغانستان وفقد كثيراً من طاقته وحَيويته ونضارته بأيدي أولئك الذين لم يتشرَّفوا بصحبة النبي ﷺ ولم يتمتعوا بالاستفادة ـ مباشرة من مصدر النبوة الفياض ، والذين كان كثيرٌ منهم لم يتحرروا ـ كلياً ـ من تأثيرات شعبهم وسُلالاتهم.

ثم إنَّ الهند كانت تُسيطر عليها ـ من آلاف السنين ـ الديانـةُ والفلسفة والحضارةُ التي عُجنتْ طينتها بالشرك والوثنية وجَرَيـا فيها مجرى الدم ، والتي كانت أكبر ممثِّل ـ في هذه القرون الأخيرة ـ للوثنية ، والمحافظة الأمينة على الجاهلية القديمة ، وقد انتقل عدد كبير من سكان هذه البلاد المسلمين من البرهمية والأوساط الشركية الأخرى إلى حظيرة الإسلام.

ثم لا يَـغْـزُبَـنَّ عن البال أنَّ هذه البلاد لم تكنْ لها من الصلة المباشِرة (عبر المدى الطويل) بالقرآن والسنة ، ما كانت لها ـ لتأثير إيران ـ بالعُلوم الحُكمية العقلية والفَلسفة اليونانية ، وإذا كانتْ لها علاقة علمية ودراسية بالعلوم

(١) انظر «رجال الفكر والدعوة» الجزء الثاني.

الدينية ، فبالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام ، العلوم التي يرجع موضوعها ومجال البحث والتحقيق فيها إلى القضايا وَالجزئيَات الفقهية القانونية ، وأصولِ استنباطها ، والبحوث الفلسفية في العقائد ، لا بإصلاح العقائد ، والدعوةِ الأساسية إلى التوحيد الخالص.

ويُمكن أن يُقدَّر ما خلَّفته دِياناتُ الهند وفلسفاتها وتقاليدها وعاداتها من تأثير في القرن العاشر الهجري نفسه على المجتمع المسلم من إحدى رسائل الإمام السرهندي التي كتبها إلى إحدى الصالحات من مُسترشداته ، ويُقدَّر منها ما بلغه المجتمع المسلم من تعظيم شعائر الشرك ، والاستعانةِ بغير الله ، وطلب الحاجات من غير الله ، وتعظيمِ أعياد الكفار والمشركين ، وتقليد رسومهم وعاداتهم وطقوسهم والنذر والذبح للأولياء والصالحين ، والصّيام بأسماء المشائخ والصالحات ، والخوف من ستيلا (التي كانتُ تعتبر إلٰهة الجُدري) وإجلالها ، وأمثال هذه الأشياء التي تدلُّ على العقلية الهندوسية الوثنية والخضوع للأوهام والخرافات ، التي غزَت عقرَ دار المسلمين.

ولا يتعسَّرُ تقدير ما وقع بعد مضي قرن آخر من الزمان على هذا العهد وفُقدان الصلة القوية العامة بالكتاب والسنة من زيغ وانحراف في العقائد وتأثير للعقائد والأعمال غير الإسلامية ، بل المعارضة المنافية للإسلام ، على كثير من الأسر والبيوتات.

ويُمكن أن يقدَّر أيضاً ما أنتجَ تأثيرُ غير المسلمين على المجتمع المسلم ، والجهلُ بالكتاب والسنة ، والبعدُ عنهما ، والفراغ الطويل في الجهود المؤثرة المركزة (بغضّ النظر عن الدهماء والجماهير سخطوا أم رَضوا ، وبإغماض العين عن النتائج والأخطار) في الهند من وضع سيِّىء ، وما قام من نظام للعقائد ، إزاء الدين الحنيف (الذي لم يكن فيه أي مجال لظلٍّ من ظلال الشرك والوثنية) وما نَبتتْ في ساحة حياة المجتمع المسلم من نباتات الجاهلية وحشائشها الشيطانية ، يمكن أن يُقدَّر كل ذلك من بعض كتابات الإمام الدهلوي نفسه ، يقول في «التفهيمات الإلٰهية»:

«قال رسول الله ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنن من كان قبلكم شبراً بِشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جُحر ضبٍّ لتَبِعتمُوهم».

قلنا: يا رسول الله، اليهودَ والنصارى؟قال: «فمن؟»[1] صدق رسول الله ﷺ فقد رأينا رجالاً من المسلمين الذين ضعف إيمانهم يتّخذون الصلحاء أرباباً من دون الله، ويجعلون قبورهم مساجد، كما كان اليهود والنصارى يفعلون.

كذلك وقد رأينا رجالاً منهم يُحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويعمدون في ترك العمل وإرضاء الشهوات على القول المعزو إلى النبي ﷺ «الصالحون لله، والطالحون لي» كما قال الذين من قبلهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٨٠]. وإن سألتَ الحق، فقد فَشا التحريفُ في كل طائفة.

فالصُّوفيةُ أظهرتْ أقاويلَ لا يُدرى لها توقيفٌ بـ«الكتاب والسنة»، لا سيما في مسألة التوحيد (الوجودي) فظهر من ذلك أنهم لا يحتفلون بالشرع وليست له عندهم قيمة[2].

ويقول في كتابه الشهير «الفوز الكبير»:

«وإذا كنتَ تتوقفُ في التسليم بصحة ما يقال عن عقائد المشركين وأعمالهم[3] فانظر إلى المحرِّفين المنحرفين في هذا العصر، لا سيما من يقطنون منهم بأطراف دار الإسلام، ما هي تصوُّراتهم عن «الولاية»، ورغم أنهم يعترفون بولاية الأولياء المقدمين، يرون وجود الأولياء في عصرنا من

(١) [أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذُكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٥٦)، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي ﷺ: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم....» برقم (٧٣٢٠)، وأحمد في المسند (٥١١/٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه].

(٢) التفهيمات الإلهية: ج١: ١٣٤ ـ ١٣٥.

(٣) وقد ذكر الإمام الدهلوي قبل ذلك حقيقة إشراك المشركين في الجاهلية وأنواعها ومظاهرها.

المستحيلات ، ويؤمّون القبور والعتبات ، وقد ابتلُوا بأنواع من الشرك والبدع والخرافات.

وتمكّن منهم التحريف والتشبيه ، وتغلغل في نفوسهم حتى لم تبق ـ بحكم ما جاء في الحديث الصحيح: «لتتبعنَّ سَنن من كان قبلكم. . . إلخ» ـ بَليةٌ من البلايا ، ولا فتنة من الفتن إلا وطائفة من طوائف المسلمين تخوض فيها وتَعلقُ بها ، عافانا الله سبحانه عن ذلك»[١].

الطَّريقُ المُؤثِّر لعلاجِ هذه الأَدواء وإصلاحِ الأوضاع: نشرُ القرآن الكريم والدعوة إلى فَهمه:

لقد رأى الإمام الدِّهلوي أنَّ دراسة القرآن الكريم وفهمَه وتدبره هو أقوى الطرق وأكثرها تأثيراً لعلاج هذا الداء ، بل الفتنة العمياء ، ولم يكن تفطُّنه لهذه الحقيقة مبنيّاً على أساس الذكاء وطول الدراسة والقياس فحسب ، بل كانت حقيقةً بديهية ، يَشهد عليها القرآن نفسُه ، ولا يشهد عليها تاريخ عهد البعثة والنبوة فحسب ، بل تاريخ الدعوة والإصلاح والتجديد في الإسلام كله شهيدٌ عليه ، ولا يُتصور لإعلان حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك وسيلةٌ أقوى وأصرح وأوضح وأكثر تأثيراً في النفوس وجذباً للقلوب منه.

وقد صرح ترجمان القرآن الشيخ عبد القادر (ابن الإمام الدهلوي) في مقدمة «موضح القرآن» وترجمته للقرآن الكريم وتحشيته عليه (بالأردية) بهذه الحقيقة في أسلوب ساذج نفاذ بما لا مزيد عليه ، يقول:

«لِيَقُلِ القائلون ما شاؤوا ولكنْ ليس أحدٌ يستطيع أن يقولَ كما قال الله ، ولا يُوجد في كلام أحدٍ من التأثير والنفوذ ما يُوجد في كلام الله»[٢].

ولعلَّ شعور الإمام الدهلوي بهذا الوضع الديني في الهند ، وبُعدها عن

(١) الفوز الكبير: ص: ٨ ـ ٩ (المكتبة المحمدية).
(٢) مقدمة «موضح القرآن» للشيخ عبد القادر الدهلوي.

تعاليم القرآن الكريم الحكيم وتعاليم الإسلام ـ بصفة عامة ـ ومنافاتها لها ، قد قَوِيَ واشتدّ أثناء إقامته بالحجاز ، وانبعث في قلبه الدافع القوي ، في ذلك الجو الروحي النوراني القرآني ـ الذي علا منه هتاف التوحيد قبل كل مكان ـ إلى أن يقوم بنشر القرآن الكريم وتعميمه بين الناس في الهند ، بوضُوح وقوة يمكن أن يُعبر عنها بالإلهام والإشارة الغيبية التي ترد ـ في كل عصر ـ على النفوس الزكية لتحقيق مُهمة دينية ضرورية ، ويكاد يستحيلُ دفعها والتغلب عليها ، ولذلك نرى أن الإمام الدهلوي بدأ بعمل ترجمةِ القرآن الكريم باللغة الفارسية التي تمت وتحققت باسم: «فتح الرحمن» بعد عودته من الحجاز(١) .

وقد كان من «الحقائق» المسلَّم بها ليس في الهند فحسب بل في جميع البلدان العجمية ـ تقريباً ـ بما فيها تركستان ، وإيران ، وأفغانستان ، والبلدان المجاورة للهند ـ وكانتْ ميولها ونزعاتها ، وأعمالها وأذواقها وحقائقها

---

(١) لقد ذكر مؤلف «حياة ولي» نقلاً عن أحد المعاصرين قصة مؤثرة شجية لتشغيب علماء السوء على الإمام الدهلوي لارتكابه «جريمة» ترجمة القرآن الكريم ، وإثارتهم الأوغاد المفسدين للحملة القاتلة عليه ، ثم استنتج من ذلك أن الإمام الدهلوي اختار السفر إلى الحجاز تخلصاً من هذه الفتنة والشغب (انظر ص: ٤١٨ ـ ٤٢٣).
ولكن ذلك لا يؤيده أي مصدر تاريخي آخر ، بل يوجد في مقدمة «فتح الرحمن» نفسه تصريح بأن الإمام الدهلوي بدأ الترجمة في ١٠ ذي الحجة عام ١١٥٠هـ وأكملها عام ١١٥١هـ ، ويتضح من ذلك أنه شرع في هذا العمل المبارك بعد عودته من الحجاز بأربعة أو خمسة أعوام ، وتوجد في خزانة أسرتنا للكتب نسخة مخطوطة لـ «فتح الرحمن» في مجلدين ، وقد كان الإمام الدهلوي نفسه أهداها إلى الشيخ محمد أعظم العثماني النصير آبادي ، وكان الشيخ محمد أعظم تلميذ الشيخ محمد نعمان (عم الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وخريجه) وهو الذي نشأه ورباه ، وانتقلت هذه النسخة إلى ملك الشيخ قطب الهدى المحدث تلميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي ، ولم تزل تنتقل من يد إلى يد حتى وصلت إلى والدي العلامة عبد الحي الحسني ، وقد كتبت هذه النسخة عام ١١٦٥هـ أي قبل وفاة الإمام الدهلوي بـ ١١عاماً ، وهذا أيضاً دليل على أن مأثرة «فتح الرحمن» تحققت بعد عودة الإمام من الحجاز ، وأما قبل السفر إلى الحجاز فكان قد أنجز ترجمة سورتي البقرة والنساء.

المعترف بها عندها تُظلّل على الأوساط العملية والدينية في الهند وتؤثر عليها ـ أنَّ القرآن الحكيم إنما هو كتابُ خاصَّةِ الخاصة ، ليُطالعوه ويدرسوه ويفهموه ويتدبروه ، وأنَّ فهمه يَتوقَّفُ على معرفة أكثر من اثني عشر علماً ، وأنَّ نشره في العامة ، وتوعيتَهم ـ مباشرة ـ بمعانيه ومطالبه ، والدعوة العامة إلى استهدائه والاستيضاء به والاستفادة منه مباشرةً خطرٌ شديد ، وضلال كبير ، وفتحٌ لباب فتنةٍ مسيطرة ، وأنها دعوة إلى الاضطراب الفكري في العامة ، والقول بالرأي ، والاستغناء عن العلماء ، بل فوق ذلك دعوة إلى الخروج عليهم والتمرد والطغيان ، وقد صرَّح الإمام الدهلوي بهذا الطراز من التفكير وهذا النوع من الدليل في رسالته الوجيزة «تحفة الموحدين»(١) في أسلوب مؤثر جميل :

«يُطلق بعض الناس القول بأن القرآن الكريم والحديث الشريف لا يمكن أن يَفهمهما إلا من دَرس العلوم الكثيرة ، وقرأ الكتب التي لا تُحصى ، ويكون«علامةَ عصره» .

ويَردُّ الله عليهم ، فيقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢] .

فقد كان النبي ﷺ أمياً وأصحابُه أميين ، ولكن رسول الله ﷺ لما تلا على أصحابه آيات الكتاب الحكيم تزكَّت بها قلوبهم وصَفَتْ بها نفوسهم ، فلو كان الأمي لا يمكنه أن يفهم القرآن والسنة ، ولا يملك صلاحيةً لفهمه وإدراكه ، فكيفَ أمكَن للصحابة أن يتزكوا بها ويتطهَّروا من الشرور والمفاسد ، ويا أسفي على قومٍ يدعون فهم «صدرا»(٢) ، وعلم

(١) نشرت هذه الرسالة باسم الإمام الدهلوي ومنسوبة إليه ، ولكن لما أنها لا تذكر في مجموعة مؤلفاته ورسائله في الكتب التي ترجمت له ولا يرد ذكرها في فهرسة تأليفاته بصفة عامة ـ فلا سبيل لنا إلى القطع واليقين بأنها من مؤلفات الإمام الدهلوي ، إلا أن الموضوع الذي اقتطفناه هنا ، يعرض تلك الفكرة الخاطئة التي كانت سائدة عرضاً واضحاً صحيحاً ، ثم يَردُّ عليها رداً مُقنعاً شافياً.

(٢) المراد به «شرح هداية الحكمة» للعلامة صدر الدين الشيرازي (م١٠٥٠هـ) ويعرف =

«القاموس»[١]، ولكنهم يتظاهرون بأنهم مجرد جَهلةٍ فيما يتعلق بفهم القرآن والحديث.

ويقول بعضهم: نحن المتأخِّرون زمناً، فأنّى لنا بركاتُ عهد النبي ﷺ وسلامةُ قلوب عهد الصحابة رضي الله عنهم حتى نُدرك مغزى القرآن والحديث؟!

ويَردُّ الله تعالى على ذلك: ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٣]، أي أن المتأخرين سواء كانوا مثقفين أو أميين، إذا كانوا مسلمين وعزموا على سلوك طريق الصحابة الميامين، وأصغوا بآذانِهم إلى الكتاب والسنة، فإنهما كفيلان لهم أيضاً بتزكية قلوبهم وتصفية نفوسهم.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: ٢٢]، فكيف يتسنى لدارسي «الكفاية»[٢] وعلماء «الشافية»[٣] أن يتظاهروا بعجزهم عن فهم معنى هذا الكتاب الذي كان يفهمه العرب البدو ويُدركون حقيقته ومغزاه.

ويقول الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤]، فلو لم يكن القرآن ميسراً كيف يتمَكّن من التدبر فيه: ﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] ورغم أنه ليست على قلوبهم أقفالها، فلماذا لا يُعملون عقولهم في تدبره ولا يتفكَّرون؟»[٤].

لقد قرَّر الإمام الدهلوي نظراً إلى فَساد الذوق وانحرافِ الفكر وقلة التوفيق وسوء الفهم الذي كاد يصل إلى حدود «ويصدون عن سبيل الله»، أن يقوم بنقلِ معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السَّهلة التي كانت ـ منذ قيام الحكومة

= «بصدرا» في الأوساط الدراسية الحكمية ويعتبر كتاباً نهائياً مثالياً في العلوم الحكمية.

(١) [المراد به «القاموس المحيط» لمجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٧)].

(٢) [هو كتاب في النحو للعلامة ابن الحاجب (ت ٦٤٦)].

(٣) [هو كتاب في الصرف للعلامة ابن الحاجب نفسه].

(٤) انظر «جائزة تراجم قرآني» (استعراض الترجمات للقرآن الكريم) طبع مجلس معارف القرآن، دار العلوم ديوبند، ص: ١٣ ـ ١٤.

الإسلامية في الهند ـ لغةَ البلاد الإدارية والعلمية والتأليفية ولغة المكاتبات والمراسلات ، وكلُّ مسلم مثقَّف إن لم يكن يستطيع أن ينطِق بها ، فلا أقل من أن يفهمها ، ولو كانت هناك عشراتٌ من تراجم القرآن الكريم باللغة الفارسية في عهد سيادتها الذي يمتدُّ على سبعة قرون لم يكن ذلك مما يثير العجب ، ولكنَّ الغريب أننا لا نعثر على أي محاولة لنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية قبل ترجمة الشيخ حسن بن محمد القمي المعروف بالنظام النِّيسابوري ثم الدولة آبادي ـ الذي كان من علماء القرن الثامن ـ وهذه الترجمة للنيسابوري مضمومة مع تفسيره للقرآن الكريم بالعربية المعروف بـ «غرائب القرآن».

وكانت هناك ترجمةٌ معروفة بترجمة الشيخ سعدي ، وهي وإن لم تكن سائدةً مُتداولة كمؤلفاته الشهيرة المتداولة «كُلِسْتَان» و«بُوسْتَان»[1] ، ولكنها كانت توجد في بعض المواضع ، إلا أن نسبتها إلى الشيخ سعدي غير صحيحة ، والحقيقة أنها ترجمة السيد شريف علي الجُرجاني (ت ٨١٦ هـ) ، فقد صرّح الشيخ عبد الحق حقاني مؤلف «التفسير الحقاني» عن مشاهدة وعيان:

«التَّرجمة التي ينسبها الجهلة إلى الشيخ سعدي هي في الحقيقة ترجمة السيد شريف ، وقد نسبَها صاحبُ الطبعة أمامي إلى الشيخ سعدي لنَشرِها وترويجها»[2].

وعلى كلٍّ فإن الإمام الدهلوي قد اطمأن بعد عودته من الحجاز بخمسة أعوام (ولعل ذلك بعد ما شاهد من نتائج الجهود المبذولة لإصلاح العقائد عن طريق التدريس للخاصة ، وإلقاء الدروس العامة ، والوعظ والإرشاد إلى أنَّه لا طريق أبلغُ وأقوى تأثيراً للإرشاد العام وإصلاح العقائد ، وتقويةِ الصلة بالله

(١) كتابان نالا من القبول في تعليم اللغة الفارسية وأدبها ما لم ينله أي كتاب في شبه القارة الهندية. «تحفة الموحدين» طبع المكتبة السلفية ، شيش محل روده لاهور.
(٢) البيان في علوم القرآن: (مقدمة التفسير الحقاني) للعلامة عبد الحق حقَّاني، ص: ٥٠٧.

تعالى من نشر تعاليم القرآن الكريم وإرشاداته ودعوته وتبليغها إلى الناس بطريقة مباشرة ، وليس هناك لذلك إلا وسيلةٌ واحدة ، وهو نقل معاني القرآن الكريم باللغة الفارسية (لغة البلاد الرسمية السائدة) ونشرها ، وهو الذي شاع التعبير عنه بـ «الترجمة» ، واسمعْ عن تاريخ هذه الخطوة الجريئة والأسبابِ والدوافع إليها من الإمام الدهلوي نفسِه ، يقول في مقدمة تفسير «فتح الرحمن» :

«إنَّ هذا العصر الذي نعيشه ، وهذه البلاد التي نَسكنُها تقتضي فيها مصلحةُ المسلمين ونصيحتُهم أن يُنقل معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفارسية السَّلِسَة (من دون تَنميق وتحبير وتظاهُرٍ بالفضل وذِكر للقصص المتعلقة بوجوه التأويل) حتى يفهمها العامة والخاصة على قدم سواء ، ويُدرك الصغار والكبار جميعاً معاني القرآن الكريم ومطالبَه ، وقد أُلقي الدافع إلى هذا العمل في رَوعي ، واضطررتُ إليه اضطراراً.

وقد ألقيتُ نظرةً فاحصة على الترجمات السابقة حتى إذا كان بعضها على المستوى اللائق المطلوب أكتفي بنشرها وترويجها ، ولا بد أن تكون هذه الترجمة مُنسجمة مع ذوق أهل هذا العصر إلى حد المستطاع ، ولكنَّ هذه الترجمات إما طويلة مُمِلة ، أو قصيرةٌ مُخِلّة.

وقد تحقَّقَ لي أثناء ذلك ترجمةُ الزهراوين (سورتي البقرة وآل عمران) ثم صادفني السفر إلى الحرمين الشريفين ، وانقطع ذلك العمل. ثم بعد عدة أعوام بدأ بعض الأحبَّة يقرأ عليَّ ترجمة القرآن ، فأصبح هذا الدرسُ باعثاً على العزيمة الأولى ، وتَقرَّر أن تُقيد الترجمةُ قدرَ الدرس اليومي ، فلما تمتْ ترجمة الثلث من القرآن الكريم ، وقعَ لهذا العزيز سَفَر ، وتوقَّف عملُ الترجمة ، ثم جاءت مناسبةٌ أخرى بعد مدة من الزمن ، وعادتِ الإرادة القديمة من جديد ، وتمتِ الترجمة إلى الثُّلثين.

وعَهد إلى بعض الأصدقاء بتبييضِ المسوّدة ، وأن يكتُبوا معها متنَ القرآن الكريم أيضاً حتى تتهيأ نسخةٌ مستقلة (للقرآن الكريم مع الترجمة) ، فبدأ هذا

الصديق السعيد تبييض المسوّدة مِن عيد الأضحى عام ١١٥٠هـ ، فتحركَ العزم وعاد الدافع وكمُلت الترجمة إلى آخر القرآن الكريم ، ووقعَ الفراغ من التسويد في أوائل شعبان ، وبُيضتِ المسوّدة عام ١١٥١هـ ، ونُشرت عام ١١٥٦هـ بعناية الأخ العزيز الشيخ محمد أمين ـ أكرمه الله تعالى بشهوده ـ وبُدىء بتدريسها ، وتهيأتْ لها عدد من النسخ واسترعتِ انتباه المعاصرين ، والحمد لله تعالى على أنَّ ذلك النَّقشَ الذي نُقش في قلبي ، قد ظهر ـ أخيراً ـ من وراء ستار التقدير»[١].

وقد كتب الإمام الدهلوي عدا هذه الترجمة والتفسير المسمى بـ «فتح الرحمن» مُقدمةً في أصول الترجمة كذلك ، وهي ـ رغم وَجازتها وقِصرها ـ مقدمةٌ فاضلةٌ تحتوي على فوائد جمة ، يقول في بدايتها :

«يقول الفقير إلى رحمة الله الكريم ، ولي الله بن عبد الرحيم : إنها رسالة في قواعد الترجمة وأصولها مسماة بـ «المقدمة في قوانين الترجمة» ، وقد جرى بضبطها القلمُ أثناء كتابة ترجمة القرآن الكريم»[٢].

ويُخيَّل إلينا أنَّ الصخرة الصَّلْدة التي كانت تَحولُ في سبيل ترجمة القرآن الكريم ونشرِه بين الناس أُزيحت بهذه الخطوة الجريئة التي قام بها شخصيةٌ جليلة كالإمام الدهلوي (التي كانت طبقَة أصحاب العلم والفكر الصحيح في عهده مُجمعة كلها ـ تقريباً ـ على تبحُره في العلم وجمعِه للفضائل والمحاسن ، ومنزلتِه الروحية العالية وإخلاصِه وتجرده) وفتحِ الطريق ، ولم يزل يحدث ويتسلسل في التاريخ الإسلامي أن شخصيةً كبيرة ذات شأن إذا بدأت بعمل كانت تحوم حوله الرّيب والظنون ، تنقشع عنه بسببه سُحب الرَّيب والظنون وسوءُ الفهم وينفتح الطريق العام ، وإنَّ مشاركة الإمام أبي الحسن الأشعري في البحوث الكلامية واستخدامِهِ الاستدلال العقلي ، ودراسةَ الإمام

(١) مقدمة «فتح الرحمن» طبع دلهي ١٢٩٤هـ.
(٢) توجد مخطوطتها في مكتبة ندوة العلماء ، وتشتمل على ست صفحات بالقطع الكبير.

الغزالي للفلسفة وتنقيحها والرد عليها ، وكثير من مثل هذه الأعمال والخطوات التي قام بها كبار العلماء والمخلصين حسب مقتضيات عهدهم للحفاظ على الإسلام أو الدفاع ، كلُّها أمثلة رائعة في هذا الصدد.

التَّرجماتُ الأردية للقرآنِ الكريم بعد الإمام الدِّهلوي:

وقد أمستِ الحاجة ـ سريعاً ـ بعد ترجمة الإمام الدهلوي بالفارسية إلى ترجمة القرآن الكريم باللغة الأردية ، إذ أنها كانت بدأت في الجزء الأخير من القرن الثاني عشر الهجري نفسه تحلُّ محل اللغة الفارسية ، وبُدىء فيها بعمل الكتابة والتأليف ، وقد شعر بهذه الحاجة الماسة وتَغيُّر الوضع أول ما شعر الشيخ عبد القادر الدهلوي (ت١٢٣٠هـ) ابن الإمام الدهلوي نفسه ، وقام بترجمة القرآن الكريم عام ١٢٠٤هـ إلى اللغة الأردية الأدبية التي يمكن أن يُقال عنها: إنه ليس في علمنا محاولةٌ لنَقلِ معاني القرآن الكريم إلى غير العربية بلغتْ من النجاح والسهولة والجمال وتناولت رُوح الألفاظ القرآنية إلى الحد الكبير ، ما بلغتْه هذه الترجمة ، يقول الشيخ عبد القادر في مقدمة ترجمته هذه:

«لقد جالَ في خاطرِ هذا الفقير عبدِ القادر أنَّ والدنا الجليل الشيخ وليُّ الله ابن الشيخ الكبير الشيخ عبد الرحيم العالمَ بالحديث ومن أبناء الهند كما ألَّف تَرجمة القرآن الكريم بالفارسية بتسهيل وتيسير (كذلك يعمل هذا العبد الفقير بالأردية) وأحمد الله تعالى على أنَّ هذه الأمنية تحققت عام ١٢٠٥هـ (الموافق ١٧٩٠)»[١].

ثم قام الشيخُ رفيع الدين (ت١٢٣٣هـ) أخُ الشيخ عبد القادر الأكبر بترجمة القرآن الكريم ـ مع مراعاة تَرجمة كل لفظةٍ بلفظةٍ وحرفٍ بحرف ـ التي نالت بجوانب حِيطتها البارزة وتَبحُّر مؤلِّفها في العلم وإخلاصِه ، قبولاً ورواجاً كبيراً ، فنالتْ ترجمةُ الشيخ عبد القادر ، السَّلِسَةُ المترابطة ، القبولَ

(١) موضح القرآن: ج: ١ ، ص: ٢.

والرواج في بعض الأوساط وترجمةُ الشيخ رفيع الدين القبولَ والرُّجحان في أوساط أخرى.

وقد انتشرتْ وعمَّت هاتان الترجمتان في بيوت المسلمين، وعمَّت قراءتهما مع تلاوة القرآن الكريم انتشاراً لا مثيل له في أي كتاب ديني آخر.

أمَّا فيما يتعلق بتصحيح العقائد وتبليغ عقيدة التوحيد الخالصة ونشرها، فلا يُحصى كم من مُستفيد ومنتفع بهاتين الترجمتين، فإنَّ عددهم يتجاوز مئات الألوف، والحقُّ أن أيةَ حكومة إسلامية بوسائِلها وأسبابها لا تَستطيع أن تقوم بما قامت به هذه التَّرجماتُ الثلاث في مجال الدعوة والإصلاح، وهي كلُّها أغصان دوحةٍ واحدة وفروع شجرة الطوبى، «وذلك فَضلُ الله يؤتيه من يشاء».

ثم سال سَيلُ الترجمات الأردية التي يَصعبُ إحصاؤُها واستقصاؤها، ويتطلَّب بحوثاً تحقيقية علمية مستقلة[١].

دُروسُ القُرآنِ الكَريم:

وعَلاوةً على هذه التراجم الأردية للقرآن الكريم التي قام بها شيخان جليلان من أفراد هذه الأسرة الكريمة الشيخ عبد القادر الدهلوي والشيخ رفيع الدين الدهلوي، والتي ظلَّت تُقرأ وتَدرس في البيوت حيث كانت اللغة الأردية لُغةَ النطق والكتابة في الهند، كان هناك الجَهد الطويل الجاد، المؤثّر العميق البليغ لتصحيح العقائد وإصلاح الأعمال والأخلاق عن طريق إلقاء دروس القرآن الكريم العامة، وشرحِه وتفسيره شفوياً، وقد تحقَّق ذلك على يدي أكبر أبناء الإمام الدهلوي، والمضطلع بأعباء أعماله التجديدية والإصلاحية وتوسيع نطاقها وتكميلها بعدَه الشيخ عبد العزيز الدهلوي (١٢٣٩هـ) الذي استمر اثنتين وستين، أو ثلاثاً وستين سنة، يُلقي دروسه المؤثّرة في القرآن في مدينة مركزية

(١) بين أيدينا الآن كتاب «جائزة تراجم قرآني» (استعراض الترجمات القرآنية) فقد بلغت فيه عدد الترجمات (بعد هاتين الترجمتين للشيخ عبد القادر والشيخ رفيع الدين) التي استعرضها المؤلف وعرف بها بإيجاز إلى خمس وخمسين ترجمة.

كالعاصمة دلهي ، وفي عهدٍ خطيرٍ كالقرن الثالث عشر الهجري ، وما كسبتْ هذه الدروس من نجاح وقبول ، وما تحقَّق بها من إنجازاتٍ كبيرة في تصحيح العقائد والمفاهيم لا يوجَد له في علمنا أيُّ نظير ولا مثيل.

الفَوزُ الكَبيـر فـي أصول التفسير:

إنَّ كتاب الإمام الدهلوي «الفوز الكبير في أصول التفسير» مَأثرةٌ تجديدية ثورية في صدد الدعوة إلى القرآن ، وإنشاء مَلكة الفهم والتدبُّر للقرآن الكريم في أوساط الخاصة وأصحاب العلم والمثقفينَ ، وإيقاظِ عاطفة الإصلاح للأمة الإسلامية ، وإنه لكتاب فريد (في المكتبة الإسلامية العامرة حسب علمنا) في بابه.

لا يُوجد في أصول التفسير شيء مستقل ـ بصفة عامة ـ وما هي إلا بعض القواعد والضوابط وشيء من الأصول يذكُرها بعض المفسرين في مقدمة تفاسيرهم أو لِبيان منهجهم في التفسير والتأويل في بضعة سطور ، وإن كان كتاب الإمام الدهلوي «الفوز الكبير في أصول التفسير» أيضاً وجيزاً مختصراً ، ولكنه كله نُقاط أساسية وكُلِّيات جامعة ، وهو ـ في الحقيقة ـ مذكّرة نادرة قيِّمةٌ لعالمٍ جليل عانى مشكلات القرآن ، ومارسها مُمارسةَ المجرِّب الخبير.

ولا يقدره حقَّ قَدْره إلاّ من وَاجه هذه المشكلات والمسائل العويصة وإنّ بعض الأصول والكُليات التي سجلها الإمام الدهلوي بناء على ذوقه ووجدانه وإدراكه لمغزى القرآن ، لا يمكن الحصول عليها بمطالعة مئات الصفحات في الكتب الأخرى ، وإن تصريح الإمام الدهلوي في مقدمة هذا الكتاب بما يلي ، صحيح مئة في المئة :

«يقول الفقير إلى الله ، وليُّ الله بن عبد الرحيم ـ عاملهما الله تعالى بلطفه العظيم ـ: إنه لما فتح الله عليَّ باباً من كتابه الحكيم ، خطر لي أن أُقيد الفوائد النافعة التي تنفع إخواني في تدبر كلام الله عز وجل ، وأرجو أنَّ مجرد فهم هذه القواعد يفتح للطلاب طريقاً واسعاً إلى فهم معاني كتاب الله تعالى ، وأنهم لو قضوا أعمارهم في مطالعة كتب التفسير أو قراءتها على المفسِّرين ـ على أنهم

أقلُّ قليل في هذا الزمان ـ لا يَظفرون بهذه القواعد الضابطة والمَضامين المترابطة»(١).

إنَّ ما كتَبه الإمام الدهلوي في مقاصد القرآن الكريم وموضوعاته وخصائصِ أسلوبه ومنهجه، واختلافِه وتميُّزه عن المؤلفات البشرية لا سيما كُتب المتأخرين الدراسية، وأسبابِ النزول في كلمات قليلة معدودة، يمكن ألَّا يُشعر فيه ـ اليوم ـ بالجِدة والابتكار، ولكنها كانت في القرن الثاني عشر آراءً ونظراتٍ جديدة، ولا تزال هذه الآراء غريبة مجهولة في كثير من الأوساط.

لقد وقع هناك نَقصٌ كبير وفرق هائل ـ نتيجَة كثرة الروايات المتعلقة بأسباب النزول والتأكيد على أهميتها والتركيز عليها؛ الذي كان أصبح شعار القرون المتأخرة ـ في الاستفادة من مَضامين القرآن العظيم وقَصصه والانتفاع بعظاته وعِبره في كل عَصر ودَور من أَدوار التاريخ، وتطبيقها على ظروفَ العصر وأوضاعه وقضاياه.

فقد أزاح الإمام الدهلوي بهذا التحقيق والتنقيح ذلكَ الستار الكثيف، وكَشف عن جَمال القرآن الكريم وبهائِه ورونقِه.

يقول الإمام الدهلوي في الباب الأول من كتابه: «الفوز الكبير»:

«وقد رَبط عامةُ المفسِّرين كلَّ آية من آيات الأحكام وآياتِ المخاصمة بِقصَّة تُروى في سبب نزوله، وظنُّوا أنها هي سبب النزول.

والحقُّ أن نزول القرآن الكريم، إنما كان لتهذيبِ النفوس البشرية، وإزالةِ العقائد الباطلة والأعمال الفاسدة.

فالسببُ الحقيقي ـ إذاً ـ في نزول آيات المخاصمة هو وجُود العقائد الباطلة في نفوس المخاطبين.

وسَبَبُ نزولِ آيات الأحكام، إنما هو شيوع المظالم ووجُود الأعمال الفاسدة فيهم.

---

(١) الفوز الكبير.

وسببُ نزول آيات التذكير (بآلاء الله وأيامه وبالموت) إنَّما هو عَدمُ تيقظهم وتَنبُّهِهم بما يرون ويمرُّون عليه من آلاء الله وأيامهِ وحوادث الموت، وما سَيكون بعده من وقائع هائلة.

أمَّا الأسبابُ الخاصة والقَصص الجزئية التي تجشَّم بيانها المفسرون، فليس لها دَخلٌ في ذلك إلا في بعض الآيات الكريمة التي تشتمل على تعريض بحادث من الحوادث في عهد النبي ﷺ أو قبله، بحيث يقع القارىء بعد هذا التعريض في ترقب وانتظار لما كانَ وراءه من قصة أو حادث أو سبب، ولا يزول ترقُّبه إلا ببسط القصة وبيان سبب النزول»[١].

وإنَّ بيان مواضع الضَّعف في الفِرَق التي تكفل القرآن الكريم بالرد عليها والتصريحِ بعقائدها وأفكارها وآرائها الصحيحة الأصيلة، وأسبابِ ضلالها وانحرافها وسوء فهمها للحقيقة، وتاريخ هذه الأسباب، وبيان اتفاق وتطبيق هذه الأمور على بعض طَبقات المسلمين، هو الأساسُ الأول لفَهم القرآن الكريم الذي لا يوجد ـ رغم الاختصار والإيجاز ـ بهذا الوضوح في أي من التفاسير الكبيرة كما يوجد في هذا الكتاب.

وكذلك شَرْح الفَرْق بين اصطلاحات المتقدمين والمتأخرين في النَّسخ والتطبيق والتوفيق بين الآيات الناسخة والمنسوخة، وحَلُّ الخلافات التفسيرية بين الصحابة والتابعين، من بحوث الإمام الدهلوي الجيدة النادرة.

وإنَّ ما ذكره الإمام الدهلوي من توجيهٍ لعدم مطابقة بعض الآيات القرآنية مع قواعد النحو الظاهرة المعروفة وعدم موافقتِها لها، يَعرِفُ قَدْره وأهميته من درسَ تاريخ تدوين النحو، وكان له اطِّلاع واسع على الخلافات النحوية بين مدرستي الكوفة والبصرة.

وإنَّ من أكبر ميزات هذا الكتاب أن القارىء يطلع من خلاله على مواطن الضعف الحقيقية في الديانات السابقة والفِرق الضالة والشعوب والمِلَل

(١) الفوز الكبير: الباب الأول، ص: ٣ ـ ٤.

وأمراضِها القديمة وعِللها الموروثةِ ، ويُوفق أجيال المسلمين ، والمجتمع المسلم في كل عصر ، وطبقات الأمة المختلفة أَن ترى وَجهها في مرآة القرآن الكريم ، وتحاسب نفسها ، وتُفكر في ألاَّ تتسربَ أمراضُ الديانات والفرق القديمة ومواطنُ ضَعفها المتوارثةُ إليهم ، ولا تدخل بخطىً صامتة عليهم.

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

التَّحقيقُ والتَّنقيحُ العلمي لمسألة التَّوحيد:

لم يقتصرِ الإمام الدهلوي في سبيل تصحيح العقائد والمفاهيم والدعوة إلى التوحيد الخالص على ترجمة القرآن الكريم وإلقاء الدروس فيه ، بل دَرس هذا الموضوع كعالم وباحث محقِّق دراسة واقعية موضوعية.

لقد كانت عقيدة التوحيد شعارَ الأمة الإبراهيمية الأكبر ، والمقصدَ الأعظم لدعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام وجهده ، وأساسَ دعوة خاتم النبيين ﷺ ومبدأه ومنتهاه ، يشهد عليه القرآن الكريم كله ، ومجاميعُ السنة والسيرة النبوية ، لقد أقام بين التوحيد والشرك خطّاً فاصلاً ، وبين حقيقة التوحيد بياناً واضحاً ، وجاهد ضدَّ أي شائبة من شوائب الشرك وأي ظل خفيف من ظلاله ، وسدَّ باب كل ذريعة إلى تسرب الشرك في عقائد الأمة الإسلامية ، ووقُوع الضعف فيها ، بما لا يُتصور المزيد عليه ، وهذه الحقائق كلها بديهية متواترة لا تحتاج إلى إيراد الشواهد والأدلة ، وكلُّ من له أدنى إلمام بالكتاب والسنّة يضطر إلى الاعتراف بها والإذعان لها.

ثم كَيف تسرَّبتْ هذه الأعمالُ والمعتقدات الشركية بعد مُضي القرون المشهود لها بالخير ، وفتحِ بلاد جديدَة ، وإقبالِ أهلها على الإسلام ، والاختلاط بالشعوب غير الإسلامية ومجاورتها ، ومُضيّ الدهور والأعصار ، إلى طبقة كبيرة من العامة ، وكيف تمكنتْ من الحصول على مكانها مع كثير من شعائر التوحيد وعلاماتِه في المجتمع المسلم.

وكيف تجاسرَ كثيرٌ من أدعياء العلم على احتمالها ، وتوجيهها وتأويلها

وتحليلها ، وكيف وقعَ كثيرٌ من المسلمين المثقفين أسرى هذه المغالطات ، والتأويلات؟

إنَّ السبب في ذلك عند الإمام الدهلوي يَرجع إلى عدم الإدراك والفهم لحقيقة الشرك وحقيقة مُعتقدات المشركين ، لا سيَّما المشركين العربِ في الجاهلية عن كون الله تعالى خالق الكون ، ومدبِّر الأمور العظام ، وقد فَهمتِ الطبقة الكبيرة من العامة حقيقةَ الشرك على أنه إشراكُ كائنٍ (سواء كان حيّاً أو ميتاً) مع ذات الله تعالى على قَدَم سواء ، وأن يُجعل له نِدٌّ ومثيل ، تُنسب إليه جميع صفات الله تعالى وأفعاله ، ويُعتقد بأنه هو الخالق ، الرازق ، والمُحيي والمُميت ، حقيقةً وأصلاً .

أما نِسبة بعض صفات الله تعالى إلى بعض عباده المقرَّبين عنده، واعتقادُ صدور بعض الأفعال (التي هي خاصة بالله تعالى) منهم، وتوليتُهم بعضَ أمور القدرة المطلقة ، وتخويلُهم بعض حقوقه بإذنه ورضاه، كل ذلك لا يُنافي عندهم التوحيد ولا يُرادف الشرك ، كذلك كانوا يعتقدون أنَّ تقديس أحدٍ لمحضِ التزلف إلى الله تعالى تقديساً بالغاً ، ومعاملَته بأعمالٍ وهيئات تدخلُ في حدود العبادة والتأليه ، لا علاقةَ له بالشرك إذ أنه مجرَّد وسيلةٍ من الوسائل للحصول على رضا الله تعالى وطريق نافع مؤثر للوصول إلى حضرة الجلالة (التي لا يصل إليها أي بشر عادي) وكان الكفار العرب يقولون: ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] .

كانتْ هذه هي المغالطةَ والتلبيس الذي جرّ كثيراً من أفراد هذه الأمة إلى حِمى الشِّرك المُحرَّمة ، وقد تخطّوا ذلك الخط الأخير الذي هو الحد الفاصل (Line of Demarcation) بين الشرك والتوحيد ، ولذلك فإنَّ أول وأهمَّ حاجة في هذا الصدد أن يُعلم ما هي تلك العقيدة التي كان يَدينُ بها المشركون العرب والجاهليون حقيقةً ، وماذا كانوا يعتقدون في ذات الله تعالى وصفاته ، ولماذا اعتبرهم رسول الله ﷺ مُشركين رغم كونهم يعتقدون أن الله تعالى خلق الكون ،

وخلق الأرض والسموات ، وأنه صاحبُ القدرة المطلقة ، وأعلن القرآن الكريم أنهم مشركون؟ .

يقول الإمام الدهلوي في كتابه العديم النظير «الفوز الكبير في أصول التفسير» :

«والشِّركُ هو إثبات الصفات الخاصة بالله تعالى لغيره مثلَ إثبات التصرف المطلق في الكون ، بالإرادة المطلقة ، التي يعبر عنها بـ «كن فيكون» أو إثباتُ العلم الذاتي الذي يحصل بالاكتساب عن طريق الحواسّ والدليل العقلي والمنام والإلهام ، وأمثالُ هذه من الوسائل المادية أو الروحية أو إثبات إيجاد شفاء المَريض إو إثباتُ اللَّعنة على شخص أو السَّخط عليه بحيث ينقلب نتيجَة هذا اللَّعن والسخط معدماً فقيراً ، أو مريضاً ، أو شقياً ، أو الرحمةَ لشخص والرضا عنه ، بحيث يَنقلبُ هو بسبب هذه الرحمة والرضا غنيّاً صحيحاً معافىً سعيداً.

وهؤلاء المشركون لا يعرفون مع الله تعالى شريكاً في خلق الجواهر (أي أصول المادة) وتدبير الأمور العظام ، ويعترفون بأنه لا قدرة لأحد إذا أبرم الله تعالى شيئاً وقضى ، أن يُمانعه ويقف دونه ، إنما كان إشراكهم في أمور خاصَّة ببعض العباد ، إذ أنهم يظنون أن سلطاناً عظيماً من السلاطين العظام كما يُرسل عبيده وأصحاب الزُّلفى لديه إلى بعض نواحي مملكته للقيام ببعض الأمور الجزئية وأنه لا يقوم بشؤون الرعية وأمورهم الجزئية بنفسه ، بل يَكِلُ ذلك إلى الولاة والحكام ، ويَقبل منهم شفاعتهم ، وتَزْكِيتهم للموظَّفين الذين يَعملون تحت إشرافهم ، والمتَّصلين بهم والمتزلفين لديهم ، كَذلك قد خلع ملك الملوك على الإطلاق ـ تعالى شأنه ـ على بعضِ عباده المقربين ، خِلعة الألوهية وجَعل سخَطهم أو رِضاهم مؤثراً في عبادِه الآخرين.

فكانوا ـ لأجل ذلك ـ يَرون من الضرورة التزلُّف إلى أولئك العباد المقرَّبين حتى يكون هذا وسيلة لصلاحية القبول في حضرة الملك الحقيقي ، وتَنال

شفاعتهم في حقهم ـ عند الجزاء على الأعمال والحساب ـ الحظْوةَ والقبول عند الله سبحانه.

ونَظراً لهذه الملاحظة والتَّصوُّر الذي رسخ في نفوسهم، حدَّثتهم أنفسهم بالسجود أمامَهم والذَّبح لهم والحَلِف بأسمائهم، والاستعانةِ بقُدرتهم المطلقة، ونَحْتِ صورهم وتماثيلِهم من حجر وصُفر ونحاس وغير ذلك، وجعلها قِبلة للتوجه إلى أرواحهم، وَتدرج الجهلة من هذا الطريق إلى أن بدؤوا يعبدون هذه الصور والتماثيل، ويعتقدون أنها آلهة بذاتها، ووقع في المعتقدات خلط وفسادٌ عظيم»[١].

ويقول أيضاً في «حجة الله البالغة»:

«حقيقةُ الشرك أن يعتقد إنسانٌ في بعض المعظَّمين من الناس أن الآثار العجيبةَ الصادرة منه إنما صدرتْ لكونه متصفاً بصفة من صفات الكمال مما لم يُعهد في جنس الإنسان بل يختص بالواجب ـ جَلَّ مَجْدُه ـ ولا يوجَد في غيره إلا أن يخلع هو خلعة الألوهية على غيره أو يُفني غيره في ذاته، ويبقى بذاته، أو نحو ذلك ما يَظنه هذا المعتقِد من أنواع الخرافات كما ورد في الحديث: «إنَّ المشركين كانوا يُلَبُّون بهذه الصيغة: لبَّيكَ لَبَّيكَ لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تَمْلِكه وما مَلك»[٢] فيتذلَّل عنده أقصى التذلل، ويعامل معه معاملة العباد مع الله تعالى»[٣].

ويقول كذلك ـ وهو يُبين حقيقة إشراك المشركين، ويُصرِّح بأنه كان هناك أمور مشتركة بين المشركين وبين المسلمين، فقد كان المشركون العرب

---

(١) الفوز الكبير: ص: ٧ ـ ٨.

(٢) [أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب التلبية وصفة وقتها، برقم (١١٨٥)، والبيهقي في السنن: (٥/ ٤٥) برقم (٨٨١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وقال الهيثمي في المجمع (٣/ ٢٢٣): رواه الطبراني في الأوسط، وفيه حماد بن شعيب، وهو ضعيف].

(٣) حجة الله البالغة: جـ: ١ ص: ٦١، باب أقسام الشرك.

لا ينكرون وجود الله تعالى ومكانَته المتفردة وقدرتَه المطلقة ، وكانوا يرون أن المقرَّبين لديه والمحبوبين عنده يُشاركونه في بعض الصفات والحقوق ـ وذلك أيضاً بإذنه ورضاه ـ ولأجلِ ذلك كانوا يُعاملونهم معاملة العبودية والخضوع. يقول تحت «باب التوحيد»:

«والمُشركون وافقوا المسلمين في تدبير الأمور العِظام وفيما أَبرم وجَزم ، ولم يَترك لغيره خِيرة ، ولم يُوافقوهم في سائر الأمور ، ذهبوا إلى أنَّ الصالحين من قَبلهم عبدوا الله تعالى وتقربوا إليه ، فأعطاهم اللهُ الألوهية ، فاستحقوا العبادة من سائر خلق الله ، كما أن مَلِك الملوك يخدمه عَبدُه فيحسنُ خِدمته فيعطيه خِلعة الملك ، ويفوض إليه تدبيرَ بلد من بلاده ، فيستحقّ السمع والطاعة من أهل ذلك البلد ، وقالوا: لا تقبل عبادة الله تعالى إلا مضمومةً بعبادتهم ، بل الحق في غاية التعالي ، فلا تُفيد عبادته تقرباً منه ، بل لا بد من عبادة هؤلاء ليُقرِّبوا إلى الله زُلفى ، وقالوا: هؤلاء يسمعون ويبصرون وَيشفعون لعبادهم ، ويُدبِّرون أمورهم وينصرونهم ، فنحتوا على أسمائهم أحجاراً ، وجعلوه قِبلة عند توجههم إلى هؤلاء فخَلف من بعدهم خلف ، فلم يفطنوا للفَرق بين الأصنام وبين مَن هي على صُورته فظنّوها معبوداتٍ بأعيانها»(١).

ويقول في موضع آخر:

لقد كان المشركون يعتقدون «بأنَّه لا شريك لله تعالى في خلق السموات والأرض ، وما فيهما من الجواهر ، ولا شريك له في تدبير الأمور العظام وأنه لا رادَّ لحكمه ولا مانع لقضائه ، إذا أبرم وجزم ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥] ، وقوله تعالى ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ ﴾ [الأنعام: ٤١] ، وقوله تعالى: ﴿ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٦٧] ، لكن كان من زندقتهم قولهم: «إن هنالك أشخاصاً من الملائكة والأرواح تُدبِّرُ أهل الأرض فيما دون الأمور العظام من إصلاح حال العابدِ

---

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ٥٩ ، باب التوحيد.

فيما يرجع إلى خُويصة نفسه وأولادِه وأمواله ، وشَبَّهوهم بحال الملوك بالنسبة إلى ملكِ الملوك ، وبحالِ الشفعاء الندماء بالنسبة إلى السلطان المتصرِّف بالجبروت ، ومنشأ ذلك ما نطقت به الشرائع منْ تفويض الأمور إلى الملائكة ، واستجابةِ دعاء المقربين من الناس فظنُّوا ذلك تصرفاً منهم كتصرُّف الملوك قياساً للغائب على الشاهد ، وهو الفساد»[١] .

وهكذا توصَّل الإمام الدهلوي إلى جُذور الأعمال والعقائدِ الشركية التي كان يخوض فيها العامة والخاصة الذين هم أشباه العامة ، وكَشف عن المغالطة التي جرَّت كثيراً من الجهلة وأدعياء العلم إلى الوقوع في شراك هذه الأعمال والتقاليد وشعائر الشرك ، والنَّذر والذبح لغير الله ، والصيام بأسماء الأولياء والصالحين ، ودعائهم والسؤال منهم والالتجاء إليهم ، والخوف والرجاء منهم ، والاستمداد والاستعانة بهم ، وتعظيم قبورهم ، وكل ما يمتُّ إليهم بصلة كتعظيم بيت الله تعالى والحَرَم المُحرَّم ، والالتزام بآدابه ، واعتقاد تصرفهم ـ ولو جزئياً ـ في الكون ، وتأثيرهم في شقاء الإنسان وسعادته وصحته ومرضه ، وسَعته وإقْتاره ، وكانوا قد حُرموا من العمل لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر: ٢] . وكرامة الإنابة والإخبات والتوكل على الله تعالى والانقطاع إليه ، وإذا سمعَ الإنسانُ بعض أخبارهم وشاهد بعض أعمالهم تذكَّر الآية الكريمة: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٩] .

ولو لم تكن للإمـام الدهلوي وأخلافِه مأثرةٌ غير هذا التجديد لعقيدة التوحيـد وتنقيحهـا وتوضيحها ونشرهـا وترويجها ، وإزالة ما علق بها من سـوء فهم وتصورات خاطئة ، لكفـى ذلك فـي عـدِّه من المجددين في هذه

---

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٢٥ ، باب «ما كان عليه أهل الجاهلية فأصلحه النبي ﷺ» .

الأمـة ، ولكن له مع ذلك أعمالٌ ومآثـر ، سيـأتي تفصيلهـا في الصفحات التالية.

بَيانُ العَقائد وشَرحُها في ضَوء الكتاب والسنة وعلى منهج الصَّحابة والسلفِ الصالح:

لقد كان للإمام الدهلوي ـ علاوة على هذه المآثرِ التجديديةِ الأساسية التي كانت تتعلق بالمسلمين ـ عامة ـ والمجتمع الإسلامي كله ، والتي يُشك بدونها في الهداية والنجاة ، وتَستحيل نُصرة الله تعالى وتأييدُه ، مأثرة علمية وإصلاحية جزئية ، وهي أنه قام ببيان العقائد الإسلامية وشرحِها في ضوء الكتاب والسنة ، ودعا في هذا المجال إلى تطبيق منهج الصحابة والسلف الصالحين رضي الله عنهم وذوقِهم ومشربِهم ، وقد بدأ بهذا العمل وقدّم مثالاً علمياً.

لقد كان العالم الإسلامي في حاجة إلى أولئك النوابغ من المفكِّرين والمتقيّدين بالنصوص من المجتهدين الذين يستطيعون أن يواجهوا آراء الفلسفة والفلاسفة ونظرياتهم(التي كان لها تأثير كليٌّ على علم الكلام نفسِه) مواجهةَ النِّدِّ للنِّدِّ ، يُؤمنون بالقرآن كما نزل ، ويَعتقدون في صفات الله تعالى وأفعاله بما يقوله هو عن نفسه من دون تأويل أو تحريفٍ وتعطيل ، ويُفسِّرون هذه الحقائق تفسيراً يؤيده العلم الصحيح والأدلةُ الشرعية في جانب ، ويَعترفُ به العقل الصريحُ والمنطق الصحيحُ في جانب آخر ، ولم يكن لذلك إلا العلماء الربانيون الذين تَربَّوا وتخرجوا في مدرسة القرآن الكريم مباشرة ، واقتبَسوا النور من مشكاة النبوَّة الصافية وكانوا ـ مع معرفتهم الواسعة وإحاطتِهم بعلوم الفلسفة والبحوث والتدقيقات الكلامية ـ مُلتزمين في مجال العقائد بكتاب الله تعالى وسنَّـة نبيه ﷺ المتواترة ، ويؤمنون بالله تعالى وبصفاته وأسمائه الحسنى التي تكفَّل هو ببيَانِها في كتابه الحكيم ، وكان يَصدق عليه ـ كلياً ـ تعريفُ العلماء الربَّانيين الذي ورد في الحديث الشريف:

«يَـنْـفُون عن هذا الدين تَحريفَ الغَالين ، وانْتحالَ المُبطلين ، وتأويلَ الجاهلين»[١] .

ولم يخلُ أي عصر من عصور التاريخ الإسلامي من أمثال هؤلاء العلماء الربانيين ، ومن أبرزهم شيخُ الإسلام الحافظ ابن تيميَّة الحرَّاني (ت٧٢٨هـ) في القرن الثامن الهجري ، وتلميذُه النابغة العلامة ابن قيّم الجوزيَّة صاحبُ «زاد المعاد» (م٧٩١هـ) وآخرون من العُلماء الأجلَّة الذين ساروا على هذا الدرب ، وليستْ قائمة أسمائهم طويلة .

وإنْ كان بعدَ الإمام ابن تيمية من يمكن أن يُصرَّح باسمه في هذا المجال بكل ثِقة واعتماد ، وأعمالُه ظاهرة معروفة في أوساط العلماء ، فهو الإمام ولي الله الدهلوي ، فقد كان يَملك المقدرة الكافية لبيان العقائد وشرحِها وعرضها وفق منهج السلف الأولين ، لأنه كان درس الفلسفة اليونانية دراسةً واسعة عميقةً في جانب ، وكانتِ الثروة العلمية لعلمِ الكلام بين يديه بل في متناوله ، وكان مفسراً دقيق النظر للقرآن الكريم ، وعالماً بارعاً في علوم الحديث الشريف ، وعارفاً بِأسرار الشريعة وحِكَمها ومقاصدها في جانب ، ولذلك فهو يقوم على الجادة المتوسطة بين «التأويل» و«اللفظية» وكتابه «العقيدة الحسنة»[٢]

---

(١) أخرجه البيهقي [في السنن الكبرى (١٠/ ٢٠٩) برقم (٢٠٧٠٠) من حديث إبراهيم بن عبد الرحمن العذري] ، ولفظ الحديث: «يرث هذا العلم من كلِّ خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين. . . الخ».

(٢) طُبع هذا الكتاب باسم «العقيدة الحسنة» (بالفارسية) في مطبع «مفيد عام» بآكره ، وقام الأستاذ الفاضل الشيخ محمد أويس الندوي ـ عليه رحمة الله ـ أستاذ التفسير بدار العلوم ندوة العلماء ـ سابقاً ـ بترتيبه مع تعليقاته وحواشيه (التي اقتبس أكثرها من المؤلفات الأخرى للإمام الدهلوي) باسم «العقيدة السنية» وطبع المقدمة مؤلف هذا الكتاب في مطبع دار العلوم ندوة العلماء عام ١٣٨٢هـ الموافق عام ١٩٦٢م وقد جاءت خلاصة هذا الكتاب في كتاب المؤلف «العقيدة والعبادة والسلوك» ، ويوجد بحث العقيدة الحسنة كله في «التفهيمات» للإمام الدهلوي ، ولعله أفرد منه ونشر في رسالة مستقلة (انظر «التفهيمات الإلهية» ، جـ: ١ ، ص: ١٤٤ ـ ١٤٨).

يجمع بين عمق الدّراسة وسُهولة العبارة وطلاقتها ، وإنه لمن المتون الجامعة المحررة لعلم التوحيد (الذي يُسمَّى الآن بعلم الكلام بصفة عامة) التي احتوتْ على خلاصة عقائد أهل السنة والجماعة ولبابها الذي يجب أن يطَّلع عليه كل مسلم مُثقَّف يَعدُّ نفسه ويَعتبرها في أهل السنة ، ويريد أن يجعل عقائد أهل السنة شعارَه ومسلكه.

يقول الإمام في رسالة «وصاياه»[(١)] ، (وهي باللغة الفارسية):

«وَصيَّةُ هذا الفقير الأولى أن يتمسَّك المسلمُ في العقائد والعمل بالكتاب والسنَّة ويَعضَّ عليهما بالنواجذ ، ويعمل بهما ـ دائماً ـ ويختار في العقائد منهج المتقدمين من أهل السنة ، ويُعرض في باب الصفات والآيات المتشابهات التي لم يَخض السلف في تفصيلها والبحث فيها عنه ، ولا الالتفات إلى تشكيكات العقلانيين المتكايسين».

ويُقدَّر منهج الإمام الدهلوي في باب الأسماء والصفات ومسلكه فيها بهذه القِطعة التي نقدمها فيما يلي:

«اعْلم أنَّ الحق ـ تعالى ـ أجلُّ من أن يُقاس بمعقول أو محسوس ، أو يَحل فيه صفاتٌ كحلول الأعراض في محالها ، أو تعالجَه العقول العامية ، أو تتناوله الألفاظ العُرفية ، ولا بد من تعريفه إلى الناس ليكمّلوا كمالَهم الممكِنَ لهم ، فوجَب أن تُستعمل الصفات بمعنى وجُود غاياتها لا بمعنى وجود مَباديها ، فمعنى الرحمة إفاضَة النعم لا انعطافُ القلب والرقة ، وأن تُستعار ألفاظ تدل على تسخير الملِك لمدينته ، لتسخيره لجميع الموجودات إذ لا عبارة في هذا المعنى أفصحُ من هذه ، وأن تستعمل تَشبيهاتٌ بشرط ألا يُقصد إلى أنفسها بل إلى معانٍ مناسبة لها في العُرف. . .

وقد أجمعتِ المللُ السماوية قاطبةً على بيان الصفات على هذا الوجه ،

(١) كان الإمام الدهلوي أسمى هذه الرسالة بـ «المرآة الوضيئة في النصيحة والوصية» وقد نشرت ضمن مجموعة رسائله الأخرى.

وعلى أن تُستعمل تلكَ العبارات على وجهها ولا يُبحث عنها أكثر من استعمالها ، وعلى هذا مضت القرونُ المشهود لها بالخير.

ثم خاضَ طائفة من المسلمين في البحث عنه ، وتحقيق معانيها من غير نص ولا برهان قاطع»[١].

لقد كان العالم الإسلامي ـ منذ قرون ـ لا سيَّما تلك البلدان التي كانت تحت تأثير إيران علمياً وعقلياً ودراسياً ، يسودُ فيها تلك التدقيقات الكلامية وشَقُّ الشعرة والتأويلاتُ البعيدة ـ التي تنجرُّ إلى أن تُصبح الذاتُ الإلهية مُعطَّلة وبدون معنى ووصف ـ والاندهاشُ والتهيُّب بالفلسفة اليونانية الذي بَلغ حد العبودية العقلية ، وحدَّ الاستخفاف والاستهانة فيما يتعلَّق بمسلك السلف و منهجهم ، فكان من أنصفَ منهم ـ في زعمه ـ وأخذ بالاحتياط ، قال: «مذهبُ السلف أسلم ، ومذهبُ الخَلف أحكم».

لقد كانتْ هذه الخدمة العِلمية والجراءة من الإمام الدهلوي نظراً إلى هذه الخلفية العلمية والتاريخية ، إحدى مآثرِه وأعماله التجديدية الاجتهادية.

وقد كان هذا التأييدُ والانتصار لمنهج السلف في باب الأسماء والصفات وعدم الانسجام مع الفلاسفة المتكلمين (الذين أَبعدوا النُّجعة في التأويلات ، ويخيل ـ بعض الأحيان ـ أنَّ أقوالهم تَصِلُ إلى حدود التعطيل في الصفات) وحُبُّه وإجلالُه للحديث والسنة المشرفة ، حافزاً للإمام الدهلوي على الدفاع عن الإمام ابن تيمية والاعترافِ بجلالة شأنه وعُلوِّ مكانه ، فقد كانت شخصيته في القرون الأخيرة تدور حولها مناقشات وخِلافات حادة ، بل كانت تُستهدف للشبهات والمطاعن ، لقد أثنى عليه الإمام الدهلوي ثناءً عاطراً ودافع عنه في حماس ، يقول في «التفهيمات الإلٰهية»:

---

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ٦٣ . باب الإيمان بصفات الله.

«وليس شيءٌ منها إلا ومعه دليلُه من الكتاب والسنَّة ، وآثار السلف ، فمثل هذا الشيخ عزيزُ الوجود في العالم ، من يُطيق أن يلحق شأوه في تحريره وتقريره؟ ، والذين ضيَّقوا عليه ما بلغوا معشار ما آتاه الله تعالى»[١].

* * *

(١) جلاء العينين: ص: ٤٦ ، نقلاً عن «التفهيمات الإلٰهية» وللإمام الدهلوي رسالة مطبوعة مستقلة باسم «مناقب الإمام ابن تيمية» وهي رسالة وجهها إلى أحد أصحابه.

الفصل الثاني

القيامُ بنَشر الحديثِ الشريف والسُّنة المشرَّفة والدعوةُ إلى التوفيق بينَ الحديث والفِقه والجهود في سبيله

أَهميَّةُ الحديث الشريف والحاجةُ إليه في كل عصر ومِصر:

لقد قام الإمام الدِّهلوي في شبه القارة الهندية وفي عهدها الأخير ـ حقيقةً ـ (الذي يمتد من أواسط القرن الثاني عشر الهجري إلى هذا الحين) بمأثَرة عظيمة ، وهي القيام بنشر الحديث النبوي الشريف وترويجه وإحياء دروس الحديث والعناية بهذا الفنّ الجليل ، ومؤلَّفاتُه في هذا الموضوع تمتاز بالدقة والاجتهاد والتحقيق ، وتعتبر فَصلاً مُضيئاً مُهِماً في صحيفة تجديده وكتاب حياته ، والتي غَلبتْ على فضائله ومجالاته العِلمية وخدَماته الدينية الأخرى ، حتى غدا «المحدِّث الدِّهلوي» جزءاً من اسمه ، وعنواناً لتعريفه ووَصْفه ، وجرى على ألسنة الناس وأقلامِهم «الإمام وليُّ الله المحدث الدهلوي» وأصبح ذلك عَلمه المعرّف الكامل.

ولكنْ قبل أَن نتعرَّض لتاريخ هذ المأثرة الجليلة وبيانِها ـ بتفصيل ـ يلزمُنا لإدراك جلالة هذا العمل وخطورتِه أن نعلمَ مكانة الحديث الشريف في نظام الدين وإطار الشريعة الإسلامية ، والجهودَ المبذولة للحفاظ على الإسلام في

صورته الصحيحة ، وتكوينَ المناخ والبيئة الإسلامية والحفاظ عليها ، ولماذا يجب القيام بنَشره وصِيانته في كل عصر وكل بلد (يعيش فيه المسلمون) ، وما يحمل الغفلةُ عنه والجهلُ به أو إنكارُه من أخطار ، وما يحتوي عليه من مَضار ، وما هو الفراغ الهائل الذي يُحدثه انقراضُ هذا العلم أو تجاهله والتغافل عنه في أي بلد أو في أي عصر ، والذي يُملأ بشيءٍ آخر؟

سوف يقدم المؤلف ـ لتوضيح هذه النقاط ـ مقتبساتٍ من رسالةٍ له نفسه ، حاول فيها عرض هذه الحقيقةِ وإثباتها بوضوحٍ وبشيء من التفصيل[1] :

«إنَّ الحديثَ ميزانٌ عادل يَستطيع المُصلحون في كل عصر أن يَزِنُوا فيه أعمالَ هذه الأمة واتجاهاتها ، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة ، ولا يتأتّى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال إلا بالجمع بين القرآن وبين الحديث الذي هو يملأ هذا الفراغَ الذي وقع بانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى ، وهذه الفجوةُ لابُدَّ منها في السُّنن الإلٰهية ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] ، ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠] .

«فلولا الحديث الذي يُمثل هذه الحياة المعتدلَة الكاملة المتَّزنة ، ولولا التوجيهاتُ النبوية الحكيمة ، ولولا هذه الأحكام التي أَخذ بها الرسول

---

(١) نشرت هذه الرسالة باسم «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته» وهو في الحقيقة مقال كان المؤلف قد أعده لافتتاح دورة المحاضرات لرابطة العالم الإسلامي في موسمها الثقافي بمكة المكرمة عام ١٤٠١هـ وقد قرىء هذا البحث في ١٦ من ذي القعدة عام ١٤٠١هـ (الموافق ١٣ سبتمبر عام ١٩٨١م) بمكة المكرمة أمام لفيف من العلماء والمثقفين ، ونُشرت هي وترجمتها بالأردية والإنكليزية من «المجمع الإسلامي العلمي» ـ لكهنؤ ـ الهند ، [انظر هذه الرسالة في ضمن مقالات ومحاضرات العلامة الندوي في الحديث ، جمعها الشيخ بلال عبد الحي الحسني الندوي في كتابٍ بعنوان «نظرات في الحديث ، وفي الصحاح الستة ونبذة من تاريخ تدوين الحديث» طبع في دار ابن كثير بدمشق عام ١٤٢٠ هـ و١٩٩٩ م].

المجتمعَ الإسلامي ، لوقعتْ هذه الأمة في إفراط وتفريط ، واختلَّ الاتزان ، وفُقد المثال العملي الذي حث اللهُ على الاقتداء به قوله: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وهو الذي يحتاج إليه الإنسان ، ويستمدّ منه الثقة والقوة في الحياة ، ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع.

«ثُم إنَّ الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذي لم يزل يَبعثُ على الإصلاح والتجديد ، ولم يزل باعثاً على محاربةِ الفساد والبِدَع ، وحسبة المجتمع ، ولم يزل يَظهر بتأثيره في كل عصر وبلد ، مَن رفع راية الإصلاح والتجديد ، وحاربَ البدع والخرافات ، والعاداتِ الجاهلية ، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح ، لذلك كُلّه كان الحديث مِن حاجاتِ هذه الأمة الأساسية ، وكان لا بد من تقييدِه ، وتسجيلهِ وحفظه ونشره.

وقد ظلَّت كُتب السنَّة والحديث ـ ولا تزال ـ مصدراً من مصادر الإصلاح والتجديد ، والتفكير الإسلامي الصحيح في الأمة الإسلامية ، تلقَّى منه المصلحون في عصورهم العلْمَ الديني الصحيح ، والفِكْر الإسلامِي النقي ، واحتجُّوا بأحاديثه ، واستندُوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح ، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد ، ولا يستغني عن هذا المصدر كلٌّ من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص ، والإسلام الكامل ، ويُريد أن يُوجد صِلةً بينهم وبين الحياة النبوية ، والأسوة الكاملة ، وكلٌّ من تُلجئه الحاجة وتطوراتُ العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة.

شَهادةُ التاريخ لتأثيرِ الحديث وكُتب السُّنةِ في الإصلاحِ والتجدِيدِ:

ويَشهد بهذه الحقيقة تاريخُ الإسلام والمسلمينَ نفسه ، فكلَّما ضَعُفَتْ صِلتُهم بكتب الحديث والسنة ومعرفتُهم بها ، على كثرةِ وجود الدعاة إلى الله ، والمشتغلينِ بتزكية النفوس و تهذيبِ الأخلاق ، والزهد في الدنيا والعملِ بالسنة ، وطالتْ هذه الفترة ، غزتِ المجتمعَ الإسلامي ـ الزاخر بأصحاب الاختصاص في العلوم الحكمية والأدبية ، وفي عهد غلبَة الإسلام وحكم

المسلمين ـ بِدَعٌ طريفةٌ ، وتقاليدُ عَجمية ، وأعرافٌ دخيلة ، حتى يكاد يكونُ نسخة من مجتمع جاهلي ، وصدَقتِ النبوَّة المحمدية والحديث الصحيح: «لتَركَبُنَّ سنَنَ مَنْ كان قبلكم شِبْراً بشبرٍ وذِراعاً بذراعٍ»[1] ، وَخفَتَ صوت الإصلاح ، وخبا مصباحُ العلم.

ومَن شاء فليستعرضِ الوضع الديني وواقعَ حياة المسلمين في القرن العاشر الهجري في الهند ، القَرن الذي كادت صلة الأوساط الدينية والعلمية في شبه القارة الهندي تنقطعُ عن علم الحديث الشريف ومصادرِ السنة الصحيحة ، وكانتْ تعيشُ في عُزلة عن مراكز العلم الديني ، وتدريسِ الحديث الشريف (كالحجاز واليمن ، ومصر والشام) وأصبحتْ مُقتصرةً على كتب المذهب وشروحِها وتدقيقاتها وكُتب الأصول والحكمة ، كيف فَشَتْ فيها البِدع وعمَّت المنكرات ، واستُحدثتْ أشكالٌ متنوعة للعبادات والقربات»[2].

وقد قال مُؤلِّف هذه السطور في الجزء الثالث من «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ، وهو يتحدَّث عن كتاب «جواهر خمسة» لأحد المشائخ المعروفين في القرن العاشر الهجري ، الشيخ محمد غوث الكَوَالِيَارِي ، ما يلي:

«لقد كانتِ الهند لا تعرف شيئاً عن الصِّحاح الستة ومُؤلِّفيها ، وأئمةِ هذا الفن ، الذين نَقدوا علمَ الحديث ونَخلوه ، وميَّزوا بين صحيحها وسقيمها ، وقاوموا البِدع والمحدثات ، وأثبتوا أنَّ حياة المسلمين يجبُ أن تقوم على أساس السنة المطهرة ، وفي ضوء الأحاديث الصحيحة ، ونَستثني من ذلك ولاية كجرات التي انتشر فيها علمُ الحديث لِنُزول العلماء العرب بها ، وكَثرةِ الرحالة فيها إلى الحرمين الشريفين ، ونبغَ فيها العلامة علي المتقي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٢٤٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٥٠٢)، وابن أبي شيبة في المصنَّف (٧/ ٤٧٩) برقم (٣٧٣٧٥)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٤٤) برقم (٣٢٩١)، وقال الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٦١): رواه أحمد والطبراني، وفي إسناد أحمد: ابن لهيعة، وفيه ضعف، وفي إسناد الطبراني يحيى بن عثمان.

(٢) دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته: للمؤلف، ص: ٢٦ ـ ٣٠.

البرهان بوري ، وتلميذُه النجيب المعروف العلامة محمد طاهر الفتني (في القرن العاشر الهجري).

ويمكن الاطلاع على هذا التأثير الذي خلَّفته الفلسفات ، والتجاربُ المحلية في الهند على التصوف من خلال كتاب «جواهر خمسة» للشيخ محمد غوث الكواليارِي الذي ذاع صيتُه في عصره ، وحصل له القبول العظيم عند الناس ، والكتابُ يشتمل على أقوال الصوفية ، وتجارب الشيخ الكوالياري الشخصية.

ويخيَّل إلينا أنهم لم يَروا حاجةً إلى ثُبوت هذه الأمور بالأحاديث الصحيحة ، واقتباسِها من كتب السيرة النبوية المعتَبرة ، فتَجدُ في هذا الكتاب المذكور ـ آنفاً ـ «صلاة الأحزاب» و«صلاة العاشقين» و«صلاة تنوير القبر» والصلواتَ المخصوصة بالأشهر المختلفة ، والأدعيةَ الخاصة بها التي لا أصل لها في السنة ، ولا أثر لها في الحديث»[1].

ولم تكن هذه خِصِّيصة «جواهر خمسة» فَحسب ، بل تَتوفَّر أمثلة ذلك في مجاميع أقوال أمثال هؤلاء الصوفية غير المعتبرة ، فقد كانت سَجدةُ التحية للمشائخ شائعةً ، واتخذتِ القبورُ مساجد علناً وجهاراً ، فكانت تُوقد عليها السُّرج ، وتُفرش عليها الأردية ، وتُعظَّم أطرافها وحواليها كتعظيم الحَرم ، ويُحتفل بها باسم «العرس (الاحتفال الديني) وقراءة الفاتحة» وتكثر فيها النساء ، وكانت «الصلاة الغوثية» و«الصلاة المعكوسة» والنَّذرُ لغير الله تعالى باسم الأولياء الصلحاء والذبح لابتغاء مرضاتهم ، والصوم باسم غير الله ، وأمثال هذه من البدع الكثيرة (التي كانت تصل حدودها إلى الشرك) كانت شائعة في الناس يُقبل عليها الخاصة منهم والعامة ، وكانت تُعقد احتفالاتُ إحياء أيامِ الولادة والوفاة للأولياء والصالحين ، ويُحتفل بمهرجاناتٍ وأعياد.

ولو لم تكنْ كُتب الحديث في متناول أيدي العلماء المسلمين ، ولم تتيسَّر

(١) انظر: رجال الفكر والدعوة في الإسلام: ج: ٣.

لهم هذه الوسيلةُ المعتبَرَة السهلة للتفريق والتمييز بين البدع والسُّنن ، لما كانت هذه السلسلة من عهد شيخ الإسلام ابن تيميّة (ت ٧٢٨ هـ) إلى عهد الإمام الدهلوي (ت ١١٧٦ هـ) للعلماء المصلحين والدعاة إلى الدين الخالص ، ولم يَظهر المصلحون والمجدِّدون حَمَلةُ رايةِ التجديد والإصلاح وتصحيحِ العقائد ، وإزالةِ التقاليد الجاهلية .

اقرأ تراجم علماء أفغانستان (كابُل وهَرَات وغَزْنَين) في القرنين العاشر والحادي عشر ، وألقِ نظرةً على كُتبهم ومؤلفاتهم ، قلّما تجدُ عليها مَسحة الدفاع عن السنة والرد على البِدعة والتحقيق والتنقيح في المسائل ، وإذا بشَخصيَّة العلامة علي بن سلطان بن محمد الهَرَوِي (ت ١٠١٤ هـ) المعروف بمُلاّ علي القاري ، تظهر على الساحة ، الذي سافر إلى الحجاز وقرأ على كبار أساتذتها ومحدثيها الأجلّة كتبَ الحديث ونَبغ فيها ، وتتجلّى هذه المَسحة الظاهرة في شروحه لكتب الفقه والحديث، وترجيحهِ للمسائل، وردِّه ـ بِصراحة ووضوح ـ على بِدَع عصره ومُحدثاته، وقد أدتْ به دراستُه وبحثه وقولُه بالحق و إنصافه إلى أنه دافع عن شيخ الإسلام ابن تيميَّة ، وشهد بأنه كان من أكابر أهل السنة والجماعة وأولياء الأمة[1] .

وقد كانتْ هذه الحال في عدد من البلدان العربية كالعراق والشام ومصر وتُونس والجزائر ومراكش[2] .

علْمُ الحَديثِ والعَرب:

إنَّ من حقائقِ فلسفةِ التاريخ الإسلامي أنَّ البلاد التي كان العرب حَمَلةَ الإسلام إليها ، وإليهم يَرجعُ الفضل في انتشاره فيها ، انتشرَ فيها علم الحديث الشريف مع انتشار الإسلام وازدهرَ ، إذ أنه كانتْ هنالك صِلةٌ قوية ، ومناسَبة خاصة بين هذا العلم وطَبيعة العرب وقُوّةِ حفظهم وحياتهم العملية وواقعيتهم

(١) انظر «المرقاة شرح المشكاة» ، ج: ٤ ، ص: ٢٧ .
(٢) انظر رسالة المؤلف (دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته).

وصلتهم العميقة بذات النبي ﷺ ، فحيثما حَلُّوا وساروا حَملوا معهم علم الحديث ، وظهرتِ العناية به في عَهد سيادتهم وتأثيرهم ونفوذهم في قوة ووضوح ، وكانت حَركةُ تَدريسه والتَّصنيف والتأليف في مختلف جوانبه قائمةً على قدمٍ وساق.

لقد كان هذا حال اليَمنِ وحضرموت ومِصر والشامِ والعراق ، وشمالِ إفريقية والأندلس ، وولاية كجرات في الهند نفسِها ، وهو مثال ودليلٌ على ما ذكرناه في صلة العرب بالحديث ، فقد أنتجت كجرات أمثالَ الشيخ علي المتقي البُرْهَانْبُوْرِي مؤلّف «كنز العمال» (ت ٩٧٥ هـ) والعلامة محمد طاهر الفتني صاحب «مجمع بحار الأنوار» (ت ٩٨٦هـ) من المحدثين الأجلَّة الكبار ، وذلك كما سبق لأنَّ صلة كُجرات بالحجاز كانت أقوى وأكثر بالنسبة إلى سائر الولايات الهندية ، وكان العلماء العرب ـ دائماً ـ يَؤُمُّونها ويتردَّدون إليها.

أمَّا البلادُ التي انتشرَ فيها الإسلام بأيدي العجم ، فليسَ شأنُها في هذا الأمر كذلك ، فقد حكمت في الهند أسرٌ تركية الأصل أو أفغانيةُ الأصل ، وقام فيها بنَشر الإسلام وتبليغهِ والدعوةِ إليه أولئك المشائخ والعلماء الدُّعاة الذين كان معظمُهم من أصول عجمية أو من أبناء البلاد العجمية ، لا سيما إيران وتركستان ، ثم لما جاء عهد التَّدريس وإنشاء المدارس وتَرتيب المناهج الدراسية في الهند ، كانت هي قد تأثرت ـ كلياً ـ بالفضلاء العجم و«حكماء إيران» وطُبعتْ بطابعهم ، وقد قدَّمنا في الباب الأول أن إيران التي أنجبتْ أساطين الحديث لما قامت فيها الحكومة الصفوية ، أعلنتِ المذهب الشِّيعي مذهَبها الرسمي فيها (وقد وقَع ذلك في بداية القرن العاشر الهجري) انقطعتْ صلتُها بالحديث الشريف لذلك لم يكن في الهند ـ بعد النفوذ الإيراني الثقافي ـ مجالٌ للشعور بأهمية الحديث وجَلالة خطره وعظمته ، والمسابقة في القيام بنشره ، بل بالعكس من ذلك ، كلما كان تأثيرُ إيران يتضاعف على الأوساط العلمية في الهند ، تزداد معها قِلة العناية واللامبالاة بالحديث الشريف ، وقد بَلغ ذلك في عهد الإمام الدهلوي أَوجَه وقِمّته.

ازدِهارُ عِلْم الحديثِ وانحِطاطُه في الهند:

نُقدِّم هنا ـ لاستعراض تاريخ الازدهار والانحطاطِ الذي مرَّ به علمُ الحديث في الهند باختصار ـ مقتطفاتٍ من كتاب العلامة عبد الحي الحسني ـ رحمه الله ـ «الثقافةُ الإسلامية في الهند» ، وقد جاءت فيها عُصارة الدراسةِ لمئات الصفحاتِ وخلاصة هذا الموضوع ، يقول المؤلِّف :

«ولمَّا انقرضت دولـة العرب مِن بلاد السِّند ، وتغلبت عليها الملوك الغَزنويـة والغَوريـة ، وتـتابع الناس من خراسـان وما وراء النهر ، صـار الحديث فيها غريبـاً كالكبريت الأحمر ، وعديماً كعَنقـاء المغرب ، وغلبَ على الناس الشعـر والنجوم والفنون الرياضيـة ، وفي العلوم الدينية الفِقـهُ والأصول .

ومضَتْ على ذلك قرون متطاولة ، حتى صارت صناعةُ أهل الهِند حكمةَ اليونان ، والإضرابَ عن علوم السنة والقرآن ، إلاّ ما يُذكر في الفقه على القلة .

وكان قُصارى نَظرهم في الحديث في «مشارق الأنوار» للصغاني ، فإن ترفّع أحد إلى «مصابيح السنة» للبغوي أو إلى «مشكاة المصابيح» ظنَّ أنه وصل إلى درجة المحدِّثين ، وما ذلك إلاّ لجهلِهم بالحديث ، ولذلك تراهم لا يذكرون هذا العلم ، ولا يقرؤونه ولا يحثُّون عليه ، ولا يَجذبون إليه ، ولا يعرفون كُتبه ، ولا يعلمون أهله ، والقليلُ منهم كانوا يقرؤون «المشكاة» لا غير ، وهذا على طريقة البركة لا للعمل به ، والفهمِ له ، وعُمدة بضاعته من الفقه على طريقةِ التقليد دون التحقيق إلا ما شاء الله تعالى في أفرادٍ منهم ، ولذلك كَثُرتْ فيهمُ الفتاوى والروايات وتُركت النُّصوصُ المُحكَمات ، ورُفض عرضُ الفِقه على الحديث ، وتَطبيق المجتَهدات بالسُّنن المأثورة عن النبي المعصوم المأمون ﷺ .

حتى مَنَّ الله تعالى على الهند بإفاضة هذا العلم ، فورَدَ به بعضُ العلماء في القرن العاشر ، كالشيخ عبد المعطي بن الحسن بن عبد الله باكثير المكي

المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٨٩هـ والشيخ الشهاب أحمد بن بدر الدين المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ ، والشيخ محمد بن أحمد بن علي الفاكهي الحنبلي المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ ، والشيخ محمد بن محمد عبد الرحمن المالكي المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩١٩هـ ، والشيخ إبراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادي ، والشيخ ضياء الدين المدني المدفون بكاكوري ، والشيخ بهلول البدخشي ، والخواجه مير كلان الهروي المتوفى بأكبر أباد سنة ٩٨١هـ ، وخلق آخرون.

ثم وَفَّق اللهُ سبحانه وتعالى بعضَ العلماء من أهل الهند أَن رحلوا إلى الحَرَمَين الشريفين ، وأَخذوا الحديث وجاؤوا به في الهند ، وانتفعَ بهم خَلقٌ كثير ، كالشيخ عبد الله بن سعد الله السِّندي ، والشيخ رحمة الله بن عبد الله بن إبراهيم السِّندي المهاجرين إلى الحجاز ، فإنهما قَدِما الهند ، ودرسا بكُجرات مدة طويلة ، ثم رجعا إلى الحجاز ، والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميري المتوفى سنة ١٠٠٣هـ والشيخ جوهر الكشميري المتوفى سنة ١٠٢٦هـ ، والشيخ عبد النبي بنُ أحمد الكَنْكُوْهِي ، والشيخ عبد الله بن شمس الدين السُّلْطَانْبُوري ، والشيخ قطب الدين العباسي الكُجْراتي ، والشيخ أحمد بن إسماعيل المَنْدَوِي، والشيخ راجح بن داود الكجراتي، والشيخ عليم الدين المندوي، والشيخ المعمر إبراهيم بن داود المنكوري المدفون بأكبر آباد ، والشيخ محمد بن طاهر بن علي الفتني صاحب «مجمع البحار» ، والسيد عبد الأول بن علي بن العلاء الحسيني وغيرهم»[(١)].

ويزيد مؤلِّف «الثقافة الإسلامية في الهند» قائلاً :

مَـأثـرةُ الشَّيـخ عبـد الحـق الدِّهلوي:

«ثُمَّ جاء اللهُ سبحانَه وتعالى بالشيخ عبد الحق بن سيف الدين البخاري

(١) الثقافة الإسلامية في الهند: ص: ١٣٥ ـ ١٣٧ (الطبعة الثامنة مجمع اللغة العربية ـ دمشق).

الدهلوي المتوفى سنة ١٠٥٢هـ ، وهو أَوَّلُ من أفاضه على سُكان الهند ، وتصدّى للدَّرس والإفادة بدار المَلك دهلي ، وقصر هِمَّته على ذلك ، وصنَّف وخرّج ، ونشر هذا العلم على ساق الجِد ، فنفعَ الله به وبعلومهِ كثيراً من عباده المؤمنين ، حتى قيل: إنه أول مَن جاء بالحديث بالهند ، وذلك غَلطٌ كما علمت.

ثم تصدَّى له ولدُه الشيخ نور الحق المتوفى سنة ١٠٧٣هـ وكذلك بعضُ تلامذتِه وأولاده كشيخ الإسلام شارح «البخاري» وولدِه سلام الله صاحب «المحلى» و«الكمالين»[١].

وقد أصاب البروفيسور خَليق أحمد نظامي في قوله:

«وعلى كُلّ فإنَّ العهد الذي بدأ فيه الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي درُوسَه في الحديث الشريف ، كان قد طُوي ـ إذ ذاك ـ بِساط هذا العلم الشريف في شمالي الهند ، وإنه قد أشعَل في هذا الوسط المُظلم الضيِّق شمعةً جَذبتْ إليه الناسَ من أنحاء نائية بعيدة ، فالتفُّوا حولها وتهافتوا عليها تَهافُتَ الفَراش على النور وبدأ نشاطٌ جديد لدروس الحديث الشريف في شمالي الهند ، وانتقلَ بذلك مركزُ العلوم الدينية لا سيما الحديث الشريف من كُجْرات إلى دِلْهي»[٢].

الحَاجَـةُ إلـى مُجـدِّد:

لقد صرفت العنايةُ إلى الحديث الشريف إخلاصَ الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوي وصدقه وجهوده المباركة ، وقد أثارَ رغبةً قَويةً وحركةً جديدةً إلى مُطالعته ودِراسته وتدريسِه ، وشَرْحِه وتحشِيَته ، وكان من المتوقَّع أنَّ أخلافَه وأفراد أُسرته الذين كانوا بدَورهم مُحَدِّثين ومدَرسين ومؤلِّفين ـ يَستمرون بهذه الجهود حتى يأخُذَ هذا الفن الشريفُ مَكانه اللائق في الأنظمة

---

(١) الثقافة الإسلامية في الهند: ص: ١٣٧.

(٢) حياة الشيخ عبد الحق المحدِّث الدهلوي: ص: ٤٣.

التعليمية ، والمناهجِ والمقرراتِ الدراسية ، والنشاطاتِ العلمية والتأليفية.

وقد كان ابنُه الفاضل العلامة المفتي نور الحق الدهلوي (ت١٠٧٣هـ) الذي شرح «صحيح البخاري» في ستة مجلدات ، وله شرحٌ أيضاً على «شمائل الترمذي» ، يَستطيع أن يقوم بتكميل تلك الجهود والأعمال التي بدأ بها والدُه ، ولكن لعلَّه لم يتمكن كثيراً بسبب تولِّيه منصبَ القضاء في مدينة مركزية كأكبر آباد (آكْرَهْ حالياً) مِنَ القيام بتدريس الحديث الشريف ونَشرِه ، وكان ابنُه الشيخ شيخ الإسلام الدهلوي أيضاً من كبار المحدِّثين وله شرح مَبسوط «لصحيح البخاري» بالفارسية.

والحقيقةُ أنَّه لأسباب معلومة وأَسباب أخرى غيرِ معلومة ، لم تستطعْ جُهود هؤلاء المشائخ الفردية أن تُحدِث ما كان متوقعاً من الإقبالِ العام على الحديث الشريف والاهتمام اللائق به ، والنَّشاط والحيوية في نَشره وتدريسِه وتعميمه ، ولعلَّ مِن بعض العَوامل لذلك أنَّ هؤلاء كانتْ تَغلب عليهم نَزعةُ تأييد المذهب الحنفي بالحديث الشريف ، والسببُ الثاني أنَّ مركز التعليم والثقافة من أواسط القرن الثاني عشر نفسِه بدأ ينتقل من دلهي إلى لكهنؤ ، وبدأ منهجٌ دراسي جديد (على أيدي أستاذ العلماء الشيخ نظام الدين السِّهالَوِي (ت١١٦١هـ) المباركة القوية) في التكوين ، ولم تكن قد قامتْ صلة هؤلاء الواضعين والمكوِّنين لهذا المنهج الدراسي الجديد العلميةُ والثقافية بالحرَمين الشريفين ، والأماكنِ التي كانت مركزاً لدراسة الحديث الشريف وتدريسهِ وخِدمته ونَشره ، وكانت تَغلب عليهم (كما يتضح ذلك من تاريخ «المنهج النظامي» وكتب التراجم والطبقات) العلومُ الحكمية ، ومن العلوم الدينية عِلْمُ أصول الفقه.

وعلى كُلٍّ فإنَّ الأوساطَ العلمية والدينية في الهند كانتْ في حاجةٍ وانتظار لتلك الشخصية التي تكون صلتُها بالحديث صلةَ الحب والغرام ، والتي جعلت نشر الحديث الشريف وتعميمَه أول أهدافها ومقاصدِها في الحياة ، لقد وَجدت الهندُ هذه الشخصيةَ في أواسط القرن الثاني عشر الهجري في شخص الإمام ولي الله الدهلوي الذي طبَّق بمعنى اللفظِ هذا الشعرَ الفارسي الذي معناه:

«لَقد نَسينا كلَّ ما قرأنا وتركناه إلا حديثَ الحبيب الذي لا نملُّ من تَرداده وتكرارِه».

لقد ذكر مُؤلِّف «الثقافةِ الإسلامية في الهند» بعد ذكره لأولئك الذين أَسهموا في أوائل القرن الحادي عشر في خدمة الحديث ونشره في الهند، خدمة الإمام الدهلوي للحديث، التي تمتاز ليس في هذه البلاد فحسب بل في هذا العهد الأخير بمكانتِها التجديدية والاجتهادية وصبغتها في الإصلاح والإحياء، والتي أدت إلى سيادة الحديث وازدهاره في هذه البلاد، فأصبحَ جزءاً ضرورياً من المقرَّرات الدراسية، ومقياساً للفضيلة والكمال، وقامتْ حلقاتٌ مستقلة لدروس الحديث الشريف، وعمَّ تدريس الصِّحاح الستة لا سيما الكتب الأربعة منها: «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود» و«سنن الترمذي»، بالبحثِ والتحقيق في المدارس (الأمر الذي لا يوجد الآن في البلدان العربية نفسها).

وبدأ عهدٌ جديدٌ لشروح كتب الحديث والتعليقات عليها حتى لم تَلبث أن تكونت منها مكتبةٌ ضخمة كبيرة لا يُوجد مثيلُها في البلاد العربية نفسها[1]، وتُرجمتْ كتب الحديث، التي استفاد منها عامَة المسلمين والذين لا يعرفون العربية وكذلك السيِّداتُ المسلمات استفادةً عظيمة، وكان ذلك دافعاً إلى الجد والعمل، شائقاً لاتباع السنة والاهتمام بها ومرغِّباً في الأسانيد وإجازات الحديث، وأصبحتِ الهند مركزاً لهذا العلم الشريف حتى صدرت من قلم عالم

(١) إنَّ الجماعة الكبيرة لأساتذة الحديث وشراحه ومؤلفيه التي ظهرت في الهند بتأثير دعوة الإمام الدهلوي وحركته وتعليمه وتربيته، وما أنتجت من مكتبة عظيمة واسعة في الحديث وعلومه، يلزم لتقدير سعتها وتنوعها مراجعة كتاب العلامة عبد الحي الحسني «الثقافة الإسلامية في الهند» الفصل الرابع من الباب الثاني بعنوان «مصنفات أهل الهند في الحديث»، ص: ١٤٢ ـ ١٦٠، [انظر كذلك الباب الثاني «آثار علماء الهند في الحديث وعلومه» في كتاب «أعلام المحدِّثين في الهند في القرن الرابع عشر الهجري» للمعتني بهذا الكتاب، طبع دار ابن كثير بدمشق].

مصري جليل كالعلامة السّيد رشيد رضا مُنشيء مجلة «المنار» الغرّاء، هذه الكلمات التالية:

«ولولا عِنايةُ إخواننا علماءِ الهندِ بعلُوم الحديث في هذا العصر، لقُضِيَ عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضَعُفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة، حتى بَلغت مُنتهى الضعف في أوائل القرن الرابع عشر[١]».

مَشاعرُ الإمام الدهلوي وآراؤه في الحديث:

ما هي تلكَ العاطفة القوية التي دفعت الإمام الدهلوي إلى الاشتغال بالحديث ثم بالنشاط في نشره والدعوةِ إليه، ونذر حياته وصلاحياته له، ينبغي لِمعرفتِها وإدراكها الرجوعُ إلى كتابات الإمام الدهلوي نفسه إذ إنها المرآة الصحيحة الوضيئة لآرائه وخواطره، يقول في الصفحة الأولى من مقدمته لـ «حجة الله البالغة»:

«إنَّ عُمدة العلوم اليقينية ورأسها، ومبنى الفنون الدينية وأساسها هو علم الحديث الذي يُذكر فيه ما صَدر من أفضل المرسلينﷺ وأصحابهِ أجمعين، من قول، أو فعل، أو تقرير، فهي مصابيح الدجى ومعالم الهدى، وبمنزل البدرِ المنير، مَنِ انْقادَ لها ووَعى؛ فقد رَشد وانهدى وأُوتي الخير الكثير، ومن أعرضَ وتولَّى، فقد غَوى وهوى، وما زاد نفسَه إلا التَّخسير، فإنهﷺ نهى وأمر وأنذر وبشَّر، وضرب الأمثال وذكّر، وإنها لمثل القرآن أو أكثر»[٢].

ويقول في موضعٍ من بعض كتاباته:

«إنَّ أوّل شيءٍ يوجبه العقل على نفسه، هو تتبُّع أحوالِ النبيﷺ وأقواله، ماذا قال فيما يَتعلّق بِالأحكام الإلٰهية وكيف عمل بها، ثم يقتدي بهذه الأقوال والأحوال بالقلب والقَالب، فإن حَديثنا عن شخص قد سلَّم بأن الله تعالى قد

---

(١) مقدمة «مفتاح كنوز السنة».
(٢) مقدمة حجة الله البالغة: ص: ٢.

كلَّف عباده بأحكامه ، وقد عَزم هو على أداء مسؤوليته الناشئة من هذا التكليف الشرعي»[١].

شَكوى قِلة العناية بالحَديثِ الشريف في الهِند:

لقد كان الدافعُ الثاني للإمام الدهلوي إلى إحياء الحديث ونَشره وترويجه في الهند ، هو ذلك الوضع السائد في الهند الذي تقدَّم الحديث عنه في الباب الثاني من الكتاب ، لقد كان يَغشى الأوساطَ الدينية حينذاك ضَبابٌ كثيف من البِدع وتقاليد الجاهلية ، وطقوسِ غير المسلمين وتقليدِهم فيها والشعائرِ غير الإسلامية ، التي كان من العسير من خلالها رُؤية طلعة الإسلام البَهيَّة ، وكانت تَسود في الأوساط العلمية والدراسية تلك العُلوم المستوردةُ من اليونان التي كانوا يُسمّونها «فنونَ الحكمة» والعلومَ الآلية ، وفنونَ البلاغة وعلم الكلام ، ولم يكن للعلوم الشرعية لا سيما علم الحديث الشريف نصيب لائق في هذه الأوساط العلمية والدراسية ، وإذا صُرف شيء من العناية إلى العلوم الشرعية فلم يَكُنِ الأمر يتعدى حُدود الفِقه وأصول الفقه ودقائِقها وشقِّ الشعرة فيهما ، يقول الإمام الدهلوي ـ وهو يُشاهد هذا الوضع ـ في أسفٍ شديدٍ وحُزنٍ بالغٍ:

«أَقولُ لطَلبةِ العلم ، أيُّها السفهاء المسمّون أنفسَكم بالعلماء ، اشتغلتُم بعلومِ اليونانيين وبالصَّرف والنحو والمعاني ، وظننتُم أنَّ هذا هو العلم ، إنما العلمَ آيةٌ مُحكَمةٌ من كتاب الله ، أن تتعلموها بتفسير غريبها وسبب نزولها وتأويل مُعضِلها ، أو سنةٌ قائمةٌ من رسول الله ﷺ أن تَحفظوا كيف صلّى النبي ﷺ وكيف توضَّأ ، وكيف كان يَذهب لحاجته وكيف يصوم ، وكيف يَحُجُّ وكيف يجاهد ، وكيف كان كلامُه وحِفظه للسانه ، وكيف كانت أخلاقُه؟

فاتَّبعوا هَديه واعملوا بسنته على أنه هُدى وسنة ، لا على أنه فَرضٌ ومكتوبٌ عليكم ، أو فريضةٌ عادلة ، أن تتعلَّموا ما هي أركان الوضوء، وما هي أركان الصلاة ، وما نصاب الزكاة ، وما قَدر الواجب ، وما سِهام فرائض الميت ،

---

(١) كلمات طيبات: ص: ١٧٣.

أما السِّير وما يُرغِّب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فَضلٌ؟

إنَّ ما اشتغلتم به و ما يُهتم به ، فليس من علوم الآخرة إنما هي من علوم الدنيا ، خُضتم كل الخوض في استحسانات الفقهاء مِن قبلكم وتفريعاتهم ، أما تَعرفون أنَّ الحُكم ما حَكَمهُ اللهُ ورسولُه ، ورُبَّ إنسانٍ منكم يَبْلُغه حديثٌ من أحاديث نَبيِّكم فلا يَعملُ به ، ويقول إنما علمي على مذهب فلان لا على الحديث ، ثم تخيَّلَ بأن فَهم الحديث والقضاءَ به من شأن الكُمَّل المهرة ، وأن الأئمة لم يكونوا ممن يخفى عليهم هذا الحديث ، فما تركوه إلا لوجهٍ ظهر لهم في الدين من نَسخ أو مرجوحية .

اعْلموا أنَّه ليس هذا من الدين في شيء ، إن آمنتُم بنبيكم فاتّبعوه ، خالفَ مذهَبنا أو وافَقه ، كان مُرضي الحق أن تشتغلوا بكتابِ الله وسنة رسوله ابتداء ، فإن سَهُل عليكم العمل بهما ، فبهَا ونعمت ، وإن قَصرتْ أفهامكم ، فاستعينوا برأي من مضى من العلماء ، ما تروه أحقَّ وأصرح وأوفقَ بالسنة ، وألاَّ تشتغلوا بالعلوم الآلية إلا بأنها آلةٌ لا بأنها أمور مستقلة ، أما أوجبَ اللهُ عليكم أن تُشِيعوا العلمَ حتى تظهر شعائر الإسلام في بلاد المسلمين ، فلم تُظهروا الشعائر ، وأَمرتُم الناس أن يَشتغلوا بالزوائد ، واستكثرتُم في أعينهم طلبَ الحق والدين ، أما ترون البلاد العظام تخلو من العلماء ، وإن كانوا ، فهُم دون ظهور الشعائر»[١] .

وإنَّ حال الإمام الدهلوي عند اللَّهج بذكر الحديث من سرور ولذة غامرة ، وحُبٍّ وإجلال لأئمة الحديث ، يُمكن أن ترى بعض نماذجه في رسالته التي كتبها إلى أحد مُسترشديه في مناقب الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ[٢] .

نَشاطُ الإمام الدهلوي في خِدمة الحديث الشريف ونشرِه:

تقدم ـ فيما سبق ـ أن الإمام الدهلوي لما ذهب يُودع أستاذه الشيخ أبا طاهر

---

(١) التفهيمات الإلٰهية: جـ: ١ ، ص: ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢) كلمات طيبات: ص ١٦٨ ـ ١٧١ .

المدني ، أنشَده شيخُه هذا البيت من الشعر :

نسيتُ كلَّ طريقٍ كنتُ أَعرِفه إلا طريقاً يُؤدّيني لِرَبْعِكُمُ

فقال الإمام الدهلوي كذلك: «نسيتُ كلَّ ما قرأتُ سوى عِلم الحديث الشريف».

وتشهد حياة الإمام الدهلوي كُلّها على أنه كان منصرفاً انصرافاً كلياً إلى خدمة الحديث الشريف ، شرحِه وتفهيمه ، وتدريسِه وتعليمه ، ونشرِه وتعميمه ، ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

وقد شمَّر عن ساق الجد بعد عودته من الحجاز إلى الهند لخدمة الحديث الشريف ونَشرِه ، ولم تلبثْ «مدرستُه الرحيمية» أن أصبحتْ أكبرَ مؤسسة تعليمية في طول الهند وعرضِها ، تهافتَ عليها طلاب علمِ الحديث من أنحاء الهند وأصقاعها تهافتَ الفراش على النور ، وقد كان في هذه الأصقاع مثل «السِّند»[(١)] و«كشمير»[(٢)] من المناطق البعيدة ، أما دلهي ونواحيها وشمالي الهند فلا تسأل عنه .

وقد كان من المستفِيدينَ من هذه الدروس سوى مُسنِد الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي (الذي كان ابنَه الأكبر الفاضل والقائمَ بتكميل أَعماله وجهوده وتوسيع نطاقها) مفخرةُ الهند العلامةِ السيد مرتضى البَلْكَرَامِي المعروف بالزَّبَيْدِي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥هـ) صاحب «تاج العروس شرح القاموس»

---

(١) لقد ورد الشيخ محمد معين من السند إلى دلهي ، ودرس الحدث على الإمام الدهلوي واستفاد منه ، وكتابه «دراسات اللبيب في الأسوة الحسنة بالحبيب» معروف ، ينجلي فيه ذوق الإمام الدهلوي ومنهج بحثه وتحقيقه ، توفي عام ١١٦١هـ (انظر «نزهة الخواطر» ، جـ: ٦).

(٢) كان الشيخ خواجه محمد أمين الكشميري من خواص تلامذة الإمام الدهلوي والجملة الدعاة لمشربه وبحوثه وتحقيقاته ، وهو معروف بمحمد أمين الولي إلٰهي ، وقد كان الشيخ عبد العزيز أحد تلامذته وقد ألف الإمام الدهلوي بعض رسائله (انظر «نزهة الخواطر» ج٦).

و«إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين» الذي دوَّى صيتُ تَبحُّره في العلم وتحديثه في العالم العربي، وكان مجلسُه بالقاهرة يضاهي مجالس الملوك والسلاطين.

وكان من خريجي هذه المدرسة بيهقيُّ عصره القاضي الشيخ ثناء الله البَانِي بَتِي (ت ١٢٢٥هـ) خليفةُ الشيخ الجليل مِرْزا مظهر جان جانان، ومؤلِّف «التفسير المظهري» و«ما لابد منه»[١].

وهكذا أصبح عِلمُ الحديثِ في الهند ـ بعد قرون، ولعله لأول مرة ـ قد نَفقتْ سوقُه وقامت دولته، وأقبلَ عليه الناس إقبالاً عظيماً حتى ظلَّتِ الهند تباهي اليمنَ الميمون، وبدأت نفحاتُها الرَّخية المنعِشة تصلُ إلى أرض الحجاز نفسِها[٢]، وقد أنشد النَّواب العلامة السَّيد صدِّيق حَسن خان [القَنُّوجِي] في ذكر الإمام الدّهلوي وخدمته للحديث الشريف، ونشاطاتِه في القيام بنشره، بيتين من الشعر البليغ، يُصوِّرانه تصويراً حقيقياً:

مـــن زارَ بَـــابَـــك لـــم تبـــرحْ جَـــوارحُـــه
تَـــروي أحـــاديـــثَ مـــا أوْليْـــتَ مـــن مِنَـــنِ
فـــالعيـــنُ عَـــنْ قُـــرَّةٍ، والكَـــفُّ عَـــن صِلـــةٍ والـ
ـقَلْـــبُ عـــن جـــابـــرٍ والسَّمْـــعُ عَـــنْ حَســـنِ

ومِن الطريف أنَّ المِنن التي ذكرتها هذه الجوارح وأشادتْ بها، والأسماءَ التي أشارتْ إليها في هَذا الصدد، كلُّها أسماءُ رواة الحديث والشيوخ المحدثين، مثل قُرة بن خالد السَّدوسي، وصِلة بن أشيم العدوي، وسيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه، والحسن البصري رحمهم الله أجمعين.

---

(١) نزهة الخواطر: جـ: ٧.

(٢) وقد أقام الشيخ إسحاق الدهلوي والشيخ عبد الغني المجددي من خريجي هذه المدرسة وتلامذة الإمام الدهلوي حلقات دروس الحديث الشريف في الحرمين الشريفين، وانتفع بهم خلائق من العرب والعجم. (انظر للتفصيل «نزهة الخواطر» جـ: ٧).

خَدماتُ الإمام الدهلوي التأليفيةُ في علوم الحديث:

إنَّ المؤلَّفات التي خلّفها الإمام الدهلوي في الحديث وعلوم الحديث، نُورِد أسماءها فيما يلي:

١ ـ «المصفَّى» (شرح موطأ الإمام مالك بالفارسية).

٢ ـ «المسوَّى» (شرح الموطأ المختصر بالعربية).

إنَّ المنهج الذي كان الإمام الدهلوي يُريد ترويجه في فقه الحديث ودروسه يُمثِّله هذان الكتابان خيرَ تمثيل، وتتجلَّى فيهما مكانةُ الإمام الدهلوي الاجتهادية وطولُ باعه في فقه الحديث وعلومه، أنه كان يضع «الموطأ» على الدرجة الأولى من الكتب الستة، وكان مُعجباً بـ«الموطأ» غاية الإعجاب، وكان يدعو ـ بحماس وقوة ـ إلى العناية اللائقة به وتقديمه في البدء بتدريس الحديث(١).

يَقول الإمام الدهلوي في «وصاياه»:

«عندما يَحصُل التمكُّن من العربية، فلْيَدرُس الموطأ برواية يحيى بن يحيى المصمودي، ولا يعرضنَّ عنه أبداً، فإنه أصلُ علم الحديث وتدريسُه يحمل فوائد جمة، وقد حصلَ لنا سماع الموطأ كلِّه بالرواية المتصلة»(٢).

٣ ـ «شَرح تراجم الأبواب لصحيح البخاري»: هذه رسالة في شرح تراجم أبواب البخاري التي اعتُبرت ـ دائماً ـ أدقَّ شيءٍ وألطفه في دروس البخاري، وقدَّم شُرَّاح صحيح البخاري ومدرّسوه ـ في كل عصر ـ أمثلةً لذكائهم ودقتهم وتعمقهم فيه، وهذه الرسالةُ بالعربية، كانتْ طُبعت أولاً عام ١٣٢٣هـ بـ«دائرة المعارف العثمانية» حيدر آباد ثم ضمت ـ كمقدمة ـ إلى نسخة «صحيح

(١) انظر مقدمة «المصفى»، ومقدمة «أوجز المسالك»، «الفائدة الثانية في درجة الموطأ من بين كتب الحديث»، للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، ص: ٣٢ ـ ٣٣، طبع مطبعة السعادة بمصر (١٣٩٣هـ).

(٢) الوصايا: (بالفارسية) ص: ١١.

البخاري» التي طُبعت بأصح المطابع بدلهي[١].

مجموعة الرسائل الأربعة: تَشتمل على:

٤ ـ «الإرشاد إلى مهمات الإسناد».

٥ ـ «تراجم البخاري» وهي غير «شرح تراجم الأبواب للبخاري» وجاءت في ورقةٍ واحدة.

٦ ـ «الفضل المبين في المسلسل من حديث النبي الأمين».

٧ ـ و«النوادر من حديث سيد الأوائل والأواخر».

٨ ـ و«الأربعين»، وقد ألَّف الإمام الدهلوي هذه الأربعين لما وَرد في فضل حِفظها وتبليغِها إلى الناس من أحاديث، وعمل بها العلماءُ في مختلف العصور، والأحاديثُ التي اختارها الإمام يَنطبق عليها أنها «قليلةُ المبنى كثيرةُ المعنى»، وهي جديرة بأن تُحفظ عن ظهر قلب، وتُقرَّر دراستها في المدارس.

٩ ـ المُسَلْسَلات.

* * *

وأمَّا الكُتب التي ليست في فنِّ الحديث رأساً وأساساً، ولكنْ لها علاقةٌ بعلم الحديث، وينبغي أن تُدرس كمقدمة لفن الحديث، ويقدَّر منها ما كان يمتاز به الإمام الدهلوي منَ نظرة عميقة فاحصة في علم الحديث، وتوفيق بين الحديث والفِقه وإنصاف درجاته، صدر في المقارنة بين المذاهب، وسعةِ نظر في طبقات المحدثين وطبقاتِ كتب الحديث، واتزانٍ وتوسُّط واعتدال في عامة الأحوال، الصفاتِ التي وهبها الله إياه، فهذه الكتب حسب ما يلي:

١ ـ «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف»: جاءت محتويات هذا الكتاب

---

(١) وهي موجودة في رسالة «تراجم أبواب البخاري» أيضاً للشيخ العلامة محمد زكريا الكاندهلوي (ت١٤٠٢هـ).

في عدة مباحث بعنوان التتمة الثانية في «حجة الله البالغة» وتمتد من صفحة ١٤٠ إلى صفحة ١٦٢[١] ، وتشتمل التتمة على أربعةِ أبواب ، وقد حقَّق ناشر الكتاب أن هذه التتمة لم تُوجد إلّا في نسخة واحدة من نسخ «حجة الله البالغة» ، ويقول الإمام الدهلوي في آخر هذه الأبواب:

«. . . فَعزمتُ على تأليف كتاب أُسمِّيه «غايةَ الإنصافِ في بيان أسباب الاختلاف» ، وأبيِّن فيه هذه المطالب بياناً شافياً وأكثر فيه من ذكر الشواهد والأمثال والتفريعاتِ مع المحافظة على الاقتصاد بين الإفراط والتَّفريط في كلِّ مقام والإحاطة بجوانب الكلام وأصولِ المقصود والمَرام ثم لم أتفرَّغ له إلى هذا الحين ، فلما انجرَّ الكلام إلى مأخذ اختلاف حملني ما أجد على أن أُبين بعضَ ما تيسر من ذلك»[٢].

وَيبدو أنَّ الإمام الدهلوي وَجد الفرصة بعد ذلك ، فأَفرد هذا الموضوع في رِسالة مُستقلة باسم «الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف» ، ولذلك يُوجد بين هذه الرسالة و«حجة الله البالغة» اختلافٌ يسير ، وحذْفٌ وتغيير في بعض المواضع.

وقد طُبعتْ هذه الرسَالة في الهند وخارجها عدةَ مرات ، وتوجدُ بين هذه النسخ بعضُ الخلافات في بعض الألفاظ ، فكانتْ طبعتُها الأولى في الخارج صادرة من «شركة المطبوعات العلمية» عام ١٣٢٧هـ ، ثم نشرته «مكتبة المنصورة» ثانياً ، وبين أيدينا الآن نسخة جيدة من طبع «دار النفائس» بيروت ، وقد جاءت في مئة وإحدى عشرة صفحة بالقطع الصغير ، وقد قام المحدِّث الجليل في عصرنا الحاضر الشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة بمقابلتِه وتصحيحه والتعليقاتِ عليه.

٢ ـ «عَقْد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد».

---

(١) انظر نسخة المكتبة السلفية ـ لاهور.

(٢) حجة الله البالغة: ص: ١٦١.

٣ ـ «المبحث السابع[١] من حجة الله البالغة».

والحقيقةُ أنه من القسم الثاني في بيان أسرار ما جاء عن النبي ﷺ تفصيلاً في الجزء الأول من «حُجة الله البالغة»، إلى نهاية الجزء الثاني منه ليس إلا شرحاً كلامياً حكيماً للحديث الشريف ومحاولةً اجتهاديةً موفقةً للكشفِ عن أسراره وحِكمه، وتطبيقهِ العملي الذي لم يكن إلا نصيبَ الإمام الدهلوي، وقد حاز فيها قَصَب السَّبق ونال القَدح المعلّى، ومن المؤسف أنَّ الدارسين لـ«حجة الله البالغة»، والمدرِّسين له (على أنهم أقلُّ من قليل) يُغفلون هذه المباحث ولا يتفطَّنون لأهميتها وشأنها.

التَّوفيقُ بين الفِقه والحَديث:

لقد كان الفقهُ والحديث في كثير من الأوساط العلمية والدراسية والتأليفية في العالم الإسلامي ينتقلان منذ عصر طويل في سلسلتين مواجهتين، وكان كلُّ واحد منهما في محله (من حين ظُهوره واشتداد ساعدِه) يقطع طريقه في غنىً وانصراف عن الآخر، وكانا بعدَ هذا الفراق في كثير من الأحيان لا يجتمعان عند أي نقطة من النقاط، ولم يكن يُبحث في الحديث في كثير من المذاهب الفقهية إلا إذا كانتْ مسألةٌ فقهية تحتاج إلى تأييد من حديث أو كانتْ لها حاجةٌ إلى دفعِ اعتراض من اعتراضاتِ علماء المذهب الفقهي الثاني، وتصريحهم بأنَّ هذه المَسألة مخالفةٌ للحديث أو إذا كان القصدُ ترجيح مذهب على مذهب.

وكانوا في دروس الصِّحاح الست إما أن يَتأولوا تلك الأحاديث التي تُخالف مذهبهم، أو يُقدِّموا الأحاديث الأخرى من الكتب الأخرى التي تؤيد مذهبهم، وإذا كان هناك استدلال في واحد من كتب المذاهب الفقهية المعتبرة المُهتمة بالأحاديث، فإنَّ العلماء الذين قاموا ـ ممَّن لهم اطلاعٌ واسع على علوم الحديث، ويملكون ذَوق المحدثين ـ بمحاولةِ تخريج هذه الأحاديث والكلامِ

(١) حجة الله البالغة: ص: ١٢٨ ـ ١٥٤.

عليها كالمحدِّثين النقاد[١] ، فهذه المحاولة الطيبة كذلك كانتْ إحدى الطرق والوسائل لتأييد ذلك المذهب الفقهي والانتصارِ له، وإثباتِ أنَّه موافق للأحاديث وخدمة علمية وتحقيقية لذلك المذهب، وهي تستحق الشكر والتقدير، ولكنها لم تكنْ مُحاولةً لإعادة النظر في المسائل نفسها والتوفيق بين الفقه والحديث.

وقد تكوَّنتْ للمذاهب الفقهية قوالبُ من حديدٍ ، كان من المُمكن كسرُها[٢] ، ومن المستحيل مدها وبَسطُها ، وكان أتباعُ كل مذهب قد اعتقدوا في أنفسهم أَن صحَّة مذهبهم مئة في المئة ، وهي الحقيقة الأصيلة ، وأما إمكان الخطأ البشري فمحتمَل ، وقد عبَّر بعضُهم عن هذه النظرية بهذه الألفاظ البليغة : «مَذهبُنا صوابٌ يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأٌ يحتمل الصواب» .

وقد كان من نتيجة هذه الوجهة للنظرِ أن المذاهب الأربعة (الحنفي ، والمالكي ، والشافعي ، والحنبلي) التي أجمعتْ على قَبولها الأمة ، وسُلم ـ أصولياً ـ بين أهل الحق وأهلِ العلم من أولِ عُهودها فيما يتعلَّق بها بأن الحق دائرٌ فيها وأن أئمتها ومؤسِّسيها إنما هم أئمة الهدى وقادةُ الأمة وأنَّ هذه المذاهب حق ، يتَّسع بينها الخليج ويعمُق ، ويَنجرُّ الخلاف بين أتباعها إلى التباغض ، والبحثُ والنقاش بعض الأحيان إلى المخاصمة والمقاتلة ، وكان أدهى من ذلك وأمرُّ مُعاملتهم مع أولئك العلماء الذين يبدؤون العمل بالحديث ـ كلياً أو جزئياً ـ في العبادات .

---

(١) من أمثلته الرائعة كتاب العلامة الزَّيلعي : «نَصب الراية في تخريج أحاديث الهداية».

(٢) أي أنه توجد أمثلة الانتقال من مذهب إلى مذهب من الحنفية إلى الشافعية أو العكس ، أو اختيار مذهب العمل بالحديث في كل عصر ، أما العدول عن بعض المسائل جزئياً مع البقاء في نطاق المذهب وحدوده ، واختيار مسألة أخرى من مذهب آخر ، أو العمل بالحديث ، فأمثلته قليلة جداً ، وذلك لأن كثيراً من العلماء يرون «تجزيء التقليد» غير جائز ، أي إذا علم إنسان بمسألة من مذهب فقهي ثم عمل بأخرى من مذهب فقهي آخر فإنه يخرج عن تقليد الأول ، وذلك عندهم غير صحيح.

ومن أمثلة هؤلاء أحد علماء القرن الثاني عشر ، العالم السلفي المحدّث الشيخ محمد فاخر الإله آبادي (١١٢٠ ـ ١١٦٤هـ) الذي تعرض (حسب رواية بعض المؤلِّفين) لسَخطِ العامة وغَضبِهم لِسَلفيَّتِهِ واتِّباعه للحديث[١].

لقد كانتْ هذه مأثرةٌ من مآثر الإمام الدهلوي التجديدية ، وحلقةً ذهبية رائعةً في سلسلة خِدمته للحديث الشريف وانتصارِه للسنة السنية أنْ قام بمحاولة التوفيق بين الفقه والحديث ، ثُم محاولة الجمعِ والتأليف بين المذاهب الأربعة ، وهذا يدلُّ على صِدق تلك البِشارة التي تلقاها الإمام الدهلوي ، وقيل فيها :

«إنَّ مراد الحقِّ فيك أن يجمع شملاً من شَمل الأمةِ المرحومةِ بك»[٢].

أمَّا فيما يَتعلَّق بشِبه القارة الهندية ، فإننا لا نعثر قبل الإمام الدهلوي على مُحاولة خدمةِ الجمع والتوفيق بين الفقه والحديث ، والجمعِ بين المذاهب على أساس الحديث، ويرجعُ ذلك إلى أسباب تاريخية وعلمية .

إنَّ شبه القارة الهندية دامتْ من أول عهودها الإسلامية تحتَ سلطة أولئك الفاتحين والمؤسِّسين للحكومات والدول الذين كانوا تركيي الأصلِ أو أفغانيي الأصل ، وكلا الشعبين من عهد اعتناقِهما للإسلام ـ تقريباً ـ يحتَضنانِ المذهب الحنفي ويتحمَّسان وينشَطان للدفاع عنه ونشره ، وأنه لم يُقدَّر هنا للمَذهب المالكي والمَذهب الحنبلي في التاريخ الإسلامي الممتد على ثمانية قرون أن يَدخلا في هذه البلاد ، أما المذهب الشافعي فكان لا يعدو بعضَ المدن الساحلية أو جنوب الهند بـ «مَدْرَاس» أو طرفه الشمالي (كَرْنَاتَك حالياً) ببعض أجزائه كـ «بَهتكَلْ» وغيرها ، و«كَيْرَالا» ، ولم يَنبُغ فيهم ـ في حدود علمنا ـ باستثناء «مَالاَبَار» (بلاد المعبر قديماً) التي وفد إليهم دعاة الإسلام من التجار والمشائخ والعلماء والفقهاء الذين كانوا من أتباع المذهب الشافعي فقهاء

(١) انظر لترجمة الشيخ فاخر الإله آبادي «نزهة الخواطر» جـ: ٦ .

(٢) فيوض الحرمين: ص: ٦٢ .

ومحدِّثون شافعيون مرموقون ، عدا الشيخ المخدوم الفقيه علي المهائمي (ت ٨٣٥هـ) مؤلف تفسير «تبصير الرحمن وتيسير المنان» وشيخ «مالابار» المخدوم إسماعيل الفقيه السكري الصديقي (٩٤٩هـ) كذلك المخدوم الشيخ زين الدين المليباري (ت ٩٢٨ هـ) مؤلف «فتح العين»[(١)] ، الذين يَتركون تأثيرهم على الأوساط العلمية في الهند (لا سيما شمالي الهند) ويَحمِلون العلماء الأحناف على دراسة الفقه الشافعي العميقةَ والاستفادةَ منه .

وأمَّا العلماءُ وطُلاَّبُ علوم الحديث والفقه الذين كانوا يَرحلون من الهند إلى الحجاز ؛ الذي كان تحت إدارة الدولة التركية (والأتراك لم يزالوا ـ في كل عصر ـ سُنّيين وحنفيِّين مئة في مئة) فكانوا أيضاً يتَّصلون بالعلماء الذين هم على مذهبهم وخاصَّة بأساتذة الفقه والحديث من مواطني بلادهم الذين هاجروا إليها من الهند وأفغانستان ، وكان تلامذتهم عدداً كبيراً[(٢)] .

لقد كان الإمام الدهلوي أول شخصٍ تتلمذَ في الحرمين الشريفين على محدِّث شافعي جليل كالشيخ أبي طاهر الكردي المدني ، واستفاد منه استفادة كبيرة ، وكان مُعجَباً بعلمه وشخصيته ، وكماله الباطني ، وسعة نظره ، ورحابة صدره وتأثَّر به في هذه النواحي ، وإنَّ شيوخ الإمام الدهلوي في الحرمين الشريفين الذين تَرجمَ لهم في كتاب «إنسان العين» لم يكن فيهم من العلماء المحدِّثين الحنفيةِ إلا الشيخ تاج الدين القلعي ، وكان من هؤلاء الشيوخ الشيخ محمد وفدُ الله بن الشيخ محمد بنِ محمد بنِ سليمان من المالكية .

وإنَّ العهد الذي عاشه الإمام الدهلوي في الحرمين الشريفين كانتْ فيه القيادة العلمية والسيادة والريادة في مجال التعليم والتدريس (لاسيَّما في

(١) انظر للتفصيل كتاب «عرب وديار هند» للشيخ خواجه بهاء الدين الأكرمي الندوي البهتكلي ، والكتاب في باللغة الأردوية .

(٢) أمثال العلامة الشيخ علي المتقي البرهان بوري صاحب «كنز العمال» ، والعلامة قطب الدين النهروالي ، ومُلا علي القاري الهروي المكي ، والشيخ عبد الوهاب المتقي ، والشيخ محمد حياة السندي ، وغيرهم .

تدريس فن الحديث الشريف) بأيدي العلماء والمُحدثين اليمنيين أو المحدثين الكُرديين ، وكانوا ـ بصفة عامة ـ شافعيةً ، لأجلِ هذه العوامل كلها ، تهيأتِ الفرصة السانحةُ للإمام الدهلوي للاطلاع على أصول الفقه الشافعي وقواعدِه ، وخصائصه ومميزاته ، كما قُيّض له أن يتعرف على الفقه المالكي والفقه الحنبلي من عُلمائهما ، الأمرُ الذي لم يتيسّر لعلماء الهند ـ منذ مدة طويلة ـ (لأسبابٍ تاريخية وسياسيةٍ وجغرافية ومدنية) كما أمكنَ له الدراسةُ المقارنةُ للمذاهبِ الأربعة التي لم تكن تتيسر لأولئك العلماء الذين لم تُواتهم هذه الفُرص السانحة.

لقد رَحل الإمامُ الدهلويُّ إلى الحجاز عام ١١٤٣ هـ وهو في الثلاثين من عمره ، وكان قد دَرس في الهند اثني عشر عاماً ، ولكن لِما أودع الله تعالى في طبعه من جامعية واتّزان وسعةٍ في الأفق ورحابةٍ في الصدر ، ونزعة تطبيقية توفيقيةٍ موهوبة، وَميل طبعي إلى الجمْع والوصل، لا الفَرق والفصل ، لذلكَ فإنه قبلَ رحلته إلى الحجاز أيضاً كان يحمل الاتجاه إلى التطبيق والتوفيق بين الفِقه والحديث ، وكان قد عَزم على ترجيح مَسلك المحدّثين الفُقهاء، واختيارِه مسلَكه وطريقَه في الحياة، يقول في «الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف»:

«وبعدما طالعتُ كُتبَ المذاهب الأربعة وأصولَها ، ونظرتُ في الأحاديث التي يتمسَّكون بها ، اعتزمتُ على طريق الفقهاء المحدِّثين بإشارة نور الغيب وإيحائه»[1].

وقد انتقدَ الإمام الدهلوي طريقَ الفقهاء الغُلاة في مذهبهم (الذين لا يستطيعون أن يَنحرفوا عن مذهبهم قيدَ شعرة) ، والفرقةَ الظاهرية (التي تُنكر الفقه المذهبي ـ رأساً ـ ويُطلق لسانه في أولئك الفقهاء الأجلّة الذين هم رأس العلماء وأئمةُ أهل الهدى وقادةُ أهل الدين) انتقاداً شديداً ، وأبدى سَخَطه

(١) الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف: ص: ٤.

ونُفورَه من مغالاة الطَّبقتين وشِدَّتهم وتطرفهم ، وصرَّح بكل وضوح «بأن الحق أمر بَين بَين» لا الفريقُ الأول على الحق الصَّرف ، ولا الثاني على المُبين.

يقول الإمام الدهلوي في كتابه «حجة الله البالغة»:

«إنَّ التخريج على كلام الفقهاء وتَـتَـبُّع لفظِ الحديث لكلٍ منهما أصلٌ أصيلٌ في الدين ، ولم يزلِ المحقّقون من العلماء في كل عصر يأخذون بهما ، فمِنهم من يُقلّ من ذا ويُكثر من ذاك ، ومِنهم من يُكثر من ذا ويُقلّ من ذاك ، فلا يَنبغي أن يُهمل أمرٌ واحد منهما بالمرة كما يفعله عامَّة الفريقين ، وإنما الحقُّ البَحْتُ أن يطابق أحدهما بالآخر وأن يُجبر خَللُ كُلٍّ بالآخر ، وذلك قولُ الحسن البصري»[١].

ويقول في «وصاياه»:

«يَنبغي في المسائل الفرعية اتّباعُ أولئك العلماء المحدّثين الذين يَجمعون بين الفِقه والحديث ، ولابُدَّ من عرض المسائل الفقهية على كلام الله تعالى وحديثِ رسول الله ﷺ».

ويزيد قائلاً: «ولا غِنى للأُمة في أي عصر من العصور ، عن عَرْض المسائلِ الاجتهادية على الكتاب والسنة»[٢].

لقد كانتْ نشأةُ الإمام الدهلوي وتَربيته في بيئةٍ يسودُ فيها الفِقهُ وأصولُ الفقه الحنفي ، وكان مُطلعاً على خصائصِ المذهب الحنفي ، ومُعترفاً بها كأيِّ عالم حنفي كبير ، وكان يَعرف هذه الحقيقة ، ويُصرِّح بها في كثير من المواضيع أن الخدمة التي قام بها العلماء للمذهب الحنفي (كذلك للمذهب الشافعي) ـ لأسبابٍ وعوامل تاريخية وعلمية وسياسية ومدنية متعددة ـ وما بذلوه من

---

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٥٦ ، وانظر للتفصيل مبحث «حكاية حال الناس قبل المئة الرابعة وبعدها».

(٢) الوصايا (بالفارسية): ص: ٢ ـ ٣.

جهودٍ في تهذيبه وتنقيحه وشرح مُتونه ، والتفريع على أصولِه لم يتيسَّر لمذهبٍ آخر.

يَقول عن الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى:

«كانَ عظيمَ الشأن في التخريج على مذهب إبراهيم وأقرانِه ، دقيقَ النظر في وُجوه التخريجات ، مُقبِلاً على الفروع ، أتمَّ إقبال»[١].

ولكنَّه مع ذلك يَعترف بعظمة الإمام مالك وجَلالة شأنِه ، وبِصحَّة كتابه «الموطأ» ، ومنزلتِه الرفيعة العالية وفوائِده الغالية ، ويَدعو إلى الاعتراف بها ، ويَرى أنه من الكُتب الأساسية الأولى في الحديث[٢] ، كما يَصف ـ في جانب آخر ـ المذهبَ الشافعي بأنه مُصفى ومُنقح وأقربُ إلى الحديث في ثَناء وإطراء ، ويَعترفُ بدِقَّة نظر الإمام الشافعي أيما اعتراف[٣] ، ثم يذكر الإمام أحمدَ بن حنبل فيقول في «حُجة الله البالغة»:

«وكان أعظَمهم شأناً وأوسعَهم رواية ، وأعرَفهم للحديث مرتبةً ، وأعمقَهم فقهاً ، أحمدُ بن حنبل ، ثم إسحاق بن رَاهُوَيه»[٤].

لقد كان الإمام الدهلوي ، لاطِّلاعهِ المباشر على مكانة هؤلاء الأئمة الأربعة ، وجلالةِ شأنهم وسَعةِ علمهم ودِقَّة نظرهم ، ومنَّتهم الجليلة على الأمة (عن طَريق كُتبهم وكُتب التاريخ والتراجم) وحُبِّهم وإجلالهم من أعماق القلب ، من الجامعية والتَّبحُّر والاتزان والتوسط في الدراسة المقارنة للفقه والحديث ، ما لا يُتوقع ـ بطبيعة الحال ـ من أولئك العلماء والمؤلِّفين الذين انحصرتْ دراستهم وصِلتهم العقلية والفكرية في تطابقِ مذهب فقهي واحد ، وبواضِعه ومؤسسه الأول ، ولا تتيسَّرُ لهم أي فرصة للخروج ـ لأسبابٍ طبيعية وشخصية كثيرة ـ من هذه الدائرة المحدَّدة.

---

(١) الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف: طبع دار النفائس بيروت ، ص: ٣٩.
(٢) انظر مقدمة «المصفى».
(٣) انظر «الخير الكثير» ص: ١٢٤ ، و«قرة العين» ص: ٢٤٢ ، للإمام الدهلوي.
(٤) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٥٠.

نُقطةُ التَّوسطِ والاعتدالِ بين التَّقليد والاجتهاد:

إنَّ من فضائل الإمام الدهلوي الموهوبة ومميزاتِه التجديدية التي خصه الله تعالى بها ، هو ذلك المسلك المتزن المتوسط ، وَتِلك النقطة المتَوسطة التي اختارَها بين الاجتهاد والتقليد ، والتي هي دليلٌ ساطع رائعٌ على طبيعته السليمة المتزنة وذَوقهِ الصحيح وواقعيته ، فقد كانَ هناك فريقٌ يكلِّف كلَّ مسلم ـ سواء كان عامياً أو عالماً ـ بالعمل وفق الكتاب والسنة واستفادة الأحكام والمسائل الشرعية منهما مباشرة ، ويُحرِّم التقليدَ تحريماً مطلقاً ، وهُم وإنْ كان كلامُهم لا يُصرِّح بهذا الموقف ، فإنَّ منهجهم في العمل وكتاباتِهم تؤدي ـ طبعاً ـ إلى هذه النتيجة ، وقد كان في المتقدمين من هذا الفريق والمتَحمِّسين لهذا الموقف العلامةُ ابنُ حزم ، ولكنَّ هذا الموقف غيرُ عملي وغيرُ واقعي ، وإن تكليفَ كل مسلم بذلك تكليفٌ بما لا يُطاق.

وكان ـ في جانب آخر ـ فريقٌ يوُجب على جميع المسلمينِ التقليدَ ويَصف من يَخلع رِبقته من التقليد بهذه الأحكام الفقهية الشديدة بـ «الفَاسق» و«الضَّال» ، كما يَصفُ الفريقُ الأول بذلك جماعةَ المقلدين والمتبعين لمذهب فقهي خاصٍّ ، وكان هذا الفريقُ يَتناسى أن التقليد إنَّما هو طريقةٌ تنظيمية إدارية لصيانةِ العامة من الناس من اتباع النفس والهوى ، والقولِ بالرأي ، وحمايةِ المجتمع المسلم من الفوضى والاضطراب ووسيلة لإيجاد الوحدة والنظام في الحياة الدينية العملية ، وتَيسير العمل بالأحكام الشرعية ، ولكنَّهم جعلوا هذا العمل التنظيمي في منزلة العمل التشريعي ، وألحُّوا عليه بشدة وتأكيدٍ غليظ ، نقلَه من كونه مذهباً فقهياً ومسألةً اجتهادية فحسب إلى كونه نصاً ظاهراً ، وعملاً قطعياً وأمراً دينياً مستقلاً.

إنَّ المنهج الذي اختاره الإمام الدهلوي وما عبَّر به عن ذلك ، هو أقربُ إلى روح الشريعة ، وأكثرُ انسجاماً مع منهج القرن الأول وأوفقُ بالفطرة البشرية ، وأمسُّ بالحياة العملية.

ويذكُر الإمامُ الدّهلوي ـ في هذا الصدد ـ طريقةَ العمل السائدة قبلَ القرن الرابع الهجري ، ويَشرح كيف كان الناس يَحلُّون مسائلَهم الجديدة الطريفةَ ومشاكلهم العارضة في حياتهم الدينية وعباداتهم ومعاملاتهم ، وما هو الطريقَ الذي كانوا يختارونه ويسلكونه ، يقول في باب «حكاية حال الناس قبل المئة الرابعة وبعدها» من «حجة الله البالغة» :

مَنهجُ المُسلمين في القُرون الأولى:

«اعْلم أنَّ الناس كانوا قبل المئة الرابعة غير مُجمعين على التقليد الخالص لمذهب واحد بعينه ، قال أبو طالب المكِّي في «قوت القلوب»: إنَّ الكُتب والمجموعات محدَثة ، والقولُ بمقالات الناس والفُتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذُ قوله والحكايةُ له من كُل شيء ، والتفقُّه على مذهبه لم يكن الناس قديماً على ذلك في القرنين الأول والثاني» .

أقول: وبعد القرنين حدثَ فيهم شيءٌ من التخريج غير أن أهل المئة الرابعة لم يكونوا مُجتمعين على التقليد الخالص على مذهبٍ واحد والتفقُّه له والحكايةِ لقوله كما يظهر من التتبع ، بل كان فيهم العلماء والعامة ، وكان من خَبر العامة أنَّهم كانوا في المسائل الاجتماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو جُمهور المجتهدين لا يُقلِّدون إلا صاحبَ الشرع ، وكانوا يتعلَّمون صفة الوضوء والغَسل والصلاة والزكاة ، ونحو ذلك من آبائهم أو معلمي بُلدانهم ، فيمشون حَسب ذلك ، وإذا وقعتْ لهم واقعة استفتَوا فيها أيَّ مُفْتٍ وَجدوا ، من غير تَعيينِ مذهبٍ.

وكان من خَبر الخاصّة أنَّ أهل الحديث منهم يَشتغلون بالحديث فَيخلُصَ إليهم من أحاديث النبي ﷺ وآثارِ الصحابة ما لا يَحتاجون معه إلى شيءٍ آخر في المسألة من حديث مُستفيض أو صحيح قد عَمِل به بعضُ الفقهاء ، ولا عُذر لتاركِ العمل به ، أو أقوالٍ متظاهرة لجمهور الصحَابة والتابعين مما لا يَحسُن مخالفتها ، فإن لمْ يَجد في المسألة ما يَطمئنُّ به قلبُه لتعارض النقل وعَدمِ

وضُوح الترجيح ونحو ذلك رجعَ إلى كلام بعض مَن مضى من الفقهاء ، فإنْ وجَد قولين اختار أوثَقهُما سواءٌ كان من أهل المدينة ، أو من أهل الكوفة.

وكان أهل التخريج منهم يُخرّجون فيما لا يجدونه مصرَّحاً ويجتهدون في المذهب ، وكان هؤلاء يُنسبون إلى مذهب أصحابهم فيقال: فلان شافعي ، وفلان حنفي ، وكان صاحبُ الحديث أيضاً قد يُنسب إلى أحد المذاهب لكثرة موافقته له ، كالنسائي والبَيهقي يُنسبان إلى الشافعي ، فكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهدٌ ، ولا يُسمى الفقيه إلا مجتهداً ، ثم بعدَ هذه القرون كان ناس آخرون ذهبوا يميناً وشمالاً.

الصُّورة الطبيعيةُ المشروعةُ للتَّقليد:

ويَرى الإمام الدهلوي ـ لغاية إنصافه وواقعيته ـ أَنَّ الشخص الذي يُقلِّد مذهباً فقهياً خاصاً ، أو إماماً معيناً ، ولكنه لا ينوي إلا اتباع صاحب الشريعة ـ عليه الصلاة والسلام ـ والاقتداءَ به ، إلا أنه لا يجدُ في نفسه من القُدرة ما يُتوصَّل بها إلى الحكم الشرعي وما ثَبت بالكتاب والسُّنة مباشرة ، فله العُذر في التقليد ، ويكونُ لعدم توصله إلى الحكم ـ مباشرةً ـ عدَّةُ أسباب مثلِ أن يكون عامياً ، أو لا تتيسَّر له الفُرص للبحث والتحقيق ـ مباشرةً ـ أو لا تتوفَّر له وَسائلُ العلم والبَحث والتحقيق التي يستطيع أن يضطَّلع بها على النصوص أو يَستنبط من النصوص المسائل.

ويقول الإمام الدهلوي بعدَ إيراد قول ابنِ حزم أنَّ التقليد حرامٌ ، ولا يَجوز لأي مسلم أن يَقبل أحداً دون رسول الله ﷺ من غير دليلٍ ولا برهان:

«وليس مَحلُّ (قول ابن حزم) فيمَن لا يَدين إلا بقول النبي ﷺ ، ولا يعتقد حلالاً إلا ما أحلَّه اللهُ ورسوله ، ولا حراماً إلا ما حرَّمه الله ورسوله ، ولكن لمَّا لم يكن له عِلمٌ بما قالَه النبيُّ ﷺ ولا بَطريقِ الجمع بين المختلفاتِ من كلامِه ولا بطريقِ الاستنباط مِنْ كِلامه ، اتَّبع عالماً راشداً على أنَّه مُصيب فيما يقول ويُفتي ظاهراً ، متبعَ سنةِ رسول الله ﷺ ، فإنْ خالف ما يَظُنه أقلعَ من ساعته من

غير جِدال ولا إصرار ، فهذا كيف يُنكره أحد ، مع أن الاستفتاءَ والإفتاءَ لم يَزلْ بين المسلمين من عهد النبي ﷺ . ولا فَرقَ بين أن يَستفتي هذا دائماً أو يَستفتي هذا حيناً ، وذلك حيناً بعد أن يكون مجمعاً على ما ذكرناه ، كيف لا ولم نؤمن بفقيه أياً كان أنه أوحى الله إليه الفِقه وفرضَ علينا طاعَته وأنه معصوم ، فإن اِقتدينا بواحدٍ منهم فذلك لِعلمنا بأنه عالِمٌ بكتاب الله وسنَّة رسوله ، فلا يخلُو قوله من أن يكون من صريح الكتاب والسُّنة أو مستنبَطاً عنهما بنحو من الاستنباط ، أو عَرف بالقرائن أنَّ الحُكم في صورةٍ ما منوط بعلة كذا ، واطمأنَّ قلبُه بتلك ، فقاسَ غير المَنْصوص على المَنْصوص فكأنَّه يقول: ظننتُ أنَّ رسول الله ﷺ قال: كُلَّما وُجدتْ هذه العِلة فالحُكْم ثمةَ هكذا .

والمَقيسُ مندرجٌ في هذا العُموم ، فهذا أيضاً معزيٌّ إلى النبي ﷺ ، ولكن في طريقه ظُنون ، ولولا ذلك لما قَلَّد مؤمنٌ مجتهداً ، فإنْ بلغَنا حديث من الرسول المعصوم فرض اللهَ علينا طاعَته بِسنَد صالح يدلُّ على خلافِ مذهبِه وتركْنا حديثَه واتَّبعنا ذلك التخمين ، فمَن أظلَم منا وما عُذرنا يوم يقوم النَاس لرب العالمين»[(١)] .

ميزاتُ المَذاهبِ الأَربعـة:

يقول الإمام الدهلوي بعدَ هذا التحليل المنصِف الباحث عن هذه المذاهب الفقهية الأربعة التي يُعمل بها في العالم الإسلامي ـ بصفة عامة ـ في رسالته «عَقدُ الجيد في أحكام الاجتهادِ والتقليد» (التي هي رَغم صِغر حَجْمِها ووَجازتها كبيرة القيمة) مايلي:

«اعْلم أَنَّ في الأَخذ بهذه المذاهب الأربعة مَصلحةٌ عَظيمة وفي الإعراض عنها كُلها مفسدةٌ كبيرة ، ونحن نُبيِّن ذلك بوجوه:

أحدها: أنَّ الأُمة اجتمعتْ على أن يَعتمدوا على السَّلف في معرفة الشريعة ، فالتَّابعون اعتمدوا في ذلك على الصحابة ، وتَبعُ التابعين اعتمدوا

(١) حجة الله البالغة: جـ: ١ ، ص: ١٥٥ ـ ١٥٦ .

على التابعين ، وهكذا في كل طبقة اعتمدَ العلماء على مَنْ قبلهم .

والعقلُ يدل على حُسن ذلِك ، لأن الشَّريعة لا تُعرف إلا بالنقل والاستنباط ، والنَّقلُ لا يستقيم إلا بأن تأخذ كل طبقة عمن قبلها بالاتصال .

ولا بدَّ في الاستنباط أن تُعرف مذاهبُ المتقدمين لئلا تخرج عن أقوالهم فيخرق الإجماع ، ويَبني عليها ، ويستعينُ في ذلك كلٌّ بمَن سَبقه ، لأنَّ جميع الصناعاتِ كالصرف والنحو والطب والشعر ، والحِدادة والنجارة والصياغةِ لم تتيسَّر لأحد إلا بمُلازمة أهلها ، وغيرُ ذلك نادر بعيد لم يَقع ، وإنْ كان جائزاً في العقل .

وإذا تعيَّن الاعتماد على أقاويل السلف ، فلا بُد من أن تكون أقوالُهم التي يعتمد عليها مرويةً بالإسناد الصحيح ، أو مُدونةً في كتب مشهورة ، وأن تكون مَخدومةً بأن يُبين الراجح من محتمَلاتها ، ويُخصَّص عمومُها في بعض المواضع ، ويُقيَّد مُطلقها في بعض المواضع ، ويَجمعَ المختلف ويُبين علل أحكامها ، وإلا لم يَصحَّ الاعتماد عليها ، وليس مذهبٌ في هذه الأزمنة المتأخرة بهذه الصفة إلا هذه المذاهبُ الأربعة»[١] .

وهكذا اختار الإمام الدهلوي ذلك الموقفَ المعتدلَ المُتزن بين الاجتهاد والتقليدِ الذي يوافق مقاصد الشريعة والفطرة البشرية وعالم الحقائق وينسجمُ معها انسجاماً كلياً ، وأنه قد اشترط في التقليد أن يكون الغرض منه ـ مع العقلية الواضحة والنية الصالحة ـ اتباع صاحب الشرع ـ ﷺ ـ والالتزامُ بالكتاب والسنة ، وذلك لهذه الثقة الكاملة بأنَّ من نَجعله وساطة بيننا وبينَ الكتاب والسنَّة هو عالِمٌ بهذين الأصلين ، وليس إلا مُمثِّلاً عنهما وتُرجماناً لهما ، ثم لا بد أن يكون فيه استعداد كلَّ حين (ولو لم يقع ذلك إلا بعد مدة طويلة) بأنه إذا وثق واطمأن بأنَّ الشأن غيرُ ذلك ، وأنَّ الحكم الشرعي الثابت بالكتاب والسنة ليس ما قَرره ذلك الإمام ، فلا يتردَّدُ المؤمن في قبولِه والخضوع له .

---

(١) عقد الجيد: ص: ٣٦ ـ ٣٨.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] .

الحاجةُ إلى الاجتهادِ في كلِّ عصر:

يَرى الإمام الدهلوي ـ مع الاعتراف بخصائصِ المذاهب الأربعة وميزاتِها وخدماتِ الفقهاء المحدّثين الجليلة وعُلو منزلتهم والاعترافِ بأنَّ هذهِ الثروة الفقهية والحديثية ثروةٌ عظيمة قيمة ، يُستفاد منها ويُنتفع بها ، وأن الاستغناء والإعراض عنها مِن أسباب الخُسران والحرمان ـ أنَّ الاجتهاد ـ مع شروطه وتحفظاته الضرورية ـ حاجةُ كل عصر ، ومقتضى طبعيٌّ للتطوراتِ الحادثة في الحياة الإنسانية والمجتمع والمدنية وصلاحيةِ النشوء والارتقاء ، والحاجات البَشرية ، وتَسلسل الحوادث والوقائع إثباتٌ لسَعة الشريعة الإسلامية ، وأنَّها من الله الحكيم وأنا تملِكُ صلاحيَّة قضاء جميع المتطلَّبات المشروعة للمجتمع البشري وهداية الناس وإرشادِهم الأمرُ الذي لاَ بدَّ من إثباته والتظاهر به في كل عصر ، وهو واجب من واجبات حَملة الشريعة الأمناء ، يقول الإمام الدهلوي في مقدمة «المصفى» :

«إنَّ الاجتهاد فرضُ كفاية في كل عصر ، وليس المرادُ بالاجتهاد هنا الاجتهاد المستقل كاجتهادِ الإمام الشافعي ـ مثلاً ـ الذي لم يكن في الجرح والتعديل والعربية وغيرها في حاجة إلى غيره ، كما لم يكن تابعاً لأحد في درايته الاجتهادية (بجميع أنواعها وأقسامها) بل المرادُ الاجتهاد المنتسِب ، وهو عبارةٌ عن معرفة الأحكام الشرعية بأدلَّتها التفصيلية ، وتفريع المسائل وترتيبها على طريقةِ المجتهدين ولو كان ذلكَ بإرشادٍ من إمامٍ من الأئمة .

والذي نَقوله إن الاجتهاد في عصرنا هذا واجب (وهي مسألة إجماعية بين العلماء المحقِّقين) فوجْهُه أن المسائلَ كثيرةُ الوقوع ، ولا يُمكن حصرها واستيعابها ولا بد من معرفة حكم الله تعالى فيها ، والذي دخل في حيِّز التحرير والتدوين لا يكفي ، والخلافاتُ فيه كثيرة ، ولايُمكن حلُّها إلا بالرجوع إلى

الدلائل ، والرواياتُ المنقولة للمسائل عن الأئمة في أكثرها انقطاعٌ ، بحيث لا يَثِقُ بها القلبُ بطمأنينة ، ولذلكَ فلا مناص مِن عرضها على قواعدِ الاجتهاد وأصوله والبحثِ فيها»[١] .

* * *

(١) مقدمة «المصفى» (بالفارسية) ص: ١٢ ، طبع المطبع الفاروقي ، بدلهي.

الفصل الثالث
عَرضُ الشَّريعة الإسلاميَّة عرضاً مُبرْهناً مُتَّسِقاً والكشفُ عن مقاصدِ الحديث وأسرارهِ في ضوء «حُجَّة اللهِ البالغة»

مِيزةُ «حُجَّة اللهِ البالغة» وتفرُّده:

إنَّ كتاب «حُجَّة الله البالغة» للإمام الدَّهلوي يُعدُّ من جلائل أعماله العظيمة ومآثره العلميَّة الكبرىٰ ، التي عُرضت فيها الشَّريعة الإسلاميَّة والدِّينُ الحنيف في صورة جامعة متناسقة مُدعَّمة بالحُجج والدَّلائلِ النَّاصعة القويَّة ، وقدَّمت فيها أبوابُ الإيمان والعبادات والمُعاملات والأخلاق والاجتماع والمدنيَّة والسِّياسيَّة والإحسان بترتيبٍ وترابط ونظام ، وفي تناسق واتِّزان ، بحيث يُخيَّلُ إليك كأنَّها لآلىءُ العِقد المنظوم ، أو حلقات سلسلة مترابطة ، مع توضيح الفروق بين الأصول والفروع والمقاصدِ والغايات والوسائلِ والآلات ، وبين الحقائق الدَّائمة المُستقلَّة والأمور العارضة المؤقَّتة ، بحيث لا يغيب ذلك ـ لحظة ـ عن الأنظار ، وكثيراً ما يختلطُ الأمر بينهما في كثير من البحوث والمؤلَّفات ، بل هي علَّة قديمة شائعة في تلك الكتب والمؤلَّفات ـ بصفة خاصَّة ـ التي أُلِّفت نتيجةَ ردِّ فعلٍ لتعسُّفٍ أو مُغالاةٍ أو في فورةِ عاطفة وحماس.

ويرجع السَّببُ في هذا التَّرابط والتَّناسق ـ عدا ما وُهب الإمام الدّهلوي من

اتِّزان وتوسُّط وسلامة فطرة ـ إلى دراستهِ العميقة الواسعة لعلم الحديث الشَّريف ، وتِلك الطبيعة الخاصَّة التي تتكوَّن عن طريق الاشتغال والاهتمام بالسِّيرة النَّبويَّة والحديث النَّبويِّ ، أو عن طريق صحبة من العلماء الرَّبانيين وتربيتهم الذين تَربوا في المدرسة النَّبويَّة ، وقطرت عليهم رشحاتٌ من السِّيرة العطرة على صاحبها الصَّلاة والسَّلام.

إنَّ هذا العرضَ الجامع المتَّسق المُترابط الذي نُشاهِده في صفحات «حُجَّة الله البالغة» ينذُر نظيره في المؤلَّفات الدِّينيَّة ، وبذلك ظلَّ كتاب «حُجَّة الله البالغة»[1] علمَ الكلام الجديد الذي يَجد فيه أي إنسان يريد الحق مع سلامة الفطرة وطِيب القصد (وقد أُوتيَ شيئاً من الكفاءة العلميَّة ودقَّة النَّظر وعُمق التَّفكير) إرواءً كاملاً لغليله وزاداً كافياً لقناعته ، وطُمأنينته ، ولم يُؤلَّف كتابٌ ـ في حدود علم المؤلِّف ، وفي اللغات التي يعرفها ـ في تأييد أي ديانة من الديانات وتفسيرها اللَّبق الحكيم، وفلسفتها الجامعة المُتناسقة كهذا الكتاب في منزلته ومكانته ، وإن كان قد أُلِّف ، فإنَّه ليس بين ظهراني العلماء والباحثين في الدُّنيا العِلميَّة المعاصرة.

إنَّ عهدَ «العقلانيَّة» الخاصَّة الذي كان بعد القرن الثَّاني عشر الهجري بقليل ، قد أَوشك ـ لأسبابٍ تعليميَّة وتربويَّة ، ومدنيَّة وعقليَّة وعلميَّة وفكريَّة ـ على الظُّهور في الهند وفي العالم الإسلاميِّ كلِّه ، فَنزعَةُ البحث والتَّفتيش عن مصالح الشَّريعة الإسلاميَّة وحِكمها وأسرارها التي كادت تَعمُّ وتسود ، والتي كانت تتهيَّأ بِسببها عقولٌ كثيرة للضَّلال والانحراف وأقلامٌ كثيرةٌ للزَّيغ

(١) لقد وجد كاتبُ هذه السطور زعيمَ المغرب العلامة علاَّل الفاسي المغربي مؤلِّف «مقاصد الشَّريعة الإسلاميَّة ومكارمها»، ومعالي الأستاذ محمد المبارك ـ رحمه الله ـ من بين العلماء والباحثين المعاصرين العرب، يُشيدون بكتاب «حجة الله البالغة» أيما إشادة ويلهجون بالثناء عليه، وقد كانا معجبين بهذه النَّاحية ـ بصفة خاصَّة ـ أن هذا الكتاب يجمع بين شعب الدين كلها حتَّىٰ إنه يمثل تهذيب الأخلاق وتزكية النَّفس والإحسان أيضاً تمثيلاً كاملاً رائعاً.

والانطلاق ، وكان الحديث والسُّنَّة النَّبويَّةُ ـ بصفةٍ خاصَّة ولأسبابٍ خاصَّة ـ مُستهدفةً للشُّبهات والاعتراضات[١] ، إنَّه لم يكُن يستطيعُ أن يُواجه هذه التَّحدِّيات ويُلبِّي هذه المُقتضيات إلاَّ مَنْ يكون على علم واطِّلاع واسع على الكتاب والسُّنَّة ، وعُلوم الحكمة ، وعِلم الكلام ، وعِلم الأخلاق ، وعِلم النَّفس ، وعِلم الاقتصاد ، وعِلم السِّياسة (في حدود عصره على الأقلِّ) ، ثم يَكون عارفاً بلُباب فَنِّ التَّزكية والإحسان وجوهره وحقيقته ، بل يتمكَّن من درجة الاجتهاد فيه.

لقد كان كُلُّ ذلك يتطلَّب أن يصدرَ من قلم إمام القرنِ الثاني عَشَر كتابٌ يَفي بهذه الحاجات والمُقتضيات ، ولا يمكن أن يَصدرَ مثل هذا إلاَّ من قلم إنسان ، هو إنسان ـ على كل حال ـ وليس معصوماً ، وليس له علمٌ يُحيط بجميع العصور والأمكنة والمعلومات، ولا يَخلو ـ وإن كان أقل قليلٍ ـ عن طابع عصره وتأثير منهج التَّعليم والتَّربية عليه ـ الذي نشأ وتربَّىٰ فيه ، ولكنَّه رغم كلِّ ذلك تلميذ المدرسة القرآنيَّة وخِرِّيج معهد الحديث والسُّنَّة، وترجمانها المُبين.

يقولُ الإمام الدّهلوي وهو يذكر دوافع تأليف هذا الكتاب وعوامله:

«إنَّ أدقَّ الفنون الحديثيَّة بأسرِها عندي وأعمقَها مَحتداً ، وأرفعِها مناراً ، وأولىٰ العلوم الشَّرعيَّة عن آخرها فيما أرىٰ ، وأعلاها منزلةً وأعظمها مقداراً ، هو علم أسرارِ الدِّين الباحثُ عن حِكم الأحكام وخفياتها وأسرار خواص الأعمال ونُـكاتها . . . إذ به يصيرُ الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشَّرع»[٢].

دقَّةُ الموضوع وخُطورته:

ولكنَّ الموضوعَ الذي يُعالِجُ حِكم الأحكام الدِّينيَّة ، ويتعرَّضُ لمصالحها وأسبابها وعللها موضوعٌ جِدُّ دقيق وخطير ، فإنَّ أدنىٰ ميلٍ أو إفراطٍ وتفريطٍ فيه ، أو سيطرةِ نزعة خاصَّة ، أو تأثير عصر خاص ينأىٰ بذهن القارىء وعقليَّته

---

(١) يراجع للتفصيل رسالة المؤلِّف «دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته».
(٢) حجة الله البالغة: ص: ٣.

بعيداً عن جادَّة التَّعاليم النَّبويَّة ، والشَّرائع السَّماويَّة ، التي يَقصد بها أصلاً وبالذَّات رضا الله تعالىٰ والتَّقرُّب إلى جنابه الأعلىٰ ، والنَّجاة في الآخرة ، ويَنتقل به إلى طريق المصالح الماديَّة ، وتَنظيم الحياة تنظيماً فاضلاً ، والمنافع المدنيَّة والأغراض والغايات السِّياسيَّة ، وتخرج روح الإيمان والاحتساب[1] ، من هيكل الجهود والمساعي المبذولة كُلّياً ، أو تضعف وتنكمش وتبقىٰ من غير تأثيرٍ ملحوظ.

فعلىٰ سبيل المثال يمكن أن يُقال: إنَّ الحكمة في مشروعيَّة الصَّلاة أنَّها تربية عسكريَّة جيِّدة ، وأنَّها تُساعد على التَّنظيم والطَّاعة للأمير وإقامة الحكومة الإسلاميَّة ، وأنَّ الصَّوم من أنجح الوسائل للصِّحَّة البدنيَّة ، وأنَّ الزَّكاة ضريبةٌ واجبة في أموال أهل الثَّراء للفقراء ولها القيمةُ الاقتصاديَّة والاجتماعيَّة فقط ، وأنَّ الحج مؤتمر سنوي عالميٌّ يُنظر فيه إلى المسائل والمشاكل التي يُواجِهها المسلمون والتَّوصُّل إلى حلِّها فحسب.

نظراً إلى هذه الأخطار والأخطاء (التي تجاوزت حُدُودَ المُمكنات والمُحتملات إلى وقائع وأمثلة حيَّة عمليَّة) لم يكن يستطيعُ أن يقوم بهذه المُهمَّة الدَّقيقة الخطيرة إلاَّ من يُمسِك بيده أصول الدين الحنيف والشَّريعة الإسلاميَّة ، ويكون عالماً بغاية نزول الشَّرائع الإلٰهيَّة وبعثة الأنبياء والمُرسلين ، عليهم الصَّلوات والتَّسليم ، وقد تَغلغلتْ في أحشائه روحُ الإيمان والاحتساب ، وجَرتْ في عُروقه ودمائه ، وتكوَّنت عقليَّته وتربيته العلميَّة في بيئة الكتاب والسُّنَّة والإيمان والاحتساب وفي ظلالها الفَيحاء ، ولقد كان الإمام الدِّهلويُّ ـ كما علمنا ممَّا مضىٰ في ترجمة حياته ـ أجدرَ

---

(١) الإيمان هو اليقين الكامل على موعود الله تعالىٰ، والاحتساب هو نيَّة الحصول على رضا الله تعالىٰ وثوابه، وهما مصطلحان دينيان وردا في أحاديث كثيرة، منهما قوله ﷺ : «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب صوم رمضان. . . ، برقم (٣٨)، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء. . . ، برقم (٧٦٠) وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

شخصيَّةٍ وأقدرَها على الكتابة في هذا الموضوع الدَّقيق الخطير.

الحاجَةُ إلىٰ كتابٍ مُستقِلٍّ وجهودُ العلماءِ المُتقدِّمين:

يذكرُ الإمام الدِّهلوي ما بذلهُ العُلماء المُتقدِّمون من جهود في هذا الموضوع، فيقول:

«وانتهىٰ إمعان المُجتهدين إلى تَبيين المصالح المرعيَّة في كُلِّ بابٍ من الأبواب الشَّرعيَّة، وأبرز المُحقِّقون من أتباعهم نُكتاً جليلة، وأظهر المُدقِّقون من أشياعهم جُملاً جزيلةً، وخرج بحمد الله تعالىٰ من أن يكون التَّكلُّم فيه خَرْقاً لإجماع الأمَّة، أو رتَّب منه الأصولَ والفروع»[١].

وقد أشار الإمام الدِّهلويُّ ـ في هذا الصَّدد ـ إلى الإمام الغزالي، والعلاَّمة الخطَّابي، وشيخ الإسلام عز الدِّين بن عبد السَّلام ـ الذين تحتوي كتاباتهم ومؤلَّفاتهم في مُختلف المواضع على هذه المُحتويات والإشارات[٢]، وقد استدلَّ الإمام الدِّهلويُّ في الرَّدِّ على دعوىٰ أنَّ الأحكام الشَّرعيَّة لا تَشتملُ على المصالح، وأنَّه ليس بين الأعمال وما جعلَ الله تعالىٰ جزاءً لها مناسبةً بتلك الآيات والأحاديثِ النَّبويَّة التي تدلُّ على الصِّلة والمُناسبة بين الأعمال ونتائجها وتُشير إلى عِلل بعض الأحكام ومصالحها، كما ذَكر أيضاً تلك الأحاديث التي تتضمَّنُ بيان الأسباب لمشروعيَّة قُربةٍ من القُرب أو عملٍ من الأعمال، أو تكشفُ عن أسرارِ تَعيينها وتَحديدها، كما قدَّم أمثلةً لأسباب بعض المُحرَّمات والمحظورات، وحِكمها التي أُثرت عن عُمر رضي الله عنه وغيره من الصَّحابة رضوان الله عليهم أجمعين[٣].

وفنَّد تلك المزاعم والظُّنون الخاطئة وردَّ على المزاعم التي تَصفُ تدوينَ هذا العلم الدَّقيق وأداءَ المهمَّة الجليلة إمَّا مُستحيلاً، أو غيرَ نافعٍ أو صنعاً

---

(١) حجة الله البالغة ص: ٣.
(٢) المصدر السابق: ص: ٦.
(٣) المصدر السابق: ص: ٥ ـ ٦.

جديداً لم يُسبق إليه ، وبيَّن ـ بكل وضوح ـ ما هي تلك الأسباب والعوامل التي حَالتْ دُون العِناية اللائقة بهٰذا الموضوع في تلك الآونة»[1] .

وقد صرَّح الإمام الدِّهلويُّ وهو يُبيِّن الحاجة إلى تدوين هذا العلم وحكمته ومصلحته ، بأنَّ جماعةً من الفقهاء زَعموا أنَّه يجوزُ ردُّ حديثٍ يخالف القياس من كُلِّ وَجه ، فَلَزِم بيان أنَّ الأحاديث الصَّحيحة كلها تُوافق العقل والقياس[2] . وأنَّ المناهج المُتعارضة في مختلف طبقات الأمَّة . فتغاضي بعضهم عن العقل والقياس كُلِّياً ، وتجاسُر بعضِهم على التأويل والصَّرف عن الظَّاهر حيث خالفتِ الأصول العقليَّة ، وعدم التَّوسُّط والاتِّزان عند كثيرٍ من الجماعات والطَّبقات في هذا الصَّدد لا يجعل التَّدوين الجديد لهذا الفن الدَّقيق مشروعاً ونافعاً فحسب ، بل يُقرِّره خدمةً جليلة للدِّين ، وحاجةً ماسَّة من حاجات العصر .

وَعَدا هذا الشُّعور بالحاجة ، والتَّجارب العلميَّة ومُقتضيات العصر كان الإمام الدِّهلويُّ تَلقَّىٰ بشارات غيبيَّة لإنجاز هذا العمل وإشارة من حضرةِ صاحب الرِّسالة صلَّىٰ الله على صاحبها وسلَّم «إلى نوع بيان للدِّين» ، يَقول الإمام الدِّهلويُّ :

«ووجدتُ عند ذلك في صدري نوراً لم يَزل يَنفسِحُ كُلَّ حين. . . ثم رأيتُ الإمامين الحَسَن والحُسَين رضي الله عنهما في منام وأنا يومئذٍ بمكَّة كأنَّهما أعطياني قلماً ، وقالا : «هذا قَلَمُ جَدِّنا رسول الله ﷺ »[3] .

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٧.
(٢) المصدر السابق: ص: ٩.
(٣) طبع كتاب «حجة الله البالغة» أوّلاً بإرشاد من وزير بوفال ومديرها العالم التَّقي «مدار المهام» الشيخ جمال الدين (ت١٢٩٩هـ) وعلى نفقته وبعناية الشيخ محمد أحسن الصديقي (ت١٣١٢هـ) في المطبع الصديقي ببريلي عام ١٢٨٦هـ، ثم طبع ثانياً بأمر النواب أمير الملك العلاّمة السيد صديق حسن خان (ت١٣٠٧هـ) في مطبع بولاق بمصر عام ١٢٩٦هـ، وصدرت له من مصر طبعتان أخريان، ثم صدرت طبعة مصوَّرة عن الطبعة المصرية بعناية الشيخ عطاء الله حنيف من المكتبة السلفية بلاهور عام ١٣٩٥هـ الموافق ١٩٧٨م، وقد صدرت أخيراً في مصر طبعته الرابعة ونشرت بتحقيق الفاضل =

وقد كان ابنُ خال الإمام الدِّهلويِّ ، وأخو زوجته ، ومُرافقه في السَّفر والحَضر وأَخصُّ تلامذته الشيخ محمد عاشق الفلتي الذي كان أعرفَ النَّاس بعلوم الإمام الدِّهلويِّ ومعارفِه وفضائله يُلح ـ من بين أصحابه وتلامذته ـ على الإمام الدِّهلويِّ ، ويُصر عليه لإنجاز هذا العمل وتحقيقه[1] .

وبالجُملة فإنَّ الله تبارك وتعالىٰ وفَّق الإمام الدِّهلويَّ للقيام بهذه المهمَّة العظيمة ، وصدر من قلمه هذا الكتاب الجليل ، ووصل إلى أيدي العلماء والمُحقِّقين .

المَوضُوعات الأساسيَّة التَّمهيديَّةُ : التَّكليف والمُجازاة:

لقد تناول الإمامُ الدِّهلويُّ في بداية الكتاب تلك البحوثَ والمواضيعَ التَّمهيديَّة الأساسيَّة التي تُثبِتُ الحاجة إلى الهداية الرَّبانيَّة والتَّعاليم السَّماويَّة وبِعثة الأنبياء والمُرسلين ، وتعليمِهم وتربيتِهم وتزكيتهم .

والمبحثُ الأساسيُّ والأصولي الأكبر فيه ، هو المبحث الذي ذكره بعنوان «باب سرِّ التَّكليف» الذي أثبت فيه أنَّ «التَّكليف»[2] إنَّما هو إحدىٰ المُقتضيات الطَّبيعيَّة للنَّوع البشريِّ ، فإنَّ الإنسان يُسألُ بلسان استعداده وصلاحيَّته أن يُفرض عليه ما يُناسب قوَّته الخاصَّة ثم يُثابُ عليه ، ويحرمُ عليه الاستغراق في القوَّة البهيميَّة (التي أُودعت فيه) ويُعاقب عليه[3] .

وتتجلَّىٰ في هذا الصَّدد دراسة الإمام الدِّهلويِّ الدَّقيقة الواسعة للنَّوع

= المصري المعروف السيد سابق ومراجعته، ومقدمته، وترجمة المؤلف الدهلوي من دار الكتب الحديثية بالقاهرة ومكتبة المثنَّىٰ ببغداد، ولكن لم يحظَ الكتاب في التَّصحيح والتَّعليق، وتخريج الأحاديث، وبيان الإشارات حتَّى الآن ما يستحقُّه من خدمة علمية.

(١) حجة الله البالغة: ص ٤.

(٢) أي تكليف الله تعالىٰ عباده بالعمل بأحكامه وأوامره والاجتناب عن محرماته ونواهيه، وقد عبَّر عنه في القرآن الكريم بالأمانة: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢] . وانظر تفسيرها في «حجة الله البالغة» ص: ١٩ .

(٣) حجة الله البالغة: ص: ٢٠ .

الإنسانيِّ والحيوانات والنَّباتات ، كما تتجلَّىٰ معرفتُه بعلوم الطَّبيعة والطِّبِّ وعِلم النَّباتات وما أُودع فيه من الاستعدادات والصَّلاحيَّات والمُقتضيات الفطريَّة ، كلها تَطلُب ـ بلسان حالها ـ «التَّكليف الشَّرعي» والهداية الرَّبانيَّة ، ويُعبِّر الإمام الدَّهلويُّ عن ذلك بألفاظ «التكفُّف الحالي» البليغة ويزيد عليها «التكفُّف العلمي» .

إنَّه يرىٰ أنَّ الإنسان يملك ـ عدا قوَّتي العقل والنُّطق ـ شَيئين آخرين وهما : «زيادة القوَّة العقليَّة» ، و«براعة القوَّة العمليَّة» ، فليس الإنسان يمتاز عن غيرِه بوجود القُوَّة العقليَّة والقوَّة العمليَّة فيه ، بل إنَّ طبيعته تتطلَّب ـ كذلك ـ التَّقدُّم والرُّقي وعُلو الهِمَّة وتسعىٰ نحو الكمال ، ولا تشبع من شَيءٍ .

ويرىٰ الإمام الدِّهلويُّ أنَّ خَلْق الملائكة ووقوعَ الحوادث العظيمة وإرسالَ الرُّسل نتيجةٌ لهذه المطالب الفطريَّة ، وهي مَظهرٌ رائعٌ للعناية بهذا النَّوع والاهتمام به ، الذي يشمل نوعَ البشر كلّهم ، وهي من تجلِّيات الرُّبوبيَّة والرَّحمة الإلٰهيَّة ، إنَّه يرىٰ أنَّ العِبادات كأكل السِّباع للحوم ، ورعي البهائم للحشيش ، واتِّباع النَّحل لليَعسُوب ، إلاَّ أنَّ الحيوانات استَوجبتْ تلقِّي عُلُومها إلهاماً جبِلِّياً ، واستوجبَ الإنسان كَسْب عُلُومه كَسْباً ونظراً ، أو وَحياً وتقليداً[1] .

ثم يُصرِّح الإمام الدِّهلويُّ بأنَّ المُجازاة على الأعمال ، كذلك من مُقتضيات التَّكليف ، ويرىٰ لذلك أربعة أسباب :

١ ـ مُقتضىٰ الصُّورة النَّوعيَّة .

٢ ـ جهة الملأ الأعلىٰ[2] .

٣ ـ مقتضىٰ الشَّريعة المكتوبة عليهم .

---

(١) حجة الله البالغة : باب انشقاق التكليف من التقدير ، ص : ٢٠ ـ ٢٤ .

(٢) لقد تحدث الإمام الدهلوي في مبدأ الكتاب عن عالم المثال والملأ الأعلى ، إذ أنه تكرر الإحالة والإشارة إليهما في كلامه كثيراً ، ويصعب فهم كثير من الآيات والأحاديث بدون التعرف عليها ، انظر ص : ١٣ ـ ١٥ .

٤ ـ مقتضىٰ بِعثة الأنبياء ونتيجتها ، ولازمُ قضاء الله تعالىٰ بالنَّصر والتَّأييد[١].

ثم إنه يوجد لأجل اختلاف الجِبلَّة والطَّبائع في بني البشر اختلافٌ وتفاوتٌ في الأعمال والأخلاق ودرجات الفضلِ والكمال ، وقد ذكر الإمام الدَّهلويُّ في هذه المناسبة ثمانيةَ صُور لاجتماع «الملكيَّة» و«البهيمية» ونِسبتها في الغَلبة والضَّعف ، ونوعيَّة العلاقة بينها. وذكر ما يَرجح منها ، وإنَّ هذا البحث والتَّفريع من أمثلة ذكاء الإمام البالغ وقُوَّة استقرائه ودِقَّته ، ومن خصائص هذا الكتاب وميزاته[٢] ، وتتجلَّىٰ فيه الدِّراسة الممعِنة الدَّقيقة للفِطرة الإنسانيَّة وأوضاعها وأحوالها.

أَهمِّيَّةُ الأعمال وآثارُها:

يتناول الإمام الدِّهلويُّ مبحث أهمِّيَّة الأعمال[٣] وتأثيرها على المَلكات الإنسانيَّة والأشكال التي ترتّب آثارها فيها في الدُّنيا والآخرة، يقول: «وبالجملة فتؤثِّر الأعمال حينئذٍ تأثير العزائم والرُّقىٰ المأثورة عن السَّلف بهيئتها وصِفتها ، والله أعلم»[٤].

وهكذا تُعِدُّ هذه المباحثُ الأوليَّة التَّمهيديَّة ذهنَ القارىء للنَّظر في المباحث التَّالية التي تُقوم على أساس إدراك المُقتضيات النَّوعيَّة وأسباب التَّكاليف الشَّرعيَّة ، وما يترتَّبُ عليها من مُجازاة ونتائج ، ومُقتضيات الرُّبوبيَّة والرَّحمة وأهمِّيَّة الأعمال وصِلتها بهيئة النَّاس الاجتماعيَّة وعلاقتِها بالحياة البشريَّة ، والاعتراف بهذه الحقائق الغيبيَّة والعوالمِ والأشياء غيرِ المرئيَّة.

الارتِفاقَاتُ:

يُخيِّلُ إلينا من دراسة «حُجَّة الله البالغة» أنَّ أنظار الإمام الدَّهلويِّ البعيدة

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٢٥.
(٢) المصدر السابق: ص: ٢٥.
(٣) المصدر السابق: ص: ٢٩ ـ ٣٢.
(٤) المصدر السابق: ص: ٣٠.

الغَور، ودراسته العميقة الموضوعيَّة للأوضاع المُتطوِّرة والظُّروف المُتغيِّرة تفطَّنت (بفضل التأييد الإلٰهيِّ) إلى أنَّـه قد أظلَّ ذلك العهد الذي سوف يُحاولُ فيه النَّاس الكشف عن أسرار الأحكام الشَّرعيَّة لا سيَّما تعاليم السُّنَّة النَّبويَّة وإرشاداتها وحِكمها ومصالحها، ويستطلعون فوائدها العمليَّة والاجتماعيَّة والمدنية، ويَبغون ـ في الجانب الآخر ـ التَّعرُّف على الصِّلة الحقيقيَّة بين الدِّين والحياة، ويُحاولون فهمَ التَّعاليم الدِّينيَّة والهداية السَّماويَّة في المُحيط الواسع للحياة، وفي سِياق العلاقات المُشتركة بين الناس وصِلةِ الأسباب بالنَّتائج، والاطِّلاعِ على منافعها وفوائدها.

لذلك بدأ الإمام الدِّهلويُّ كتابه «حُجَّة الله البالغة» الذي أُلِّف أصلاً وبالذَّات في بيان حكم الشَّريعـة الإسلاميَّـة وأسرارِها وشرح الحديث والسُّنَّـة شرحاً عقليـاً علميّاً، ـ قبل بدئـه بالحديث عن النِّظام التَّشريعي الـذي يَشتمل على تلك الأوامر والنَّواهي التي تتعلَّق ـ أصلاً ـ بالثَّواب والعقاب والنَّجاة والفلاح في الآخرة، والتي عَبَّر عنها الإمام الدِّهلويُّ في اصطلاحه بـ«مبحث البرِّ والإثم».

بدأ كتابه بتلك المباحث والمواضيع التي تتعلَّق بالنِّظام التَّكويني في العالم والحياة البشريَّة، والتي تتكوَّن بالالتزام بها هيئةٌ اجتماعيَّةٌ صحيحةٌ ومدنيَّة صالحة.

وقد استخدم الإمام الدِّهلويُّ لذلك مصطلح «الارتفاقات»[1]، الذي لم يَستخدِمْه قَبْلَه ـ في حدود علمي ـ المُتكلِّمون والفلاسفةُ وعُلماء الاجتماع المُسلمون (بهذا الوُضوح والتَّسلسُل والاستمرار على الأقل).

---

(١) جاء في «لسان العرب» تحت أصل «رفق»: يقال للمتطبِّب مترفق ورفيق، والرفق والمرفق: ما استعين بـه، وقد ترفق بـه وارتفق، وفي التنزيل: ﴿ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦]، وهو ما ارتفقت وانتفعت به، وقد ترفق عليه وارتفق: توكأ، قال عزَّ وجل: ﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف: ٣١]. وترافق القوم وارتفقوا: صاروا رفقاء، (انظر «لسان العرب» «رفق»).

أهمِّيَّة الارتفاق:

يُراد بالارتفاق ـ عند الإمام الدِّهلويِّ ـ: اشتراكُ أفرادِ الناس في الانتفاع بعضِهم من بعض، والتَّعاوُن فيما بينهم، والمُشاركة في العمل، والتَّدابير النَّافعة لإنشاء حياة مدنيَّة مُعتدلة مُتَّزنة.

وهكذا عالج الإمام الدِّهلويُّ ناحيتي السَّعادة البشريَّة الفرديَّة والاجتماعيَّة، والحياتين الدنيويَّة والأخرويَّة.

ويَرىٰ الإمام الدِّهلويُّ أنَّ هذا النِّظام التَّكويني لا يلزم أن يُوافق النِّظام التشريعي الذي بُعث به الأنبياء فحسب، بل يَلزم أن يُمده ويتعاون معه، ويَخدم أغراضه ومقاصده، وهو أوَّل من أثبت ـ مِنْ بين عُلماء الأخلاق والمُتخصِّصين في عِلم الاقتصاد ـ صِلة عميقة قويَّة بين عِلم الأخلاق والاقتصاد، وأنَّه عِندما تنقطعُ هذه الصِّلة فإنَّ الاقتصاد والأخلاق يُعاني كلٌّ منهما أزمة شديدة تتركُ آثارها على الدِّين والأخلاق، والحياة المُطمئنَّة الآمنة، والعلاقات الطَّيِّبة القائمة بين أفراد الناس والمدنيَّة والحضارة.

ويرىٰ أنَّ أخلاق الناس الاجتماعيَّة تُعاني من الهبوط والفساد عندما يُؤدِّي بهم الجَور والعَسف إلى ضائقةٍ اقتصاديَّة أو أزمة اقتصاديَّة، وعندئذٍ يظلُّ الإنسان ـ الذي أودع الله فيه المَلكات الرُّوحيَّة السَّامية وإمكانيَّات الرُّقيِّ الكثيرة ـ في حَيرة واضطرابٍ للحصول على لُقمة عيش شأن الثَّور والحمار، ويُحرَم من جميع السَّعادات ومدارج الرُّقيِّ والكمال.

أهَمِّيَّةُ الحياة المدنيَّةِ والاجتماعيَّة وأشكالُها:

يُعَرِّف الإمام الدِّهلويُّ بالحياة المدنيَّة والاجتماعيَّة (التي يَصف مركزها بـ«المدنية») تعريفاً علميّاً لم يُسبق إلى أفضل وأجمع منه (لدىٰ الحُكماء والمؤلِّفين) إلى هذا العصر، يقول في باب «سياسة المدنية»:

«وأعني بالمدنية جماعةً مُتقاربة تجري بينهم المعاملات ، ويكونون أهلَ منازلَ شتَّىٰ»(١).

ويُعَرِّف بسياسة المدنيَّة بما يلي:

«هي الحكمة الباحثة عن كيفيَّة حِفظ الرَّبط الواقعِ بين أهل المدينة»(٢).

ثم يَزيد تعريف هذه الحياة المدنيَّة أو «المدينة» بياناً ، فيقول: «المدينة شخصٌ واحدٌ من جهة ذلك الربط ، مركَّبٌ من أجزاءَ وهيئةٍ اجتماعيَّة»(٣).

ويَنقسمُ «الارتفاق» عنده إلى قسمين:

١ ـ الارتفاقُ البدائي الضروريُّ الذي يتمكَّن منه أهل البادية أيضاً.

٢ ـ الارتفاق الاجتماعيّ أو الرَّاقي الذي يَحصلُ لأهل المصر (أهل المدينة).

ويأتي بعد هذين القسمين القسمُ الثالث ، وهو قِسم السِّياسة والإدارة ، ثم ينتج عن ذلك قسم رابع وهو قِسم الخلافة العامَّة ، ويُؤكِّد الإمام الدهلويُّ في «الارتفاق الرابع» على حفظ العلاقات المُشتركة بين أهل «الأقاليم» (أي مناطق البلاد النَّائية البعيدة) والحاجة إلىٰ هذه العلاقة (بين مُختلف المناطق) كحاجة العلاقة بين أفراد مدينة واحدة في حالتها البِدائيَّة المحدودة(٤).

صُوَرُ المَكاسب ووجُوه المعاشِ المحمودةُ والمذمومةُ:

ولا يُغفل الإمام الدهلويُّ أثناء تعرُّضه لبيان وجوه المعاش ووسائل الكسب المُختلفة ذِكر الوسائل المنافية للأخلاق والفطرة السَّليمة ، يقول:

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٤٤.

(٢) المصدر السابق: ص: ٤٤.

(٣) المصدر السابق: ٤٤.

(٤) المصدر السابق: ص: ٤٧.

«وَبقيت نُفوسٌ أعيثُ بهم المذاهب الصالحة ، فانحدروا إلى أكسابٍ ضارَّةٍ بالمدنيَّة كالسَّرقة والقِمار والتَّكدِّي»[١].

وقد صدرتْ من قلم الإمام الدهلويِّ في صدد موضوع الارتفاقات حقائقُ تُشير إلى عُمق تفكيره ، وبُعد نظره في تاريخ البشريَّة والاجتماع والمدنيَّة ، وازدهارها وهبوطها وانحطاطها ، يقول:

«كُلَّما رقَّتِ النفوس وأَمْعَنت في حُبِّ اللَّذة والرَّفاهيَّة تفرَّعت حواشي المكاسب ، واختصَّ كلُّ رجلٍ بكسب»[٢].

ويذكر الإمام الدهلويُّ فيما يضرُّ بالحياة أنْ يتَّفِق أهل المدينة على وَسيلة واحدةٍ للكسب ، مثل أنْ يشتغل كلهم بالتِّجارة وَيَدعوا الزِّراعة ، أو يكسبوا قوتهم عن طريق الحروب والغارات ، إنَّ الزِّراعة ـ عنده ـ كالطَّعام ، والصِّناعة والتِّجارة والنِّظام والإدارة كُلُّها كالمِلح ، وقد صرَّح في هذا الصَّدد بحقيقةٍ لطيفةٍ دقيقةٍ ، يقول:

«وغالبُ سببِ خراب البلدان في هذا الزَّمان شيئان:

١ ـ أحدهما: تضييقُهم على بيت المال.

٢ ـ والثَّاني: ضَرْب الضَّرائب الثَّقيلة على الزُّرَّاع والتُّجَّار والمتحرّفة والتَّشديدُ عليهم.

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٤٣.

(٢) وقد ذكر الإمام الدهلوي في هؤلاء المضيقين الذين يصبحون كلاً على بيت المال ويتعودون التكسب بالأخذ منه ويملكون الإقطاعات ويعتادون الجوائز والصلات والكسب المجاني بدون أي خدمة للدولة في البلاد، الغزاة والعلماء والزهاد والشعراء الذين يدَّعون حقوقهم في بيت المال دون القيام بمصلحة البلاد، وقد دخل في ذلك النظام الإقطاعي الذي كان قد أجحف بمالية البلاد، وأوجد جنداً من الطاعمين الكاسين الذين يأكلون ويعيشون دون مقابل من جهد، ويقدر من ذلك بصيرة الإمام الدهلوي السياسية ومعرفته العميقة لأسباب سقوط الدولة المغولية.

ثم يقول في آخر هذا المبحث: «فَلْيُنَبَّه أهلُ الزَّمان لهذه النُكتة»[١].

ويذكر الإمام الدهلويُّ في ضمن العوامل التي تُؤدِّي إلى الفساد في المُجتمع والمدنية، كثرَة أسباب اللّهو والتَّسلية، التي تجرُّ إلى الغفلة عن المعاش والمعاد كليهما، ومن أمثلة ذلك الانصرافُ إلى لعب الشَّطرنج، والإكثار من القَنص والصَّيد، واقتناء الحَمام وغيرِ ذلك[٢]، كذلك الغفلةُ عن الجرائم الخلقيَّة والتَّغاضي عنها، واحتمالُ تلك الأفعال التي لا يتحمَّلها أصحابُ الفِطرة السَّليمة لأنفسهم، تُلحقُ الأضرار البالغة بالمدنية، وتكون سبباً من أسباب سقوط الدُّول والحُكومات[٣].

السَّعادة وأصولُها الأربعة:

والمبحث الرابع في الكتاب هو «مبحث السَّعادة»، وقد شرح فيه أنَّ الحصول على السَّعادة من أهمِّ حاجات البشر، بل هي أهمُّها على الإطلاق، وأنَّها لا تحصل إلاَّ بتهذيب النَّفس وإخضاع القُوَّة البهيميَّة للقوَّة الملكيَّة[٤].

وللسَّعادة ـ عند الإمام الدِّهلويِّ ـ أربعةُ أُصول، وقد بُعث لها الأنبياء والرُّسل، وتفصيلها وبيانها هي الشَّرائع السَّماويَّة، وأنَّها ـ في الحقيقة ـ عناوينُ جامعةٌ لشُعبِ الأديان والشَّرائع الأساسيَّة ومباحثِها الأوليَّة، ووسائل مؤثِّرة قويَّة لتحقيق مقاصد البِعثة وتكميل غاياتها، وهذه الأصول الأربعة كما يلي:

١ ـ الطَّهارة (وهي الطَّهارة البدنيَّة التي تُعِدُّ الإنسان للتوجُّه إلى الله تعالىٰ والعلاقة به).

٢ ـ الإخباتُ إلى الله تعالىٰ.

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٤٥.
(٢) المصدر السابق: ص: ٤٩.
(٣) المصدر السابق: ص: ٥٠.
(٤) المصدر السابق: ص: ٥١.

٣ ـ السَّماحةُ (وهي مكارم الأخلاق ومعالي الأمور).

٤ ـ العدالة[١] (وهي مَلَكة في النَّفس تصدر عنها الأفعال التي يُقام بها نظام المدينة والحي بسهولة).

وهكذا ألقىٰ الإمام الدهلويُّ ضوءاً كافياً على أُسَس كمال الشخصيَّة الإنسانيَّة وعلاقتها مع الله تعالىٰ، وتكوين مجتمعٍ صالحٍ مُتضامن، وهي مِن مقاصد الشَّرائع السَّماويَّة وبِعثة الأنبياء والرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ثم شَرح كيفيَّة الحصول على هذه الخِصال الأربعة، وطريق التَّحَلِّي بها[٢]، ثم تناول بيان الحُجُب التي تَمنع وتَحُول دون ظهور الفِطرة الأصيلة، وقسَّمها ثلاثة أقسام:

١ ـ حجابُ الطَّبع (أي غلبة الأهواء والمُتطلباتِ البشريَّة النَّفْسانيَّة).

٢ ـ حِجابُ الرَّسم: (تأثير البيئة والظُّروف الخارجيَّة الضَّارَّة).

٣ ـ حجابُ سُوء المعرفة[٣]: (تأثير التَّعليمِ والتَّربيةِ والعقائد الفاسدة).

ثمَّ بيَّن كيفيَّة معالجة هذه الحُجُب ورفعِها وإزالتها[٤].

العقائدُ والعِبادات:

يبدأ الموضوع الحقيقي للكتاب، وهو «المبحث الخامس» منه بـ«مبحث البرِّ والإثم»، وهو ـ في حقيقة الأمر ـ موضوعُ الكتاب الأصيل وغايته التي أُلِّف لها[٥].

وقد تناول الإمام الدِّهلويُّ ـ أوَّلاً ـ التَّوحيدَ من «أُصول البرِّ»، لأنَّه أصل

(١) يراجع تعريف هذه الأصول في ص: ٥٤ من الكتاب.

(٢) حجة الله البالغة: ص: ٥٥ ـ ٥٦.

(٣) انظر للتفصيل: ص: ٥٦، من المصدر السابق.

(٤) انظر شرح هذه الحجب وطرق إزالتها في ص: ٥٧ ـ ٥٨.

(٥) المصدر السابق: ص: ٥٨.

الإخبات والإنابة التي هي أكبر وسيلةٍ للحصول على السَّعادة ، وقد ذكر الإمام الدهلويُّ ـ في هذا الصَّدد ـ أربعَ مراتبَ للتَّوحيد ، وبيَّن حقيقة إشراك المُشركين العرب[١] .

وينتقلُ بعد الحديث عن التَّوحيد إلى الإيمان بِصفات الله تعالىٰ والإيمان بالقَدر وتعظيمِ شعائرِ الله ، وأهمُّ هذه الشَّعائر وأَبيَنُها ـ عند الإمام الدهلويِّ ـ القُرآنُ الحكيم ، والكَعبة المُشرَّفة ، والنَّبيُّ الكريم عليه الصَّلاة والتَّسليم ، والصَّلاة ، ثم يتحدَّث عن العبادات ، والفرائض ، والأركان ، ويَبحثُ عن أسرار الوضوء والغُسل ، وأسرار الصَّلاة ، وأسرار الزَّكاة ، وأسرار الصَّوم ، وأسرار الحج بصورة إجماليَّة[٢] ، وهذه المباحث ـ رغم أنَّها كُلِّـيَّـة إجماليَّة ـ تحتوي على نُـكاتٍ ولطائفَ لا تظفرُ بها في أيِّ كتاب آخر .

وعلى سبيل المثال يقول في أسرار الصَّلاة : وأحسن الصلاة :

ما كان جامعاً بين الأوضاع الثَّلاثة (القيام ، والرُّكوع ، والسُّجود) مترقياً من الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ، ليحصـل التَّـرقِّي في استشعارِ الخضوع والتذلُّل ، وهو ينسجم مع العقل والفِطرة .

ثمَّ ذكر الإمام الدهلويُّ وجهَ عدم الاقتصار في العبادة على التَّفكير في عظمة الله ، والمُراقبةِ لجلاله ، ودوام ذِكره(الذي هو طريق الحُكماء والرُّهبان الهنادك ، وجرىٰ عليه بعضُ الصُّوفيَّة المُنحرفين) ، وبيَّن أنَّ هذا التَّفكير والمُراقبة كانت تتيسَّر للذين يتَّفق ذلك وطبيعتَهم الخاصَّة وتنفعُهم ، وكان بإمكانهم أن يتقدَّموا ويترقَّوا عَنْ طريقها .

أمَّا الصَّلاةُ فهي المعجون المُركَّب من الفكر المصروف تلقاءَ عظمة الله بِالقصدِ ، وهي نافعةٌ لعامَّة النَّاس وخاصَّتهم ، تِرياقاً قويَّ الأثر ، ولا شيء أنفعُ

---

(١) مر هذا البحث في الباب الخامس من هذا الكتاب.
(٢) وقد جاء تفصيل هذه الحكم والأسرار في الجزء الثاني من الكتاب ، حيث بحث فيها في ضوء الأحاديث الواردة في هذه الأبواب.

علاجاً لغوائل الرسوم (تأثيراتِ البيئة الفاسدة) منها ، ولا شيء في تمرينِ النَّفس على انقيادِ الطَّبيعة للعقلِ وجَرَيانها في حكمةٍ مثلَ الصَّلاة[١] .

أمَّا الصَّوم والحجُّ ، فقد جاءت عنهما إشاراتٌ في هذا المبحث ، ولكنَّ ما سجَّله الإمام الدَّهلويُّ في الجزء الثاني من الكتاب من مقاصده وأسراره وحِكمِه ، لم أقف على مثيلِه قَبل ذلك في أيِّ كتاب ، وسيأتي ذكرها في موضعها في الصَّفحات القادمة .

السِّياسات المِلِّيَّة والحاجةُ إلى هُداة السُّبل ومُقيمي المِلل:

عَنْوَنَ الإمام الدِّهلويُّ المبحثَ السَّادس بـ«مبحث السِّياسات المِلِّيَّة» ، وهو من أهمِّ المباحث في الكتاب[٢] ، وقد صرَّح الإمام الدهلويُّ في الباب الأوَّل منه ـ في بلاغةٍ ودِقَّةٍ وواقعيَّة ـ بوجوه حاجةِ الناس وأسبابها إلى هُداة السُّبل ومُقيمي المِلل (الأنبياء والرُّسل) ، ولماذا لا تكفيهم في هذا الصَّدد عقولُهم العامَّة وفِطرتهم السَّليمة؟

ثم بحث في صفاتِ هؤلاء الهُداة المُرسلين والشُّروط التي لابُدَّ من تَوافرها فيهم ، وأنَّهم كيف ومتَىٰ يستطيعون أن يُحقِّقوا مقاصدهم ، وينجحوا فيها .

ويمتازُ هذا الباب عن عامَّة البحوث والكتابات في كتب عِلم الكلام حول إثبات النُّبوَّة ، ويَشتمل على الزَّاد الكافي لإقناع العُقول السَّليمة ، الذي لا يتوفَّر في عامَّة كُتب العقائد وعِلم الكلام .

والبابُ الذي يبحث في مكانة النُّبوَّة ودورها وخصائصها في هذا المبحث ، يدلُّ ـ دِلالة واضحة ـ على معرفة الإمام الدَّهلويِّ برُوح الشَّريعة وحقيقة طبيعة النُّبوَّة ، ودِراستِه العميقة للنَّفس البشريَّة واطِّلاعه الدقيق على منابع الأخلاق

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٧٣.
(٢) المصدر السابق: ص: ٨٣ ـ ٨٤.

الباطنة، وقد جاء في هذا الكتاب بحثٌ مُفصَّل عن أسباب بِعثة الأنبياء والرُّسل أيضاً.

البِعْثَةُ المَقرونة:

يقول الإمام الدِّهلويُّ: «وأعظمُ الأنبياء شأناً من له نوعٌ آخر من البِعثة، فتكون بِعثَتُه مقرونةً ببعثةٍ أخرىٰ، أي أنَّ شعباً بل أمَّةً بأَسرها تُبعث مع بِعثَته، ويُناط بها واجب الدَّعوة والتَّبليغ، وتتلقَّىٰ منه، وتستعدُّ بين يديه لتكون واسطةً ووسيلةً لتعليم الآخرين من الناس وتربيتهم وتزكيتهم، فتكونُ بِعثة النبيِّ بالأصالةِ، وهي التي تُسمَّىٰ (النُّبوَّة)، وتكون بِعثة الأمَّة وتولِّيها لِخدمة الدَّعوة بالنِّيابة والوساطة، وقد كانت بِعثةُ سيدنا محمد ﷺ هذه البِعثة الجامعة المقرونة، التي أقامت أمَّة بأسرها لتكون آلةً وجارحة تشتغلُ في خدمة مسؤوليَّة النُّبوَّة ونشرِ دعوتها ورسالتها، وقد استعملَ لذلك ألفاظَ البِعثة أو ما في معناها من التَّعبيرات، يقول الله تعالىٰ:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وجاء لفظُ البِعثة ـ صريحاً ـ في الأحاديث النَّبويَّة، فقد خاطب ﷺ أصحابَه الكرام بقوله:

«فإنَّما بُعِثتم مُيَسِّرين، ولم تُبْعَثُوا مُعسِّرِين»(١)(٢).

وأَخصُّ مباحث هذا الباب هو المبحث الذي تناول فيه الإمام الدهلويُّ سيرةَ

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد، برقم (٢٢١)، وفي كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ: «يسِّروا ولا تعسِّروا...» برقم (٦١٢٨)، وأبو داود في كتاب الطهارة، باب الأرض يصيبها البول، برقم (٣٨٠) والترمذي في الطهارة، باب ماجاء في البول يصيب الأرضَ، برقم (١٤٧) والنسائي في الكبرى (١/ ٧٥) وغيرهم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

(٢) حجة الله البالغة: ص: ٨٤.

الأنبياء والرُّسل عليهم الصَّلوات والتَّسليمات وذوقهم وطبيعتهم ، ومنهج دعوتهم ، وأسلوب تَبيينهم وخِطابهم ، ويُقدِّر منه دِقَّة نظر الإمام الدهلويِّ ، ودراستُه العميقة لخصائصِ النُّبوة والأنبياء وتدبُّره الغائص العميق للقرآن الحكيم[١] .

إهدارُ القِيَم الخُلقيَّة والإيمانيَّة وبُؤس الإنسانيَّة في المدنيتين الرُّوميَّة والإيرانيَّة:

لم يكن عَهْدُ الجاهليَّة مُختصّاً بالعرب الجاهليين ، بل كانت هي أزمةً اعتقاديَّة وخُلقية واجتماعيَّة واقتصاديَّة وسياسيَّة عالميَّة شديدة ، أحدقت بالدُّنيا كلِّها ، وشملت بسيط الأرض ، ولكنَّ الإيرانيين والرُّومَ كانوا قادة هذه الأمَّة والمسؤولين الأولين عنها ، لأنَّ مدنيتهم كانت المدنيَّة الرَّاقية التي تُعتبر المِقياس في عالمهم المُعاصر ، وكان النَّاس يَحذون حذوها ، ويُقلِّدونها في كل مكان ، وكانت بلادهم ومُدنهم الرَّئيسيَّة الكبيرة ، ومُجتمعهم أنفسُهم أوَّلاً وقبل كلِّ شيءٍ عُرضةً لهذه الأزمة والفساد .

إنَّ تصوير الإمام الدهلويِّ لهذا الوضع الجاهلي ، وأسبابَه التي أشار إليها لم نجد تصويراً أصدقَ منه وأدقَّ في أي كتاب من كُتب التاريخ والسِّيرة ، ولم نجدْ أيَّ ريشةٍ بارعة لأي عالمٍ من عُلماء فلسفة التَّاريخ والعُلوم العمرانيَّة ترسُم مثل هذا التَّصوير الصَّادق الدَّقيق ، وهنا يُسطِّر قلم الإمام الدهلوي من روائع البيان ، ما يدلُّ على أنه بلغ الذُّروةَ العُليا في جَزالة التَّعبير وقُوَّة الأداء وحُسن الإنشاء[٢] .

ونتقل فيما يلي ما قاله الإمام الدهلويُّ في هذا الصَّدد إذ أنَّه يقدّر منه

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٨٦.

(٢) هذه القطعة نموذج رائع لقوة البيان وسلاسة التعبير وجمال الأداء، ولذلك اختارها المؤلف «لمختاراته في الأدب العربي» وضمها كنموذج رائع إلى مجموعة القطع الأدبية [انظرالجزء الثاني، صفحة: ١٢٤، طبع دار ابن كثير بدمشق].

ما امتاز به من نظرة عميقة في التاريخ وصلاحيَّة التَّوصُّل إلى لُبِّ الحقيقة والاستعداد الموهوب للتَّحليل الصَّحيح الدَّقيق للأوضاع والظُّروف ، يقول الإمام الدهلويُّ :

«اعْلم أنَّ العجمَ والرُّومَ لما تَوارثوا الخلافة قُروناً كثيرةً ، وخاضوا في لذَّة الدُّنيا ونسوا الدَّار الآخرة ، واستحوذ عليهم الشَّيطان ، تعمَّقوا في مرافق المعيشة ، وتباهَوا بها ، ووَرد عليهم حُكماء الآفاق يَستنبطون لهم دقائقَ المعاش ومرافِقه ، فما زالوا يعملون بها ، ويزيد بعضهم على بعض ، ويتباهون بها ، حتَّى قيل: إنَّهم كانوا يُعيِّرون من كان يلبس من صناديدهم مِنطقة أو تاجاً قيمتُها دون مئة ألف درهم ، أولا يكونُ له قصرٌ شامخٌ وآبزن وحمَّام وبساتين ، ولا يكون له دوابّ فارهة ، وغِلمانٌ حسان ، ولا يكون له توسُّعٌ في المطاعم ، وتجمُّلٌ في الملابس ، وذِكرُ ذلك يطول ، وما تراه من ملوك بلادك يُغنيك عن حِكاياتهم ، فدخل كل ذلك في أصول معاشهم ، وصار لا يخرج من قلوبهم إلاَّ أن تُمزَّع .

وتولَّد من ذلك دَاءٌ عُضالٌ، دخل في جميع أعضاء المدينة، وآفةٌ عظيمةٌ لم يبقَ منهم أحدٌ من أسواقهم ورُستاقهم، وغَنيهم وفقيرهم إلاَّ وقد استولتْ عليه، وأخذت بتلابيبه، وأعجزته في نفسه، وأهاجتْ عليه غموماً وهموماً لا أرجاء لها ، وذلك أنَّ تلك الأشياء لم تكن لتحصل إلاَّ ببذل أموال خطيرة ، ولا تحصل تلك الأموال إلاَّ بتضعيف الضَّرائب على الفلاَّحين والتُّجَّار وأشباهِهم ، والتَّضييق عليهم ، فإن امتنعوا قاتلوهم وعذَّبوهم ، وإن أطاعوا جعلوهم بمنزلة الحمير والبَقر يُستعمل في النَّضح والدِّياس والحصاد ، ولا تُقتنىٰ إلاَّ ليُستعان بها في الحاجات ، ثم لا تترك ساعةً من العناء ، حتَّىٰ صاروا لا يرفعون رؤوسهم إلى السَّعادة الأخرويَّة أصلاً ، ولا يستطيعون ذلك ، وربَّما كان إقليمٌ واسعٌ ليس فيه أحدٌ يَهمُّه دينه»[١] .

---

(١) حجة الله البالغة: باب إقامة الارتفاقات وإصلاح الرسوم، جـ: ١، ص: ١٠٤ ـ ١٠٧ .

مَباحثُ نافعةٌ أخرى:

ثم يأتي مبحثُ أنَّ أصلَ الدين واحد ، وأنَّ اختلاف المناهج والشَّرائع إنَّما هو مراعاةٌ لعصرٍ خاص وقومٍ بعينهم ، ثم يَشرحُ أسباب المُؤاخذة على المناهج رغم أنَّ أصل الدين واحد.

وبعد مباحثَ جانبيَّة في أسرار التَّيسير والتَّرغيب والتَّرهيب وغيرهما ، يُثبت الإمام الدهلويُّ الحاجةَ إلى دين ينسخ جميع الأديان والشَّرائع السَّابقة ، وأنَّه كيف يُمكن حفظ هذا الدِّين من التَّحريف ، وما هي المنافذ والأبواب التي يَدخل منها التَّحريف ، وما هي الصُّور والأشكال التي يتجلَّىٰ فيها ، وما هي القوالب التي تتقمَّصها ، وما هي الطُّرق التي اختارتها الشَّريعة لسدِّ ذرائعه والحيلولةِ دونه ، وما هي التَّدابير والأحكام التي أَصدرتْها لأجل ذلك ، ثم بيَّن ـ في تفصيل ووضوح ـ ما كانتْ عليه الجاهليَّة في عهد البِعثة التي قام نبينا لإصلاحها وإقامة اعوِجاجها.

مَكانةُ الحديث والسُّنَّة وَمَوقفُ الأمَّة منهما:

يأتي المبحثُ السَّابعُ في الكتاب بعنوان: «مبحث الشَّرائع من حديث النبيِّ ﷺ» وتَرد فيه أبحاث تتعلَّق ـ مباشرة ـ بفَهم الحديث الشَّريف والسُّنَّة النَّبويَّة المشرَّفة ، واستنباطِ المسائل منها ، وأقسام العلوم النَّبويَّة ، وكيفيَّة تلقِّي الشَّريعة من النَّبيِّ ﷺ وطرقها وطبقات كتب الأحاديث المُختلفة جمعاً وتطبيقاً وترجيحاً وغير ذلك.

ويَبحث الإمام الدِّهلويُّ ـ في هذا الصَّدد ـ في غاية من الدِّقَّة والإتقان في اختلاف الصَّحابة والتَّابعين في المسائل والفروع ، ويذكر أمثلة لذلك ، ثم يتعرَّض لاختلاف المذاهبِ الفِقهيَّة ، واختلاف أهل الحديث وأصحاب الرأي والفرقِ بينهما ، ثم يَشرحُ موقفَ الناس خاصَّتهم وعامَّتهم ـ قبل القرن الرابع وبعده ـ من الاستفتاء في المسائل ، وسؤال العلماء والعملِ بالأحكام الشَّرعيَّة ، ويَفيض في هذا المبحث ، ويُوضِّحه في تفصيل ، وهو يشتمل على

أبحاثٍ دقيقة عميقة ، يَصعبُ العثور عليها في أيٍّ كتابٍ آخر من كتب أصول الفقه أو علم الكلام.

أَسرارُ الفرائضِ والأركان وحِكمُها:

لقد بحث الإمامُ الدِّهلويُّ في الأحاديث الواردة في أبواب العقائد ، والعبادات والمُعاملات ، والإحسان والتَّزكية ، والمقامات والأحوال ، وطُرق كسب المعاش ، والتَّبرُّع والتَّعاوُن ، وتدبير المنزل ، والخلافة والقضاء والجهاد ، والأطعمة والأشربة ، واللِّباس والزِّينة ، وآداب الصُّحبة والاجتماع.

وبَحث أخيراً في الفِتن والملاحم وأشراطِ السَّاعة ، وقد عَرَض ـ في هذا الصَّدد ـ خُلاصةً طيِّبةً للسِّيرة النَّبويَّة ـ صلَّىٰ الله على صاحبها وسلَّم ـ وقد شرح أسرار هذه الأبواب المُختلفة بأسلوبٍ لا تنقطع فيه صلة هذه المسائل والأحكام بالحياة والمدنيَّة وعِلم الأخلاق ، وهذا هو ـ في الحقيقة ـ الموضوعُ الأساسيُّ المحوري للكتاب.

وقد كان الإمام الدهلويُّ يهدف إلى أن تُدرس الأحاديث الشَّريفة في ضوء هذه الأسرار والحِكم مع رَبْطِها وإحكام صِلتها بالأعمال والأخلاق والمدنيَّة والاجتماع ، والسَّعادةِ الإنسانيَّة والعلاقات المُشتركة بين بني البشر حتَّىٰ يكون لها تأثيرٌ مطلوبٌ على الحياة والعمل والأخلاق والمدنيَّة والاجتماع ، ويُثبت موافقة العقل الصَّريح للنَّقل الصَّحيح ، وحتىٰ لا تتهيَّأ أيّ فرصة للمعترضين المنتقِصين في اعتراضهم على الأحاديث ، والحطِّ من شأنها وتقليلِ قيمتها وفائدتها ، وانتقاصِ أهمِّيَّتها والحاجة إليها (وهو الذي كانت تَفرَّسَتْهُ بصيرة الإمام الدهلويِّ ، وتفطَّنَ إليه بُعد نظره وتفكيره الواقعي) وإيجاد الاضطراب العقلي والفِكري فيما يتعلَّق بها ، وأنَّ ما سطَّره الإمام الدهلويُّ في موضوع الأركان الأربعة لا يُجاريه فيه أحد من المؤلِّفين ، وهو مِن خصائص «حُجَّة الله البالغة» ومزاياه.

ونُورِد فيما يلي شيئاً ممَّا قاله الإمام الدَّهلويُّ فيما يتعلَّق بمقاصد الصَّوم والحج وأسرارهما وأشكالهما الشَّرعيَّة الإسلاميَّة وحِكَمِها ولطائفها.

يقول وهو يتحدَّث عن الصَّوم وحكمة المِقدار المُحدَّد له وتحديدِ أعداد الصيام (وهو ما يختص بالشريعة الإسلامية) وأحكامه ومسائله الشَّرعية:

لم يُخبر الناس في عَدد الصومِ ومقداره «لأن في ذلك فتحاً لباب الاعتذار والتَّسلُّل، وسداً لباب الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر وإخمالاً لما هو من أعظم طاعات الإسلام»[1].

ثم يقول وهو يذكر مِقداره وعَدده:

«ثم وَجب تعيينُ مِقداره لئلا يُفرِّط أحد فيستعمل منه ما يُوهن أركانه ويُذهب نشاطه ويُنفِّه[2] نفسه ويُزيره القبور، وإنما الصوم تِرياق يُستعمل لدفع السُّموم النفسانية مع ما فيه نكاية بمطيَّة اللطيفة الإنسانية ومنصتها، فلا بد من أن يتَقدر بقَدر الضرورة»[3].

ثم يُقارِن بين قسمين من الصوم (قسم يمسك فيه عن كل الطعام والشراب وكل ما يُنافي الصوم اجتناباً كليّاً، وقسم لا يترك فيه إلا بعض الأشياء) ويُرجِّح القسم الأول منه، ويُبيِّن فضله في ضوء التجربة النفسية والتحليل العلمي وعلم النفس يقول:

«إنَّ تقليلَ الأكل والشرب له طريقان:

١ ـ أحدهما: ألاَّ يتناول منهما إلاَّ قدراً يسيراً.

٢ ـ والثاني: أن تكون المدة المتخللة بين الأكلات زائدةً على القدر المعتاد.

والمُعتبرُ في الشرائع هو الثاني لأنه يُخفف ويُنفِّه ويُذيق بالفعل مذاق الجوع

(١) حجة الله البالغة: ج: ٢، ص: ٤٩ ـ ٥٠.
(٢) التنفيه: الإتعاب.
(٣) المصدر السابق: ص: ٤٩.

والعطش، ويلحق البهيمية حيرة ودهشة، ويأتي عليها إتياناً محسوساً، والأول إنما يُضعف ضعفاً يمر به ولا يجد بالاً حتىٰ يدنفه، وأيضاً فإن الأول لا يأتي تحت التشريع العام إلاّ بجهد، فإن الناس على منازل مختلفة جداً يأكلُ الواحد منهم رطلاً والآخر رطلين، والذي يحصل به وَفاء الأول هو إجحاف الثاني»[1].

إنَّه يُصرِّح بأنَّه لابُدَّ في هذا التعيين وتحديد المواعيد من التَّوسُّط والاعتدال، يقول:

«ثمَّ يَجِبُ أن تكون تلك المدَّة المُتخلِّلة غيرُ مُجحفة ولا مستأصلة كثلاثة أيام بلياليها، لأنَّ ذلك خلافُ موضوع الشَّرع ولا يَعمل به جمهور المُكلَّفين»[2].

وما قاله الإمام الدهلويُّ عنِ الحج يُعتبر بحثاً ممتازاً فريداً، يقول:

«ومنها (أي من مقاصد الحج وغاياته) موافقة ما تَوارث الناس عن سيدنا إبراهيم، وإسماعيل ـ عليهما السَّلام ـ فإنهما إماما الملَّة الحنيفيَّة ومُشرِّعاها للعرب، والنبي ﷺ بُعث لتظهر به الملَّة الحنيفيَّة وتَعلُو به كلمتُها، وهو قوله تعالىٰ:

﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الحج: ٧٨].

فمن الواجب المحافظة على ما استفاض عن إمامَيها كخِصال الفِطرة[3]، ومناسكِ الحج، وهو قوله ﷺ:

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ٤٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) والمراد بخصال الفطرة الخصال العشر، وهي قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، والاستنشاق بالماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء يعني الاستنجاء، أخرجه أبو داود [في كتاب الطهارة، باب السواك من الفطرة، برقم (٥٣)] برواية عائشة ـ رضي الله عنها ـ قال الراوي: ونسيتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضة، وقد صرح القاضي عياض والإمام النووي أنها الختان

«قِفوا على مشاعركم فإنّكم على إرثٍ من إرثِ أبيكم إبراهيمَ»[(١)(٢)].

ويَذكُر لها حِكمةً أخرىٰ، فيقول:

«كما أنَّ الدَّولة تحتاجُ إلى عَرْضَةٍ بعد كل مُدة ليتميز الناصح من الغاش والمُنقادُ من المُتمرِّد، وليرتفع وتَعلو الكلمة، ويتعارفُ أهلُها فيما بينهم، فكذلك المِلَّة تحتاج إلى حجٍّ ليتميَّز الموفَّق مِن المُنافق وليَظهر دُخول الناس في دين الله أفواجاً، وليرىٰ بعضهم بعضاً، فيستفيد كل واحد ما لَيس عنده، إذ الرَّغائب إنما تكتسب بالمُصاحبة والتَّرائي»[(٣)].

ويقول:

«وإذا جُعل الحج رسماً مشهوراً نفعَ عن غوائل الرُّسوم ولا شيء مثلُه في تذكر الحالة التي كان فيها أئمَّة المِلَّة والتَّخصيص على الأخذِ بها»[(٤)].

ويقول في موضع آخر:

«ومنها (أي من مقاصد الحج) تحقيقُ معنىٰ العَرْضَةِ، فإنَّ لكل دولة أو ملَّةٍ اجتماعاً يتوارده الأقاصي والأداني ليَعرف فيه بعضُهم بعضاً، ويستفيدوا أحكام المِلَّة، ويُعظِّموا شعائرها، والحجُّ عَرضةُ المسلمين وظُهور شوكتِهم واجتماعُ جنودهم وتَنويهُ مِلَّتهم، وهو قوله تعالىٰ:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [البقرة: ١٢٥] ».

شُمولُ الكتاب وإحاطتُه:

إنَّ مِن مزايا هذا الكتاب وخصائصه أنه يشتمل ـ عدا المباحث المُتعلِّقة

---

(١) [أخرجه أبو داود في كتاب المناسك، باب موضع الوقوف بعرفة، برقم (١٩١٩)، والنَّسائي في الكبرى (٢/ ٤٢٤) برقم (٤٠١٠)، والشافعي في مسنده (١/ ٢٤١) من حديث يزيد بن شيبان].

(٢) حجة الله البالغة: جـ: ٢ ، ص: ٥٦.

(٣) المصدر السابق: جـ: ١ ، ص: ٧٦.

(٤) المصدر السابق: جـ: ١ ، ص: ٧٦.

بالفقه والحديث والعبادات والمُعاملات ـ على أبوابِ تدبير المنزل والخِلافة والقضاء وأبواب المعيشة وآداب الصُحبة التي تتعلَّق بالأخلاق والاجتماع والمدنيَّة والاقتصاد ، ولا يتوقع مثل هذا البحث فيها في عامَّة الكتب الفقهيَّـة والكلاميَّة.

الإحْسَانُ والتَّزكيـة:

زِدْ على ذلك أن الإمام الدِّهلويَّ قدَّم فيه نِظاماً مرتباً مُنقحاً للإحسان والتَّزكية يستطيع الإنسان بسلوكه على دربه، والعملِ به أن يَبْلُغ أعلىٰ مدارج الرُّقيِّ والكمالِ، ومراتب الوِلاية وغاية الأحوال والمقامات.

وقد امتدَّ هذا الباب من الكتاب على الصَّفحات من (٦٦ إلىٰ ص ١٠١)، وقد بَحثَ فيه الإمام الدهلويُّ عن تلك الطُّرق والوسائل للإحسان التي وردت في الأحاديث الصَّحيحة ، واكتفىٰ بمجرد التَّأكيد على روح الاحتساب والاستحضار، والنيَّة والعزيمة والكيفيات الباطنيَّة القلبية والاهتمام بها، واقترح علاج الأمراض والعلل الرُّوحيَّة بتلك الطُّرق المشروعة والفرائض والعبادات والأدعية والأذكار التي صحَّ نقلها، كما بيَّن طرق العِلاج للأخلاق المذمومة الرَّذيلة وطرق اكتساب الأخلاق المحمودة الفاضلة بالنُّصوص الثابتة في الكتاب والسُّـنَّـة.

وقد أَورد في هذا المبحث صيغ الأذكار والأدعية المأثورة، وشرح طريق الدُّعاء المقبول وكيفيته وشروطه وآدابه، وقد أكَّد فيه على القيام بتلبية المُقتضيات الطبعيَّة وحاجات الحياة الإنسانيَّة والأعمال الدينيَّة بالاحتساب، وبيَّن ذلك مع الغفلة عن الاحتساب يقول:

«اعلمْ أنَّ النيَّـة روحٌ والعبادة جسد ولا حياة للجسَد بدون الرُّوح، والروح لها حياةٌ بعد مُفارقة البدن، ولكن لا تَظهرُ آثارُ الحياة كاملةً بدونه، ولذلك قَال الله تعالىٰ:

﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ﴾ [الحج: ٣٧] . وقال رسول الله ﷺ : «إنّما الأعمال بالنّيّات»(١) .

ثُمَّ يُعرِّف النيَّة بهذه الألفاظ الجامعة :

«وأَعني بالنيَّة المعنىٰ الباعثَ على العمل من التَّصديق بما أخبر به الله تعالىٰ على ألسنة الرسل من ثواب المُطيع وعقاب العاصي، أو حُبِّ امتثال حكم الله فيما أمر ونهىٰ»(٢) .

وقد أوردَ الإمام الدهلويُّ في آخر هذا الباب أحاديثَ مُنتقاةً تتعلَّق بالتَّحلِّي بالأخلاق الفاضلة وأداءِ حقوق العِباد وحُسن الصُّحبة والجِوار ، التي يستطيع الإنسان بالعمل بها أن يَصل إلى أقصىٰ درجاتِ التَّزكية والإحسان .

ثم تناولَ بيانَ تلك الأحوال والمقامات التي تحصُل للسَّالك نتيجةَ التَّزكية والإحسان، كما أنها تكون نتيجة النور في الباطن، وصَحوة القلب وصلاحه، وزكاء النفس وطهارتها، ومرضاة الله تعالىٰ، وتأييد الملأ الأعلىٰ واستبشارهم .

الجِهـادُ:

ويَشتمل هذا الكتاب على باب مُستقل حول الجهاد(٣) ، وقد بدأه الإمام الدهلوي بهذه الكلمات المُثيرة المُنبِّهة ، التي لا يقولها إلاَّ عارفٌ خبير يَملك بَصيرةً نافذةً ، ونظرةً ثَاقِبة في تاريخ الديانات والمِلل ، وأهدافِ خلق الكائن الإنساني وغاياتِه، والنظام المطلوب لدىٰ خالق الكون، يقول :

«اعلمْ أنَّ أتمَّ الشرائع وأكملَ النَّواميس هو الشَّرعُ الذي يُؤمر فيه بالجهاد» .

---

(١) [أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب كيف كان بدء الوحي. . . ، برقم (١) ، وابن ماجه في كتاب الزهد ، باب النية ، برقم (٤٢٢٧) وغيرهم باختلاف ألفاظ يسيرة من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه].

(٢) حجة الله البالغة: جـ: ٢ ، ص: ٨٣ ـ ٨٤.

(٣) المصدر السابق: جـ: ٢ ، ص: ١٧٠ ـ ١٧٨ .

ثم شَرح ذلك وبيَّنه وأثبته بالعقل والنَّقل، ثم ذكر أسباب فَضلِ الجهاد، وأصوله وضوابطه(١).

وبالجملة فإنَّ هذا الكتاب بشُموله وعُمقه، وتمثيلِه الواسع المُتَّسق المُترابط للدين والشَّريعة، ولِمئات من النكتات واللطائف والتَّحقيقات النادرة ـ التي تَنبثُّ على مواضع متفرِّقة من الكتاب ـ يحتلُّ مكانة ممتازة فريدة في المكتبة الإسلاميَّة الزَّاخرة، ويُصدِّق ما قيل: «كم ترك الأوَّلُ للآخر!».

وقد صدقَ العلاَّمة شِبْلِي النُّعماني إذ قال في كتابه: «علم الكلام»:

«إنَّ الانحطاط العقلي الذي أُصيبَ به المُسلمون بعد ابن تيميَّة وابنِ رُشد بل في عهدهما كذلك، لم يكن قد بَقي أملٌ ـ نظراً إلى الانحطاط العام ـ في ظهور نابغة يملك القلب البصير والعقل الذَّكي، ولكن أبتِ القُدرة الإلٰهيَّة إلاَّ أن تتجلَّىٰ، فإذا بالإمام وليِّ الله الدِّهلوي يُولد في العهد الأخير الذي كان الإسلام فيه في مِحنة وأزمة عقليَّة علميَّة، وقد تضاءلت أمامَ دقائقه ونُكاته مآثر الغزالي والرَّازي وابنِ رُشد».

ويَزيد قائلاً:

«لم يُؤلِّف الإمام الدهلوي في علم الكلام كتاباً مستقلاً، ولذلك فلا يناسب عَدُّه في زمرة المُتكلِّمين، ولكنَّ كتابه «حُجَّة الله البالغة» الذي كشَفَ عن أسرار الشَّريعة وحقائقها ـ هو رُوح عِلم الكلام ومِحورُه»(٢).

ويقول المُحقِّق الفاضل الشيخ عبد الحق الحَقَّاني في مقدِّمة ترجمته لـ«حُجَّة الله البالغة» المسمَّاة بـ«نعمة الله السَّابغة»:

«إنَّ الفنَّ الذي أُلِّف فيه هذا الكتاب، لم يُؤلَّف فيه قبله شيءٌ، ولم يُدوَّن في

---

(١) حجة الله البالغة: ص: ١٧٠.

(٢) علم الكلام: ص: ١٠٩ ـ ١١١.

مكان، فموضوع هذا الفنِّ هو النظام التَّشريعي المحمَّدي من حيث المصلحة المُفيدة، وغايتُه أن يعلم الإنسان أن أحكام الله تعالىٰ ورسوله ﷺ لا عُسر فيها ولا ضِيق، ولا تُخالف الفِطرة السَّليمة حتَّىٰ يطمئن بها الإنسان، وينجذبَ إليها قلبه ثقةً منه بأنَّها أحكامٌ تُوافق الفِطرة وتُبتنىٰ عليها، ولا يقع بتشكيك المُشكِّكين في الشبهات، وحدُّه أنه العِلم الذي تُعرف به حكم الأصول الدينيَّة والأحكام الشَّرعيَّة، ومبادئه جميع العلوم (المُتعلِّقة بالحياة البشريَّة)»[1].



(١) مقدمة «نعمة الله السابغة».

الفصل الرابع
الحاجةُ إلى نظام الخِلافة وفوائده وإثباتُ خلافة الخُلفاء الرَّاشدين، وعظيم مِنَّتهم علىٰ الأمَّة في ضوء كتاب «إزالة الخفاء عن خِلافة الخُلفاء»

أهمِّيَّة كتاب «إزالة الخفاء» وامتيازُه وتفرُّده:

إنَّ الكتاب الذي يلي كتاب «حجة الله البالغة» في القيمة والأهميَّة، والذي هو مأثرة الإمام الدِّهلوي الفريدة هو كتاب «إزالة الخفاء عن خلافة الخلفاء».

وإنَّه لِكثيرٍ من خصائصه ومزاياه كتابٌ فريدٌ في موضوعه، ويزخر هذا الكتاب كُلّه بالنُّكات العلميَّة المُثيرة والإشارات النَّادرة اللَّطيفة، وتتوفَّر فيه نماذجُ كثيرةٌ تدلُّ على تدبُّر الإمام الدهلوي الطَّويل وتفكيرِه العميق في كتاب الله تعالىٰ وتجاوبِه الموهوب معه وفَهمه الغائص الدَّقيق، وسُرعة البديهة، والتَّفطُّن لمكنونات الآيات وإشاراتها الدَّقيقة، وعُمقِ الاستنباط ودِقَّته، ووفرةِ الذَّكاء وتوقد الذهن؛ بحيث يتوصَّل به كل مُنصِف سليمِ الفكر إلى أنَّ هذا العلم ليس كسبياً وكتابياً صرفاً، وأنَّ مؤلِّف هذا الكتاب ليس صَنيع المناهج الدِّراسيَّة المُتداولة، وكُتب التَّفسير وأصول الفقه وعِلم الكلام الشَّائعة في عصره،

يَقتطف منها، ويجمعُ فُتات مائدتها فحسب، بل إنَّ علمه نابع من الموهبة الرَّبانيَّة والفُيوض الإلٰهيَّة الخاصَّة.

وقد صَدرتْ من قلم الإمام الدهلوي نفسِه عفواً، هذه الكلمات التالية في مبدأ الكتاب:

«والواقع أَنَّ نور التَّوفيق الإلٰهي ألقىٰ في رَوع هذا العبد الضعيف عِلماً مُستقلاً بكل وضوح وتفصيل، حتَّىٰ عَلِمَ علْمَ اليقين أن إثبات خلافة (الخلفاء الرَّاشدين) أصلٌ من أصول الدين عظيم، وما لم يتمسَّكِ الإنسان بهذا الأصل تمسُّكاً قويّاً ولم يَعُضَّ عليه بالنَّواجذ بقيتْ كل مسألة من مسائل الشَّريعة مُعرَّضة للشَّك والضعف»[١].

حتَّىٰ إنَّ العلماء الكبار الذين كانت لهم خلافاتٌ مع الإمام الدهلوي، وكانوا مُوغِلين في العلوم العقليَّة ومنهمكين فيها، بل كانوا يحتلون مكانة الإمامة فيها، لما وقع بصرهم على هذا الكتاب لم يتمالكوا أن أثنوا على مُؤلفه، واعترفوا بتبحُّر عِلمه وسَعة معرفته ودِقَّة نظره، يقول الشيخ محسن بن يحيىٰ التِّرْهَتِي صاحب «اليانع الجني»:

«إنَّ العلاَّمة فضل حق بن فضل إمام الخير آبادي[٢] وقعتْ في يده نسخة من كتاب «إزالة الخفاء»، فكان أُولع بِها ويُكثر النظر فيها أوانَ فراغه من دروسه وسائرِ ما يشغله من شأنه، فلمَّا وَقف على كثيرٍ منها قال لمَحضرٍ من الناس: إنَّ الذي صنَّف هذا الكتاب لَبَحْرٌ زخَّار لا يُرىٰ له ساحل»[٣].

وقد وَصف العلاَّمة فخرُ المُتأخِّرين أبو الحسنات عبد الحي اللكهنوي

---

(١) إزالة الخفاء: ص: ١، طبع أكاديمية سهيل، لاهور.

(٢) اقرأ ترجمته في «نزهة الخواطر» ج: ٧، وقد وقعت بينه وبين أبناء الإمام الدهلوي والذين كانوا على طريقه مطارحات علمية، ومناقشات دينية، لذلك كانت لشهادته قيمة كبيرة.

(٣) انظر «اليانع الجني» ص: ٩٣، المطبوع مع رجال الطحاوي، و«نزهة الخواطر» جـ: ٦، ترجمة الإمام الدهلوي، ص: ٤٠٦.

(ت ١٣٠٤هـ) ـ الذي يعترف بتبحُّر عِلمه ونبوغِه وسَعة نظره القاصي والدَّاني ـ في كتابه «التَّعليق الممجَّد على موطأ الإمام أحمد» كتاب «إزالة الخفاء» بأنه «كتابٌ عديم النَّظير في بابه»[١].

الصِّلةُ بين «حُجَّة الله البالغة» و«إزالة الخفاء»:

لقدْ كانتِ الحاجةُ بعد تأليف كتاب «حجة الله البالغة» الذي عُرض فيه نِظامُ الإسلام الجامع الشَّامل المُتناسق بطريقٍ يُثبت علاقته بالحياة والمجتمع والمدنيَّة، ويُوضِّح أنَّه بدون تنفيذ الأحكام الإسلاميَّة المتعلِّقة بالعقائد والعبادات والحياة الاجتماعيَّة، لا يَبقىٰ أيُّ أملٍ في قيام مجتمع صالحٍ رشيدٍ، ومدنيَّةٍ صالحةٍ، وحياة اجتماعيَّة متَّزنة عادية، كانتِ الحاجة لبيان هذه المقاصد والأهداف وتكميلِها والقيام بهذه المرحلة بطريقةٍ علميَّة تحقيقيَّة (تَروي غليلَ الأذهان والطَّبائع العقلانيَّة لعهد الثَّورة العقليَّة التي كان قد أظلَّ زمانها إلى الكتابة في خصائص النِّظام الاجتماعي في الإسلام وطبيعتِه، وأهدافه وغاياته ونِطاق عمله، وعن «الخلافة» (الهيئة الإداريَّة العالميَّة الدَّائمة، الصَّريحة المنصوصة لهذا النِّظام) بهذا البسط والتَّفصيل، والأدلَّة من العقل والنَّقل، وشواهد التاريخ، وفوق كل ذلك في ضوء الكتاب والسُّنَّة الواضحة، وتَفْضَحُ الضَّلالات والظُّنون الخاطئة التي ظَهرتْ في هذا الصَّدد منذ زمنٍ قديمٍ، والتي نشأت بناءً عليها فرقةٌ جديدة[٢]، كانت قد أحدثت لسيطرةِ العناصر الإيرانيَّة في عهد الإمام الدهلوي نفسِه ـ بصفة خاصَّة ـ من الاضطرابِ الفكريِّ والبَلبلةِ العقليَّة ما تخطَّىٰ حدودَ المُعتقداتِ والأعمال، إلى نظام الحكومة وسُلطَة المُسلمين العُليا في الهند، وجعلتْ مستقبل المسلمين في الهِند في خَطر تحوم حوله الشُّكوكُ والشُّبهات.

إنَّ شأنَ هذه الفرقة (في نظر أولئك الذين يَعرفون تاريخ مذهَبِها ومُعتقداتِها

(١) التعليق الممجَّد: ص: ٢٥، طبع المطبع اليوسفي.

(٢) المراد بها الفرقة الإمامية الشيعية.

الأساسيَّة وفَهْمِها وتصوُّرها للدين، والذين دَرسوا كُتُبَها المُعتبرة ومصادرها المُعتمدة لدىٰ أهلها دراسةً مباشرةً) ليس شأنَ خلافٍ في الاجتهاد والقياس، أو فِرقةٍ جانبيَّة لا تخرج عن نطاق الشريعة الإسلاميَّة، بل إنَّها تحملُ إزاءَ التَّصوُّر الصَّحيح للدِّين الذي يَنبني أساسه على الكتاب والسُّنَّة، وعظَمَةِ مكانةِ النبوَّة، وعَقيدة ختم النبوَّة، تفكيراً مُستقلاً وتَصوُّراً دينيّاً مُقابلاً، ويُمكن أن يُقدر ذلك ـ إلى حدٍّ ما ـ مِن عقيدة «الإمامة» لدىٰ الفِرقة الاثني عَشريَّة، التي تَعْتَقدُ أنَّ الإمامة نَظيرُ النبوَّة، بل تَفضُلها وتَفُوقُها في جوانبَ كثيرة[١].

يقول الإمام الدهلوي وهو يُبيِّن الغرض الأساسي مِن هذا الكتاب وغايتَه الأولىٰ:

«يقول الفقير وليُّ الله ـ عفا الله عنه ـ إنَّ بِدعة التَّشيُّع راجَتْ في هذا العهد وانتشرت، وتأثَّرتْ طبائعُ العامَّة بشُبهاتهم التي أوردوها، ونشأتْ في قلوب مُعظم أهل هذه المنطقة شكوك وشُبُهاتٌ كثيرةٌ في موضوع ثُبوتِ خلافةِ الخُلفاء الرَّاشدين»[٢].

لم يكن نظر الإمام الدهلوي إلى السَّطح الظَّاهر من هذه الفتنة التَّشكيكيَّة المُدبَّرة، بل كان يَنظرُ ـ ببصيرته الثَّاقبة ـ إلى أعماقِ تلك المُؤامرة الخطيرة التي كانت تَرسُب في داخله والتي كانت لتَظهرَ نتائجها البعيدةُ الخطيرة (مثل خَيبة الإسلام وإخفاقه في عهده الأوَّل الزَّاهر، وأنَّ صُحبة

---

(١) وقع لدينا أخيراً كتاب «الحكومة الإسلامية» لقائد الثورة الإيرانية روح الله الخميني الذي يعرف بآية الله العظمى الإمام الخميني، فقد جاء فيه في: ص ٥٢ بعنوان «الولاية التكوينية» بعد التصريح بأن الأئمة يملكون الخلافة التكوينية، وتخضع لحكمهم وسلطتهم جميع ذرات هذا الكون، ما يلي:
«وإنَّ من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقاماً لا يقربه ملك مقرب، ولا نبيٌّ مرسلٌ، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث، فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنواراً، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله». («الحكومة الإسلامية» طبع كتبخانه بزرك إسلامي ـ إيران).

(٢) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ١.

النبيِّ ﷺ لم تُثمر ولم تفعلْ فِعلها في تكوين مجتمع صالح فاضل يُـوثَـقُ به، ومن نتائج هذا النَّوع من التفكير والاعتقادِ الطَّبعيَّة وجود عدم الثِّقة بِصيانة القُرآن الكريم، وبقائِهِ على أصالته وصحَّته، عن طريق الصَّحابة الذين شهدوا نُزوله وتلقَّوه عن النبيِّ المَعصوم ﷺ مباشرة، وذلك في خير القُرون، وكذلك الاضطراب في صحَّة الأحاديث ونَقْلِ السُّنَّة النَّبويَّة، وجميعِ الأمور التي اتَّفق عليها المسلمون) ولذلك يقول الإمام الدهلوي:

«كُلُّ مَن يُحاول هَدم هذا الأصل (ثُبوت الخِلافة الرَّاشدة وصحَّتها) ويُنكر هذا الأصل الأصيل من الدين إنَّما يُحاول هَدْمَ جميع الشعب الدينيَّة»[١].

ويَزيد قائلاً:

«إنَّ الخُلفاء الرَّاشدين هم الواسطةُ بين رسولِ الله وبين أُمَّته في أخذ القرآن الكريم وتَلقِّيه»[٢].

ثم يُدرج الإمام الدهلوي في هذه الدَّائرة تلك الشُّعبَ والعلومَ التي حصلت ثَروتُها للأمَّة عن طريق الخُلفاء الرَّاشدين، كعِلم الحديث وعِلم الفِقه والإجماع على المسائل المُجتهد فيها، والقضاءِ على اختلاف الأمَّة، وعِلم الإحسان (الذي سُمِّيَ ـ أخيراً ـ بعِلم السُّلوك) وتَوضيحِ الفَرق بَين مراتب علوم الحكمة والأخلاق الفاضلة والأخلاق المذمومة، وتَدبير المنزل، وسياسة المدنيَّة، كلُّ هذه العلوم والفنون والشُّعب الدينيَّة انتقلت إلى الأمَّة عن طريق الخُلفاء الرَّاشدين وبتعليمهم ومَنهج عملهم، وتَدينُ لها الأُمم كُلُّها في ذلك»[٣].

ولذلك كان من المناسب ـ جداً ـ أن يَشرح ـ بعد تأليف «حجة الله البالغة» الذي هو تفسيرٌ علميٌّ ونظريٌّ للإسلام ـ كيف طُبِّقتْ هذه الأصول والتَّعاليمُ الإسلاميَّة بعدَ عهدِ النُّبوَّة ـ مباشرة ـ في عالم الواقع بنجاحٍ منقطع النَّظير،

---

(١) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ١.

(٢) المصدر السابق: ج: ٢، ص: ٤.

(٣) انظر للتفصيل «إزالة الخفاء» جـ: ٢، ص: ٦.

وكيف ظَهَرَتْ في صورة عَمليَّةٍ، وطُبِّقَتْ على الحياة بطريقةٍ رائعةٍ، وما هي الآثارُ التي عادت بها على المجتمع البشري، وكيف قَضتْ على مدنيَّتين عتيقتين جبَّارتين تملِكان أزمة السُّلطة والسَّيطرة حتىٰ اقتسَمتا العالم المُتمدِّن كُلَّه، ويرجعُ تاريخها إلى قرونٍ عريقةٍ في القِدم وكانتا تزدهران وتتقدَّمان تحت ظلِّ الحكومات (الساسانيَّة والرُّوميَّة) وفي قيادتها، وتؤثِّران على الحياة الإنسانيَّة وتطبعانها بطابِعها، كيف انتهىٰ دورهما، وذهَبَتا أدراج الرِّياح!؟[١].

مُؤلَّفات قديمةٌ أخرىٰ في الموضوع:

لم نَعْثُر في مجموعةِ الكتب القديمة في موضوع النِّظام الاجتماعي والسُّلطة الحاكمة ودائرةِ نُفُوذها وعَملها إلا على كتبٍ معدودةٍ (بغضِّ النَّظر عن درجتها وكيفيتها، بل في عددها وكمِّيتها كذلك)، ويحتلُّ كتاب الإمام أبي يوسف (١١٣ ـ ١٨٢هـ) تلميذ الإمام الأعظم أبي حنيفة (ت١٥٠هـ) وقاضي القُضاة في الخِلافة العبَّاسيَّة المعروف بـ«كتاب الخراج» مكانةً أوَّليَّةً وأساسيَّةً في هذا الموضوع، إلَّا أنَّ نطاق البحث فيه لا يَخرج عن وسائل الدَّخل للدَّولة الإسلاميَّة وماليَّتها ونِظامِ المحاصيل والخَراج فيها.

وأوَّلُ كتاب بَسيطٍ يجدر بالذِّكر في هذا الموضوع هو كتاب «الأحكام السُّلطانيَّة والوِلايات الدِّينيَّة» لقاضي القضاة العلاَّمة أبي الحسن عليِّ بْنِ محمد بنِ حبيبٍ الماوردي (٣٦٤ ـ ٤٥٠هـ) وقد جاء في ٢٥٩ صفحةً من القطع المُتوسِّط، ويدور الكتاب حول موضوع الإمامة وحُكمها الشَّرعيِّ وشروطها وكيفيَّة انعقادها، والمناصب التي تتولَّىٰ تَفويضَها وتَعيين المسؤولين عليها، وواجباتِ الإمام ومسؤولياته، وأحكام تعيين القُضاة والأئمَّة، وولايةِ الصَّدقات، والجِزية والخَراج وغيرِ ذلك من الأحكام وكذلك إقامةِ الحدود،

(١) انظر للتفصيل «إزالة الخفاء» جـ:٢، ص: ٥٤ عنوان «تحطيم الدولة الساسانية» وجـ: ٢، ص: ٥٩ ـ ٦٣ عنوان «تحطيم الدولة الرومية».

والحسبة، وغيرها، ولم يَرد فيه أيٌّ بحثٍ في ثُبوت خِلافة الخُلفاء الرَّاشدين وصِحَّتها ومآثرهم ومناقبهم ومكانتِهم في الدين.

ومِن أَضخم الكُتب في هذا الموضوع «الغياثي» واسمه الكامل «غياث الأمم في الْتِياث الظُّلَم»(١)، وهو تأليف شيخ الإمام الغزالي المعروف، وأستاذ الأساتذة في عصره، إمام الحَرمين أبي المعالي عبد الملك الجُويني (٤١٩ ـ ٤٧٨هـ) وقد ألَّف هذا الكتاب بإشارةٍ من وزير الدولة السَّلْجُوقيَّة الفاضل المعروف نظام المُلْك الطُّوسي (٤٠٨ ـ ٤٨٥هـ) (مؤسس المدرسة النِّظاميَّة ببغداد ونيسابور) لمطالعته ومراجعته، وقد كان هو في الحقيقة وزيرَ المَلك أَلْب أرسلان، وملك شاه السَّلجوقي ومُعتمده، ولكنَّه كان في الوقت نفسه رجل هذه الدولة العظيمة بل الإمبراطوريَّةِ الكبيرة الوحيد، وشخصيَّتها المركزيَّة(٢).

وهذا الكتاب يدور حول الأحكام الشَّرعيَّة للإمامة وصفاتها وواجباتها، فقد ذكر في القِسم الأوَّل منه صفات الأئمَّة والولاة والقضاة، كما جاء فيه البحث في أنه إذا لم يوجد للمسلمين إمام فماذا يجبُ عليهم عند ذاك، كما ذكر فيه صفات المُفتين والأمراء وفضلَهم، وما هي الواجبات العائدةُ على الأمَّة عند غَيْبَتِهم، وماذا يجبُ على المسلمين إذا تسلَّط عليهم حاكم فاقِد الأهليَّة بالسَّيف والقُوَّة، وإذا خلا عصرٌ من العصور من أصحاب الإفتاء فكيفَ تَعملُ الأمَّة وما هي مسؤوليتها؟ وما هي الأسباب التي تُوجب خَلْعَ الإمام وَعَزْله؟

ثم جاء في تفصيل ذكر الأحكام الفقهيَّة التي يُفرض على الأمة معرفتها والعمل بها عند فُقدان المُفتين.

ومن هنا يتحوَّل الكتاب إلى كتاب في الفقه الشَّافعي، وليس في الكتاب أيُّ

---

(١) طبع هذا الكتاب بتحقيق الدكتور عبد العظيم الديب وبعناية الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري على نفقة الشؤون الدينية لحكومة قطر عام ١٤٠٠هـ، ويشتمل الكتاب على ٦١١ صفحة من القطع الكبير.

(٢) انظر لترجمته «وفيان الأعيان» لابن خلكان، و«طبقات الشافعية».

مبحثٍ في موضوع ثُبُوت خلافة الخلفاء الرّاشدين وأهمِّيَّتها، إذ أنَّ الكتاب يُعالج ـ في الحقيقة ـ موضوعَ الأحكام الشَّرعيَّة للإمامة وصِفاتِها وواجباتها، وتَرِد في الكتاب في مواضعَ كثيرة تعريضات بكتاب «الأحكام السُّلطانيَّة» للماوردي وانتقاداتٌ على مؤلِّفه.

والكتابُ الثالث الجديرُ بالذكر في هذا الموضوع هو «السياسةُ الشَّرعيَّة في إصلاح الرَّاعي والرَّعيَّة» لشيخ الإسلام ابن تيميَّة (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) وقد صرَّح المُؤلِّف العلاَّمة في مقدِّمة كتابه هذا بأنه رِسالةٌ مختصرةٌ اشتملتْ على أُصول السياسة الإلٰهيَّة والنِّيابة وأحكامِها التي لا يستغني عنها الرَّاعي ولا الرَّعيَّة، والكتاب ـ في الأصل ـ تفسيرٌ وتفصيلٌ للآيةِ الكريمة:

﴿ ۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ ـ إلى قوله تعالىٰ ـ ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٨ ـ ٥٩].

فعُنوان الباب الأوَّل من القِسم الأوَّل «الوِلايات»، وعُنوان الباب الثاني «الأموال»، وجاء البَحثُ في القِسم الثاني أوَّلاً عن حدود الله تعالىٰ وحقوقه، ثم حقوق العِباد، واشتمل الكتاب على ١٦٨ صفحة من القطع المتوسِّط(١).

ولم يتعرَّض المُؤلِّف في هذا الكتاب للمباحِثِ التاريخيَّة والأصوليَّة والكلاميَّة المتعلِّقة بالخلافةِ الرَّاشدة، والخلفاء الرَّاشدين، التي يَحتلُّ فيها مُؤلِّف الكتاب الجليل مكانةَ الثِّقة والإمامة والاجتهاد، ولو اعتنىٰ بهٰذه الناحيةِ لكانت زِيادة قَيِّمَةً في المكتبة الإسلاميَّة العِلميَّة والبحوثِ الموضوعيَّة، ولكنَّه بقلَمه السَّيَّال وعِلمه الزَّاخر في هذا الموضوع على صفات «مِنهاج السُّنَّة» الذي يتجلَّىٰ فيه نموذج بَحره العِلمي الزَّاخر، وجَوَلاَن قَلَمِه القويِّ السَّلسال(٢).

مَكانَة الخِلافَة ومَنزلتُهَا في الإسلام:

يتجلَّى في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة تَصوُّر اعتناق الدعوة

---

(١) بين أيدينا طبعة رابعة للكتاب صدرت من دار الكتاب العربي بمصر عام ١٩٦٩.

(٢) راجع «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج: ٢.

الإسلامية والدين الحنيف والمؤمنين به في صورة جماعة منظمةٍ مُتضامنة متَراصَّةٍ، وكلماتُ «الأمة» و«الملة» و«الجماعة» التي استُخدمتْ لهم كلُّها تَدلُّ على هذه الحقيقة دلالةً واضحة، ويَعرف أصحابُ العلم والبصيرة أنَّ هذه الكلمات المستخدمَة في لغة الكتاب والسنَّة، واصطلاحهما، لم تُستخدم ـ إطلاقاً ـ لمحض التَّصور السطحي للكثرةِ العددية والتجمع البشري العام الذي لايملك أي وزنٍ أو تأثير في تاريخ الأديان والمِلَلِ ولا في مقادير الشعوب والحضارات، بل لقد زخر القرآن الكريم كُلُّه في صَدد بيان وقائع الأمم السابقة حيناً، وفي التعرُّضِ لبيان أسباب القوة والضعف والهزيمة والغلبة حيناً ـ آخر ـ بعدَم تأثيرِ الكَثرة العددية، وخِفَّة الجموع البشرية، وفُقدانها لأي وزنٍ واعتبار، وغَلَبَةِ الشر والفساد رُغم وُجود الأفراد الصالحين الأخيار، وشقاءِ الإنسانية وبؤسها وضَعفِ الحق وخُذلانه، كلّ ذلك مما يؤكِّد على أن الأفراد المتفرِّقين ـ مهما كان عددهُم ـ لا يحملون ـ في ميزان العقل والعدالة ـ أهمية كبيرة وفائدة مرجوة عامةً.

إنَّ الأهداف التي يرمي إليها الإسلام تَشتملُ على إصلاح العلاقة وتنظيمِها وتَقويتِها بين العبد والمعبود، ثم توسيع نطاقها وتعميمها، ومحاولةِ سبكِ الحياة الإنسانية في قالبها، وتَصحيح العَلاقاتِ وتطبيقها بين أفراد الجماعة وأعضائها، وتهيئةِ الجوّ والمناخ الصالح لحياةٍ آمنة وادعةٍ مُطمئنة، مُهذبةٍ جميلة زاهية، تتوفَّر فيها الفُرص الكاملة لأداء حقوقِ العباد وربِّ العباد، والبلوغ إلى غايات الكمالِ ومدارج الرُّقي والفضل التي أودعت صلاحيتُها في فطرة الإنسان.

لقد حاول الإسلام ألاَّ تضيع العبقريةُ البشرية وقُوتها العلمية في مقاومة تلك الأخطار، والتوقي من تلك الخسائر والأضرار، وإزالة تلك المفاسد والأمراض التي تنجُم ـ تارةً ـ نتيجة الحياة المُمزَّقة غيرِ المنظمة ومنَ القوانين الوضعية تارةً أخرى، ولا بـد لذلك من خلافـةٍ وإمـارة تَبني على الاعتقـاد بقـانونٍ نازل من

السماء وشريعةٍ ربانية، وحاكميةِ الإِلٰه الواحد وألوهيته ورُبوبيته.

أمَّا الشريعةُ الإلٰهية فإنه يَلزمُ الاعتقاد فيها بأنها مُنزَّلة من الله العليم الحكيم، وإنها بريئةٌ عن الأخطار والمصالح الشخصية والأغراض، وإنها فوق العصبيات، والمحسوبيات، والعلاقات.

وأمَّا الخلافة والإمارة فإنه يجب عليها أن تكون تُرجماناً صالحاً وممثلةً صادقة للشريعة الربانية، بعيدة ـ إلى حد المُستطاع البشري والإرادةِ الإنسانية ـ عن التمييز والعصبية بغيرِ حق، بريئةً عن عدم المساواة بين الناس، والمُحاباة والمداهنة في الدين.

وقد أصدرَ الشارعُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ لتكميلِ هذه الأهداف وتحقيقِها وظهور نتائجها وثمارِها ـ من أول الأمر ـ تعاليمَ وإرشاداتٍ يضطر المسلمون ـ بناء عليها ـ أن يتكوَّنوا جماعةً مُنظَّمة مترابطة تخضع لأحكام ولي الأمر وإدارته الذي يمتازُ عنهم ـ بصفةٍ عامة ـ بكثير من الخصائص، ويحافظ على مصالحهم ومنافعهم وحاجاتهم، وقد اختارُوه في ضوء أصول الشريعة السَّمْحةِ المَرِنة العادلة، فإذا كان ذلك يتولى «الإمامة الكبرى» فإنَّه يُدعى بـ«خليفةِ المسلمين» و«أمير المؤمنين» أو «الإمام» أما إذا كان نائباً عنه أو مُرشَّحاً منه أو اختاره المسلمونَ لتنفيذ أحكام الشريعة وفصلِ الخصومات وتنظيمِ الحياة الدينية الاجتماعية ـ بشكل جُزئي محلي ـ فهو «الأمير».

لقد كان اختيارُ الخليفة وترشيحُه من تلك الواجبات الأساسية على المسلمين، فكان أن قَدَّم أكبرُ المحبين للرسول ﷺ وصاحبهُ الصادق الوفي المستميتُ دونه، سيدُنا أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وجماعة صحابتِه الكرام الذين كانوا يَفْدُونه بالمُهَجِ والأرواح ويُفضِّلونه على الأنفس والأبناء والآباء ـ رضي الله عنهم وأرضاهم ـ مع أهل البيت الطيبين الأطهار ـ فصْل هذه القضية، وترشيحَ خليفة المسلمين وتعيينَه على دفنِ الجسد الطاهر ﷺ ولا يزال هذا ـ تقريباً ـ دين المسلمين وطريقَهم عند وفاة أي خليفة واختيار خليفة آخر.

ولم يُحرم العالم الإسلامي من يوم اختيار سيدنا أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ خليفةَ المسلمين عام ١١هـ إلى عهد الخليفة المستعصم بالله العباسي (ت ٦٥٦هـ) من الخليفةِ المسلم ، وبقي العالم الإسلامي ـ في أثناء ذلك ـ بدون خليفةٍ أيام غياب الخليفة المسترشد بالله ووقوعه في الأسر ، الذي اعتقله السلطان مسعود السلجوقي في العاشر من رمضان عام ٥٢٩هـ وذلك لمدة قليلة لا تتجاوز ثلاثة أشهر وسبع ليال ، وقد كان هذا حادثاً أليماً وتجربة جديدة قاسية غَشَّىٰ بسببها على العالم الإسلامي السوادُ وعَلاه الحزن والكآبة ، وقامتْ لها بغداد وقعدت ، وفي تعبير المؤرِّخ ابن كثير:

«انزعجَ الناس لذلك ، وزُلزِلوا زلزالاً شديداً صورةً ومعنى ، وجاءت العامة إلى المنابر فكَسروها وامتنعوا من حضور الجماعات ، وخرَج النساء في البلد حاسرات يَنُحْنَ على الخليفة ، وما جَرى عليه من الأسر ، وتأسى بأهل بغداد في ذلك خلقٌ كثير من أهل البلاد ، وتمَّت فتنة كبيرة وانتشرت في الأقاليم ، واستمر الحال على ذلك شهر ذي القعدة والشناعةُ في الأقاليم منتشرةٌ ، فكَتب الملك سَنْجَر إلى ابن أخيه يُحذِّره غِبَّ ذلك وعاقبة ما وقع فيه من الأمر العظيم ، ويأمرُه أن يُعيد الخليفة إلى مكانه ودار خلافته ، فامتثلَ الملك مسعود ذلك»[١].

وإنَّ القصيدة المأساوية الحزينة المفطِّرة للقلوب والأكباد التي قالها الشيخ سعدي ـ الذي كان بعيداً عن مركز الخلافة في شِيراز ـ على حادثِ شهادة الخليفة المستعصم بالله، التي يقول في مطلعها ما ترجمته بالعربية:

«لقد حُقَّ للسَّماء أن تُمطر على الأرض الدماءَ على سُقوط المستعصم أميرِ المؤمنين».

تُصرِّح بنظرة المسلمين إلى الخليفة والخلافة ، ما هُو تَصوُّرهم لها ، وما

---

(١) البداية والنهاية: لابن كثير ، جـ: ١٢ ، ص: ٢٠٨.

هي عَواطِفُهم التي لا يملكون حبسها وكَبْتَها على حرمان العالم الإسلامي منها؟.

التّعريفُ الجامعُ المانعُ للخِلافَة:

لقد عرَّف الإمام الدِّهلوي ـ الذي كان يَملكُ بصيرةً نافذة ودراسةً عميقة واسعةً للكتاب والسنة والفقه، والعقائد والكلام والسيرة والتاريخ، وكان عارفاً بأسرار الشريعة وحقائقها ـ الخلافة تعريفاً جامعاً مانعاً يَصعُب أن يُعرَّف بأفضل وأدقّ منه، وإنَّ كل لفظةٍ من ألفاظ هذا التعريف تحملُ في طيَّاتها سِجلاً من المعاني والحقائق والأمثلة، يقول:

«الخلافة هي الرئاسة العامة في التصدّي لإقامة الدين بإحياء العُلوم الدينية، وإقامة أركان الإسلام، والقيام بالجهاد وما يتعلق به من ترتيب الجيوش والفَرض للمُقاتلة وإعطائهم من الفيء، والقيام بالقضاء، وإقامة الحدود، ورفعِ المظالم، والأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، نيابةً عن النبي ﷺ»[1].

ثم يقول مُبيناً معنى «إقامة الدين» وزيادةَ إيضاحٍ له:

«عندما نَنظرُ إلى الأمور نظرةَ استقراءٍ، وننتقلُ من الجزئيات إلى الكلّيات، ومن الكُليات إلى الكُلِّية الواحدةِ الشاملة للجميع، نصل إلى نتيجةِ أنَّ الجنس الأعلى لهذه الأمور مِنَ الجُزئيات المتشتِّتة والكليات المنتشرة الكثيرة (وكأنَّها كُلِّيةُ الكليات) هي تلك الحقيقة (الكلية الجامعة) التي عُنوانُها «إقامة الدين» والتي تَندرج تحتها أنواعٌ أخرى، منها: إحياء العلوم الدينية التي تشتمل على تعليم الكتاب والسنَّة والتذكير والموعظة، يقول الله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة: ٢][2].

---

(١) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ٢.

(٢) المصدر السابق: جـ: ١، ص: ٢ ـ ٣.

الاستدلالُ بالقرآن الكريم على خلافة الخلفاء الراشدين:

إنَّ أَروعَ ما يحتوي عليه هذا الكتاب وأشوقَه للمتذوِّقين لمعاني القرآن الكريم ، هو ما استدلَّ فيه الإمام الدهلوي على انعقاد خلافة الخلفاء الراشدين ، وأنهم أصحاب الخلافة الراشدة الحقَّة وأنه تَحقَّق بهم الأمر التكويني الرباني والمشيئة الإلٰهية ، بآياتٍ كريمات من القرآن الحكيم ، ولَفت الأنظار إلى تلك الإشارات بل التَّصريحات في الآيات البينات التي تُثبت بداهة ـ بل في صورة نتائج رياضية قطعيةٍ في بعض المواضع ـ أنَّ هذه الآيات لا تصدق ولا تنطبق إلا عليهم ، ولا يمكن أن يُراد بها غيرهم ، وأن هذه النبوءات الواردة في الآيات لا تَرجع إلى غير أشخاصهم ، وأن الوعود التي انطوت عليها تلك الآيات لم تتحقَّق في عهدٍ غير عهد خلافتهم ، فلو سحبنا ـ من الوسط ـ شخصياتهم وعهودَهم لظلتْ هذه الأوصاف بدون ما تَصدُق عليه ، ولباتتْ هذه الوعود تنتظر التَّحققَ والوقوع.

نختارَ من بين الآيات التي أَوردها الإمام الدهلوي آيتين اثنتين كنموذج ، منها آيةٌ من سورة النور ، يقول الرب عز وجل:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [النور: ٥٥].

يَقولُ الإمام الدهلوي: إنَّ هذا الوعد (بالاستخلاف في الأرض وتمكين الدين والأمن بعد الخوف) إنما كان مع أولئك الذين كانوا مَوجودين وقتَ نزول سورة النور ، وقد تشرَّفوا بالإسلام وصحبة النبي عليه الصلاة والسلام ، وشاركوا في تأييد الدين الحنيفِ ونصرِه ، يقول الإمام الدهلوي ـ بصراحة ووضوح ـ: إنَّ هذا الوعدَ لم يكن مع سيِّدنا مُعاوية رضي الله عنه ، ولا معَ بني أمية وبني العباس الذين لم يكونوا ـ حينذاك ـ قد دخلوا في الإسلام ، ولا كانوا موجودين في المدينة المنورة.

ثم يقول: إنه ليسَ من الممكن ولا منِ المعقول أن تُولّى جماعةُ المسلمين كُلُّها الخلافةَ في الأرض ، ويتبوؤون كلُّهم في وقت واحد منصبَ الخلافة ، فلا يُمكن أن يراد بذلك إلا بعضُ الأفراد المعدودين.

يقول:

﴿ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ﴾ أي: لَيستخلفنَّ جمعاً منهم ، والطاعةُ والانقيادُ من لوازم ذلك ، ثم عندما يَتحقَّق هذا الوعد يظهرُ الدين كُلُّه ، وتحصل له السلطة والسيطرة الكاملة ، وليسَ كما يقول الاثنا عشريون: إنَّ الدِّين المرضي عند الله يبقى ـ دوماً ـ مستتراً مخفيّاً ، ولذلك اتخذ أئمةُ أهل البيت التّقية شعارَهم ، ولم يُقدَّر لهم أن يُعلنوا دينهم ويُظهروه ـ جهاراً وعلانية ـ.

﴿ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ أفادت هذه الآية أنَّ ذلك الدينَ الذي لا يُقدر على إظهاره في زمن هذه الخلافة الموعودة؛ ليس ديناً مَرضيّاً مختاراً عند الله تعالى[1].

كذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ : أي أن الله ـ تعالى ـ يخلق في عهد هذه الخلافة (الموعودة) جواً من الأمن والطمأنينة والسلام بدلاً من جَو الخوف والفزع ، و يُثبت ذلك أن هؤلاء المستخلَفين وسائر المسلمين يعيشون وقتَ تحقُّقِ هذا الوعد في أمنٍ وسلام ، لا يرُهبهم الكفار ذوو الدياناتِ المختلفة ، ولا تُخيفهم جماعةٌ أو قوة.

وبالعكس من ذلك يقول الإماميون: إن أئمة أهل البيت ما زالوا في خوفٍ ومطاردة وفزع ، وأنهم استخدموا «التقية» وأنهم واجهتهم ـ دائماً ـ منِ قبل المسلمين أنفسِهم محنٌ وبلايا ، وعانوا من الذِّلة والإهانة ، ولم يعيشوا يوماً مُؤيَّدين منصورين[2].

---

(١) إزالة الخفاء: ج: ١ ، ص: ٢٠.
(٢) المصدر السابق: ج: ١ ص ، ٢٠.

وقد تحقَّق وعدُ الاستخلاف والتمكين في الأرض على أيدي هؤلاء المهاجرين الأولين والحاضرين وقتَ نزول آية الاستخلاف ، فإذا لم يكن هؤلاء خلفاء ، فقد بقيَ هذا الوعد غيرَ محقق ، ولن يتحقق إلى قيام الساعة ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ[(١)].

والآية الثانية هي آية سورة الفتح رقم: ١٧ ، يقول تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ ، وقد بحثَ الإمام الدهلوي في هذه الآية بحثاً مُفصّلاً ، وخُلاصته أن نبي الله ﷺ خرج عام ٦ هـ مع جماعة كبيرة من أصحابه بناء على رؤيا رآها ، إلى مكةَ المكرمة ، قاصدين أداءَ العمرة ، وقد خرج معه ﷺ عددٌ كبير من أصحابه لخُطورة الحادث ، وظروفِ مكة المكرمة ، وخَطَرِ قيام قريشٍ بالمعارضة والمعاداة ، ولكن لم يخرُج معه الأعراب (سكان البوادي) لخَوفهِم ونِفاقهم ، وقد وقع في الحديبية ذلك الحادث التاريخي لفَسخ العزيمة ومعاهدةِ الصلح مع قريش الذي ذُكر في كتب السيرة والحديث بتفصيل ، ووقعتْ هناك بيعةُ الرضوان التي أعلن الله تعالى للمشاركين فيها بنِعمة رضاه ، وبشرهم بالفتح القريب.

ثم أعلن في سورة الفتح هذه أن الأعراب ـ الذين لم يكونوا حاضرين وَقْت صُلح الحديبية والذين انصرفوا عن الزمالة والمشاركةِ في هذه المهمة العسيرة الخطيرة ـ لا يُصحَبون ولا يُشَاركون في هذا الفتح القريب (فتحِ خيبر) (الذي وقع في شهر محرم الحرام عام ٧ هـ) ، يقولُ الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الفتح: ١٥].

ثمَّ قيل بعد ذلك لهؤلاء المخلفين أنه لا يُؤذن لكم بالمشاركة في الفتح القريب (فتح خيبر) والاستمتاع بمغانمه ، ولكنكم ستدعون إلى حرب مع

---

(١) إزالة الخفاء: ج: ١ ، ص: ٢٣.

أناس أولي بأس شديد، من صفاتهم أنَّهم أصحاب قوةٍ وشجاعة وبأس، ومن خصائصهم أنهم إما أن يُقاتلوا أو يدخلوا في الإسلام وليس هناك حلٌّ وسط (كالجِزية مثلاً)، وأن هذه الدعوة والنداء إلى هذه الحرب والقتال يكونُ لها من الحُب والقبول عند الله تعالى، وأنَّ الداعي إليها يكون له مِن الوزن والاعتبار، ويكونُ له من وُجوب طاعته على الناس أنَّكم إذا قبلتم دَعوته، وأطعتموه يُؤتكمُ الله أجراً حسناً، وإن توليتم وانصرفتُم كما توليتم من قبلُ يُعذبكمُ الله عذاباً أليماً، يقول الله تعالى:

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٦].

يقول الإمام الدهلوي: «يَثبتُ من قوله تعالى (ستدعون) بالاقتضاء أنَّه يكون في المستقبل داعٍ يُوجِّه الدعوة للأعراب (سكان البادية الذين لم يخرجوا مع الجيوش الإسلاميةِ بمناسبة صلح الحديبية) إلى حرب مع قوم ليس لها إلا صورتان اثنتان: إما القتال أو الإسلام، (ولا يصدُق ذلك إلا على المرتدين مِن قبائل العرب الذين لم يكن يَحِلُّ أخذ الجِزية منهم، فهم إما أن يُقاتِلوا فيُقتلوا في الحرب، أو يُسلِموا ويعودوا إلى حظيرة الدين).

ولم يتحقَّقْ هذا إلا في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ الذي قاتل المرتدين من العرب، وكان حكمهم الشرعي ذلكَ لا غير، وليس من المُمكن أن يُراد به الروم ولا الإيرانيون الذين كانتْ لهم ثلاث صور، إما القتال أو الجزية أو الإسلام، ويَثبُت بذلك ـ بداهةً ـ خلافة أبِي بكر الصديق رضي الله عنه؛ الذي بَعث جيوشه تحت قِيادةِ سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه، لمقاتلة هؤلاء المرتدين، ووجَّه الدعوة إلى الأعراب، ثم إنَّ الوعد بالأجر الحسن على قبول هذه الدعوة، والوعيدَ بالعذاب الأليم على الإعراض عنها،

ليسَ إلا حقَّ الخليفة الراشد ومنصبه ومكانَته(١).

مُحتوياتٌ قَيِّمَةٌ أُخرى في الكتاب:

ويَشتمل هذا الكتاب ـ علاوةً على الأدلة والبراهين على إثبات خلافة الخلفاء الراشدين، وذِكرِ مناقبهم ومآثرهم وإنجازاتِ عهودهم، ومجموعةٍ قيمة صالحةٍ من كلماتهم وتوجيهاتهم ـ على فوائدَ غالية وتحقيقاتٍ نادرة، ونُكات لطيفةٍ، وموادَّ قيمة، لا تتوفر في كتب القرون الثلاثة(٢)، وبيان الفَرق بين الخلافة والمُلْك، وتفاصيلهما(٣) وشرح «المُلك العَضوض»، والتصريح بأنَّ دولة بني أمية وسلطتهم المُطلقة لم تكنْ خلافة، وهو وإن كان يرى أن الخلافة الراشدة انقَضَتْ مع سيدنا عليّ رضي الله عنه لكنه يتجنَّب الطَّعن والوقيعة وإساءةَ الظن بسيدنا معاوية رضي الله عنه وينصح به، بناءً على ما ورد في فضله ومناقبه من أحاديث وآثار(٤)، أما خُلفاء بني أمية بعده فيقول في حقهم ـ بكل صراحة ـ:

«لمَّا تسلَّط عبدُ الملك (بن مروان) على الحكومة زالتِ الفوضى والاضطراب، وظهرتْ أمور الخلافة الجائرة ـ التي بيَّنها الرسول ـ ﷺ في

---

(١) انظر للتفصيل «إزالة الخفاء»: ج: ١، ص: ٣٨ ـ ٣٩، وقد جاء تأييد هذا الاستدلال في تفسير العلامة شهاب الدين محمود الآلوسي (م ١٢٧٠هـ) المعروف بـ«روح المعاني»، يقول الآلوسي:
«المراد بالمغانم مغانم خيبر كما عليه عامة المفسرين ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ وهم على ما أخرج ابن المنذر والطبراني عن الزهري: بنو حنيفة، ومسيلمة، وقومه أهل اليمامة، وعن رافع بن خديج: إنا كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم، حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة، فعلمنا أنهم أريدوا بها، وشاع الاستدلال بالآية على صحة إمامة أبي بكر رضي الله عنه (روح المعاني ص: ١٠١ ـ ١٠٤).

(٢) إزالة الخفاء: جـ: ١، ص: ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) المصدر السابق: جـ: ١، ص: ١٢٦.

(٤) المصدر السابق: ص: ١٤٦ جـ: ١.

أحاديثَ متعددة ـ على مَسرحِ الوجود»[١].

ومِن خصائص هذا الكتاب احتواؤُه على مادةٍ زاخرة في المنهج الفقهي لسيدنا عُمرَ الفاروق رضي الله عنه، ولفتاواه وأحكامِه وأقضيته، وقد تكوَّن منها ظهورُ «فقه الفاروق» رضي الله عنه[٢].

ولعلَّ هذه الخُطوة نحو عرض «فقه الفاروق» رضي الله عنه بصورةٍ متميِّزة فريدة، وجمع اجتهاداتِه وأقيستِه وفتاواه كانت الخطوة المباركة الأولى التي أنجزها الإمام الدهلوي مع أوليَاته وسوابقه العديدة، ولم يؤلَّف ـ إلى الآن ـ في هذا الموضوع أيُّ كتاب مستقلٍّ جامع، إلاَّ أنَّ الدكتور محمد رَوَّاس قلعه جي رتَّب كتاباً ضخماً كبيراً باسم «موسوعة [فقه] عمر بن الخطاب [عصره وحياته]» رضي الله عنه، قامتْ بنشرها مكتبة الفلاح بالكويت ويشتمل الكتاب على ٦٨٧ صفحة من القطع الكبير[٣].

ومع إثبات خلافةِ الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وذِكر فضلهم ومناقبهم ومآثِرهم وخدماتهم العظيمة بإسهاب وتفصيل يتجلَّى فيه تذوُّق الإمام الدهلوي للموضوع، وحماسُه واندفاعُه نحو الإشادة بجليل أثرِهم، والذي كان تلبيةً لحاجة ماسَّةٍ كانت من مقتضيات عصره ومن العوامل والدوافع القوية إلى تأليف هذا الكتاب، لم يتحفَّظِ الإمام الدهلوي في ذكر مناقب سيدنا علي بن أبي طالب وجلائل أعماله ومآثره، ولم يضنَّ في ذلك بشيءٍ، بل ذكر سيدنا عليَّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه بكُل حُبٍّ وإجلال، واعترافٍ بحقوقه ومكانتِه الجلية وعواطف الحبِّ والشوق نحو أهل البيت

---

(١) إزالة الخفاء: ص: ١٤٣، جـ: ١، ويقول المؤلف عن يزيد بكل صراحة «دعاة الضلال يزيد بالشام، ومختار بالعراق» (حجة الله البالغة» جـ: ٢، ص: ٢١٣ وكذلك وصفه في بحث المناقب بقوله «كان منافقاً أو فاسقاً» ص: ٢١٥).

(٢) راجع «إزالة الخفاء»، جـ: ٢، ص: ٨٥ ـ ١٤٢.

(٣) [وقد طُبع أخيراً في دار النفائس ببيروت في سلسلة الموسوعة عام ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م].

الكرام ، بتفصيلٍ وإفاضةٍ ، وقد بدأ مناقبَ سيدنا علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومآثِرَه بقوله:

«مآثـرُ أميـر المؤمنين وإمـام الأشجعيـن أسـدِ الله الغـالب علـيٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه».

كذلك يُذكر السَّيدين الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما بحبٍّ وإجلال وإكبار ، ويَعُدُّ في الوقائع الهائلة العظيمة بعد وفاة النبي ﷺ شهادةَ سيدنا عثمان رضي الله عنه الفتنةَ الأولى التي وقعت في الإسلام(١) ، وشهادةَ بِضعة الرسول ـ سيدنا الحسين ـ رضي الله عنه الفتنة الثانية ، وأوردَ حديثاً من «مشكاة المصابيح» برواية البيهقي ، يُفيد أن نسبة سيدنا الحسين رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ كنسبة مُضغة اللَّحم إلى الجِسم ، وأنَّ نبيَّ الله ﷺ قد تنبَّأ باستشهاد سيدنا الحسين رضي الله عنه على أيدي أفرادٍ من أمته(٢) .

وقد عَدَّ من هذه الفِتَن واقعةَ الحَرَّة العظيمة ، التي انتُهكتْ فيها حُرمة المدينة المنورة في عهد يزيد ، ووقَع من القتل والنهب والسلب ما يَـندى له الجبين ، وتعرضتِ المدينة وأهلُها للامتهان والذّلة وانتهاك الحرمات(٣) ، وقد انتقد الإمامُ الدهلوي بني أمية في مواضع كثيرة من الكتاب(٤) ، وهكذا جاء الكتاب ميزاناً عادلاً وسَطاً ، لا يميل نحو الإفراط ولا التفريط ، وهذا هو شعارُ أهل السنة والجماعة ، وموقِفُهم المتَّزِنُ الصَّحيح.

الدّلالةُ على الفِتن والتّغيُّرات الحادثة بعد وفاة النبي ﷺ:

إنَّ مِن أكبر خصائص هذا الكتاب أنه تتجلَّى فيه صورةٌ بارزةٌ مجسَّدةٌ لتاريخ الإسلام الديني ، و التغيُّرات الدينية والعقلية والفكرية التي طرأتْ عليه ، إنَّ

(١) انظر إزالة الخفاء جـ: ١ ، ص: ١٥٤ .
(٢) المصدر السابق: جـ: ١ ، ص: ١٥٤ .
(٣) المصدر السابق: ١٥٤ .
(٤) المصدر السابق: ص: ١٥٤ ـ ١٥٥ .

كُتب التاريخ العلمي والسياسي للإسلام كثيرةٌ لا تحصى ، ولكننا لا نعثر على كتاب يُشير إلى معالم التغيرات الخلقية والعلمية والعقلية في أثناء تسلسل التاريخ المدني والسياسي للإسلام (مهما كانت هذه التغيُّرات الحادثة خفيفةً قليلةً باهتة اللون لا تُكشف إلا بمجهرِ المعرفة الدقيقة للطبيعة الإسلامية)، وكل ما يُوجد في عامة الكتب بهذا الصدد لا يعدو مادة متفرقة مُنتشرة ، ولم يخترْ أحدٌ من المؤلِّفين هذا الموضوع عنواناً لبحثه المستقل، أمَّا الإمام الدهلوي فإنه يَذكر الفتن الحادثة في القرون المشهود لها بالخير ، والفِتن التي حدثتْ بعده[١] ، واختلافَ الأحكام بين خَير القرون وشَرِّ القرونِ[٢] ، والتَّغيراتِ الفكريةِ والمعنوية التي طرأتْ ضمن التغيرات الكلية ، والتي وَقعت في عهد الرسالة ، وبعدَ خير القرون ، وقد جاءتْ عناوينُ هذه المباحث كما يلي:

ظهورُ الكذب ، التَّقعُّر والمُغالاة فيما يتعلق بقراءةِ القرآن الكريم وتجويدِهِ ، والاكتفاءُ بقراءة القرآن الكريم وتلاوته ، وقِلةُ التدبر والتفقُّهِ فيه ، والتَّقعير وشقّ الشعرة في المسائل الفقهية ، البحثُ والجدال في المسائل الفرضيّة التي لم تقع أصلاً ، تأويلُ متشابهاتِ القرآن وإبعادُ النُّجْعَةِ فيه ، توليدُ الأسئلة الطريفة في العقائد والإلٰهيات ، إحداث الأوراد والأحزاب بنيَّة التقرب إلى الله تعالى التي لا تُوجد في السنَّة المأثورة ، الالتزامُ بالمستحبَّات كالالتزام بالواجبات ، انقراضُ الشورى الاجتماعية ، ومراجعةُ العلماء الصالحينَ في الإفتاء ، نُشوء فِرَقٍ جديدةٍ كالقَدرية والمُرجئة وغيرهما ، رفعُ الثقة المتبادلة بين المسلمين وعَدم أَمْنِ بعضهِم بعضاً ، سيطرةُ أولئك على الدولة الذين لا يتأهلون لها أصلاً ، أو هم من رجال الدرجة الثانية أو الثالثة ، الكَسلُ والتواني في إقامةِ أركان الإسلام[٣] .

---

(١) إزالة الخفاء: ص: ١٢٢.
(٢) المصدر السابق: ص: ١٣٦.
(٣) المصدر السابق: ص: ١٣٣ ، جـ: ١.

ظُهور الكتاب ونَشره:

طُبع هذه الكتاب ـ لأول مرة ـ بإشارةٍ من الشيخ جمال الدين خان وزير بَوْفَال ، وبعِناية الشيخ محمد أحسن الصديقي عام ١٢٨٦هـ بالمطبَع الصديقي ببَرِيْلِي ، وكانت عنده ثلاثُ نُسخٍ من الكتاب ، قام بالمقابلة بينها وتَصحيحها ، نسخةِ الشيخ جمال الدين ببوفال ، ونسخةٍ ثانية للشيخ أحمد حسن الأَمْرُوْهي ، ونسخةٍ ثالثة للشيخ نور الحسن ، وهناك من القرائن ما يدل على أن المؤلِّف الإمام لم يُعد النظر في الكتاب.

وصدرتِ الطبعة الثانية للكتاب من أكاديمية سهيل ، لاهور ، باكستان ، عام ١٣٩٦هـ الموافق ١٩٧٦م ، وهي صورة للطبعة الأولى[١] ، ونُقل الكتاب إلى العربية بعناية المجلس العلمي بدابهيل ، ولكنَّه لم يُنشر في العالم العربي كما ينبغي ، ونَقلَ إمامُ السنة الشيخ عبد الشكور الفاروقي اللكنوي هذا الكتاب إلى الأردية ، ولكنَّ هذه الترجمة تنتهي إلى الفصل الخامس ، وأسماها بـ «كشف الغطاء عن السنة البيضاء» ويشتمل ما طُبع منها على ٣٣٦ صفحة ، وتم طبعُها في عمدة المطابع بلكهنؤ عام ١٣٢٩هـ.

* * *

(١) وكانت هذه الطبعة بين أيدينا عند كتابة هذا الباب ، وقد أحلنا فيه إلى صفحاتها.

الفصل الخامس

دَورُ الإمام الدهلوي القيادي في عهد الفوضى السياسة واحتضار الدولة المغولية

ثلاث قوى مُقاتلة ناشئةٌ:

لقد تقدَّم في الباب الثاني من الكتاب أنَّ الهند ـ في القرن الثاني عشر الهجري ـ كانت قد بلغت من الانحطاط السياسي والإداري والخلقي ، وفساد النظام وملوك الطوائف والقلق والاضطراب ما يصحُّ أن يُعبَّر عنه بحالةِ احتضارٍ لأي مجتمع ونظام ، لقد أصبحتِ الدولة المغولية رمزاً للسلطة الطويلة القوية لأسرةٍ مسلمة حاكمة ، ولم تَعُد وراءهَا قوةٌ مساندة ولا إدارة حازمة ولا هِمة عالية .

وكانتْ هناك عندئذ ـ في ظاهر الأمر ـ ثلاثُ قوىً مقاتلة ناشئة تتحكم لا في مصير الدولة المغولية فحسب بل في مصير البلاد كُلّها ، وهي كما يلي: المَرْهَتَة ، السِّيْخ ، والجَات (الزط) .

المرهتة:

لقد تحوَّلت المَرْهَتَة ـ الذين كانت تَنحصرُ نشاطاتهم وتحركاتهم في

الجنوب (دَكَن) وكان شأنهم شأن فريق المحتجِّين المتظاهرين (Agitators)، وشأنَ قوةٍ حربية تَشُنُّ حرب العصابات (Guerrilla) ضد الحكومة المنظمة الشرعية ـ بسَببِ ضَعْف الحكومة المركزية الذي يَزداد كُلَّ يوم ، ومنازعات القادة الطامِحين الذين كانوا يُجرِّبون حظوظهم ، وقِصر نظر الأمراء والولاة (الذين كانوا يستنجدون بالمرَهتة لإلحاق الهزيمة بأعدائهم ، ومُناوئيهم أو إخضاعهم؛ إلى قوةٍ بارزة شاملةٍ للهند كُلِّها ، وظلت تحلم بالسيطرة على عرض دلهي ، وملأ ذلك الفراغ الذي أحدثه ضَعف القوة العسكرية المغولية ، وسُوءُ إدارتهم وعَدم جَدارتهم.

وقد عزم «مَلْهَارْ رَاوْ هَوْلَكَر» و«رَكُوْنَاتـه رَاوْ» عام ١١٧٠هـ الموافق ١٧٥٦م[1] على السيطرة على شمال الهنـد ، وحملاَ بمعونة الرّط على دلهي عام ١١٧١هـ الموافق ١٧٥٧هـ ، واضطرَّ نجيبُ الدولة إلى المصالحة ، ثم توجَّها إلى بُنجاب ، التي كانت باباً لتلك المنطقة الحربية الخطيرة التي لم تزل يَدخلُ منها الفاتحون إلى الهند ، ولم تكن قد خضعت من قبلٍ لأي قُوة غير إسلامية ، واستوليا في أبريل عام ١٧٥٨م على لاهور ، وعيَّنا «آَذِيْـنَـه بَـيْغ» من قِبلهما حاكماً لبُنجاب ، ثم وَلَّيا ـ بعد وفاة آذينه بيغ ـ «سَبَاجِي سِنْدِهِيَا» حكم بُنجاب.

وقد دخل المَرْهَتة بإشارة من صَفْدَرجَنْك (الوزير الشيعي) ومناصرته إلى «دوآبه»[2] ـ التي كانت مركزاً لأولئك العلماء والمشايخ الذين كانت تتجمل بهم دلهي نفسها ـ ثم قرر داتاجي سندهيا عام ١١٧١هـ بعد مَقدمِه من دكن أن يَفتح الهند كُلَّها ، وتوجَّه أولاً إلى «رُوْهِيْلكَهَنْد» و«أَوَده» عام ١٧٥٨م ، وعبر نهر «جَمْنَا» بهذه النية ، وفي عام ١١٧٢هـ الموافق ١٧٥٩م عندما كان النهر يمكن العبور منه ، أمر «كُوْبِنْد رَائي بَنْدَيْلَيْه» بعبُور النهر مع عشرين ألفاً من الجنود إلى «روهيلكهند» الذي قام بعد نُزوله من «رَامْ كَنْكَا» بالنَّهب والسَّلْب في البلاد إلى

(١) قبل وفاة الإمام الدهلوي بـ ٥ ـ ٦ سنين.
(٢) وهي المناطق الواقعة بين نهري كنكا وجمنا.

مدينة «أمروهه» ـ التي ليست على مسافة طويلة من دلهي ـ.

ودخل المَرْهَتة ٢٤/ يونيو عام ١٧٦٠م (الموافق ٩/ ذي الحجة عام ١١٧٣هـ) في دلهي عاصمة البلاد، وأسلمَ إليهم يعقوب علي خان حارس القلعة، وفوض «بَهاؤ» حراسة القلعة إلى «شَنْكَرْرَاؤ» الذي خلع السَّقف الفضيّ للديوان الخاص (البلاط الخاص للملك) وأرسلَ به إلى دار الضرب، وأخذ كلَّ ما كان من آثاثِ الذهب والفضة في «قدم شريف» ورباط الشيخ نظام الدين أولياء، وعزل شَاهْجَهَان الثاني في ١٠/ نوفمبر عام ١٧٦٠م الموافق ٢٩/ صفر عام ١١٧٤هـ وأجلس مرزا جوان بخت ابن الشاه عالم على العرش، وكان يُريد أن يتربَّع على العرش التَّيموري، وكان ذلك بوسعه إلا أن عقلاء جيشه أشاروا عليه بالكَفِّ عن هذه العزيمة لأنها تُثير فتنةً وفوضى في البلاد، ولا تتحمل الرعية جلوس أي قائد من قادة المَرهتة على العرش التيموري ـ بيُسر وسهولة ـ وقد اتسعت حكومة المَرهتة ـ حينئذٍ ـ ما لم تَتَّسعْ مِن قبل ولا من بُعد، فقدْ كانت حُدودُها الشمالية تَصل إلى «أتك» وجبال هملايا، وفي الجنوب كانتْ تمتد هذه الحكومة إلى الطَّرف الأخير من شِبه جزيرة دكن أي إلى حدود سواحل البحر، والمناطقُ التي كانت حُرَّةً مستقلة داخلَ هذه الحكومة، كانت تُودي إليها الخراج، وقد كان لديها قادة عسكريون مُحنَّكون كما كان عندها جيشٌ أفرنجي مدرَّب مُكوَّن من عشرة آلاف نَسمة، وكان جيشُها في حرب «بَانِي بَتْ» مكوناً من خمسين ألفاً من الركبان، وخمسة عشر ألفاً من الرجالة، وكان فيه مئة مدفعية (عدا المدافع المحطِّمة للقلاع)، وقد صَحبهم وتعاوَن معهم جيش الراجبوت كذلك، وهكذا كان مجموع عدد الجيش الذي كان يُقاتل تحت لوائهم وفي قيادتهم ثلاثمئة ألف مقاتل.

ولكن رَغم ذلك لم تكن طبيعة المَرهتة طبيعة ملُوكية تَشعرُ بمسؤولياتها، وفي تعبير أحد المؤرخين الهنود «لقد كانوا أنصاف مُلوك وأنصاف قُطَّاع الطرق»[1]،

---

(١) «تاريخ هندوستان» (تاريخ الهند) للشيخ ذكاء الله الدهلوي جـ: ٩، ص: ٤٠٣.

وقد كان فُقدان الشَّفقة منهم على الرعايا ، والاهتمام بهم ومواساتهم والتقاليد الوراثية القديمة للحفاظ على الأنفس والأرواح والأموال والأعراض (التي كانت تحمي السلاطين والملوك الجبابرة ـ إلى حد ما ـ رُغم كبريائهم وأنانيتهم وكانت تأخد بزمامهم) وكذلك فقدان الخَلفية (Back Ground) التاريخيَّة الرائعة ، والأهداف السياسية البنَّاءة الواضحة ، وفَوق كل ذلك عواطفُهم الجامحة نحو إحياء الديانة الهندوسية وحضارتها (Hindu Revivalism) أحدثَ فيهم عُنفاً وإرهاباً ، وتسرُّعاً في الأحكام ، وقلَّة مُسامحة ومُراعاة ، فكانتْ أموالُ النَّهب والسَّلْبِ والحِرْصُ عليها والشَّغَفُ بها من أدوائهم ومواضِع ضَعفهم القومية .

وقد تأثَّر المسلمون والهنادك جميعاً بفَوضى المَرهتة وغاراتهم ، فكانتِ الغاراتُ الوحشيَّة على القُرى ، وأعمالُ النهب والسَّلب بقَسْوة وعُنف ، وقطعُ أيدي الناس وأرجلهم وأُنوفهم أمراً عادياً ، وكانت النساء ـ بغض النظر عن دينهن وجنسيتهن ـ تتعرضُ لوَحشيَّتهم ونزواتِهم الشهوانية ، وكانوا يتجاوزون في ذلك الحدود ويتظاهرون بأعمال وَحشية بهيمية ، وقد أبدى شاعر بنغال المعروف «كنكا رام» مثلَ هذه الانطباعات ، وهو يُعلق على غاراتهم وحملاتهم على بنغال[١] .

وقد أبدى المُؤلِّفون البرُتغاليون حِيرتهم وعَجبهم على أفاعيل المرهتة التي يتندَّى لها جبين الحياء[٢] ، وقد كان لسيطرة المَرهتة وسُلطتهم آثارٌ اقتصادية سيئة على الناس ، وحَسب تصريح الشيخ غلام علي آزاد البَلْكَرَامِي: أنهم يَنوون ـ في حدود قُدرتهم واستطاعتهم ـ أن يَسدُّوا أبوابَ الرزق على الناس ويُحكمون قبضتهم على جميع وسائل المعيشة ، وكان المَرهتة يجبُون من تلك

---

(١) انظر للتفصيل كتاب: «Fall of The Moghal Emoghag Empire p.87» تأليف جادوناته سركار.

(٢) Pissurlen: Portugueses,II,P.49.

المناطق البعيدة النائية التي كانت تحت حُكمهم وسُلطاتهم رُبع حاصلاتهم وغلاتهم[١].

ولم تَقِفْ غاراتُ المرهتة عند الحدود العسكرية واستغلالِ الجماهير ، بل لقد كانتْ مؤَسَّسة على إحياء الديانة الهندوكية وإقامةِ حضارتها من جديد ، يقول ماوت رستوارت الفنستن (حاكم ولاية بمباي) في تاريخه للهند عن «شِيْوَاجِي» القائد الأول لهذه الحركة :

«لقد اختمرتْ طبيعتهُ وتربَّت على العصبية الهندوكية. . . ولأجلِ هذه الطبيعة المستحكِمة فيه كان يَكره المسلمين وتقاليدَهم وطُقوسهم كراهيةً شديدة ، ويُحب الهندوس ويَرغُب في رُسومهم وتقاليدهم رغبةً شديدة ، وكان هذا الموقف منه يَزداد ـ كل يوم ـ شدةً ، وقد وافقتْ هذه الطبيعةُ فيه تدبيرَ الشؤون الملكية حتى تَصوَّر بصورة الرُّهبان والمشايخ الهنادك ، وادَّعى كراماتِ المؤلَّهين وأنصاف الآلهة المعبودين[٢].

لقد حاولَ المَرهتةُ قبل المعركة الحاسمة في ساحة «باني بت» واستشعاراً منهم لدِقة الأوضاع وخطورتِها عن طريق النَّواب شُجاع الدولة (الذي كان يحمل في قلبه شيئاً من التعاطف مع المرهتة من قبل ذلك) أن تُوقّع الهدنة مع الشاه الأبدالي ، وما ردَّ به شجاع الدولة ـ بناءً على هذه التجارب المتواصلة والحقائق المرة ـ عليْهم يُلقي ضوءاً كاشفاً عن طبيعة المَرهتة القومية وتأثيرِ فتوحهم وانتصاراتهم ونتائِجها ، لقد كان رد النَّواب شُجاع الدولة أنْ قال :

«إنَّ بَراهمة الدَّكَن يُسيطرون على الهند منذ مُدة طويلة ، وقد نزلتْ على رؤوسهم ـ بسبب شِدة حرصهم وطمعهم وغَدرهم ونكثهم للعهود ـ هذه البلية

---

(١) كان أول من جبئ ربع الحاصلات شيواجي، وكانوا يأخذون ذلك من الولايات الأخرى مقابل حمايتهم وعدم الغارة عليهم، على حين كانوا يأخذون من الفلاحين في مملكتهم ٣٠٪ من حاصلاتهم وقد زاد ذلك أخيراً إلى ٤٠٪ من حاصلاتهم.

(٢) انظر «تاريخ هند» ص: ١٠٤٠ (طبع عام ١٨٦٧ م عليكراه).

من الشاه الدراني ، فكيف يُصالح مع هؤلاء الذين لا يرعون إلاًّ ولا ذِمّة ، ولا يُحافظون على عرض ولا عافية ، ويرون أن جميع الأشياء مِلكٌ لهم ولِقومِهم ، وقد قَلق الناس وضجِروا على ما لقُوا منهم حتى ألحُّوا ـ لِحفظ أعراضهم ومكانتهم ورفاهية الخلق وأمنِهم ـ على الشاه الأبدالي ، ودَعَوْهُ من بلاده ، ورأوا حَملاتِه ونِكاياته أهونَ عليهم وأسهل من إيذاءات المرهتة ونِكاياتهم»[1].

وأخيراً لقيتِ المَرهتة هزيمةً نكراء بتاريخ ١٤/ يناير عام ١٧٦١م الموافق ٦/ جمادى الآخرة ١١٧٤هـ في ساحة باني بت على أيدي القُوة الموحدة لجيوش أحمد شاه الأبدالي الأفغانية ، وجنود النَّواب نجيب الدولة الرُّوهِيله وجيش النَّواب شجاع الدولة ، وكان يقول أحد المؤرّخين: «لقد طارتْ قُوة المَرهتة في لمحةِ البصر كالكافور»، وسوف تأتي التفاصيلُ الأخرى لهذه الحرب الحاسمة وعواملُ مقدم أحمد شاه الأبدالي وخليفتِه ، والتي غيرت مجرى التاريخ ، في صَدَدِ ذِكر مآثر الإمام الدهلوي القيادية في الصفحات التالية.

السِّيخ:

لقد كان السِّيخ فِرقةً دينية في بَنجاب ، وُضعَ أساسها في القرن الخامس عشر المسيحي على أيدي «كُروبابانَانَك» (١٤٦٩ ـ ١٥٣٩) الذي كان يقوم بنَشر تعاليمه الخُلقيـة ويَحثُّ على الصـدق وتهذيب النفس ، وكان قد قرأ ـ حسب تصريح «سير المتأخِّرين» ـ اللغة الفارسية والمبادىء الدينية على الشيخ السيد حسن ، وكانت له بـه عنايـةٌ خاصة[2] ، وقد قام القائـدُ الثالث للسيخ

(١) تاريخ هندوستان: (تاريخ الهند)، جـ: ٩، ص: ٣٠٥.

(٢) تفيد بعض الروايات التاريخية أن كروبابانانك جالس عدداً من الدراويش والصوفية المسلمين وصحبهم مدة من الزمن، نخص بالذكر منهم: بير جلال، وميان متها، والشيخ شرف الدين، والشيخ فريد الثاني، والشيخ إبراهيم، كما تفيد الروايات الأخرىٰ أن بابانانك زار بغداد والحرمين الشريفين، وكانت له صلة خاصة بـ«باك بتن» مدفن الشيخ الكبير فريد الدين الأجودهني.

«أَمَرْدَاس» بالخطوة الأولى في صدد التَّنظيم الديني والاجتماعي للسيخ ، وزاره الملك أكبر في بيته ، وأقطعه أرضاً واسعة كبيرة ، وقد حافظ على روح تعاليم «كروبابانانك» الخُلقية ، وعارض أوهام الهنادك وخُرافاتِهم ولا سيما تقليدهم المعروف بـ «سِتِّي» ـ وهو انتحار الزوجة على موت زوجها ـ وأصدَر أوامره بزَواج الأيامى ، وأقطعه الملك أكبر عام ١٥٧٧م أراضيَ واسعة ، وفي عهده قام مركزُهم الديني في «أمْرِتْسَر» وهكذا تكوَّنَ مركز روحيٌّ دينيٌّ لحياة السِّيخ الاجتماعية.

وخلفَ كَرْوَارْجِن والده عام ١٥١٨م ، وقد بذل مزيداً من الجهود والمحاولات لتنظيم السِّيخ كفِرقة مستقلة ، ودون «كرنته» ـ الكتابَ المقدَّس لديهم ـ ولقَّب كروارجن نفسَه بالملِك الصادق ، الذي يُشير إلى حرصه على السلطة السياسية ، وقد اعتُقل كروارجن بأمر الملك جهَانكِير بلاهور ، لأنه كان قد تعاونَ مع ابنه الأمير خسرو الذي كان خرج عليه ، وأهدى إليه الأموال ، وقُتل في الحبس[1] ، واختار خلفه «هوكووند» طريقَ الدفاع والمقاومة العملية.

وبذلك بدأتْ حياةُ السيخ العسكريةُ. ولم يلبث أن تبوَّأ المنصب الملوكي ، وقد كان يحملُ عواطف العِداء والكراهية ضد الملك جهانكير ، ويُلقي عليه تَبعةَ قتلِ والده ، وقد بنى قلعةً حصينة في «هركووندبور» ، وكانوا يُغيرون على المناطقَ السهلية ، وحَبَسه جهانكير في قلعة كَوَالِيَار ، ثم أطلقَ سراحه بعد مدة قليلة ، وأكرمَه وأبدى به حفاوة بالغة ، وخرج فور جُلوس السلطان شاه جهان على العرش على الدولة ، وقام بالثورة علناً وجهاراً ، ولجأ أخيراً إلى الجبال ومات هناك عام ١٦٤٥م.

واختير تِيْغ بَهَادُر ابن هَرْكَوْند قائداً عام ١٦٦٤ في عهد أَوْرَنْكَ زَيْب ، الذي

---

(١) وقد ثبت تاريخياً أن الذي أشار على جهانكير لقتله هو أحد الأمراء الهنادك «جندولال» الذي كان يتمتع بنفوذ على الإمبراطور، وذلك لغرض شخصي.

أعطى حق اللجوء للفارّين والخارجين على قانون البلاد ، وقد حالتْ سلطة هؤلاء دون رُقي البلاد[١] ، فزحفتْ إليها الفِرَقُ العسكرية الملكية ، واعتقلته ، وجاءتْ به إلى دلهي ، حيث حُكم عليه بأمر الملك أورنك زيب بالإعدام عام ١٦٧٥م[٢].

وعَيَّن بعد قتله ابنه «كووند رائي» قائداً ، وهو الذي حول فِرقة السيخ ـ التي كانت في البداية جماعة دينيةً محضة ـ إلى شعبٍ مسلح مقاتل ، وأثار فيهم عواطف المساواة ، وعمل ـ جهدَه ـ على تنظيمهم في صورة شعب مستقل ، ولم يزل على قيد الحياة إلى وفاة الملك أورنك زيب ، وحاول خَلَفُ أورنك زيب الملكُ بَهَادُرْ شاه أن يَتفاهم مع «كووند رائي» ويُصالحه ، وولاَّه قيادة الجيش بدكن ، ولكنه مات على يدي موظف أفغاني بجرح لم يبرأ منه في أكتوبر عام ١٧٠٨م ، ولم يَرشح بعدَه أيُّ واحد لخلافته ، وأوصى أتباعه أن يعتقدوا «كرنته» ـ الكتاب المقدس لديهم ـ قائدهم ، ويعتبروا الله تعالى وحده نصيرَهم وحارسهم.

خلَف «هركووند» «بنده بيراكي» الذي كان ـ في الحقيقة» ـ قائداً عسكرياً للسيخ وكان هو ـ أصلاً من الراجبوت الكشميريين ، وقد اعتنقَ ديانة السيخ ـ فبدأ في بُنجاب عمليات النهب وقطع الطريق ، في نطاق واسع.

وكانتِ الدولة المغولية ، بعد وفاة الملك أورنك زيب تسير ـ بسرعة ـ نحو السقوطِ والانهيار ، ونشبتْ حروبٌ متواصلة بين أبنائه وأحفاده على عرش البلاد ، أتاحتِ الفرصة للسيخ أن يُضاعفوا قوتهم ـ علناً ـ فكان «بنده بيراكي» يُعمل السيف في الألوف من المسلمين ، ويقتلُهم بقَسوة ووحشيةٍ ، ويدخُل القرى ويَنهبها ، حتى وصل إلى قرب دلهي ، وأغار في مايو عام ١٧١٠م على سَرْهِند ، وفتحَ أبوابها للقتل والنهب والسلب ، وعاملَ سكان القرية من دون

(١) انظر A History of The Sikhs Guard, 1918.P.64 لمؤلفه: J.D.Cunninghaum.

(٢) ليست تبعة قتل القائد بهادر على السلطان أورنك زيب وحده، بل فيه يد لمخالفيه ومعارضيه الهنادك أيضاً (انظر نهنك سنك سنديس ٢٥ ديسمبر عام ١٩٥١ م).

تمييز بين صغير وكبير وقويٍّ وضعيف ـ بظُلم فظيعٍ وقسوة رهيبة.

وتوجَّه بهادر شاه إلى بنجاب، وهَزمت الجيوش السلطانية بنده بيراكي، ولكنه لجأ إلى الجبال، ثم قام مستغلاً الفوضى السياسية والحروب الأهلية بين الأسرة الملكية بعد جلوس فُرَّخ سير على عرش البلاد بالعُنف والإرهاب مرة ثانية، وأخيراً جيء به إلى دلهي عام ١٧١٦م وقُتل هناك، ولم تكن له شخصية محترمة محبَّبةٌ لدى السِّيخ أنفسِهم، وقد أحدث تغييرات طفيفة في عقائد الديانة السيخية وعباداتِها، وأصبح السيخ تحت قيادته قوةً عسكرية.

واستمرَّ الحاكم المغولي مُعين الملك بَنجاب (الذي يعرف بميرمنو) في عهد الملك فُرَّخ سير، على سياسته التعزيرية، ولكنَّ سقوط الدولة المغولية كان يسير بخطى حثيثة، وكانت قد ضَعُفَت حكومةُ بنجاب وتَضعضعت نتيجة حملاتِ أحمد شاه الأبدالي المتكررة، وسنَحتِ الفُرصة مرة ثانية لقيام السيخ ونُهوضهم، ولم ينجحوا ـ هذه المرة ـ في إخراج ابن أحمد شاه الأبدالي الأمير تيمور ـ الذي كان والي بنجاب حينئذ ـ والذي هَدم «هرمندر» ـ أقدس معابدهم ـ وملأَ البُركة المقدَّسة لديهم بالأنقاض والركام ـ فحسب، بل استولوا كذلك ـ مؤقتاً ـ على لاهور، وضُربت باسم قائدها «جسا سِنغ كلال» العُملة، إلا أنهم اضطُروا للخروج من لاهور بمقدم المَرهتة إليها عام ١٧٥٨م تحت قيادة «ركهوبا».

وتوجَّه أحمد شاه الأبدالي إلى بَنجاب للمرة الخامسة، وبعد حرب «بَانِي بَتْ» التي قسمتْ ظَهر المرهتة، وفور ما غادر بَنجاب إذا بالسيخ عادوا للثورة والخروج، واستعادوا مملكتهم المفقودة، وعاد أحمد شاه وهَزم السيخ في «لُدْهِيَانَهْ» عام ١٧٦٢م هزيمةً نكراء، ولكنَّ السيخ بعد مغادرته عام ١٧٦٣م أغاروا على سَرهند، ودمَّروها وخربوها، واستولوا على لاهور مرة أخرى، وأعلنوا قيام حكومة «خالصة» ثم تفرَّق السيخ بعد ذلك في مختلف الولايات وانقسَموا إلى مختلف الفِرق التي كانت تُدعى «مسلين»، ولم يكن هناك حاكم أعلى يحكُمهم، ولم يبق لَدْيهم أمرٌ مشترك إلا دينهم.

وبعد ثلاثين عاماً من هذه الأوضاع المضطربة علا في بنجاب نجمُ رنجيت سنغ الذي نَظَّم هذه الفرق المختلفة في صورةِ دولة مستقلةٍ ، ووحَّد صفوفهم.

لقد كان هدفُ ديانة السيخ تصحيحُ العقائد الدينية في الهنادك ، وما من شكٍّ في أن «بَابَابَانَانَك» كان متأثِّراً بالتعاليم الإسلامية ، ولذلك فإنّ عقيدته في التوحيد ، ومساواته بين الناس واجتنابَه عبادة الأصنام والأوثان وغيرَها؛ كلُّ ذلك مِن آثار الإسلام ونتائجه[١].

وقد أثَّرت اللغة الفارسية على لغة الأدب الدِّيني عند السيخ تأثيراً بالغاً، لا سيما «ادي كرنته» ـ من الكتب المقدسة لديهم ـ يتجلَّى فيه تأثير الألفاظ الفارسية، والإسلامية، والمصطلحات الدينية والصوفية إلى حد كبير[٢].

وقد كانتْ هُناك من القرائن ما يُتوقَّع بها أن تقومَ هذه الحركة الإصلاحية ـ إذا كانت متمسِّكة بأصولها ، ولم تَـذُب في الديانة الهندوكية وحضارتِها ـ بخدمة ثورية كبيرة ، وظلَّت السيخُ فِرقةً مُستقلَّة متميزةً عن الهنادك ، تقوم على أساسِ التوحيد للربِّ ، والمساواة بين الناس ، وكانت بذلك فرقة قريبة إلى المسلمين ، ولكنَّ صدامها مع الحكومات المعاصرة، ودورة الفِعل وردٌ الفعل السياسي التي فَقدتِ القلب والضميرَ، والتي تُحقق مصالح الجماعات ومقتضيات العصر ، بغضِّ النظر عن النتائج الدينية والخلقية ، وأورثَتِ السِّيخ البغضاءَ والكراهية لا للحكومات المسلِمة فحسب بل لِعامَّةِ المسلمين ، ووقفَتْهم موقفَ الحرب والنضال ضد المسلمين ، وحوَّلتهُم ـ بصفة خاصة ـ في أواسط القرن الثاني عشر الهجري والقرن الثامن عشر المسيحي إلى قُوة إرهابية مخيفة مزلزِلةٍ لسكان المدن الكبيرة الآمنة ، وزيادة خطيرة في القوة الهدّامة المثيرةِ للاضطرابات في الهند ، وقد تعرَّضت المساجد والمقابر في

---

(١) انظر جب جي ـ وMacaulffe، جـ: ٢، ص: ٣٤٧.

(٢) اقتبسنا الجزء الأساسي من هذه المعلومات والمادة التاريخية من «دائرة المعارف الإسلامية» (الأردية)، جـ: ١١، من مقال «السيخ» بقلم البروفسور محمد إقبال.

عهد حكوماتهم ـ بصفة عامة ـ وفي عهد مهاراجه رنجيت سنغ ـ بصفة خاصة ـ[١] لانتهاكِ حُرماتها ، ودَوْس كراماتها ، ووُضعت عراقيلُ في سبيل أداء العبادات ، ونشأ ذلك الوضع الحالك الذي عبر عنه الدكتور محمد إقبال في بيتٍ من شعره ، يقول فيه :

«لقد ذهبتْ «خالصة» بالسيفِ والقرآن ، وقضتْ على المسلمين والإسلام في دولتها وسلطانها» .

وقد رَفع ضدَّ الوضع المكفهرِّ في منتصف القرن الثالث عشر الهجري ـ تقريباً ـ وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر المسيحي ـ الإمام أحمدُ بن عرفان الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ الموافق في ١٨٣٠ م) والشيخ إسماعيل الشهيد (ش ١٢٤٦ هـ ١٨٣٠ م) اللَّذَين كانـا خرّيجي مدرسة الإمام الدهلوي وتربَّيا على أيدي ابنـهِ الأكبر الشيخ عبد العزيز الدهلوي ـ رفعا لواءَ الجهاد ضد حكومة رنجيت سنغ العسكرية ، وبدأ بذلك مُخططهما الواسع والعميق ومهمتُهما العظيمة التي قامت لتحرير الهند من السلطة الخارجية المستعمرة ، وتأسيس الحكومـة الشرعيـة ، وإصـلاح المجتمـع المسـلم ، وإحيـاء الـدين وإظهاره[٢] .

الجَـاتْ (الـزُّط) :

لم تكن الجات فرقَةً منظمة كالمَرهتة ، ولا فِرقةً دينية كالسيخ ، بل إن ضَعفَ الدولة المغولية والفوضى السياسية والشعورَ بعدم حماية عامة السكان ، أنشأَ فيهم تنظيماً يقوم على أساس العُنف والسلبية ، وأصبحوا قُوَّة هدَّامة مُثيرةً للفتن والاضطرابات لم تكن تهدف إلى إقامة مملكةٍ أو ثورة سياسية ، بل إلى مُجرَّد استغلال للأوضاع المنحرفة وتحقيقٍ للأغراض الاقتصادية .

---

(١) انظر للتفصيل الباب ١٧ من: «سيرة السيد أحمد الشهيد» (بالأردية) للمؤلف بعنوان «وضع المسلمين في بنجاب» ص: ٤١٣ ـ ٤١٩ .

(٢) انظر «سيرة السيد أحمد الشهيد» (الأردية) جـ: ١ ـ ٢ .

يقول البروفيسور خَليق أحمد نِظامي في كتابه «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي»:

«لقد كان الجات يَسكُنون المنطقة الجنوبية لجَمْنَا من آكْرَه إلى دلهي، وكانتْ حدُودهم في الشرق إلى جنبل» وقد بلغت ثوراتُهم في هذه المنطقة أن ضاقت بهم الحكومة المركزية ذرعاً، وحسب ما يقول «سَرْكَار»: لم يكن هناك مجالٌ لقبول هذه الشوكة الشائكةِ في شوارع دلهي وآكره[1]، (Fall ,Vol ip.369) وكانتِ المواصلات بين دلهي وآكره تسير بحيطةٍ بالغة وحذرٍ كبير، وكانت الجيوش التي تقصد دكن عن طريقِ أجمير، تمرُّ بهذه المنطقة.

ولمَّا مرَّ المُمثِّلون الهولنديون بهذه المنطقة عام ١٧١٢م شاهدوا هذه الاضطرابات والثورات (Later Mughals, IP 321).

وقد مرَّ جان سرمن (John Surman) عام ١٧١٥م بهذه المنطقة، وسجّل في مذكرته أعمال الجات المهدّدة للأمن والسلام (Orme Collection, P. 1694).

وقد قام الجات في عهد شاه جهان بثورة عارمة، وقُتل عام ١٠٤٧هـ الموافق ١٦٣٧م مرشد قلي خان قائد الجيش بمتهرا على أيديهم في حربٍ معهم.

يقول سرجاد وناتهسر كار في كتابه: «تاريخ أورنك زيب» ج/٥، ص/٢٩٦:

«لقد استغلَّ غيابَ أورنك زيب من شمال الهند قائدانِ جديدان من الجات: راجه رام، ورام جهره، ولم يستطعْ حاكم آكره خافي خان أن يضع الحدَّ على تحركات راجه رام ضد القانون، وقد سدَّ الجات الطُّرق ونهبوا كثيراً من المناطق، وتوجهوا إلى «سكندره» لنَهب مقبرة الملك أكبر، ولكن المير

(١) هما مدينتان رئيسيتان تبادلتا كون العاصمة في أدوار مختلفة.

أبا الفضل الذي كان قائد العسكر بها قاتَلهم بشجاعة ولم يدعِ الثوار ليتقدَّموا أمامهم ، ونهبَ راجه رام متاع الضابط التركي المعروف أصغر خـان. . . وقتل أصغر خان في هذه الحرب مع الجات[١] .

ويقول هَرْجَرَن دَاس مؤلف «جَهَارِكُلْزَار» : «إنَّ الجَات لمَّا بدؤوا يَنهبون دلهي خرج سكان دلهي ـ خائفين فزعين ـ من بيوتهم ، فكانوا يَهيمون على وجوههم ويتيهون في الأزقة والسِّكك ، كسفينةٍ محطمة تكون تحت رحمةِ الأمواج الطاغية ، وكان يُرى كل شخص كالمجنونِ يعدو فزعاً مضطرباً (النسخة المخطوطة ص/ ٤١٠)[٢] .

ويقول الشيخ ذكاءُ الله في ذكر وقائع عام ١٧٦٥م :

«كان الجَاتُ متسلِّطين على قلعة آكره ، وكانتْ للجات جولةٌ وصولة على بعد ١٠٠ ميل من دلهي ، وقد طرد راجه سَوْرمَل الذي كان ذكياً فطناً بارعاً في المنازلة ، ماهراً في القيادة والحكم ـ قائدَ المرهتة من آكره ، واستولى على ميوات ، وبنى أربعَ قلاع حصينة قوية ، وبدأ يطلب من حكومة دلهي تلك الطلبات التي لا تُبقي على اسم الدولة إطلاقاً ، وقد هَزم نجيبُ الدولة بحسن تدبيره وحِيلته وبمساعدةِ من البلوجيين ، الجاتَ ، وقُتل راجه سورمل في مناضلته لنجيب الدولة.

ثم نَجمت في ولاية الجات نِزاعاتٌ وخصومات ، وقُتل اثنان من أبناء سُورج مَل ، وخلفهما الابنُ الثالث رنجيت سنغ ، وقد بلغ الجات في عهده أَوجَ التقدم والازدهار ، والمنطقةُ التي كانوا يحكمونها تقع في شمال غربها «ألور» وفي جنوب غربها «آكره» ، وكان دَخلُ هذه الدولة عشرين مليون روبية ، وكان لديهم جيشٌ مكون من ستين ألف جندي[٣] .

---

(١) انظر «الرسائل السياسية «للإمام الدهلوي» تأليف البروفسور خليق أحمد نظامي ص: ١٧٥ .

(٢) الرسائل السياسية: ص: ١٧٧ .

(٣) مقتبس من «تاريخ هندوستان» للشيخ ذكاء الله الدهلوي باختصار ، انظر جـ: ٩، ص: ٣١٦ ـ ٣١٨ .

الوضع في دلهي:

لقد أصبحتْ ـ دلهي ـ نتيجةَ حملاتِ المَرهتة والسيخِ والجاتِ المتتابعة عليها ، والتي ظلتْ عادة يومية ، وحرمانها من أي نوع من القوة والصلاحية للصيانة والدفاع ـ شجرةً مثمرة سائبة تحمل عليها الحشود الوحشية من الطيور الكاسرة وتجردها من الثمار والأوراق ، وأصبح سكَّان دلهي ـ الذين كان يُنظر إليهم نظرة تقدير واحترام في كل مكان ، بل كانوا يعتبرون النموذج والمَثل الكامل في العلم واللغة الحضارة ، وفي العادات والأخلاَق وكَرم المحتدِ وطيب الأصل ـ لقمةً سائغةً للمُغيرين الزاحفين.

ويُقدَّر من رسائل علماء هذا العصر ومشايخه ـ الذين كان شعارُهم الانقطاع والتبتل إلى الله تعالى والرضا بما تجري به المقادير ـ التي كتبوها إلى أصحابهم وأحبابهم ، ما كان يسودُ هناك من قِلة الأمن والفوضى والقلق ، ونكتفي هنا بإيراد بعض مُقتطفات من رسائل أحد المعاصرين المعروفين للإمام الدهلوي ، وهو الشيخ الجليل في السلسلة النقشبندية المجدِّدية الشيخ ميرزا مظهر جان جانان (١١١١ ـ ١١٩٥هـ) يقول في إحدى رسائله:

«لقد ضِقتُ ذرعاً بالاضطرابات اليومية والقَلق الزائد في دلهي»[١].

ويقول في رسالة أخرى:

«تَؤمُّ الفتنة من كل حَدْبٍ وصوب مدينةَ دلهي»[٢].

ويقول في رسالة أخرى ، وهو يَذكر قِلة الأمن والفوضى في العاصمة وقَلق سُكانِها واضطرابِهم:

«إلى ما نكتُب حالَ اضطراب السُّكان في المدينة بسبب قِلة الأمن والأوبئةِ العامة ، اللَّهم أخرجنا من هذه المدينة التي أصبحت مَحطّاً لغضبِ

(١) كلمات طيبات: الرسالة رقم: ٤٠.

(٢) المصدر السابق: الرسالة رقم: ٥٤.

الله تعالى وسخَطه ، فقد أصبحتِ المملكة فوضى بغيرِ نظام ، اللَّهم فضلَك ورحمتَك»[١].

حَمْلَةُ نَادِرْ شَاه:

عادَ الإمام الدهلوي من الحجاز إلى دلهي عام ١١٤٥هـ ، ولم تمض على ذلك إلا خمس سنوات حتى وقعت عام ١١٥١هـ الموافق ١٧٣٨م تِلك الحملة النادرية التي ضَعضعتْ ما بقي من كيان الدولة المغولية ، وخَرَّبت دلهي ومَزَّقتها شرَّ مُمزق ، وقد أثَّرت هذه الحملة في عقول الغَيارى من سكان دلهي والأسر والبيوتات الكريمة ، وصدَمت قلوبَها صدمةً عنيفة ، حتى بغَّضت إليهم الحياة ، وسادَهم الخجلُ والحياء إلى حد أنَّهم كانوا كأنهم يُعدون العِدة لقَتلهم وانتحارهم ، وقد ذكر الشيخ عبد العزيز الدهلوي أنه بمناسبة هذه المَقتلة الرهيبة العامة وضياع الأموال والأعراض كان أشراف دلهي قد قرَّروا وعزموا على تنفيذ تقليد «جوهر»[٢] على طريقة الراجبوت القدماء ، فذكَّرهم الوالد الكريم (الإمام الدهلوي) بحادث كربلاء ، ومصائب سيدنا حسين ـ رضي الله عنه ـ ومَنعهم من هذا القرار للانتحار ، فاختاروا طريق الصَّبر والرضا بالقضاء رُغم هذه المِحن والبلايا التي تقشعر منها الجلود وتَشيب منها الولدان ، ولا يُتصور أشدُّ منها وأَفتكُ ، وكفُّوا عن إرادة الانتحار وقتلِ أنفسهم.

الانقطاعُ إلى التَّدريس والتأليفِ في الأوضاعِ المضطربة والظُّروفِ المضادةِ:

وفي أثناء هذه الحَملات والغارات من قِبل المرَهتة والسِّيخ والجات ،

---

(١) كلمات طيبات: الرسالة رقم: ٨٦.

(٢) كان أشراف راجبوت عندما يحاط بهم من كل جانب ، ولا تبقى أي إمكانية لحياة الشرف يُقدمون على قتل أهلهم وعيالهم، ثم يقفزون بأنفسهم في النار ويحترقون.

ونادِر شاه ، وهذه القلاقل والمِحن والمآسي المذهلة التي كانت تجعل عالي دلهي سافِلها وتُدمِّرها تدميراً ، والتي اضطرَّ فيها الإمام الدّهلوي بعض الأحيان إلى الانتقال من بيت إلى بيتٍ آخر.

ـ ويُستفاد من «القول الجلي» أن الإمام الدهلوي انتقلَ أيام الفتنة الدرانية عام ١١٧٣هـ (على دعوةٍ وإلحاح من أصحابه وخدمِه) من وطنه مع أهله وذويه إلى قرية «بدهانه» ولما حل شهرُ رمضان اعتكف على عادتِه القديمة أربَعين يوماً(١).

لقد كان الإمام الدَّهلوي ـ أثناءَ كل ذلك ـ مُنصرفاً بكلِّيتهِ وعنايتهِ التامة إلى التَّدريس والتَّأليف والدعوة إلى الله ، وتزكية النفوس وتَربية المسترشدين ، بجمعيَّة قَلْبٍ وطمأنينة حتى كأنه تسودُ هناك ، ليسَ في دهلي فحسب بل في البلاد كُلِّها ، الأوضاعُ الآمنة المتَّزنة والظروف الهادئة المطمئنة ، وأنَّه منقطع ـ كُلّياً ـ في زاوية العافية والطمأنينة إلى البَحث العلمي والقيادةِ الفكرية والتربيةِ الخُلقية وإحياء الملَّة الإسلامية ، وقد أشارَ العلاَّمة السيد سليمان الندوي إلى هذه الحقيقة ـ في بلاغة ورَوعةٍ وجمال ـ يقول:

«لقد كانتْ قِلَّةٌ قليلة من المؤلِّفين ممن لا تشيع في مؤلَّفاتهم روحُ عَصرِهم ، أو لا تتجلَّى فيها مِسحةُ عهدِهِم وبلادهم ، أو يأتي فيها ذكر نُكران أهلِ عصرهم وعَدم تقديرهم للعلم ، واضطراب أوضاعهم على الأقل ، ولكنَّ مؤلَّفات الإمام الدهلوي طليقةٌ من قيود الزمان والمكان ، بريئةٌ من الشكوى والملام وقَصص الهجران والنكران ، فلا يَبدو مِنها أنها أُلِّفتْ في عصر كان الأمن والطمأنينة قد امَّحتْ فيه من صَفحة هذه البلاد كالخطأ الذي يزَال ، وكانتِ البلاد كلها تُعاني من ملوك الطوائف ، والحروبِ الداخلية والفوضى السياسية ، وكلٍّ نوع من أنواع الشر والفساد.

وكان قد قضي على المركز السياسي في دلهي ، وكان كلٌّ منَ يحمل السيف

(١) «القول الجلي» (المخطوط).

يَحلمُ بالمُلك والسلطان ، فالسِّيخُ في جانب ، والمَرهتة في جانبٍ آخر ، والجات في جانب ثالث ، والروهيلة في الجانب الرابع ، كلٌّ هؤلاء كانوا يعيثون في البلاد تخريباً وفساداً ، وكان أمثالُ نادر شاه وأحمد شاه من القادةِ الطامحين المتحمِّسين وقوفاً على باب خيبر ، كلما أرادوا أوغلُوا في البلاد كالعاصفة العاتية ، وخرجوا كالسَّيل العرم ، فكمْ منِ مرة في أثناء ذلك خَربت دلهي ودُمِّرتْ ، ونُهبت ، ثم أعيدت وبُنيت .

ولكن عجباً بطمأنينة سُلطان العِلم والفضل في دلهي وهدوئهِ ، فكان يُشاهِد كل ذلك برأي العين ، ولكن لا سبيلِ للقلق والاضطراب إلى قلبه ، ولا للشَّعث والبَلبلة إلى فكِره ، ولا للحِران والجَفاف إلى قلمه ، ولا شكوى على اللسان ، ولا إبداء أيِّ قلقٍ وضَجر بالقلم ، فكأنما يُخيَّل إليك أن سَماء العُلُوِّ التي كان يتمكن منها ، أو سُموَّ الصبر والرضا الذي ارتفعَ إليه ، لا تصل إليه عواصفُ الأرض الهوجاء ، ولا تَعملُ فيه تقلبات الزمان والمكان ، وبهذا يُعلم كم تكونُ مَنزلة أهِل العلم من العُلو والارتفاع ، ومنصب أهلِ الرضا والتسليم بالقضاء من السمو والارتقاء .

﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] .

إنَّ الخدمةَ الصالحةَ للعلم الصحيح صورةٌ أخرى لذكر الله تعالى ، فلو كان يُورثَ القلب الطمأنينة ويملأُ الروحَ بالسكينة فلا عَجب ولا استغراب ، اقرأ آلافاً من صفَحات مؤلَّفات الإمام الدهلوي لا تشعرُ فيها بأنها كُتبت في عهد القرن العاشر المليء بالفِتن ، الذي كان كُلُّ شيءٍ فيه عُرضةً للاضطراب وفُقدان الأمن والسلام ، بل سوف ترى بحراً من العلم والفَضل يَجري في هدوء وسَكينةٍ دُون ضوضاءِ ولَجب ، بريئاً من وَصماتِ ألواثِ الزمان والمَكان»[1] .

---

(١) انظر مجلة «الفرقان» العدد الخاص بالإمام الدهلوي ص: ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

الدّورُ القياديُّ المجاهد في عَهد الفوضى السياسية واحتضار الدولة المغولية:

لم يكن الإمام الدهلوي خلالَ العجَاج من هذه الحوادث والأزمَات ، بل في أمطارِها الغزيرة الهاطلةِ جالساً تحت السماء منصرفاً إلى البحث والتأليف والتدريس والتصنيف ، بحيث لا تَقلبُ نفَحاتُ الرِّياح العاتية أيَّ ورقة من كتابه ، ولا تمحو قطرةٌ من قطَرات هذا المطر الغزير أيَّ حرْفٍ من حروفه ، فحسب ، بل كان يعملِ ـ في جِد ونشاط وحزم وجهاد ـ لتغيير هذهِ الأوضاع واستعادة السُّلطة الإسلامية في هذه البلاد ، وإقامة مملكة قوية موطَّدة الأركانِ تشعر بمسؤوليتها وتَعترفُ بالواقع وتُنفِّذ الأحكام الشرعية ، وتُحافظ على أعراض الناس وأموالِهم وأنفسِهم ، وتَقضي على القِوى الهدَّامة التي تَعيث في الأرض فساداً ، وتَنشرُ الخيرَ والرخاء ، فقد كان يقوم في هذا الصَّدد بالدور القيادي الذي يُمكن أن يقوم به أكبرُ سياسي بَصيرٍ لا يمتُّ إلى التأليف والتصنيف والبحث والتدريس بأيِّ صلة .

وإذا كُنَّا نجد له مثيلاً في حياة الدعاة والمجدِّدين والباحثين والمحقِّقين والمؤلِّفين والمصنِّفين ففي حياة شيخ الإسلام ابن تيميَّة الحراني الذي دعا مسلمي الشام عام ٧٠٠هـ للوقوف صفاً واحداً ضدَّ التتارِ الوحوش ، وثبَّت أقدامهم المتزلزلة ، ولما ألغى السلطان محمد قلاوون بعد مقدمِه إلى الشام عَزيمتَه على قتال التَّتار ، وأحدثَ ذلك الفوضى والاضطراب في أهل الشام ، غادر شيخُ الإسلام نفسُه إلى مصرَ ، وحرَّض السلطان على حماية الشام ومُقاومة التتار ، وشارك السلطان في الجهاد ، فكانتِ النتيجة أنِ انهزم التتارُ هزيمةً ساحقةً قلَّ أن تجدَ لها مثيلاً في التاريخ(١) .

وقد استخدمَ الإمامُ الدهلوي أيضاً مع أشغاله العلمية وجُهوده

(١) انظر للتفصيل «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» ج: ٢ «الحافظ أحمد بن تيمية».

الإصلاحية التجديدية حكمتَه السياسية وذكاءه البالغ وعلوَّ نظره ، بحيث لو كان في المغول بقيةٌ من صلاحية ، وفي أُمراء الدولة وأعيانِها من عُلوٍّ همة وحِنكة سياسية ، لكانتِ الهند في مأمنٍ من الطامحين المُفسدين الأَهليين القصيري النَّظر ، ولم تَطأها أقدامُ الإنكليز ، ولا استحكمتْ فيها سيطرتُهم إلا عندما وجدت الهند في أواسط القرن التاسع عشر مُهلهلةً ضعيفةً والميدان فارغاً خالياً ، فنشبَتْ أظافرها وأرستْ قواعدها . ولم تَضُمَّها إلى المملكة البريطانية فحسبْ بل استغلَّتْ قِواها ووَسائلها الثَّرية الوفيرة التي أثَّرت على سياسةِ العالم كُلِّه ، وأحكمتْ بذلك سيطرتها على البلاد العربية والإسلامية .

ونظراً إلى استقامة الإمام الدهلوي وحميةِ خاطره وعُلُوِّ هِمته وبُعد نظَرِه ومَضاءِ عزيمته ، وبإزاء ذلك الجوِّ الخانق في البلاد والقلاقل والفساد ـ الذي لا مجال فيه لأي جهد عميقٍ متواصل جاد ولا رجاء فيه لانقلاب الأحوال وتغيُّر الأوضاع ، يبدو هذا البيتُ من شعر الدكتور محمد إقبال صورةً صادقة لحقيقة الحال ، يقول فيه ما معناه :

«رَغم العواصف الهوجاء يُشعِل ذلك الرجل البَطل ـ الذي وَهبه الله تعالى عِزّةَ الملوك وإباء السلاطين ـ سراجَه المنير» .

شُعور الإمام الدِّهلوي واضطرابُه:

لقد كان الإمام الدهلوي ـ الذي شاهد في إبان شعوره وسِنِّه المبكرة آثارَ حكومة السلطان أورنك زيب العظيمةَ وشوكتَها وازدهارها ، وسمعَ القصصَ والحكايات عن العهود السابقة ـ التي كان نجمُ المملكة المغولية فيها لامعاً عالياً ، وكانتْ لها مهابةٌ وجلال ، والذي صَدر من قلمه في كتابه «إزالة الخفاء» في ذكر مآثر الخلفاء الراشدين والآثارِ الزاهرة في العهود الذهبية لتاريخ الإسلام ، وواجباتِ الحكومةِ الإسلامية ومسؤولياتها ، وبما تَستحقُّ به نصرة الله تعالى وتأييده لما رأى بأمِّ عينيه في عهد سُقوطِ الدولة المغولية وعهد الملك فَرُّخ سير والملك محمد شاه ، هذه الفوضى ، ومُلوكَ الطوائف ، وسوءَ الإدارة والنظامِ ، وفُقدان الأمن في الطرق ، وتَعرُّض الأنفس والأعراض

والأموال ـ من دُون تَمييزٍ بين دِين ودين وشعبٍ وآخر ـ للانتهاك والضياع ، ورُخصِ الدماء الإنسانية ، وانتهاك الشعائر والحُرمات الإسلامية ، وبُؤس المسلمين وشقائهم ـ الذين كانوا يحكمون هذه البلاد من سِتة قرون ـ بكى قلبُه الحزين المتقطِّع المرهَف الحِسِّ دموعاً من دماء ، وقطَّرت من قلمِه السَّيال هذه القَطرات من الدِّماء على صفحاتِ تلك الرسائل التي كتبها إلى بعض أعيان الدولة ، ووُجهائها ، وسوف نُورد هنا بعض النّماذج منها: يقولُ في رسالةٍ كتبها إلى ملك معاصر[١] يشكو فيها صولة سُوْرَج مَل وجَولَتهُ وشَوكته ، وغُربة الإسلام وبُؤسه:

«ومن بعدِ ذلك ظهرت شوكةُ سورج مل وقَوِيتْ ، فقد استولى سورج مل على مسافة ٦ أميال من دلهي إلى أواخر حدود «آكره» طولاً ، ومن حدود ميرات إلى «فيروز آباد» وشكواه آباد عرضاً ، فلا يقدِرُ أحدٌ أن يؤذِّن هناك ويُقيم الصلاة»[٢].

ويَذكر في هذه الرسائل خَراب مدينة «بيانه» التي كانت عامرةً مُخصبة ، فيقول:

«لقد أُخرج المسلمون ـ كرهاً وقَسراً وبإهانة وإذلال ـ من مدينة «بيانه» التي كانت مدينة إسلامية قديمة ، ولم يزل يسكُنها العلماء والمشايخ من سبعة قرون»[٣].

ويذكر فَقرَ الموظَّفين الرسميِّين وسوءَ حالِهم ، وقد تجاوز عددُهم مئة ألف فيقولُ:

«لمَّا انتهتْ خِزانة المِلك ، توقفت النقود أيضاً ، حتى تفرَّق الموظَّفون

(١) كما سيأتي بعد، وهناك جميع القرائن على أن هذه الرسالة وجهت إلى أحمد شاه الأبدالي.
(٢) الرسالة التي كتبت إلى بعض السلاطين (انظر «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي» ص: ١٥).
(٣) المصدر السابق: ص: ٩.

شذَر مَذر ، وبدؤوا يتكفَّفون ويَستجْدون ، ولم يَبقَ للدولة إلا الاسم»[١].

وقد صدرتْ مِن قلمه ـ وهو يذكر وَضعَ عامة المسلمين ـ هذه الكلمةُ المؤثرة المُشجيةُ:

«وبالجُملةِ فإنَّ جماعةَ المُسلمين تَستحقُّ العَطفَ والرَّحمة»[٢].

ويقولُ في رسالةٍ كتبها إلى النَّواب نجيب الدولة:

«لقد لقيَ المُسلمون ـ سواء كانوا سكان دلهي أو أيَّ مكان آخر ـ صَدماتٍ عديدة ، ووقعوا ـ مراراً ـ فريسةَ السَّلب والنهب ، لقد بلغ السّكين العظم ، إنه لمقَامُ الرحمة والعطف»[٣].

ويتنبَّأ الإمام الدهلوي ـ نظراً إلى الحقائق والوقائع والأسباب القوية المؤثِّرة ـ بالنتائجِ الحاسمة ووقائع المستقبل القريب بما لا دخل فيه للقياس والذكاء بل هو نتيجةُ الدراسة الواقعية غير المحايدة.

«فلو بقي غلب الكفر وظهوره على هذا الوضع فيخشى على المسلمين أن يتناسوا الإسلام، ولا تمضي إلا أيام وسنون حتى يظلَّ الشعب المسلم شعباً لا يقدر على التمييز بين الإسلام وغير الإسلام[٤]».

نَصيحتُه للسّلاطين المَغول وأركان الدولة ورجال الحَلِّ والعَقد:

لقد درس الإمام الدهلوي تقدُّم السلاطين المغول وانحطاطَهم وعواملهما دراسةً ممعنةً ـ كما يبدو ذلك من المبحث الذي مضى في الباب السابع مِن «حجة الله البالغة» ـ وقد دَرس ـ عدا الدولة المغولية ـ تاريخَ الدول الإسلامية الأخرى بنظرةٍ دقيقة فاحصة ، واستنتجَ منه تلك النتائجَ الحكيمة التي لا يطَّلع عليها إلا منْ أكرمَه الله بحملِ القرآن الكريم وفِقهه ، الذي يَعرِف قانون الله

(١) الرسائل السياسية للإمام الدهلوي: ص: ١١.
(٢) المصدر السابق: ص: ١١.
(٣) الرسالة السابعة إلى نجيب الدولة، ص: ٢٢ ـ ٢٣.
(٤) المصدر السابق: ص ١٢.

تعالى وسُنَّته في المجازاة ، ولم يكن خافياً عليه أن طبيعة هذه الأسرة الملكية قد انحرفتْ وفسَدت ـ للسُّلطة الوراثية الطويلة وكثرة وسائلِ الترف والتسلية ، وصُحبة النُّدماء المغرضين ، وقِصر نظَر المستشارين ـ واستحكَمتْ في جسمها الأدواءُ وتأصَّلت الأمراضُ ، وقد كان خبيراً بهذه الكلمة الحكيمة للفيلسوف المؤرخ العلامة ابن خلدون : «إنَّ الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع»(١) .

ولكنَّ الهمَّ الصادقَ ، والطَّلبَ المُلِحَّ ، ونِداءَ القلب والضمير ، يحملُ الإنسان في مثل هذه الأوضاع أيضاً على المغامرة ـ التي لا يبقى فيها أمل النجاح إلا وهماً من الأوهام ، فإنه إذا اشتدَّ الظمأ براحل ، وبلغ قلبُه الحنَاجر ، فإنه ـ رغم العقل والذكاء والحكمة والتجارب ـ يَخطو ـ تلقائياً ـ رجاءَ الحصول على الماء إلى منبع السَّراب ، فإنَّ انخداعَ العقل دليلٌ على العطش الصادق ، وما أحسن ما قال الشاعر الفارسي عُرْفِي ، يقول ما معناه :

«ظُنَّ بنفسِك قِلَّة الظمأ الصادق ، ولا تُدِلَّ بعَقلك ، ولا تفخر به ، إذا كان عقلك ـ على علمٍ ووعي ـ لم ينخدعْ بلمَعان السراب الظاهر وبريِقه الجذّاب» .

ولكنَّ الإنسان ولا سيَّما أُسرةً كهذه التي حَكمتْ ـ قُروناً طِوالاً ـ بشَوكة وعِزّ وجلال ، تختلفُ طبعاً عن سرابٍ جامد لا رُوح فيه ولا حياة ، وليس هذا الرجاء منها ببعيدٍ أن يُولَد فيها رجلٌ عصامي صاحب عزيمة وحَمية وغيرة يُغيِّر تيار الأحداث ، ويَنفخ في الدولة المحتضرة روحاً جديدة من الحياة. لقد كان الإمام الدهلوي أكبر العارفين ـ في عهده ـ بالقرآن الكريم ، والغوَّاصين في معانيه وحقائقه ، وكانتْ بين يديه هذه الآية الكريمة :

﴿ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ [آل عمران: ٢٧] .

ولذلك كتب الإمام الدهلوي ـ رُغم معرفتِه بأوضاع القلعة المعلاَّة معرفةً

(١) انظر «مقدِّمة ابن خلدون» فصل «إنَّ الهرم إذا نزل بالدولة لا يرتفع» ص: ٣٠٦.

جيدة ـ إلى أحد[١] الملوك المغول من معاصريه رسالةً نصحه فيها بإصلاح الحال، وتقوية الدولة، واستدعاء رحمة الله تعالى ونصره وتأييده إليه وضمَّنها توجيهاتٍ ونصائحَ حكيمة عاليةً تقومُ على أساس الحِكمة العالية والبصيرة النافذة في الدين، والدراسةِ العميقة الواسعة للتاريخ والسياسة ونُظم الدولة، لقد قال في بدايتها:

«أرجو من فضلِ الله تعالى ورحمته أنَّه إذا صحَّ العمل، وتحقَّق بموجب هذه الكلمات، فسوف تَظهر القوة والحزم، في شؤون الدولة وبقاء الحكومة وتعلو الكلمة، يقول الشاعر ما معناه:

«لقد وَضعوني كالببغاء وراء المرآة، فلا أقولُ إلا ما لقنني المعلِّم الأزلي (الأبدي)»[٢].

وقد أشار في آخر هذه الرسالة ـ التي أرسلها إلى الملك المعاصر وأمرائه ووزرائه ـ بعد تقديم توجيهاتٍ ناصحة حكيمة، سياسية وإدارية ـ لا يمكن أن تَقوم الدولة بغيرها، ولا تَعود الرفاهية إلى الناس وتَستحكم الثقة فيما بينهم ـ بأن يُولِّي على الحسبة والقضاء أولئك العلماء الذين لم يُتَّهموا برشوة، ويكونون من أهل السنة والجماعة، وأن تُعطى لأئمة المساجد رواتبُ محترمة، ويُؤكد على أداء الصلوت بالجماعة، ويُعلن ـ باهتمام بالغ ـ ألا ينتهكَ أحدٌ حرمة شهر رمضان، وأخيراً ألا ينهمك «ملك الإسلام» و«الأمراء العِظام» في العيشة الباذخة المحرَّمة، ويَتوبوا مما سلَف منهم من الذنوب توبة نصوحاً، ويَتوَقَّوا من الذنوب في الحياة المقبلة، فلو عَمِل بذلك فإني آمل بقاء الدولة، وتأييد الله تعالى ونُصرته، «ما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت وإليه أنيب»[٣].

---

(١) ومن المؤسف أننا لم نطلع على اسم هذا الملك المغولي (الذي كتبت إليه هذه الرسالة المهمة).

(٢) انظر «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي» الرسالة رقم: ١، إلى الملك ووزرائه وأمرائه.

(٣) الرسائل السياسية للإمام الدهلوي: ص: ٨٠ ـ ٨١.

وهكذا قام الإمام الدهلوي بأداء واجبه ومسؤوليته التي كان يجب على العالِم الجليل بالدّين وشارح الكتاب والسنة ، ومُصلح عصرِه ومجدده أن يقوم بأدائها ، وهكذا يفعل مَن يعرف مسؤولياته وواجباته ، ويطلع على تلك الأخطار المحدقة التي كانت كالسيف المصلَت ليس على رؤوس الأسرة الحاكمة فحسب ، بل على رؤوس جميع سكان البلاد ، ولم تكن للإمام الدهلوي ـ في اتِّباعه لسلفه الأكرمين وحَسْب منهج العلماء الرَّبانيين ـ علاقاتٌ وصلاتٌ مباشرة بالبلاط والدولة ، بل كان متبوأً على حصير «الفقر» الغني ، ولكنَّ قَلبه كان مشغولاً ـ كالشيخ نظام الدين البدواني الدهلوي وخلفَه السيد نصير الدين الدهلوي ـ بالدعاء للحكومة وهدايتها وصلاحها ، ولم يكن يَضِنُّ على من يتصل بمركزه العلمي والروحي بتوجيهات ناصحةٍ نافعةٍ مشافهةً وكتابةً ، وقد وقع بعضُ المرات أن فاجأ الملكُ بزيارته للإمام الدهلوي ، وطلبَ منه الدّعاء ، يقول في رسالة كتبها إلى معتمَده الحبيب ، ومسترشده وأخيه ابن خالِه الشيخ محمد عاشق الفُلَتِي :

«لقد ركبَ الملِك يوم الخميس لزيارة مَقابر الشيخ نظام الدين والمشايخ الآخرين[1] ودخل على بيتي ـ بدون إشعار سابق ـ من الباب الكابلي راكباً على أريكة ساذجة ولم يك لي بذلك سابقُ علم ، فدخل المسجد وجلس على البواري ، فرأيت تَوقير السلطان من اللازم إلى حدٍّ أن فرشتُ سُجادتي التي أَجلسُ وأَصلِّي عليها بطريقةٍ جلستُ في جانبٍ منها وجلسَ الملكِ في الجانب الآخر ، وصافحَني الملك أولاً بإكبار وإجلال ، ثم قال: كنتُ في شوق إلى زيارتكم منذُ مدة طويلة ، ولكني وصلت اليوم بدلالةِ هذا الشابّ (وكانت الإشارة إلى الوزير) ، ثم قال: إنَّ غلبةَ الكفر والفرقة والفوضى في الرعايا وصَلتْ إلى ما وصلت إليه مما يعلَمُه الجميع ، فقد شقَّ عليَّ النوم والطعام

(١) ومن المؤسف أن اسم هذا السلطان لم يذكر في هذه الرسالة، ولا عندنا مراجع نرجع إليها في الكشف عنه.

والشراب ، وأسألكم الدعاء ، فقلتُ: كنت لا أزال أشتغل بالدعاء من قبلُ ، وسوف أزيد من الآن اشتغالي بالدعاء إن شاء الله تعالى.

وقال لي الوزير ـ أثناء ذلك ـ: إن جلالة الملك يُحافظ على الصلوات الخمس باهتمام.

فقلتُ: الحمد لله ، هذا ما نَسمعُه بعد زمن طويل ، وإلا فإنه لم يُسمعْ عن الملُوك السابقين في الماضي القريب هذه المحافظة على الصلوات»[١].

ثم حكى الإمام الدهلوي للملِك ـ أخيراً ـ تلكَ الوصية التي أوصى بها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه عندَ استخلافه ، قال:

«تَعرض للخليفة مشاكل طريفة غريبة ، من قِبل أعداء الدِّين وأتباعِه أيضاً ، فلا علاجَ لهذه المشاكل إلا العلاجُ الواحد ، وهو أن تَجعلَ مرضاة الله تعالى نُصْب عينِك وتَستعين به ، وتَصرف النظر عن سواه»[٢].

ويقولُ في رسالة أخرى كتَبها إلى الشيخ محمد عاشق:

«جاءني الملك ووالدته[٣] ، وكان غَرض الملك من المجيء بهذه الصورة أَنْ يجلس عندي دون كلفة وحرج ، وقد جَلس ثلاث أو أربع ساعات تقريباً ، وتناول الطعام كذلك ، وكان أكثرُ كلامِه فيما يتعلَّق بالاستعانةِ في سبل الخير والرفاهية للناس»[٤].

ولكنَّ الحقيقةَ الظاهرة هي أن انحطاط الأسرة الحاكمة ، وآثارَ السلطة الوراثية ، والمناوءات ، والمؤامرات الخارجية والداخلية ، كانت قد بلغتْ إلى

(١) الرسائل السياسية للإمام الدهلوي: ص: ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) المصدر السابق: ص: ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) والمراد بالملك هنا أحمد شاه الذي كان ابن محمد شاه وخلفه على عرشه عام ١١٦١ هـ.

(٤) الرسائل السياسية: ص: ١١١.

حد أن أيَّ سلطان كبير قوي صاحبَ عزيمة وقوةِ إرادةٍ لم يكن يستطيع أن يُغيِّر هذا الانحطاط بالازدهار والضعف والوهن بالقوة الجديدة والحيَوية الجديدة، ويُحدث ثورةً في أوضاع البلاد كُلِّها.

وقد أثبت التاريخُ أن أي دَولة من الدول إذا وصل انحطاطُها وتردِّيها إلى آخر حُدوده، وكانتْ ألغامُ المؤامرات والمعارضات متهيئةً لتنسُف كيان الدولة كُلّها، فلا ينجَحُ أقوى الملوك إرادةً وأمضاهم عزيمة، وأشدُّهم صبراً وبلاءً، وأصلحُهم حالاً، في إعادة الحياة إلى جسد الدولة الهامد ونفخِ الروح فيه من جديد، وقد وقع أنَّ الرجل الأخير في الأسرة الحاكِمة الذي سقطت في عهده الدولةُ وانقرضت، كانَ أصلح بكثير من كثيرٍ من سَلَفِه وسابقيه، وأنَّه حاول جَهده المستميتَ في حماية الدولة من السُّقوط ولكنَّه لم يلْقَ أيَّ نجاح وخابتْ مَساعيه، فقد كان مروان بن محمدٍ المعروف بمروان الحمار (ت ١٣٢هـ) في آخر الدولة الأموية والأسرة المروانية، وآخرُ الخلفاء العباسيين المستعصمُ بالله (ت ٦٥٦ هـ)، وكذلك آخر ملوك الأسرة التيمورية ـ إلى حد ما ـ أبو ظفر بَهادر شاه (م ١٢٧٩ هـ الموافق ١٨٦٢) من الأمثلة العديدة على ذلك.

ولذلك كانتِ الحاجة ماسَّةً إلى ألا يَقصر المُصلِح الناضج، والمؤرخ البصيرُ، وصاحب الفراسة الإيمانية كالإمام الدهلوي، على إقامة الصلاة بالملوك المغول ـ اسماً ـ وأُمراء بلاطِهم، وإيقاظ الحميَّة الدينية والغَيرة الإسلامية فيهم، وتحريضِهم على مقاومة الأوضاع المنحرفة، والقوى الهدَّامة المخرِّبة، فقد خرج هو من نِطاق أمراء البَلاط الضَّيق المحدود، وراسَلَ أولئك الأمراء وقادةَ الجيوش والأبطالَ الطامحين الذين أحسَّ في داخلهم بِجَمْرةِ الحميَّة الدينية والإباء القوميِّ، كان فيهم هؤلاء الأمراءُ والقادة الكبار الذين يَلي ذكرهم:

١ ـ وَزيرُ المملكة آصِف جاه(١).

---

(١) انظر «مجموعة الرسائل» للشيخ عبد الرحيم والإمام الدهلوي (مخطوط) في مكتبة =

٢ ـ النَّوابُ فيروز جنَك نظام المُلك أحمد شاهي .
٣ ـ الوزير عِماد المُلك .
٤ ـ تاج محمّد خان بَـلُوج .
٥ ـ النَّواب مَجدُ الدولة بَـهادُر(١) .
٦ ـ النَّواب عُبيد الله خان الكشميري .
٧ ـ مَيان نياز كُل خان .
٨ ـ السَّيد أحمد رُوْهِيله .

إلاَّ أنَّ اختيار الإمام الدهلوي ـ الذي كان يُرافقه الإلهام الرباني ، والفِراسة الإيمانية ـ وقعَ منهم على شخصيتين عظيمتين في ذلك العهد ، كان أحدُهما في داخل الهند ، والآخرُ في خارجها ، أعني بذلك أمير الأمراء النَّواب نجيبَ الدولة ، وأحمد شاه الأبدالي حاكم أَفغانستان إذ ذاك .

النَّـوابُ نَجيبُ الدَّولة:

لقد كانتْ تتوفَّر في النَّواب نجيب الدولة جميعُ الصفات والخصائص التي هي مِن خصائص مُؤسِّسي الدولِ والحكومات في العهد القديم ، الذين قاموا بدور مُهم بارز في عهد ازدهار الدول الشخصية والأُسر المالكة وتقدُّمها ـ الذي كان يكفي فيه توفر الجَوهر الذاتي ، والخصائص الذاتية اللازمة واجتماع الأوفياء والمخلصين للفتوح وإقامة الدول والحكومات ـ والذين ظهرتْ على أيديهم أي مأثَرة من مآثرِ الفتح والانتصار ، والذين كان يتمكّن منهم جَوهرُ الوَفاء بولي نِعمتهم وعادة الإحسان والكَرم مع أصحابهم ومن تحت أيديهم ، وخِصيصةُ الفُروسية والشجاعة والصَّلاحية القيادية تمكُّناً راسخاً ، ولكنَّ التجارب التاريخية تُفيد أن هذه الصفات والخصائص إن كانت تَنجحُ في هزيمة القوى العسكرية وفتح البلاد والأمصار .

= الجامعة العثمانية بحيدر آباد، قسم المخطوطات ص: ٢١٤ .
(١) وجّهت إليه أربع رسائل، انظر «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي» ص: ٦٦ ـ ٧٠ .

ولكنها في البيئة التي يُعتبر فيها الغَدر والخيانة «فناً شريفاً» وتُعتبر مخالفةُ الأصول والضوابط وإساءة الأخلاق والأعمال سِياسةً حكيمةً عالية ، واستغلال الفرص عقلاً وبصراً وكَياسة ، تتحوَّل ـ بدل أَن تكون مفيدةً نافعة ـ إلى عوائق في سبيلِ النجاح ، ودوافعَ إلى إيجاد المشاكل والمصاعب ، ولقد صادفتِ النَّواب نجيب الدولة وآصف جاه ـ لسوء الحظ ـ مثلُ هذه البيئة الفاسدة العفنة ، وقد اتَّفق المؤرِّخون على سُمو خُلقه وصلاحيته الجندية والقيادية والإشادةِ بها ، يقول سرجاد وناتهسر كار:

«يحارُ المؤرِّخ فيما يختار من حسناتِه للإشادة بها والثناء عليها ، أَقيادَتُه المُحيِّرة في ساحة الحرب؟ أم صوابُ رأيهِ وحِدَّةُ نظَره في المشاكل؟ أم صلاحيتُه الفِطرية التي كانت تُنير له في الفوضى والاضطراب ، تلكَ الطريق التي كانت تؤدي إلى نتائج تُحالفه وتوافق هواه؟»[١].

ويقول الشيخ ذكاء الله في «تاريخ الهند»:

«لقد كان نَجيبُ الدولة عاقلاً ذكياً فطِناً حكيماً ، قلَّ من يكون مثله ، فقد انتهتْ إليه في عهده الأمانة والديانة ، فكان لا يكفُّ عن طاعة أسيادِه القدماء النَّواب دوندي خان رُوهيله ، والنَّواب شجاع الدولة ، كما كان له تَحالفٌ مع ملهرراؤهلكر ، ولعلَّك تذكر أن هذا المرَهتة كان قد فرَّ من حرب «باني بَت» تاركاً أهل وطنه وراءه، وبالجملة فقد كان هذا الرجل الشجاع يُداوي ـ بطريقة أو أخرى ـ هذه الدولةَ المحطَّمة المكسَّرة»[٢].

ويقول الشيخ عبد العزيز الدهلوي:

«كان لدى نجيب الدولة تسعمئة عالم ، يتقاضى أدناهم منزلةً خمس روبيات وأعلاهم ٥٠٠ روبية شهرياً»[٣].

---

(١) Sarkar: Fall of The Mughal Empire, Vol.II P.416. وقد اقتبسنا ذلك من «الرسائل السياسية للإمام الدهلوي»، ص: ٢٣٢.
(٢) تاريخ هندوستان: (تاريخ الهند) جـ: ٩، ص: ٣١٥.
(٣) مجموعة الكلمات: للشيخ عبد العزيز، ص: ٨١.

وكان هو ـ حَسب تصريح البروفيسور خليق أحمد نِظامي ـ أكبرَ شخصية في دلهي في الفترة ما بين ١٧٦١ ـ ١٧٧٠م ، فكان هو القطب الذي تدور حوله رحى السياسة كلها ، وكان يتحمَّل عاتقه أعباءَ إدارة الحكومة كلها[(١)] .

لقد اختار الإمام الدهلوي ـ الذي وهبه الله تعالى مَلَكةً خاصة لمعرفة الرجال والاعتراف بالواقع ، والتي لا تعطىٰ إلا لأولئك الرجال الذين يقومون في تاريخ الإصلاح والتجديد وصناعةِ الرجال وتربية الأفراد بأعمالٍ جليلة بارزة ـ لتحقيق آمالِه وتكميلِ مُهمته في هذا العهد من أزمة الرجال ونُدرة الأفراد ـ النَّوابَ نجيب الدولة ، وقد تفرَّس بعد نظره ودقته ما أودعَ الله تعالى من جوهر صالحٍ وحَميَّةٍ دينية ، فبدأ الإمام الدهلوي مراسلته ، وحاوَل إشعال تلك الجَمراتِ الكاملة تحتَ الرماد ، يقول في رسالة إليه :

«ندعو الله تعالى أن يُشرِّف أميرَ المجاهدين بالنصر الظاهر والتأييد المُبين ، ويبلغ هذا العمل إلى منزلة القبول ، ويُنزل عليه بركاتٍ ورحماتٍ كبيرة .

لِيبلُغْ من الفقير وليّ الله ـ عفا الله عنه ـ بعدَ التسلميات العطِرة بالمحبّةِ أننا نشتغلُ هنا بالدُّعاء لنُصرة المسلمين ، وتَلوحُ لنا مِنَ الغيب آثارُ القبول ، ونأمل أن الله تعالى سيُحيي على أيديكم الجُهدَ والجهادَ الديني ، ويُعطي بركاتِه وثماره في الدنيا وفي الآخرة ، إنه قريبٌ مجيب»[(٢)] .

ويدعوه في رسالة أخرى بـ «أميرِ الغزاة ورئيس المجاهدين»[(٣)] ، ويقول في رسالة أخرى :

«يُخيَّل إلينا أنَّ عمل تأييد المِلة الإسلامية ونُصرة الأمة المرحومة في هذا العصر سوفَ يتَحققُ على أيديكم الذي هو مصدر هذه الأعمال الخَيِّرة ووسيلتُها ، فلا تدَعوا الوَساوس والهواجس تتمكَّن من قُلوبكم ، وستتحقَّقُ إن

(١) الرسائل السياسية : ص: ٢٣٢ .
(٢) المصدر السابق: ص: ١٩ .
(٣) المصدر السابق: ص: ٢٠ .

شاء الله تعالى جميع الإنجازات وفقَ رغبة الأحباب ورضاهم»[١].

ولا يكتفي الإمام الدهلوي في رسائله إلى النّواب نجيبِ الدولة بكلماتِ التهنئة والدعاء، بل يُشير عليه بوصايا نافعةٍ أساسية، وينصحُه بالحَيطة والاجتناب من العودة إلى تلك الأخطاء والوقائع التي ظَهرت على أيدي الغُزاة السابقين والجيوش الإسلامية من قَبل، والتي تحول دون تأييد الله تعالى ونَصرِه، يقول في إحدى رسائله:

«عندما تَمرُّ الجيوشُ المَلكية بدلهي، فلْيُراع بدقة نظام ألاَّ تُداس كرامة هذه المدينة بالظلم والعدوان كما سبق مِن قبل، لقد شهد أهل دلهي ـ مراراً ـ حوادث النَّهْب والسَّلْب وانتهاكَ الحُرمات والأعراض، وهذا سببُ التأجيل في تحقق المقاصد والأهداف، فإنَّ أنَّة المظلوم لا تذهب هكذا سُدى، فإذا كنتم تُريدون هذه المرة أن يتحقَّق لكم ما لم يتحقق بعد، فليؤكد تأكيداً بالغاً، وليلتزم التزاماً قوياً بألاَّ يتعرض أيُّ جندي للمسلمين في دلهي وغير المسلمين أيضاً، الذين يُدعون أهلَ الذمة»[٢].

ويُلفت الإمام الدهلويُّ الأنظارَ ـ مرة بعد مرة ـ في عددٍ من رسائله إلى حمايةِ البلاد من خطر هذه القوى المقاتلة الهدَّامة الثلاثة ـ التي مضى ذكرُها في بداية هذا الباب ـ وحفظُها من أضرارهم وعدوانهم، إذ بدون ذلك لا تقومُ للنِّظام والإدارة في البلاد قائمةٌ، ولا يَسود الأمن والسلام، ولا تبقى الشعائر الدينية ومساجدُ المسلمين آمنةً مَصونةً، ولا أمل في عيشة عادِية متَّزنة، فقد أصبحتِ البلاد كلُّها بسببِ هذه القوى العائِثة في الأرض الفسَادَ تعيشُ حالة حربٍ دائمة، وفي صورةِ جبهةٍ عسكرية مستقلة[٣].

لقد بلَغ الإمام الدهلوي من حُبّه للنَّواب نجيب الدولة وإشادته به، ويُعلّق

(١) الرسائل السياسية: ص: ٢٨.
(٢) المصدر السابق: ص: ٢١.
(٣) المصدر السابق: ص: ٢١ ـ ٢٢.

عليه من الآمال الجسام أن يُكرر عليه ويؤكد ـ مراراً ـ أنه إذا قام وتوجَّه لهذه المهمة فلا بد أن يَشعر الإمام الدهلوي بذلك حتى يَنصرف إلى الدعاء[١] ، كما يؤكِّد عليه ـ مرةً بعد مرة ـ رجاءَه الفتحَ والانتصارَ على يديه ـ ويتنبّأ بذلك، يقول في رسالة إليه:

«لَايَشُكُّ هذا الفقير في هذا الأمر ، ولا يَرتَاب فيه»[٢].

وقد اتَّخذ الإمام الدهلوي النَّواب نجيب الدولة نفسَه واسطةً خاصة لدعوة أحمد شاه الأبدالي إلى الهند ، وأمرَه بالكتابة إليه ـ عدا مراسلاتِه معه مباشرةً التي سيأتي ذكرُها في الصفحات القادمة ـ وأكَّد عليه بذلك عدةَ مرات ، وتُوفي النَّواب نجيب الدولة بعد وفاة الإمام الدهلوي بثماني سنوات في رجب عام ١١٨٤هـ الموافق ٣١/ أكتوبر عام ١٧٧٠م ، يَقول البروفيسور خليق أحمد نظامي:

«إنَّ هذا الحادث يدل على عَدْلِه وبُعد نَظرِه ، وسوف يَبقى ذكرى دائمة في التاريخ ، إذ أنه حالَ احتضارِه وإشرافِه على الموت على فراشِه ، أصدرَ أَمره إلى جيوشه (التي كانت مُقيمة ـ إذ ذاك ـ في هابور[٣] وكان بها العيد والاحتفال السنوي للهندوس) أن يُحافظ على أموال الزُّوار الهندوس المُشاركين في هذا الاحتفال وأعراضِهم وأنفُسِهم»[٤] .

أَحمد شاه الأبدالي:

لقد أدركَ الإمام الدهلوي ـ ببُعْد نظرِه ودراستِه الواقعية لأوضاع الهند ، وبالنظر إلى بِطالة أركان الدولة وأمراء البِلاد وسوء تصرفاتهم ، وانحطاط الأسرة الحاكمة وعدم كفاءتها وصلاحيتها ـ حَقيقتَينِ ظاهرتين:

---

(١) الرسائل السياسية: ص: ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) المصدر السابق: ص: ٣٤ ـ ٣٩.

(٣) مدينة قريبة من دلهي في الولاية الشمالية.

(٤) المصدر السابق: ص ٢٣٤، نقلاً عن «سركار» جـ: ٢، ص: ٤١٥.

إحداهما: أَنَّ الحاجة المُلِحَّة الأولى لهذه البلاد هي القضاءُ على ملوك الطوائف والفَوضى والاضطراب الذي لا يدَع مجالاً لأي عمل بنَّاء وإدارةٍ حازمة ونظامِ أفضل، ولا أَمْنَ فيه لأنفس أهل البلاد وأَعراضِهم وأموالهم ـ كما تقدَّم في الصَّفحاتِ الماضية ـ.

وتعود مسؤولية هذه الفوضَى والاضطراب وقِلة الأمن، وحالةُ الفزع والإرهاب المستقلَّةُ إلى هذه القُوى الفَوضوية المقاتلةِ الثلاثِ التي لم تكن لها خلفياتٌ كريمة وتَجاربُ سابقةٌ للحكم في بلاد تعيشُ فيها الشعوب المختلفة والحضارات والدياناتُ المتعددة، ويَحتاج تحمُّل مسؤولية الإدارة فيها إلى شعور كبيرٍ بالمسؤولية، وقوةٍ زاخرة بالتحمُّل والضبطِ وتملُّكِ الأعصاب وسَعةِ النظر ورَحابة الصدر، ولم تكُن هذه القوى تملِك تصميماً أو تخطيطاً لنشر العدل والطمأنينة في البلاد، وإعادةِ الثقة في النفوس، وإصلاح الإدارة والنظام، ولم يكن لها أيُّ تصور وتفكيرٍ فيه.

ولأجل ذلك كانت المهمة الأولى هي حماية البلاد من خَطر هذه القِوى ولا سيَّما من غلبة المَرهتة واستيلائِهم الذي لم يدعْ هذا الجُزء المركزي، الذي لم يزل عاصمة الحكومات، أي هذه المنطقة من لاهور إلى دلهي والولايات المتحدة الشمالية يعيشُ ـ لحظة ـ في أمن وطمأنينة، فلا يُدرى متى تتحولُ هذه المنطقة كلُّها إلى ساحة حرب وقتال، وتتحول المدن العامرة الزاهرة إلى غابةٍ حُـرَّةٍ مفتوحةٍ يُعطى فيها السماح للصيَّادين والقانصين أن يَصطادوا السكان الآمنين، ويَذبحوهم كالطير والمواشي، ويَقضُوا على ثرواتهم التي تَوارثُوها كابراً عن كابر، وجيلاً بعد جيل، في دقائق وثوانٍ.

وكان الخطر الثاني في صُورة السيخ والجات، الذي كانتْ تتعرضُ له مراكز المدينة والحضارة والثروةِ واليسار، وكان يَدهَمُها ويُفاجئها كآفةٍ سماوية، وبَلِيَّةٍ نازلة.

والحقيقةُ الثانية: أنَّ القضاء على هذا الخطر كان يحتاجُ إلى قائد عسكري مُحنَّك وجيش قوي مدرَّب، يكون زاخراً بالقوة العسكرية، ولكن لا يكون

ثملاً بها سكران ، ويتصفُ ـ علاوة على صفات الفُروسية والشجاعة والبطولة ـ بالغَيرة الإيمانية ، والحميَّة الدينية ، كذلك مع البراءة من الخلافاتِ الجزئية والحزازات الجانبية والأحقاد القديمة والعداوات الموروثة ، التي كانت تَنْخُر عاصمة البلاد وأصحاب السياسة كالدُّودِ ، والتي لا يُرجى في وجودها تحقيقُ تلك الأهداف العالية التي لا يُنظر فيها إلى مصالح المِلة الإسلامية وتأييدِ الدين الحنيف ، وحفظِ البلاد وتأمينِها بدلاً من مصالح العناصر السُّلالية ، والفِرق الدينية الخاصة ، أو المصالحِ الشخصية والانتصار للذات.

وقد كان الإمام الدهلوي ينظرُ إلى أمير الأمراء النَّواب نجيب الدولة كواسطةٍ ووسيلة ، ولكنه كان يعرف أنَّه لا يكفي نظراً لخطورة الأوضاع وشدتها ، ولم يكن من المستطاع أن يَحُدَّ به ـ وحده ـ مِن سلطة تلك القوى ويكسرَ شوكَتها التي كانت قد ضاعفت قُوّتها العسكرية إلى حد أن أيَّ قوةٍ عسكرية واحدةٍ في البلاد لم تكن تَقدر على كسرها وإلحاق الهزيمة بها ، بل كانتِ الحاجة لذلك ماسَّةً إلى قائد عسكري خارجي دافقٍ بالحياة والنشاط ، ولا يكونُ ـ في نفس الوقت ـ أجنبياً غريباً في هذه البلاد تماماً ، بل يكون على معرفةٍ وإلمام بوهاد هذه البلاد وأنجادِها ، وتقاليدِ أهلها وعاداتِهم ، وطبيعةِ الفِرَق المناوئة والمقاتِلين المقاومين ، ومواضع ضعفهم وسقطتِهم ، ويملك من عُلو الهمة والطُّموح ما يستطيعُ به أن يُنقذَ هذه البلاد من الأخطار المُلِمَّة الواقعة ، ثم يُفوِّض السلطة إلى أحد الأكفاء القادرين من أفراد الأسرة الحاكمة القديمة أو إلى أمير أو وزير صالح وفيٍّ ، إذ كان ذلك هو المقتضى الحقيقي للواقعيةِ والمصالح المِلِّية ، وحُبِّ الوطن.

وقد وقع اختيار الإمام الدهلوي ـ لهذه المهمة الخَطيرة العسيرة الدقيقة ـ التي تَحملُ كَكُلِّ مُهمةٍ دقيقة خطيرة جوانبَ النفع والضَّرر ، والرِّبح والخسارة ـ على أحمد شاه الدَّراني (١١٣٦ ـ ١١٨٧هـ الموافق ١٧٢٣ ـ ١٧٧٢م) وَالي قَندهار ، الذي لم يكن أجنبياً عن الهند ولا غريباً فيها ، فقد وِلد

في مُلتان[١] ، ولا يزال فيها شارع يسمى بـ«شارع الأبدالي» وقد غزا الهندَ لمختلف أهدافه وأغراضِه تسعَ مرات من عام ١٧٤٧م إلى عام ١٧٦٩م ، وكان قد وَرد الهند قبلَ دعوة الإمام الدهلوي ونجيبِ الدولة له : ستَّ مرات.

وكان يَعرف وِهاد البلاد وأنجادَها ، وأساليب الحَرب فيها ، ونِسبة القوى العسكرية بها ، ومُيول الأمراء وأركان الدولة ونزَعاتِهم ، وقد كان من أولئك القادة العسكريين الممتازين في مُنتصف القرن الثامن عشر المسيحي والقرن الثاني عشر الهجري الذين لا يُولدون إلا بعد آمادٍ وأحقاب طويلة ، ويؤسِّسون دولاً وحكوماتٍ مستقلة ، إنّـه جمع شَملَ الأفغانيين المتفرقين بتوفيقٍ ونجاح ، ونفَّذ القوانين العادلة ، وأقامَ الحسبة ، وكان يَجمعُ بين صِفات الفروسية والأخلاق الفاضلة وشَرفِ النفس وكَرمِ الأصل ، يتَذوّق العِلم والأدب ويُعنى بهما ، وكان محبّباً أنيساً في قومه ، متديّناً ، مُتقيّداً بالفرائض والآداب الدينية ، يُحب مجالسةَ العلماء والصالحين ، ويتأدَّب مع الأشرافِ والمشايخ ويُكرمهم ، ويرغب ـ دائماً ـ في زيادة معلوماتِه وتَبادلِ الآراءِ في الأمور العلمية.

وكـان رقيـقَ القلـبِ رحيمـاً سخيـاً كـريمـاً ، يتَمسَّـك بـأصـول المسـاواة والمسامحة الدينية ، وقد أحيا السُّنن التي كان التكلُّم بها في البيئة الأفغانية ـ إذ ذاك ـ مِنَ الصعوبة بمكان ، مثل الزَّواجِ بالأيامَى ، وقد كان هو نفسه مُثقّفاً وكاتباً قديراً ، وكان يَهتمُّ بتقدمه الروحي ويتمنى ذلك[٢] ، يقول فيرير :

«لقد كان أحمد شاه بريئاً من كثير من السيئات ومواضع الضعف الشرقية ، فكان يتجنّب ـ كلياً ـ شربَ الخمور وتَناوُل الأفيون ، نزيهاً سامياً على أفاعيل النهامة والنّفاق ، مُلتزماً بالدين أيّما التزام ، وكانت عاداتُه وأخلاقه الساذجة

---

(١) انظر «دائرة المعارف الإسلامية» Encyclopedia of Islam Davies مقال C.Collin Davies.

(٢) انظر للتفصيل: Ahmad Shah Durrani-Father of Modern Afghnistan-Asia Publishing House,1949 BY DR.G.Singh.

ولكن المُتَّزنة الرزينةُ ـ تُحبِّبه إلى كل شخصٍ ، كان الوصول إليه سهلاً ميسوراً ، فقد كان يُراعي العدل والنصفَة ، ولم يَشكَّ أحد قط في حكمه وقَضائه»[١] .

كان أحمد شاه الأبدالي قَدم الهند في عهد الإمام الدهلوي ستَّ مرات من قبلُ ، وقضى حاجاته المحليَّة المؤقَّتة ، ثم رجع إلى بلاده ، ولم يَقم هو في هذه الحَملات ـ سوى التظاهر بقُوته العسكرية المدعمة ، وتحقيق بعض مآربه المؤقتة ـ بمُهمة مفيدة ولم يُحقِّق مصلحةً كبيرة ، كما لم يلتزم جيشُه ـ أثناء حملاته ـ بتِلك الآداب والتعاليم الإسلامية التي يُتوقع العمل بها من شخصٍ مسلم متقيِّد بالشريعة .

وقد عانى الإمام الدهلوي وأصحابه أيضاً من جراء بعضِ حملاته ، من مَصائبَ وصُعوبات ، ولكنه رُغم هذه المواطِن من الضَّعف فيه والتجارب المُرّة السابقة عنه ، كان هو الأملَ الوحيد الذي يَلمعُ في الأفق ، يُصرّح الشيخ محمد عاشق الفُلتي بأن الإمام الدهلوي بعد ذلك كان يقول: «إنه سَيغلِبُ على هذه الديار» ، وقال مرة رداً على سؤال من بهادر خان بلوج: «سوف تستَحكِمُ سيطرتُه على هذه البلاد» ، وشاع ـ ذات مرة ـ نبأُ وفاته ، فلما استفسرَ الشيخ محمد عاشق الفلتي عنه قال:

«الذي يُخيَّلُ إليَّ هو أن أحمد شاه الأبدالي سوف يَعود إلى هذه البلاد ويَقْلِبُ هؤلاء الكفار ظهراً لبطن ويجعلُ عالِيَهم سافِلَهم ، وأنه ـ رغم جُوره وطُغيانه ـ قد حفظه الله تعالى لأجلِ هذه المُهمة»[٢] .

لقد كان الإمام الدهلوي يتوقع أنَّ الله تعالى سوف يُصلح أحوال الأبدالي ويَهديه إلى الرشاد ، ويَستعمِلَه في خدمة ليست ـ في ظاهر الأمر ـ في وُسع

---

(١) HK/V History of The Afghans وقد اقتطفنا ذلك من «الرسائل السياسية» ص: ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(٢) الرسائل السياسية: ص: ٢٦ ـ ٢٧ .

أي أمير أو قائد آخر، قال للحكيم أبي الوفاء الكشميري ذات مرة: إن الصعوبات التي يُلاقيها الأبدالي في تحقيق أهدافه هي لأجل ما ارتكبَه من ظلم وجَور (في حملاته السابقة) على مُدن الهند، وسوف تَصلُح أحواله فيما بعد[١].

كان الإمام الدهلوي يُريد من أحمد الأبدالي أداءَ دوره في صيانةِ هذه البلاد من هذه الأوضاع القَلِقة والفوضى العامة، وأن يَعهد بالدولة إلى شَخص كُفءٍ صالح ـ إلى حد ما ـ مِن أفراد الأسرة الحاكمة، وكان الإمام الدهلوي قد تنبَّأ قبل مَقْدمِه بأنه لا يَلبث، هنا بل يُولي أمر الدولةِ أحدَ الأفراد من أولاد الملوك[٢].

وأخيراً طلبَ الإمامُ الدهلوي من نَجيب الدَّولة كتابةَ الرسائل ـ بهذا الصدد ـ إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم كتب إليه ـ مباشرةً ـ رسالة مؤثِّرة بليغةً تَكشفُ عن بصيرة الإمام الدهلوي السياسية وحَمِيَّته الدينية وجَراءتِه الخُلقية[٣]، وقد ذكر في هذه الرسالة الأوضاعَ الراهنة في البلاد وأساليب حُكمها القديمة وإدارَة مُختلف الولايات ونُظُمها المختلفةِ، وعددَ الفِرَق الدينية والسُّلالية المختلفة في البلاد، ونِسبة قِواها، وأخطاءَ الملوك السياسية وَقِصَر نظرِهم فيما يتعلَّق بهم، واستحكامَهم وتَبوؤهم مكانةَ القوة والسلطة بصفةٍ تدريجية، وذكَر المَرهته والجات في هذا الصدد ـ بصفة خاصة ـ وصوَّر غُربة الإسلام وبُؤس المسلمين بتأثير حملاتِهم المتكررة صُورةً مُشجية مُذيبةً للقلوب، وحرَّض هذا القائدَ المسلم ـ الذي كان يملك في ذلك العهد من الهند إلى إيران ـ أكبرَ قوة عسكرية مُنظَّمة ـ على مقاومة هذه الأوضاع وتَثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيدِ أركانها، وتحمّل مسؤولية البلاد على عاتقهم من جديد، وصارَحه بقوله:

---

(١) الرسائل السياسية: ص: ٣٠.
(٢) المصدر السابق: ص: ٣٠.
(٣) انظر الرسالة المفصلة في «الرسائل السياسية» الرسالة رقم: ٢، ص: ٦ ـ ١٧.

«إنّه لا يُوجد ـ في هذا العهد ـ مَلِكٌ يملِكُ من القوة والشوكة ما يستطيعُ أن يَهزم بهما جيُوشَ الأعداء ، مع بُعد النَّظر والحِنكة العسكرية إلا سيادتُكم»[(١)] .

ويَزيد قائلاً :

«إنّنا عبادَ اللهِ نستشفعُ برسول الله ونسأَل بالله تعالى أن تَصرِفوا همتكم المباركةَ العالية إلى هذه الجهة ، وتُقاوموا الأعداء حتى يُكتب لكم عند الله تعالى في صحِيفتكم ثوابٌ عظيم ، ويُسجَّل اسمكم على صفحة المجاهدين في سبيل الله ، وتنالكم في الدنيا مغانمُ كثيرة لا تحصى ، ويتخلَّص المسلمون من مخالب الكفار وقَبضتهم»[(٢)] .

وقد عَرض الإمامُ الدهلوي في هذه الرسالة ـ نفسِها ـ ببصيرتِه السياسية واطِّلاعه العميق على الظروف والأوضاع ، عنْ هذه القِوى الناشئة البارزة التي كانتْ لها ـ لِفُقدان أي قوة منظّمة مجابهة ـ هيبتها ورُعبها فِي النفوس ، وكان يَعتقد أن لا قُدرة لأحدٍ على هزيمتها ، تقديراً صحيحاً دقيقاً لا يُقدِّمه إلا قائدٌ محنَّك أو سياسي بارع ، يقول عن المَرهتة :

«إنَّ هزيمة المَرهتة هيّنةٌ سهلةٌ ، شَريطة أن يُشمِّر غُزاة الإسلام عن ساقِ الجِدِّ والجهاد ، والواقعُ أن عُنصر المَرهتة قليلُ العدد ، ولكنَّ جمعاً كبيراً يساندهم ويُحالِفهم ، فلو فُرِّق صفٌّ واحدٌ من صفوفهم لتبدَّدتْ هذه الجماعة وتفرَّقتْ ، وأُصيبتْ بالهزيمة والضَّعْفِ والفُتور ، وبما أن هؤلاء القوم ليسوا أصحابَ قوة وشَوكة ، لذلك فإنه تنحصرُ كلُّ مهارتهم في جمع العَدد الكبير والجيش الكثير الذي يَكون أكثرَ من النمل والجراد ، أما البطولةُ والشجاعة وكثرةُ وسائلِ الحرب فليستْ فيهم»[(٣)] .

(١) الرسائل السياسية: ص: ١٢.
(٢) المصدر السابق: ص: ١٢.
(٣) المصدر السابق: ص: ٨٦.

إنَّ هذه الرسائل التي كتبها النَّواب نجيب الدولة ـ بتوجيهٍ من الإمام الدهلوي إلى أحمد شاه الأبدالي، ثم الرسالة المؤثرة البليغة المفصَّلة التي كتبها الإمام نفسُه إليه ـ وقد تقدمتْ بعضُ مقتطفاتها ـ لم تذهب سُدىً، فقد توجَّه أحمد شاه الأبدالي عام ١١٧٣هـ ـ الموافق ١٧٥٩م لكسر شوكة المرهتة وتَحطيم قوتهم ومساعدة نجيب الدولة وشجاع الدولة ـ اللَّذَين كانا قد أثبتا وَعْيَهُما السياسي ووَحْدَتَهُما الإسلامية إلى الهند، ومضى عام كامل في الحروب والاشتباكات الجانبية، وأخيراً وقعتْ بين المرهتة وبين الأفغانيين والجبهةِ الإسلامية الهنديَّة الموحَّدة عام ١١٧٤هـ الموافق ١٤/ يناير عام ١٧٦١م تلكَ المعركة الحاسمة التي غيَّرت في الهند مجرى التاريخ، وأخرجتِ المَرهتة من الخريطة السياسية الناشئة في الهند، ونُورد فيما يلي قصَّة هذه الحرب ونتيجَتها بإيجازٍ حَسبما يحكيها الشيخ ذكاء الله في كتابه «تاريخ الهند»[1] يقول:

«لقد حَمِي الوَطيسُ واشتدَّ لظَى الحرب، إلا أنَّ كَفة المرهتة كانتْ راجحة، فأصدرأحمد شاه أمره لجنُوده الفارين من الزحف أن يُحاصَروا ويُقْتَلوا، وأعلن أنَّ من حاول الفِرار يُقتلُ فوراً، ثم أمرَ جيشه بالتقدم وأمر فرقة عسكرية أن تحملَ من جِهة يساره على العدو، وقد أصاب سهمُ هذا التدبيرِ مقتلَه، وقد كان «بهاؤ» و«بسواس راؤ» في قلب الجيش راكِبين يُحرِّضان الجنودَ والمَرهتة على القتال، وكانت الحرب بالخناجر والرماح، وإذا به وقع ما اللهُ يَعلمُه فتزلزلتْ أَقدامُ الجُنود المَرهتة، وذهبتْ رِيحُهم وما إن تَزلزلتْ أَقدامُهم حتى امتلأتْ ساحة الحرب بالجُثث والأَشلاء، فتعقَّبهمُ الجيشُ الإسلامي وتتبَّعهم ـ بِحماس واندفاع ـ في كل جهة وجانبٍ إلى خمسة عشر وعشرين ميلاً، وأَثْخَنهم بالجراح، وأسقطهم أكواماً من الصرعى والقتلى، ومن بقي من المَرهتة في أيدي هؤلاء الأعداء، فقد قَتلهم البَدو الرّعاع، وقُتل «بسواس راؤ» و«بهاؤ»، وكان قد أخفى بعضُ الدرَّانيين «جي كوجي سنديها»

(١) انظر للتفصيل «تاريخ الهند» للشيخ ذكاء الله، جـ: ٩، ص: ٣٠٥ ـ ٣٠٩.

وسَتَرَ عليه ، ولكنه أُخذ بعد بحثٍ وتفتيش وقُتل ، وأُسر إبراهيم خان كاردي[١] ، ولقي حَتفه بعد أسبوع ، وقُتل شمشير بهادر وهو يُحاول الفرار ، وفرَّ ملهاراؤ في «مالّوه» بنفسه ، ووصل أبا جي سِنْدهيا إليه كذلك وهو أعرج ، ولم يبق أحد من القادة المعروفين سِوى هذين القائدين ، ولم يلحق المَرهتة مثلُ هذه الهزيمة الساحقة من قبلُ ، ولا نزلتْ مثلُ هذه النازلة قط.

وقد أحدثتْ هذه المصيبة يأساً في النفوس ، فسقطتِ الهمم ، وبَردتِ القلوب ، ومات بالاجي لهذه الصدمة الشديدة بعد أيام ، وكان من يوم أن سمع نبأ الهزيمة اعتكفَ في أحد المعابد يَدرُس اللُّغة السنسكريتية»[٢].

وحَسْبَ تصريح أحد المؤرِّخين: «لقد طارت قُوة المَرهتة في لمحة البصر كالكافور» ، ويقول سَرجاد وناتهسر كار: «إنه لم يَبقَ بيتٌ من البيوت في ولاية مهاراشتر لم يَعُـمَّه المأتم والرثاء ، فقد ذهبَ جِيل القادة والرؤساء كُلّه في معركة واحدة»[٣].

وتوجَّه أحمد شاه الأبدالي ـ حسب تَخطيط الإمام الدهلوي ـ بعدَ تحقيقِ هذه المهمة الضرورية إلى قندهار ، يقولُ الشيخ ذكاء الله:

«لقد قَدم أحمد شاه بعدَ هذا الفتح والانتصار من «باني بت» إلى نواحي دلهي ومكثَ عـدَّة أيام ، وعيَّـن الأمير عالي كوهـراي شـاه عالِـم مَلِكَ البِلاد ، وشَفَعَ لدى المَلِك أن يُولي شجاع الدولة الوزارة ، ونجيبَ الدولة إمارة الأمراء ، ولم يكن شاه عالِم إذ ذاك في دلهي ، فعيَّن ابنه جوان بخت نائباً عنه ، وفوَّض إلى نجيب الدولة إدارة دلهي ونِظامَها ، وخَلع على شُجاع الدولة وولاَّه ولاياتِ أوده وإلّه آباد ، وتوجَّه هو نفسُه إلى قندهار»[٤].

---

(١) كان رئيس المدفعية في جيش مرهتة ، وكان رغم إسلامه وفياً لهم، وبقي بجوارهم إلى آخر لحظة.

(٢) تاريخ الهند: ج: ٩، ص: ٣٠٩.

(٣) الرسائل السياسية: ص: ٤٥.

(٤) تاريخ الهند: جـ: ٩، ص: ٣٠٩ ـ ٣١٠.

يقول البروفيسور خَليق أحمد نظامي:

«لقد حاول أحمد شاه الأبدالي ـ جُهده ـ بعد حرب «باني بت» أن يدْعُوَ شاه عالم إلى دلهي، وبَعث إليه برسوله، ولما لَمْ يحضر طلب أحمد شاه من والدته النَّواب زينب محل أن تكتب إليه، وكان أحمد شاه يُحاول دعوة شاه عالم (إلى دلهي) حتى يتخلَّص هو من قبضة الإنكليز، ويَقدم إلى دلهي ويُضاعف قُوته ويُحكِمَها حالَ وُجود أحمد شاه الأبدالي[1].

ويقول خليق أحمد أيضاً:

«لم يكن عِند أحدٍ من المَرهتة والسيخ والجات مِنَ السَّعة وشُمول التَّصور والتفكير بحيث يُفكِّر في أساليبِ المحافظة على وَحدة الهند ومركزيتها، وقد كان الإمام الدهلوي ـ حسَب مخططه المقترح ـ يُريد استعادةَ السُّلطة العليا والمركزية والوحدة التي كانت في عهد الملك أكبر ـ وجهانكير ـ وشاه جهان وأورنك زيب في البلاد، ولكن عن طريقةِ الحكومة العادِلة لا المُلوك الجائرينَ الجبَّارين»[2].

ولو كانتِ الدولة المغولية تَملِكُ رصيداً من الحياة، لكانتْ تستطيعُ أن تَنتفعَ بنتائج حرب باني بت وتَستعيدَ سُلطاتها في الهند لعدة قرون قادمة، ولكنَّ الواقع أنَّ الدولة المغولية ـ إذ ذاك ـ كانتْ جسداً بلا روح، ولقد استغلَّ حربَ باني بت ـ أصلاً ـ الفاتحون في حرب «بلاسي»[3].

لقد ضيَّع شاه عالم ـ بسبب سُقوط هِمَّته وقِصر نظره ـ هذه الفُرصةَ الذهبية، ولم يَحضُرِ القلعَة ـ رغم كل الجهود والمحاولاتِ ورسالةِ والدتِه زينب مَحلّ الرقيقة الرحيمة ـ إلا بعد عشرة أعوام في أواخر عام ١٧٧١م يوم ٢٥/ ديسمبر من عام ١٧٧١ م ثُمَّ ما وقع عليه وعلى خلفائه، وقد سجَّله التاريخ

(١) الرسائل السياسية: ص: ٤٥ ـ ٤٦.
(٢) المصدر السابق: ص: ٤٧.
(٣) المصدر السابق: ص: ٤٥.

كُلُّه بإسهاب وتفصيل، وقد كان أوج ذلك وذروته (Climax) تلكَ المأساة الأليمة لقلبِ السلطة والنظام ـ الذي لم يكن إلا اسماً ـ بل اغتصابه وسلبه، التي وقعت على أيدي الإنكليز المستعمرين الذين لم يُضيّعوا ـ لحكمتهم وحِنكتهم وذكائِهم السياسي ـ أيَّ فُرصة من الفُرص للسَّيطرة على البلاد.

واستمرَّ ـ بعد الإمام الدهلوي ـ خليفته بحقٍّ وجَدارة ووَارِثُه في عِلمه وبَصيرته وحَميَّته الدينية ابنُه الكريم الأكبر سِراجُ الهند الشيخُ عبد العزيزِ الدهلوي على دَرب والده وتحقيق مُهمته التي بدأ بها، بلْ إكمالها وتوسيع نِطاقها، وصَرف كل همه وعِنايته ـ مع تغيُّر الأوضاع السياسية ـ إلى العدوِّ الأصيل والقوةِ الحقيقة (أي السُّلطة الإنكليزية) في ميدان السياسة، التي تجاوزتْ حُدود خطر من الأخطار ـ التي تَحتاج لإدراكها إلى بَصيرة ووعي سياسي ـ إلى واقعٍ ملموس يكفي لشُهوده البَصر الظاهر[١].

وقد حاول بعدَ الشيخ عبد العزيز الدهلوي اثنان من تَلامذته وغَرْسه من أصحاب العزيمة والدعوة والإصلاح والجهاد، الإمامُ أحمد بن عرفان الشهيد، والشيخُ إسماعيل الشهيد، أن يُنفِّذا ذلك المخطَّط السياسي الذي عَرضه الإمام الدهلويُّ ـ نظرياً في «حجة الله البالغة» و«إزالة الخفاء» و«التفهيماتِ الإلـٰهية» وغامرا بنفسيهما لإقامةِ الحكومة على منهاج الخلافة الراشدة. ويُعلم من رسائل السيِّد أنهما إلى أيِّ حدٍ استفادا من تعاليم الإمام الدهلوي وتوجيهاتِه وأضوائِه، وإلى أي حدٍّ بلغت عزائِمُهم من الصَّرامة، وهِممُهم من العُلـم، ونَظرتُهم من البُعـد والعمق، وقلوبُهم من الرَّحبة والسَّعة.

وقد كانوا يَهدفون إلى تحرير الهند ـ ولكنهم بدؤوا مؤقتاً بحماية مسلمي بُنجاب من النَّكبات التي تعرضوا لها، وخَطرِ الإبادة الشاملة الـتي اسـتهدفوا

---

(١) سيأتي تفصيل هـذا الإجمال في الباب الحادي عشر في ذكـر الشيخ عبد العزيز الدهلوي.

لـه في حكم السيـخ فـي بُنجاب ، هذا الحكم العسكري ، الطائفي الجائر ، وكان الوضع الشاذ لا يحتمل التأجيل (كما كان شأن الإمام الدهلوي نفسِه في تحصين بيئته المعاصرة ومُجتَمعهِ المعاصر وحمايَتِهما من غارات الجَات والمَرهتة واغتيالاتِهم اليومية) وبعدَ طرد الإنكليز المستَعمرينِ ـ الذين كانوا يَصفونهم بالأجانب الدُّخلاء والتُّجار النُّزلاء ـ كانوا يُريدون حُكْمَ البلاد وتنظيمَها وإدارتها في ضوء أُصول العدالةِ والمُساواة الإنسانية ، يُقدِّر كُلٌّ ذلك ويُعلَم من رسائل السيّدِ التي كتبها إلى السلاطين المعاصرين ، والأمراءِ المعـروفيـن ، وأصحـاب الغيـرة والحَميَّـةِ مـن المسلميـن والـوُلاة العـاقليـن الحازمين[١] .

* * *

---

(١) انظر للتفصيل الباب السادس عشر من كتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد» (بالأردوية) بعنوان «الجهاد: دوافعه وأهدافه» ص: ٣٨٥ ـ ٣٩٤.

الفصل السادس
الحسبة على مختلف طبقات الأمة
ودَعْوَتُها إلى الإصلاح والتغيير

مِيزَةُ الإمام الدهلوي:

إنَّ العلماء الكبارَ الذين يَتذوَّقون العلمَ والبَحث والتحقيق والتأليف، ويَكونون على حظٍّ وافر من الذكاء ودِقة الملاحظة، وعُمق النظر، ينصرفون كُلياً ـ بصفة عامة ـ إلى دراسةِ الكتب والبَحث العلمي والتحقيق، أو التدريس والتأليف ويَستغرقون فيه، ويعيشون في عُزلةٍ عن واقعِ المسلمين وأدواءِ الطبقات المختلفةِ في المجتمع وانحرافاتِها ومواضعِ ضعفها، أو يَصعُبُ عليهم النزول إلى مستوى العامة، و«التدلي» إليهم من سماء العلم والنظرِ؛ الذي يجدون فيه لذةً وحلاوة أكبر من كل لذةٍ وحلاوة.

ويُمكن أن يُستثنى من هذا العُموم ـ بصورةٍ واضحة ـ شَخصيتان اثنتان: أحدُهما: **حُجَّة الإسلام الإمام الغزالي** (ت ٥٠٥هـ) الذي وضع الأصابع على أمراضِ الطبقات المختلفة من الأمة الإسلامية والمجتمع المسلم في عصره ومواضع ضعفه في كتابه الخالد، الذي طبَّق صيتُه الآفاق «إحياء علوم الدين»، بحَيث يتجلَّى منه أنهُ مارس الحياة العامة واطَّلع على الطبقات المختلفة في المجتمع عن كَثَب، مِن حِلَق دروس العلماء ومَجالس الذكر والمُراقبة لدى

المشايخ ، إلى بلاط الخُلفاء والسلاطين وقصورِ الأمراء والأثرياء ومساكنهم الوَثيرة الناعمة ، ومن هذه القصور الملكية والأميرية إلى ضَجيج حَوانيت المحترفين والتُّجار وجَلَبة الأسواق ، ويَعرف كيف تَخدعُ النَّفسُ والشيطانُ مُختلف طبقاتِ العُلماء والوُجهاء والأعيانِ ، ومختلف أوساطِ الخواصِّ والعوام ، وكيف تغيرتِ الحقائقُ الأساسية والتصوراتُ الدِّينية وكيفَ عَمَّتِ الغفلةُ على الهدفِ الأعلى (سعادةِ الآخرةِ ومرضاةِ الله تعالى)(١).

وهذا هو شأن العلامة ابنِ الجَوْزِي (٥٩٧هـ) مع شَيءٍ من الفرق في الإجمال والتفصيل والأسلوب والمَنهج ـ في كتابه الشهير (تلبيس إبليس) الذي استعرضَ فيه المجتمع المسلم كُلَّه في عصره ، واختبرَ كلَّ طبقةٍ من طبقات المسلمين على مَحكِّ السُّنة النبوية والشَّريعة الإسلامية ، ودلَّ على مواضع ضَعْفِها وانحرافاتها وأخطائها ، ولم يُحابِ في هذه الدِّراسة الناقدَة أيَّ طَبَقةٍ من الطبقات ، فقد انتقدَ فيه العُلماءَ والمحدِّثين ، والفُقهاءَ والواعظين ، والحُكّام والسلاطين ، والزُهّادَ والعُبّاد ، والمتصوِّفين والعامَّة من الناس أجمعين ، وفضحَ مُغالطاتهم وتَلبُّساتِ الشيطانِ عليهم(٢).

ولكنَّ هذا النَّقْد فيما يتعلَّق بـ«تلبيس إبليس» أكثرُه سلبي وانتقادٌ فحسب ، وليست معه دعوةٌ قوية إيجابية واضحةٌ لإصلاح الأوضاع وتَوجيه المجتمع ، وإن كانت ، فليستْ في كمِّيتها وكيفيتها بالدرجة المطلوبَة ، ولعلَّ السبب في ذلك أنَّ مجالَ هذا الموضوع ونِطاقه المحدودَ لم يَـكُن يتحَمَّلُ أكثرَ من ذلك.

---

(١) انظر للتفصيل والأمثلة «إحياء علوم الدين» جـ٢ ـ ٣، أو «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» جـ ١. (ترجمة الإمام الغزالي).

(٢) انظر للتفصيل «تلبيس إبليس» ص: ١١٩ ـ ٣٨٤، أو «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» جـ : ١، (ترجمة العلامة ابن الجوزي)، [لم تنقل هذه الترجمة إلى العربية في الطبعة الأولى كما هي موجودة في الطبعة الأردوية].

الخِطاباتُ الخَاصَّة لِمُختلفِ طَبقاتِ الأُمة:

وإنَّنا نَرى بعد هذين العالِمَين الجليلين المعروفين من مُعلِّمي الأخلاق الفاضِلة والدعاة إلى الله (اللَّذين كانا مع علو منزلتهما في مجال الإصلاح والتربية من أَجلِّ العلماء والمؤلفين) مأثرةَ الإمام الدهلوي ـ في هذا الصدد ـ مِن أَروع المآثِر وأَلمعها في تاريخ الإصلاح والتجديد، فإنَّه قد خاطبَ السلاطين المسلمين والأُمراءَ، وأركانَ البلاط، والجنودَ العسكريِّين، والصُّناع والمحترفين، وأولادَ المشايخ المُتصوِّفين، وعُلماءَ السوءِ المنحرفين، والوعَّاظ المُتشدِّقين المُتقشِّفين، والزهَّاد المنعزلين، كلّ طبقة من هذه الطبقات على حِدة، وفي صُورة مستقلة، وضرَب على وَتَرهم الحسَّاس، ودلَّ على مكامن ضعفهم وانحرافِهم وأنواع غرورهم وخِداعهم.

كما خاطبَ الأمةَ الإسلامية ـ بصورة عامةٍ ـ خطاباً جامعاً شاملاً، وكَشفَ عن أمراضِها وأدوائِها، ووصفَ عِلاجها.

وقد بلغَ توجُّعهُ وحُرقةُ قلبه واندفاعُه في الحَميَّة الإسلاميةِ وعَاطِفة الدَّعوة الدينية وبَلاغةِ البيان وقُوَّة التعبير في هذه الخطابات الخاصَّة أَوْجَها وذُروَتها، يَصعُب أَن تجد أَمثلَتها في كُتب المؤلفين السابقين ـ الذين مضى ذكرهم ـ والمُصلِحين الناقدين.

وسوف نُورِد مقتطفاتٍ من كتاب «التَّفهيمات الإلٰهية» للإمام الدهلوي الذي خاطب فيه قادةَ مُختلف الطبقاتِ البارزة المؤثرة وسادَتها، ويتجَّلى في هذه الخطابات الخاصة من دِقة نظر الإمام الدهلوي وعُمق ملاحظته وحِكمته في الدعوة، وجَراءته الخُلقية واطِّلاعه الواسعِ الدقيق ما يَحارُ بهِ دارسُ التاريخ الذي اطلع على انحطاطِ هذا العهد ومُجتمعِه، ومراعاةِ العلماء وأصحاب الأقلام لمصالِحهم الشخصية، ويأسِ الدعاة والمُصلحين من إصلاح الأوضاع وتغيير الأحوال ويتعجَّب ويقول: «هل كانتْ هذه الجمرةُ يا ربّ كامنةً في الرماد!».

وها نَحنُ نَـنْـقلُ هذه الكلمات الموجهة إلى مُختلف الطبقات بنصِّها:

١ ـ خِطابُه للسّلاطين المسلمين:

«أَقول للمُلوك ، أيها الملوك ، المَرْضِيُّ عِند الملأ الأعلى في هذا الزمان أن تَسلُّوا السيوف ، ثم لا تُغمدوها حتى يجعلَ الله فُرقاناً بين المسلمين والمشركين ، وحتى يلحق مَرَدَةُ الكفار والفساق بضُعفائِهم لا يَستطيعون لأنفسهم شيئاً ، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٣] .

فإذا ظهر الفرقان ، فرضاء الملأ الأعلى أن تَنصُبوا في كل ناحية وفي كلّ مسيرة ثلاثة أيام وأربعةِ أيام أميراً عادلاً يأخُذ للمظلوم حقَّه من الظالم ، ويُقيم الحدود ، ويَجتهد ألا يَحصل فيهم بَغيٌ ولا قتالٌ ، ولا ارتدادٌ ولا كبيرة ، ويُفشوا الإسلام ويُظهروا شعائِره ، ويأخذ بفرائضه كل أحد ، ويكونَ لأمير كل بلدٍ شوكةٌ يقدر بها على إصلاح بلده ، ولا يكونُ له شوكةٌ يتمتَّع بسببها ويعصى على السلطان.

ويَنصب في كل إقليم كبير أميراً يُقلِّده القتال فقط يكون جمعُه اثنا عشر ألفاً من المجاهدين ، لا يخافون في الله لومة لائم يُقاتلون كلَّ باغ وعاد .

فإذا كان ذلك ، فرضاء الملأ الأعلى أن يُفتّش حينئذٍ من النّظامات المنزلية والعُقود ونحوها ، حتى لا يكون شيءٌ إلا موافق الشرع ، حتى يأمنَ الناس من كل وجه»[١] .

٢ ـ خِطابُه للأمراء وأركانِ الدولة:

«. . . . وأقولُ للأمراء: أيها الأمراء ، أَما تَخافون الله؟ اشتغلتُم باللّذاتِ الفانية الدائِرة ، وتركتُم الرعية تأكُل بعضها بعضاً ، أما شُرِبت الخمور جهرة وأنتم لا تُنكرون؟ أما بُنيت منازل ودور للزنى وشُرب الخمر والقمار وأنتم لا تُغيِّرون؟ أما في البلاد الكبيرة لم يُضربْ فيها حَدٌّ منذ ستمئة سنةٍ أو أكثر ،

---

(١) التفهيمات الإلٰهية: جـ١ ، ص: ٢١٥ ـ ٢١٦ .

من وَجدتُموه ضعيفاً أكلتموه ، ومن وَجدتموه قوياً تركتُموه وعُتوَّهُ ، خاضتْ أفكاركم في لذائذ الطَّعامِ ونَواعِمِ النِّساء ومَحاسن الثياب والدُّور ، وما رفعتُمْ إلى الله رأساً ، وما ذَكرتُموه إلا بألسنتكم في حكاياتكم ، كأنكم تُريدون باسم الله انقلابَ الزمان ، تَقولون: الله قادرٌ على كذا ، تعنون أنَّ الزمان قد ينقلب كذلك»(١).

٣ـ خطابه للعسكر:

«وأقول للعسكرية: أيُّها العسكر! أخرَجكُم الله للجهاد ، ولِتُظهروا كلمة الحق ، وتكبِتوا الشرك وأهله؛ فتركتُم ما أخرَجكم لأجله ، واتخذتُم رباط الخَيل وحَمل السلاحِ كسباً تستكثرون به أموالَكم من غير نِية الجهاد وقصدِه ، شَرِبتُم الخمرَ والبَنْج ، وحلقتُم اللِّحى وأعفيتُم الشوارب ، وظلمْتُم الناس ولم يَنالوا مما تأكلون ، فوالله ، إلى الله سوف تُرجعون فيُنبِّئُكم بما كنتم تَعملون.

كان مرضيُّ الحق فيكم أن تتزيَّوا بزي الصالحين من الغزاة ، اعفوا اللحى وقصوا الشوارب ، وصَلُّوا الصلوات الخمس ، واتقوا الله في أموال الناس ، واصبروا في الحرب والبأس ، وتعلموا رُخص الصلوات كالقصر والجمع ، وأنه يَجوز تَرك السُّنن في السفر ، وكذلك أحكام التَّيمُّم ، فتمسَّكوا بها وعضُّوا على الفرائض ، وأصلحوا نِياتِكم ، يُبارك لكم ربكُم في خولكمِ ويَنصُركم على أعدائِكم»(٢).

٤ـ خطابه للمحترفة والصنَّاع:

«وأَقول للمُحترفة: ضاعتْ أماناتُكم ، وذَهِلتم عن عبادة رَبكم ، وأَشركتُم بربكم ، وذَبحتم لطواغيتكم ، وحجَجْتُم إلى المدار(٣) والسالار(٤) ، فبئسَ

---

(١) التفهيمات الإلهية: ص: ٢١٦.

(٢) المصدر السابق: ص: ٢١٦ ـ ٢١٧.

(٣) المراد به الشيخ بديع الدين المكنبوري الذي يعرف بالشاه مدار.

(٤) المعنى به هو السيد سالار مسعود الغازي المدفون في مدينة «بهرائج» ترفع باسمه الأعلام ويرد في الاحتفال بمولده آلاف الناس من الأماكن البعيدة والقريبة.

صنيعُكم ذلك ، ورُبَّ إنسان منكم جَعل الطّيرة مَالَه وكَسبه ، فجعل يتكَلَّفُ في لباسه وزيِّه ومطعمه مالا يكفي لهُ ، فيُضيّع حقوق نسائِه.

ورُبَّ إنسان منكم اكتفى بشُرب الخمر واستئجار الفروج ، فيضيّع معاشه ومعادَه.

إنَّ الله هيأ لكُم من الكسب ما يكفي لكم ولذوي حقوقكم ، إنْ أنتم اقتصدتُم واكتفيتُم بما يكون بُلغةً إلى المعاد ، وكفرتُم بنعمةِ ربكم ، أسأتُم التدبير ، أما تَخافون عذابَ جَهنم وبئس المهاد.

واصرِفوا غَدواتكم وعَشياتكم في ذكر الله ، وطُولَ النهار في حِرفتكم ، والليلَ في نسائكم ، واجعلوا الصَّرف أقلَّ من الدخل ، فما غبر؛ فواسوا فيه الغريب والفقير ، وذَرُوا شيئاً لنوائِبكم وحوائِجكم ، فإن خالفتُم هذه الأمور ، فقد أسأتُم التدبيرَ»[١] .

٥ـ خطابُه لأولادِ المشايخ والمُرشِدين:

وقد نادى ـ هكذا ـ أولاد المشايخ ، وطَلَبَةَ العِلم والزُّهّاد والوعَّاظ في عصره ـ بصفةٍ خاصة ـ فيقول وهو يخاطب أولاد المشايخ يَعِظُهم ويُذكّرهم:

«وأقول لأولاد المشايخ المترسِّمين برَسْمِ آبائهم من غير استحقاق: يا أيها الناس ، مالكم تَحزَّبتم أحزاباً ، واتَّبع كلُّ ذي رأي رأيَه ، وتركتُم الطريقةَ التي أنزلها الله على محمد ﷺ رحمةً بالناس ، ولُطفاً بهم ، وهُدىً لهم ، فانتصبَ كل واحدِ منكُم إماماً ، ودعا الناس إليه ، وزعم نفسَه هادياً مَهديّاً ، وهو ضَالٌّ مُضِلٌّ.

نحن لا نَرضى بهؤلاء الذين يُبايعون الناس ليَشتروا به ثمناً قليلاً ، أو يَشُوبوا أغراض الدنيا بتعـلُّم عِلم ، إذْ لا تحصل الدنيا إلا بالتشبُّـه بأهلِ الهداية ،

(١) التفهيمات الإلهية: جـ: ١، ص ٢١٧.

ولا بالذين يَدعون إلى أنفسهم ويأمُرون بحبِّ أنفسهم ، هؤلاء قُطَّاع الطريق دَجَّالون كذَّابون مَفتُونون فتَّانون ، إياكُم وإيَّاهم ، ولا تتبعوا إلاّ من دعا إلى كتاب الله وسنَّة رسوله ، ولم يدعُ إلى نفسه ، ولا يرضى بإشاعة الإشارات الصوفية في المجالس والمحافل ، إنما المرضي الإحسان ، أما لكم عِبرة في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٣](١) .

خِطابُه للعُلماء والطُّلَّاب:

ثم يُخاطب العلماءَ والطُّلابَ في عصره ، فيقول:

«وأقول لطلبة العلم: أيُّها السُّفهاء المُسمُّونَ أنفسكم بالعلماء اشتغلتُم بعلوم اليونانيين وبالصَّرفِ والنحوِ والمعاني ، وظَنَنْتُم أنَّ هذا هو العلم ، إنما العلم آيةٌ محكمةٌ في كتاب الله أن تتعلَّموها بتفسير غريبها وسَببِ نزولها وتأويل مُعضِلها ، أو سُنّةٌ قائمةٌ من رسول الله ﷺ ، أن تَحفظوا كيف صلَّى النبيُّ ﷺ ؟ وكيفَ توضَّأ؟ وكيفَ كان يذهب لحاجته؟ وكيف يَصوم؟ وكيف يَحجُّ؟ وكيف يُجاهد؟ وكيف كان كلامُه وحفظه للسانه؟ وكيف كانت أخلاقُه؟

فاتَّبعوا هَديه واعملوا بسنته على أنه هَدْيٌ وسُنة لا على أنه فرضٌ ومكتوب عليكم ، أو فريضةٌ عادلة أتعلمون ما أركانُ الوضوء؟ وما أركان الصلاة ؟ وما نِصابُ الزكاة؟ وما قَدْرُ الواجب؟ وما سِهام فرائض الميت؟ أما السِّير وما يُرغِّب في الآخرة من حكايات الصحابة والتابعين فهو فضلٌ.

وأمَّا ما اشتغلتم به وما يُهتم به ، فليس من علوم الآخرة ، إنما هي علوم الدنيا»(٢) .

ثم يقول لهؤلاء الطلاب والعلماء:

(١) التفهيمات الإلهية: ج: ١ ، ص: ٢١٤ .

(٢) المصدر السابق: ج: ١، ص: ٢١٤ .

«وأن تَشتغلوا بالعُلوم الإلَهية إلا بأنَّها آلةٌ لا بأنَّها أمورٌ مُستقلة ، أَما أَوجبَ اللهُ عليكم أن تُشيعوا العلم حتى تظهر شَعائر الإسلام في بلاد المُسلمين ، فلم تُظهروا الشعائر وأَمرتُم الناس أن يَشتغلوا بالزوائد واستكثرتُم في أَعينهم طلبَ الحق والدِّين ، أما ترون البلاد العِظام تَخلُو من العلماء ، وإن كانوا ؛ فَهُم دون ظهورِ الشعائر»(١).

٧ ـ مَع الوُعَّاظِ المُعسِّرين في الدين ، والزُّهَّادِ المُنَزوين المُنعَزِلين:

ثم خاطب أُولئك الناس الذين جَعلوا وسَاوِسَهم وخَطَراتِ قُلوبهم دِيناً ، وكُلَّ من لم يَتَّفق ومقياسَهم المؤسّس على هواجِس النفس وخَطراتِ القلب ، فكأنَّه خارجٌ عن الدين ، وقد كان مُعظم هذهِ الطبقة من الناس الذين أُصيبوا بهذا الانحرافِ من الزُّهاد المتقشّفين والعُبَّاد الغالين والوُعَّاظ المتشدقين ، ولذلك اختير لَهُم هذا العنوان:

«وأقول للمُتقشفين من الوُعَّاظِ والعُبَّـاد والجالسين في الخَانْقاهات :

يا أيُّها المُتَنسِّكون! رَكِبتُم كُلَّ صَعب وذَلول وأخذتُم بكل رَطْب ويابس ، دَعوتُم الناس إلى الموضوعات والأباطيل ، وعسَّرتُم على الخَلْق ، وإنما بُعِثتمْ مُيسِّرين لا مُعسِّرين ، وتمسَّكتُم بكلام المغلوبين من العشاق ، وكلام العُشَّاق يُطوىٰ ولا يُروى ، واستطبتُم الوسواس وسمَّيتموه الاحتياطَ.

وكان مرضي الحقِّ فيكم أن تفهموا الإحسان بجُزئيه الاعتقادي والعملي ، فتُحصِّلوه من غير أن تَخلِطوا بهِ أحوالَ المغلوبين وإشاراتِ المكاشفين ، فادعوا الناسَ إليه ، أما تَعلمون أن الرحمةَ كُلَّ الرحمة والهَدي ما جاءكم به محمد ﷺ ، أكانَ يفعلُ فِعلكم هذا؟ أم كان أصحابه يفعلون هذه الأفعال»(٢).

---

(١) التفهيمات الإلهية: ج: ١، ص: ٢١٥.
(٢) المصدر السابق: ج: ١، ص: ٢١٥.

٨ ـ خطابُه الشّامل لِلأُمَّة الإسلامية جَمعاءَ ، تشَخيصُ الدّاء ووَصفُ الدواء:

ويُخاطِبُ ـ أخيراً ـ عامّة المسلمين ، لاَ يخُصُّ فيه طبقةً مِنهم دُون طَبقة ، يقول :

«وأقول لجماعاتِ المسلمين عُموماً خطاباً واحداً:

يا معاشر بني آدم ! فَسدت أخلاقُكم ، وغلبَ عليكم الشُّحُّ ، واستحوذ عليكم الشيطان ، وذَئِرت النِّساء على الرجال ، وغَمط الرجال على النساء ، واسْتطبتم الحَرام واستبشعتُم الحلال ، فواللهِ إنَّ الله ما كلَّف نفساً إلا مَا تطيق.

عالِجوا شَهوةَ فُروجكم بالنكاح وإن كَثُرنَ ، ولا تتكلّفوا في نفقتكم وزيّكم مما لا تُطيقون ، ولا تزرُ وازرةٌ كأنَّها مُعلَّقة ، ولا تُضيقوا الأمورَ على أنفسكم ، فإنّكم إن ضيَّقتم خرجَتْ نفوسُكم إلى حَدِّ الصّفق.

وإنَّ الله يُحب أن يؤخَذ برُخصهِ كما يُحب أن يؤخذ بعزائِمه.

وعالِجوا شهوةَ بطُونكم بالأطعمةِ ، واكتَسبوا قَدر ما يَكفيكم ، ولا تكونوا كلاًّ على الناس تَسألونهم فلا يُعطونكم ، ولا تكونوا كَلاًّ على الخُلفاء والأمراء ، إنما المَرضي لكم الكسبُ بأيدكم إلا عبدٌ ألَهمه الله أن الله يكفيكَ ، والله يَعصمكَ من آفات الفَقر.

يا معشر بني آدم! منَ رزَقه اللهُ مسكناً يُؤويه ، ومشرباً يرويه ، ومطعماً يُشبعه ، وملبساً يستره ، ومنكحاً يُحصّن فرجه ويُعاونه في معيشته ، فقد أدّى له الدنيا بحذافيرها ، فَلْيَشكُرِ الله وليتخذ كسباً يكفيه. وليكُن من شأنه القَناعة والقصدُ في المعيشة ، ولينتهزِ الفرصةَ لذِكر الله ، وليحافظ على ثلاثةِ أوقات: الغَدوة والعَشية والسَّحَر ، وليذكرِ الله بالتهليلِ والتسبيحِ وتلاوةِ القرآن ، واستمعوا الحديث ، واحضُروا حِلَق الذكر.

يا معشر بني آدم! اتخذتم رُسوماً فاسدةً تُغيِّر الدين ، اجتمعتُم يوم عاشوراء في الأباطيل .

فقوم اتخذوه مأتماً ، أما تَعلمون أنَّ الأيام أيامُ اللهِ ، والحوادث من مشيئة الله ، وإن كان حسين رضي الله عنه قُتل في هذا اليوم ، فأيّ يوم لم يَمُت فيه محبوبٌ من المحبوبين؟

وقوم اتخذوه لعباً بحرابهم وسلاحِهم .

وقَومٌ اتخذوه مَنسكاً ، أُفٍّ لصَنيعكم اجتمعتُم يوم البراءة ، يلعبُ قومٌ ، ويَزعم قومٌ أنه يجب إكثارُ الأطعمة للموتى ، قُل هاتوا برهانكم إن كُنتم صادقين ، ورُسوماً تُضيِّق عليكم كالإفراط في الولائم ، وكالامتناع من الطلاق ، وكإمساك المرأة بعد زوجها من النكاح ، فضيَّعتم أموالكم وأوقَاتكم في الرُّسوم وتركتم الهَدي الصالح .

وكان المَرضي ألا تتَّخذوا هذه الرسوم وأن تتَّخذوا رُسوماً سَهلة ليس فيها ضِيق ، اتخذتُم المأتم عيداً ، كأنَّ إكثار الطعام واجبٌ عليكم ، وضيَّعتُم الصلوات .

وقَوْم اشتغلوا بمكاسبهم فلم يَقدروا على الصلوات ، ومَنشأ هذا الفساد أنَّهم ما أخذوا رُخصَ الله .

وقومٌ اشتغلوا بتزجية الوقتِ وتَرفيهِه بالحكايات والأحاديث ، فلو أنَّهم اتخذوا مجالسهم في رُحَبٍ حَول المساجد يَسهُل عليهمُ الصلوات .

وضَيَّعتُمُ الزكاة ، وما من غَنيٍّ إلا له مُتعلِّقون من المَحاويج يُطعمهم ويُواسيهم ، ولو أنه نوى الزكاة والعِبادة لكَفاه ، وضَيَّعتُم صومَ رمضان ، فضيَّع قومٌ لأنهم صاروا عَسكرية لا يقدرون على الصوم مع ما هم عليه من المِحنَة ، اعلموا أنكم أسأتُم التَّدبير ، وصرتُم عِيالاً على السلطان ، ولما لم يجد السُّلطان مَا يُعطيكم ، ضيَّقَ على الرعية ، فما أَقبحَ صَنيعكم هذا ،

قـوم لا يتسَخَّرون ولا يجتنبون أعمالاً شاقـة ، وذلـك مِن سـوء تَدبيرِهم وعقلهم» .

ويقول أخيراً: «ومقالاتُ المَلأ الأعلى في هذا الزمان كثيرةٌ ، والغَرفة تُنبىءُ عن الخير الكثير ، والقليلُ يكون نموذجاً عن الكثير»(١) .

إصلاحُ الطُّقوسِ والتَّقاليد وتَطهيرُ المجتمعِ منها:

لم يقتصر الإمام الدهلوي على هذه الخطابات لهذه الطبقات الخاصة من النساء ، بل شدَّد النكير على تلك الطقوس والتقاليد الهندوكية والبِدع والشعائر غير الإسلامية التي تسرَّبت إلى المجتمع المسلم وشاعتْ فيه ـ بسبب الاختلاطِ الطويل بالهنادك ومُواطنتهم لعدة قرون ، وعدمِ الاهتمام بالسنَّة المشرفة والحديثِ الشريف ، وغَفلةِ العلماء وتقصيرِهم، وعَدم شعور الحكومة المسلمة بمسؤوليتها ، وفقدان الحسبة الدينية ـ والتزمَ بها المسلمون التزاماً شديداً.

وشَنَّع على تلك المعتقداتِ الباطلة ، والأوهامِ والخرافات الجاهلية ، وتقليدِ غير المسلمين واتباعِهم ، وعَابَهُم عليه .

وقد كان عامَّةُ العلماء المشتغلين بالعلوم العقلية والفُنون الحكمية لا يُعيرون لهذه العادات والتقاليد الجاهلية بالاً ، ويَرونها هَيِّنة خفيفة ، أو يتغاضَون عنها فِراراً من الوقوع في المشاكل ومُعارضةِ الجماهير .

وقد بدأت هذه المهمة لإصلاح الطقوس والتقاليد وتطهير المجتمع المسلم منها ـ بعد الإمام السَّرهندي الذي شنَّع في عدد من رسائله على هذه المعتقدات الشركية والتقاليد الجاهلية والطقوس الهِنْدوكية(٢) ـ بجهود الإمام الدهلوي ـ وقد قام بتكميل هذه المهمة وتوسيعها ـ بعدَه ـ أبناؤُه الأعلام ومن تخرّج عليهم ، ونشأ في أحضانهم من المُصلحين المجدِّدين كالإمام أحمد بن عرفان الشهيد (خليفة الشيخ عبد العزيز الدهلوي ابن الإمام الدهلوي) والشيخ

(١) التفهيمات الإلٰهية: ص: ٢١٧ ـ ٢١٩ .

(٢) انظر «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» جـ٣، الخاص بحياة الإمام السرهندي وأعماله.

إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الدهلوي[١].

ونُورِد هنا مُقتطفاً من «التفهيمات الإلهية» و«وصايا الإمام الدهلوي»، يقول:

«مِن عادات الهندوس الشَّنيعة أنه إذا ماتَ زَوجُ المرأة، فلا يخلُّونها تَتزوج مرةً ثانية، ولم تكن هذه العادة في العرب قط، لا قبل النبي ﷺ ولا بعدَه، فرحمَ اللهُ امرأً يقضي على هذه العَادة الشنيعة، وإذا لم يُمكن القضاء على رواج هذه العادة في عامة الناس، فينبغي ترويجُ طريقةِ العرب فيما بين قَبيلته، وإنْ لم يمكن ذلك، فلا بُدَّ من استقباح هذِه العادة، ومُخالفتِها من أعماق القلب على الأقل، إذ هُو آخر درجةٍ من الإنكار على المنكر.

وعادتُنا الشنيعة الثانية: أننا نُغالي في المهور، وقد كان نبينا ﷺ الذي نِيط به شرفُنا في الدنيا والآخرة ـ حدَّد لأهله الأقربين ـ الذين كانوا أفضلَ الخلق بعده ـ اثنتي عشرة أوقية ونِصفَ أوقية، وهو ما يَبلغ خمسمئة درهم.

ومن عاداتنا الشنيعة: الإسرافُ، فإننا نُبذِّر الأموالَ في مناسبات الأفراح وتقاليد الأعياد، ولم يَثبُتْ عن النبي ﷺ إلا الوليمةُ في الزواج والعقيقةُ، ولذلك فينبغي الالتزام بهما والاحتراز عن غيرهما، أو عدم الاهتمام الكثير بغيرهما.

ومن عاداتنا السّيّئة أيضاً: الإسراف والتبذير في مُناسبات المآتم باسم «سيّم، جهلّم، ششماهي، فاتح، سالانه»[٢]، مع أنه لم يكنْ شيءٌ من هذا في العرب الأوَّلين، فمن الخير أن يُهتمَّ بتعزية ورثة الميت في مُصابهم لثلاثة

(١) انظر «الصراط المستقيم» إملاءات الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وترتيب الشيخ إسماعيل الشهيد، وقد نقله المؤلف إلى العربية وطبع باسم «رسالة التوحيد» في مطبعة ندوة العلماء لكهنو الهند [وقد اعتنينا بها تصحيحاً وتحقيقاً وتعليقاً، ونشرته دارُ القلم بدمشق عام ١٤٢٤هـ (الغوري)]، وكتاب «سيرة السيد أحمد الشهيد» و«كاروان إيمان وعزيمت» (بالأردوية للمؤلف).

(٢) هذه تقاليد خاصة بالأيام المحدَّدة بعد وفاة شخص.

أيام ، وبالطعام ليومٍ وليلة ، ولا يُلتزم بتقليد آخر ، ولْتجتمع نساءُ القبيلة بعد ثلاثة أيام ، وليُطَيِّبْنَ ثِياب النساء ذوات قربى الميت ، وإذا كانت زَوجة الميتِ موجودة ، فليقض على سِلسلة المأتم بعدَ عِدَّتها»[١] .

ولقد صدَقَ الأستاذ السيد أبو الأعلى المودودي ـ رحمه الله تعالى ـ إذ صرَّح في مقالةٍ بعنوان «حقيقة مَنصب التجديد ومكانة الإمام الدهلوي في تاريخ التجديد» في مجلة «الفرقان» (العدد الخاص بالإمام الدهلوي) بعدَ إيراده لمقتطفات من «إزالة الخفاء» و«التفهيمات الإلٰهية» بما يلي :

«ويُقدَّر من هذه المقتطفات ـ إلى حد ما ـ أنه كيف استعرضَ الإمام الدهلوي ماضيَ المسلمين وحاضرهُم هذا الاستعراض التفصيليَّ ، وكيفَ انتقدهم بهذا الشمول والاستيعاب ، وأنَّ من نتائج هـذا النوع من الانتقاد اللازم أنَّ جميع العناصر الصَّالحة في المجتمع التي لا تزالُ في إيمانها وضمائِرها بقيَّةٌ من حياة ولا تزال قلوبُها تُميِّز الصالح والطالح والشر والخير ـ يُقلقهم الشُّعور بفَداحة الخطب وسوء الأوضاع ، ويُرهِفُ شعُورَهم الإسلاميَّ إلى حد أنه يُريبهم كُلُّ أَثر من آثار الجاهلية في الحياة من حولهم ، ويَحيك في صدورهم ، وتَـقوى قُوة التمييز وتزداد فيهم فيبدؤون يُحسُّون بشوائبِ الجاهليـة مع الإسلام في كل ناحية من نواحي الحياة ، وتستيقظُ فيهم القوى الإيمانيةُ إلى أنَّ كُلَّ شوكة من أشواك الجاهلية تَقُضُّ مَضجعهم ، وتَدفعُهم إلى الإصلاح .

ثم يَلزم المجدِّد ـ بعد ذلك ـ أن يُقدّم أمامهم مُخططاً واضحاً للبناء الجديد حتى يُركزوا أنظارَهم على الوضع المنشود الذي يُغيَّر به الوضع الراهن ، ويُكرّسوا كلَّ جهُودهم ومحاولاتهم نحو هذه الجهة المطلوبة ، وقد أنجز الإمام

(١) التفهيمات الإلهية: جـ: ٢، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧، والوصايا (بالفارسية) طبع دلهي ص ٤٢ .

الدهلويُّ هذه المهمة البنَّاءة أيضاً في شمول وإجادة وإتقان ، كما شاهدته في مُهمَّته النَّقدية الماضيةِ»[١].

* * *

(١) مجلة «الفرقان» (العدد الخاص بالإمام الدهلوي) ص: ١٠١ ـ ١٠٢.

الفصل السابع

القيام بتربية العلماء والرّاسخين ورجال العزيمة والكِفاح

أبناء الإمام الدّهلوي ـ خلفاؤه العظام ـ مُعاصِروه الكبار:

إنَّ من مزايا الإمام الدهلوي في سلسلة رجال الفكر والدعوة ، ونِعم الله تعالى الخاصة عليه بينَ المصلحين والمجددين؛ أنَّ الله عز وجل خصَّه بأولئك الأبناء والخلفاء الأعلام الكرام الذين كانوا خيرَ خَلَف لخير سلف ، والذين لم يحَافظوا على ذلك المِشعل الذي أناره الإمام الدهلوي مُضيئاً وهّاجاً فحسب ، بل أشعلوا به مئاتٍ من الشموع والمشاعل ، ولم تزلْ هذه المشاعل تَمُدُّ المشاعل الأخرى وتنقُل إليها من نُورها وضَوئها.

واستمرَّتْ هذه السِّلسلةُ المباركةُ دونَ انقطاع في شبه القارة الهندية وخارِجها من نَشر تعاليم الكتاب والسنة والعقائدِ الصحيحة ، والتوحيدِ الخالص ، والردِّ على الإشراك والبدعة ، وإصلاح التقاليدِ والعادات ، وتزكية النفوس وتهذيب الأخلاق ، والوصول إلى درجة «الإحسان» وإعلاءِ كلمة الله تعالى والجهاد في سبيله ، والحَميَّة الدينية والغيرة الإسلامية ، وإقامة المدارس الدينية ، وعَرْضِ تعاليم الإسلام الصحيحة ، والكتابة والتأليف لتبليغ هذه

الرسالة والدعوةِ إليها ، وتراجم القرآن الكريم ، والعنايةِ بالحديث الشريف ، وكُتب الفقه ، إلى يومنا هذا.

فلو دَرَسنا تاريخ هذه الخطوات والجهود المباركة وبحثنا عن مراكز هذه الخيرات والمبرَّات ، ونَسَبِ هذه السلاسل والحلقات ، لرأينا أنَّ الشموع تُضيء الشموعَ ، والمشاعل لم تَزل تَمد المشاعل ، وقد أضاءتْ هذه الشموع والمشاعل كلها بذلك السراج المنير الذي أشعله الإمام الدهلوي في منتصف القرن الثاني عشر وسْط العواصف الهوجاء والرياح العاتية الشديدة.

الشَّبَهُ العَجيب بين الإمام الدِّهلوي والإمام السَّرْهِندي:

إنَّ هناك شبهاً عجيباً بين الإمام الدهلوي والإمام المجدِّد السرهندي مُؤسِّس السلسلة النقشبندية المجدِّدية في أبنائِهما الأعلام ونشرِ دعوتهما وطريقتهِما الخاصَّة على أيديهم ومجهودهم.

وهو رغم فضائلَ ومناقبَ أخرى كثيرة خِصِّيصَةٌ نادرةٌ عجيبة في كتب التاريخ والتراجم؛ فقد كان للإمام السرهندي أربعةُ أبناء قد بَلغوا درجة النبوغ والكمال ، الشيخ محمد صادق ، والشيخ محمد سعيد ، والشيخ محمد معصوم ، والشيخ محمد يحيى ، وقد تُوفي الشيخ محمد صادق حين كان عمره ٢٥ سنة عام ١٠٢٥هـ وقد وردتْ عن الإمام السرهندي فيه كلماتٌ عاليةٌ ، ونُعوت ذاتُ قِيمة.

وقد انتشرتِ السلسلة المجدِّدية على أيدي الأبناءِ الثلاثة الكِرام المؤخَّري الذِّكر ، وتَمَّ توسيعُ نطاق هذه السلسلة وتبليغُها إلى الآفاق ، وتكميلُ تلك المهمة الثورية التجديدية التي بدأ بها الإمام السرهندي على أيدي هؤلاء الأبناء الأعلام وعن طريقهم.

ويَليهم في انتشار الطريقة المجددية الشيخ السيد آدم البَنُّوري (الذي لم تكن صلته مع الإمام السرهندي صلة قرابة ، بل كانت صلةً روحية تقوم على التربية والاسترشاد) وقد بلغتْ هذه السلسلة من القوة وكُتب لها القبول إلى حد أن

الإمام الدهلوي ، والإمام أحمد بن عرفان الشهيد ، والشيخ أمداد الله المهاجر المكي وخلفاءهم الكبار والعلماء الأجلة العظام كُلَّهم ينتمون إلى هذه «السلسلة الآدمية» .

ويمتازُ من بين هؤلاء الأنجال الكرام الشيخ محمد معصوم ، فقد وَصلتْ عن طريقه هذه السلسلة إلى تركستان والبلاد العربية وتركيا ، وقد صدق من قال :

«إنَّ الشيخ محمد معصوم سراجٌ يُنير سَبعَ ممالك ، فقد استنارتْ بِه الأرض مِن الهند إلى الروم» .

ثُم كانت يدُه الخفية وعناياتُه الروحية التربوية هي التي تعمل وراء السِّتار حتى خَلف على عرش السلطان «أكبر» بعدَ عقبين من خُلفائه ذلك السلطانُ المجاهد المتديِّن الفقيه المتدفِّق بالحميَّة الدينية الذي كان حامياً للدين ، بدلاً من أن يكون «ماحياً له» ، وخادماً للإسلام بدلاً من أن يكون «هادماً له» ، وكان الشيخ محمد معصومُ يُخاطَب مِن قَبْل بالأميرِ الحارس للدين ، وكأنَّه بذلك كان يُعِدّه لهذا العمل العظيم .

* * *

أ ـ أبناء الإمام الدِّهلوي الأعلام

وهكذا خلَّف الإمامُ الدهلوي أربعةَ أبناء نوابغ وهم الشيخ عبد العزيز الدهلوي، والشيخ رفيع الدين، والشيخ عبد القادر، والشيخ عبد الغني.

وكان من قِصتهم أيضاً أن الشيخ عبد الغني (الذي كان أصغر هؤلاء الأبناء الأربعة سناً) تُوفي قبلهم جميعاً عام ١٢٢٧هـ [١].

واستمرتْ دعوة الإمام الدهلوي وتعاليمُه ونَشْرُ علومه ومعارفه، وتربيةُ رجالِ العمل والجهاد، والمنهجُ الخاص للتدريس والتأليف الذي كان يتجلَّى فيه ذوقُ الإمام الدهلوي وصِبغة تجديده واجتهاده عن طريق هؤلاء الأبناء الثلاثة.

ثم حاز سراجُ الهند الشيخ عبد العزيز الدهلوي ـ من بين هؤلاء الإخوة ـ تِلكَ المكانة العالية الممتازة التي كان يَتمتَّع بها الشيخ محمد معصوم من بين أبناء الإمام السرهندي، وقد انتشرتْ به سِلسلةُ الإمام الدِّهلوي وعلومُه ومعارفه انتشاراً عالمياً، وبلغتْ بعضُ الجوانب من عمله التجديد ذُروتها وأوجَ كمالها على يديه حتى نُضطرَّ أن نقول في أدب وتَهيُّب: إنَّ ما لم يستطعِ الوالد تحقيقه وإنجازَه، حقَّقه الابنُ النابغة وأكمله.

وقَبل أن نَذْكُر هذهِ المُهمة من التَّكميل والتَّوسيع لأعمال الإمام الدهلوي ومآثره، التي قام بها الشيخ عبد العزيز الدهلوي، نَوَدُّ أنَ نسوق نُبذةً من سيرته وتعريفاً بشخصيته وترجمة موجزة جامعةً له، ونكتفي في هذا الصدد باقتباس ترجمته من كتاب «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني ـ رحمه الله تعالى ـ المجلد السابع، فهي على وَجازتِها شاملةٌ جامعةٌ.

---

(١) وهو والد العلامة الشيخ إسماعيل الشهيد.

١ ـ الشيخُ عبدُ العزيز الدِّهلوي:

«الشيخُ الإمام العالم الكبير العلامة المحدث عبد العزيز بن ولي الله بن عبد الرحيم العُمري الدهلوي سيِّدُ عُلمائنا في زمانه وابن سيدهم ، لقَّبه بعضهم «سِراجَ الهند» وبعضهم «حجة الله».

وُلد ليلة الخميس لخمس ليالٍ بَقينَ من رمضان سنة تسعٍ وخمسين ومئة وألف ، كما يدل عليه لَقبُه المؤرِّخ لمولده «غلام حليم».

حَفظ القرآن وأخذ العِلم من والده ، فقرأ عليه بعضاً وسمع بعضاً آخر بالتحقيق والدِّراية والفحص والعناية ، حتى حصَلتْ له مَلَكةٌ راسخةٌ في العلوم.

ولمَّا تُوفي أبوه إلى جوار رحمة الله تعالى ورضوانه وله ستَّ عشرة سنة عن وفاة والده ، أخذَ من الشيخ نور الله البرهانوي ، والشيخ محمد أمين الكشميري ، وأجازه الشيخ محمد عاشق بن عُبيد الفلتي ، وكانوا من أجلة أَصحاب والده ، فاستفاد منهم ما فاتَه على أبيه ، وله رسالةٌ فصَّل فيها ما قرأ على والده ، وعلى غيره من العلماء ، فقال:

«إنَّه أخذَ بَعضَ كُتب الحديث مثل أحاديث «الموطأ ضِمن المسوى» و«مشكاة المصابيح» بتمامه قراءة على والده ، و«الحصن الحصين» و«شمائل الترمذي» سماعاً عليه بقراءة أخيه الشيخ محمد ، و«صحيح البخاري» من أوَّله إلى كتاب الحج سماعاً عليه بقراءة السيد المولوي ظهور الله المُراد آبادي ، و«مقدمة صحيح مسلم» وبعضَ أحاديثه ، وبعض «سنن ابن ماجه» سماعاً عليه بقراءة محمد جواد الفُلَتي ، والمسلسلات وشيئاً من مقاصدِ جامع الأصول بقراءة مولوي جار الله نزيل مكة ، وشيئاً من «سُنن النَّسائي» سماعاً عليه ، وبقية هذ الكتاب من الصِّحاح الستة قرأها سماعاً على خُلفاء والده كالشيخ نور الله وخواجه محمد أمين.

وأخذ غير ذلك من الكتب ، إجازةً عامة من أفضل خلفائه وابن خالِه الشيخ محمد عاشق الفلتي وخواجه محمد أمين ، وإجازةُ والده لهما مكتوبة في «التفهيمات الإلٰهية» و«شفاء العليل» ، وهؤلاء قرؤوا على والده ، مع أنَّ الشيخ محمد عاشق كان شريكاً في السماع والقراءة والإجازة لوالده عن شيخه أبي طاهر المدني ، وأسانيدُه مذكورةٌ في كتابه «الإرشاد في مهمات الإسناد» وفي غيرِ ذلك من الرسائل.

وكان طويلَ القامة ، نَحيفَ البَدن ، أسمرَ اللون ، أَنْجَل العينين ، كثَّ اللِّحية ، وكان يَكتُب النُّسخ والرّقاع بغاية الجودةِ ، وكانت له مَهارة في الرمي والفروسية والموسيقا.

وقد قرأ عليه إخوتهُ عبدُ القادر ورفيعُ الدين وعبد الغني ، وخَتَنُه عبدُ الحي بن هبة الله البُرْهانوي.

وقرأ عليه المفتي إلٰهي بخش[1] الكَانْدَهْلَوِي ، والسيد قمر الدين السوني بتي مشاركاً لإخوته في القراءة والسماع.

وقرأ عليه الشيخ غلام بن عبد اللطيف الدهلوي «صحيح البخاري» قراءةً عليه.

وقرأ عليه السيد قطب الهدى بن محمد واضح البَرِيْلَوِيّ الصحاحَ السِّتَّـة.

وأمَّا غيرهُم من أصحابه فإنهم قرؤوا على إخوته وأَسندُوا عنه ، وحَضروا مجالسه ، وسمعوا كلامه في دروس القرآن ، واستفادوا منه ما شاء الله.

وأما سِبطُه إسحاق بن أفضل العمري فإِنَّه كان مقرئه يَقرأ عليه كلَّ يوم ركوعاً من القرآن وهو يُفسّره ، وهذه الطريقة كانتْ مأثورة من أبيه الشيخ ولي الله ، وكان آخر دروس الشيخ ولي الله المذكور: ﴿ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة: ٨] ، ومن هناك شرع عبد العزيز ، وآخر دروسه كان ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ

(١) عطاء الله.

ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] . ومن هناك شرع سِبطه إسحاق بن أفضل كما في «مقالات الطريقة» .

وكان رحمه الله أحدَ أفراد الدنيا بفَضلِه وآدابه وعِلمه وذكائه وفهمِه وسُرعةِ حفظه ، اشتغلَ بالدروس والإفادة وله خمسَ عشرة سنة ، فدرَّس وأفاد ، حتى صار في الهند العَلَم المُفرد ، وتخرَّج عليه الفضلاء ، وقَصدته الطَّلبة من أغلب الأرجاء ، وتَهافتوا عليه تهافت الظمآن على الماء .

وهذا وقد اعْتَرتْـهُ الأمراض المُؤْلِمةُ وهو ابن خمس وعشرين ، فأدَّت إلى المراق والجُذام والبَرص والعَمى ونحو ذلك ، حتى عدَّ منها أربعةَ عشر مرضاً مُفجعاً ، ومِن ذلك السبب فوَّض تَوليةَ التدريس في مدرسته إلى صِنْوَيه رفيعِ الدين وعبدِ القادر ، ومع ذلك كان يُدرّس بنفسِه النفيسة أيضاً ويُصنفُ ويُفتي ويعِظ ، ومواعظُه كانت مقصورةً على «حقائق التنزيلِ»[1] في كل أسبوعٍ يوم الثلاثاء .

وكان في آخر عمره لا يقدر أن يقعد في مجلس ساعة فيمشي بين مدرستيه القديمة والجديدة ، ويشتغُل عليه خلق كثير من ذلك الوقت ، فيدرِّس ويُفتي ويُرشد الناس إلى طريق الحق ، وكذلك يمشي بين العصر والمغرب ، ويذهبُ إلى الشارع الذي بينَ المدرسة والجامع الكبير ، فيتهادى بين الرجلين يميناً وشمالاً ، ويترقَّبُ الناسُ قدومَه في الطريق ، ويستفيدون منه في حلِّ مُشكلاتهم .

ومن تلك الأمراض المؤلمة فقدان الاشتهاء ، إلى حدٍّ يقضي أياماً وليالِيَ لا يذوق طعمَ الغذاء حتَّى صار الأكل غِبّاً بطريق النَّوبة كالحُمى ، صرَّح بها في تقريظه على «المناقب الحيدرية» قال فيه :

«ويَعتـذر من التَّـقصير في التفريـط بأعـذار صادقـةٍ وأمراض سابقـة

---

(١) [هو «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» للإمام أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النَّسَفي].

ولاحقة ، حتى أدت إلى فُقدان الغِذاء بالمرة ، وصار الأكلُ غِبّاً بطريق النَّوبة ، كالحمى لغلبة المرّة ، وتساقطتِ القوى ، واختلَّتِ الحواس ، وتهاترتِ الأعضاءُ والعظامُ والأضراس ، إلى غير ذلك».

وقال في كتابه إلى أمير حيدر بن نور الحسنين البَلْكَرَامِي : «وإن سألتم عن حال هذا المُحبِّ ، فهو في سَقم وَاصِبٍ ليلاً ونهاراً ، وكَرْبٍ يزعجه سِراً وجَهاراً ، وقرارٍ زائلٍ وقلقٍ حاصلٍ ، وذلك لاجتماع أمراض كلٌّ منها بانفراده يكفي لإزعاج الرَّجُل وإكماده ، منها : قَبْضُ البواسير ، واحتباسُ الرِّياح في المعدة والأمعاء ، ومنها : فُقدان الاشتهاء إلى حدٍّ يقضي أياماً وليالِيَ لا يذوق طَعم الغذاء ، ومنها صُعود الأَبخرة إلى القلب فيُحاكي حالةَ الانزهاق والاختناق ، وربما تَصعدُ إلى الدماغ فتَحدث شقيقةً ثاقبة وصُداعاً لَذّاعاً كأنها ضَربات الدَّقاق ، وإلى الله المُشتكى ، وهو المستعان ، فهذه لا يَسعُ النطق ببنتِ شفةٍ فضلاً عن إملاءِ كتابٍ وإنشاءِ صحيفة وخطاب إلى غير ذلك».

ولعلَّك تتعجَّبُ أنه كان مع هذه الأمراض المُؤلِمة والأسقام المفجعةِ ، لطيفَ الطَّبع ، حسَن المُحاضرة ، جميلَ المُذاكرة ، فصيحَ المنطق ، مليحَ الكلام ، ذا تَواضع وبَشاشةٍ وتَودد ، لا يمكن الإحاطة بوَصفه ، ومجالستُه هي نُزهة الأذهان والعقول ، بما لديه من الأخبار التي تُشنف الأسماع ، والأشعار المهذَّبة للطباع ، والحكايات عن الأقطار البعيدة وأهلِها وعجائبها ، بحيث يَظُنُّ السامع أنه قد عَرفها بالمشاهدة ، ولم يكنِ الأمر كذلك فإنه لمْ يعرف غيرَ مملكته ، ولكنه كان باهرَ الذكاء وقوي التَّصور ، كثيرَ البحث عن الحقائق ، فاستفادَ ذلك بوفود أهلِ الأقطار البعيدة إلى حَضرة دِهلي ، ولأنَّه قد صنَّف الناس في الأخبار مُصنَّفاتٍ يستفيدُ بها مما يقرُب من المشاهدة .

وكان الناسُ يقصدونه ليستفيدوا مِنْ علمه ، والأدباءُ ليأخذوا من أَدبه ، ويَعرضوا عليه أشعارَهم ، والمحاويجُ يأتونه يَشفعُ لهم عندَ أرباب الدنيا ويُواسيهم مما يمكنه ، وكَرمهُ كلمةُ إجماع ، والمرضى يَلوذُون به لمداواتهم ، وأهلُ الجَذْب والسلوك يأتونه ليقتبسوا من أشعَّةِ أنواره ، وغرباء الديار من أهل

العلم والمَشيخة يُنزلهم في منزله ويَفْضُل عليهم بما يحتاجون إليه. ويَسعى في قضاء أغراضهم ونيل مطالبهم، وإذا جالَسه مُنحرف الأخلاق أو من له في المسائل الدينية بعضُ الشِّقاق، جاءَ من سِحر بيانه بما يُؤلِّف بين الماء والنار ويَجمع بين الضَّب والنُّون، فلا يُفارقه إلا وهو عنه راضٍ.

قال الشيخ محسن بن يحيى التِّرهَتِي في «اليانع الجني»: إنه قد بلغ من الكمال والشهرة بحيث تَرى الناس في مدن أقطار الهند يفتخرون باعتزائِهم إليه، بل بانسِلاكهم في سِمط مَن يَنتمي إلى أصحابه، قال: ومن سَجاياه الفاضلة الجميلة التي لا يُدانيه عامة أهلِ زمانه قوة عارضته، لمْ يُناضل أحداً إلا أصاب غَرضه، وأصمى رميته، وأحرزَ خصله.

ومِن ذلك بَراعتُه في تحسين العبارة وتحبيرها، والتأنُّق فيها وتحريرها، حتى عدَّهُ أقرانُه مقدماً من بين حلبة رهانه، وسلَّموا له قَصَبات السَّبق في ميدانه.

ومنها فِراسته التي أقدره الله بها على تأويل الرؤيا، فكان لا يُعبِّر شيئاً منها إلا جاءت كما أخبرَ بها كأنه قد رآها، وهذا لا يكون إلا لأصحاب النفوس الزاكيات المطهَّرةِ عن أدناسِ الشهوات الردية وأرجاسِها، وكم له مِن خصالٍ محمودة وفضائل مشهودة.

وجُملة القول فيه: أَنَّ الله تبارك وتعالى قد جَمع من صنُوف الفضل وشَتاته؛ التي فرَّقها بين أبناء عصره في أرضه؛ ما لو رآه الشاعر الذي يقول:

ولَـمْ أَر أمثـالَ الـرِّجـالِ تَفـاوُتـاً لَدى المَجدِ حتى عُدَّ ألفٌ بواحِدِ

استبانَ له مثلُ ضوء النهار أنه وإن كان عنده أنه قد بالغ فيه، فإنه قد قَصَّر، فكيفَ الظَّنُّ بأمثالِه أن يَحسنَ عَدُّ مفاخِره التي هي أكثر من حصى الحصباء ونجوم السماء.

هذا وللشيخ عبد العزيز مؤلَّفات كُلُّها مقبولةٌ عند العلماء محبوبةٌ إليهم يَتنافسون فِيها، ويحتجُّون بترجيحاته وهو حَقيقٌ بذلك، وفي عبارته قُوةٌ

وفصاحةٌ وسلاسةٌ تعشَقُها الأسماع وتلتذُّ بها القلوب ، ولكلامِه وَقْعٌ في الأذهان قَلَّ أن يُمعِن في مطالعاته مَنْ له فَهمٌ فيبقى على التقاليد بعد ذلك ، وإذا رأى كلاماً متهافتاً زيّفَه ومذقه بعباراتٍ عَذْبةٍ حُلوة ، وقد أكثرالحطَّ على الشيعةِ في المسائل الكلامية ، وله حُجَّة قاطعة عليهم لا يستطيعون أن يَنطقوا في جَواب تُحفَتِه ببِنْت شَفة».

مصنَّفاتُه:

وأمَّا مُصنَّفاته فأشهرها:

١ ـ تفسير القرآن المسمَّى بـ «فتح العزيز»: صنَّفه في شدة المرض ولُحوق الضعف إملاءً ، وهي في مجلدات كبار ، ضاع مُعظمها في ثورة الهند فما بقي إلا مجلدان من أول وآخر.

٢ ـ ومنها «الفتاوي في المسائل المشكلة»[(١)]: وقد جُمعت ما تحويها ضِخامُ الدفاتر ، والميسَّر منها أيضاً في مجلدين.

٣ ـ ومنها «تُحفة اثنا عشرية» في الكلام على المذهب الشيعي: كتابٌ لم يُسبق مثلُه.

٤ ـ ومنها كِتابه «بُستان المحدِّثين» [(٢)]: وهو فَهرس كتب الحديث وتراجمُ أهلها ببَسطٍ وتفصيل ، ولكن لم يَتِم.

٥ ـ ومنها «العُجالة النافعة»: رسالةٌ له بالفارسية في أصول الحديث.

٦ ـ ومنها رسالةٌ فيما يجب حفظه لطالبي الحديث.

---

(١) لقد كان الشيخ عبد العزيز الدهلوي عالي الكعب في الفقه الحنفي، وكانت له قدم راسخة وبصيرة دقيقة فيه حتى يعتبره بعض العلماء من أصحاب الاختصاص، إنه يبذُّ فيه والد الإمام الدهلوي.

(٢) يقدر من هذا الكتاب اطلاعه الواسع على ركتب الحديث وطبقات المحدثين. [وقد نقله إلى العربية الدكتور محمد أكرم الندوي، ونشره في أعداد مجلَّة «البعث الإسلامي» الصادرة من ندوة العلماء ـ لكهنؤ (الهند) وهو مطبوع في دار الغرب الإسلامي ببيروت].

٧ ـ ومنها «ميزان البلاغة»: متنٌ متينٌ له في علم البلاغة.

٨ ـ ومنها «ميزان الكلام»: متنٌ متينٌ في علم الكلام.

٩ ـ ومنها «السِّرُّ الجليل في مسألة التفضيل»: رسالة له في تفضيل الخلفاء لبعضهم على بعض.

١٠ ـ ومنها «سِرُّ الشهادتين»: رسالة نفيسةٌ له في شهادة الحسنين رضي الله عنهما.

١١ ـ ومنها رسالة في الأنساب.

١٢ ـ ومنها رسالة عجيبةٌ له في الرُّؤيا.

وله غيرُ ذلك في الرسائل.

وأما مصنَّفاته في المنطق والحكمة:

١٣ ـ فمنها حاشيةٌ «على مير زاهد رسالة».

١٤ ـ وحاشيةٌ على «مير زاهد ملاًّ جلال».

١٥ ـ وحاشيةٌ على «مير زاهد شرح المواقف».

١٦ ـ وحاشيةٌ على «حاشية ملاًّ كوسج» المعروفة بالعزيزية.

١٧ ـ وحاشية على «شرح هداية الحكمة» للصدر الشيرازي.

١٨ ـ وله شرحٌ على أرجوزة الأصْمعي.

وله مراسلاتٌ إلى العلماء والأدباء.

وتخميسٌ نفيس على قَصيدتي والده («البائية» و«الهمزية»)[1].

(١) يعتبر شعر الشيخ عبد العزيز الدهلوي لاسيما قصيدته اللامية (التي أوردها مؤلف «نزهة الخواطر» في ترجمته) من أرفع نماذج الشعر العربي، ويَظهر أنه يفوق شعر الإمام الدهلوي، ولا نجد مثل هذه العربية السليقية بعده إلا في شعر تلميذه النجيب المفتي =

وكان نسيجَ وحده في النظم والنَّثر وقُـوَّةِ التحريـر وغَضـارة الإملاء وجَزالة التعبير ، وكلامُه عفوُ الساعة ، وفَيضُ القريحة ، ومُسارعة القلم ، ومُسابقة اليد ، وعندي بفضل الله جملةٌ مِنها ، وإن كان يَسعها هذا المختصر لأوردتُ شيئاً كثيراً هاهنا .

وتُوفِّي بعد صلاة الفجر يوم الأحد لسبع خلون من شوال سنة تسع وثلاثين ومئتين وألف ، وله ثمانون سنة ، وقَبرُه بدلهي عند قبر والده خارج البلد[١] .

القِيام بتَكميل أعمالِ الإمام الدهلوي الخاصة ، وتوسيع نطاقها:

يُمكن أن نوزِّع أعمال الإمام الدهلوي التَّجديدية إلى خمسِ شُعب :

١ ـ تَرجمةُ القرآن الكريم والقيام بنشر تعاليمه ومحتوياته في المسلمين ـ بصفة عامة ـ وتصحيحُ العقائد عن طريقه ، والجهودُ المتواصلة لتمتين صلةِ العامة بالدينِ الخالص ، والتعاليمِ الإسلامية السمحةِ العادلة .

٢ ـ القيامُ بنشر الحديث الشريف والدعوةُ إلى إحياء السنة النبوية ، وإقامةُ دروس الحديث الشريف ، والاهتمامُ بأسانيده وإجازاته ، والقيامُ بحلقاته ، وإعدادُ المدرِّسين للحديث والشارحين لكُتبه .

٣ ـ مُقاومةُ فِتنة التَّشيع والرفض ، وسدُّ كل المنافذ والأبواب ضدَّ المُحاولات المشبوهة للطعن في الصحابة رضي الله عنهم ، والتشكيك في قطعيَّة القرآن الحكيم .

٤ ـ إحياءُ الجهاد في سبيل الله ، ومقاومةُ أكبر خطرٍ وأعظم تحدٍّ لحُرية المسلمين وسُلطتِهم الإسلاميةِ في الهند .

٥ ـ تَربيةُ الرِّجال الأكفاء لمهمةِ الإصلاح والدعوةِ حَسْبَ مُقتضيات الظروفِ والأوضاعِ ومُتطلَّباتِ الدين الحقيقية .

= صدر الدين خان، اقرأ الأبيات التي وردت في الثقافة الإسلامية كنموذج لشعره، وفي «نزهة الخواطر» في ترجمته.

(١) «نزهة الخواطر» جـ: ٧ ص: ٢٧٥ ـ ٢٨٠ (الطبعة الثانية).

١ ـ الدَّعوةُ إلى فَهم القرآن الكريم والقيام بنَشرِ تعاليمه وتبليغِ رِسالته:

أمّا ما يتعلّق بتبليغ رِسالة القرآن الكريم إلى عامة الناس ، وإصلاح العقائدِ الباطلة والتقاليد المنحرفة وإقامة الصِّلة والعلاقة مع الله تعالى عن طريقِها ، فإنَّ الشيخ عبد العزيز الدهلوي قد قام ـ فِي هذا الصدد ـ بتوسيع مُهمة والده الإمام الدهلوي ، فقد زَادها تقدماً وقبولاً وسَعة وشُمولاً .

لقد كانت دروس الإمام الدهلوي في القرآن الكريم وصَلت إلى هذه الآية من سور المائدة ﴿ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ﴾ [المائدة: ٨] حيثُ وافاه الأجل المحتوم ، فبدأ الشيخ عبد العزيز الدهلوي سلسلة دُروسه منها ، وكان قد بلغ إلى قوله تعالى من سورة الحُجرات ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴾ [الحجرات: ١٣] ، وإذا بهذه السِّلسلة من دروسه قد انقطعتْ مع انقطاع سِلسلة حياته ، وبدأ بعده ابن بنته الشيخ محمد إسحاق (الذي كان قد تربى وتخرج على يديه وكان خليفتَه بحق) دُروسه في القرآن الكريم.

كانتْ دُروس الشيخ عبد العزيز الدهلوي في القرآن الكريم يومي الثلاثاء والجمعة من كل أسبوع ، يَحضُر فيها الخاصة من النَّاس ـ بصفة خاصة ـ والعامة منهم برغبة وشوق وتذوُّق ، وكانتْ قريحته الفيَّاضة وطَبعُه الريّان يَفيضُ في هذه الدروس في اندفاع وجوَلان ، وتَنهمرُ عليه الحقائق والمعاني كالسَّيل(١) .

وقد عمَّ بهذه الدروس تَذوُّق القرآن الكريم في العاصمة دلهي (التي كانت مركزَ العلماء وأهل الفضل والكمال) وجرتْ موجةٌ قوية من إصلاح العقائد ، وبدأت سلسلةٌ مباركةٌ لترجمة القرآن وتفسيره لم تزلْ حَلقاتُها متصلةً إلى يومنا هذا في شبه القارة الهندية ، وقد صلُحت بها نفوس مئات الآلاف من الناس

(١) انظر مجموعة كلمات الشيخ عبد العزيز (ملفوظات عزيزي)، ص: ١٠ .

وحَسُنت أحوالهم وذَاقت قلوبُهم وعقولُهم عن طريقها حلاوةَ التوحيد الخالص ولذةَ القرآن الكريم ومُتعتَه الروحية ، حتى المدارسُ الإسلامية بدأتْ فيها سِلسلةُ الدروس القرآنية وتَفهُّم معانِيه ومطالِبه بتأثير أولئك العلماء الذين تكوَّنت ثَقافتهم وتمَّت تربيتُهم في حَلقات هذه الدروس ، التي لم يُعطَ لها مكان في المنهج الدراسي إلا في صورة «التفسير الموجز»[١] للبركة فحسب ، وتحطَّم ذلك الطلسم الذي روج له علماء الدنيا أنَّ نشر القرآن الكريم في العامة نذيرُ خطر كبير وتمهيدٌ لضلالة مستطيرة ، وقد كان يعمل في ذلك وراء الستار هذا الخوفُ بأن الجماهير من الناس سوفَ تَخرجُ بذلك عن سُلطة العلماء المحترفين المرتزقين ، الذين جعلوا القرآن العظيمَ أُحجيةً من الأحاجي أو لُغزاً من الألغاز ، وحاولوا بذلك إبعادَ الناس عنه وحِرمانهم منه .

والمَأثرةُ العلميةُ الإصلاحيةُ الثانيةُ للشيخ عبد العزيز الدهلوي هي تفسيره المسمى بـ «فتح العزيز» أو ما يُسمَّى بـ «التفسير العزيزي» ، أو «بستان التفاسير» ، وهو كتاب مستقل مؤلَّف من إملاءات الشيخ عبد العزيز ، وهو يَشتملُ ـ حسب تصريح الشيخ الدهلوي نفسه ـ على تفسير سورة الفاتحة ، وسورة البقرة ، ثم سورة المُلك إلى آخر القرآن الكريم[٢] ، إلا أن سورة البقرة لم تتم (لأسباب لا نعلمها) فلم يُطبع منها إلا إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٨٤] .

وقد صدرتْ لهذا الأصل الفارسي من التفسير عدةُ طبعات ويشتمل على ثلاثة مجلدات ، والمجلد الأول من سورة الفاتحة إلى ربع الجزء الثاني ،

---

(١) كان المنهج الدراسي ـ قديماً ـ يشتمل تفسير الجلالين وتفسير البيضاوي (سورة البقرة فحسب) ولم تكن ترجمة القرآن وتفسيره كله متداولاً .

(٢) انظر مقدمة تفسير «فتح العزيز» للشيخ عبد العزيز الدهلوي، ص: ٣، ويستفاد من المقدمة أن تأليف هذا التفسير بدأ بطلب من أخيه الأكبر الشيخ محمد بن ولي الله الدهلوي وتحريضه عام ١٢٠٨ هـ.

والمجلد الثاني من سورة الملك إلى آخر سورة المرسلات ، والمجلد الثالث من سورة النبأ إلى آخر القرآن الكريم .

وقد أَلَّفَ بعدَ الشيخ عبد العزيز الدهلوي تلميذُه الفاضل العلامة حيدر علي الفيض آبادي (ت ١٢٩٩هـ) صاحب «منتهى الكلام» تكملة لهذا التفسير ، يقول مؤلف «مقالات طريقت» :

«لقد أكملَ الشيخُ حيدر علي مُؤلف «منتهى الكلام» حسب رغبة الأميرة سَكندر بيكُم واليةِ بوفال ـ تفسيرَ «فتح العزيز» في ٢٧ مجلداً ، وشاهده كاتبُ هذه السطور»[١] . وتوجد هذه التكملة إلى آخر الجزء الخامس فحسب في مكتبة ندوة العلماء ، وقد فُقدت ورقتان من بدايتها .

وهناك تفسيرٌ بالأردوية يسمَّى «التفسير العزيزي» ويُعرف أيضاً بـ «الوعظ العزيز» ، وقد طُبع في المطبع الأنصاري بدلهي ، وهو يشتملُ حسب تصريح مُرتِّبه الشيخ أبي الفريد محمد إمام الدين ـ على مجموعة دروس الشيخ عبد العزيز الدهلوي التي كان يُلقيها يومي الثلاثاء والجمعة ، وقد قُيِّدت هذه الدروس ورُتِّبت وطُبعت بهذا الاسم المذكور أعلاه ، وكان تأليفُ هذا الكتاب عام ١٢٥٩ هـ ، ويحتوي على تفسير سورة «المؤمنون» وما بعدها إلى سورة «الصافات» .

ولكن رغم أنَّ تفسيرَ الشيخ عبد العزيز الدهلوي لم يَكْمُل إلا أنَّه يحتوي على لَطائفَ ونِكاتٍ كثيرة نادرة لا تكاد تجدُها في عامة التفاسير المشهورة .

وقد اشتملتْ دروس الشيخ الدهلوي وكتابُه في التفسير المسمَّى بـ «فتح العزيز» على بُحوثٍ علمية في تلك المسائل والقضايا ـ بصفة خاصة ـ كان العلماء لم يجرؤوا فيها على الصراحة بالحق ، أو لم يَقوموا فيها بالبَحث والتحقيق المطلوب ، وكان قد وَقع بذلك عددٌ كبير من الدهماء والعامةِ في ضلال وعقائدَ وأعمالٍ شركية ، وانحرافات في التطبيق والسلوك .

---

(١) مقالات طريقت، ص: ٣٣.

فمن ذلك تفسيرُ آية ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ، فهو من المباحث الخاصة في هذا الكتاب ، كذلك البحث في مسألة السحر في تفسير ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية ، وتحقيقات نادرة رائعة أخرى ضِمن تفسير عددٍ من الآيات ، تُعد من خصائص هذا الكتاب ومباحثه الفذة النادرة.

٢ ـ القِيامُ بتَدريس الحديث الشّريف ونشره وتَرويجه:

وأمَّا ما يتعلَّقُ بتدريس الحديث الشريف ونشرِهِ وترويجهِ ، فإنَّه يصعب أن يُوجد له مثيلٌ في تاريخ الهند العلمي والديني ، وتمتدُّ فترة تدريسه للحديث الشريف إلى أربع وستين سنة ، وأنه لم يقتصر في هذه المدة الطويلة على تدريس الكتب الستة ، وتأليفِ الكتب النافعة المفيدة ـ كـ «بُستان المحدِّثين» و«العُجالة النافعة» التي تُنشىء الذوقَ الصحيح للحديث والمعرفةَ الجيدة بطبقاتِ كتب الحديث ، والاطلاعَ على مراتبِ المحدثين ومنازِلهم في العلم والفضل ، وتُعرِّف بأصوله وقواعده ، وقد جاءت فيها خُلاصة مئاتِ الصَّفحات ، ولُباب النقول والأقوال فحسبُ ، بل قد خرَّج أولئك التلاميذ النجباء والخرِّيجين الفضلاء ، والنوابغ من العلماء والمدرسين الذي أفاضوا علوم الحديث ومعارفَه ، ليس في الهند فحسب بل فِي الحجاز كذلك ، واستفادَ منهم خلائقُ من الناس لا يحصى لهم عددٌ ، ويبلغ عدد من تخرج على يديه من نوابغ تلاميذه وأفاضلهم ممن ترجم لهم مؤلف «نزهة الخواطر» في المجلد السابع منه فحسب إلى أربعين خريجاً ، منهم من كانت له حَلقات لدروس الحديث ، وتخرَّج على أيديهم محدِّثون آخرون وشيوخٌ أجلةٌ ومُدرسون نذكر أسماءهم فيما يلي :

١ ـ الشيخ محمد إسحاق الدِّهلوي.

٢ ـ الشيخ محمد يعقوب الدهلوي.

٣ ـ المفتي إلٰهي بَخش الكَانْدَهْلَوِي.

٤ ـ الشيخ السيد أولاد حَسن القَنُّوجي.

٥ ـ الشيخ مِزار حسن علي الشافعي اللَّكْنوي.

٦ ـ الشيخ حسين أحمد المحدث المليح آبادي.

٧ ـ الشيخ حَيدر علي الطُّونْكِي.

٨ ـ الشيخ خُرم علي البَلَهْوَرِي.

٩ ـ المفتي صدر الدين الدهلوي.

١٠ ـ المفتي علي كبير المَجْهلي شَهْرِي.

١١ ـ الشيخ السيد قطب الهدى الحسني الرَّائي بَرِيْلَوِي.

والذين أَسندوا عنه ـ سوى هؤلاء ـ تطولُ قائِمتهُم بحيث يصعب الإحصاء والاستقصاء، ونكتفي هنا بإيراد بعضهم ممن يمتازون عن غيرهم بمميِّزات خاصةٍ لفضائِلهم ومناقبهم، أو نِسبة بعض السلاسل والطرق إليهم أو لِسمعتهم الذائعة وصِيتهم المنتشر:

١ ـ الشيخ غلام علي الدِّهلوي (خليفة الشيخ الجليل مِيرزا مظهر جَانِ جانان).

٢ ـ الشيخ أبو سعيد الدهلوي (خليفة الشيخ غلام علي).

٣ ـ الشيخ أحمد سعيد الدهلوي (خليفة الشيخ غلام علي).

٤ ـ الشيخ فضل الرحمن الكَنْج مُراد آبادي (خليفة الشيخ محمد آفاق الدهلوي).

٥ ـ الشيخ بشارتُ الله البَهْرَائِجي (شيخ المفتي عنايت أحمد الكَاكُوْرَوِي).

٦ ـ الشيخ بزرك علي المَارْهَرَوِي (شيخ المفتي عنايت أحمد الكاكوروي).

٧ ـ الشيخ بناه عطا السَّلُّوْنَوِي (أحد كبار الشيوخ في السلسلة الجشتية النظامية، وكانتْ له إجازة عن طريق المكاتبة).

٨ ـ الشيخ ظُهور الحق الفُلْوَارَوِي.

وقد انتشر علم الحديث انتشاراً واسعاً كبيراً على يدي الشيخ محمد إسحاق الدهلوي الذي تخرَّج عليه علماء كبار، وأساتذة الحديث في الهند، إلى أن

هاجر إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ ، وأَسندَ عنه كِبار علماء الحجاز وأساتذة الحديث بها .

ومن الذين تَتلمذوا عليه ، وكان لهم صِيتٌ واسعٌ ودَورٌ كبيرٌ :

١ ـ الشيخ السيد نذير حسين المحدِّث الدِّهلوي .

٢ ـ والمُقرىء عبد الرحمن الباني بَتِي .

٣ ـ الشيخ السيد عالم علي المُراذ آبادي .

٤ ـ المُفتي عبد القيوم ابن الشيخ عبد الحي البَدْهَانَوِي (من أَجِلَّة خلفاء الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) .

٥ ـ الشيخ فَضلُ الرحمن الكَنْج مراد آبادي .

٦ ـ والنواب قطب الدين الدهلوي (مؤلِّف «مظاهر حق») .

٧ ـ والشيخ أحمد علي السَّهَارَنْفُوْرِي (ناشر صحيح البخاري بتصحيحه وحواشيه) .

٨ ـ المُفتي عنايت أحمد الكاكوروي (أستاذ العلماء الشيخ لطف الله العلي كرهي) .

وعلماء كثيرون ممَّن يطول ذكرهم ، وهذا هو السَّندُ الوحيد الذي بقي في الهند حَسْب تصريح مؤلف «نزهة الخواطر» .

وقد استمرَّ المحدِّث نذير حسين الدهلوي (ت١٣٢٠هـ) وحده من تلامذة الشيخ محمد إسحاق الدهلوي يُدرِّس الحديث الشريف بدلهي أعواماً طوالاً ، وتخرَّج في حلقة دروسه عدد من شُرّاح الحديث وعلمائِه الأجلة وناشريه ، منهم :

١ ـ الشيخ عبد المنَّان الوزير آبادي الضرير ـ الذي كان عدد كبير من تلامذته مُنصرفين إلى التدريس والإفادة في بنجاب ـ .

٢ ـ والعارفُ باللهِ السيد عبد الله الغزنوي الأَمْرَتْسَرِي .

٣ ـ وابنه الجليل السيد عبد الجبار الغزنوي الأمَرْتْسَرِي ـ والد الشيخ داود الغزنوي.

٤ ـ والشيخ شمس الحق الدَّيَانَوِي مؤلف «غاية المقصود».

٥ ـ والشيخ محمد حسين البَتَالَوِي.

٦ ـ والشيخ غلام رسول القَلْعَوِي.

٧ ـ والشيخ محمد بشير السَّهْسَوَانِي.

٨ ـ والشيخ أمير أحمد السهسواني.

٩ ـ والشيخ الحافظ عبد الله الغازيبوري.

١٠ ـ والشيخ أبو محمد إبراهيم الآرَوِي مؤلِّف «طريق النجاة».

١١ ـ والشيخ السيد أمير علي المليح آبادي.

١٢ ـ والشيخ عبد الرحمن المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي».

ومن العلماء العرب:

١ ـ الشيخ عبد الله بن إدريس الحسني السَّنوسي.

٢ ـ والشيخ محمد بن ناصر النجدي.

٣ ـ والشيخ سعد بن أحمد بن عتيق النجدي.

وأمثالهم ممن يكفي ذكرُ أسمائهم لمعرفة انتشار هذه الدروس وسَعتِها وبُعدِ صِيتها وعظيمِ فوائدها.

ومن تلامذةِ الشيخ محمد إسحاق، الشيخُ عبد الغني المهاجر المدني (ت ١٢٩٦ هـ) الذي تتلمذَ عليه كبار العلماء وشيُوخ الحديث فيها، الذين تنوَّرت الهند كلُّها عن طريقِهم بنور الحديث الشريف ومُلِئَتْ به، وترجع جميع المدارسِ الإسلامية وحَلقات الدروس للحديث الشريف فيها الآن إليه، وتَعتزُّ بالانتماء إليه، فمِن تلامذتِه الأجلة المعروفين العلامةُ رشيد أحمد الكَنْكُوْهِي،

والإمام مُحمَّد قاسم النَّانَوْتَوِي (مؤسِّس دار العلوم بديوبند).

ويكفي من تلامذة الشيخ رشيد أحمد الكبار ذِكرُ الشيخ محمد يحيى الكَانْدَهْلَوِي، والشيخ خليل أحمد السَّهَارَنْفُوْرِي.

كما يُغني في تلامذةِ الشيخ خليل أحمد السهارنفوري ذِكرُ شيخ الحديث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي صاحب «أوجز المسالك إلى موطأ الإمام مالك».

وفي قائمةِ أسماء تلاميذ الشيخ محمد قاسم النَّانُوْتَوِيّ أسماءُ الشيخ أحمد حسن الأَمْرُوْهَوِيّ، وشيخ الهند الشيخ محمود حسن الدُّيوبندي، وفي تلامذتهم أسماء العلامة أنوار شاه الكشميري، والعالم المجاهد السيد حسين أحمد المدني، وأعمالهمُ الجليلة الرائدة لا تحتاج إلى تعريف وتفصيل، ويشتمل كتاب الشيخ محسن بن يحيى الترهتي «اليانع الجني في أسانيد الشيخ عبد الغني» فيما يتعلق بعلو أسانيد الشيخ عبد الغني وعمومِ نفعه وإفادته، وسُمو منزلته؛ على معلوماتٍ قيمة مفيدة.

٣ ـ الدِّفاعُ عَن السُّنة والردُّ على الشِّيعة:

وأمَّا فيما يتعلَّق بمأثرة الشيخ الدهلوي في مقاومة فِتنة الرَّفض والتشيع وحماية أهل السنة وصيانتِهم من تأثيره وعَدْوَاه، والتي بدأها الإمام الدهلوي بكتابِه المنقطع النظير «إزالة الخفاء». فقد أكملها ودَعمها الشيخ الدهلوي بكتابه الرائع الجلي «تحفة اثنا عشرية» (بالفارسية)، الذي يُعد من الكتب التي تَصنَعُ التاريخ وتُحوِّل تيار الأحداث.

وكما أنَّ مؤلفات الشيخ محمد الله البِهاري كـ «سلَّم العلوم» و«مُسلَّم الثبوت» شغلَتْ علماء الهند ـ قرناً كاملاً من الزمن ـ بشرحِها والتعليق عليها والدَّوران حولها، واستقطبتْ طاقاتهم الفكرية وعقولَهم الجبارة[١]، وكذلك

(١) ويمكن الاطلاع على العدد المذهل من شروح هذا الكتاب وحواشيه في «الثقافة الإسلامية في الهند» للعلامة عبد الحي الحسني طبع مجمع اللغة العربية بدمشق.

شَغل الردُّ على هذا الكتاب وتفنيدُه كبارَ علماءِ الشيعة ونوابغهم في الكتابة والتأليف ، ويكفي لذلك أنَّ كتاب «العبقات» الذي سمي بـ «عبقات الأنوار في إمامة الأئمة الأطهار»[1] ، الذي ألَّفه الشيخ السيد حامد حسين الكنتوري (ت ١٣٠٦ هـ) جاء في ثمانية مجلدات كبار ، ويمكن أن يُقدر حجم هذا الكتاب وضَخامته من أن المجلد الأول منه يحتوي على ١٢٥١ صفحة ، والمجلد الثاني على ٩٧٧ صفحة ، والمجلد الثالث على ٦٠٩ صفحة ، والرابع على ٣٩٩ صفحة ، والخامس على ٧٤٥ صفحة ، والسادس على ٧٠٤ صفحة ، وقِس على ذلك البقية ، والكتاب كُلُّهُ في ثلاثين جزءاً ، وقد أكمل الكتابَ ابنُ المؤلف الشيخ السيد ناصر حسين.

ويُستفاد من كتاب «نجوم السماء» أن الشيخ دلدار علي «المجتهد الأول» وميرزا محمد كامل الدهلوي ، والمفتي محمد قلي خان الكنتوري ، و«سلطان العلماء» السيد محمد؛ كذلك ألفوا في الرد على كتاب الشيخ الدهلوي ومحوِ آثارِه كتباً ضخمة كبيرة ، وقد انتهتْ هذه السلسلة من الردود على ميرزا هادي رسوا اللكنوي (الشاعر المعروف) الذي كان رجل الأدب والفلسفة ، ولكنه حاول ـ كذلك ـ المُساهمة في هذه «المبرة».

وكيف خَطر ببال الشيخ الدهلوي أن ينقطعَ إلى هذه القضية ـ انقطاعاً كلياً ـ في خضمٍّ الأشغال الصارفة عن التدريس ، وإلقاءِ الدروس العامة في التفسير والحديث ، والقيامَ بنشر الكتاب والسنَّة ، ومهمةِ التربية والإرشاد ، وتسليكِ المريدين والإفتاء ، وفصل الخصومات التي لا تدعُ فرصة للتفكير في شيء آخر ، ورغم الأمراض والآلام الشديدة التي كان يُعاني منها ، كيف انقطع ـ رغم كل ذلك ـ إلى هذه القضية التي تحتاج إلى دراسة عشَراتٍ من الكتب وآلاف من الصفحات ، مع راحةِ البال وحمية القلب والانصراف الكامل؟ لا يمكن أن يُقدَّر ذلك إلا إذا كانت هناك دراسةٌ عميقة للمجتمع المسلم في

(١) وقد طبعت الأجزاء المختلفة للكتاب في المطابع المتعددة بلكهنؤ ولدهيانة.

أواسط القرن الثاني عشر الهجري وأواخِره (النصف الآخر من القرن الثامن عشر المسيحي) في الهند ، لا سيما شمال الهند وفي دلهي ونواحيها وفي ولاية أوده ، وبهار ، وبنغال ، واطلاع واسع دقيق على الفوضى العقلية والفكرية المنتشرة في المجتمع الإسلامي الهندي ، وما كان يُحاوله بعض المتطرفين من الشيعة من زرع الشكوك والشبهات فِي حقائق الدين وتصوراته الأساسية ، وما كان للتشيُّع من التأثير على الأسر المسلمة لا سيما أُسَر الأشراف والبُيوتات الكريمة ، وأصحابِ الحكم والإدارة والطبقة المؤثرة ، وموقِفه الهجومي العنيف.

ولم يمكن أبداً أن يقدِّر ذلك مَنْ لم يستَعرض الثورات السياسية والإدارية مِن بعدِ عودة الملك همايون من إيران إلى الهند على عهد فُرخ سِير ، وبعدَه أيضاً ، وتأثير الأمراء والعلماء الإيرانيي الأصل ونفوذِهم ، وسيطرةِ الأخوة الأشراف (حسن علي خان وحسين علي خان) على بلاط دلهي وتأثيرهِم فيه ، ثم تفاصيل استيلاء النَّواب نجف علي خان على دلهي[(١)] ، وكذلك قِيام دولة النَّواب أبي المنصور خان صَفْدر جِنغ النيسابوري في ولاية «أَوَده» وتأثيراتُ الشيعة بعدَ شجاع الدولة ، ويَسعُ القارىء أن يُقدِّر ذلك ـ شيئاً ما ـ بتصريحِ الشيخ الدهلوي الذي صدَرَ من قَلمِه المعروف بالحِيطة والرزانة في مقدمةِ كتابه : «تحفة اثنا عشرية» ، يقولُ فيها :

«إنَّ هذه البلاد التي نسكُنها ، وهذا العهد الذي نَعيشه ، قد بلَغ فيها

---

(١) لقد كانت للنواب نجف علي خان سيطرة كاملة على دلهي، وكان مدافعاً متحمساً عن الشيعة ومعارضاً قوياً لأهل السنة علناً وجهاراً، وقد اشتهرت عنه وقائع من ظلمه واعتدائه، وهي وإن لم تكن صحيحة ـ كلياً ـ ويكون قد بولغ فيها أو داخلتها العصبية لأهل السنة إلا أن لها أصلاً، ولعل الشيخ الدهلوي ـ تجنُّباً من اعتدائه ـ نسب كتابه هذا إلى اسمه التاريخي «غلام حليم» بدلاً من اسمه المعروف ، وجاءت على صدر الورقة الأولىٰ من الكتاب العبارة التالية : «تأليف العالم الفاضل الأكمل الحافظ غلام حليم ابن الشيخ قطب الدين أحمد ابن الشيخ أبي الفيض الدهلوي ـ قدس سرهم ـ وحيثما أحال من رد على هذا الكتاب من المؤلفين ذكروا المؤلف بـ«الفاضل العزيز».

المذهب الاثنا عشري من الذُّيوع والانتشار والقبولِ والرَّواج بحيث قلَّ بيتٌ من بيوت أهل السنة لا يميل فيه واحد أو اثنان من أفراده إلى هذه العقيدة ويتبعُ هذا المذهب ، ومُعظمُ هؤلاء ممن لا يعرفون عِلمَ التاريخ والأخبار ، ويَعيشون في غفلةٍ وقلَّة علم بِسيَرِ أسلافِهم وأصولِهم ومنهجهم ، وعندما يتناقَشُون مع أهلِ السنة والجماعة في مجالسهم ونواديهم ، يأخذونَ طريق الجدال والمِراء والمغالطة ، وقد جاء تأليفُ هذه الرسالة حسبة لله تعالى لهذا الغرض حتى لا تَـزِلَّ أقدامُ المتَّبعين لمذهب أهل السنة والجماعة عند المناقشة والمناظرة ، ولا ينكروا أصولهم أنفسهم ، ولا يَدَعُوا الشكوك والشبهات في تلك الأمور التي تنبني على الحقائق تجدُ إليهم سبيلاً»[١] .

ولم يتبع الشيخُ الدهلويُّ في هذا الكتاب منهجَ تلِك الكتب الكلامية التي تُولَّف على طريق المناظرة والجدل ، ولا ذلك الأسلوب الذي يُستخدم في الرد على الفِرقة المخالفة وتفنيدها وإبطالها ، وتكونُ لها لغة خاصة وأسلوب خاص ، وقد جاء في الكتاب أوّلاً ذِكرُ نشأة المذهب الشيعي وانقسامه إلى مختلـف الفِـرق والنِّحَـلِ ، وتَعـريـفٌ بعلمـاء الشيعـة المتقـدميـن وكُتبِهـم ومؤلفاتهم ، ثم يأتي مبحث الخلافة ، والمطاعنُ التي وُجِّهت إلى الصحابة رضي الله عنهم وبدلاً من الاقتصار على الردود عليها ، فأفرد الشيخ الدهلوي أبواباً مستقلة في القضايا الأصولية من الإلَهيات والنُّبوّات والمعاد والإمامـة ، ثم أفاض في الـرد على مطاعن الشيعة في الخلفاء الثلاثة الراشدين وأمِّ المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها والصحابة الآخرين رضي الله عنهم أجمعين ، وفنَّـد اعتراضاتهم واتهاماتهم .

ثم تحدَّث عن خصائص مذهب الشيعة وأوهامِه وخُرافاته وعصبيَّته ، وعلَّق على أخطائِهم وسوءِ فهمهم ومغَالطاتهم ، ويشتمل الباب الأخير (وهو الباب الثاني عشر) على «الوَلاء والبرَاء» عندهـم ، وهو ينبني علـى عَشر مقدمـات ، وقـد جـاء الكتـاب فـي ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير والحروف الدقيقة .

---

(١) تحفة اثنا عشرية : ص ٢ ، طبع مطبع نولكشور ، لكهنؤ ، عام ١٣٢٥ هـ .

والميزة الثانية للكتاب عُذوبة لُغته وسهولتُها وطَلاقتها التي اعترف بها عُلماءُ الشيعة أنفسُهم في الهند وفي إيران ، ويتجلَّى من اسم الكتاب أيضاً هذا الغرض وهذا المعنى الذي كان من الدوافع إلى تأليف هذا الكتاب .

وأمَّا الكُتب التي أُلِّفتْ في الرد عليها فإنه يَظهرُ من أسمائها الغَضبُ والعُنف والإثارة ، ويلمعُ فيها بريقُ السَّيف والحسام ، فمِنها ـ على سبيل المثال كتابٌ باسم «صوارم الإلٰهيات» ، وآخر باسم «حسام الإسلام» ، وثالث باسم «سيف ناصري» ، ورابع باسم «ذو الفقار» .

وسَوف يكون من الصعب بمكان أن يُقدَّر ـ في هذا العصر ـ ما أدى هذا الكتاب ـ الذي كان حاجةً من حاجات العصر ـ من دَور كبير وخِدمة جليلة ، وقد سمعَ كاتبُ هذه السطور نفسُه من الأمير الفاضل الشيخ حبيب الرحمن خان الشِّيرواني صدر الصدور (الرئيس العام) للشؤون الدينية بولاية حيدر آباد ـ سابقاً ـ (الذي كانتْ أسرته دائمة الاتصال بالشيخ الدهلوي وخلفائه أنه قال : «لقد قام هذا الكتاب في وجه السيل الجارف من التَّشيُّع سداً منيعاً) ، وكان هذا الكتاب قد طُبع وانتشر صيتُه في الآفاق في عهد الشيخ الدهلوي نفسه عام ١٢١٥هـ[١] ، وكانتْ قد بدأت سِلسلة الردود عليه ، وقد قام أحدُ تلامذة الشيخ الدهلوي الشيخ أسلمي المدراسي بتعريب هذا الكتاب ، وقد رأى كاتبُ هذه السطور هذه الترجمة العربية للكتاب في مكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بك بالمدينة المنورة .

٤ ـ معارضةُ السُّلطة الإِنكليزية والحفاظُ على كِيان الملة الإسلامية:

لقد قدَّم الشيخ الدهلوي ـ فيما يتعلَّق بالحفاظ على السلطة الإسلامية في الهند ، ومقاومة الأخطار والتحديات التي تَضَعُ عقبات كأداءَ في سبيل حرية

(١) انظر «مقالات طريقت»، ص: ٣٣.

المسلمين فيها ـ نموذجاً رائعاً للدراسة الواقعية الجادّة للأوضاع والظروف، واليقظة العقلية وبُعد النظر والأخذِ بالعزيمة والصرامة، التي تليق بعالم ديني من الدُّعاة والمصلحين ومن أصحاب البصيرة والفراسة، وتجدُر بالقائد والمرشد الديني في عصره.

لقد كانتْ كُبرى القضايا في عصر الإمام الدهلوي إيقافُ غاراتِ المَرهتة وزحفهم وحملاتِهم، التي أصبحت حادثاً يومياً، كانت الدولة المغولية تُعاني ـ بسببها ـ من العَجز والشقاء، والذّلة والمهانة في جانب، وكانت أعراضُ المسلمين وأموالُهم ـ في جانب آخر ـ معرضةً للخطر، ولم تَعُدِ الحياة في المُدن عاديةً آمنة.

وقد كان إزالة هذا الخطر والحصول على المساعدات الممكنة لإيقافه والحيلولة دونه ـ في ذلك الحين ـ كطلب رجالِ المطافىء وسيَّارات الإسعاف عند وُقوع الحريق في بيت من البيوتِ أو حيٍّ من الأحياء، وقد كان هذا هو موقفَ الإمام الدهلوي من أحمد شاه الأبدالي وجيشِه، وكأنه اشترطَ معه أن يعود وجيشه بعد إطفاء هذا الحريق، وكان هذا في نظر الإمام الدهلوي حيلةً مؤقَّتة وتدبيراً عارضاً لإعطاء الدولة المغولية فرصة طيبة لتَدارُك نفسِها، أو أن يَحُلَّ محلها نظامٌ أفضل منها (إذا كان لا بدَّ منه)، ولكنه لم ينجحْ لِقصَر نظر شاه عالِم مَلكِ الدولة المغولية ـ حينذاك ـ وسُقوط همته، إلا أنه لم تكن قد بَدتْ في الأفقِ ـ إلى ذلك الحين ـ علائم سيطرة الشَّركة الشرقية الهِندية وتولِّيها لِزمام الدولة، وقيام حكومتها عَبر البحار في هذه المنطقة النائية البعيدة، التي كانت لتستدعي اهتمامَ الإمام الدهلوي، وتَصرفَ كلَّ عنايته إليها.

ولكنْ تغيرت الظروف ـ سريعاً ـ في الهند بعد وفاة الإمام الدهلوي، فقد كانتْ ولايات بنغال وبهار وأريسه الثلاث عُهد بحكمها وإدارتها عام ١١٧٩هـ الموافق عام ١٧٦٥م (بعد وفاة الإمام الدهلوي بثلاث سنواتٍ) إلى «دولة» الشَّركة الشَّرقية الهندية دون مشاركة أحدٍ، كإقطاع أو جائزةٍ مُلوكية من الأراضي الإقطاعية، وكانتِ الشركةُ قد حَصلت على «بَنارَس» و«غازيبور»

كإقطاع ـ أيضاً ـ ولم يكن قد بقي بعد ذلك في أيدي مَلك الأسرة التَّيمورية شاه عالِم إلا ولاية إلٰـه آباد ، كما لم يكن له من الدَّخل إلا تلك النُّقود التي كانت يَمنحها الإنكليز إياه.

وقد أعلنَ في مجلة الوقائع (Galevtta Gazette) بكَلكُته يوم ٨/ مارس عام ١٧٨٧م الموافق ١٢٠٢هـ: «أنَّ حكومة المسلمين قد بلَغت من المَهانة والحقارة ما بلغتْ ، ولا خَوفَ علينا من الهندوس».

ثم هَزم الإنكليزُ «سراجَ الدولة» في ساحة بَلاَسِي عام ١٧٥٧م ، وهَزموا شُجاعَ الدولة في ٢٣/ أكتوبر ١٧٦٤م الموافق عام ١٢١٤هـ في ساحة بَكُسَر ، واستشهد السلطان تِيبو عام ١٧٩٩م الموافق عام ١٢١٤هـ في ساحة سِرَنكَابَتَن ، وكأنه ختمَ بذلك على مصير حكومة المسلمين وسُلطتهم ، ولما وقع بَصر الجنرال هارِس (Harris) على جُثّةِ السلطان تيبو الشهيد قال: ـ بحق ـ: «الآن أصبحتِ الهندُ لنا»(١).

إنَّ الشيخ الدهلوي كان منقطعاً إلى التدريس والإفادة بدلهي ، ولكنَّ عينه البصيرةَ النافذة إلى أعماق الحقائقِ كانت تنظرُ إلى الهند كُلِّها ، وقد رزقه الله تعالى عقليةً واقعيةً غير عادية وحميَّة مُتَّقدة ، وعزيمةً قوية صارمةً ، وقد دَرس هذا الانقلاب والتَّغيُّر الهائلِ في الأوضاع دراسة مستوعبة ، وتوصَّل بها إلى نتيجة أن الإنكليز يُشكلون أكبر خطر في هذا الحين لمستقبلِ المسلمين والبقيةِ الباقية من سُلطتهم وحكومتهم ، وقد صوَّر هذه الحقيقة في بيتٍ من شعره العربي تصويراً كاملاً ، ويظهرُ منه أنه لم يكن يَرى تأثير الإنكليز مُنحصراً في حدود الهند فحسب ، بل يَعتبرُه أوسعَ حدوداً وأبلغ مدىً ، يقول:

وإني أرى الإفرنـجَ أصَحابَ ثـروةٍ لقـد أَفسـدُوا مـا بَيـن دِلْهـي وكَـابُـلِ

وهو أول شخص ـ في حدود علمنا ـ تجاسرَ على إعلان أنَّ الهند أصبحت

---

(١) انظر «تاريخ سلطنت خداداد (تاريخ الدولة الموهوبة) لمحمود خان محمود البنغلوري» ص: ٢٦٦.

دارَ حرب ، وقامَ مُستعرضاً للأوضاع والظروف ، في ضوء الفِقه وأصوله ، بتحقيق هذه المسألة وتنقيحِها بطريق يَدلُّ على عُمق بصيرته وشجاعتِه الخلقية والدينية أيضاً ، فقد قال في «الفتاوى العزيزية» ج ١ ، في الردِّ على سؤال أنَّ دار الإسلام هل يُمكن أن تتحوَّل دار حرب أو لا؟ بعد نقلِ عبارة طويلة من «الدر المختار» :

إنَّ حُكمَ إمام المسلمين في هذه المدينة (دلهي) غيرُ نافذ ، وحُكمَ الحكام النصرانيين نافِذٌ مطبَّقٌ بِدون معارضة ونقد ، وإنَّ ما يُسمِّيه الفُقهاء بإجراءِ أحكام الكُفر يُراد به أن يَكونَ الكُفَّار أصحاب حُكمٍ وسُلطة في شؤون إدارة البلاد ، وتنظيمِ الرَّعيَّة ، وأخذِ الجبايات ، وتعشيرِ أموال التجارة ، وتعزيرِ السُّرَّاق وقُطَّاع الطُّرق ، والفصل في الخصومات ، والتَّعزير على عامَّة الجرائم ، وإن كانوا لا يتعرَّضون لبعض الأحكام الإسلاميَّة كإقامةِ الجُمُعة والعيدين والأذان وذَبحِ البقر ، ولكنَّ الأصل الأصيل أن تكون هذه الشؤون المتقدِّمةُ الذِّكر تحتَ رحمتهم وفي دائرة نفوذهم.

إنَّنا نرىٰ بأمِّ أعيُننا أنَّهم يَهدِمون المساجد علناً ، ولا يُسمح لأي مسلم أو ذِميٍّ أن يدخلَ هذه المدينة أو نواحيها إلاَّ بإذنهم ، ولا يَمنعون الوافدين من الخارج والمسافرين والتجار لمصالحهم الذاتية ، ولكنَّ الوجهاء الآخرين كشُجاع الملك وولايتي بيكم؛ لا يمكن أن يدخلوا المدينة بغير إذنهم ، إنَّ حُكم النَّصارى يسود من مدينة دلهي إلى كَلْكُتَّه.

نعم إنَّهم لم ينفِّذوا أحكامهم في بعض المناطق ـ يميناً وشمالاً ـ كحَيْدَر آباد ، ولكهنؤ ، ورَامْفُور ، إمَّا لأجل مصالِحهم الخاصة ، أو لأنَّ حكام هذه الولايات خضَعوا لسلطانهم وقَبلوا طاعتهم[1].

وقد انعكست هذه التَّصوُّراتُ التي كان يحملها الشيخ الدهلوي ، والنظرةُ التي كان ينظر بها إلى الإنكليز على تصوُّراتِ خليفته الجليل وخرِّيج مدرسته

(١) الفتاوى العزيزية: جـ: ١، ص: ١١٤، طبع المطبع المجتبائي.

التربوية العظيمة الإمام الداعية المصلح السيد أحمد بن عرفان الشهيد وعواطِفه ومشاعره ، وتتجلى هذه العكوس في رسائله التي كتبها إلى وُجهاء عصره وأعيانهِ وأمرائه وبعضِ الحكام المسلمين الأجانبِ ، يقول في رسالة كتبها إلى شاه سُليمان والي «جِتْرال» :

«لقد تدهورتْ حكومة الهند وسلطتهُ ـ لسوء الحظ ـ منذُ أعوام إلى وَضع سيئ حتى استولى المسيحيُّون والمشركون على أكثرِ بقاع الهند ، وملؤوها بظلمات الظُّلم والجَور والطُّغيان»[1]

ويقول في كلمات أكثر صراحةً منه في رسالة إلى هِنْدُوْرَاؤ وزير كَوَالِيَار :

«مِن الواضح الظاهر عليكم أنَّ هؤلاء السكان وراء البحار ، قد ظلوا سلاطين العالم وملوك الأرض ، وهؤلاء البيَّاعين التجار قد غدوا يملكون زمام البلاد ، وقد أسقطوا حكوماتِ الحكام الكبار ، وانتهكوا الحُرمات والأعراض وأذلُّوهم وأرغموا أنوفهم»[2] .

وَيكتُبُ إلى غُلام حيدر ـ الذي كان أحد الضباط العسكريين في كواليار ـ :

«لقد راحت مُعظم البقاع من هذه البلاد إلى سُلطة الأجانب ، وقد شمروا عن ساعد الجد في الظلم والعدوان في كل مكان ، لقد ضاعت حكومة حُكَّام الهند وخَربت»[3] .

ويَظهرُ ـ جلياً ـ من تلك الرسالة التي يُوجِّهها الإمام الشهيد إلى الأمير كامران ، أنَّ الغرض الحقيقي من وراء هذا الجهاد الذي كان يقومُ به ، كان هو تحريرَ الهند التي كان يَتمُّ عليها استيلاء الإنكليز وسيطرتُهم بصورة تدريجية ، يقول في هذه الرسالة :

«إنَّ هذا الفقير سوف ينصرف مع المجاهدين الصادقين بعدَ الفراغ من هذه

---

(١) سيرة السيد أحمد الشهيد : جـ : ١ ، ص : ٣٨٩.

(٢) المصدر السابق : جـ : ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

(٣) المصدر السابق : ص : ٣٩٠.

المهمة (مُهمة بُنجاب ومنطقة الثغور الشمالية) إلى الهندِ بعزيمةِ القضاء على الكفر والطُّغيان إذ هو الغرض الحقيقي من ذلك»[١].

ويُمكن أن يُقدَّر ذلك ـ أيضاً ـ من أن الإمام أحمد بن عرفان ذهب عام ١٢٢٧ هـ (أي قبل وفاة الشيخ عبد العزيز الدهلوي باثنتي عشرة سنة) إلى جيش الأمير أمير خان الذي كان ـ حينذاك ـ في حرب الإنكليز، وكان معه أفضلُ العناصر العسكرية في الهند، ودماءُ المسلمين الفائرة، والبقيةُ الباقية من القوة الفاتحة في الهند، وكثير من أُسود ذاك العهد وأبطاله ورجاله، وقد كانت هذه قُوةً ناهضة متقدِّمةً حُرة في الهند، لم يكن من الممكن أَن يَتجاهلها أيُّ مُطَّلع بَصير، وقد كان يُمكن بتنظيمها وإحياء رُوح الأهداف الصحيحة العالية فيها أن تقف إزاءَ القُوة الناهضة للإنكليز[٢].

فقد غيَّرت مثلُ هذه القوى ذات الهِمّة والشَّهامة ـ رغم ضَعفها في العدد والعتاد ـ وُجهةَ الأحداث وتيارَ الظروف والأوضاع في تاريخ الشعوب والبلاد.

ولم يَثبُتْ لدينا حتى الآن عن طريق الوثائق الكتابية أن الإمام أحمد بن عرفان كان قصد جيش أمير خان بأمر من الشيخ الدهلوي وإرشاد صريح منه، إلا أن هُناك من القرائن ما يُفيد أن هذه الخطوة كانت بإشارةٍ منه أو ـ على الأقل ـ بموافقته ورضاه، وذلك لأنه لما صَالح النَّواب أمير خان عام ١٢٣٣ هـ الإنكليزَ، وقَنع بالحصول على عَددٍ من المناطق المفرقة غير ذات شأنٍ من ولايات راجبوتانه وماليوه، التي كانت تُسمى مجموعتها بإمارة «تونك»، واختار العزلة عن محاربة الإنكليز، رأى الإمام أحمد بن عرفان أن البقاءَ معه أكثرُ من ذلك لا غنى فيه ولا فائدة، فاختار هو ـ أيضاً ـ مفارقته والانفصال عنه، وكتب

---

(١) سيرة أحمد الشهيد: ١/ ٣٩٠.

(٢) انظر للتفصيل «سيرة السيد أحمد الشهيد»، ج: ١، وليعلم أن أمير خان لم تكن له أي صلة «بالفنداريين» الذين وصفتهم كتب التاريخ الإنجليزية وكتب المؤرخين الذين تأثروا بها بأنهم قطاع الطرق، ولفيف من الهدامين، والحقيقة في هذا الأمر أن الفنداريين كانوا ـ أحياناً ـ يلجؤون إليه، وكان هو ينقذهم من الأخطار المؤقتة المفاجئة.

رسالةً إلى الشيخ الدهلوي وكان من محتواها:

«سوف يتشرَّف الفقير بالحضور، فقد تفرَّق العسكرُ هنا وتبدد، واتفق النَّوابُ مع الإنكليز وصالحهم، فلا مجالَ لنا ـ الآن ـ للمُكث والبقاء»(١).

ويُمكن أن يُستنتج من ذلك أن هذه الرحلة للإمام أحمد بن عرفان إلى الأمير كانت بإشارةٍ من الشيخ الدهلوي، ولذلك رأى من اللازم عليه أن يُخبره بعودته عنه ومفارقته.

وهكذا استخدم الشيخُ الدِّهلوي في التعرف على ذلك الخطر الكبير ـ الذي كان يُواجهه المسلمون والهندُ كُلُّها ـ بصيرَتَه الموهوبة وفراسته الإيمانية، ولم يدَّخرْ وُسعاً في اتخاذ التدابير اللازمة لعلاج ذلك، التي كان في وسعه أن يتخذها في عهده، وتتجلَّى بصيرتهُ هذه وعاطفتهُ الإيمانية في جميع أفراد جماعة المجاهدين التي تنتمي إليه، والتي كان يقودها الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وابن أخ الشيخ الدَّهلوي النابغة العظيم الشيخ إسماعيل الشهيد، في أروع مظاهرها وأجلى صورها، كما تتجلَّى مشاهدها الرائعة في حروب الشيخ ولايت علي العظيم آبادي، والشيخ يحيى علي الصادق بوري، والشيخ أحمد الله، والشيخ عبد الله ضدَّ الإنكليز على الحدود، وفي تلك التضحيات الجليلة التي قام بها الصادقون من صادق بور، والتي لا يُوجد لها نظير إلا بصعوبة(٢).

ثم انتقلت هذه العاطفةُ من هذه الجماعة المجاهدة المناضلة إلى أولئك العلماء والقادة الدينيين الذين خاطروا في سبيلها بمُهجهم وأرواحِهم عام ١٨٥٧م، وقد اشتهر منهم الشيخُ أحمد الله شاه المَدْرَاسِي، والشيخ لياقات علي الإله آبادي، والشيخ إمدادُ الله المهاجر المكِّي، والحافظ ضامن الشهيد، ثم انتقلت إلى أولئك العلماء الذين ما تركوا هذا المشعل يَخبو يوماً،

(١) انظر «وقائع أحمدي»، ص: ٨٥، مخطوط في مكتبة ندوة العلماء ـ لكهنؤ.
(٢) انظر للتفصيل كتاب المؤلف «إذا هبَّت ريحُ الإيمان»، ص: ١٨٩ ـ ٢٠٠، طبع دار ابن كثير بدمشق.

ولم تزل تتَّصلُ حلقات هذه السلسلة إلى ١٩٤٧ م.

﴿ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٥ ـ تَربيةُ رجال العمل والجهاد:

أمَّا ما يتعلَّقُ بتربية رجال الجِدّ والجهاد الذين يقومون ـ حسب مُقتضيات العصرِ والأوضاع ومُتطلّبات الدين الحقيقية ـ بأعمال الدعوة والإصلاح، ويَرفعون راية الجِد والجهاد، فإن من حُسن الحظ، والحكمة الإلٰهية البالغة أنَّ نصيب الشيخ الدهلوي من ذلك أكبرُ وأعظم من كثير من سَلَفِهِ ومشايخه، ومن أولئك الرجال الذين يُمكن أن تكون منزلتهم عند الله تعالى أعلى وأفضل (والقرائن تدل عليه)، فقد وفَّقه الله تعالى لتربية عددٍ من الرجال الأكفاء ذوي الصلاحية الفائقة، والهمة العالية، والعزيمة الصارمة، والتأثير في النفوس والقلوب، الذين أحدثوا ثورة عظيمة في حياة الآلاف المؤلفة من الناس، وكأنهم أمسكوا بقَرنٍ كامل وحَفظوه من السقوط والانهيار، لقد كان نَهْر عِلم الشيخ الدهلوي وحياته هادئاً ساكناً، ولكنه كان كما يقول الدكتور إقبال:

«مِن هذا النَّهر تتصاعدُ تلك الأمواجُ الطاغيةُ المتلاطمةُ التي تُحطم أوكارَ التَّماسيح وتَجعلُ عالِيها سافِلها».

الإمامُ أحمدُ بنُ عرفانَ الشهيد:

يكفي لإثبات هذه الدعوى أن يُذكر اسم خليفتهِ الأجل الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (١٢٠١ ـ ١٢٤٦ هـ) الذي قاد في شبه القارة الهندية تِلكَ الحركة الإسلامية العظيمة التي لا يُوجد لها نظير في شمولها وقُوة تأثيرها ومشابهتها للدعوةِ الإسلامية الأولى، والمنهج النبوي الكريم، لا في القرن الثالث عشر الهجري فحسب، الذي هو عَهدها، بل لا نعثر في عدة قرونٍ ماضية على مثل هذه الحركة الإيمانية والجماعة القوية المنظَّمة للرجال المخلصين الصادقين، وأنَّ ذلك النشاط الذي قام به في مجال تصحيح العقائد وتربية الرجال والدعوة

والتذكير والتضحية والجهاد الطويل العريض ، لم يقتصر تأثيرهُ على ساحة حربه ونضاله والجيل المعاصر له ، بل تركَ آثاراً بارزةً عميقةً خالدة على الأجيال القادمة ، والركب القادم لدعاة الحقِّ والصدق ورجال الفكر والجهاد وقادة الحركة الإسلامية والخدَمَةِ لهذا الدين الحنيف .

وهو الذي بدأ بالجهود الموفَّقة والمحاولات الجادةِ للدفاع عن الهند والبُلدان المجاورة لها ، وحِمايتها إزاءَ السُّلطة الناهِضة المتزايدة للمُستعمرين الإنكليز ، وتأسيسِ الحكومة الإسلامية على مِنهاج الخلافةِ الراشدة .

وقد كان زِمام القيادة لهذه الحركة والنشاط ، والجدّ والجهاد في الهند أولاً بأيدي علماء هذه الجماعة وقادتها المخلصين ، وتَدينُ بجهُودهم الحركةُ الجديدة في مختلف بقاع الهند للتصنيف والتأليف والبحث والتحقيق والترجمة والنشر(التي ردمتْ ذلك الخليجَ الواسع العميقَ الواقع بينَ عامَّةِ المسلمين وبَين التعاليم الإسلامية الصحيحة والكتاب والسنة) .

كما أنَّ اليقظةَ الدينية والسياسية في المسلمين ـ بواسطة أو بدون واسطة ـ ليستْ إلا من ثِمار هذه الدَّعوة والحركةِ ونتائِجها الطَّيبة المباركة، وقد أثَّرت هذه الحركةُ على الثَّقافةِ الإسلامية والفكر الإسلامي واللُّغةِ والأسلوب المتداول أيضاً ، وقامت بأعمالٍ عظيمة جبَّارة في إصلاح المجتمع والقضاء على التقاليد الجاهلية ، وإزالةِ الآثار الهندوكية ، والعودةِ إلى الحياة الإسلامية الصحيحة من جديد .

ونَذكُر فيما يلي ـ لقياس ما كان لِدعوة الإمام الشهيد وتربيته من تأثيرٍ وشمول وقُوة وعُمقٍ ـ بعضَ المقتطفات من كتابات العلماء البصيرين المطَّلعين :

«يَقولُ مُولِّف الهندِ المعروفُ والمؤرِّخُ الكبير العلاَّمة السيد صديق حسن خان [القَنُّوجي] ـ والي بوفال ـ (م١٣٠٧هـ) الذي كان مِنَ المُشاهدين لآثار تربيةِ الإمام الشهيد وتعليمهِ وإرشاده ، وعاصرَ عدداً كبيراً ممَّن صَحِبوه أو شهدوه ، يقول في كتابه «تقصار جُيود الأحرار» :

«كانَ (السيد أحمد الشهيد) آيةً من آيات الله تعالى في هداية الخلق ورُجوعهم إليه ، وقد وصلتْ جماعاتٌ كثيرة وعالم بأسره بعنايتهِ المعنوية والمادية إلى منازل الوِلاية ومدارج الإحسان ، وقد طهَّرت مواعظُ خُلفائه وخُطَبُهم أرض الهند من ألواثِ الشِّرك والبدع وأقذائها ، وساروا بها على دربِ الكتاب والسنة ، ولا تزالُ بركاتُ مواعظهم وتذكيرهم تسري في الوجود وتجري (كالأنهار)».

ويزيدُ قائلاً : «وبالجملة فإنَّه لم يُسمع في هذا العصر وفي أي بلدٍ من بُلدان العالم بمثل هذا العبقري الفذ ، وإنَّ ما فاض على خلق الله تعالى من هذه الجماعة القائمة بالحقِّ من خَير وفائدةٍ وهداية ، لم يحصل عُشر معشارها على أيدي عُلماء هذا العهد ومشايخه»[1] .

ويَقول أُستاذ الأساتذة في عصره العلامةُ الشيخ حيدر علي الرَّامْفُوري الكوكي (م ١٢٧٣ هـ) تلميذُ الشيخ عبد العزيز الدهلوي في «صيانة الناس» :

«لقد أضاء نُور هدايته وإرشاده كالسراج الوهَّاج في البلاد وقلوب العباد ، وضربَ السعداءُ المحظوظون إليه أكباد الإبل ، وشَدُّوا إليه الرحال ، وتابوا على يديه من الإشراك والمناهي والبدع والمحدَثات ـ التي كانوا قد اعتادوها ودرجوا عليها ـ وسلكوا سبيلَ التوحيد والسُّنة والرشاد ، وبعث خلفاءه الصادقين العاملين في أكنافِ البلاد البعيدة ، ومهَّد بهم لمئات الآلاف من الناس طريقَ الملة المحمدية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ فمن عقل ورشد ، وحالفه التوفيق والتأييد ، فقد اهتدىٰ إلى هذا الطريق»[2] .

ويقولُ أحدُ علماء الهند المطلعين الثِّقات الشيخ عبد الأحد ـ الذي زار عدداً

---

(١) تقصار جيود الأحرار من تذكار جنود الأبرار (بالفارسية): ص١٠٩ ـ ١١٠ طبع بوفال عام ١٢٩٨ هـ.

(٢) صيانة الناس عن وسوسة الخناس: ص ٤ ، طبع عام ١٢٧٠ هـ.

كبيراً من أفراد هذه الجماعة النَّيرة الصادقة ، وكان عهده قريباً من عهد الإمام الشهيد ـ:

«لقد أسلَم على يدي السيد (أحمد الشهيد) أكثرُ من أربعين ألفاً من الهنادك وغيرهم من الكفار ، وبايعَ على يديه ثلاثةُ ملايين من المسلمين ، وأما ما يجري من سِلسلة المبايعة على أيدي خلفاءِ خلفائه على وجه الأرض كُلِّها ، فإنَّه يدخل عن طريقها في بَيعته مِئاتُ آلافٍ من الناس»[١] .

ويَعتبرهُ ـ لأجلِ هذه المأثرةِ الإصلاحيةِ والتجديدية العظيمة ـ مُعظمُ أصحابِ الفكر والبصيرة المنصفين مُجدِّدَ القرن الثالث عشر الهجري .

الشيخُ عبد الحي البُرْهَانَوِي:

والمثال الثاني لتربيةِ الشيخ عبد العزيز الدهلوي وتعليمه وإرشاده اثنان من تَلامذتهِ النجباء والأدنين من ذوي قُرباه الشيخ عبد الحي البرهانوي ، والشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، وقد كان الشيخ الدهلوي يَعترف لهما بالعلم والفضل والتبحر فيه ، وقد وَصفهما في إحدى رسائله «تاج المسافرين وفَخر المحدثين وأحدُ نوابغ العلماء المحققين»، وقال في رسالة كتبها إلى أحد أعيان لكهنؤ المنشي خير الدين :

---

(١) انظر «سوانح أحمدي» وانظر مزيداً من الشهادات وتصريحات الشيخ ولايت علي العظيم آبادي (١٢٦٩ هـ)، والشيخ كرامت علي الجونفوري (١٢٩٠ هـ) في رسالة المؤلف بعنوان «الإمام الذي لم يوف حقه من الاعتراف والإنصاف»، وانظر لسيرة الإمام أحمد بن عرفان ومناقبه وفضله بتفصيل «سيد أحمد شهيد» للشيخ غلام رسول مَهَر (المجلدات ١ ـ ٤) و«سيرة السيد أحمد الشهيد» للمؤلف، جـ: ١ و٢، وأما ما حصل على أيدي خلفائه من هداية عامة وإصلاح كبير وما كان لهم من تأثير ، فيُمكن أن يقدر شيءٌ من ذلك من «الذكر الجلي في كرامات السيد محمد علي» (بالأردية) تأليف أفسر الدولة جان جهان خان ابن النواب محمد خان عالم خان بهادر تهور جنك طبع عام ١٣٠٥ هـ بمطبع مرغوب دكن، إسكندر أباد، وهو في سيرة خليفة الإمام الشهيد، السيد محمد علي الرامفوري ومناقبه وكراماته ، وما تمَّ على يديه من هداية وإصلاح في مدراس».

«كلاهما لا يقلاَّن عن هذا الفقير في عِلم التفسير والحديث والفقه والأُصول والمنطق وغيرهِ ، وأن ما شملتهما من عناية الله تعالى ورعايته لا أستطيع أن أؤدِّي حقَّ شكرها عليَّ ، فأعتبرهُما مِن العلماء الربانيين ، وإذا استعصى عليك إشكال فاعرِضهُ عليهما»(١).

لقد كانت مَكانةُ الشيخ عبد الحي العلميةُ ـ لدى أهلِ العلم والفضل ـ رفيعة ممتازة ، وكان عاليَ الكعب في العلوم المتداولة ، ويُفضِّله الشيخ الدهلوي في علم التفسير على جميع تَلامِذته الآخرين ، وكان يقول : «إنه مثلي» وقد خاطبه في إحدى رسائله إليه بلقب «شيخ الإسلام» الذي لم يدع به إلا بعض خاصة العلماء .

وأمَّا الذي هو فَوق تبحُره العلمي ونُبوغه العقلي والفكري فهو ربَّانيته وإخلاصُه ، حيثُ راجع الإمام الشهيد ـ رغم هذا العلم والفضل ـ الذي كان أصغرَ منه سناً بكثير ، وتتلمذَ عليه في العلم ، فإنه لما بايعه لم يَلبثْ أن انصبغ بصبغته ، وفَداه بِعلمِه وفضله ، وأنفق كلَّ ذلك عليه وعلى عمل الدعوة والجهاد ، ونذَرَ قَلمه ولِسانه وكلَّ ما آتاه الله تعالى من قُوة صلاحية وكفاءة لنصر الحق وتمكينه ونشرهِ ، وأسلمَ نفسه في رحلتهِ للهجرة والجهاد إلى بارئها الكريم ، وهكذا صدقَ ما عاهد الله عليه .

الشيخ محمَّد إسماعيل الشهيد:

وأمَّا الشيخ محمد إسماعيل الشهيد ، فإنه من أُولئك الأفراد الأفذاذ من أُولي العزم وأصحابِ الهمة العالية ، والذكاء الخارق ، والجَراءةِ الكبيرة الذين لا يُولدون إلا بعد عهود وقرون ، فقد كان يَملكُ العقليَّة الاجتهادية ، ولا يكونُ من المبالغة والإسراف في القول إذا قلنا بأنه كان يملك القدرة والكفاءة لتدوينِ كثيرٍ من العلوم مِن جديد ، وقد ذَكرهُ الشَّيخ الدهلوي في

(١) انظر «سيرة السيد أحمد الشهيد»، جـ: ١، ص: ٢١٦ ـ ٢١٧.

إحدى رسائله إليه: «بحُجَّة الإسلام»، ويتجلَّى في علمه ومؤلفاته لَونُ الإمام الدهلوي، ومَنهجه، وأسلوبهُ، طراوة علم، ولطافة استدلال واستشهاد، ودِقَّة نُكات وسلامة ذوق، وتَفقُّهاً في الكتاب والسنة واستحضاراً عجيباً للمعلومات وقُوة تعبيرٍ وبيانٍ.

وإنَّ من خصائصه الكبرى أنه خَرج من ذلك النطاق المحدود للعلماء المدرسين الأذكياء، الذين تَعيَّن لجماعتهم منذ أعوام بل منذ قرون، ولم يَدخل ساحةَ الجد والجهاد والإصلاح والإرشاد فحسب، بل قادَ فيها جيُوشه وجَحافله، وأنَّ ما قام به كتابه «تقويةُ الإيمان» وحدَه من نَفعٍ عظيمٍ للخَلق وتصحيحِ العقائد والتصوراتِ لعله لا يمكن أن تَقومَ به الجُهوَد المنظَّمة في إشراف حكومة من الحكومات إلا بجُهد وصعوبة.

وقد كان الشيخ رشيد أحمد الكنكوهي، يقول: «لقد صلح بجهُود الشيخ إسماعيل في حياته مئتا ألف وخمسون ألفاً من الناس، ولا يُمكن أن يُقاس ما جرى بعدهُ من نَفعٍ وفائدة عظيمة».

وكان قد أعدَّ نفسه ـ مع هذه المهمة العظيمة للإصلاح والدَّعوة الشعبية العامة ـ للجهاد في سبيل الله تعالى إعداداً كاملاً، ولم يكن قد أدَّى حقَّ مرافقة الإمام الشهيدِ ومُواكبَتهِ ـ الذي كان قد بَايعه بيعة السلوك والجهاد ـ فحسب، بل كان دَورهُ في هذه المهمة دورَ قائدٍ للحركة، ونائب للأمير ووزيرٍ له، ثم أَفنى نفسَه في ذلك، وحازَ على شرف الشهادة في معركة بالاكوت، وهؤلاء الذين يَحق أن يُقال فيهم:

«رُهبان بالليل وفُرسانٌ بالنهار».

الشَّيخ مُحمد إسحاق، والشَّيخ مُحمد يعقوب:

لقد خلَف الشيخ الدهلوي ـ في ذَوقه الخاصِّ وتدريسهِ للحديث الشريف والاهتمامِ بأسانيده وإجازاته، والقيام بنشر العلوم الدينية وتعميمها ـ سِبطاهُ

(ابنا بنته) الشيخُ محمد إسحاق (١١٩٧ ـ ١٢٦٢ هـ)، والشيخ محمد يعقوب (١٢٠٠ ـ ١٢٨٢ هـ)، وكانا ابنين للشيخ محمد أفضل.

وقد استخلَف الشيخُ الدهلوي محمد إسحاق ووهَبه جميع كُتبه وبيته وغيرَ ذلك، فجلس بعد وفاة الشيخ الدهلوي على كرسيِّ التدريس، وانصرف من عام ١٢٣٩هـ إلى ١٢٥٨هـ بدلهي، (العام الذي هاجر فيه إلى مكة المكرمة)، ومن عام ١٢٥٨هـ إلى ١٢٦٢هـ في الحجاز إلى خِدمة الحديث الشريف وتدريسه والاستغراق فيه.

وقد قرأ عليه الحديث مئاتٌ من علماء الهند، واستفادَ منه كبار العلماء وأساتذةُ الحديث الوافدون عليه من مختلف البلدان والأمصار، وأسندوا عنه الحديث، كان منهم الشيخُ عبد الله سراج المكِّي، وكبارُ العلماء الآخرون.

وقد كان الشيخ الدهلوي يَشكر الله تعالى على أن رَزقه العَضُدين القويين في صورة الشيخ محمد إسماعيل (ابن أخيه)، والشيخ محمد إسحاق (سبطه)، وكان كثيراً ما يردد هذه الآية الكريمة:

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

وقد توفِّي الشيخ إسحاق الدهلوي في ٢٧/ رجب عام ١٢٦٢ هـ بمكة المكرمة، ودُفن في المعلاَّة بمقربةٍ من مَرقد أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها»[١].

ولم يزلِ الشيخ محمد يعقوب كذلك ـ منشغلاً بالتدريس والإفادة بدلهي لمدة طويلة من الزمن، ثم هاجرَ مع أخيه الأكبر الشيخ محمد إسحاق إلى مكة المكرمة عام ١٢٥٨هـ، واستوطنها واستفاد منه الأمير العلاَّمة السيد صِدِّيق

(١) انظر لترجمته «نزهة الخواطر»، جـ: ٧.

حسن خان القنوجي (أمير بوفال) [١]، والشيخ السيد أحمد النصير آبادي [٢]، وخَلقٌ ، وانتقلَ الشيخ محمد يعقوب يوم الجمعة ٢٧/ ذي القعدة عام ١٢٨٢هـ إلى رحمة الله تعالى ودُفن في المعلاَّة.

العُلماء الأجلاَّء ، والأساتذة الكبار الذين تتلمذوا عليه:

إنَّ العلماء الذين استفادوا من دُروس الشيخ الدهلوي وتربيته وصُحبتهِ ، ثم أقاموا حلقات دروسهم ، وذاعَ صيتُهم في الآفاق ، ونفَخوا في النظام التعليمي الدينيِّ رُوحاً جديدة من الحياة ، ثُم تخرَّج على أيديهم عددٌ كبير من العلماء الأجلاء ، نَود أن نذكر ـ فيما يلي ـ أسماء من بَعُد صيتهم ، واعترفَ لهم القاصي والداني بملَكتهم القوية الممتازةِ في التدريس ، وجَمعِهم بينَ المعقول والمنقول وتبحُّر عِلمهم وسَعةِ معلوماتهم ، وقد كان كلٌّ واحدٍ منهم مدرسةً قائمةً بذاته، ومؤسَّسة علميةً بمُفرده، وهؤلاء كالتالي:

١ ـ المفتي إلٰهي بَخش الكاندهلوي.
٢ ـ الشيخ إمام الدين الدهلوي.
٣ ـ الشيخ حيدر علي الرَّامْفُوري الطُّونكي.
٤ ـ الشيخ حيدر علي الفيض آبادي ، صاحب «منتهى الكلام».
٥ ـ الشيخ رشيد الدين الدهلوي.
٦ ـ المُفتي صدر الدين الدهلوي [٣].

---

(١) إن ما قام به الأمير السيد صديق حسن خان من خدمة جليلة للحديث الشريف ونشر لكتبه ومصادره، وما تحولت ولاية بوفال ـ بعنايته وإشرافه ـ مركزاً لدروس الحديث الشريف، وموطناً لمحدثي اليمن، من الحقائق التاريخية ومآثره الجليلة، وإن طبع «فتح الباري» بمطبع بولاق بمصر ونشره الذي أنفق عليه ٥٠٠٠٠ ألف روبية منة عظيمة على العلماء وطلبة العلم، ويرجع إليه السبق فيه.

(٢) كان أحد الدعاة والمصلحين في سلسلة الإمام الشهيد ومن أسرته، انظر لترجمته المفصلة: «نزهة الخواطر»، جـ: ٧.

(٣) ليرجع لتراجمهم وأخبارهم إلى «نزهة الخواطر» للعلامة السيد عبد الحي الحسني، ج: ٧.

ويُمكن أن يُقال ـ نظراً إلى هؤلاء النوابغ الأجلةِ والأساتذة الكبار ، ومن ذُكر قَبلهم من رجال الفكر والدعوة وأصحاب الهمة والعزيمة وقادةِ حركة الإصلاح والتجديد والجهادِ في سبيل الله تعالى الذين كانوا ينتمون إلى الشيخ الدهلوي ـ روحياً ومعنوياً ـ إنَّ القرن الثالث عشر الهجري كان قرنَ الشيخ الدهلوي في تعليمهِ وتدريسهِ ، وإرشاده وتربيته للرجال الذين يتجمَّل بهم التاريخ ، وتغيَّرت بهم وُجهة الأحداث ، وذلك فَضلُ الله يؤتيه من يشاء .

وسنُورِد بعد الفراغ من ذكر الشيخ الدهلوي الذي هو كالنقطة المركزية في دائرة سلسلة الإمام الدهلوي ، وواسطةُ العقد في السلك النوراني لأبنائه وتلامذته ، تراجم ابني الإمام الدهلوي الآخرين وهما الشيخ رفيع الدين ، والشيخ عبد القادر ، وتراجمَ ثلاثة من خلفائه الكبار الشيخ محمد عاشق الفلتي ، والشيخ محمد أمين الكشميري ، والسيد أبو سعيد الحسني الرائي بريلوي ، وهي تراجم مُقتبسة من «نزهة الخواطر» ج٧ .

الشَّيخُ رفيعُ الدين الدِّهلوي:

الشيخ الإمام العالم الكبير العلامة رفيعُ الدين عبد الوهاب بن ولي بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، المحدث المتكلم الأصولي الحجة الرَّحلة ، فريد عصره ونادرة دهره ولد بمدينة دهلي ونشأ بها واشتغلَ بالعلم على صِنوه عبد العزيز ، وقرأ عليه ولازمه ، وأخذ الطريقة عن الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتي ، وبَرع في العلم ، وأفتى ودرَّس وله نحو العشرين ، وصنَّف التصانيفَ وصار من أكابر العلماء في حياةِ أخيه المذكور ، وقام مَقامه في التدريس ، بعد ما أصيبت عيناه ، فازدحمَ عليه الناس ، وتلقَّى كُلٌّ واحد من تلك اللطائف على قَدر الاستعداد ، واعترفَ بفضلهِ علماءُ الآفاق ، وسارت بمصنَّفاته الرِّفاق .

قال صِنوُهُ عبد العزيز فيما كتب إلى الشيخ أَحمد بن محمد الشَّرواني : «هذا أوان الأخ الفَذِّ البَذِّ ، المتخلق من طَيِّب الخلال بما طابَ ولذَّ ، الذي هو

شقيقي في النسب ، ولَحيقي فيما يَظن بي الكرام من فُنون العلم وشجُون الأدب ، هو تِلْوي في السن ، وصنوي في الصناعة والفن ، قد ربَّاه اللهُ بِمنح ألطافه على يَديَّ ، وَمنَّ بتكميله عليَّ ، ولما زارني من مُقامه بعد ما اغترب شَطراً من أيامهِ أتحفني برسالة وَجيزة ، بل جَوهرة عزيزة ، تحتوي على نُكت مخترعةٍ هو أبو بَجدتها ، وتَنطوي على فِقَرٍ مُفتَرعةٍ لم يُسبق إلى أسوتها ، مَسوقةٍ لتفسير كلام الله المجيد في آية النور ، وَكَشف القناع عن وُجوه تلك المعاني المقصورات من الإعجاز في القصور ، ولَعمري لقد أَتى في هذا الباب بالعَجَب العُجاب ، وميّز القِشر عن اللُّباب ، ونوَّر مصابيح زُجاجات القلوب ، وروَّح الأرواح ببديع الأسلوب» .

وقال محسن بن يحيى التِّرهتي في «اليانع الجني» : «وكانت له خِبرةٌ تامة بغير هذه العلوم أيضاً ، من علوم الأوائل ، وهذا قلَّما يتفق مِثلهُ لأهل العلم ، وله مؤلَّفات جيِّدة مرصفات ، رأيتُ بعضها فرأيته يكثر فيما له من المتون المهذبة في نفائسِ الفنون من رُموز خفية ، يَعسرُ الاطلاع عليها ، ويَجمعُ مَسائل كثيرة في كلمات يسيرة ، وفي ذلك دَلالةٌ واضحة على تعمُّقه في العلوم ودِقة فهمه بين الفهوم ، وكتابه «دمغ الباطل» في بعض المسائلِ الغامضة من علوم الحقائق معروف ، أثنى عليه أهلُها .

وله مختصر جامع بيَّنَ فيه سريان الحب في الأشياء كلها ، وأوضح للناس أطواره يُسمَّى «أسرار المحبة» ، قلما اتَّفق مثله لغيره ممن تكلم عليها ، ولا أعرف من سبقه إلى ذلك إلا رجُلان من الفلاسفة أبو النصر الفارابي وأبو علي ابن سينا ، على ما يُفهم من كلام النَّصير الطوسي في بعض كتبه» .

وله مصنفاتٌ غير ما ذكرها الشيخُ محسن ، وهي :

١ ـ رسالة في العروض .

٢ ـ رسالة في مقدمة العلم .

٣ ـ رسالة في التاريخ .

٤ ـ رسالة في تحقيق الألوان.

٥ ـ رسالة في آثار القيامة.

٦ ـ رسالة في الحجاب.

٧ ـ رسالة في برهان التمانع.

٨ ـ رسالة في عقد الأنامل.

٩ ـ رسالة في شرح أربعين كافات.

١٠ ـ رسالة في المنطق.

١١ ـ رسالة في الأمور العامة.

١٢ ـ حاشية على «مير زاهد رسالة».

ومن مصنفاته:

«تكميل الصناعة» كتابٌ عجيبٌ قلَّما اتَّفق مثلُهُ لغيره.

وله غيرُ ذلك من المؤلَّفات الجيدة.

ولهُ تخميسٌ على بَعض القصائد لوالده.

وله قصيدةٌ بليغةٌ تَدلُّ على عُلوِّ كَعبه في العلوم الفَلسفية واقتداره على العربية، عارضَ بها قصيدة الشيخ الرئيس أبي علي ابن سينا «العينية» التي تُعرف بقصيدة الروح، ومطلعُها:

هَبَطَتْ إليك من المَحلِّ الأرفع وَرقاءُ ذات تَعزُّزٍ وتَمنُّعِ

فأجابَ عنها بقصيدةٍ، أوَّلُها:

عجباً لشيخ فَيلسوفِ ألمعي خَفِيتْ بعَينيه منَارةُ مَشْرَعِ

تُوفي رحمه الله في حياة صِنوه الكبير عبد العزيز لِستٍّ ليال خَلَون من شوال

سنة ثلاث وثلاثين ومئتين وألف بمدينة دهلي ، فدفن بها خارج البلدة عند أبيه وَجده»[١] .

٣ـ الشَيـخ عبـدُ القـادر الدِّهلـوي:

«الشيخُ الإمام العالم الكبير العارف عبد القادر بن ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، أحد العلماء البارزين المبرِّزين في المعارف الإلٰهية ، اتفق الناسُ على وِلايته وجلالته ، توفي والده في صِغر سنه ، فقرأ العلم على صِنوه الكبير عبد العزيز بن وليِّ الله . وأخذ الطريقة عن الشيخ عبد العدل الدهلوي ، وَجَمع العلم والعمل والزهد والتواضعَ وَحُسن السلوك ، ووضع الله سبحانه له المحبةَ في قلوب عباده لما اجتمع فيه مِن خصال الخير ، فصار مَرجوعاً إليه في بلدته ومرجوعاً إليه بِعلم الرواية والدراية وتهذيب النفوس والدَّلالة على معالم الرُّشد وطرائق الحقِّ .

كان يُدرِّس ويَفيد ويَسكُن بالمسجد الأكبر آبادي في دهلي ، وقرأ عليه الشيخُ عبد الحي بن هبة الله البرهانوي ، والشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي ، والشيخُ فضل حق بن فضل إمام الخير آبادي، ومِرزا حسن علي الشافعي اللكنوي، والشيخ إسحاق بن أفضل العمري الدهلوي المدفون بمكة المكرمة، والسيد محبوب علي الجعفري والسيد إسحاق بن عرفان البريلوي وخلقٌ كثير من العلماء .

ومِنْ أَعظم ما منَّ الله تعالى عليه أنه وُفِّق لترجمة القرآن الكريم وتفسيره في لغة أهل الهند ، وقد اعتنى بها العلماء ، واتَّفقوا على أنه معجزة من معجزات النبي ﷺ ، قال السيد الوالي في «مهرجهانتاب»: إن الشيخ عبد القادر رأى في المنام قبل أن يُوَفَّق لها أن القرآن نَزل عليه ، فحكاه لصِنْوِهِ عبد العزيز ، فقال له صنوه المذكور: إن الرؤيا حقٌّ ، ولكنَّ الوحي قد انقطع من زمن النبي ﷺ ، وتأويله أن الله تعالى يوفقك لخدمة القرآن بما لم تُسبق إليه ، فحصلت له تلك

(١) نزهة الخواطر: ج:٧.

المُبشّرة على صورة «مُوضح القرآن» ، ومن خَصائصه أنه اختار لغةً بحذاءِ لغةٍ قاربت بما حازت في العموم والخصوص والإطلاق والتقييد ، حتى إنها لا تجاوز عنها في مواردِ الاستعمال ، وتلك مَوهبة إلٰهية وكرامةٌ ربَّانية يختصُّ بها من يشاء .

وإنِّي سمعتُ ورويتُ «موضح القرآن» على جَدَّتي لأمي السيدة حميراء بنت السيد علَم الهدى الحسني النصير آبادي ، عن بنتِ الشيخ عبد القادر ، من أبيها المصنِّف رحمه الله .

وكانت وفاتُه يومَ الأربعاء لتسعَ عشرةَ خَلَوْن من رجب سنة ثلاثين ومئتين وألف بدهلي؛ فدُفن عند والده ، وكان الشيخُ عبد العزيز ورفيع الدين لا يزالان على الحياة، فكان يوم موته من أَنحس الأيام عليهما ، وكانا يقولان عند دفنه : «إنا لا نَدفن الإنسان ، بل نَدفِن العِلمَ وَالعِرفان» .

ومِن عجائب الدهر ، أنَّه كان للشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي أربعةُ أبناء من بطن إرادة بنت السيد ثناء الله ، أكبرهُم عبد العزيز ، ثم رفيع الدين ، ثم عبد القادر ، وأصغرهم عبد الغني والد الشيخ إسماعيل الشهيد ، فماتَ أصغرهم عبد الغني أولاً ، ثم عبد القادر ، ثم رفيع الدين ، ثم أكبرهم عبد العزيز ، وكانوا كُلّهم من أَجِلاَّء العصر علماً وعملاً وإفاضة ، إلا الشيخ عبد الغني فإنه تُوفي في عنفوان شَبابه ، فوفَّق الله سبحانه ولَده إسماعيل المذكور أنَ يتدارك ما فات والده»(١) .

* * *

(١) نزهة الخواطر: ج: ٧.

ب ـ خلفاء الإمام الدِّهلوي العِظام

١ ـ الشَّيخُ محمد عاشق البُهْلَتِي:

الشيخُ العالم الكبير المحدِّث محمد عاشق بن عبيد الله بن محمد الصديقي البهلتي ، أحد كبار المشايخ ، يرجع نسبه إلى محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه بإحدى وعشرين واسطة ، اشتغلَ بالعلم من صباه ، ولازم الشيخ الأجل ولي الله بن عبد الرحيم العمري الدهلوي ، وكان ابنَ عمته ، فصحبه وأخذَ عنه العلم والمعرفة ، وسافر إلى الحرمين الشريفين معه سنة ثلاث وأربعين ومئة وألف ، فحجَّ وزارَ ، وشاركه في الأخذ والقراءة على أساتذة الحرمين ، أجلُّهم الشيخ أبو طاهر محمد بن إبراهيم الكردي المدني ، وأجازه الشيخ أبو طاهر المذكور ، فبلَغ رتبة لم يصل إليها أحدٌ من أصحاب الشيخ ولي الله المذكور ، في العلم والمعرفة ، وصار صاحب سِرِّ الشيخ كما عبَّر به الشيخ أبو طاهر في الإجازة ، فقال: إنه مرآةُ كماله وخَدينُ جَميل خِصاله ، انتهى ، وقال شَيخه ولي الله مخاطباً له:

تُحـدِّثني نَفسِي بـأنَّـك واصـلٌ إلى نُقطة قَضْـواءَ وسْـطَ المَـراكـزِ
وأنَّـك فـي تِيـكَ البـلادِ مُفخَّـمٌ بكفَّيـك يـومـاً كـلُّ شيـخٍ ونـاهـزِ

أَخذ عنه الشيخ عبد العزيز ، وصنوه رفيع الدين ، والسيد أبو سعيد البريلوي ، وخلق كثير ، ومن مصنفاته: «سبيل الرشاد» كتاب بسيط بالفارسية في السلوك .

ومنها «القول الجلي في مناقب الولي» كتاب في أخبار شيخه ولي الله .

ومنها شرح «دعاء الاعتصام» للشيخ ولي الله في الحقائق والمعارف.

ومن أعظم مآثره «تبييض المصفى شرح الموطأ» للشيخ ولي الله المذكور.

تُوفّي نحو سنة سبع وثمانين ومئة وألف، يظهر ذلك من كتاب الشيخ عبد العزيز إلى السيد أبي سعيد البريلوي[1].

٢ـ الشَيخ مُحمد أَمين الكَشْمِيري:

لقد كان الشيخ محمد أمين الكشميري من خُلفاء الإمام الأربعة[2] الكبار، الذين انتشرتْ دعوتُه وتعاليمُه على أيديهم.

يقول العلامة السيد عبد الحي الحسني في ترجمته في «نزهة الخواطر»:

«الشيخ العالم الكبير الشيخ محمد أمين الولي إلٰهي الكشميري نِجاراً، والدهلوي دَاراً، كان من أجلّة أصحاب الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم العُمري الدهلوي، ينتسب إلى شيخه ويُعرف بالنسبة إليه، وهو الذي أخذ عنه الشيخ عبد العزيز بنُ ولي الله بعد وفاة والده، كما صرَّح به الشيخ المذكور في «العجالة النافعة»، وفيه مفخرة عظيمة له، وقد صنَّف له الشيخ ولي الله بعضَ رسائله.

توفي نحو سنة سبع وثمانين ومئة وألف، يظهرُ ذلك في كتاب الشيخ

---

(١) نزهة الخواطر: ج: ١٧.

(٢) يقول الشيخ عبيد الله السندي في كتابه «التمهيد»: لا يتجاوز عدد من أدرك آراء الإمام الدهلوي ونظرياته بصورة متكاملة أربعة من أصحابه: ١ ـ ابن خاله الشيخ محمد عاشق الفلتي، ٢ ـ جمال الدين الشاه محمد أمين الكشميري، ٣ ـ الشيخ نور الله الدهلوي، ٤ ـ الشيخ أبو سعيد الحسيني البريلوي (انظر «شاه ولي الله أوران كي سياسي تحريك» (الإمام الدهلوي وحركته السياسية) للشيخ عبيد الله السندي، ص: ١٧٣ ـ ١٧٤). وقد جاء ذكر الأصحاب الثلاثة: الشيخ محمد عاشق، والشيخ محمد أمين، والشيخ أبو سعيد بتفصيل، أما الشيخ نور الله البرهانوي فقد كان من أخص تلامذة الإمام الدهلوي، وقد نال صيتاً ذائعاً في حياة الإمام الدهلوي، وقرأ عليه الشيخ عبد العزيز الدهلوي ـ الذي كان ختنه أيضاً ـ كتب الفقه، توفي قريباً من عام ١١٨٧ هـ.

عبد العزيز إلى الشيخ أبي سعيد بن محمد ضياء الحسني البريلوي ، الذي سافر للحج ووصل إلى مكة المباركة في ربيع الأول سنة ١١٨٧ هـ ، ورجع إلى الهند سنة ١١٨٨هـ ، كتَبه بعد رجوعه عن الحرمين الشريفين ، وأخبره بوفاة الشيخ محمد أمين»[١] .

وممَّا يدُلُّ على مكانة الشيخ محمد أمين الكشميري الخاصة لدى الإمام الدهلوي ، أنه توجد أربع رسائل في «كلمات طيبات» كتبها الإمام الدهلوي إليه ، وتحتوي على معارف وحقائق جليلة .

وقد كان للإمام الدهلوي ـ عدا هؤلاء الخلفاء الأربعة ـ خُلفاء آخرون ، لم نعثر على تراجمهم بالتفصيل ، كان منهم الحافظ عبد النبي المعروف بعبد الرحمن ، الذي كانت له ـ كما يبدو ـ صِلةٌ قوية بالإمام الدهلويّ[٢] .

٣ ـ السيِّد أَبو سعيد البَرِيلَوِيّ:

السيد الشريف أبو سعيد بن محمد ضياء بن آية الله ابن الشيخ الأجل عَلم الله النقشبندي البَرِيلَوِيّ ، أحد العلماء الربّانيين .

وُلِد ونشأ ببلدة راي بريلي ، وقرأ العلم على ملاّ عبد الله الأميتهوي ، ثم بايع عمه السيد محمد صابر بن آية الله النقشبندي ، واشتغل بأذكار القوم وأشغالِها مدة من الزمان ، ثم رحل إلى دلهي ولازم الشيخ ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي وأخذ عنه .

ولمَّا تُوفي الشيخ ولي الله تحسَّس في نفسه شيئاً ، فلازم صاحبه الشيخ محمد عاشق بن عبيد الله البهلتي ، وأخذ عنه ، وكتب له محمد عاشق المذكور الإجازة ، قال فيها : إن السيد التقي النقي ، العارف بالله الولي الحميد ، السيّد أبو سعيد كان قد صحب شيخنا الأجل ولي الله المحدث رضي الله عنه ، وأخذ عنه بعض أشغال الطريقة ، ومارسها وداوم عليها ، حتى انفتح عليه ببركة توجُّه

(١) نزهة الخواطر : جـ : ٦ ، ص : ٢٨٦ .

(٢) انظر مجلة «برهان» مقال مسعود أنور العلوي ، عدد سبتمبر وأكتوبر عام ١٩٨٣ م .

الشيخ بابُ أسرار اللطائف اليقينية البارزة منها والكامنة ، فظهرتْ عليه أحوالها وآثارُها ، وحصلَ له الشهود الذي عند القوم أتمّ المقصود.

ثم لمَّا انتقلَ الشيخ إلى دار الرضوان بدا له أن يأخذ مِن الفقير ما بقي من أشغال الطريقة النقشبندية والقادرية والجشتية ، وغيرها من طرق المشايخ الصوفية ، وأن يدخل في الطريقة بالطريق المتوارث بين الصوفية ، فلما رأيتُه مشغوفاً في ذلك أسعفتُ له المرام خوفاً من حديث الإلجام ، فلقنتهُ تلك الأشغال ، فلما شاهدتُ في آثارها وأوارها ووجدتُه متمكناً فيها أَجزته بعد الاستخارة لإرشاد الطالبين وتَسليك السالكين ، وأخذ البيعة في تلك الطرق جميعاً ، وألبسته الخِرقة الفقرية الفخرية إلباسَ إِنابة وإجازة ، كما أجازني وألبسني شيخنا الأجل ، وكما أجازني وألبسَني العارف بالله الشيخ عبيد الله بما وصل إليه من آبائه الكرام ومشايخه العظام.

وأيضاً أجزتُه لدرس التفسير والحديث والفقه والتصوف بعد المطالعة ومراجعة الشروح ، ودرس النحو والصرف.

وأيضاً أجزته لتصريف الآيات والأسماء وأعمال الشيخ في الحوائج المشروعة ، وأجزتُه لجميع ما في «القول الجميل في بيان سواء السبيل» ولجميع ما في «الانتباه في سلاسل أولياء الله» من الأشغال والأعمال.

والسَّيد أبو سعيد كان شيخاً جليلَ الوقار ، عظيم الهيبة ، كريمَ النفس ، مُسدي الإحسان ومُقري الضيفان ، سافرَ إلى الحجاز مع أصحابه ، ووصل إلى مكَّة المباركة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومئة وألف ، فسعد بالحج ، وسافر إلى المدينة المنورة ، وأقام بها ستة أشهر ، وسمع «المصابيح» على الشيخ أبي الحسن السِّندي الصغير ، وكان جالساً تجاه المرقدِ المنوَّر للنبي المطهر عن زيغ البصر «فرآهُ كأنه خرج من الحجرة المباركة ، وبدا كتفاه أولاً ، ثم ظهر له الجسد المطهَّر وجلس قُدَّامه وتبسم» قال صاحبُه الشيخ أمين بن الحميد الكاكوروي في رسالته: إن الشيخ أبا سعيد كان يقول: إني رأيتُ رسول الله ﷺ في المدينة المنورة بعين رأسي ، ثم رجع إلى مكة المباركة

وقرأ الجزَرية على الشيخ محمد ميرداد الأنصاري ، ورحل إلى الطائف ، ثم إلى الهند ، ودخل مدراس فأقام بها زماناً ، ورُزق حسن القبول في تلك الناحية وانتفعَ به الناس وأخذوا عنه ، منهم الشيخ الحاج أمين الدين بن حَميد الدين الكاكُوروي ، والشيخ عبدُ القادر الخالص بُوري ، والمير عبدُ السلام البدخشي ، والشيخ ميرداد الأنصاري المكي ، ومولانا جمال الدين بن محمد صديق قطب ، ومولانا عبد الله الأفندي ، والشيخ عبد اللطيف الحسيني المِصري وخلق آخرون ، مات في تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين وألف ببلدة رائي ، فدفن بها[١] .

* * *

---

(١) نزهة الخواطر: جـ: ٧.

ج ـ معاصروه الكبار
معاصر الإمام الدِّهلوي
الشيخُ المُصلِح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهَّاب

لقد كانَ الشيخُ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي الحَنبلي (١١١٥هـ ـ ١٢٠٦هـ ـ ١٧٠٣م ـ ١٧٩٢م) أحدَ المعاصرين الكبار للإمام الدِّهلوي والمصلحين العظام ، ومن علماء نَجْدٍ الممتازين وأصحاب الدعوة والعزيمة فيها ، فهو بالنَّظر إلى سنة ولادته يُقارب الإمام الدهلوي في سِنِّه [(١)] ، ولكنه بالنظر إلى سنةِ وفاتِه متأخرٌ عنه بثلاثين سنة ، ورغم هذه المعاصرة ، وكثير من الأمور المشتركة بينهما ؛ لم نعثر على معرفة الإمام الدهلوي به وتعرُّفه عليه ، فضلاً عن مقابلته ولقائه .

وقد كان الإمام الدهلوي سافر للحج عام ١١٤٣هـ ومَكث في الحجاز أكثر من عام واحد ؛ وهذه هي الفترة التي كانت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحركته فيها مُنحصرتين محدودتين في منطقة العُيَيْنَة والدِّرعية من نَجْد ، ولم يكنْ قد بايَعه الأمير محمد بن سعود ـ حينذاك ـ ولا وقعت بينهما اتفاقية على القيام بنشر هذه الدعوة وإقامة الحكومة على أساسها ومساندتها وتأييدها ، بل كانتْ هذه الاتفاقية عام ١١٥٨هـ التي أصبحتِ الدرعيةُ نتيجةً لها مركزاً لهذه الدعوة وعاصمة دينيةً لحكومتها .

وقد عُرِفت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز ، وكُتِب لها

---

(١) وُلد الإمام الدهلوي عام ١١١٤ هـ ولذلك فهو أكبر من الشيخ بسنة واحدة .

التأثير والنفوذ حين استولى آل سعود على مكة المكرمة عام ١٢١٨ هـ بعد وفاة الشيخ باثنتي عشرة سنة ، وبعد وفاة الإمام الدهلوي باثنتين وأربعين سنة .

وقد كانت دعوةُ الشيخ محمد بن عبد الوهاب وجهادُه وجُهوده العظيمة تدورُ حول الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والردّ على مظاهر الشرك ، واستئصال التقاليد والطقوس الجاهلية ـ التي كان لبعض مظاهرِها وشعائرها الظهور والانتشار ـ لبُعد العهد عن زمان النبوة ، والجهل العام ، وغَفلة العلماء في بعض القبائل والأماكن من المنطقة الشرقية في الجزيرة العربية(١) .

وتَدورُ حول توضيح الفَرْق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، وشَرح حقيقة التوحيد الذي طلبه الله تعالى من عباده ، ودعا القرآن الكريم إليه دعوةً صريحة واضحة ، وتنقيحِها .

وما حصل للشيخ في هذا الصدد من النجاح لا يوجدُ له نظير في الدعاة والمصلحين في العهود الماضية ، وإن كان ـ حسب ما يقول الدكتور أحمد أمين ـ يرجع ذلك ـ إلى حدٍّ كبيرٍ ـ إلى قيام حكومة (وهي الحكومة السعودية) على أساسها وتبنيها لهذه الدعوة ، وتشجيعها لها وإشرافها عليها (٢) .

ولكن ممَّا لا يقبل الجدل والاختلافَ أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قام ـ في هذا الصدد ـ بدور مصلحٍ ثوري عظيم ، ومهما خالفه بعض الناس في بعض أفكاره وآرائِه وأسلوبِه في عرض الدعوة ومنهجه ، ولم يوافقه مئة في المئة ؛ إلا أنه لا يمكن إنكارُ تأثير هذه الدعوة وفائدتها والحاجة إليها في تلك الظروف الخاصة .

وأمَّا ما يتعلَّق بتَوضيح عقيدة التوحيد وتنقيحها ، وإثباتِها بالقرآن الكريم ،

---

(١) انظر للتفصيل كتاب الأستاذ مسعود عالم الندوي «الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح المفترىٰ عليه»، وكذلك الكتب الأخرىٰ التي أُلِّفت في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهي كثيرة.

(٢) راجع «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» للأستاذ أحمد أمين.

وشَرح الفوارق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية ، فإنَّ هناك شبهاً كبيراً بين آراء الشيخ وتحقيقاته وبُحوثه ، وآراء الإمام الدهلوي وتحقيقاته وبحوثه ، وليس هذا إلا نتيجة الدراسة العميقة المباشرة للقرآن الكريم وتدبُّره ، والمعرفةِ الدقيقة الواسعة بالكتاب والسنة ، وهي التي أدت بشيخ الإسلام ابن تيمية في عصره ، وكبار الدعاة والمصلحين والعلماء والمحققين في عصورهم إلى نتائج مُشابهة متقاربة ، ودفعتهم إلى تبليغ التوحيد الخالص والدعوة الجريئة الواضحة إليه.

ولكنَّ دائرة أعمال الإمام الدهلوي الإصلاحية والتجديدية أوسعُ وأشمل من ذلك بكثير ، فإنها تضُمُّ بين جوانبها إحياءَ العلوم الإسلامية وتجديدَ الفكر الإسلامي ، والكشف عن أسرار الشريعة ومقاصدها ، والمأثرةَ العلمية لعرض التعاليم الدينية والشريعة الإسلامية في صورةٍ متناسقة شاملة ، ومقاومة الجهود والتحجر العلمي والعصبية الشديدة للمذاهب الفقهية ، والعمل الاجتهادي للتطبيق بين العقل والنقل ، والتوفيقَ بين المذاهب الفقهية الأربعة ، والمحاولات الجادَّة للحِفاظ على السلطة الإسلامية في الهند ، والدراسة العميقة للأحاديث النبوية الشريفة والجهودَ التجديدية لنَشرها وتعميمها ، والدعوة إليها ، والدعوةَ إلى تزكية النفوس وإصلاح القلوب ، والوصول إلى درجة الإحسان وتعليم طرقها ومناهجها ، وتربيةَ الرجال الأكفاء.

ومع كلِّ ذلك يتميَّز الإمام الدهلوي برقَّة وحنان ، وقُوةِ عاطفة كانت ـ على حد تعبير محمد إقبال الشعري ـ كوجُود ماء زمزم الرقيق الفيَّاض في أرض الحجاز الصلبة الحجرية ، وبذلك يَجمع بين صلابة عقيدة التوحيد وحَنان القلب ، وهو أثرٌ من آثار بيئة الإمام الدهلوي وتربيتِه الروحية الخاصة ، ويمكن أن نُشاهد أمثلته في قصائده ومدائحه النبوية على ممدوحها الصلاة والسلام.

ولذلك فإنَّه من المناسب أن تكون هناك دراساتٌ مقارنَة بين الإمام الدهلوي وبين شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية ، والبحثُ عن نقاط الاتفاق والاختلاف بينهما بدلاً من الدراسة المقارنة بين الإمام الدهلوي والشيخ محمد بن

عبد الوهاب ـ رغم جهوده العظيمة المشكورة ـ وتتبع نقاط التشابه والاتفاق بينهما ، لأنهما ـ أي المتقدمي الذكر ـ يبدو بينهما الشيء الكثير من وُجوه التشابه في تبحُّرهما العلمي وبلوغهما درجة الإمامة والاجتهاد في علوم الكتاب والسنة ، وسَعة النظر وعُمق التفكير وتنوُّع الأعمال الإصلاحية والتجديدية ، وعظَمة الشخصية وعبقريتها ـ وقد تقدمتْ إليها إشارات في مواضع متفرقة من الكتاب ـ رغم الاختلاف الطبيعي الذي هو نتيجة البيئة والتعليم والتربية ، واختلافِ العهد والمكان ، والسلوكِ والتربية الروحية الباطنية .

* * *



الفهارس العلمية

فهرس الآيات القرآنيّة

النساء (٤)

المائدة (٥)

الأنعام (٦)

الأعراف (٧)

التوبة (٩)

يوسف (١٢)

الرعد (١٣)

* * *

فهرس الأحاديث النبوية

* * *

فهرس الأمم والقبائل والجماعات

* * *

فهرس القوافي

القافية	اسم الشاعر	رقم الصفحة
أحبابُ	ـ	٤٢٨
فَسَدَ	ـ	٣٢٢
بواحِدِ	ـ	٦٨٣
سرورا	ـ	١٧٩
مسرورا	ـ	١٧٩
حمارُ	ـ	٢٦٦
بالأبصارِ	ـ	٢٨١
المراكزِ	ولي الله الدهلوي	٧١٨
ناهزِ	ولي الله الدهلوي	٧١٨
يتجرَّعُ	ـ	١٣٩ ، ٣١٧
المجامعُ	ـ	٣٧٢
مَشْرَعِ	رفيع الدين الدهلوي	٧١٥
تمنُّعِ	ابن سينا	٧١٥
كابُلِ	عبد العزيز الدهلوي	٧٠٠
أعظمُ	ـ	١١٨
لربعِكُمْ	أبو طاهر المدني	٤٨٤ ، ٥٥٠
رُهْبَانُها	عبد الله بن المبارك	٩٨
أعوانُ	ـ	٣١٨
حَسَنِ	صديق حسن خان القنوجي	٥٥١
مِنَنِ	صديق حسن خان القنوجي	٥٥١

* * *

فهرس الكتب الواردة في متن الكتاب

- ر -

- ف -

- ق -

- ي -

الكتب الأجنبية

* * *

فهرس الأعلام

- ر -

- ز -

- س -

- هـ -

- و -

- ي -

* * *

الأسماء الأجنبية

فهرس الأماكن والبقاع

ـ ص ـ

ـ ط ـ

ـ ع ـ

ـ غ ـ

ـ ف ـ

- م -

- ن -

- هـ -

* * *

فهرس الموضوعات

الجزء الثالث

الجزء الرابع

* * *